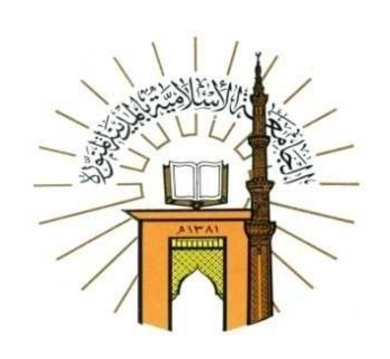
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
الجامعة الاسلامية بالمدينة النبوية
(٠٣٢)
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة



أعمال القلوب عند شيخ الإسلام ابن تيمية جمعا ودراسة

مشروع رسالة علمية مقدم لنيل درجة العالمية (الماجستير)

إعداد الطالب

غزمند مهمتي بن عمر

إشراف

فضيلة الشيخ أ.د : **محمد بن خليفة التميمي** – حفظه الله

العام الجامعي : ١٤٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٢.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ النساء: ١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[1].

فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هو أصل وفرع، أصله ما قام بالقلب وفرعه

---

[1] قطعة من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٣٥)، في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، دون «وكل ضلالة في النار»، وأخرج الحديث بهذه الزيادة النسائي في سننه (ص/٢٦٠) في كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة.

ما قام بالجوارح من الأعمال الظاهرة، فهما متلازمان في الصلاح والفساد، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يُضرب بها المثل لكلمة الإيمان، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ . تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ إبراهيم: ٢٤ - ٢٥ ، وهي كلمة التوحيد، والشجرة كلما قوي أصلُها وعروقها ورُوي، قويت فروعها، وفروعها أيضا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها»[1].

ويقول أيضا: «القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[2].

فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل، فالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد»[3].

ولذا كان لزاما على كل مسلم أن يعتني بإصلاح قلبه وتحليته بالعقائد الصحيحة والأخلاق الرفيعة، وتنقيته من العقائد الفاسدة والأخلاق الدنيئة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بداية «التحفة العراقية» مبينا أهمية أعمال القلوب وأنها أصل الدين: «فهذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي تسمى المقامات أو الأحوال، وهي

---

[1] مجموع الفتاوى (٥٤١/٧).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم في صحيحه (ص/٦٥١) كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

[3] مجموع الفتاوى (١٨٧/٧) باختصار.

من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك»[١]، ويقول أيضا: «أصل الدين في الحقيقة هي الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونه»[٢]، وتوضيح ذلك أن الأعمال كلها يشترط في قبولها الإخلاص لله ﷿، والإخلاص عمل قلبي، ولهذا كانت الأعمال القلبية واجبة على كل أحد، ولا يكون تركها محمودا في حال من الأحوال.

ثم إن العبودية التي خلقنا الله من أجلها وطلب منا القيام بها هي منقسمة إلى عبودية القلب واللسان والجوارح، ولكن أهمها عبودية القلب بل العبودية في الحقيقة هي عبودية القلب يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «عبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ولو أكره على تكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملكُ الناس، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»[٣].

ومما يدل على أهمية القلوب وأعمالها أن موضع نظر الرب سبحانه وتعالى هو القلوب كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[٤]، وبهذا

---

[١] التحفة العراقية (ص/٢٨٩)

[٢] نفس المصدر (ص/٣٠٨)

[٣] العبودية (ص/٦٨)

[٤] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

يتفاضل الناس فيما بينهم كما قال تعالى:﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣ ، والتقوى إنما هي في القلب كما قال النبي ﷺ: «التقوى ههنا»، وأشار إلى صدره ﷺ[(١)].

ثم إن أعمال الجوارح إنما تعظم وتكبر بحسب ما يقوم بالقلب، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعليقا على قصة البغي: «فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعَله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامُهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له، قال تعالى:﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الحج: ٣٧، فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به، ولكن يناله تقوى القلوب»[(٢)].

فإذا تبين هذا فلنعرف أن علماء المسلمين كتبوا في هذا الموضوع قديما وحديثا، فمنهم من كتب بحق ومنهم من كتب بخلاف ذلك، لكن من أحسن من تكلم وكتب في هذا الموضوع هو شيخ الإسلام ومفتي الأنام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله الذي له جهود عظيمة في توضيح أعمال القلوب وبيان أهميتها وتقرير مسائلها، وفي الرد على المفاهيم الخاطئة المتعلقة بها من بعض الفرق كالمرجئة والصوفية وغيرهم.

وكلامه رحمه الله في هذه المسائل من أمتن الكلام وأبينه، ومن أحسنه وأجمله – كما هي عادته في المسائل الأخرى – وهو مبثوث في كتبه ومتفرق فيها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٢) منهاج السنة (٦/٢٢١-٢٢٢).

ولأهمية الموضوع نفسه من جهة، ولأهمية كلام شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الموضوع من جهة أخرى أحببت أن أكتب بحثا بعنوان «أعمال القلوب عند شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ودراسة» بجمع ما تفرق من كلامه وبضم النظير إلى نظيره، الأمر الذي يحصل معه إيضاح المسألة وتقريبها وتكميل صورها وبيان أحكامها، ويكون هذا البحث أطروحتي لنيل الدرجة العالمية (الماجستير) في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية.

أسباب اختيار الموضوع:

- إن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تقعيدات وتأصيلات هامة جدا في هذا الباب مبثوثة في كتبه، واستخراجها وجمعها في موضع واحد مما لا تخفى أهميته.
- وجود رسائل عديدة تبين جهود شيخ الإسلام في مختلف أبواب الاعتقاد كالتوحيد بأنواعه الثلاثة، والقضاء والقدر، والإمامة وغيرها، ولا توجد في حدود علمي رسالة متخصصة تبين جهوده رحمه الله في توضيح المسائل المتعلقة بأعمال القلوب، فأحببت أن أكتب في هذا الموضوع وأسهم في إبراز جهوده في باب من أبواب الاعتقاد.
- قد سبق أن سجلت رسالة في توضيح أعمال القلوب عند الإمام ابن القيم رحمه الله، فأردت أن يكون موضوعي مستكملا لما قامت به الباحثة[1] لإبراز جهود الإمامين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في هذه المسألة.
- الموضوع بذاته يعد نافعا جدا في إصلاح القلب ومعالجة أمراضه التي لا يسلم منها إلا من رحمه الله، وطلبة العلم والباحثون في أبواب الاعتقاد أحوج الناس إلى ذلك.
- إن الكتابة فيه، فيها إبراز لشيء من جهود سلفنا الصالح في هذا المجال، تلك الجهود التي تعرضت للإنكار بدعوى أن المتصوفة هم الوحيدون الذين بحثوا وكتبوا فيه.
- الرغبة الشديدة التي أجدها في نفسي لقراءة كتب شيخ الإسلام رحمه الله، وذلك لما تميز به رحمه الله من القوة في الاستدلال والبراعة في الاستنباط، ولما أرجوه لنفسي من الفائدة في حياتي العلمية والعملية.

---

(1) وفاء بنت زيد العزيري.

الدراسات السابقة

لم أقف في حدود بحثي واطلاعي على رسالة جامعية تناولت جهود شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مسألة أعمال القلوب بالجمع والدراسة، وذلك من خلال فهرس مركز الملك فيصل للبحوث، وسؤالي بعض المختصين.

وقد تقدم أن العلماء كتبوا في هذا الموضوع كثيرا، منهم من كتب عن هذا الموضوع ضمن كتب أخرى مثل كتب التفسير والحديث وهذا أكثر، ومنهم من أفرد بالتأليف وهم أقل، وأيضا من الذين أفردوا بالتأليف أكثرهم ليس من أهل السنة[1]، ولا شك أن من أحسن من كتب في هذا الموضوع هو شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله تعالى-، بل كل من تكلم بعدهم في هذا الموضوع هم عيال على شيخ الإسلام وابن القيم، وأنا لن أذكر هنا كل ما كتب في هذا الموضوع، ولكن سأقتصر على ذكر ما وقفت عليه من الرسائل الجامعية:

- **الأولى:** «أعمال القلوب وأثرها في الإيمان» رسالة مقدمة من الباحث محمد دوكوري بن محمد، لنيل درجة الدكتوراة في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في قسم العقيدة.

- **الثانية:** «أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم» رسالة مقدمة من الباحث سهل بن رفاع بن سهيل الروقي العتيبي لنيل درجة الدكتوراة في كلية التربية بجامعة الملك سعود بقسم الدراسات الإسلامية شعبة العقيدة، والرسالة مطبوعة.

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في التمهيد: المبحث الثاني؛ نبذة مختصرة في جهود العلماء في موضوع أعمال القلوب.

– **الثالثة:** «أعمال القلوب عند الإمام ابن القيم، جمع ودراسة» رسالة مقدمة من الباحثة وفاء بنت زيد العزيري لنيل درجة الماجستير في كلية التربية بجامعة الملك سعود بقسم الدراسات الإسلامية شعبة العقيدة.

وكذلك وقفت على كتيب صغير للشيخ سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، عنوانه «**أعمال القلوب عند شيخ الإسلام**»، وهو كتيب صغير لا يتجاوز عدد صفحاته ٥٦ صفحة، وهو مع قلة عدد الصفحات هوصغيرالحجم أيضا، ولكن قال مؤلفه في آخره: «**وإني لآمل أن يكون ما جمعته وقربته من كلامه حافزا لدراسات أعمق وأشمل لإظهار جهود هذا الإمام وغيره من السلف في هذا الجانب المهم**» (الخاتمة/٥٢).

فهذه الدراسات لم تتناول جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة بالبحث الخاص، ومن المعلوم أن إبراز جهود إمام من الأئمة في مسألة ما شيء زائد على مجرد الاستدلال ببعض كلامه في تقرير تلك المسألة.

بالإضافة إلى هذا، فإن رسالتي هذه تكون من قبيل بعض الدراسات التي قدمها الإخوان في إبراز جهود شيخ الإسلام في بعض أبواب العقيدة، مثل: جهوده رحمه الله في توحيد الألوهية، وعدة رسائل في الأسماء والصفات، وفي القضاء والقدر وغيرها، مع العلم أنه كتبت رسائل في هذه الموضوعات عموما.

خطة البحث

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

المقدمة: وتشتمل على ما يلي:

- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.
- الدراسات السابقة.
- خطة البحث.
- منهج البحث الذي سرت عليه.
- كلمة شكر وتقدير.

التمهيد: وفيه مبحثان :

المبحث الأول: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

المبحث الثاني: نبذة مختصرة في جهود العلماء في التأليف في موضوع أعمال القلوب.

الباب الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها، ومنزلتها من الإيمان عند شيخ الإسلام، وفيه فصلان:

الفصل الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: تعريف الإيمان وحقيقته.

المبحث الأول: التعريف بالقلب وقوله وعمله.

المبحث الثاني: أنواع أعمال القلوب.

المبحث الثالث: العلاقة بين أعمال القلوب.

المبحث الحادي عشر: الاستعانة.

المبحث الثاني عشر: الاستعاذة.

المبحث الثالث عشر: التوبة.

المبحث الرابع عشر: التقوى.

المبحث الخامس عشر: الزهد.

المبحث السادس عشر: الورع

المبحث السابع عشر: الذكر.

المبحث الثامن عشر: الشكر.

المبحث التاسع عشر: الحياء.

الفصل الثاني: تفاضل أعمال القلوب، وأسبابه، ودرجات الناس فيها، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تفاضل أعمال القلوب.

المبحث الثاني: أسباب تفاضل أعمال القلوب.

المبحث الثالث: درجات الناس في أعمال القلوب.

الباب الثالث: المخالفون في أعمال القلوب، والرد عليهم من كلام شيخ الإسلام، وفيه فصلان :

الفصل الأول: موقف الصوفية من أعمال القلوب، والرد عليهم، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: التعريف بالصوفية وببعض مصطلحاتهم.

المبحث الأول: مذهبهم في أعمال القلوب.

المبحث الثاني: ذكر شبهاتهم.

المبحث الثالث: الرد عليهم.

الفصل الثاني: موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: التعريف بالمرجئة وأقسامهم.

المبحث الأول: مذاهبهم في أعمال القلوب.

المبحث الثاني: ذكر شبهاتهم.

المبحث الثالث: الرد عليهم.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

الفهارس: وهي كالتالي:

- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الأعلام.
- فهرس الفرق والطوائف
- فهرس الكلمات الغريبة.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

منهجي في البحث

- جمع المادة العلمية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
- التأصيل العلمي ومحاولة نقل كلام شيخ الإسلام من كتبه، مع محاولة حصر كلامه في هذا الموضوع قدر المستطاع.
- الاجتهاد في نقل أقوال المخالفين من كتبهم المعتمدة، إلا إذا تعذر علي الرجوع إليها، فحينئذ أنقل بالواسطة.
- طريقتي في دراسة أعمال القلوب يتمثل في النقاط التالية: التعريف المختصر بالأعمال، وذكر الأدلة عليها من الكتاب والسنة، وذكر أقسامها وأنواعها وشروطها، كل هذا بحسب ما أجد من كلام لشيخ الإسلام رحمه الله.
- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من القرآن الكريم بذكر اسم السورة ورقم الآية، وكتابتها بالرسم العثماني.
- تخريج الأحاديث الواردة في البحث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما أو إلى أحدهما، وإن كان في غيرهما أخرجه من كتب السنة المعتبرة، مع الإشارة إلى درجة الحديث صحة وضعفا من كلام أهل العلم.
- تخريج الآثار الواردة في البحث قدر الاستطاعة.
- ترجمة للأعلام غير المشهورين الوارد ذكرهم في البحث ترجمة موجزة.
- شرح الكلمات الغريبة مع توثيقها من مصادرها المعتبرة.
- تعريف بالفرق والطوائف والبلدان والأماكن الواردة في البحث.
- مراعاة علامات الترقيم، وقواعد الإملاء، وضبط بعض الكلمات التي تحتاج إلى الضبط
- وضع الفهارس في آخر البحث كما هو موضح في آخر الخطة.

كلمة شكر وتقدير

الحمد الله أولا وآخرا، وباطنا وظاهرا على ما يسّر وأعان على إتمام هذا البحث، فله الشكر والثناء على نعمه الجسيمة وآلائه العظيمة، وما كان في هذه الدراسة من صواب وحق وخير فمن الله وحده، وأحمد الله عليه، وما كان فيه من خطأ أو خلل أو تقصير فمن نفسي والشيطان، وأنا تائب منه، وراجع عنه، شاكرا لمن دلّني عليه.

وبعد شكري لأهل المجد والثناء، أشكر كل من له فضل علي في إتمام هذا البحث من مشايخي وأصحابي وزوجتي، فلهم جميعا مني الذكر الحسن، والثناء الجميل، والدعاء الذي أرجو به أن يوفيهم حقّهم.

وأخص بالشكر الجزيل، والثناء العطر الجميل، ذلك الأساس الراسخ والصرح العلمي الشامخ المشعّ من الجامعة الإسلامية، أعني: قسم العقيدة في كلية الدعوة وأصول الدين، فمني لهذا القسم ولأهل العلم والفضل فيه كل شكر وامتنان وتقدير، وشكر خاص متجدد لمشرف هذه الرسالة فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور: محمد بن خليفة التميمي – حفظه الله تعالى- على فضله وعلمه وطيب معشره الذي عايشته طيلة فترة هذه الرسالة، فشكر الله له وجزاه عني كل خير.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى صاحبي الفضيلة: الشيخ الدكتور/ عبد القدر عطا صوفي والشيخ الدكتور/ سعود بن عبد العزيز الدعجان – حفظهما الله تعالى- اللذان قبلا مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، فجزاهما الله عني كل خير، وبارك فيهما.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل هذا الجهد فهو جهد المقل، كما أسأله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومن يطلع عليه، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

التمهيد.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

المبحث الثاني: نبذة مختصرة في جهود العلماء في التأليف في أعمال القلوب

المبحث الأول

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية.

تالله لا يعرف حق هذا الرجل إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره، فمن وقع دينُ الرسول ﷺ من قلبه بموقع يستحقه، عرف مترلة هذا الرجل وما قام به بين أظهر عباد الله، فهذا العلَم الشهير، والعالِم الكبير، والبطل النحرير، (أعظم من أن يصفه كَلِمي، أو ينبه على شأنه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن توضع في مجلدتين)[١].

فإن شيخ الإسلام ابن تيمية أشهر من أن يُعرَّف به لشهرته الواسعة كما قال الحافظ ابن حجر: «شهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام من عصره باقٍ إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غداً كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره أو تجنب الإنصاف»[٢].

وقد أُلفت في سيرته قديماً وحديثاً أسفار كثيرة، منها المصنفات المفردة[٣]، ومنها ما هو في ثنايا كتب التواريخ والسير ونحوها[٤]، ودُرست حياته في أطروحات علمية متنوعة

---

[١] العقود الدرية (ص/٤٠).

[٢] تقريظه على الرد الوافر، وهو ملحق بالرد الوافر طبعة المكتب الإسلامي (ص/246).

[٣] وقد استقرأ الباحث محمد بن إبراهيم الشيباني ما أُلِّفَ عن ابن تيمية – في سيرته ومناقبه رحمه الله وحياته العلمية – من مصنفات في القديم والحديث فبلغ ستين كتاباً، انظر: «أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص/١٩٤-٢٠٠).

[٤] وقد قام بتتبع مصادر ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية من كتب التواريخ والسير ونحوها الباحثان علي بن محمد العمران ومحمد عزير شمس، فبلغ عدد هذه الكتب ثمانيةً وستين كتاباً، انظر : الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص/٧٢-٨٢).

وممن كتب عن شيخ الإسلام من الأقدمين ترجمة مستقلة (على سبيل التمثيل لا الحصر).

- الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للحافظ عمر بن علي البزار.
- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للحافظ ابن عبد الهادي.

لجميع النواحي العلمية لديه رحمة الله عليه[1]، فإنه ذو شخصية بارزة مشهورة لا تخفى على كثير من العامة فضلاً عن العلماء وطلاب العلم، ولذلك سأكتفي بترجمة موجزة لأهم جوانب سيرته.

أولا: اسمه ونسبه.

هو الإمام الحافظ الفقيه المحدث المفسر، ناصر السنة وقامع البدعة، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية[1] الحراني ثم الدمشقي.

- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، لمرعي بن يوسف الكرمي.
- الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، لابن ناصر الدين الدمشقي.

أما التراجم غير مستقلة فكثيرة منها (على سبيل التمثيل لا الحصر).

- ذيل العبر في خبر من غبر، دول الإسلام، معجم الشيوخ، تذكرة الحفاظ، كلها للذهبي.
- البداية والنهاية، لابن كثير.
- الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني.
- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، لخير الدين بن محمود الألوسي الحنفي.

وكتب المعصرون عن شيخ الإسلام كثيرا، منهم الشيخ أبو زهرة، ومحمد كرد علي، ود. عمر فروخ، والشيخ محمد خليل الهراس، وأبو الحسن الندوي وغيرهم.

[1] وقد ذكر الباحث محمد بن إبراهيم الشيباني أن عدد أبحاث وندوات حول أعمال ابن تيمية قد بلغ ٩٦ كتابة، وهذا قبل سنة ١٤١٠هـ انظر: «أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص/٢٠٠-٢١٥)، وأما الآن أكثر فأكثر. فالرسائل الجامعية فقط حتى سنة ١٤٢٣هـ قد بلغ عددها أكثر من ١٧٠ رسالة كما تتبع ذلك الباحث عثمان بن محمد الأخضر شوشان في رسالته «دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام ابن تيمية».

ثانيا: مولده.

ولد يوم الاثنين عاشر، وقيل ثاني عشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ببلدة حران[٢]، وبقي فيها إلى أن بلغ سبع سنين، ثم انتقل والده به وبإخوته إلى دمشق هربا من التتار.

ويحدثنا ابن عبد الهادي عن قصة سفر آل تيمية إلى دمشق، وحرصهم على العلم، ومحافظتهم على الكتب، فيقول: «فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة؛ لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به، فنجوا وسلموا، وقدموا دمشق سنة ٦٦٧هـ»[٣].

ثالثا: نشأته.

ترعرع ابن تيمية في دمشق في بيئة علمية صالحة، فجده[٤] فقيه أصولي ذو باع واسع في الحديث والتفسير والقراءات، ووالده[١] صاحب معارف شتى وعلوم مختلفة، وله ثلاثة إخوة[٢] اشتهروا بالعلم والفضل.

---

(١) إنما سمي شيخ الإسلام وأبناء هذه الأسرة «بآل تيمية»، لأن جدهم محمد بن الخضر حج على درب «تيماء»، فرأى فيها طفلة جميلة، فلما رجع إلى دمشق وجد امرأته قد ولدت بنتا، فقال: يا تيمية، يا تيمية، تشبيها لبنته بها، فأطلق على أبنائها: بنو تيمية، وقيل: إن جده محمد بن الخضر، كانت أمه تسمى تيمية، وكانت واعظة، فنسب إليها وعرف بها، انظر: العقود الدرية (ص/١٨).

(٢) هي مدينة مشهورة من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي الآن في شمال شرق تركيا، وقد كانت آنذاك معهد العلم والعلماء، وكانت من قبل من أهم مراكز الديانات القديمة، انظر: معجم البلدان (٢/٢٣٥).

(٣) العقود الدرية (ص/١٨-١٩).

(٤) وهو مجد الدين عبد السلام بن عبد الله من العلماء الأعلام، ولد سنة ٥٩٠ هـ وتوفي سنة ٦٥٢ هـ، قال عنه الذهبي: «وكان إماما كاملا معدوم النظير في زمانه، رأسا في الفقه وأصوله، بارعا في الحديث ومعانيه، وله اليد الطولى في معرفة القراءات والتفسير»، معرفة القراء الكبار (٢/٦٥٤).

وكان لهذا الجو العلمي تأثيره على شخصيته العلمية، بالإضافة إلى ما وهبه الله من حافظة قوية، وسرعة بديهة، وذكاء مفرط، قال البزار: «قد خصه الله بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالباً إلا ويبقى على خاطره إما لفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره»[٣]، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئا فينساه[٤]، وكذا الجد والاجتهاد والانصراف التام إلى طلب العلم وتحصيله، فلا

---

[١] وهو شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام، ولد سنة ٦٢٧ هـ وتوفي سنة ٦٨٢ هـ، قال عنه الذهبي: «ذو الفنون ... صار شيخ حران وحاكمها وخطيبها بعد موت والده»، العبر في خبر من غبر (٣٤٩/٣)، وقال ابن كثير: «مفتي الفرق، الفارق بين الفرق، كانت له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة، وكان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه، ووَلِيَ مشيخةَ دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان مسكنُه»، البداية والنهاية (٥٩٢/١٧).

[٢] وهم :

أخوه لأمه، بدر الدين أبو القاسم محمد بن خالد الحراني، ولد تقريباً سنة ٦٥٠ هـ وتوفي سنة ٧١٧ هـ، وكان عالما فقيها إماما، تولى التدريس في المدرسة الحنبلية مدةً نيابةً عن أخيه شيخ الإسلام، انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٤٢١/٤)، وشذرات الذهب (٨٣/٨).

وشقيقه، زين الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم، ولد سنة ٦٦٣ هـ وتوفي سنة ٧٤٧ هـ، وكان زاهداً عابداً، كما كان تاجراً، حبس نفسه مع أخيه شيخ الإسلام في الإسكندرية ودمشق محبة له وإيثاراً لخدمته، ولم يزل عنده للتلاوة والعبادة إلى أن مات الشيخ، انظر: البداية والنهاية (٤٩٠/١٨)، والدرر الكامنة (٣٢٩/٢)، وشذرات الذهب (٢٦٢/٨).

وشقيقه شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم، ولد سنة ٦٦٦ هـ وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، قال الشيخ كمال الدين الزملكاني: «هو بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو والأصول، ملازم لأنواع الخير وتعليم العلم»، ولما كان تقي الدين مسجوناً في القلعة ذهب مع أخيه إلى مصر وناظر خصومه وحده فانتصر عليهم، انظر: العقود الدرية (ص/٣٧٩)، وذيل طبقات الحنابلة (٤٨٢/٤)، وشذرات الذهب (١٣٦/٨).

[٣] الأعلام العلية (ص/٢٢).

[٤] الذيل على طبقات الحنابلة (٤٩٥/٤).

يلهو لهو الصبيان ولا يعبث عبثهم، قال البزار: «ولم يزل إبَّان صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد»[1]، وهذا مما عجَّل ظهورَ النجابة عليه منذ حداثة سنه.

ولا عجب أن ينبغ الفتى ابن تيمية، فقد وفر الله العليم الحكيم له عوامل النبوغ ومؤهلاته: وراثة طيبة عميقة الجذور بعيدة الأصول سامقة الفروع، وبيئة علمية أوفت على الغاية، وقوى علمية بلغت حد العجب والإعجاب، وتوفيق من الله تعالى، وبركة في الوقت حتى صار فريد عصره، ووحيد دهره، وإمام زمانه.

قال ابن عبد الهادي: «سمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مراتٍ وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث وقرأ ونسخ، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن وأقبل على الفقه وقرأ العربية ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالا كليا حتى حاز فيه قصب السبق وأحكمَ أصول الفقه وغير ذلك، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه»[2]، وقال الذهبي: «نشأ في تصون تام وعفاف وتأله وتعبد واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده - وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم - فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره وبَعُدَ صيته في العالم»[3].

---

[1] الأعلام العلية (ص/٢١).

[2] العقود الدرية (ص/١٩).

[3] نفس المصدر (ص/٢٠-٢١).

وقال بعض قدماء أصحابه، وقد ذكر نبذة من سيرته: «أما مبدأ أمره ونشأته، فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء، راشفا كؤوس الفهم، راتعا في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، خصوصا علم الكتاب العزيز والسنة النبوية ولوازمها، ولم يزل على ذلك خلفا صالحا سلفيا متألها عن الدنيا صَيِّنا تقيا برا بأمه ورعا عفيفا عابدا ناسكا صواما قواما، ذاكرا لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجاعا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكلّ من البحث، وقلّ أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله، مقصوده الكتاب والسنة»[(١)].

رابعا: صفاته الخَلْقية والخُلُقية.

كان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوريَ الصوت، فصيحاً، سريع القراءة، تعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح، إليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة[(٢)].

فإنه – مع كثرة انشغاله بجهاد أهل البدع والضلالات، والرد عليهم، وتأليف الرسائل في بيان ضلالهم – كان كثير الاستغفار، نقل عنه أنه قال: إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليّ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح

[(١)] نفس المصدر (ص/٢١).

[(٢)] الذيل على طبقات الحنابلة (٤/٥٠٩)

الصدر، وينحل إشكال ما أشكل، قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي[1].

وكان من صفاته الكرم والإيثار، قال أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري: «وكان يجيئه من المال في كل سنة ما لا يكاد يحصى فينفقه جميعه آلافاً ومئين، لا يلمس منه درهماً بيده، ولا ينفقه في حاجة له، وكان يعود المرضى، ويشيع الجنائز، ويقوم بحقوق الناس، ويتألف القلوب»[2].

ومن صفاته التواضع والبساطة مع عوام الناس، قال تلميذه الحافظ البزار: «وأما تواضعه، فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والغني الصالح والفقير، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرا لقلبه، وتقربا بذلك إلى ربه»[3].

ومن صفاته أنه رحمه الله كان رحيما بالمسلمين، شفيقا عطوفا عليهم، يلتمس حاجاهم ويقضي أمورهم، بل أبعد من ذلك يعفو عمن ظلمه، ويسامح من عاداه.

ومن جملة ما ذكر من حلمه: ما نقل عنه أن سلطان مصر الناصر ابن قلاوون[4] استقدم الشيخ ابن تيمية عنده ورحب به، ثم أخرج له من جيبه فتاوى لبعض علماء مصر الذين أفتوا بقتله، واستفتاه السلطانُ في أن يقتل بعضهم ممن زوروا على ابن تيمية وأفتوا في

---

(١) العقود الدرية (ص/٢١-٢٢).

(٢) مسالك الأبصار (مخطوط) نسخة ايا صوفيا، المكتبة السليمانية باستانبول برقم ٣٤١٨، (نقلاً عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون ٣٢٣).

(٣) الأعلام العلية (ص/٤٨).

(٤) هو السلطان الملك الناصر، أبو الفتح محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي، توفي سنة ٧٤١هـ، ودفن على والده بالمنصورية، انظر: العبر (١٢٤/٤)، والبداية والنهاية (٤٢٤/١٨).

قتله، قال الشيخ ابن تيمية: «ففهمت مقصود السلطان ابن قلاوون وعلمت أن عنده حنقاً شديداً عليهم لأنهم كانوا قد خلعوه وبايعوا الجاشنكير[١]»، ويقول ابن تيمية: «فشرعت في مدح هؤلاء العلماء وشكرهم، وأنهم لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك»، فقال السلطان: «إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارا»، فقال ابن تيمية: «من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي»، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان [٢].

وقد شهد له بهذه السجية أعداؤه، يقول أحدهم[٣]: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرَّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقَدِرَ علينا فصفح عنا، وحاجج عنا»[٤].

أما زهده وعبادته وورعه، فالكلمات والحروف قاصرة عن بيان ذلك لاشتهار حاله، وظهوره للخاصة والعامة، فقد كان رباني العبادة، قريب القلب من ربه، سريع الدمعة رحمه الله، له جلد عجيب على العبادة، قلّ أن يطيقه غيره.

قال الحافظ البزار: «أما تعبده ﷺ فإنه قلّ أن سمع بمثله، لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما يُراد له، لا من أهل ولا من مال.

وكان في ليله متفردا عن الناس كلهم، خاليا بربه رحمه الله، ضارعا مواظبا على تلاوة القرآن العظيم، مكررا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية، وكان إذا ذهب الليل وحضر مع

---

(١) هو بيبرس بن عبد الله، الملك المظفر ركن الدين بيبرس البرجي المنصوري الجاشنكير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وعتقائه، وتنقل في الخدم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية. توفي سنة ٧٠٩هـ، انظر المنهل الصافي (٣/٤٨٤)، والبدر الطالع (١/١١٣).

(٢) انظر القصة : البداية والنهاية (١٨/٩٣-٩٥)، والعقود الدرية (ص/٢٩٨).

(٣) وهو القاضي علي بن مخلوف المالكي، ولد سنة ٦٣٤ هـ، وتوفي سنة ٧١٨، انظر: الدرر الكامنة (٣/١٢٧).

(٤) البداية والنهاية (١٨/٩٥).

الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام»[١].

خامسا: ثناء العلماء عليه ومكانته العلمية.

كان ابن تيمية إماماً مجتهداً نبغ في علوم شتى كالعقيدة والحديث والفقه والتفسير واللغة.

قال الحافظ أبو الفتح اليعمري [٢] يصف نبوغ ابن تيمية وسعة علمه: «أَلْفَيْتُه ممن أدرك من العلم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنِّحل والملل لم ير أوسع من نِحْلَتِه في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأتْ عينُه مثلَ نفسِه»[٣].

وقال أبو الحجاج المزي: «ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رايت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه»[٤]،

وقال العلامة ابن الزملكاني[١]: «كان إذا سئل عن فن من العلم ظنَّ الرَّائِي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن»[٢]، ويقول في الثناء على ابن تيمية [٣]

---

[١] الأعلام العلية (ص/37).

[٢] وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، فتح الدين، أبو الفتح اليعمري الشافعي الحافظ العلامة الأديب المشهور، صاحب كتاب السيرة المشهور «عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، ولد في ذي القعدة سنة ٦٧١ وتوفي سنة ٧٣٤، انظر: الدرر الكامنة (٢٠٨/٤).

[٣] أجوبة ابن سيد الناس اليعمري عن سؤالات ابن أبيك الدمياطي (٢٢١/٢) تحقيق د.محمد الراوندي، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب.

[٤] طبقات علماء الحديث (٢٨٣/٤).

ماذا يقول الواصفون له :: وصفاته جلَّتْ عن الحَصْرِ
هو حجةٌ لله قاهرة :: هو بيننا أعجوبَة الدهر
هو آيةٌ في الخلق ظاهرةٌ :: أنوارُها أربتْ على الفَجْرِ

وقال الذهبي: «فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت: أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه»[٤].

وقد سئل الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد عن ابن تيمية بعد اجتماعه به كيف رأيته؟، فقال: «رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء»[٥].

وقال الشيخ عماد الدين الواسطي[٦]: «فوالله، ثم والله، ثم والله، لم يرَ تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علماً وعملاً وحالاً وخلقاً واتباعاً، وكرماً وحلماً، وقياماً في

---

(١) هو كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان الشافعي بن زملكاني، ولد سنة ٦٦٧هـ وتوفي سنة ٧٢٧هـ، قال ابن كثير: «شيخنا...شيخ الشافعية بالشام وغيرها، انتهت إليه رئاسة المذهب تدريساً وإفتاءً ومناظرةً»، انظر: البداية والنهاية (٢٨٦/١٨)، وطبقات الشافعية ١٩٠/٩ وشذرات الذهب (١٤٠/٨-١٤١).

(٢) شذرات الذهب (١٤٤/٨).

(٣) نقل ابن كثير عن الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه قولَه ((وجدتُ بخط ابن الزملكاني أنه قال: «اجتمعتْ فيه شروط الاجتهاد على وجهها.. »، وكتب على تصنيف له هذه الأبيات))، وهذه الأبيات كتبها ثناءً على ابن تيمية وكان عمر ابن تيمية إذ ذاك نحو الثلاثين سنة (البداية والنهاية ٢٩٨/١٨)، ثم نزغ الشيطان بينهما فصار يعادي شيخ الإسلام، وكان له مصنفات في الرد على ابن تيمية في مسألة الزيارة والطلاق. قال ابن كثير «وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متولياً أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية، فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده فتوفي... »، قال ابن كثير «فعجلته المنية قبل وصوله إليه» انظر: البداية والنهاية (٢٨٦/١٨-٢٨٨)

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٤٩٧/٤).

(٥) شذرات الذهب (١٤٦/٨).

(٦) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن، الشيخ الإمام القدوة عماد الدين بن العارف شيخ الحزامية الواسطي الشافعي، نزيل دمشق. وتفقه وتأدب، وكتب الخط المنسوب، وتجرد، ولقي المشايخ وتزهد، وصنف في السلوك

حق الله تعالى عند انتهاك حرماته، وأصدق الناس عقداً، وأصحهم علماً وعزماً، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً، وأسخاهم كفاً، وأكملهم اتباعاً لنبيه محمد ﷺ. ما رأينا قي عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة»[1]

فمناقب ابن تيمية أكثر من أن تستوعبها هذه الترجمة المختصرة، وكما قال ابن حجر: «ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف، لكان غايةً في الدلالة على عظم مترلته»[2].

سادسا: جهاده ومحنه.

الكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ، فإنهم عرفوه عالمًا ومؤلفًا ومفتيًا، من خلال مؤلفاته المنتشرة، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرى عديدة ساهم فيها مساهمة قوية في نصرة الإسلام وعزة المسلمين.

ولقد تميزت حياة شيخ الإسلام رحمه الله بهذه الميزة العظيمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، فقد جاهد بالسيف وحرضّ المسلمين على القتال بالقول والعمل، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى، مع أعظم الفرسان الشجعان، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكا[3] عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو.

والمحبة، وشرح منازل السائرين، واختصر السيرة لابن إسحاق، ودلائل النبوة، وتوفي سنة ٧١١هـ، انظر: المنهل الصافي (١/٢١٠).

[1] شذرات الذهب (٨/١٤٦).

[2] تقريظه على الرد الوافر (ص/٢48).

[3] عكا: هو اسم موضع على ساحل بحر الشام، انظر: معجم البلدان (٤/١٤١).

قال ابن عبد الهادي: «وأما شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال.

فقلد أقامه الله في نوبة غازان[1]، والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين، وبقَطلوشاه وببولاي[2]، وكان قَبْجَق[3] يتعجب من إقدامه وجرأته على المغُول...

ما فعله الشيخ رحمه الله في نوبة غازان من جميع أنواع الجهاد، وسائر أنواع الخير: من إنفاق الأمول، وإطعام الطعام، ودفن الموتى، وغير ذلك معروف مشهور.

ثم بعد ذلك بعام، سنة سبعمائة لما قدم التتار إلى أطراف البلاد، وبقي الخلق في شدة عظيمة، وغلب على ظنهم أن عسكر مصر قد تخلوا عن الشام، ركب الشيخ وسار على

---

[1] قازان؛ هو ملك التتار، وحادثة قازان: في سنة ٦٩٩هـ جاء التتار في هجمة من هجماتهم المتوالية إلى الشام، وهزموا عساكر الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي جاء على رأس جنده من مصر، فهرب جند مصر، ولحقهم جند الشام، وصار التتار على أبواب دمشق، وفرّ منها العلماء والأعيان عدد كبير، إلا شيخ الإسلام فقد وقف موقف الأبطال في هذه الظروف، واستطاع أن يجمع بعض أعيان البلاد واتفق معهم على ضبط الأمور فيها.

ثم سار شيخ الإسلام إلى ملك التتار «قازان» لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فكلمه كلاما قويا شديدا، فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين، وقد أكرم الله شيخ الإسلام لإخلاصه وقوة إيمانه بقذف الرعب والهيبة في قلب ذلك الملك الظالم، فانصاع لطلبات الشيخ، وأعلن الأمان لأهل دمشق، وحقنت بسببه دماء المسلمين وأعراضهم وممتلكاتهم، انظر: البداية والنهاية (٨/١٤).

[2] قطلوشاه وبولاي: نائبا ملك التتار «قازان» في دمشق.

[3] شقحب: قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق، ووقعة شقحب معركة جرت بيت المسلمين والتتار في شهر رمضان عام ٧٠٢ هـ، وانجلت المعركة بهزيمة التتار، ونصر الله المسلمين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، انظر: العقود الدرية (ص/١٧٥) وما بعدها، والبداية والنهاية (١٣/١٤) وما بعدها.

وقول ابن عبد الهادي: «كان قَبْجَق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغُول»، يريد الذين شهدوا معركة شقحب.

البريد إلى الجيش المصري في سبعة أيام، ودخل القاهرة في اليوم الثامن: يوم الإثنين حادي عشر جمادي الأولى، وأطلاب المصريين داخلة، وقد دخل السلطان الملك الناصر، فاجتمع بأركان الدولة، واستصرخ بهم وحضهم على الجهاد، وتلا عليهم الآيات والأحاديث، وأخبرهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب، فاستفاقوا وقويت هممهم، وأبدوا له العذر في رجوعهم، مما قاسوا من المطر والبرد منذ عشرين، ونودي بالغزاة، وقوي العزم، وعظموه، وأكرموه، وتردد الأعيان إلى زيارته»[1].

فما زال يحرض الناس على القتال، ويسوق لهم الأدلة الواردة على ذلك، وينهاهم عن الإسرار في الفرار، ويرغبهم في الإنفاق في سبيل الله للذب عن المسلمين وعن بلادهم وأموالهم، ويبين أن جهاد التتر واجب متحتم.

وخرج إلى الجنود وثبتهم، وربط من جأشهم، ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء، وكان يحلف رحمه الله للأمراء والناس بأنكم منصورون في هذه الكرة، فيقولون له، قل؛ إن شاء الله، فيقول؛ إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا، وكان يتأول في ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ الحج: ٦٠ [2].

حين فراغ شيخ الإسلام من جهاد العدو الخارجي، أقبل على تغيير المنكر الموجود داخل صفوف المسلمين، ويذكر لنا ابن القيم كسره للأصنام والأماكن التي كانت تعظم من دون الله تعالى، فيقول:«وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب، فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين، كالعمود المخلق، والنصب الذي كان بمسجد التاريج عند المصلى يعبده الجهال، والنصب الذي كان تحت الطاحون، الذي عند مقابر النصارى، ينتابه الناس للتبرك به، وكان صورة صنم في نهر القلوط ينذرون له ويتبركون به،

---

[1] العقود الدرية (ص/١٣٤-١٣٥).

[2] البداية والنهاية (١٤/١٦).

وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده، ويتبرك به المشركون وكان عمودا طويلا على رأسه حجر كالكرة، وعند مسجد درب الحجر نصب قد بنى عليه مسجد صغير يعبده المشركون يسر الله كسره»[١].

ومع علمه وجهاده وورعه وزهده وتقواه، فإنه رحمه الله كان مجتهدا باذلا نفسه لخدمة أمته، معرضا نفسه للأخطار والآفات في سبيل ربه، ثم في سبيل نهضة أمته التي طال رقادها بسبب البدع والمحدثات التي خيمت على عقول كثير من الأمة، وما كان رحمه الله محبا للشهرة، ولا راغبا في التميز بالشواذ والغرائب، بل كان همه وهدفه الحق أينما كان، ومهما كان ثمنه.

قال الحافظ البزار: «فإنه رضي الله عنه ليس له مُصنَّف، ولا نص في مسألة، ولا فتوى، إلا وقد اختار فيه ما رجحه الدليل النقلي والعقلي على غيره، وتحرى قول الحق المحض، فبرهن عليه بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة، بحيث إذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يثلج قلبه بها، ويجزم بأنها الحق المبين.

وتراه في جميع مؤلفاته إذا صح الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه، ويقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد.

وإذا نظر المنصِف اليه بعين العدل يراه واقفا مع الكتاب والسنة، لا يميله عنهما قول أحد كائنا من كان، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحدا، ولا يخاف في ذلك أميرا ولا سلطانا ولا سوطا ولا سيفا، ولا يرجع عنهما لقول أحد وهو متمسك بالعروة الوثقى»[٢].

ورغم اتصافه بالعبادة والزهد والتقوى والإنصاف والتمسك بالكتاب والسنة، إلا أن أهل البغي لم يرتدعوا عن بغيهم وظلمهم وافترائهم على شيخ الإسلام[١]، بل حشدوا رعاع

---

[١] إغاثة اللهفان (٣٨٨/١).

[٢] الأعلام العلية (ص/69).

الناس من أهل الخرافات والأهواء ضده، وخاصة من يتاجرون بمراقد ومقايد الأموات، ويجنون من العامة والبسطاء الأموال الكثيرة، فاستمالوا الأمراء الذين يعظمون الخرافة ويعمرون المقابر ويخربون العمران، وكذبوا على شيخ الإسلام عند بقية الناس وألبوا السلطان عليه حسدا من عند أنفسهم.

ثم تسببوا في سجنه مرات وكرات، وهم لا يرضون إلا بقتله بعد أن كفروه، وأهدر بعضهم دمه، فسجن عدة مرات، ثم جاء سجنه الأخير الذي مات فيه، فأرادوا أن يمعنوا في إيذائه وهو مسجون، فقاموا بمنعه من الكتابة ليوقفوا كلمة الحق، حيث صادروا منه أقلامه

---

(١) ومن المحن التي ابتلي بها شيخ الإسلام:

– **محنته بسبب الفتوى الحموية**، وقد ذكر فيها شيخ الإسلام معتقد أهل السنة والجماعة في الصفات، فادعى خصومه أنه ذكر فيها ما أفسد عقائد عوامهم، وقد حصلت بذلك مناظرات بينه وبين خصومه، وانتهت بالاعتراف للشيخ بأنه على حق.

– **محنته حول ما كتب في الواسطية**، حيث اتهم الشيخ بسوء العقيدة، فعقدت مجالس ومناظرات لمساءلة الشيخ عن معتقده، وانتهت تلك المناظرات ببراءته وإعادته إلى منصبه.

– **محنته مع الصوفية (الرفاعية)**، وهي المناظرة المشهورة التي جرت بين شيخ الإسلام ومشائخ هذه الطريقة أمام السلطان (في مسألة؛ أنه لهم أحوال باطنة لا يوقف عليها، أي لهم الباطن ولغيرهم الظاهر، وأن لهم أمورا لا يقف أهل الظاهر عليها، فلا ينكرون عليهم، مثل دخولهم النار)، وقد بين فيه الشيخ باطلهم، ورد على شبهاتهم، وكشف حيلهم التي يلبسون بها على الناس.

– **محنته بسبب فتواه في الطلاق**، مما ترجح لدى الشيخ في مسألة الطلاق عدُ الثلاث بكلمة واحدة طلاقا رجعيا، وقد منع الشيخ من الإفتاء بذلك، لكنه لم يستجب؛ لأنه يرى أنه لا يسعه كتمان العلم، وقد عقد له مجلس عوتب فيه وحكم بسجنه، ثم أخرج منه بعد أكثر من خمسة أشهر.

– **محنته بسبب فتواه في شد الرحال إلى القبور**، وهي من أعظم الفتن التي مرت على الشيخ وعلى أتباعه، وقد كذب فيها على الشيخ وحرف كلامه، وأوذي بعض تلاميذه وأتباعه فيها، وسجن بسببها، وكان من أشد المصائب عليه، وبقي فيه إلى أن مات رحمه الله.

وكتبه، ووضعوه في زنزانة مظلمة أضرت ببصره، وكانت مصادرة الأوراق والأقلام أشد شيء عليه، فحرموه من كل شيء حتى من الكتابة.

قال ابن عبد الهادي: «فلما كان قبل وفاته بأشهر، ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله، ولم يبق عنده كتاب ولا ورقة ولا دواة ولا قلم، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم، وقد رأيت أوراقا عدة بعثها إلى أصحابه وبعضها مكتوب بفحم»[(١)].

ومع ما كان فيه من ضيق وضنك، كان لا يفتر عن التحدث بنعم الله عليه، فكان يكتب لأصحابه وتلاميذه بحمد الله وشكره والثناء عليه، ومن ذلك آخر رسالة كتبها إلى بعض أصحابه، جاء فيها: «ونحن ولله الحمد والشكر في نعم عظيمة تتزايد كل يوم، ويجدد الله تعالى من نعمه نعما أخرى، وخروج الكتب كان من أعظم النعم، فإني كنت حريصا على خروج شيء منها لتقفوا عليه، وهم كرهوا خروج الأخنائية (أي: كتابه الذي رد فيه على الأخنائي)، فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق.

فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس، فإذا ظهرت: فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يذله الله ويخزيه»[(٢)].

ثم قال: «والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت، وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا، ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد، والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يوسف: ١٠٠، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن

---

(١) العقود الدرية (ص/٣٧٩-٣٨٠).

(٢) نفس المصدر (ص/٣٨٢-٣٨٣).

سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ النساء: ٧٩، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائما على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[(١)].

سابعا: وفاته.

كان محبوسًا في قلعة دمشق، وكان يقول: «لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة»، وكان يقول: «المحبوس من حبس قلبُه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه»، ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ الحديد: ١٣[(٢)]. قال ابن القيم: «وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيمِ، بل ضدِّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيبِ الناس عيشا وأشرحِهم صدراً وأقواهم قلباً وأسرِّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوةً ويقيناً وطمأنينةً»[(٣)].

مكث الشيخ في القلعة من شعبان سنة ٧٢٦ هـ، ثم إنه مُنع من الكتابة والتصنيف في يوم الاثنين تاسع عشر جماد الآخرة سنة ٧٢٨ هـ، ولم يُتْرك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر. وقد قرأ بعد أن مُنع من الكتابة إلى أن توفي

---

(١) العقود الدرية (ص/٣٨٣).

(٢) الوابل الصيب (ص/١٠٩).

(٣) نفس المصدر (ص/١٠٩-١١٠).

ثمانين ختمة وشرع في الحادية والثمانين فانتهى فيها إلى آخر سورة القمر: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ القمر: ٥٤ - ٥٥ [(١)]، وتوفي في سحر ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ بقلعة دمشق.

ثم أخرج من القلعة فشهده خلق لا يحصون، وكان يومًا مشهوداً لم يُعهد بدمشق، ولم يتخلف عن حضور جنازته إلا القليل من الصغار والضعفاء، ولم يتخلف أحد من أهل العلم إلا ثلاثة أنفس اشتهروا بمعاداته خوفاً على أنفسهم بحيث أنهم علموا متى خرجوا قُتلوا وأهلكهم الناس[(٢)]، وحُزِرَ الرجال بستين ألفاً إلى مائتي ألف، والنساء بخمسة عشر ألفاً، وظهر بذلك قول الإمام أحمد: «بيننا وبين أهل البدع الجنائز»[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «ولو لم يكن من الدليل على إمامة هذا الرجل إلا ما نبَّه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي[(٤)] في تاريخه : أنه لم يوجد في الإسلام من اجتمع في جنازته لما مات ما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين. وأشار إلى أن جنازة الإمام أحمد كانت حافلة جداً شهدها مئات ألوف ولكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير من كان ببغداد أو أضعاف ذلك لما تأخر أحد منهم عن شهود جنازته. وأيضا فجميع من كان ببغداد إلا الأقل كانوا يعتقدون إمامة الإمام أحمد، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت إذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم، بخلاف ابن تيمية فكان أمير البلد حين مات غائباً، وكان أكثر من بالبلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه حتى مات محبوساً بالقلعة. ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور

---

(١) البداية والنهاية (٣٠٠/١٨)، والذيل على طبقات الحنابلة (٥٢٥/٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣٠١/١٨).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٥٢٧/٤)

(٤) هو القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي علم الدين أبو محمد الإشبيلي الحافظ الكبير المؤرخ، أحد الأربعة الذين لا خامس لهم في هذه الصناعة. وتوفي في جمادى الآخرة سنة خمس وستين وستمائة، ومات محرِمًا في خليص في رابع ذي الحجة سنة ٧٣٩هـ، انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٣٨١/١٠).

جنازته والترحم عليه والتأسف عليه إلا ثلاثة أنفس تأخروا خشية على أنفسهم من العامة. ومع حضور هذا الجمع العظيم فلم يكن لذلك باعث إلا اعتقاد إمامته وبركته، لا بجمع سلطان ولا غيره، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: "أنتم شهداء الله في الأرض"[١]...»[٢].

وقد صدق شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري حيث قال في كتابه مسالك الأبصار: «ولم يخلف بعده ما يقاربه في العلم والفضل»[٣].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢١٩) في كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، ومسلم في صحيحه (ص/٣٦٨) في كتاب الجنائز، باب في من يثني عليه خير أو شر من الموتى.

[٢] تقريظه على الرد الوافر (ص/246).

[٣] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٢٧/٥٤٠).

المبحث الثاني

نبذة مختصرة في جهود العلماء في التأليف في موضوع أعمال القلوب

إن الإيمان ومسائله من أهم المسائل في العقيدة الإسلامية، إذ هو لب العقيدة وجوهرها وهو الذي يترتب عليه الفلاح والسعادة الدنيوية والأخروية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ العصر: ١ – ٣.

ولهذه الأهمية والمكانة السامية للإيمان اهتم علماء الإسلام بمسائله، فلم يخل ديوان من دواوين الإسلام الكبرى من بحث لمسائل الإيمان التي منها موضوع الأعمال القلبية.

لكن البحث عن تأريخ التأليف والتدوين في أعمال القلوب الذي هو من أشرف العلوم لا يختلف عن أي علم آخر من العلوم الشرعية، فعند نزول الوحي على رسول الله ﷺ المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية التي قال الله فيها: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ النجم: ٣ - ٤، بين الله في آيات كثيرة من القرآن الكريم القلوب وأعمالها؛ كالصدق والإخلاص والتوكل والصبر والمحبة والرضا والخوف والرجاء وغير ذلك، وكذلك السنة النبوية بينت هذه الأعمال القلبية بيانا شافيا، ويتضح هذا كثيرا فيما يأتي عند الكلام عن أعمال القلوب وبيانها من الكتاب والسنة.

ثم بعد عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين دونت السنة النبوية، ثم بعد ذلك بدأ التأليف والتدوين في بعض العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه...إلخ.

أما التدوين عن القلوب وأعمالها تدوينا مستقلا شاملا لأغلب الأعمال القلبية، ومبينا مسائلها وعلاقتها بالإيمان وتزكية النفوس منفصلا عن الكتاب والسنة ومفردا في كتب

مخصصة، فإنا لا نعرف أنه دُوّن على هذه الصفة قبل القرن الثالث الهجري، ولعل بدايته المؤصلة الثابتة كانت في القرن الرابع الهجري.

وأنا لا يهمّني – هنا – بيان ظهور التصانيف والدواوين في هذا الموضوع على النحو التسلسلي التأريخي، بل الذي أريد إيضاحه هو بيان المسالك التي سلكها المصنفون في هذا الموضوع، الأمر الذي يُظهر لنا براعة علماء الإسلام في التدوين، إذ هم رحمهم الله لم يكتفوا بأسلوب واحد في إيراد المسائل والمعلومات، بل في كل عصر وزمان كانوا يبحثون عن طريقة لإيصال المعلومة إلى المهتمين – هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يتجاوبون مع حاجة الناس ومتطلباتهم، الأمر الذي يدل على تفاعلهم مع الأحداث وعدم استسلامهم أمام تحديات الحياة.

ومن خلال مطالعتي القاصرة تبين لي أن علماء الإسلام سلكوا في تدوين هذا العلم ثلاثة مسالك.

المسلك الأول: الكتب التي تكلمت عن أعمال القلوب ضمنا.

تقدم معنا أنه بعد عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين دونت السنة النبوية، ثم بعد ذلك بدأ التأليف والتدوين في بعض العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه والعقيدة...إلخ

فنجد – مثلا – معظم أصحاب كتب الحديث بوّبوا أبوابا في هذا الموضوع، فالإمام البخاري رحمه الله في صحيحه أفرد كتابا للإيمان، ضمنه عدة أبواب أورد فيها الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة التي وردت في بيان الإيمان وأركانه ومسائله، ومن هذه الأبواب تبويبه للأعمال القلبية التي هي أصول الإيمان، منها: **باب**: حب الرسول ﷺ من الإيمان، **وباب**: الحياء من الإيمان، وفي كتاب الرقاق: **باب**: الخوف من الله ﷿، **وباب**: الرجاء مع الخوف، **وباب**: الصبر عن محارم الله، **وباب**: من يتوكل على الله فهو حسبه.

وكذلك نجد مسلما رحمه الله في صحيحه أفرد كتابا للإيمان، ضمنه عدة أبواب أورد فيها الأحاديث النبوية الصحيحة التي وردت في الإيمان وأركانه ومسائله، ومن هذه الأبواب تبويبه للأعمال القلبية، منها: **باب**: الدليل على أن من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي والكبائر، **وباب**: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحب هذه المحبة، **وباب**: صدق الإيمان وإخلاصه، وفي كتاب البر والصلة والآداب: **باب**: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، وفي كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار: **باب**: الحث على ذكر الله، **وباب**: التعوذ من شر الفتن وغيرها.

وكذلك فعل أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم من أصحاب كتب الحديث رحمهم الله، إما يعقدون كتابا مستقلا للإيمان يجمعون فيه الأحاديث التي وردت في الإيمان وأركانه ومسائله على أبواب، ومنها أبواب في أعمال القلوب، وأيضا يبوّبون أبوابا أخر في بعض الأعمال القلبية في شتى الكتب من مصنفاتهم، وإما يوردون أبوابا في أعمال القلوب في كتب مختلفة من مصنفاتهم من دون إفراد كتاب مستقل للإيمان.

وكذلك نجد أصحاب كتب التفسير قد تكلموا عن الآيات التي تبين هذه الأعمال القلبية.

وكذلك بعض أصحاب كتب الإيمان الذين درسوا بعض مسائل معينة من الإيمان، ومن هذه المسائل تركيزهم في بحوثهم على ذكر شعب الإيمان وأدلتها.

من هؤلاء ابن منده رحمه الله الذي نهج في كتاب الإيمان[1] نهج المحدثين، حيث يذكر العنوان العام ثم يورد الآيات والأحاديث والآثار المطابقة له مسندة، وقد يعلق عليها موضحا

---

[1] والكتاب مطبوع في مجلدين، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أ.د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الناشر: دار الفضيلة – الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ.

وجه الدلالة منها، وقد تكلم في هذ الكتاب عن مسائل هامة في الإيمان، من بيان تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وتوضيح أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وبيان زيادة الإيمان ونقصانه، وبيان أن الإيمان يتكون من شعب، منها شعب قلبية، ومنها شعب قولية، ومنها شعب فعلية، وقد بوّب أبوابا لعدة الأعمال القلبية.

ومن هذه الكتب أيضا، المنهاج في شعب الإيمان للحليمي[1]، فكتابه قد اشتمل على تعريف الإيمان، والقول في زيادته ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه وغيره من مسائل الإيمان، ثم ذكر شعب الإيمان، وقد أورد سبعة وسبعين بابا وشعبة، أورد الآيات والأحاديث غير مسندة، ويلاحظ عليه نهج منهج المتكلمين في إيراد المسائل، وفي طريق بحثها أحيانا.

وكذلك البيهقي في كتابه الجامع لشعب الإيمان[2]، فإنه استفاد من الحليمي، حيث وضعه على نظام كتاب الحليمي في الترتيب والتبويب، إلا أنه أفاض في المسائل أكثر منه، وأسند الأحاديث والآثار التي أوردها، وغلب عليه طابع أهل الحديث، مما رفع من قيمة كتابه وجعله من أهم المصادر في سرد شعب الإيمان وفي جمع أحاديثها وترتيبها.

والغرض من ذكر هذه النماذج، من كتب الحديث وكتب العقيدة، والإشارة إلى كتب التفسير هو بيان أن هذه الكتب من أوائل الكتب التي تناولت موضوع أعمال القلوب، لكن ذلك كان ضمن موضوعات أخرى و لم تكن مستقلة.

---

[1] والكتاب مطبوع، حققه: حلمي محمد فوده، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.

[2] والكتاب مطبوع، حققه وراجه نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

المسلك الثاني: كتب أفردت في عمل من أعمال القلوب.

والمسلك الآخر في التدوين في أعمال القلوب هو ما نهجه بعض الأئمة من إفراد كتب ورسائل في بعض الأعمال القلبية، مثل الذين كتبوا في الزهد كابن المبارك والإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله.

ولعل من أشهر المتقدمين الذين كتبوا في هذ الموضوع ابن أبي الدنيا رحمه الله، فهو رحمه الله قد أفرد معظم كتبه في شعبة واحدة من شعب الإيمان، وهي عبارة عن رسائل فيها، ومنها: التوكل، والتوبة، والحلم، والزهد، والصبر، والشكر، واليقين وغيرها، إلا أن منهجه هو منهج المحدثين، حيث يذكر النصوص بأسانيدها، ويعلق عليها أحيانا، وقد يأتي بأبيات شعرية رقيقة تركز المعنى في النفس.

وقد سلك هذا المسلك في بعض المؤلفات شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، إذ نجد لهم كتبا ورسائل مستقلة في بعض الأعمال القلبية، مثل: قاعدة في المحبة،، وقاعدة في الصبر والشكر، ورسالة في التوكل، ورسالة في التوبة، ورسالة في الشكر، كلها لشيخ الإسلام رحمه الله.

ومثل: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، والوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم.

وقد نهج شيخ الإسلام وابن القيم في هذه الكتب والرسائل منهج من قبلهما من الأئمة في الاستدلال على المسائل بنصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف، إلا أنهما يضيفان مسائل هامة فيها، من بيان صلة هذه الأعمال القلبية بالإيمان، وبيان قيمة هذه الأعمال وأثرها في حياة المسلم، وكذلك الرد على المتصوفة الذين خاضوا فيها بأذواقهم ومواجيدهم، موضِّحَيْن أن السلوك الصحيح يجب أن يعتمد على الكتاب والسنة، وأن أي سلوك لا يعتمد عليهما إنما هو سلوك شيطاني، لا يؤدي إلى صفاء قلب صاحبه ولا إلى هدايته إلى الصراط المستقيم.

واستمر الأمر بالتأليف على هذا المسلك إلى عصرنا الحاضر، فنجد كتبا ورسائل مستقلة في بعض الأعمال القلبية، مثل: المحبة والتوبة والصبر والخوف والرجاء والإخلاص وغيرها، إلا أن منهج المعاصرين مختلف، فبعضهم استمر على منهج العلماء السابقين في إيراد الأقوال والمسائل في هذا الموضوع مع ربطها بالأدلة من الكتاب والسنة، ومع إبراز – إلى حد ما – صلة هذه الأعمال بالإيمان، ومنهم من نهج منهج علماء علم النفس الحديث، فعالجوا موضوع الأعمال القلبية على أساس كونها ظواهر نفسية، أو أخلاقا من الأخلاق الإسلامية التي يجب على المسلم التخلق بها، مع المقارنة بين المنهج الإسلامي لدراسة الأخلاق ووسائل اكتسابها وبين المناهج الأخرى المبنية على النظريات المادية.

المسلك الثالث: كتب في أعمال القلوب.

وقد برزت إلى جانب هذه الكتب – التي سبق ذكرها – كتب أخرى سلك أصحابها مسلكا آخر في تناول الأعمال القلبية، إذا تناولت هذه الكتب أعمال القلوب – عموما – بصفة مباشرة، وأبرزت جوانب مهمة منها، إلا أنه يلاحظ على كثير منها احتواؤها على الكثير من مصطلحات الصوفية وشطحاتهم، إلى جانب احتوائها على بعض البحوث القيمة.

ولعل من أهم الكتب التي تناولت أغلب الأعمال القلبية في مؤلَّف واحد[1]، كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتاب «منازل السائرين» للهروي، وكتاب «إحياء

---

[1] وليس مقامنا هنا استقراء الكتب التي كتبت في هذا الموضوع، بقدر ما هو إعطاء فكرة سريعة عما نظن أنه أهم ما صنف في هذا المجال.

كذلك ليس غرضنا بيان أول من صنف في هذا الموضوع، إلا أنه من أوائل ما ظهر من المؤلفات التي وصلت إلينا في أعمال القلوب هي كتب الحارث المحاسبي؛ «الرعاية لحقوق الله ﷻ»، و «المسائل في أعمال القلوب والجوارح».

علوم الدين» للغزالي، وكتاب «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» لشيخ الإسلام، وكتاب «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم[(١)].

وسوف نستعرض هذه الكتب - بإيجاز - فنبرز مضمونها ومنهجها لتنكشف أهميتها ودورها وأثرها في هذا الموضوع.

الكتاب الأول: «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد»[(٢)] للشيخ أبي طالب المكي، فقد تضمن الكتاب في ابتدائه من الآي والأحاديث الشي الكثير مما يعين على الذكر والورد المندوب، وجمع من الأدعية الشي الكثير، كما تكلم عن القلوب، واعتبر كل فصول الكتاب قوتا لهذه القلوب، وقد تكلم فيه أيضا عن العلم ومكانته، وفرق بين علماء الدنيا والآخرة وذم علماء السوء.

كما تكلم في بعض أبواب الكتاب عن المقامات والأحوال وأعمال القلوب بأسلوب طويل مسهب، ومع كونه من أكثر المشايخ اعتصاما بالكتاب والسنة، (لكنه يذكر فيه أحاديث كثيرة ضعيفة..، ويذكر أحيانا عبادات بدعية من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد وغيرهما، وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب، كلما جفَّ نقص الأكل، وذكروا صلوات الأيام والليالي، وكلها كذب موضوعة، ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئا من الخيالات الفاسدة وليس هذا موضع بسط ذلك)[(٣)].

---

(١) في التعريف بهذه الكتب استفدت من كتاب «طب القلوب لشيخ الإسلام» لعجيل جاسم النشمي، الناشر: دار الدعوة- الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م.

(٢) والكتاب مطبوع في مجلدين، راجعه: سعيد نسيب مكارم، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧م.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٤٠٣-٤٠٤).

الكتاب الثاني: «**منازل السائرين**» لأبي إسماعيل الهروي، وقد قسم الهروي كتابه إلى منازل بلغت مائة مترلة، وجعل لكل مترلة معنى يناسب العامة، ثم ما يناسب خاصة المؤمنين، ثم خاصة الخاصة.

ولقد ألف الإمام ابن القيم كتابه «مدارج السالكين» على هذا الكتاب، وقد تابع الهروي في كل منازل كتابه، ولعل أهمية كتاب الهروي تكمن في أنه يعد من العلماء الموثقين عند علماء السلف، قال عنه ابن القيم: «وصاحب المنازل رحمه الله كان شديد الإثبات للأسماء والصفات مضادا للجهمية من كل وجه»[1]، ويقول عن علمه؛ إن في كلامه ما (يدل على رسوخ الشيخ في العلم ووقوفه مع السنة وفقهه في هذا الشأن)[2].

ورغم ذلك التوثيق إلا أن كتاب المنازل لم يسلم من بعض الشطحات التي يرجى مغفرتها لما عرف من الشيخ من حسن السريرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول ابن القيم عن زلاته هي (من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ)[3].

وكان قصد الإمام ابن القيم من تصنيف كتابه «مدارج السالكين» هو التنبيه والرد على ما وقع من الهروي من الأخطاء.

---

(1) مدارج السالكين (١٩٨/١).

(2) نفس المصدر (١٦٢/٣)

(3) نفس المصدر (٣٠/٢).

الكتاب الثالث: «**إحياء علوم الدين**»[1]، لأبي حامد الغزالي، وقد أسس الغزالي كتابه على أربعة أرباع: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات وصدر الكتاب بكتاب العلم.

ويشتمل كل ربع منها على عشرة كتب، وقد خصص ربع المهلكات والمنجيات للكلام على ما يتعلق بالقلب والآداب والأخلاق، وجعل مدارها كلها سلامة القلب.

يقول شيخ الإسلام في جواب سؤال وجه إليه عن «قوت القلوب» و «إحياء علوم الدين، فقال رحمه الله:«وأما ما في الإحياء من الكلام في المهلكات؛ مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه. والإحياء فيه فوائد كثيرة؛ لكن فيه مواد مذمومة؛ فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمترلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه، وقالوا : مرضه الشفاء يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة، وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه – مع ذلك – من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه»[2].

الكتاب الرابع: «**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**» للإمام ابن القيم، وقد ألف ابن القيم كتابه هذا لتتبع كتاب «منازل السائرين» للهروي، وللتنبيه على

---

[1] وهو مطبوع، وبهامشه تخريج الحافظ العراقي لأحاديث الإحياء، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ٢٠٠٩مـ.

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٥٥١-٥٥٢).

أخطائه، ويزكي مواضع الصواب عنده خصوصا في قضايا التصوف المشهورة، ويرد على المبتدعة الذين يروجون عن الشيخ ما لا تحتمل عباراته، مستفيدين من مكانته العلمية فقد كان من علماء الحنابلة المعدودين، ويلقب بـــ «شيخ الإسلام».

لكن هذا المقصد لم يمنع الإمام ابن القيم من الشرح والاسترسال والزيادة على ما تحتمله عبارة الشيخ، بل اعتبر كلام الشيخ متنا وتناوله بالشرح المسهب، ومن هنا كانت أهمية الكتاب وما فيه من شروح وزيادات اكتسبت أهمية علمية عول عليها الدارسون والمحققون حتى يكاد كتاب الشيخ الهروي ينسى في هذا المضمار.

فتكلم ابن القيم عن هداية القرآن كلاما نفيسا وتعرض لاشتمال الفاتحة على المطالب العالية، واشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة، وعقد فصلا لمراتب الهداية الخاصة والعامة وجعلها عشرا، واشتمال الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان، وتكلم عن قواعد العبودية الخمسة عشرة، وأنها منقسمة على القلب واللسان والجوارح، ثم عقد فصلا لمنازل «إياك نعبد» وتكلم عن التوبة وما يتعلق بها، وعرض لمعاني الصغائر والكبائر واللمم ولمحقرات الذنوب... وتعرض لما يتاب منه وعدده اثنا عشر، وتكلم كلاما نفيسا عن آثار مفسدات القلب الخمسة وعددها، وسار مفصلا القول في كلام الهروي في المنازل مما يضيق بسطه.

أما الكتاب الخامس: فهو «**التحفة العراقية في الأعمال القلبية**» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو على صغر حجمه على درجة كبيرة من الشمول والإتقان، وفيه من حسن الاستنباط وقوة الحجة والاستدلال ما لا يستغرب وروده من شيخ الإسلام رحمه الله.

فعقد شيخ الإسلام هذا الكتاب لأعمال القلوب ويقصد بها ما يسمى بالمقامات والأحوال، وهي أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم،

والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.

وقد فصل هذا فبين أن المسلمين في أعمال القلوب على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات..، ثم بين الصدق والإخلاص والحلال والحرام والمشتبه، وشرح معنى حديث «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، كما بين معنى حق الله على عباده، وحق العباد على الله، ثم تكلم على الزهد، والصبر، والرضا، والجزع، والمحبة، وفصل في خصوص المحبة وبين مترع الفساد والذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وبين ما وقع فيه هؤلاء من فساد في الاعتقاد والأعمال.

ولا يقتصر ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على ما ذكر في التحفة العراقية، وما مرّ من ذكر بعض الرسائل المختصة في بعض الأعمال القلبية، وإنما له كلام نفيس جدا في هذا الباب لكنه مبثوث في كتبه، مثل «**العبودية**» و «**أمراض القلوب وشفاؤها**»، وقد جمعت **في المجلد المخصوص بعلم السلوك من مجموع الفتاوى**، ومادة هذا الكتاب جمعت بين شتات ما كتب شيخ الإسلام وأجاب وأفتى في أعمال القلوب وما يتعلق بالقلب من أمراض وأسقام تحتاج إلى شفاء.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى أمر، وهو؛ بالإضافة إلى ما مرّ ذكره من كتب شيخ الإسلام التي تناولت موضوع أعمال القلوب بصفة مباشرة، هناك كتب أخرى تناولت الأعمال القلبية بأساليب أخرى: من أهمها:

١. **كتاب الإيمان الكبير وكتاب الإيمان الأوسط** لشيخ الإسلام رحمه الله، وقد درس في هذا الكتاب جميع مسائل الإيمان تقريبا، ومن هذه المسائل بيانه منهج أهل السنة والجماعة في الإيمان، وأن للقلب قولا وعملا وأنهما بمجموعهما يسميان إيمانا، وأنه لا يكفي قول

القلب بدون العمل، وأن حقيقة أعمال القلوب هي الانقياد والاستسلام، إلى غير ذلك من المسائل.

٢. **قاعدة في توحيد الألوهية**، ومن الأصول التي صرف فيها رحمه الله وقته، وجلّ همّه تحقيق العبادة لرب العالمين، وفي هذه الرسالة اللطيفة المشتملة على فوائد جمة بين رحمه الله العبادة لله وحده ومفهومها، وأوضح وجوب الإخلاص لرب العالمين بتحقيق توحيد العبادة من التوكل والاستعانة والخوف والرجاء والدعاء والخشية والإنابة والتوبة والاستغفار، وكذلك الصلاة والزكاة والحج والصيام، إلا أن القلب هو الملك وما يقوم به هو الأصل، والجوارح تبع له.

٣. **الاستقامة**، لما كان الصوفية من أكثر الناس كلاما في أعمال القلوب، تارة بالحق وأغلبه بالباطل، ولما كان عمدة الأعمال محبة الله ورسوله، صار في بعض الصوفية من يطلب تحريكها بأنواع من السماع المحدث، فقد تناول شيخ الإسلام موضوع السماع عند الصوفية في هذا الكتاب بما يقرب من مائتي صفحة، وكذلك كلامهم في الرضا؛ أن المرءَ لا يسأل اللهَ الجنة ولا يستعيذ به من النار - لأن ذلك من كمال الرضا، فقد عقد فصلا كاملا في الرد على معتقدهم هذا.

وكذلك في مجموع الفتاوى له كتب عدة، ككتاب السلوك، وكتاب التفسير، وكتاب الحديث، وكتاب الفقه وغيرها من الكتب، يوجد فيها كلام لشيخ الإسلام في هذا الموضوع:

٤. ففي **كتاب التفسير** مثلا تكلم عن الاستعاذة بكلام جميل جدا، حيث بين الاستعاذة، وأنها تكون بالله فقط، ثم بين الأمور التي تستعاذ منها، وأوضح أن سورتي الفلق والناس قد انتظمتا جميع الشرور التي ينبغي الاستعاذة منها.

٥. وفي **كتاب الحديث** مثلا، شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» وبين معنى النية، وأن محلها القلب، وأن التلفظ بها بدعة، كما شرح النية الواردة في الحديث، ثم بين أقسام النية: وأنها تكون لتمييز العبادة عن العادة، ولتمييز العبادة عن العبادة وهو الذي يوجد في كتب الفقه ويذكره الفقهاء، والقسم الثاني: تمييز المقصود بالعمل، هل هو الله وحده لا شريك له أم غيره، إلى غير ذلك من الأمور[١].

ولعل ما تقدم من النماذج فيما كتب في هذا الموضوع عموما، وما كتبه شيخ الإسلام خصوصا دلالة على إسهام علماء المسلمين في الكتابة في هذا الموضوع، ورغبتهم في نشر العلم والخير، أملا في الثواب واحتساب الأجر.

---

[١] وما ذكرت من تفسير شيخ الإسلام لسورتي الفلق والناس، وشرحه لحديث «إنما الأعمال بالنيات»، هي بعض الأمثلة التي تبين أن لشيخ الإسلام رحمه كلاما في موضوع أعمال القلوب في غير مظانه، في كتب متفرقة له.




الباب الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها، ومنزلتها من الإيمان عند شيخ الإسلام.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها.

الفصل الثاني: منزلة أعمال القلوب من الإيمان.




الفصل الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها.

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: تعريف الإيمان وحقيقته.

المبحث الأول: التعريف بالقلب وقوله وعمله.

المبحث الثاني: أنواع أعمال القلوب.

المبحث الثالث: العلاقة بين أعمال القلوب.

التمهيد: تعريف الإيمان وحقيقته.

المطلب الأول

تعريف الإيمان وحقيقته

المسألة الأول: تعريف الإيمان لغة:

الإيمان في اللغة العربية مصدر مشتق من الأمن، يقال آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن.

قال ابن فارس[(١)]: «أمن، الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان:

أحدهما؛ الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر؛ التصديق والمعنيان كما قلنا متدانيان»[(٢)].

قال الراغب الأصفهاني[(٣)]: «آمن إنما يقال على وجهين:

أحدهما: متعد بنفسه، يقال أمّنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن،

والثاني: غير متعد، ومعناه صار ذا أمن...

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها، وإليها نسبته. من تصانيفه مقاييس اللغة، والصاحبي، وغيرهما. ولد سنة ٣٢٩هـ. وتوفي سنة ٣٩٥هـ. انظر: وفيات الأعيان (١/ ١١٨)، والسير (١٧/١٠٣)، والأعلام (١/١٩٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/٧١).

(٣) هو أبو القاسم الحسين بن محمد ابن المفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب من أهل أصفهان، صاحب التصانيف، أديب، من علماء المتكلمين. من مؤلفاته: مفردات غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة، ومحاضرات الأدباء وغيرها. توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر: السير (١٨/١٢٠)، و الأعلام: (٢/٢٥٥) .

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يوسف: ١٧، قيل معناه بمصدق لنا، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه الأمن»[١].

وقال ابن منظور[٢]: «أمن: الأمان والأمانة بمعنى قد أمنت فأنا آمن، آمنت غيري من الأمن والأمان. والأمن ضد الخوف، الإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب، يقال آمن به قوم وكذب به قوم، فأما أمنته المتعدي فهو ضد أخفته»[٣].

وحدّ الزجاج[٤] الإيمان فقال: «الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي، واعتقاده وتصديقه بالقلب»[٥].

ويقول الفيروزآبادي[٦]: «الإيمان: الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة»[٧].

وقال الراغب أيضا: «أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف»[٨].

---

[١] المفردات (ص/٩١).

[٢] هو أبو القاسم محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري المشهور بابن منظور الأفريقي، الأديب اللغوي الناظم، من مصنفاته: لسان العرب، ومختصر تأريخ دمشق لابن عساكر الدمشقي، ومختصر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، توفي سنة ٧١١ هـ، أنظر: شذرات الذهب (٤٩/٧)، ومعجم المؤلفين (٤٦/١٢).

[٣] لسان العرب (١٦٣/١).

[٤] هو أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، نحوي زمانه، مصنف كتاب معاني القرآن، وله تآليف جمة. منها: كتاب العروض، وكتاب الاشتقاق، وكتاب النوادر، مات سنة ٣١١ هـ. انظر: السير: (٣٦٠/١٤).

[٥] لسان العرب (١٦٤/١)

[٦] هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم، أبو طاهر، مجد الدين الفيروزآبادي، إمام في اللغة والأدب، ولد سنة ٧٢٩ هـ، وتنقل في البلدان حتى ذاع صيته، توفي سنة ٨١٧ هـ، أشهر كتبه: القاموس المحيط، والمغانم المطابة في معالم طابة، انظر: شذرات الذهب (١٢٦/٧)، ومعجم المؤلفين (١١٨/١٢).

[٧] القاموس المحيط (ص/١٥١٨).

[٨] المفردات (ص/٩٠)

وحاصل كلام أهل اللغة في الإيمان أنه التصديق، وهذا هو الذي اشتهر عندهم، وقد ادعي الإجماع على ذلك كما حكاه ابن منظور وغيره، قال ابن منظور: «واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق»[1]، ولكن من أهل اللغة من عرف الإيمان بما يتضمن عمل القلب و لم يقتصر على مجرد التصديق كما مر معنا عند الفيروز آبادي والراغب الأصفهاني وغيرهم.

ودعوى الترادف بين الإيمان والتصديق ردها شيخ الإسلام من وجوه كثيرة، ملخصها:

١- أن لفظة «آمن» تختلف عن لفظة «صدق» من جهة التعدي، حيث أن «آمن» لا تتعدى إلا بحرف إما اللام أو الباء، فيقال «آمن له» أو «آمن به»، ولا يقال «آمنه»، بخلاف لفظة «صدق» فإنه يصح تعديتها بنفسها فيقال «صدقه».

٢- أن الإيمان والتصديق لا يترادفان في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت، وأما لفظ الإيمان لا يستخدم إلا في الأخبار التي يؤتمن فيها المخبر مثل الأمور الغيبية، لأنه مشتق من الأمن.

٣- أن لفظ التصديق في اللغة يقابل بالتكذيب، ويقال صدقت أو كذبت، بخلاف لفظ الإيمان الذي لا يقابل بالتكذيب، بل يقابل بالكفر، يقال آمنا أو كفرنا، هو مؤمن أو كافر، ومن هنا يعلم أن الكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

٤- أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي ضد الخوف، فآمن، أي صار داخلا في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الإئتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يوسف: ١٧، أي لا تقر بخبرنا ولا تثق

[1] لسان العرب (١/١٦٤).

به ولا تطمئن إليه ولو كنا من الصادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم، أما التصديق فلا يتضمن شيئا من ذلك[1].

٥- أن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، وأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام وهو عمل القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر[2].[3].

فهذه الأمور تدفع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق، كما يظن طائفة من الناس، وأيضا لو سلم الترادف بينهما، فليس التصديق هو ما يقوم بالقلب فقط، أو ما يقوم بالقلب واللسان، لأن التصديق يطلق على الأفعال أيضا كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»[4].

ثم إنه إذا كان أصله التصديق، فهو تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص، وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم[5]، وهذا نقوله تنزلا مع

---

[1] انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٢٧-٢٣٠).

[2] الصارم المسلول (٩٦٧/٣)، والإيمان الأوسط (ص/٧٨، و ص/١٨٢)

[3] انظر هذه الأوجه الفرق بين الإيمان والتصديق في: «زيادة الإيمان ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه» لشيخنا عبد الرزاق بن عبدالمحسن البدر (ص/٣٣-٣٦)، وكتاب: «التعريفات الاعتقادية» لسعد بن محمد آل عبد اللطيف (ص/١٠٣-١٠٥).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٨٧)، في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٦٥)، كتاب القدر، باب قدر على ابن لآدم حظه من الزنا وغيره.

[5] الإيمان الكبير (ص/٢٣٠) باختصار وتصرف يسير.

المخالف وإلا فنحن لسنا موافقين على أن الإيمان والتصديق لفظان مترادفان، بل بينهما فروق كما سبق.

وأولى ما يفسر به الإيمان في اللغة، والذي اختاره شيخ الإسلام هو أن الإيمان هو الإقرار حيث قال: «فإن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما أن لفظ الإقرار: مأخوذ من قرّ يقرّ وهو قريب من آمن يؤمن، لكن الصادق يطمأن إلى خبره، والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة، فالمؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار، ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام، ثم إنه يكون على وجهين:

أحدهما: الإخبار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق، والشهادة ونحوهما، وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار.

والثاني: إنشاء الالتزام كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى** ﴾ آل عمران: ٨١، فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول، وكذلك لفظ الإيمان فيه إخبار وإنشاء والتزام، بخلاف لفظ التصديق المجرد»[١].

وقال: «بل هو (أي؛ الإيمان) الإقرار، لأن التصديق إنما يطابق الخبر فقط، وأما الإقرار يطابق الخبر والأمر»[٢].

وقال: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد»[٣].

---

[١] الإيمان الأوسط (ص/٧٨) باختصار.

[٢] نفس المصدر (ص/١٨٢).

[٣] نفس المصدر(ص/ ١٨٤).

وقال: «وإنما يقال: آمن له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا»[١].

ومما ينبغي أن يعلم أن الحقائق قد تعرف بالشرع كالصلاة، وقد تعرف باللغة كالشمس، وقد تعرف بالعرف كالقبض، وإذا عرف تفسيرها من جهة الشرع لم يحتج ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم[٢]، وهكذا في مسمى الإيمان: إذ التصديق أحد أجزاء المعنى الشرعي عند أهل السنة والجماعة، وعلى ذلك دلت نصوص الكتاب والسنة كما سيأتي ذكرها في المباحث الآتية.

المسألة الثانية: تعريف الإيمان شرعا.

ومن الأصول المتفق عليها عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان حقيقة مركبة من القول والعمل لا يجزئ واحد من الاثنين إلا بالآخر، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح، قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[٣].

وقد تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان وإن كان معناها واحدا، سنذكر هنا بعضا من تلك الأقوال:

قال الإمام الشافعي:«وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»[٤].

---

[١] الإيمان الكبير (ص/٢٢٧).

[٢] انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٢٤)، والفرقان بين الحق والباطل (ص/١٧)، ومجموع الفتاوى (١٩/٢٣٠).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه(ص/٥)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٨)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها و أدناها، وفضيله الحياء وكونه من الإيمان، واللفظ له.

[٤] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٥/٩٥٧)

وقال أبو زرعة الرازي[1]: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا وشامًا ويمنًا وكان من مذهبهم الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[2].

وقال الحافظ ابن عبد البر[3]:«أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل»[4].

وقال الآجري[5]: «اعلموا – رحمنا الله وإياكم – أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح»[6].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن السلام[1]: «فالأمر الذي عليه السنة عندنا ما نصّ عليه علماؤنا، مما اقتصصنا في كتابنا هذا، أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا»[2].

---

(١) هو الإمام، سيد الحفاظ، عبيدالله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء، أبو زرعة الرازي، من أهل الري، زار بغداد وحدث بها، وجالس أحمد بن حنبل، كان يحفظ مئة ألف حديث، ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٦٤ هـ، انظر: طبقات الحنابلة (٥٣/٢)، وسير أعلام النبلاء (٦٥/١٣)، والأعلام (١٩٤/٤).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة و الجماعة (١٩٨/١).

(٣) هو الإمام العلامة، حافظ المغرب، أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الأندلسي، القرطبي، صاحب التصانيف الفائقة. ولد سنة ٣٦٨هـ، كان إماما دينا، ثقة، متقنا، علامة، صاحب سنة واتباع، صنف كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وكتاب الاستذكار، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغيرها من الكتب، توفي سنة ٤٦٣ هـ، انظر: تذكرة الحفاظ (١١٢٨/٣)، والسير (١٥٣/١٨).

(٤) التمهيد (٢٣٨/٩).

(٥) هو محمد بن الحسن بن عبد الله، أبو بكر الآجري الشافعي، فقيه محدث، نسبته إلى آجر (من قرى بغداد)، ولد فيه وحدث ببغداد ثم انتقل إلى مكة وتوفي فيها، وله من التصانيف: الشريعة، وأخلاق العلماء، والنصيحة، والغرباء وغيرها مات سنة ٣٦٠ هـ، انظر: السير (١٣٤/١٦)، وفيات الأعيان (٢٩٢/٤)، ومعجم المؤلفين (٢٤٣/٩).

(٦) الشريعة (٦٨٦/٢).

وقال ابن أبي زمنين[٣]: «ومن قول أهل السنة والجماعة: إن الإيمان إخلاص لله بالقلوب وشهادة بالألسنة وعمل بالجوارح، على نية حسنة وإصابة السنة»[٤].

وقال الإمام الصابوني[٥]:«ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة»[٦].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله ورحم الجميع: «والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[٧].

وقال: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ومعنى ذلك: أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح»[٨]

وقال: «ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، و عمل القلب واللسان والجوارح»[١].

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الإمام الحافظ المجتهد، المولود عام ١٥٧ هـ، قال عنه الذهبي: «من نظر في كتب أبي عبيد علم مكانه من الحفظ والعلم، وكان حافظا للحديث وعلله، عارفا بالفقه والاختلاف، رأسا في اللغة، إماما في القراءات»، توفي سنة ٢٢٤، انظر: السير (٤٩٠/١٠)، وطبقات الحنابلة (٢١٠/٢).

(٢) الإيمان (ص/٣٤).

(٣) هو ابن أبي زمنين الإمام الزاهد، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد، الأندلسي، شيخ قرطبة. استبحر من العلم، وصنف في الزهد والرقائق، وكان صاحب جد وإخلاص، ولد في أول سنة ٣٢٤ هـ، وتوفي سنة ٣٩٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٨٨).

(٤) شرح أصول السنة لابن أبي زمنين (ص/٢٠٧).

(٥) هو الإمام العلامة، القدوة، المفسر، المحدث، أبو عثمان، إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عابد، النيسابوري، الصابوني. ولد سنة ٣٧٣ هـ. قال الذهبي: ولقد كان من أئمة الأثر، له مصنف في السنة واعتقاد السلف، ما رآه منصف إلا واعترف له. توفي سنة ٤٤٩ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠/١٨).

(٦) عقيدة السلف (ص/٢٦٤)

(٧) الإيمان الأوسط (ص/٥٤).

(٨) مجموع الفتاوى (٦٧٢/٧).

وقال: «فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم، الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه، وهذا مذهب الجماهير من أهل الحديث والتصوف والكلام والفقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم»[٢].

وقال الإمام ابن القيم[٣] رحمه الله: «وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علما والتصديق به عقدا، والإقرار به نطقا، والانقياد له محبة و خضوعا، والعمل به باطنا وظاهرا»[٤].

وقال السفاريني[٥]:

إيماننا قول وقصد وعمل :: تزيده التقوى وينقص بالزلل[٦].

---

[١] العقيدة الواسطية (ص/٥٧٣-٥٧٣) مع الشرح للشيخ ابن العثيمين.

[٢] المجموع (٧/٦٤٢).

[٣] هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى شمس الدين ابن قيم الجوزية العلامة الكبير المجتهد المصنف المشهور ولد سنة ٦٩١ هـ، وسمع من ابن تيمية وبرع في جميع العلوم وتبحر في معرفة مذاهب السلف. له مصنفات كثيرة نصر فيها ذهب السلف. مات سنة ٧٥١ هـ. انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني (٢/١٤٣).

[٤] الفوائد (ص/١٥٦).

[٥] هو محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبو العون: عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق. ولد سنة ١١١٤ بسفارين (من قرى نابلس) ورحل إلى دمشق، فأخذ عن علمائها. وعاد إلى نابلس فدرس وأفتى، وتوفي فيها سنة ١١٨٨ هـ، له كتاب: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، وغيره من الكتب، انظر: الأعلام (٦/١٤).

[٦] لوامع الأنوار (ص/٤٠٣).

فقد تبين مما سبق أن الإجماع عند أهل السنة منعقد أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وأن حقيقته تتألف من هذه الأجزاء الأربعة، لا يجزئ بعضها عن بعض:

الأول: قول القلب. وهو اعترافه وتصديقه وإيقانه وإقراره، قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الزمر: ٣٣.

الثاني: عمل القلب. وهو انقياده لما يصدق به من النية والإخلاص والمحبة والخوف والرجاء وتوابعها، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢.

الثالث: قول اللسان. وهو ما لا يؤدى إلا به، كالنطق بالشهادتين، وسائر الأذكار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الأحقاف: ١٣.

الرابع: عمل الجوارح. وهو ما لا يؤدى إلا بها، كالسجود والركوع والقيام، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الحج: ٧٧، وسيأتي مزيد بيان على هذا في المباحث الآتية إن شاء الله.

وكما أسلفنا أن عبارات السلف في تعريف الإيمان قد اختلفت في التعبير وتنوعت، وإن كان معناها ومؤداها واحدا، ولكن دفعا لتوهم التعارض بينها، وبيانا لفضل السلف وجلالة فقههم ودقة فهمهم أقول: قد حصر شيخ الإسلام عبارات السلف في خمس عبارات، وبين مقصودهم فيها، وهذه العبارات هي:

- الإيمان: قول وعمل.
- الإيمان: قول وعمل واعتقاد.
- الإيمان: قول وعمل ونية.

- الإيمان: قول وعمل واتباع السنة.

- الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

ومن قال «قول وعمل» أراد بذلك قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن زاد «الاعتقاد» ظن أن لفظ القول قد لا يفهم منه إلا القول الظاهر، فزاد الاعتقاد بالقلب.

ومن زاد «النية» قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية، ومن زاد «اتباع السنة» فلأن ذلك لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والمقصود هنا أن من قال من السلف: الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال: قول وعمل ونية قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل إنما أرادوا ما كان مشروعا من الأقوال والأعمال، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط، فقالوا: بل هو قول وعمل والذين جعلوه أربعة أقسام فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد اللَّهِ التستري[1] عن الايمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية وسنة، لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة»[2].

---

[1] هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري، من أئمة الصوفية، ولد بتستر سنة ٢٠٠ هـ، لقي ذا النون المصري، له مصنفات، منها: تفسير القرآن، ورقائق المحبين، ومواعظ العارفين، انظر: السير (٣٣٠/١٣)، ومعجم المؤلفين (٢٨٤/٤)، والأعلام (١٤٣/٣).

[2] الإيمان الكبير (ص/١٣٧-١٣٨)، وانظر: الإيمان الأوسط (ص/٥٤-٥٥)، والاستقامة (٣١٠/٢).

المطلب الثاني

بيان دخول أعمال القلوب في مسمى الإيمان

بما أن موضوع رسالتي متعلق بأعمال القلوب أردت أن أفرد بيان دخولها في مسمى الإيمان في مبحث خاص، ولكن قبل أن أشرع في ذكر بعض الأدلة التي تبين أن أعمال القلوب داخلة في مسمى الإيمان، أريد أن أشير إلى مسألة وهي: أن المخالفين لأهل السنة في باب الإيمان، سواء أكانوا من المعتزلة[١] والخوارج[٢]، أم كانوا من المرجئة[٣] لم يختلفوا على أن أعمال القلوب من الإيمان إلا ما ورد عن بعض غلاة المرجئة كجهم[٤] والصالحي[٥] ومن سار

---

[١] المعتزلة من الفرق الكلامية العقلانية المنتسبة للإسلام، التي ظهرت في عهد مبكر نوعا ما، وذلك في عصر التابعين، أواخر العصر الأموي واشتهرت وانتشرت في العصر العباسي، اعتمدت النظر العقلي المجرد أساسا لعقائدها وأفكارها، فخلطوا بين الشرعيات والفلسفة والعقليات في كثير من مسائل العقيدة، وهم فرق وطوائف يجمعهم غالبا القول بالأصول الخمسة المعرفة عنهم، هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمترلة بين المترلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر: الملل والنحل (٣٥/١)، والفرق بين الفرق (ص/١١٤)، والموسوعة الميسرة (٦٩/١).

[٢] الخوارج من أشهر الفرق الإسلامية وأقدمها، ظهرت بعد حادثة التحكيم فارقوا الجماعة وانحازوا إلى حروراء، هم الطائفة الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأجمعوا على تكفيره، وكذلك من جاء بعدهم وسار على طريقهم. والخوارج فرق منها الأزارقة والنجدات والإباضية، ويجمعهم القول بوجوب الخروج على السلطان الجائر، وتكفير مرتكب الكبيرة، وتخليد صاحب الكبيرة في النار، وإنكار الشفاعة لأهل الكبائر، انظر: مقالات الإسلاميين (٨٤/١)، والفرق بين الفرق (ص/٧٢).

[٣] يأتي التعريف بهم في الفصل الثاني: (موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم) من الباب الثالث.

[٤] هو جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، من موالي بني راسب، رأس الضلالة، ورأس الجهمية، كان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن. ويقول: إن الله في الأمكنة كلها. هلك في زمان صغار التابعين سنة ١٢٨ هـ. وقد زرع شرا عظيما. انظر: السير (٢٦/٦)، والأعلام (١٤١/٢).

[٥] هو أبو الحسن صالح بن عمرو الصالحي، جمع بين الإرجاء والقدر، وهو الذي أعلن الأشعري في بعض كتبه متابعته، انظر: مقالات الإسلاميين (١١٥/١)، والملل والنحل (١٠٤/١)، والفرق بين الفرق (ص/٢٠٧)

على نهجهما الذين جعلوا الإيمان مجرد التصديق والمعرفة الخالي عن الأعمال، وهذا الأمر لا يعني أن من وافق أهل السنة في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان وخالفهم في إخراج أعمال الجوارح أنهم متفقون معهم في كل شيء، لأنه كما يقول شيخ الإسلام إخراج أعمال الجوارح من الإيمان يشعر بإخراج أعمال القلوب أيضا، وهذا باطل قطعا[١].

ثم أيضا من الفرق من يوافق أهل السنة في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان، ولكن لهم مفاهيم خاطئة ومخالفة لنصوص الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة كما هو شأن الصوفية، وكل هذا يأتي ذكره في الباب الثالث من هذه الرسالة، ولكن المقصود هنا؛ أن عامة فرق الأمة متفقون عموما على إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان[٢] مع اختلافهم في تفاصيلها.

وفيما يلي أذكر بعض الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف التي تدل على أن أعمال القلوب من الإيمان.

أولا: الأدلة من القرآن:

قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ النحل: ١٠٦، يقول الشيخ السعدي[٣] رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى،

---

[١] انظر: الإيمان الأوسط (ص/١٠٠).

[٢] نفس المصدر (ص/٩٤).

[٣] هو العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي الناصري التميمي الحنبلي. ولد في مدينة عنيزة بالقصيم سنة ١٣٠٧هـ. ألف مؤلفات كثيرة نافعة منها: التفسير المسمى تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، والحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين، وغيرها. توفي سنة ١٣٧٦هـ. انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص/٢٩٢).

وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها»[1].

قال تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ **المجادلة: ٢٢**، يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الآية: «هذه الآية أي: من بدايتها فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[2].

قال تعالى: ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ** ﴾ **الحجرات: ٧**، يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم، من توفيقه للإنابة إليه»[3].

قال تعالى: ﴿ **قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ** ﴾ الحجرات: ١٤، يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الآية: «أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقا، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ** ﴾ الحجرات: ١٥، فلم يحصل

---

[1] تفسير السعدي رحمه الله (ص/٤٥٠).

[2] مجموع الفتاوى (١٤٧/٧).

[3] تفسير السعدي (ص/٨٠٠).

لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علما وعملا، وإلا فإذا كان عالما بالحق، ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعا عظيما لم يكن صاحب يقين، قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ الأحزاب: ١١»[1].

ثانيا: الأدلة من السنة:

قال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[2].

وقال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أوبضع و ستون شعبة، فأفضلها قول«لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[3].

وقال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[4].

وقال ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، و لم يدخل الإيمان إلى قلبه»[5]

وقال النبي ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله و البغض في الله»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨١/٧).

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (ص١٢) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم في صحيحه (ص٦٥١) كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال و ترك الشبهات.

(٣) سبق تخريجه (ص/٥٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦) كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩) كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠/٣٣)، والترمذي في جامعه (ص/٤٥٩)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، وأبو داود في سننه (ص/٨٨٣)، كتاب الأدب، باب في الغيبة، وصححه الألباني في المشكاة (٥٠٤٤).

ثالثا: الأدلة من أقوال السلف.

قد مر معنا بعض أقوال أهل العلم التي يبين أن الأعمال داخلة في الإيمان، وأن الأعمال عندهم عند الإطلاق على قسمين: أعمال القلوب وأعمال الجوارح[٢]، وبعض منهم نصّ على بعض الأعمال القلبية تنصيصا، ومن أحسن من بين دخولها في مسمى الإيمان وبين أهميتها وعظم شأنها هو شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، وهنا سأكتفي بذكر بعض أقوالهم، إذ يأتينا لاحقا مبحث يبين العلاقة بين قول القلب وعمله.

يقول شيخ الإسلام في بداية «التحفة العراقية»: «هذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي تسمى المقامات أو الأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك»[٣].

ويقول: «الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد من شيءين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب، ولا بد من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان»[٤].

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٨٨/٣٠)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص/ ٨٤) وصحححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٨).

[٢] الإيمان الأوسط (ص/٥٤).

[٣] التحفة العراقية (ص٢٨٩).

[٤] الإيمان الكبير (ص/١٤٩).

ويقول شيخ الإسلام جامعًا عبارات السلف في الإيمان: «ولا بد أن يدخل في قوله (اعتقاد بالقلب) أعمال القلوب المقارنة لتصديقه مثل حب الله، وخشية الله، والتوكل على الله، ونحو ذلك، فإن دخول أعمال القلوب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها»[1].

ويقول أيضا: «فهؤلاء (المرجئة) غلطوا في أصلين: أحدهما: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا، فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أوغير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله، فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه و لم يفرضه فهو من الإيمان المستحب... وذلك مثل حب الله ورسوله، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين، والإنابة إليه مع خشيته»[2].

ويقول: «فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة لله ورسوله ونحو ذلك، كما لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى، بل لا بد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب»[3].

---

[1] الإيمان الأوسط (ص/٥٥)

[2] الإيمان الكبير (ص/١٥٢).

[3] نفس المصدر (ص/٧٧).

ويقول: «وفي الجملة فلا بد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله، وحب الله ورسوله، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله، ومعاداة لله ورسوله ليس إيمانا بإتفاق المسلمين»[1].

وهكذا في مواضع كثيرة من كتبه يبين شيخ الإسلام أن للقلب قولا وعملا وأنهما بمجموعهما يسميان إيمانا، وأنه لا يكفي قول القلب بدون العمل، وأن حقيقة أعمال القلوب هي الانقياد والاستسلام.

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وإنما هي (أعمال القلوب) الأصل المراد المقصود وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة، وأن النية بمنزلة الروح والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح، إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها»[2].

ويقول: «ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح»[3].

ويقال أيضا: «فأهل السنة مجمِعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده»[4].

---

[1] نفس المصدر (ص/٨٣-٨٤).

[2] بدائع الفوائد (٣/١١٤٠).

[3] نفس المصدر (١١٤٨/٣).

[4] الصلاة وحكم تاركها (ص/٧١).

المبحث الأول: التعريف بالقلب وقوله وعمله.

المطلب الأول

التعريف بالقلب

المسألة الأولى: تعريف القلب في اللغة.

قال ابن فارس: «قلب: القاف واللام والباء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على خالص شيء وشريفه، والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة.

فالأول القلب: قلب الإنسان وغيره، سمي لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء أشرفه قلبه.

والأصل الآخر: قلبت الشيء قلبا، كببته»[(١)].

وقال الفيروزآبادي: «والقلب: الفؤاد، أو أخص منه، والعقل، ومحض كل شيء. وقَلَبَه يَقْلِبُه: حَوَّلَهُ عن وجهه»[(٢)].

وقال الجوهري[(٣)]: «القلب: الفؤاد، وقد يعبَّر به عن القلب...، وقَلَبْتُ الشيء فانقلبَ، أي انكبَّ»[(٤)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (ص/٨٢٨)، باختصار.

(٢) القاموس المحيط (ص/١٦٢-١٦٣) بتصرف يسير.

(٣) هو إمام اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي الأتراري، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، كان يحب الأسفار والتغرب، دخل بلاد ربيعة ومضر في تطلب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثم عاد إلى خراسان، فأقام بنيسابور يدرس ويصنف، ويعلم الكتابة، وينسخ المصاحف، توفي سنة ٣٩٣ هـ، وقيل: في حدود سنة ٤٠٠هـ. انظر: السير (١٧/٨٠)

(٤) الصحاح في اللغة (١/٣٠٨).

وقال ابن منظور: «القلب: تحويل الشيء عن وجهه. والقلب: مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط»[1] .

ويفهم من كلام أهل اللغة أن القلب يطلق على معنيين:

الأول: الفؤاد وهو قلب الإنسان وغيره.

الثاني: تحويل الشيء عن وجهه.

وقيل سمي القلب قلبًا لأمور:

- إما لتقلبه في الأمور،
- وإما أنه خالص شيء في الإنسان، وأشرفه،
- وإما أنه وضع مقلوباً في الجسد[2].

المسألة الثانية: حقيقة القلب شرعا.

ويطلق القلب في الاصطلاح على معنيين:

الأول: اللحم الصَّنَوْبَرِي الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر.

الثاني: لطيفة ربانية روحانية، لها تعلق بذلك القلب الجسماني.

قال أبو حامد الغزالي[3]: «لفظ القلب يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا

---

(١) لسان العرب (١٢/١٦٩).

(٢) ذكر هذه الأوجه ابن حجر في الفتح (١/١٢٨).

(٣) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، الفقيه، الأصولي، فيلسوف، متصوف، له مؤلفات كثيرة في الفقه والأصول والجدل والتفسير، منها المستصفى، وإحياء علوم الدين. توفي سنة ٥٠٥ هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (١٩ / ٣٢٢).

نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء، ولا يتعلق به الأغراض الدينية، وهذا القلب موجود للبهائم، وبل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب – يعني كتابه إحياء علوم الدين – لم نعن به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين.

الثاني: لطيفة ربانية روحانية، لها بذلك القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهوالمخاطب، والمعاقب، والمعاتب، والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجهة علاقته»[1].

وقال شيخ الإسلام: «القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن التي جوفها علقة سوداء كما في الصحيحين عن النَبي ﷺ: "إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد"، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللّوزة والجوزة ونحو ذلك ومنه سمي القليب قليبا لأنَه أخرج قلبه وهو باطنه»[2].

وقال أيضا: «وكذلك القلب يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجسد مجردة، والبهيمة لها قلب بهذا المعنى، ويراد به هذه المضغة مقيدة بالروح»[3].

وقال ابن القيم: «ويطلق القلب على معنيين:

أحدهما: أمر حسي، وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف، وفي التجويف دم أسود، وهو منبع الروح.

---

[1] إحياء علوم الدين (٦/٣).

[2] مجموع الفتاوى (٣٠٣/٩).

[3] الرد على الشاذلي (ص/١٢٤).

والثاني: أمر معنوي، وهو لطيفة رحمانية وروحانية، لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك الحقيقة هي حقيقة الإنسان»[1].

وتبين لنا مما سبق أن القلب يراد به أمران، الأول بأنه العضو الجسدي الصنوبري الشكل الموجود في صدر الإنسان، والثاني هو مرتبط بالجانب الروحي المعنوى، وبه يفقه الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وهو كما يقال عبارة عن جهاز إدراكي معرفي بالغ التعقيد[2]، وهذا هو مفهوم العقل، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ويراد بالعقل؛ الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها»[3]، لكن أين مقر هذا العقل من جسم الإنسان، أهو متعلق بالقلب أي العضو الجسدي المعروف أم متعلق بالدماغ هذا ما سنبينه في المسألة الآتية.

المسألة الثالثة :علاقة القلب بالعقل.

اختلف أهل العلم في محل العقل على قولين:

القول الأول: أنه محله القلب، وهو قول كثير من العلماء، من المالكية والشافعية والحنابلة، وهو قول كثير من المفسرين ومن وافقهم من بعض الأطباء المتقدمين.

ومن أدلتهم ما يلي:

١- قول الله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ الحج : ٤٦.

ووجه الاستدلال أن الآية الكريمة صرحت بأن وظيفة القلب العقل، كما أن وظيفة الأذن السمع، وفهم من ذلك أن الرجل كما يسمع بالأذن كذلك يعقل بالقلب.

---

[1] التبيان في أيمان القرآن (ص/٦٢٦).

[2] انظر: عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (١/١٩٠).

[3] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/٢٠٩)، وانظر: الاستقامة (٢/١٦١-١٦٢).

يقول القرطبي[١]: «﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ ﴾ أضاف العقل إلى القلب، لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن»[٢].

٢- قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ الأعراف : ١٧٩ .

وجه الاستدلال أن الآية الكريمة أضافت منفعة كل عضو إليه، فجعلت منفعة الفقه مختصة بالقلب، ومنفعة البصر مختصة بالعين، ومنفعة السمع مختصة بالأذن، وذلك في سياق الذم لأهل الكفر الذين لم ينتفعوا بهذه الوسائل في إدراك ماينفعهم من الخير والهدى[٣].

٣- قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق : ٣٧.

قال القرطبي رحمه الله: «قوله ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾أي: عقل يتدبر به، فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه»[٤].

٤- أضاف القرآن الكريم الصفات المضادة للعلم إلى القلب، ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج : ٤٦.

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ البقرة : ٧.

---

[١] هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، من كبار المفسرين، من أهل قرطبة، كان ورعا متعبدا. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكرة بأحوال الموتى وأهوال الآخرة. توفي سنة ٦٧١ هـ. انظر: طبقات المفسرين للأدنروي (ص/٢٤٦)، الأعلام (٣٢٢/٥).

[٢] تفسير القرطبي (٤١٩/١٤).

[٣] انظر: مجموع الفتاوى (٣١٠/٩).

[٤] تفسير القرطبي (٤٥٩/١٩).

﴿ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ محمد : ٢٤.

فهذه الآيات الكريمات تفيد أن الجهل محل القلب، مما يشير بدلالة المفهوم إلى أن موضع العقل والفهم هو القلب[١].

٥- حديث النعمان بن بشير[٢] رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[٣].

استدل ابن حجر وغيره بهذا الحديث على أن العقل في القلب، باعتبار أن الرسول صلى الله عبيه وسلم جعل صلاح الجسد وفساده تابعا للقلب[٤].

٦- قول ابن عباس رضي الله عنه لما سئل: «بم نلت هذا العلم؟ قال؛ بلسان سؤول وقلب عقول»[٥].

القول الثاني: هو مروي عن الإمام أحمد وهو المشهور في علم الطب الحديث، أن محله الدماغ، ومن أدلتهم ما يلي:

١. أن الدماغ إذا اختل أثر تأثيرا كبيرا في إحساس الإنسان وتصوراته.

٢. أن الحواس التي هي آلات الإدراك نافذة إلى الدماغ.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٨٦/١).

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، هو وأبوه صاحبيان، كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة، استعمله معاوية على الكوفة، وكان خطيبا مفوها، ثم دعا النعمان إلى ابن الزبير، ثم دعا إلى نفسه، فواقعه مروان بن الحكم فقتل النعمان سنة ٦٥ هـ، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ص/٧٢٣)، والإصابة في تمييز الصحابة (٢٤٠/٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم في صحيحه (ص/٦٥١) كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٤) انظر: فتح البارى (ص/١٢٨-١٢٩)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٢٨/١١).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٠٣/٩).

٣. أن الأعصاب التي هي آلات الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ.

٤. أن الرأس هو الذي يعالج عند اضطراب الفكر.

٥. أن العرب تقول فيمن يراد وصفه بكمال العقل؛ إنه وافر الدماغ، وفيمن يراد وصفه بقلة العقل وضعفه؛ إنه خفيف الرأس، خفيف الدماغ[١].

والمتأمل في القولين يرى أن القول الأول أقوى من حيث الاستدلال، غير أن كلا منهما قد أصاب في جانب، فلهذا نقول أن الجمع بين القولين ممكن، إذ القلب موضع العقل والقرار، وله اتصال بالدماغ، فالقلب هو محل العقل والتدبير ولا شك، ولكن الدماغ محل التصور، ثم إذا تصور الشيء وجهزه بعث به إلى القلب، فهو صاحب الحكم، فهو يأمر به أو ينهى عنه، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم ومن المعاصرين الشيخ ابن العثيمين وغيره.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله حين سئل عن مسكن العقل: «فالعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل، وأما من البدن فهو متعلق بقلبه»، ثم قال: «لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن التي جوفها علقة سوداء... وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا... فإذا أريد بالقلب هذا (باطن الإنسان) فالعقل متعلق بدماغه أيضا، ولهذا قيل؛ إن العقل في الدماغ، كما يقوله كثير من الأطباء ونقل ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة من أصحابه: إن أصل العقل في القلب فإذا كمل انتهى إلى الدماغ.

والتحقيق أن الروح التي هي نفس الإنسان له تعلق بهذا وهذا، وما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا، لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ومبدأ الإرادة في القلب.

---

[١] انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١١/٢٨)، ورسالة في العقل والروح لشيخ الإسلام ضمن مجموع الفتاوى (٩/٣٠٣-٣٠٤)، والتبيان في أيمان القرآن (ص/٦١٢-٦١٣)، ومفتاح دار السعادة (١/٣٠٠)، وشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (١/٣٤١-٣٤٢)، وعبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (١/٣٠٦-٣١٢)، وأعمال القلوب حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند المخالفين (١/٩٥-٩٨).

والعقل يراد به العلم ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريدا إلا بعد تصور المراد فلا بد أن يكون القلب متصورا فيكون منه هذا وهذا، ويبتدئ ذلك من الدماغ وآثاره صاعدة إلى الدماغ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء، وكلا القولين له وجه صحيح»[1].

ويقول أيضا: «فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، و إنما سائر الأعضاء حجة له توصله إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتى إن من فقد شيئا من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه»[2].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ»[3]، وقال في موضع آخر: «فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب، وفروعه وثمرته في الرأس»[4].

ويقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «فالقلب هي محل العقل والتدبير للشخص، ولكن لا شك أن لها اتصالا بالدماغ، ولهذا إذا اختل الدماغ فسد التفكير وفسد العقل! فهذا مرتبط بهذا! لكن العقل المدبر في القلب»[5].

المسألة الرابعة: ذكر القلب في القرآن والسنة.

إن الناظر في الكتاب والسنة يجد فيهما الاهتمام الكبير والعناية الفائقة بهذا القلب، ذكرا له ووصفا، علاجا له وإصلاحا، ومنهجا في التعامل معه، ومما يدل على ذلك هو ورود ذكر

---

[1] مجموع الفتاوى (٩/٣٠٣-٣٠٤).

[2] مجموع الفتاوى (٩/٣١٠).

[3] التبيان في أيمان القرآن (ص/٦١٢).

[4] مفتاح دار السعادة (١/٣٠٠).

[5] شرح رياض الصالحين (١/٣٤٢).

لفظة القلب في القرآن أكثر من مائة وثلاثين آية، ووردت في السنة أكثر من مائتي موضع في الكتب الستة ومسند الإمام أحمد، علمًا أن القلب قد يعبر عنه بألفاظ أخرى كالفؤاد والصدر والرُوع[1].

وفيما يلي أذكر بعض الآيات والأحاديث التي تشتمل على ذكر القلب.

أولاً: من القرآن:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنفال: ٢.

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ ق: ٣٣.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق: ٣٧.

وقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ النور: ٣٧.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء: ٨٨ – ٨٩.

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ الحديد: ٢٧.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ الشرح: ١، أي: قلبك[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء: ٣٦، الفؤاد بمعنى القلب[3].

---

[1] هذه المعلومة استفدتها من كتاب: «أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة ومخالفيهم» (١٠٣/١).

[2] انظر: تفسير القرطبي (٣٥٤/٢٢).

[3] نفس المصدر (٨٠/١٣)

ثانيا: من السنة:

قال رسول الله ﷺ: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد»[1].

وعن أم المؤمنين أم سلمة[2] رضي الله عنها قالت: كان أكثر دعاء النبي ﷺ؛ «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دِينك»، قالت، فقلت: يا رسول اللَّه ما أكثر دعاءك «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»؟، قال: «يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»[3].

وعن أسامة بن زيد[4] رضي الله عنه أنه دفع لرسول الله ﷺ صبيا ونفسه تتقعقع، وبكى النبي ﷺ وفاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[5].

---

(1) تقدم تخريجه (ص/٣).

(2) هي أم المؤمنين هند بنت سهيل المعروف «بأبي أمية» القرشية، المخزومية رضي الله عنه، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة من الهجرة، وكانت من أكمل النساء عقلا وخلقا، توفيت بالمدينة سنة ٦٢ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٨٥/١٠)، والإصابة (٢٤٠/٨).

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٨/٤٤)، الترمذي في سننه (ص/٧٩٩)، في كتاب الدعوات، الباب (٩٠)، وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن، وصححه الألباني في ظلال الجنة (ص/١١٥).

(4) هو أسامة بن زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الحب بن الحب، ولد في الإسلام، صحابي جليل، أمره النبي على جيش عظيم، فتوفي النبي ﷺ قبل أن يتوجه، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه، توفي سنة ٥٤ هـ، انظر: الإصابة (٢٩/١)

(5) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٥) :كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ «يعذب الميت ببعض بكاء أهل بيته» إذا كان النوح من سنته، ومسلم في صحيحه (ص/٣٥٨)، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

وقال النبي ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون من ورائه»[1].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «و (يَغِلُّ) بالفتح هو المشهور، ويقال: غلّى صدره فغلّ، إذا كان ذا غِش وضَغَن وحِقد، أي قلب المسلم لا يغل على هذه الخصال الثلاثة وهي الثلاثة المتقدمة في قوله: "إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم"، فإن الله إذا كان يرضاها لنا، لم يكن قلب المؤمن الذي يحب ما يحبه الله يغل عليها ويبغضها ويكرهها فيكون في قلبه عليها غل، بل يحبها قلب المؤمن ويرضاها»[2].

وقال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعي»[3]. أي: قلبي، قال فيروزآبادي: «والرُوع، بالضم: القلب، أو موضع الفزع منه، أو سواده، والذهن، والعقل»[4]

وقال الجوهري: «الرَوع، بالفتح: الفزع. و الرُوع، بالضم: القلب والعقل، يقال وقع ذلك في رُوعي، أي في خَلَدي وبالي»[5].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧١٢)، كتاب الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات.

(2) مجموع الفتاوى (٣٥/٨).

(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية(١٠/٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٠٦)، والطبراني في معجم الكبير (٨/١٩٤)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (٢٨٦٦).

(4) القاموس المحيط (ص/٩٣٥).

(5) الصحاح (٣/٤٩٢).

المطلب الثاني

التعريف بقول القلب وعمله، وبيان أركانهما

المسألة الأولى: التعريف بقول القلب وعمله.

لو نظرنا إلى كلام السلف رحمهم الله نجد أنهم يذكرون أن للقلب قولا وعملا يتعلق أداؤهما به دون اللسان وسائر الجوارح، لكنهم لم يعرفوا قول القلب وعمله تعريفا اصطلاحيا يتبين به الفرق بين قول القلب وعمله، وإنما يمثلون لقول القلب بالتصديق أو الاعتقاد أو الإقرار، ولعمل القلب بالإخلاص والحب والبغض ونحوها، ولعل هذا لأنه يصعب على الرجل أن يضبط هذه الأمور بحد، إذ ما يعرف حقيقتها إلا من وجدها وتحلى قلبه بها.

يقول الإمام ابن منده رحمه الله: «قال أهل الجماعة: الإيمان هو الطاعات كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح غير أن له أصلا وفرعا.

فأصله المعرفة بالله والتصديق له وبه وبما جاء من عنده بالقلب واللسان، والخضوع له والحب له، و الخوف منه والتعظيم له، مع ترك التكبر والاستنكاف والمعاندة»[1].

ويقول في موضع آخر: «فمن أفعال القلوب: النيات والإرادات، والعلم والمعرفة بالله وبما أمر به، والاعتراف له والتصديق به و بما جاء به، والخضوع له ولأمره، والإجلال والرغبة إليه، والرهبة منه، والخوف والرجاء والحب له ولما جاء من عنده، والحب والبغض فيه، والتوكل والصبر والرضا، والرحمة والحياء، والنصيحة لله ولرسوله ولكتابه، وإخلاص الأعمال كلها مع سائر أعمال القلوب»[2].

---

(1) الإيمان (١/٣٣١).

(2) نفس المصدر (١/٣٦٢).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ثم الناس في هذا على أقسام....، وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه، والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان»[(١)].

ويقول: «الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد من شيءن: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب. ولا بد من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان»[(٢)].

ويقول: «وأصل الإيمان: قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع»[(٣)].

ويقول: «بل قول القلب وعمله هو الأصل: مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه»[(٤)].

ويقول: «فالإيمان بالله ورسوله قول وعمل - أعني بالعمل ما ينبعث عن القول والاعتقاد من التعظيم والإجلال»[(٥)].

وعرف ابن القيم رحمه الله قول القلب تارة بالاعتقاد وتارة بالمعرفة وبالعلم، ففي تعريفه الأول يقول: «القول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد»[(١)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٦٧٢).

(٢) الإيمان الكبير (ص/١٤٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/٤٠).

(٤) نفس المصدر (٥/٥٩٠).

(٥) الصارم المسلول (٣/٨٦٥).

ويقول: «أقوال القلب وهي العقائد»[٢].

وعن تعريفه الثاني: «قول القلب: وهو المعرفة والعلم»[٣].

وقد عرف عمل القلب ببعض أفراده، فقال رحمه الله: «عمل القلب وهو نيته وإخلاصه»، ويقول أيضا: «عمل القلب، وهو محبته وانقياده»[٤]، و يقول أيضا: «عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته»[٥].

ومن المتأخرين من نهج نفس المنهج في التفرقة بين قول القلب وعمله هو الحافظ الحكمي[٦] رحمه الله يبين الفرق بينهما فيقول:

«قول القلب: هو تصديقه وإيقانه» ثم ذكر بعض الآيات التي تشتمل على قول القلب.

«وعمل القلب: هو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله ﷻ والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه» ثم ذكر بعض الآيات المشتملة على بعض الأعمال القلبية[٧].

وأوّل من وقفت عليه، ممن نستطيع أن نقول أنه عرف قول القلب وعمله هو الشيخ العلامة السعدي رحمه الله حيث قال: «والفرق بين قول القلب وبين أعماله، أن أقواله: هي العقائد التي يعترف بها القلوب ويعتقدها، وأما أعمال القلوب: فهي حركته التي يحبها الله

---

[١] الصلاة وحكم تاركها (ص/٧٠).

[٢] إغاثة اللهفان (٤٢/١)

[٣] عدة الصابرين (ص/٢٠٦).

[٤] الصلاة وحكم تاركها (ص/٧١).

[٥] مفتاح دار السعادة (ص/٩٤).

[٦] هو حافظ بن محمد بن علي الحكمي، أحد علماء المملكة العربية السعودية السلفين، ولد سنة ١٣٤٢ هـ في منطقة تهامة بجنوب المملكة، له مصنفات كثيرة، منها: سلم الوصول، وأعلام السنة المنشورة، ودليل أرباب الفلاح في الاصطلاح وغيرها، توفي سنة ١٣٧٧ هـ، انظر: معارج القبول شرح سلم الوصول (المقدمة ١١/١).

[٧] معارج القبول (٢٥٨/٢-٢٥٩).

ورسوله ﷺ، وضابطها محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه، وهذه هي الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح»[1] .

ثم تابعه على ذلك الشيخ ابن العثيمين، فقال رحمه الله: «وأما قول القلب: فهو اعترافه وتصديقه.

وأما عمله: فهو عبارة عن تحركه وإرادته، مثل الإخلاص في العمل، فهذا عمل قلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف، فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة في القلب»[2].

المسألة الثانية: أركان قول القلب وعمله.

يقرر شيخ الإسلام رحمه الله أن النفس لها قوتان: قوة العلم والتصديق، وقوة الإرادة والعمل، وليس صلاح الإنسان في مجرد أن يعلم الحق دون ألا يحبه ويريده ويتبعه،كما أنه ليس سعادته في أن يكون عالما بالله مقرا بما يستحقه دون أن يكون محبا لله عابدا لله مطيعا لله، بل لا بد أن يجمع بين الأمرين[3].

فالقوة الأولى هي التي يعبر عنها بقول القلب، والقوة الثانية هي التي يعبر عنها بعمل القلب وما يتبع ذلك من أعمال الجوارح، لأن قول القلب يتمثل في علمه واعتقاده وتصديقه وهو الأصل، وأما عمل القلب وفعله، فهو ثمرة لذلك التصديق من المعاني القلبية التي تصل العبد بالله ﷻ، كالمحبة، والخوف، والرجا، والخشية، والمراقبة، والإنابة، والتوكل، والإخلاص، والتعظيم، وغير ذلك من أعمال القلوب.

---

(١) انظر: التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة (ص/٩١).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص/٥٧٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/٥٨٥).

فإذا تبين هذا فلنعرف أن قول القلب المتمثل في علمه واعتقاده وتصديقه له شعب وأنواع كثيرة على التفصيل[1]، ولكن أركانه وأصوله مقررة في حديث جبريل المشهور، والذي يتضمن سؤاله عليه السلام النبي صل الله عليه وسلم عن الإيمان، فقال ﷺ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

وهذا الجواب منه عليه الصلاة والسلام يثبت للإيمان ستة أركان، تضمنها القرآن الكريم في أكثر من آية كريمة.

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ البقرة: ١٧٧.

وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٨٥.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: ١٣٦.

وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: ٢.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩.

وفيما يلي إشارة إلى المراد بكل ركن منها:

١- **الإيمان بالله سبحانه** وتعالى هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه الذي يستحق وحده أن يفرد بالعبادة، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المتره عن كل نقص وعيب.

---

[1] انظر: ترجمان شعب الإيمان للبلقيني (ص/٦٢-٦٩).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

٢- **الإيمان بالملائكة** هو التصديق الجازم بأن الملائكة موجودة، مخلوقة من النور، وأنها عباد الله مطيعة لأمره، قائمة بوظائفهم التي كلفهم الله ﷻ بها، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

٣- **الإيمان بالكتب** هو التصديق الجازم بكتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأنها من كلامه تبارك وتعالى، متضمنة للحق والهدى في شرعه ودينه جل شأنه.

٤- **الإيمان بالرسل والأنبياء** هو الاعتقاد الجازم بهم دون تفريق بينهم، وبأنهم صادقون فيما أخبروا به عن ربهم سبحانه، وأنه لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الله، وعلينا الإيمان بهم جميعا.

٥- **الإيمان باليوم الآخر** هو الاعتقاد الجازم بكل ما أخبر الله به في كتابه، وأخبر به رسوله ﷺ في سنته مما يكون بعد الموت، من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والبعث، والحشر، والحساب، والجنة والنار، وما أعد الله تعالى لأهلهما جميعا.

٦- **الإيمان بالقدر** هو التصديق الجازم بأن جميع الكائنات بقضائه وقدره، وكل خير وشر يحدث بإرادته وعلمه، ولا يكون شيء إلا بإذنه ومشيءته تبارك وتعالى.

هذه الأصول الستة يجب على العبد الإيمان بها على سبيل الإجمال، ثم على سبيل التفصيل فيما يصل إليه علمه من الكتاب العزيز وصحيح السنة الشريفة[1].

وأما أعمال القلوب فإن دعائمها وأركانها تتمثل في ثلاث عبادات قلبية: المحبة والخوف والرجاء.

وبيان ذلك أن العبادة التي خلقنا الله لأجلها تعني غاية الحب مع غاية الذل، والتذلل لله جل وعلا يتضمن خوفه ورجاءه، فإذا قارن ذلك ولازمه محبة الله سبحانه وتعالى أثمر تحقيقا

(١) انظر: عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (١/٣٠١-٣٠٣)، والإيمان، أركانه وحقيقته ونواقضه (ص/١٥، ص/٤٧، ص/٧١، ص/٩٧، ص/١١١، ص/١٧٧).

للأسس والقواعد الرئيسة التي تحرك القلوب في عبوديتها لله تبارك وتعالى، إذ هو جل شأنه الإله الذي تتألهه القلوب محبة ورجاء وخوفا[(١)].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه»[(٢)].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»، ثم قال: «فالمحبة هي المركب والرجاء حاد والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه»[(٣)]، و لعلنا نكتفي بهذا القدر، إذ يأتينا لاحقا دراسة مفردة لهذه الأعمال في الفصل الأول من الباب الثاني.

الخلاصة: عرفنا مما سبق أن القلب في اللغة يطلق على معنيين، أحدهما: الفؤاد وهو قلب الإنسان وغيره، والثاني: تحويل الشيء عن وجهه. ثم عرفنا معنى القلب في الاصطلاح وأنه يراد به أمران، الأول بأنه العضو الجسدي الصنوبري الشكل الموجود في صدر الإنسان، والثاني هو مرتبط بالجانب الروحي المعنوى، وبه يفقه الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، ثم وضحنا علاقة العقل بالقلب وبينا أن أصل العقل ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ، ثم ذكرنا بعض الآيات والأحاديث التي ذكر فيه القلب مما تبين أهمية القلب وما يقوم به من أحوال وأعمال، ثم انتقلنا إلى تعريف قول القلب وعمله، وبينا أنه لا يوجد تعريف اصطلاحي يحدد مراد كل منهما إلا أنه يستأنس بأقوال أهل العلم في التفرقة بين قول القلب الذي هو

---

(١) عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (٣٠٤/١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/١٥).

(٣) مدارج السالكين (٣٨٥/١).

التصديق والإقرار، وعمل القلب مثل المحبة والخوف والرجاء والإخلاص وغير ذلك من أعمال القلوب، ثم ختمنا هذا المبحث ببيان أركان قول القلب والتي هي مستفادة من حديث جبريل المشهور، وببيان أركان أعمال القلوب أيضا وهي ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء.

المبحث الثاني: أنواع أعمال القلوب.

التمهيد

إن لأعمال القلوب أهمية عظمى ومنزلة كبرى في الدين، والمتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يجد من ذكرها وذكر أحكامها الشيء الكثير، فمنها ما يحب ويحمد، ومنها ما يكره و يذم، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم، ونحو ذلك من أفعال القلوب»، ثم ذكر شواهد على ذلك، ثم قال: «ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين، يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها..، فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو حسنة وسيئة بنفسها[1].

وثانيتها: ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل.

وثالثها: ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة»[2].

ويقول أيضا: «الرضا الموجود في بني آدم: منه ما يحبه الله، ومنه ما يكرهه ويسخطه، ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا كسائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك، كلها تنقسم إلى محبوب لله، ومكروه لله، ومباح»[3].

---

[1] وهذا هو الذي يهمنا في هذا المبحث، أقسام أعمال القلوب المجردة من غير اقتران إلى أعمال الجوارح.

[2] مجموع الفتاوى (٧٥٩/١٠) بتصرف يسير.

[3] الاستقامة (١٢٣/٢).

يفهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أن أعمال القلوب تجري عليها الأحكام التكليفية الخمسة، إذ المحبوب لله لا يخرج عن كونه واجبا أو مستحبا، والمكروه لا يخرج عن كونه محرما أو مكروها، وما عدا ذلك فمباح، والأحكام التكليفية الخمسة هي:

الأول: الواجب؛ وهو ما أمر الله به على وجه الإلزام، وهو الذي يثاب فاعله امتثالا ويستحق العقاب تاركه، ويسمى فرضا، وفريضة، وحتما، ولازما.

الثاني: المستحب؛ وهو ما أمر الله به لا على وجه الإلزام، وهو الذي يثاب فاعله امتثالا، ولا يعاقب تاركه، ويسمى سنة، ومسنونا، ومستحبا، ونفلا.

الثالث: المباح؛ وهو ما لا يتعلق به أمر ولا نهي لذاته، ولا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، ويسمى حلالا، وجائزا.

الرابع: المكروه؛ وهو ما نهى عنه الشارع لا على وجه الإلزام بالترك، وهو الذي يثاب تاركه امتثالا ولا يعاقب فاعله.

الخامس: المحرم؛ وهو ما نهى الله عنه على وجه الإلزام بالترك، وهو الذي يثاب تاركه امتثالا ويستحق العقاب فاعله، ويسمى محظورا، وممنوعا[1].

ويقول ابن القيم رحمه الله في بيان انقسام أعمال القلوب إلى خمسة أقسام حسب الأحكام التكليفية: «ورحَى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كمّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح»[1].

---

[1] انظر: روضة الناظر (ص/٢٦، ص/٣٦، ص/٣٨، ص/٤١).

المطلب الأول

أعمال القلوب الواجبة والمستحبة

أعمال القلوب الواجبة والمستحبة كثيرة جدا، منها المتفق على وجوبه أو استحبابه، ومنها المختلف في وجوبه أو استحبابه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في بداية التحفة العراقية: «هذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي تسمى المقامات أو الأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك»، ثم قال: «هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين باتفاق أئمة الدين»[٢].

وقال: «وعمل القلب من التوكل، والخوف، والرجاء وما يتبع ذلك، والصبر واجب بالاتفاق»[٣].

وقال: «وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، ولا يكون تركها محمودا في حال أحد، وإن ارتقى مقامه»[٤].

ويقول في بيان أن بعض أعمال القلوب مختلف في حكمه: «وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء، هل هو واجب أو مستحب»[١].

---

(١) مدارج السالكين (١/٨٤).

(٢) التحفة العراقية (ص/٢٨٩-٢٩٠).

(٣) الفتاوى الكبرى (٥/٣٥٩).

(٤) التحفة العراقية (ص/٣١١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه، فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، و الصبر، الإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق، والنية في العبادة...وكذلك الصدق... واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وأما المختلف فيها فمثل الرضا» [٢].

وقبل أن أنتقل إلى ذكر الأمثلة على ذلك أشير إلى مسألة، وهي: أن العمل القلبي الواحد قد يكون واجبا حينا مستحبا حينا، فكل واحد من الأعمال القلبية له طرفان؛ واجب مستحق وكمال مستحب، بل إن العمل القلبي الواحد (الواجب أو المستحب) قد ينقلب فيكون محرما أو مكروها، والعكس بالعكس قد يكون العمل القلبي الواحد (منهي عنه) فينقلب فيكون واجبا أو مستحبا، فمثال الأول الإخلاص، ومثال الثاني الحسد.

فالإخلاص في أصل الدين واجب، وقد يكون مستحبا إذا قصد العبد التعبد في الأعمال العادية لا التعبدية، وقد يفقد المرء الإخلاص في عبادة فيكون محرما بل شركا يسمى شرك النية والإرادة والقصد، وشرك الرياء.

أما الحسد في الأصل محرم وهو تمني زوال النعمة عن المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها، فإذا لم يتمن زوال نعمة المحسود، بل يحب أن يكون له مثلها من النعمة أو أفضل منها يكون حسدا محمودا، وهو الذي يسمى الغبطة.

والآن إليكم بعض الأمثلة على الأعمال القلبية الواجبة والمستحبة.

---

[١] التحفة العراقية (ص/٣٥٦)

[٢] مدارج السالكين (٨٤/١)

الإخلاص[1]: وهو أحد أهم الأعمال القلبية الذي هو حقيقة الإسلام وهو جوهر العبادة، وهو الفيصل بين التوحيد والشرك، وهو شرط لشهادة أن لا إله إلا الله، وشرط في قبول الأعمال، وقد أمر الله به في مواضع كثيرة، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ البينة: ٥.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ الزمر: ٢ – ٣.

وقال النبي ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغي به جهه»[2].

والإخلاص يكون واجبا إذا كان في أصل الدين، إذ لا بد منه في أصل الشهادة، وإلا كان قائلها مشركا أو منافقا، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الشهادة بأن لا إله إلا الله تتضمن إخلاص الألوهية له، فلا يجوز أن يتأله القلب غيره، لا بحب ولا خوف ولارجاء، ولا إجلال ولا إكرام، ولا رغبة ولا رهبة، بل لا بد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ الأنفال: ٣٩. فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله كان ذلك من الشرك بحسب ذلك»[3].

---

[1] التعريف بهذا العمل وغيره من الأعمال الوارد ذكرها في هذا المبحث، يأتي تعريفها في مباحثها في الفصل الأول من الباب الثاني من هذه الرسالة.

[2] أخرجه النسائي في سننه (ص/٤٨٤)، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، وحسنه الألباني السلسلة الصحيحة (٥٢).

[3] اقتضاء الصراط المستقيم (٣٧٤/٢).

وكذلك يكون واجبا في الأعمال التعبدية التي يقصد بها التعبد لله عز وجل، مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج والدعاء والذكر وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال التعبدية، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله، تحقيقا لقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ البينة: ٥، فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده، وإلى بيت الله وحده»[١]، ويقول أيضا: «وأصناف العبادات، الصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها من السجود، والركوع، والتسبيح، والدعاء، والقراءة، والقيام، لا يصلح إلا لله وحده»[٢].

وأما الأعمال الاعتيادية لا التعبدية، كالأكل والشرب والنوم ونحو ذلك، فإنه لا يجب فيها الإخلاص، ولكنه يستحب كي ينال فيها الأجر والثواب، يقول شيخ الإسلام: «والمباح بالنية الحسنة يكون خيرا، وبالنية السيئة يكون شرا، ولا يكون فعل اختياري إلا بإرادة...، فإذا فعل شيئا من المباحات، فلا بد له من غاية ينتهي إليها قصده، وكل مقصود إما أن يقصده لنفسه، وإما أن يقصده لغيره، فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له، وهو إلهه الذي يعبده لا يعبد شيئا سواه، وهو أحب إليه من كل ما سواه، فإن إرادته تنتهي إلى إرادة وجه الله، فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة»[٣].

المحبة: أي؛ محبة الله ورسوله هي من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، وهى مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد فى الدنيا والآخرة، وقد جاء ذكر المحبة في القرآن والسنة.

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٣٧٠).

[٢] مجموع الفتاوى (١/٤٤٩).

[٣] الإيمان الكبير (ص/٣٨-٣٩)

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران: ٣١.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ البقرة: ١٦٥.

وقال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يوقد له نار فيقذف فيها»[(١)].

وقال النبي ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[(٢)].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا درجات المحبة: «ومحبة الله ورسوله ﷺ على درجتين:

واجبة؛ وهي درجة المقتصدين.

ومستحبة؛ وهي درجة السابقين.

فالأولى تقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لا يحب شيئا يبغضه كما، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ المجادلة: ٢٢، وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى وبغض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضي وجود ما أوجبه،كما تقتضي عدم الأشياء التي

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (ص/٦) كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩)، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (ص/٨٤٥)، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي في سننه (ص/٥٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٨٥).

نهى الله عنها، وذلك مستلزم لبغضها التام، فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله.

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم الله إليه»[1].

الخوف: وهو من أجل العبادات القلبية، وأعلاها وأشرفها، وهو أحد أركان العبادة، وأحد محركات القلوب الثلاثة، وقد جاءت النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في الحث عليه، ومدح أهله، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥.

قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمن: ٤٦.

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات: ٤٠ – ٤١.

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٧.

وذكر النبي ﷺ مِن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين»[2].

والقدر الواجب من الخوف هو الذي يدفع الإنسان لفعل الواجبات وترك المحرمات، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والخوف المحمود الصادق: ما حجزك عن محارم الله»[3].

---

[1] قاعدة في المحبة (ص/١٦٤-١٦٥)، باختصار.

[2] أخرج البخاري في صحيحه (ص/١٠٧)، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المسجد، ومسلم في صحيحه (ص/٣٩٧)، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

[3] نقل عنه ذلك تلميذه ابن القيم في مدارج السالكين (١/٣٨٣).

أما الخوف المستحب فهو الذي يحمل الإنسان على فعل المستحبات وترك المكروهات.

قال ابن رجب الحنبلي[1] رحمه الله: «والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات كان ذلك فضلا محمودا»[2].

الصبر: هو من أوجب الأعمال القلبية، بل هو نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر[3]، قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر سبحانه الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعا»[4]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٣.

قال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٧.

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٦.

---

(١) هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الواعظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن بن محمد بن مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ ونشأ وتوفي في دمشق سنة ٧٩٥هـ، من كتبه: جامع العلوم والحكم، والقواعد الفقهية، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لم يتمه، وذيل طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، وغيرها. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي (ص/٥٤٠)، والأعلام (٢٩٥/٣).

(٢) التخويف من النار (ص/٢٨).

(٣) انظر: قاعدة في الصبر والشكر (٨٩-٩٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبوعة في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١١٦)، والأثر: «إن الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر» ومن قول عبد الله من مسعود رضي الله عنه موقوفا، أخرجه والبيهقي في الشعب (١٩٤/١٢) والطبراني في المعجم الكبير (١٠٤/٩).

(٤) انظر: مدارج السالكين (١١٣/٢)

وروى أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «اتقي الله واصبري». فقالت: وما تبالي بمصيبتي. فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ. فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوّابين، فقالت: يا رسول الله، لم أعرفك. فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»(١).

وينقسم الصبر باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى.

القسم الثاني: الصبر عن محارم الله ﷻ.

القسم الثالث: الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى.

فالصبر على أداء الواجبات، والصبر على المحرمات، والصبر على المصائب، فهذه الأقسام الثلاثة الصبر فيها واجب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أدء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه»(٢).

وأما الصبر على أداء المستحبات، والصبر على ترك المكروهات فهو صبر مستحب.

الرضا: من أجل أعمال القلوب وأشرفها، وقد أجمع العلماء على مشروعيته، واختلفوا في وجوبه واستحبابه في مواضع، وقد جاء في القرآن والسنة مدح الراضين والثواب المرتب على من اتصف بهذا الخلق العظيم، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ البينة: ٨.

وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ المائدة: ١١٩.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٥)، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٩)، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٥٣-٣٥٤).

وقال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا»[1].

فالقدر الواجب من الرضا هو الرضا بأمر الله الشرعي، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان كما قال النبي ﷺ: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا"، وهو من توابع المحبة»[2].

وأما الرضا بما يفعله الله بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلازل فمختلف فيه، حكى الخلاف شيخ الإسلام ورجح استحبابه، قال رحمه الله: «وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضا، هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين، فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين»، ثم رجح استحبابه فقال: «ولهذا لم يجئ في القرآن إلا مدح الراضين، لا إيجاب ذلك»[3].

وقال أيضا: «وينبغي للإنسان أن يرضى بما يقدره الله عليه من المصائب التي ليست ذنوبا مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل أو أذى الخلْق له، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع، لكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم، أصحهما أنه مستحب ليس بواجب»[4].

الزهد: فالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة من أعمال المقتصدين والمقربين، وقد جاء الحث عليه في القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٤٨)، كتاب الإيمان، باب الدليل على من رضي بالله ربا.

(2) التحفة العراقية (ص/٣٥٧).

(3) التحفة العراقية (ص/٣٥٦-٣٥٧).

(4) مجموع الفتاوى (٨/١٩١).

تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النساء: ٧٧، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ الرعد: ٢٦.

وقال النبي ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع»[١]، وقال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء»[٢].

فالزهد الواجب هو ترك ما يمنع الرجل من أداء الواجب والقيام به، وأما الزهد المستحب هو ترك ما يشغل الرجل من فعل المستحب، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

«فثبت أن الزهد الواجب هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة، فالزهد المستحب هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين»[٣].

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٤٦)، في كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

[٢] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٢٤)، في كتاب الزهد، باب ماجاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٨٤)، في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، وصحح الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٠).

[٣] مجموع الفتاوى (١٤٧/٢٠).

المطلب الثاني

أعمال القلوب المباحة

تقدم في المطلب الأول ذكر وبيان بعض الأمثلة لأعمال القلوب المشروعة الواجبة والمستحبة، والآن نذكر بعض الأعمال المباحة، ولكن قبل الشروع في ذكرها نشير إلى أمر، وهو؛ أن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة يجد الدلالة الواضحة على وجود أعمال قلبية مباحة، وقد نص على ذلك شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله[1].

ومن أمثلة الأعمال القلوب المباحة ما يلي:

أولاً: المحبة، وهي المحبة التي يسميها البعض المحبة المشتركة وهي ثلاثة أنواع:

١- محبة طبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم، والزوجة، والولد.

٢- محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل.

٣- محبة أنس وألف، وهي محبة المشتركين - في صناعة أو علم أو تجارة أو سفر - لبعضهم بعضا، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا.

فهذه الأنواع الثلاثة التي تصلح للخلق، بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركا في محبة الله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان يحب نساءه، وعائشة رضي الله عنها أحبهن إليه، وكان يحب أصحابه، وأحبهم إليه الصديق رضي الله عنه[2].

---

[1] انظر: الاستقامة (١٢٣/٢)، ومدارج السالكين (٨٤/١).

[2] انظر: طريق الهجرتين (ص/٤٤١)، وتيسير العزيز الحميد (ص/٤٠٢).

كل هذه الأنواع من المحبة ليست شركا إذ هي لم تتضمن مع المحبة معنى التعظيم، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام في معرض بيانه لمعنى العبادة إذ قال: «ولو أحب شيئا و لم يخضع له لم يكن له عابدا، كما قد يحب ولده وصديقه»[1].

ثانيا: الخوف، وهو الخوف الطبيعي وهو الخوف فيما أسبابه ظاهرة، كخوف الإنسان من عدو أو سباع أو حية وما أشبه ذلك، قال الشيخ السعدي رحمه الله: «إذا كان خوفا محققا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم»[2]، كما ذكر الله عن موسى عليه السلام في قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ القصص: ٢١.

ثالثا: الرضا، وهو الرضا بقضاء الله الكوني الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة، أمر لازم بمقتضى الطبيعة ولا ينكره أحد، لأنه ملائم للعبد، محبوب له[3]، وهو رضا مباح ليس بمستحب ولا واجب لأنه لم يقع على وجه تعبد، بل كما أسلفنا كان موافقا لهواه وطبعه، والله أعلم.

رابعا: الصبر، وهو الصبر على كل فعل أو ترك يستوي فيه الطرفان بين فعله وتركه، فالصبر على المباح مباح.

من خلال هذه الأمثلة للأعمال القلبية المباحة نخلص إلى قاعدة، وهي: أن ما كان – من الأعمال القلبية المباحة – سببا لمباح فهو مباح، فإن أعان على طاعته فهو عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، وإن كان سببا لترك واجب أو ارتكاب محرم فهو محرم، يقول شيخ الإسلام: «والمباح بالنية الحسنة يكون خيرا، وبالنية السيئة يكون شرا، ولا يكون فعل اختياري إلا

(١) العبودية (ص/٢٣).

(٢) القول السديد (ص/٢٠٨).

(٣) انظر: مدارج السالكين (١٤٣/٢).

بإرادة...، فإذا فعل شيئا من المباحات، فلا بد له من غاية ينتهي إليها قصده، وكل مقصود إما أن يقصده لنفسه، وإما أن يقصده لغيره، فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له، وهو إلهه الذي يعبده لا يعبد شيئا سواه، وهو أحب إليه من كل ما سواه، فإن إرادته تنتهي إلى إرادة وجه الله، فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة.

وإن كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له، فإن الله أباحها للمؤمنين من عباده، بل الكفار وأهل الجرائم والذنوب وأهل الشهوات يحاسبون يوم القيامة على النعم التي تنعموا بها فلم يذكروه ولم يعبدوه بها»[1].

[1] الإيمان الكبير (ص/٣٨-٣٩)

المطلب الثالث

أعمال القلوب المحرمة والمكروهة

إن المحرمات المتعلقة بالقلب منها ما تخرِج صاحبها من الملة وتخلده في النار،كالكفر والشرك والنفاق، ومنها دون ذلك، أي لا تخرج صاحبها من الملة ولا تخلده في النار.

ثم النوع الثاني من المحرمات القلبية منها ما هي من كبائرالذنوب، مثل الكبر، والحسد، والقنوط من روح الله، والأمن من مكر الله إلى غير ذلك من الكبائر، ومنها ما هي من صغائر الذنوب، مثل شهوة المحرمات وتمنيها.

وهذه المحرمات القلبية وإن تفاوتت في درجاها فأصلها يرجع إلى نوعين:

الأول: ترك مأمور به، وهو أعظم النوعين.

الثاني: فعل محظور منهي عنه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ومن فعل محظور، فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب.

وترك الإيمان والتوحيد والفرائض التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب عند كل أحد، بل هي أعظم الصنفين، فإن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة، كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب، كعباد مشركي الهند وعباد النصارى وغيرهم، فإنهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه»[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (١١/٦٧١).

لكن بما أن التقسيم الأول هو أسهل استيعابا وأكثر تداولا، نبدأ بذكر بعض الأمثلة على نحو هذا التقسيم.

أولا: أعمال القلبية المخرجة من الملة، وهي تنقسم على قسمين:

- أعمال القلوب الكفرية.
- أعمال القلوب الشركية.

أ) أعمال القلوب الكفرية؛ وقبل الشروع في ذكر بعض الأمثلة من أعمال القلوب الكفرية أريد أن أذكر بعض أقوال العلماء في تعريفهم للكفر، يقول ابن حزم في تعريف الكفر في الشريعة: «جحد الربوبية، وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيء مما أتى به رسول الله ﷺ مما صح عند جاحده بنقل الكافة، أو عمل شيء قام البرهان بأن العمل به كفر»[1].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والكفر عدم الإيمان؛ سواء كان معه تكذيب، أو استكبار، أو إباء، أو إعراض»[2].

ويقول أيضا: «فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب أو إعراض عن هذا كله حسدا، أو كبرا، أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة»[3].

ويقول أيضا: «الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه مثل كفر فرعون واليهود»[4].

ويقول السبكي: «التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية أو الوحدانية أو الرسالة، أو قول أو فعل حكم الشارع بأنه كفر وإن لم يكن جحدا»[1].

---

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٢٣٢).

[2] الإيمان الأوسط (ص/١٨٤).

[3] مجموع الفتاوى (١٢/٣٣٥).

[4] درء تعارض العقل والنقل (١/٢٤٢).

ويقول ابن القيم: «الكفر جحد ما علم أن الرسول جاء به، سواء كان من المسائل التي تسموها علمية أو عملية فمن جحد ما جاء به الرسول ﷺ بعد معرفته بأنه جاء به، فهو كافر في دق الدين وجله»[٢]، وهذه التعريفات أغلبها من باب تعريف الشيء ببعض أفراده، لأن الكفر يكون بالتكذيب، والاستكبار والإباء، والإعراض كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام.

وفيما يلي التعريف بكل نوع منها:

الأول: كفر الإنكار والتكذيب، وهذا الكفر يناقض قول القلب، وقد عرفه الإمام البغوي فقال: «كفر الإنكار هو؛ أن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به»[٣].

وفي معنى كفر التكذيب يقول ابن القيم في تعريفه: «هو اعتقاد كذب الرسل»[٤]

فالتكذيب هنا مرجعه إلى إنكار القلب وعدم معرفة الحق وصدق الرسل، يقول شيخ الإسلام: «كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق والإقرار به، وسبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه من النظر التام والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه»[٥].

وقد أجمع العلماء على كفر من كذَب حكما من أحكام الله الظاهرة المتوارة أو خبرا من أخبارهم، وكلامهم في هذا متواتر، منتشر في عامة كتب العقائد والأحكام.

قال الإمام ابن بطة رحمه الله: «لو أن رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئا واحداً كان برد ذلك الشيء كافراً عند جميع العلماء»[٦].

---

[١] فتاوى السبكي (٢/٥73).

[٢] مختصر الصواعق (١٥٨٩/٤).

[٣] تفسير البغوي (١٧/١).

[٤] مدارج السالكين (٢٥٣/١).

[٥] مجموع الفتاوى (٢٣/١٤).

[٦] الإبانة الصغرى (ص/٢٣٢-٢٣٣).

وقال القاضي عياض[1] رحمه الله: «وكذلك نقطع بتكفير كل من كذب، وأنكر قاعدة من قواعد الشرع، وما عرف يقيناً بالنقل المتواتر من فعل الرسول، ووقع الإجماع المتصل عليه، كمن أنكر وجوب الخمس الصلوات، أو عدد ركعاتها وسجداتها»[2].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «بل من كذب بشيء مما جاءت به الرسل عن الله فهو كافر وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ النساء: ١٥٠ – ١٥١»[3].

الثاني: كفر الإباء والاستكبار، نحو كفر إبليس وفرعون واليهود، أنهم عرفوا الحق فلم ينقادوا له ويستسلموا له.

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله ولم ينقد له إباء واستكبارا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل»[4].

---

[1] هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. له كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك، وشرح صحيح مسلم، والشفا بتعريف حقوق المصطفى، وغيرها. ولد سنة ٤٧٦هـ. وتوفي سنة ٥٤٤ هـ. انظر: السير (٢١٢/٢٠)، والأعلام (٩٩/٥).

[2] الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢٣٩/٢).

[3] الجواب الصحيح (٣٨٣/٢)

[4] مدارج السالكين (٢٥٦/١).

ووجه كون الإباء والاستكبار كفرا، لأنه يناقض الانقياد والاستسلام الذي هو أساس عمل القلب وأصله، وحقيقة الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «كلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار»[1].

وقال موضحا إيمان القلب: «الإيمان قول وعمل، أعني في الأصل قولا في القلب وعملا في القلب، فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته، وكلام الله ورسالته يتضمن إخباره وأوامره، فيصدق القلب إخباره تصديقا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الإنقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين، فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقا، فالكفر أعم من التكذيب، يكون تكذيبا وجهلا، ويكون استكبارا وظلما، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب»[2].

وقال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله: «وإن انتفى عمل القلب وعمل الجوارح مع المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان فكفر عناد واستكبار، ككفر إبليس وكفر غالب اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق و لم يتبعوه، أمثال حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف وغيرهم،

---

[1] الصارم المسلول (٩٦٧/٣).

[2] نفس المصدر (٩٦٧/٣-٩٦٨).

وكفر من ترك الصلاة عنادا واستكبارا، ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب»[١].

الثالث: كفر النفاق، وقد عرفه البغوي رحمه الله فقال: «وأما كفر النفاق، فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب»[٢].

وعرفه ابن القيم بقوله: «هو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي قلبه على التكذيب»[٣].

وقد بين حقيقته شيخ الإسلام رحمه الله بقوله إذ قال: «وأساس النفاق الذي يبنى عليه هو؛ أن المنافق لا بد أن تختلف سريرته وعلانيته، وظاهره وباطنه»[٤].

وبهذا يظهر الفرق بين الكفر والنفاق، إذ الكفر هو اعتقاد الكفر وإظهاره، أما النفاق هواعتقاد الكفر وإظهار الإيمان، والكلام هنا على النفاق الأكبر، لأن النفاق ينقسم على قسمين:

نفاق أكبر، وهو أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وهو مخرج من الملة، ومخلد صاحبه في النار، بل في الدرك الأسفل من النار،كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ النساء: ١٤٥.

ونفاق أصغر، وهو النفاق في الأعمال، مثل الكذب، والخيانة، وإخلاف الوعد، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[١].

---

[١] معارج القبول (٢/٥٩٤).

[٢] تفسير البغوي (١/١٧).

[٣] مدارج السالكين (٢/٢٥٤).

[٤] الإيمان الأوسط (ص/١٦٦).

يقول شيخ الإسلام: «ثم إبطان ما يخالف الدين؛ إما أن يكون كفرا، أو فسقا. فإذا أظهر أنه مؤمن وأبطن التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر الذي أوعد صاحبه بأنه في الدرك الأسفل من النار.

وإن أظهر أنه صادق أو موف أو أمين، وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك، فهذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقا»[٢].

الرابع: كفر الإعراض، وهو مما يناقض عمل القلب لأن الإعراض هو الانصراف عن الشيء بالقلب، وله حالات وأنواع[٣]، والدليل عليه قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ الأحقاف: ٣، ذكر هذه الآية الشيخ محمد بن عبد الوهاب مستدلا بها على هذا النوع من الكفر[٤].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والكفر أعم من التكذيب، فكل من كذب الرسول كافر وليس كل كافر مكذبا، بل من يعلم صدقه ويقر به وهو مع ذلك يبغضه أو يعاديه كافر، أو من أعرض فلم يعتقد لا صدقه ولا كذبه كافر وليس بمكذب»[٥].

وقال ابن القيم في تعريفه: «وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة كما قال أحد بني

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/٥٦)، في كتاب الإيمان، باب خصال المنافق.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤٣/١١)، وانظر: (٣٦٥/٢٨)، والإيمان الأوسط (ص/١٨٤-١٨٥).

(٣) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية (١٢١/٢-١٢٧) تأليف: محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي.

(٤) الدرر السنية (٧١/٢).

(٥) الفتاوى الكبرى (٥١٨/٦).

عبد ياليل للنبي: والله أقول لك كلمة إن كنت صادقا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك»[1].

الخامس: كفر الشك، إذا كان اليقين هو شرط في صحة الإيمان وهو حقيقة العلم بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن الشك ضده، قال الأزهري: «الشك؛ نقيض اليقين»[2].

وعرفه ابن القيم بقوله: «فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول جملة؛ فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها: فإنه لا يبقى معه شك»[3].

وقال الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله: «كفر الشك هو كفر الظن، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ الكهف: ٣٥ – ٣٧»[4].

وكفر الشك يكون بالشك في شيء مما يجب الإيمان به، وإن لم يصحب ذلك الشك في أصل الرسالة، ولذا حكم العلماء بكفر من شك في شيء من أحكام الكتاب والسنة أو بأخبارهما.

---

(١) مدارج السالكين (١/٢٥٣).

(٢) تهذيب اللغة (٩/٣١٦).

(٣) مدارج السالكين (٢/٢٥٤).

(٤) الدرر السنية (٢/٧١).

يقول القاضي عياض: «اعلم أن من استخف بالقرآن، أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبهما، أو جحده، أو حرفا منه أو آية، أو كذب به، أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم وخبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبت، على علم منه بذلك، أو شك في شيء من ذلك، فهو كافر عند أهل العلم بإجماع»[(١)].

وفي النهاية أشير إلى فائدة متعلقة بالفرق بين الشك والريب، يذكر شيخ الإسلام فرقا دقيقا بين الريب والشك فيقول: «والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علما وعملا»[(٢)].

وبهذا نكون قد انتهينا من الشق الأول من المحرمات المخرجة من الملة وهي المحرمات الكفرية، والآن ننتقل إلى الشق الثاني من المحرمات المخرجة من الملة وهي المحرمات الشركية.

ب) أعمال القلوب الشركية؛ إن التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب ثلاثة أنواع:

١- توحيد الربوبية، وهو إفراد الله تعالى بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة.

٢- توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة من سواه.

٣- وتوحيد الأسماء والصفات، وهو بمعنى إثبات لله ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله من الأسماء والصفات، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل[(٣)].

---

(١) الشفاء (٢/٢٥٠).

(٢) الإيمان الكبر (ص/٢٢١).

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/١٧-١٩)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/٢٠-٢٢) للشيخ الفوزان.

وبالتالي يكون الشرك في هذه الأنواع الثلاثة، الشرك في الربوبية، والشرك في الألوهية، والشرك في الأسماء والصفات، والذي يهمنا - وهو موضوع بحثنا - هنا هو الشرك في الألوهية لتعلقه بأعمال القلوب.

وإذا عرفنا توحيد الألوهية يسهل علينا معرفة الشرك فيه، وزيادة إيضاح وبيان لتوحيد الألوهية أنقل بعض الأقوال لأهل العلم في تعريفه:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده، فلا يدعى إلا هو، ولا يخشى إلا هو، ولا يتقى إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيين أربابا»[1].

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في تعريفه: «توحيد الألوهية هو الذي وقع فيه النزاع من قديم الدهر وحديثه، وهو توحيد الله بأفعال العباد، كالدعاء والرجاء، والخوف، والخشية، والاستعانة، والمحبة، والنذر، والذبح، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والتذلل، والتعظبم»[2].

وهو يسمى بتوحيد العبادة أيضا، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والعبادة أصل معناها: الذل...، يقال طريق معبد، إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب؛ فهي تتضمن غاية الذل لله، بغاية المحبة له... ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله... »[3].

---

(1) منهاج السنة النبوية (٣/٤٩٠).

(2) الدرر السنية (٢/٦٧-٦٨).

(3) العبودية (ص/٢٢-٢٣).

فإذا فهمنا أن توحيد العبادة هو صرف جميع أنواع العبادة لله ﷻ، فالشرك في العبادة هو أن يصرف شيء من العبادة لغير الله سبحانه وتعالى، أو أن يشبه المخلوق بالخالق في المحبة والتعظيم والتوكل والدعاء، أو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله كالألوهية، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره، أو توكل عليه فهو مشرك به»[1].

ويقول أيضا: «الشرك في الإلهية فهو: أن يجعل لله ندا،أي: مثلا في عبادته، أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه»[2].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فالمشرك مشبّه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية:

فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق...

ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده، ويمنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لاشبيه له ولاند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لايغفره...

---

[1] الاستقامة (١/٣٤٤).

[2] مجموع الفتاوى (١/٩١).

ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين، لا قوام لها بدونهما؛ غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه»[1].

وينقسم الشرك إلى قسمين:

الأول: الشرك الأكبر، وهو أن يتخذ من دون الله ندا، يحبه كما يحب الله، أو يرجوه، أو يخافه، أو يصرف له نوعا من أنواع العبادة، وهذا الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو الذي قد حرم على صاحبه دخول الجنة ومأواه النار، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾ النساء: ٤٨.

وقوله: ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ** ﴾ المائدة: ٧٢.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما الشرك، فهو نوعان؛ أكبر و أصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين»[2].

ولخص الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعريف الشرك الأكبر بعبارة موجزة فقال:

«فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده، أن يصرف العبد نوعا من أفراد العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر.

فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء»[1].

---

[1] الداء والدواء (ص/٣١٣-٣١٥).

[2] مدارج السالكين (١/٢٥٤).

الثاني: الشرك الأصغر، وهو جميع الأقوال والأفعال التي يُتوسل بها إلى الشرك الأكبر، كالحلف بغير الله، ويسير الرياء.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «حد الشرك الأصغر هوكل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة»[٢].

وتبين مما سبق أن الشرك ينقسم إلى قسمين، أكبر وأصغر، وأخطره الشرك الأكبر الذي هو يخرج صاحبه من الملة وحقيقته صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله.

أما أنواع هذا القسم فكثيرة، حصرها بعض أهل العلم في أربعة أنواع وهي:

١- شرك الدعوة (الدعاء).

٢- شرك النية والقصد والإرادة.

٣- شرك الطاعة.

٤- شرك المحبة[٣].

وحقيقة هذه الأنواع ترجع إلى نوعين:

الأول: شرك في الاعتقاد، وهنا يدخل عمل القلب.

الثاني: شرك في الأقوال والأعمال، وسيقتصر حديثنا هنا على بعض الأمثلة للنوع الأول، وهو الشرك بعمل القلب:

الأول: النية والإرادة والقصد، تقدم معنا أن الإخلاص هو حقيقة الإسلام وهو جوهر العبادة، وهو الفيصل بين التوحيد والشرك، وأن حقيقته هو أن يتوجه قصد العبد إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) القول السديد (ص/١٢٠-١٢١).

(٢) القول السديد (ص/١٢١)، وانظر: مدارج السالكين (١/٢٥٨).

(٣) الدرر السنية (٢/٦٩-٧٠).

فينافي هذا الإخلاص الشرك في القصد والنيات والإرادات، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن النية المعهودة في العبادات تشتمل على أمرين:

١- قصد المعبود، أي تمييز المقصود بالعبادة، هل هو الله وحده لا شريك له، أم هو غيره.

٢- قصد العبادة، أي تمييز العبادات بعضها عن بعض.

وبعد أن بيّن المقصود بكل منهما، قال: «أما الأولى: فبها يتميز من يعبد الله مخلصا له الدين ممن يعبد الطاغوت أو يشرك بعبادة ربه، ومن يريد حرث الآخرة ممن يريد حرث الدنيا، وهو الدين الخالص لله الذي تشترك فيه جميع الشرائع الذي نهي الأنبياء عن التفرق فيه»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وأما الشرك فى الإرادات والنيات فذلك البحر الذى لا ساحل له وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه، فقد أشرك فى نيته وإرادته»[2].

ولكن الشرك في النية والإرادات درجات، فقد يكون شركا أكبر مخرجا من الملة فيحبط العمل، وقد يكون دون ذلك، ونؤجل الكلام عنه إلى مبحث النية.

الثاني: المحبة، لما كانت المحبة أصل كل عمل من أعمال القلوب والجوارح، كان الإشراك في المحبة، أصل كل شرك عملي، فأصل الشرك في المشركين هو اتخاذهم أندادا يحبونهم كحب الله، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ البقرة: ١٦٥.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فأخبر أن من الناس من يشرك بالله فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء، والمؤمنون أشد حبا لله من

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٤/٢٦).

[2] الداء والدواء (ص/٣١٢).

هؤلاء لأندادهم ولله، فإن هؤلاء أشركوا بالله في المحبة فجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد، والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذي أصله المحبة لله، فلم يجعلوا لله عدلا في المحبة، بل كان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما»[(١)].

ويقول أيضا: «والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله والمشركون يحبون غير الله مع الله كحب المشركين لآلهتهم، وحب النصارى للمسيح، وحب أهل الأهواء رؤوسهم»[(٢)].

ويقول أيضا: «ويجب الفرق بين الحب في الله والحب مع الله، فالأول من تمام محبة الله وتوحيده، والثاني شرك، فالأول يكون الله هو المحبوب له بذاته، ويحب ما يحب الرب تعالى تبعا لمحبته...، وأما الحب مع الله فهو الذي يحب محبوبا في قلبه لذاته لا لأجل الله، كحب المشركين أندادهم»[(٣)].

نخلص من كلام شيخ الإسلام أن الله يجب أن يكون المحبوب لذاته، وهذه التي تسمى المحبة الخاصة وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وأن هذه المحبة لا يجوز صرفها لغير الله، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك، ويوضح ذلك ابن القيم رحمه الله إذ يقول: «الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقا كما يحب الله فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

---

(١) قاعدة في المحبة (ص/١٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٤٦٥).

(٣) الاستغاثة في الرد على البكري (ص/٣٧٩).

ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه فى الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سوّوهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم»[1].

الثالث: الخوف، وهو أحد أركان العبادة ومن لوازمها، ولا يجوز صرفه لغير الله، ولا يكون العبد مسلما إلا بإخلاصه لله ﷻ، وقد جاء النهي عن صرفه لغير الله، قال تعالى:

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ المائدة: ٤٤.

فصرف الخوف لغير الله تعالى هو شرك، إذ لا يخاف الإنسان أحدا الخوف التعبدي إلا إذا اعتقد في قلبه أنه يملك نفعه أو ضره، أو يشارك في ملك الله، واعتقاد مثل هذا شرك أكبر[2]، بعبارة أخرى اعتقاد إيجاد المسببات - النفع أو الضر- بدون مباشرة الأسباب إلا الله عز و جل شرك[3].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك»[4].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله بعد أن ذكر أن الخوف ينقسم إلى ثلاثة أقسام: «أحدها: خوف السر؛ وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيءته، سواء ادعى أن ذلك كرامة

---

(١) الداء والدواء (ص/٣٠٤).

(٢) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٩٤).

(٣) قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/٦٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٣٣/٢٧).

للمخوف بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلا، لأن هذا من لوازم الإلهية فمن اتخذ مع الله ندا يخافه هذا الخوف فهو مشرك»[1].

الرابع: الرجاء، وهو من أجل الأعمال القلبية، وهو أحد أركان العبادة، وهو قسيم الخوف، ولا يجوز صرفه إلا لله تبارك وتعالى، وقد جاء الأمر به في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا** ﴾ الإسراء: ٥٧.

وقال تعالى: ﴿ **وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ الأعراف: ٥٦.

فمن رجا من مخلوق كما يرجو من الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كغفران الذنوب، وهداية القلوب، وإنزال المطر، أو حصول الولد، أو نحوه فقد أشرك مع الله غيره.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاءِ بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسبابا، فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيءة الله تعالى»[2].

ويقول الشيخ سليمان رحمه الله: «ومنها الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيا حصول مطلوبه من جهتهم فهذا شرك أكبر»[3].

ثانيا: أعمال القلوب التي هي من كبائر الذنوب، وهي المحرمات القلبية دون الكفر، فلا يخرج صاحبها من الملة، وهي كثيرة مثل؛ الكبر، والحسد، والرياء، والعجب، والقنوط من

[1] تيسير العزيز الحميد (ص/٤١٧).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٢٥٦).

[3] تيسير العزيز الحميد (ص/٢٣-٢٤).

رحمة الله، والأمن من مكر الله، والسخط على أقدار الله، والرضا بالمحرمات، وبغض المسلمين بعضهم لبعض إلى غير ذلك، وسنتكلم على بعض منها بشيءٍ من التفصيل:

الأول: الكبر، من أوائل الذنوب التي عصي الله به هو الكبر، بل عده بعض السلف أول ذنب[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٣٤، وهوكان سببا في هلاك كثير من الناس، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين، وهما أعظم الذنوب التي بها عصي الله، أولا فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه»[2]. وقد عرَّف النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[3].

ومعنى «بطر الحق» هو دفعه وانكاره ترفعا وتجبرا.

وقوله «غمط الناس» هواحتقارهم.[4]

وقد جاء النهي عنه وذم أهله في غير ما آية في القرآن وحديث في السنة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ النحل: ٢٣.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ لقمان: ١٨.ز

---

[1] انظر: الكبائر للذهبي (ص/١٩٤).

[2] رسالة في التوبة (١/٢٣٣)، وانظر: المجموع (١٠/١٢٦).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٦٣)، في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

[4] انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٩٠).

وقال النبي ﷺ؛ قال الله عز وجل: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما ألقيته في النار»[1].

والكبر أنواع:

1) **الكبر على الله تعالى وعلى الرسول** ﷺ، وهو أفحش أنواع الكبر، ويبين خطورة هذا النوع شيخ الإسلام إذ يقول رحمه الله: «وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: "أن الجنة لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من كبر" كما أن النار لا يخلد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فجعل الكبر مقابلا الإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية...، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر: ٦٠.

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "أصدق الأسماء حارث وهمام"[2]، فالحارث الكاسب الفاعل، والهمام فعال من الهم، والهم أول الإرادة فالإنسان له إرادة دائما، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك فلا بد أن له مراد محبوب يستعبده غير الله.

---

[1] أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده (٣١٣/١٥)، أبو داود في سننه (ص/٧٣٢)، في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، وابن ماجه في سننه (ص/٦٩٤) في كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٤١)، وأخرج الحديث مسلم (ص/ ١٠٥٣)، في كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر باللفظ: قال رسول الله ﷺ « العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته».

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/٣١)، وأبو داود في سننه (ص/٨٩٥)، في كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٠٤).

بل، الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارا عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب، الذي هو المقصود – مقصود القلب بالقصد الأول – فيكون مشركا بما استعبده من ذلك»[1].

٢) الكبر على الخلق- وهذا هو المراد هنا -، وهو كما تقدم أن يستعظم الإنسان نفسه ويحتقر غيره ويزدريه، وله أنواع وأشكال، لكن أنبه إلى أشرّها كما قال الذهبي وهو: «من تكبر على العباد بعلمه، وتعاظم في نفسه بفضيلته، فإن هذا لم ينفعه علمه، فإن من طلب العلم للآخرة كَسَرَه علمُه، وخشع قلبه، واستكانت نفسه، وكان على نفسه بالمرصاد، فلم يفتر منها، بل يحاسبها كل وقت ويثقّفها؛ فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم وأهلكته، ومن طلب العلم للفخر والرياسة ونظر إلى المسلمين شزرا، وتحامق عليهم، وازدرى بهم، فهذا من أكبر الكبر، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، فلا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

الثاني: الحسد، وهو من أمراض القلوب الذي جاء ذمه والتعوذ بالله من أهله، قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ الفلق: ٥.

وهو من خلق إبليس وأخلاق اليهود، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ البقرة: ١٠٩.

وقال النبي ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»[3].

---

[1] العبودية (ص/٧٨-٨٢) باختصار.

[2] الكبائر (ص/١٩٧).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٥٩)، في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ومسلم (ص/١٠٣٣)، كتاب البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر.

قيل في حده: «إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء.

وقيل: إنه تمني زوال النعمة عن المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها.

والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود، وهو نوعان[1]:

أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضا في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة.

والنوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي ﷺ حسدا في الحديث المتفق عليه: "لاحسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار"[2]، فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

فإن قيل: إذا لم سمي حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه ؟ قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدا»[3].

---

(1) انظر أنواع الحسد عند ابن القيم في بدائع الفوائد (٧٦٢/٢)، وعند ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص/٢٦٠-٢٦٣).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٩٩)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/٣١٧)، كتاب الصلاة، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

(3) مجموع الفتاوى (١٠/١١١-١١٣) باختصار.

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس، قل من ينجو منه، وهو خلق مذموم، فنسأل الله أن يخلصنا منه، وأن يزودنا التقوى والعمل الصالح، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الثالث: القنوط من رحمة الله، هو من الأعمال المنهي عنها، وصاحبه مذموم، وهو مبني على سوء الظن بالله رب العالمين الرحمن الرحيم، ولا يفعل ذلك إلا من ضل عن سواء السبيل، واستحوذ عليه إبليس اللعين، وقد جاء النهي عنه في القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ الزمر: ٥٣.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمقصود هنا أن قوله: ﴿ **قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ۚ فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف؛ إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله»[1].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال للملائكة لما بشروه أنه سيولد له ولد: ﴿ **قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ** ﴾ الحجر: ٥٥ ـ ٥٦.

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل ﴿ **وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ**

---

[1] مجموع الفتاوى (١٦/١٩-٢٠).

ﭐلنَّفۡسَ ﭐلَّتِي حَرَّمَ ﭐللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ ﴾ الفرقان: ٦٨، ونزل ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ الزمر: ٥٣ [(١)].

وقد قسم شيخ الإسلام القنوط إلى قسمين:

الأول: أن يعتقد الإنسان أن الله لا يغفر له، و هذا لكونه أنه يستعظم الذنوب ويستبعد غفران الله عليها.

الثاني: أن يتعذر عليه التوبة، وهذا يرى للتوبة شروطا كثيرة ويقول لنفسه أنه لا يستطيع التوبة، فلا يتوب أصلا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه، وإما بأن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة، بل هو مغلوب معها والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له، وهذا يعتري كثيرا من الناس. والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة: فالأول؛ كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به مائة، ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته، والحديث في الصحيحين. والثاني كالذي يرى للتوبة شروطا كثيرة ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب»[(٢)].

الرابع: الأمن من مكر الله، وكما أن القنوط من رحمة الله يعد تجاوزا للحد في خوف العبد من ربه، فإن الأمن من مكر الله تجاوز للحد في رجاء العبد لربه، ومن ابتلي بذلك فهو

---

(١) أخرجه البخاري (ص/٨٤٨)، في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الزمر.

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/١٩-٢٠).

استدراج له، وحقيقته جهل بالله وقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها[1]، قال تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴾ الأعراف: ٩٩.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقول الله ﷻ ﴿ **أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ** ﴾: «أي بأسه ونقمته وقدرته، وأخذه إياهم في سهوهم وغفلتهم»[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالمؤمن يخاف مكر الله، ومكر الله أن يعاقبه على سيئاته، والكافر لا يخشى الله فلا يخاف مكره، ومكره أن يعاقبه على الذنب لكن من حيث لا يشعر»[3].

وقال أيضا: «وكل من ادعى الأمن فهو جاهل بالله وبما أخبر به عن نفسه: ﴿ **فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴾»[4].

ثالثا: الأعمال القلبية المكروهة، تقدم معنا أن المكروه؛ هو ما يثاب تاركه امتثالا، ولا يعاقب فاعله، وعرفنا أن أعمال القلوب تنقسم إلى خمسة أقسام: واجب، ومستحب، ومباح، ومكروه، وحرام، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام رحمه الله إذ بين أن أعمال القلوب تنقسم إلى محبوب لله ومكروه ومباح[5]، لكنه لم يمثل لذلك.

---

[1] انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/٤٣٩).

[2] تفسير ابن كثير (٢/٣١٣).

[3] مختصر الفتاوى المصرية (١/٧٦).

[4] مجموع الفتاوى (٥/٨٢).

[5] انظر: الاستقامة (٢/١٢٣).

وكذلك نجد ابن القيم رحمه الله حين مثل لأعمال القلوب، لم يمثل لأعمال القلوب المكروهة[١]، لكنه حين ذكر أقسام الصبر باعتبار تعلقه بالأحكام الخمسة ذكر من أمثلة الصبر المكروه: مثل؛ صبره على المكروه، وصبره عن فعل المستحب[٢].

وبهذا نكون قد انتهينا من ذكر أقسام أعمال القلوب وما يتبعها من أنواع وأحكام.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/٨٦).

(٢) انظر: عدة الصابرين (ص/٥٨).

المبحث الثالث: العلاقة بين أعمال القلوب.

تمهيد

قبل الدخول في بيان العلاقة بين أعمال القلوب بعضها ببعض، أريد أن أنبه إلى مسألة؛ وهي بيان دلالة الألفاظ على المعنى، فأقول

إن دلالة الألفاظ على المعنى تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- دلالة المطابقة.

٢- دلالة التضمن.

٣- دلالة الالتزام.

وذلك أن الكلام إما أن يساق ليدل على تمام معناه، وإما أن يساق ليدل على بعض معناه، وإما أن يساق ليدل على معنى آخر خارج عن معناه، لكنه لازم له.

فدلالة اللفظ على تمام معناه تسمى دلالة المطابقة، وسميت مطابقة لمطابقته، أي موافقة المعنى للفظ.

ودلالة اللفظ على جزء معناه تسمى دلالة التضمن، وسميت بدلالة التضمن لكون الجزء في ضمن المعنى الموضوع له.

ودلالة اللفظ على معنى خارج عن معناه إلا أنه لازم له تسمى دلالة الالتزام، وسميت دلالة الالتزام لأن معنى اللفظ قد استلزم ذلك الأمر الخارج عنه[1].

---

[1] انظر: روضة الناظر (ص/١٢-١٣)، ودرء تعارض العقل والنقل (٢٠٧/٥)، ومعتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى (ص/٤٢٤-٤٢٥)، والمجلى في شرح القواعد المثلى (ص/١٠٢-١٠٤).

ومن هذا التقسيم يتضح لنا أن علاقة أعمال القلوب هي علاقة التضمن وعلاقة الالتزام، ومن خلال كلام شيخ الإسلام المبثوث في كتبه[1] يفهم أنه رحمه الله يقرر هاتين العلاقتين بين أعمال القلوب؛ علاقة التضمن وعلاقة الالتزام.

المطلب الأول

علاقة التضمن

نص شيخ الإسلام رحمه الله على ثبوت علاقة التضمن بين أعمال القلوب، ومن ذلك ما ذكر من تضمن الشكر الرضا، لأنه كما هو معلوم أن أحوال المؤمن في تلقيه لقضاء الله وقدره على ثلاث مراتب؛ الصبر، ثم الرضا، ثم الشكر، وكل واحد أكمل من الذي قبله ومتضمن له، فالشكر متضمن للرضا والصبر، والرضا متضمن للصبر، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه»[2].

من ذلك أيضا تضمن الخشوع التواضع والذل والسكون والطمأنينة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والخشوع يتضمن معنيين:

أحدهما: التواضع والذل.

---

[1] بخلاف كلام تلميذه ابن القيم، إذ كلامه في هذا الموضوع مجتمع، انظر على سبيل المثال: مدارج السالكين (١/١٠١-١٠٦)، وقد قرر هذا الأمر بكلام أشبه ما يكون بالقاعدة العامة لتصور العلاقة بين أعمال القلوب، إذ قال رحمه الله: «إن أعلى المقامات مقرون بأدناها، مصاحب له كما تقدم، فتتضمن له تضمن الكل لجزئه، أو مستلزم له استلزام الملزوم للازمه، لا ينفك عنه أبدا»، (طريق الهجرتين ص/٣٣٩).

[2] التحفة العراقية (ص/٣٦١).

والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبودية الله وطمأنينته أيضا»[1].

وكذلك الخشية تتضمن الرجاء أيضا، ولولا ذلك لكان قنوطا، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والخشية أبدا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطا»[2].

ومن ذلك أيضا تضمن اليقين السكينة والطمأنينة، قال رحمه الله: «فكما أن اليقين ضُمِّن السكون والطمأنينة فالريب ضده ضُمِّن الاضطراب والحركة»[3]، وقال أيضا: «واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون، ومنه ماء يَقَن»[4].

ومن ذلك تضمن التوبة العزم والندم، لأن من شروط التوبة العزم عليها، والندم على ما فات من الذنوب، كما سنبين ذلك في مبحث التوبة من الفصل الثاني، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لأن التوبة العامة تتضمن عزما عاما بفعل المأمور وترك المحظور وكذلك تتضمن ندما عاما على كل محظور»[5].

وعلاقة التضمن كما تثبت في الأعمال القلبية الحسنة تثبت في الأعمال القلبية السيئة، ومن أمثلة الأعمال القلبية السيئة ما ذكر شيخ الإسلام في الحسد والشح وأنهما يتضمنان البغض والكراهية، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه..... فالحسد والشح يتضمنان بغضا وكراهية»[6].

---

(1) الإيمان الكبير (ص/٢٦).

(2) نفس المصدر (ص/٢٠).

(3) مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٢).

(4) نفس المصدر (٥/٥٧١-٥٧٢).

(5) نفس المصدر (١٠/٣٢٥).

(6) مجموع الفتاوى (١٠/٥٩٠).

المطلب الثاني

علاقة الالتزام

لقد تعددت مسالك شيخ الإسلام رحمه الله[1] في بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب، وفيما يلي نذكر تلك المسالك بشيء من التفصيل:

المسلك الأول: التنصيص على ثبوت علاقة الالتزام بين أعمال القلوب.

قد نص شيخ الإسلام رحمه الله على بعض الأعمال القلبية أنها تستلزم البعض الآخر، ومن ذلك ما ذكر من التزام الرجاء الخوف، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والخشية أبدا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»[2].

ومن ذلك أيضا التزام الخوف والرجاء المحبة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب»[3]

ومن ذلك التزام الذكر المحبة: «فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته»[4].

---

(1) لم يذكر شيخ الإسلام هذه المسالك بنصها، لكن هذا ما يفهم من كلامه، وقد استعنت على ذلك برسالة الأخت وفاء بنت زيد العزيري، إذ هي ذكرت بعض هذه المسالك، انظر: «أعمال القلوب عند ابن القيم، جمع ودراسة» (ص/١٦٤-١٧٢).

(2) الإيمان الكبير (ص/٢٠).

(3) مجموع الفتاوى (٦١/١٠).

(4) نفس المصدر (٢٠/١٥).

ومن ذلك التزام الخوف العلم، والتزام العلم الخشية، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به، فالعلم به يستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته»[1].

وفي بعض الأحيان ينص شيخ الإسلام على علاقة الالتزام بلفظ الاقتضاء بدلا من الالتزام، ومنها أن الإخلاص يقتضي الشكر، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لا إله إلا الله تقتضي الإخلاص والتوكل، والإخلاص يقتضي الشكر، فهي أفضل الكلام، وهي أعلى شعب الإيمان»[2].

ومن ذلك أيضا اقتضاء الإنابة المحبة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأيضا فاسم الإنابة إليه يقتضي المحبة أيضا»[3].

ومن ذلك أيضا اقتضاء الوجل الخوف والخشية، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه»[4].

وأحيانا ينص شيخ الإسلام على علاقة الالتزام بلفظ الإيجاب بدلا من الالتزام، من ذلك إيجاب المحبة الذكر، وإيجاب البغض الإعراض عن ذكر الله، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب، كما أن البغض يوجب الإعراض عن ذكر المبغض، فمن عادى الله ورسوله، وحاد الله ورسوله كان ذلك مقتضيا لإعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير، وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حتى قد ينساه»[5].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/٤٢٠).

(٣) التحفة العراقية (ص/٤٢١).

(٤) الإيمان الكبير (ص/١٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٥٣٨/٧).

ومن ذلك أيضا إيجاب العلم الخوف، وأن كل من عصى الله فهو جاهل، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات وترك السيئات، وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم، تبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم»[1].

المسلك الثاني: ثبوت علاقة التلازم بين أعمال االقلوب من خلال بيان ثمرات أعمال القلوب.

إن مما يدل على ثبوت علاقة التلازم بين أعمال القلوب ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله عن ثمرات بعض الأعمال القلبية.

فذكر أن الذكر يثمر المحبة لله ﷻ، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته»[2].

ومن ذلك أيضا أن الصدق يورث الطمأنينة والسكون، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الصدق يورث الطمأنينة والسكون»[3].

ومن ذلك أيضا أن الصبر مع الاستسلام لله علما بأن ما اختار الله له هو خير، هذا يورث الشكر لله، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا تسليم راضٍ لعلمه بحسن اختيار الله له، وهذا يورث الشكر»[4].

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٠٤/٨).

[2] نفس المصدر (٢٠/١٥).

[3] نفس المصدر (٥٧٠/٥).

[4] نفس المصدر (٢٧/١٧).

المسلك الثالث: بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب من خلال إثبات المقابلة بين أعمال القلوب.

إن مما يدل على ثبوت علاقة الالتزام بين أعمال القلوب ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله من المقابلة بين بعض الأعمال القلبية، ومعنى ذلك أنه إذا وُجِد بعض الأعمال يلزم وجود البعض الآخر المقابل له، مثال ذلك إذا وجد محبة الله ورسوله وجب وجود البغض لمن لم يؤمن بالله ورسوله، فإن ذلك من لوازم المحبة الصحيحة، فإن المحب لله سبحانه وتعالى لا بد له من أن يبغض ما يبغضه الله تعالى من الأعمال، وكذا يبغض ما أخبر الله سبحانه أنه يبغضهم، وهم الكافرون والظالمون والفاسقون وأمثالهم، فقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ المجادلة: ٢٢، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «هذه الآية فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله، وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله، فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[١].

ويقول أيضا: «فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداءِ الله»[٢].

---

[١] الإيمان الكبير (ص/١٢١)

[٢] مجموع الفتاوى (٥٢٢/٧).

ويقول أيضا: «وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته مع العلم بالتضاد، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المجادلة: ٢٢، والموادة من أعمال القلوب»[(١)].

المسلك الرابع: بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب من خلال انتفاء بعضها إذا انتفى بعضها الآخر.

ومن الأمور المقررة عند أهل العلم أن من الأشياء ما تزول إذا زال بعضها، ومنها ما لا تزول إذا زال بعضها ولكنها تنقص، كما قرر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله إذ قال: «فإن الحقيقة الجامعة لأمور - سواء كانت في الأعيان أو الأعراض - إذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، وسواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها»[(٢)].

وأعمال القلوب كذلك منها الملازمة في الانتفاء ومنها ما لا يلزم من انتفائها انتفاء الآخر، لكن قد يلزم منه النقص، وخاصة إذا عرفنا أنها درجات في الوجوب والاستحباب، ومنها الأصل ومنه الفرع، ومن أمثلة التلازم في الانتفاء التلازم بين المحبة والخوف والرجاء.

قال شيخ الإسلام ناقلا عن بعض السلف أنهم قالوا: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: «وكره من كره من أهل المعرفة و العلم؛ مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية»[(١)].

---

(١) نفس المصدر (٧٥٣/١٠).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/٦٠).

(٣) العبودية (ص/٩٣).

فمرادهم أن دعوى المحبة بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء دعوى كاذبة، وهذا فيها انبساط في الأهواء ومن يدعي ذلك كثير ما يقع في المعاصي ولا يبالي، بل آل الأمر ببعض هؤلاء إلى الانسلاخ عن الدين كله، نسأل الله السلامة.

وكذلك الرجاء وحده أورد العبد غرورا وأمنا من مكر الله، وإذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصي الله.

وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بالله وقنط من رحمته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات.... والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما كَلَّها[٢] شيء، كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الطريق. والرجاء حاد يحدوها يطلب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وضلت عنها. فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا»[٣].

وتبين لنا من خلال البحث في العلاقة بين أعمال القلوب عند شيخ الإسلام رحمه الله ثبوت علاقة التضمن والتلازم بين أعمال القلوب، وكانت طريقته في بيان علاقة التضمن بين أعمال القلوب التنصيص عليها.

---

[١] نفس المصدر (ص/٩٣).

[٢] أي: أتعبها وأثقلها، انظر: لسان العرب (١٣/١٠١)، مادة «كلل».

[٣] مجموع الفتاوى (١٥/٢٠-٢١).

أما طريقته في بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب فظهرت من خلال النص على ثبوت التلازم بين الأعمال القلبية، ومن خلال بيان ثمرات أعمال القلوب، ومن خلال إثبات المقابلة بين أعمال القلوب، ومن خلال انتفاء بعضها إذا انتفى بعضها الآخر.

الفصل الثاني: مترلة أعمال القلوب من الإيمان.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: ارتباط الظاهر بالباطن والعلاقة بينهما.

المبحث الثاني: العلاقة بين جوانب الإيمان.

المبحث الثالث: المفاضلة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

المبحث الرابع: أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الخامس: أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان.

المبحث الأول: ارتباط الظاهر بالباطن والعلاقة بينهما.

تمهيد

تبين لنا فيما سبق أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وتبين لنا المراد من كل جزء، كما تبين لنا أيضا أن له أصلا وفرعا، أصله ما قام بالقلب وفرعه ما قام بالجوارح من الأعمال الظاهرة، والذي يهمنا في هذا المقام هو إظهار جانب آخر يدل على عظيم منزلة عمل القلب من الإيمان، ألا وهو ارتباط الظاهر بالباطن، والعلاقة بينها.

المطلب الأول

مفهوم علاقة التلازم بين الظاهر والباطن

ومفهوم التلازم بينهما هو ارتباط الظاهر بالباطن وتأثير كل منهما في الآخر، بحيث يستحيل وجود إيمان صحيح في الباطن من غير أن يظهر موجبه ومقتضاه على أعمال الجوارح قولا وفعلا، بل حيث وجد الإيمان في الباطن لزم أن ينفعل البدن بالممكن من أعمال الجوارح وهو الذي عبر عنه شيخ الإسلام بما مفاده أن وجود الإرادة الجازمة مع القدرة التامة يستلزم العمل، ويمنع معه ترك جميع الأعمال، وإلا لم يصح الإيمان أصلا.

فالعمل الظاهر لازم للإيمان الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، فيستدل بانتفاء العمل الظاهر بالكلية على فساد الباطن.

ولقد قرر السلف رحمهم الله هذا الأمر أيما تقرير وحرروه أيما تحرير، وذلك لعلمهم بعظم شأن هذا الأمر، وأن الخطأ والجهل به ليس كالخطأ والجهل بغيره، إذ كانت أحكام الدنيا والآخرة تتعلق بهذا الأمر العظيم.

وقد تعددت عبارات السلف في تقرير هذا الأمر وتأصيله، وفيما يلي أذكر بعض تلك العبارات[١]:

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم: أن الإيمان؛ قول وعمل ونية، ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»[٢].

ويقول الإمام الأوزاعي رحمه الله: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة، فكان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان، والعمل من الإيمان والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها وتصديقه العمل، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله فذلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه و لم يعرف بقلبه و لم يصدقه بعمله لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين»[٣].

وأُخبر عبد الله بن الزبير الحميدي[٤] رحمه الله أن أناسا يقولون: من أقرّ بالصلاة والزكاة والصوم والحج و لم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت، ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت فهو

---

[١] للتوسع في كلام السلف وتعدد عباراتهم راجع الكتاب «قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة» لمؤلفه عادل بن محمد علي الشيخاني (ص/١٩٠-٢٢٩).

[٢] شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/٩٥٧).

[٣] نفس المصدر (٥/٩٥٦).

[٤] هو أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الحميدي المكي، قال عنه الحافظ ابن حجر: «ثقة حافظ فقيه أجل أصحاب ابن عيينة»، وقال عنه الحاكم: «كان البخاري إذا وجد الحديث عند الحميدي لا يعدوه إلى غيره»، انظر: تقريب التهذيب (١/٤٩٢).

مؤمن ما لم يكن جاحدا، إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان يقر بالفرائض واستقبال القبلة.

فقلت (الحميدي): «هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفعل المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ البينة: ٥ »[1].

ويقول أبو ثور[2] رحمه الله: «فأما الطائفة التي زعمت أن العمل ليس من الإيمان فيقال لهم ما أراد الله ﷻ من العباد إذ قال لهم ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الإقرار بذلك؟ أوالإقرار والعمل؟ فإن قالت: إن الله أراد الإقرار و لم يرد العمل فقد كفرت عند أهل العلم، فإن قالت: أراد منهم الإقرار والعمل،

قيل فإذا أراد منهم الأمرين جميعا لم زعمتم أنه يكون مؤمنا بأحدهما دون الآخر؟! وقد أرادهما جميعا .

أرأيتم لوأن رجلا قال: أعمل جميع ما أمر الله ولا أقر به أيكون مؤمنا؟ فإن قالوا: لا. قيل لهم: فإن قال أقر بجميع ما أمر الله به ولا أعمل منه شيئا أيكون مؤمنا؟ فإن قالوا: نعم قيل لهم: ما الفرق؟ وقد زعمتم أن الله ﷻ أراد الأمرين جميعا، فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمنا إذا ترك الآخر جاز أن يكون بالآخر إذا عمل و لم يقر مؤمنا، لا فرق بين ذلك.

فإن احتج فقال: لوأن رجلا أسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي ﷺ أيكون مؤمنا بهذا الإقرار قبل أن يجيء وقت عمل؟ قيل له إنما نطلق له الاسم بتصديقه أن العمل عليه بقوله أن

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/٩٥٧).

(٢) وهو أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، صاحب الشافعي، مفتي العراق، أحد أئمة الدنيا فقها وعلما وورعا وفضلا وديانة وخيرا، من الذابين عن السنة، توفي سنة ٢٤٠ هـ، انظر: السير (١٢/٧٢)، وطبقات الشافعية (٢/٧٤)، وتقريب التهذيب (١/١٧١).

يعمله في وقته إذا جاء، وليس عليه في هذا الوقت الإقرار بجميع ما يكون به مؤمنا، ولو قال: أقر ولا أعمل لم نطلق له اسم الإيمان»[1].

ويقول شيخ الإسلام معلقا على كلام أبي ثور: «قلت (شيخ الإسلام) يعني الإمام أبو ثور رحمه الله أنه لا يكون مؤمنا إلا إذا التزم بالعمل مع الإقرار، وإلا فلو أقر و لم يلتزم العمل لم يكن مؤمنا. وهذا الاحتجاج الذي ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين: الإقرار والعمل وهو يدل على أن كلا منهما من الدين وأنه لا يكون مطيعا لله ولا مستحقا للثواب ولا ممدوحا عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعا، وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والإيمان جميعا»[2].

وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله بعد أن قرر أن الإيمان قول وعمل وأنه يزيد وينقص، ثم ذكر بعض الآيات التي تدل على التلازم بين الظاهر والباطن، ومنها قول الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ العنكبوت: ١ – ٣.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠.

وقال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤١.

ثم قال أبو عبيد: «أفلست تراه تبارك وتعالى، قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، و لم يرض منهم الإقرار دون العمل، حتى جعل أحدهما من الآخر؟ فأي شيء يتبع بعد كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة»[3].

---

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٩٣٢-٩٣٣).

[2] الإيمان الكبير (ص/٣٠٥).

[3] الإيمان (ص/٣٤).

وبعد ما ذكر قول الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ الأنفال: ٢ – ٤، قال أبو عبيد رحمه الله: «فلم يجعل للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعمه أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنا حقا، وإن لم يكن هناك عمل، فهو معاند لكتاب الله والسنة»[١].

أما كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع فهو من أحسن الكلام وأمتنه، إذ بين هذا الأمر وفصل الكلام فيه بما لا يضع المجال لغيره أن يزيد فيه أو أن ينقص منه، وفند جميع الشبهات التي يتعلق بها المخالفون.

فبين رحمه الله أن هناك ارتباطا وثيقا بين الظاهر والباطن، وهو كارتباط العلة بالمعلول والموجب مع موجبه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وإذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة، بل يلزم من وجود هذا كاملا وجود هذا كاملا، كما يلزم من نقص هذا نقص هذا، إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه وعلة تامة بلا معلولها وهذا ممتنع»[٢].

وبين أيضا أن من التلازم بينهما (أنه لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب، وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يُكتفى بإيمان القلب، بل لا بد منه من الأعمال الصالحة)[٣].

---

[١] نفس المصدر (ص/٣٢).

[٢] مجموع الفتاوى (٧/٥٨٢).

[٣] الإيمان الكبير (ص/١٥٧-١٥٨).

وفي معرض بيان التلازم الضروري بين إيمان القلب والجوارح وأن الظاهر تابع للباطن قال رحمه الله: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب". وقال أبو هريرة: "القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده"[1]...، فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد»[2].

وقال رحمه الله: «وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان»[3].

وقال أيضا: «ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا وإنما

---

[1] أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٢١/١١) والبيهقي في الشعب (٢٥٧/١).

[2] نفس المصدر (ص/١٤٩).

[3] مجموع الفتاوى (٥٤١/٧).

ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الإرادة وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري»[1].

وقال أيضا: «الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه»[2].

وقال: «وقد تبين أن الدين لا بد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه و لم يؤد واجبا ظاهرا، ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات، لا لأجل أن الله أوجبها مثل أن يؤدي الأمانة، أو يصدق الحديث، أو يعدل في قسمه وحكمه من غير إيمان بالله ورسوله، لم يخرج بذلك من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور فلا يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد ﷺ»[3] [4].

---

[1] نفس المصدر (١٠/٢٧٢).

[2] الإيمان الأوسط (ص/١٢٠).

[3] الإيمان الأوسط (ص/١٦٧).

[4] قد تكلم شيخ الإسلام عن هذا الموضوع في أكثر من كتاب، منها:

- الإيمان الكبير، ط. المكتب الإسلامي، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، انظر (ص/١٠٨، ص/١١٦، ص/١٤٩، ص/١٦١، ص/٢٦١، ص/٣٠٥).

- الإيمان الأوسط، ط. دار طيبة، تحقيق: أبو يحيى محمود أبو سن، انظر (ص/٨٤، ص/٨٧، ص/٩٦، ص/٩٨، ص/٩٩، ص/١٢٠، ص/١٢٥، ص/١٢٧، ص/١٥٦، ص/١٦٧).

- مجموع الفتاوى، جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، انظر (١٠/٢٧٢، و ١٤/١٢٠-١٢١).

- اقتضاء الصراط المستقيم، ط. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف- المملكة العربية السعودية، تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل، انظر (١/٩٢).

وكذلك تلميذه ابن القيم رحمه الله يوضح هذا الأمر كل الوضوح، يقول ابن القيم رحمه الله: «الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إلا اذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الايمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته»[1].

وقال أيضا: «فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقا تصديقا جازما أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب وهو مع ذلك مصر على تركها، هذا من المستحيل قطعا فلا يحافظ على تركها مصدق بفرضها أبدا، فإن الايمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها فليس في قلبه شيء من الإيمان.

ولا تصغ إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها، وتأمل في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد، والجنة والنار، وأن الله فرض عليه الصلاة، وأن الله يعاقبه معاقبة على تركها، وهو محافظ على الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة له من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق، وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية»[2].

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ط. دار العاصمة، تحقيق: علي بن حسن بن طاهر وعبد العزيز إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، انظر (٦/٤٨٧-٤٩١).

- الصارم المسلول على شاتم الرسول، ط.دار المعالي، تحقيق ودراسة: محمد بن عبد الله عمر الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري، انظر: (٣/٩٦٦).

[1] الفوائد (ص/١٢٤).

[2] الصلاة وحكم تاركها (ص/٦٠-٦١).

وقبل أن أختم هذا المطلب أريد أن أشير إلى مسألة؛ وهي أن هذا التلازم بين الظاهر والباطن هو بالنسبة لحال المؤمن وحكمه في الدار الآخرة، وأما حكمه في الدنيا فلا ينظر إلا إلى الظاهر، و تجري الأحكام الدنيوية على ما ظهر منها، وتُوكل السرائر إلى الله عالم السر وأخفى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة، فإن المنافقين الذين قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾، في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس، ويصومون، ويحجون، ويغزون، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم، كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر لا في مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك»[1].

المطلب الثاني

أدلة التلازم بين الظاهر والباطن

وقد دل على التلازم بين الظاهر والباطن أدلة كثيرة من القرآن والسنة والأثر، منها:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ المائدة: ٨١، يقول شيخ الإسلام رحمه الله عن هذه الآية: «فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف "لو" التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط»[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/٢١٠).

[2] مجموع الفتاوى (٧/١٦).

وبعد ما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله هذه الآية والتي بعدها قال: «فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيما إلا مع استقامة الباطن وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر»[1].

ويقول العلامة السعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «فإن الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط فدل على انتفاء المشروط، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ المائدة: ٨١، أي خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي، ومن فسقهم موالاة أعداء الله»[2].

٢- وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ المجادلة: ٢٢.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، فأخبر أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم، فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان وكذلك قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ

---

[1] نفس المصدر (٢٧٢/٧).

[2] تفسير السعدي (ص/٢٤١).

خَٰلِدُونَ ۝ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٨٠ – ٨١»[1].

وقال رحمه الله: «وإذا أفرد الإيمان أدخل فيه الأعمال الظاهرة لأنها لوازم ما في القلب، لأنه متى ثبت الإيمان في القلب والتصديق بما أخبر به الرسول وجب حصول مقتضى ذلك ضرورة، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، فإذا ثبت التصديق في القلب لم يتخلف العمل بمقتضاه ألبتة، فلا تستقر معرفة تامة ومحبة صحيحة ولا يكون لها أثر في الظاهر، ولهذا ينفي الله الإيمان عمن انتفت عنه لوازمه، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾،وقوله:﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾الآية ونحوها، فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيما إلا مع استقامة الباطن وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر ولهذا قال النبي ﷺ: "ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب"»[2].

ويقول العلامة السعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملا على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

---

[1] مجموع الفتاوى (٥٤٢/٧).

[2] مجموع الفتاوى (٢٧٢/١٨)

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرسا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك»[1].

٣- وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ البينة: ٥، قال أبو عثمان محمد بن محمد الشافعي[2]: سمعت أبي يقول ليلة للحميدي؛

ما نحتج عليهم - يعني أهل الإرجاء - بآية أحج من قوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الآية[3].

يقول شيخ الإسلام عن هذه الآية: «فإنه قصد أولا: أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفي بمطلق العبادة الخالصة دونهما، وكذلك يذكر الإيمان أولا، لأنه الأصل الذي لا بد منه، ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لا بد منه، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح»[4].

٤- قد مر معنا الآيات التي استدل بها أبو عبيد القاسم بن سلام على تلازم بين الظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ العنكبوت: ١ – ٣.

---

[1] تفسير السعدي (ص/٨٤٨).

[2] هو أبو عثمان محمد بن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، كان أكبر أولاده، وكان قاضيا، توفي بالجزيرة بعد سنة أربعين ومائتين، انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/٧١).

[3] شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/٩٥٦).

[4] مجموع الفتاوى (٧/١٩٩).

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ العنكبوت: ١٠.

وقال تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤١.

ثم قال أبو عبيد: «أفلست تراه تبارك وتعالى، قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، و لم يرض منهم الإقرار دون العمل، حتى جعل أحدهما من الآخر؟ فأي شيء يتبع بعد كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة و الإمامة»[١].

٥- وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ آل عمران: ٣١.

قد مر معنا كلام شيخ الإسلام رحمه الله على أن المحبة بالقلب مع التصديق يلزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب. فكل منهما يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان»[٢].

وهنا تتجلى بالوضوح العلاقة والتلازم بين الظاهر والباطن، فإنه إذا كان في القلب التصديق والحب والانقياد لكان لزاما أن ما يترتب على التصديق والحب والانقياد في الباطن امتثال الظاهر للعمل، وإلا فما قيمة التصديق والحب والانقياد؟ فهل يعقل أن يقول شخص:

---

(١) الإيمان (ص/٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٥٤١/٧).

يا رب إني مقر بأن ما جاء به نبيك حق، وصدقته في كل ما جاء به، وإني أحبك ومنقاد لأمرك، ثم لا يأتي في الظاهر بأعمال الجوارح؟ أيكون هذا الرجل صادقا في كلامه؟ وحتى لو قال شخص لآخر: إن قلبي قد امتلأ بحبك وأنه أصبح منقادا لك بالحب والطاعة والإخلاص، ثم لما يطلب الشخص الثاني من الأول أن يعطيه دراهم معدودة فيأبى الأول ذلك! فهل يصدق الثاني حب الأول وإخلاصه؟ بل يقول له أنت أكذب الكاذبين فهذا في حق البشر! فكيف في حق رب البشر، ولله المثل الأعلى[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"[2]»[3].

ويقول العلامة السعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿ **قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي** ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن

---

[1] قواعد في بيان حقيقة الإيمان (ص/٢٤٠)، بتصرف يسير.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧١٤)، في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور.

[3] تفسير ابن كثير (٤٦٧/١).

ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص»[١].

٦- ومن أقوى الأدلة من السنة على التلازم بين الظاهر والباطن هو ما رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى يكاد أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[٢].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".

فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل، فالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد»[٣].

وقال أيضا: «والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا خبث الملك خبثت جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ: "ألا وإن

---

[١] تفسير السعدي (ص/١٢٨).

[٢] تقدم تخريجه (ص/٣).

[٣] مجموع الفتاوى (١٨٧/٧).

في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله"، وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر في عمل الجسد وإذا كان المقدم هو الأوجب»[1].

وقال: «فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمنا»[2].

ويقول ابن رجب في شرحه لهذا الحديث: «فإن كان قلبه سليما، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقي الشبهات حذرا من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب فاسدا، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلبه ما يحبه، ولو كره الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب.

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدا كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة»[3].

٧- ومن أقوال السلف ما روى ابن أبي شيبة عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»[4].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في بيان مراد الحسن رحمه الله من هذا القول: «وقوله: «ليس الإيمان بالتمني» يعني الكلام، وقوله: «بالتحلي» يعني أن يصير حلية ظاهرة له فيظهره

---

[1] نفس المصدر (٣٨١/١١).

[2] نفس المصدر (١٢١/١٤).

[3] جامع العلوم والحكم (ص/٢١٠).

[4] الإيمان (ص/٦٥) لابن أبي شيبة.

من غير حقيقة من قلبه، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، فالعمل يصدق أن في القلب إيمانا، وإذا لم يكن عمل كذب أن في قلبه إيمانا، لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم»[1].

---

(1) مجموع الفتاوى (٧/٢٩٤).

المطلب الثالث

إنكار المرجئة للتلازم بين الظاهر والباطن.

قد أسلفنا أن من الناس من تنازع في إدخال أعمال القلوب في الإيمان، وقلنا أنهم قلة من المرجئة، وهم الذين وافقوا الجهم والصالحي وسيأتي الرد عليهم في الفصل الثالث من هذه الرسالة، ولكن عدم إدخال أعمال الجوارح في الإيمان هو مما اتفق عليه المرجئة، ثم مع أنهم أخرجوا العمل من الإيمان، فإن كثيرا منهم لا يخالف في أن العمل الظاهر ثمرة للباطن وليس لازما له، ومن سلّم منهم بالتلازم بينهما كان النزاع معه لفظيا، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن المرجئة لا تنازع أن الإيمان الذي في القلب يدعو إلى فعل الطاعة ويقتضي ذلك، والطاعة من ثمراته ونتائجه، لكنها تنازع هل يستلزم الطاعة»[1].

ويبين شيخ الإسلام أن قول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان، وفي نفس الوقت يوضح رحمه الله الفرق بين أن الأعمال ثمرة للإيمان أو ملازمة له، قال رحمه الله: «وقول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان:

يراد به أنها لوازم له فمتى وجد الإيمان الباطن وجدت، وهذا مذهب السلف وأهل السنة.

ويراد به أن الإيمان الباطن قد يكون سببا وقد يكون الإيمان الباطن تاما كاملا وهي لم توجد، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم»[2].

ولعله بهذا الكلام يتضح لنا الفرق بين كلام أهل السنة والمرجئة، وبين كون العمل ملازما للإيمان وليس ثمرة له.

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/٥٠).

[2] نفس المصدر (٧/٣٦٣).

ويوضح شيخ الإسلام هذه المسألة أكثر حين يتكلم عن أغلاط المرجئة، ومنها؛ ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب، كما تقدم عن جهمية المرجئة، قال رحمه الله: «الثالث (من أغلاط المرجئة) ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر، ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب، مثل أن يقولوا : رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ويزني بأمه وأخته، ويشرب الخمر نهار رمضان، يقولون: هذا مؤمن تام الإيمان فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار»[1].

وقال رحمه الله: «وأما إذا قرن الإيمان بالإسلام، فإن الإيمان في القلب والإسلام ظاهر كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : "الإسلام علانية والإيمان في القلب"[2]، والإيمان: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره"[3].

ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله والانقياد له، وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنا ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه، كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد.

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/٢٠٤).

[2] أخرجه إبن أبي شيبة في الإيمان (ص/٢٧)، وضعفه الألباني.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدرالله سبحانه وتعالى.

وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانا جازما، امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة، فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام، وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة، فإن هذا ممتنع، إذ لا يحصل الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة، فإن من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبا جازما وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك»[(١)] [(٢)].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف و لم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه من النار»[(٣)].

قال أيضاً رحمه الله: «قاعدة: الإيمان له ظاهر وباطن؛ وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته.

فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك.

فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته»[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥٥٣).

(٢) انظر: الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل، وكشف شبهات المعاصرين (١/٢٢٢-٢٢٦)، تأليف: محمد بن محمود آل خضير.

(٣) الفوائد (ص/٢٠٧-٢٠٨).

(٤) نفس المصدر (ص/١٢٤).

وأختم هذا المبحث بكلام الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله الذي يبين خطورة القول بعدم التلازم بين الظاهر والباطن، وأن من يقول بعدم التلازم بينهما يلزمه ضرورة أن يصحح ما عليه اليهود والنصارى والمشركون، وأنه لولا ثبوت هذا التلازم لما عرف الإسلام من الجاهلية، يقول رحمه الله: «وزعمت هذه الفرقة أن الله رضي عنهم بالمعرفة، ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عُرِف الإسلام من الجاهلية، ولا فُرِّقت الملل بعضها من بعض؛ إذ كان يرضى منهم بالدعوى على قلوبهم، غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة، والبراءة مما سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب.

ولو كان هذا يكون مؤمنًا، ثم شهد رجل بلسانه أن الله ثاني اثنين -كما يقول المجوس والزنادقة -، أو ثالث ثلاثة -كقول النصارى- وصلَّى للصليب، وعبد النيران، بعد أن يكون قلبه على المعرفة بالله؛ لكان يلزم قائل هذه المقالة أن يجعله مؤمنًا مستكملا الإيمان، كإيمان الملائكة والنبيين، فهل يلفظ بهذا أحد يعرف الله، أو مؤمن له بكتاب، أو رسول؟ وهذا عندنا كفر لن يبلغه إبليس فمن دونه من الكفار قط»[1].

---

[1] الإيمان (ص/٦١/٦٢).

المبحث الثاني: العلاقة بين جوانب الإيمان.

المطلب الأول

العلاقة بين قول القلب وعمله

تقدم أن الإيمان مركب من أصل وفرع، وأصله هو ما قام بالقلب وفرعه ما قام بالجوارح من الأعمال الظاهرة، ثم إن هذا الأصل الذي في القلب يتضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب مثل المحبة والخوف والرجاء، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من شيءين: تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب، قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب، فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان»[1].

وفي هذا المطلب سنحاول أن نوضح العلاقة بين قول القلب وعمله، وأن مجموعهما يسمى إيمانا، وأنه لا يكفي قول القلب بدون العمل.

وقد بين شيخ الإسلام أن هناك تلازما بين قول القلب وعمل القلب، وأن قول القلب إذا كان صادقا وجازما فإنه يستلزم عمل القلب، فإذا عرف العبد ربه أحبه وعبده استوجب ذلك حصول أعمال القلوب بحسب هذه المعرفة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «إن معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه، ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه، ومعرفة المخوف تقتضي خوفه،

[1] مجموع الفتاوى (١٨٦/٧).

فنفس العلم والتصديق بالله وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له، وتعظيمه، وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته، والإرادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقدور عليه منه»[١].

وقال أيضا: «إن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لابد أن يوجب حالا في القلب وعملا له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته، وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم، وكالنفرة والشهوة عند الشعور بالملائم والمنافي، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئا»[٢].

ثم يقرر شيخ الإسلام رحمه الله أن الإيمان ليس مجرد التصديق فقط، بل هو إقرار وطمأنينة الذي يتضمن الحب والانقياد والقبول، يقول رحمه الله: «إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام وهو عمل في القلب، جماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد»[٣].

---

[١] مجموع الفتاوى (٧/٥٢٥).

[٢] الصارم المسلول (٣/٩٦٦).

[٣] نفس المصدر (٣/٩٦٦-٩٦٧).

ويقول أيضا: «وفي الجملة فلا بد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله وحب الله ورسوله، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله، ومعاداة الله ورسوله ليس إيمانا باتفاق المسلمين»[1].

ويقول أيضا: «التصديق من الإيمان ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانا ألبتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية»[2].

ويبين شيخ الإسلام أن أصل الإيمان هو ما قام بالقلب، وأنه لا يصير الرجل مسلما إلا إذا اجتمع في قلبه التصديق والانقياد، يقول رحمه الله: «فإن الدين قول وعمل، وأوله قول القلب وعمله، فمن لم يَنقد بقلبه ولم يذل لله لم يكن مؤمنا، ولا داخلا في طريق الله»[3].

ويوضح شيخ الإسلام أيضا أن معرفة القلب وحده لا تكفي ولا تنفع صاحبها، ما لم يقترن بها عمل القلب، يقول رحمه الله: «فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له، واتباع القلب له لم ينفع صاحبه، بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وقد كان النبي ﷺ يقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع"[4]»[5].

---

[1] مجموع الفتاوى (٥٣٧/٧).

[2] مجموع الفتاوى (٣٠٧/٧).

[3] الاستقامة (١٤٥/١).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٩٠)، في كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شرّ ما عُمل ومن شرّ ما لم يُعمل.

[5] مجموع الفتاوى (٢٧١/١٠).

ويقول أيضا: «فمجرد معرفة قلبه أنه رسول الله مع الإعراض عن الانقياد له ولما جاء به، إما حسدا وإما كبرا، وإما لمحبة دينه الذي يخالفه وإما لغير ذلك فلا يكون إيمانا، ولا بد في الإيمان من علم القلب وعمله»[1].

ويبين شيخ الإسلام أن الإنسان مفطور على قول القلب المقتضي لعمله، ما دامت الفطرة صحيحة، والقلب سليما من المعارض المانع من عمله واستسلامه وانقياده من الشهوات أو الشبهات، قال شيخ الإسلام: «وفي الجملة، فلا بد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله، وحب الله ورسوله، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله، ومعاداة الله ورسوله، ليس إيمانا باتفاق المسلمين، وليس مجرد التصديق والعلم يستلزم الحب إلا إذا كان القلب سليما من المعارض كالحسد والكبر، لأن النفس مفطورة على حب الحق وهو الذي يلائمها، ولا شيء أحب إلى القلوب السليمة من الله...

فليس مجردالعلم موجبا لحب المعلوم، إن لم يكن في النفس قوة أخرى تلائم المعلوم وهذه القوة موجودة في النفس، وكل من القوتين تقوى بالأخرى، فالعلم يقوي العمل والعمل يقوي العلم، فمن عرف الله وقلبه سليم أحبه، وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له، وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له ومعرفته بأسمائه وصفاته، فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب... »[2].

وإذا تقرر هذا التلازم والترابط بين قول القلب وعمله، فليعلم أنه إذا زال قول القلب فهو كفر التكذيب، وإذا زال عمل القلب مع وجود قول القلب فهو كفر الإباء والاستكبار، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بكفر الإباء والاستكبار دون التكذيب[3].

---

(1) الإيمان الكبير (ص/٣١١).

(2) الإيمان الأوسط (ص/٨٣-٨٤).

(3) انظر: الصارم المسلول (٣/٩٦٧-٩٦٨).

ويوضح شيخ الإسلام حقيقة التلازم بين قول القلب وعمله بعمل قلبي من أهم أعمال القلوب ألا وهو اليقين: «وأما اليقين فهو طمأنينة القلب، واستقرار العلم فيه وهو معنى ما يقولون: (ماء يقن) إذا استقر عن الحركة، وضد اليقين الريب، وهو نوع من الحركة والاضطراب...

ثم اليقين ينتظم منه أمران: علم القلب، وعمل القلب. فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر، ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم، كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم، والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم تكن ضدا لأصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك»[١].

وكذلك ابن القيم يبين هذه الحقيقة بعمل قلبي آخر ألا وهو التوكل، يقول رحمه الله: «فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله.

أما علمه؛ فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله؛ فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل وهما جماعه... كما قال الإمام أحمد (التوكل عمل القلب)، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته»[٢].

---

[١] مجموع الفتاوى (٣/٣٢٩).

[٢] طريق الهجرتين (ص/٣٨٩).

المطلب الثاني

العلاقة بين تصديق القلب وقول اللسان

فإذا ثبت عند الشخص أصل الإيمان وهو ما يتعلق بالقلب قولا وعملا، فينبغي أن يعرف أنه لا بد من قول اللسان، فهو الأصل في ثبوت وصف الإيمان - في الظاهر - وقد جاءت أدلة كثيرة تؤكد هذا الأمر، منها قول الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٦.وقوله: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٨٤.

وقال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله»[١].

وقد أكد علماء السلف على أهمية هذه العلاقة أيضا، فها هو أبو ثور رحمه الله يقول: «ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله ﷻ واحد، وأن ما جاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به أنه ليس مسلم، ولو قال: المسيح هو الله وجحد أمر الإسلام، قال: لم يعتقد قلبي على شيء من ذلك أنه كافر بإظهار ذلك و ليس بمؤمن، فلما لم يكن بالإقرار - إذا لم يكن معه التصديق- مؤمنا، ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمنا حتى يكون مصدقا بقلبه مقرا بلسانه»[٢].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٨٧)، في كتاب الجهاد والسير، باب دعا النبي ﷺ إلى الإسلام، ومسلم في صحيحه (ص/٤٣)، في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله.

[٢] شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٩٣٢/٤).

وهذا ابن حزم يؤكد على أهمية قول اللسان فيقول: «من اعتقد الإيمان بقلبه، و لم ينطق به لسانه دون تقية، فهو كافر عند الله وعند المسلمين»[١].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنا وظاهرا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها»[٢].

ويبين شيخ الإسلام العلاقة التلازمية بين اعتقاد القلب وإقرار اللسان فيقول رحمه الله: «ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة، لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري، فإذا أقر القلب إقرارا تاما، بأن محمدا رسول الله وأحبه محبة تامة، امتنع مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إذا كان عاجزا لخرس ونحوه، أو لخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما»[٣].

ويبين شيخ الإسلام أنه حتى في اللغة ما يقال للرجل الذي لا يأتي بقول اللسان هو مؤمن، يقول رحمه الله: «ولهذا لم يجعل الله أحدا مصدقا للرسل بمجرد العلم والتصديق الذي في قلوبهم، حتى يصدقوهم بألسنتهم، ولا يوجد في كلام العرب أن يقال: فلان صدق فلانا أو كذبه، إذ كان يعلم بقلبه أنه صادق أو كاذب و لم يتكلم بذلك»[٤].

ويقول أيضا: «فلا يوجد قط في كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى ويجب حبه وتعظيمه، وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ولا يخافه ولا يرجوه، بل يجحد

---

[١] المحلى (١/٤٠).

[٢] مجموع الفتاوى (٧/٦٠٩).

[٣] نفس المصدر (١٠/٢٧٢).

[٤] الإيمان الكبير (ص/١٠٩).

به ويكذب به بلسانه أنهم يقولون: هو مؤمن، بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه لم يقولوا: هو مصدق به»[١].

ويبين شيخ الإسلام أيضا أن من صدق بقلبه و لم يتكلم بلسانه، لا يتعلق به شيء من أحكام الدنيا والآخرة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما من صدق بقلبه و لم يتكم بلسانه، فإنه لا يتعلق به شيء من أحكام الإيمان، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ البقرة: ١٠٤»[٢].

وقبل أن أختم هذا المطلب أريد أن أنبه إلى أمرين مهمين:

الأول: هو كما أن مجرد اعتقاد القلب لا ينفع إذا لم يقترن معه قول اللسان وعمل الجوارح، فكذلك قول اللسان وأعمال الجوارح المجردة عن قول القلب وعمله لا تنفع، بل هو قول المنافقين الذين يبطنون شيئا ويظهرون شيئا آخر، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق، ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق»[٣].

ويقول أيضا: «وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين التي لا يتقبلها الله»[٤].

ويقول أيضا: «فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقا ينقل عن الملة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد، ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم»[٥].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٠٤).

(٢) نفس المصدر (ص/١١٥).

(٣) نفس المصدر (ص/١٤٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٠٦/٧).

(٥) نفس المصدر (٣٣٣/٧).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحدا الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح»[1].

الثاني: ليس المقصود بالنطق بالشهادتين مجرد الإخبار عما في النفس من العلم والجزم بأن لا إله إلا الله، بل لا بد أن يكون ذلك على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد، ولهذا لم ينفع اليهود ولا غيرهم اعترافهم بأن النبي ﷺ رسول الله مع قولهم لا إله إلا الله، لأن ذلك كان على سبيل الإخبار دون التزام وانقياد لشريعته، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأيضا فقد جاء نفر من اليهود إلى النبي فقالوا: نشهد إنك لرسول و لم يكونوا مسلمين بذلك، لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم أي: نعلم ونجزم أنك رسول الله، قال: فلم لا تتبعوني؟ قالوا: نخاف من يهود، فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم.

فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفارا في الباطن وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفارا في الظاهر والباطن»[2].

---

[1] بدائع الفوائد (١١٤٨/٣).

[2] مجموع الفتاوى (٥٦١/٧)، وانظر: الصارم المسلول (٩٦٨/٣-٩٦٩).

المطلب الثالث

العلاقة بين تصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح

تقدم في المبحث السابق - الارتباط بين الظاهر والباطن والعلاقة بينهما - شيء من كلام أهل العلم في تقرير هذه المسألة وتوضيحها، وهذا المطلب سيكون تتمة لما بدأناه في ذلك المبحث، وهو بيان العلاقة بين تصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، لأنه متى كان التصديق في القلب جازما وأقر به اللسان نطقا تحقق العمل بالجوارح فعلا لا محالة، وهذا مما يدل على شدة التلازم فيما بينها، وقد أوضح علماء السلف هذا الأمر أيما إيضاح، فهذا الإمام الأوزاعي رحمه الله يقول: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بموافقة للسنة»[1].

ويقول الآجري رحمه الله: «فالأعمال - رحمكم الله - بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بعمله بجوارحه مثل الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد وأشباه لهذه، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمنا، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيبا لإيمانه وكان العمل بما ذكرناه تصديقا منه لإيمانه»[2].

ويقول ابن بطة رحمه الله: «اعلموا - رحمكم الله - أن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه فرض على القلب المعرفة به، والتصديق له ولرسله ولكتبه، وبكل ما جاءت به السنة، وعلى الألسن النطق بذلك والإقرار به قولا، وعلى الأبدان والجوارح العمل بكل ما أمر به، وفرضه من الأعمال لا تجزئ واحدة من هذه إلا بصاحبتها، ولا يكون العبد مؤمنا إلا بأن يجمعها كلها حتى يكون مؤمنا بقلبه، مقرا بلسانه، عاملا مجتهدا بجوارحه، ثم لا يكون أيضا مع ذلك

---

[1] شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/٩٥٦).

[2] كتاب الشريعة (ص/١٢٢).

مؤمنا حتى يكون موافقا للسنة في كل ما يقوله ويعمله، متبعا للكتاب والعلم في جميع أقواله وأعماله، وبكل ما شرحته لكم نزل به القرآن، ومضت به السنة، وأجمع عليه علماء الأمة....وأما الإيمان بما فرضه الله ﷻ من العمل بالجوارح تصديقا لما أيقن به القلب ونطق به اللسان فذلك في كتاب الله تعالى يكثر على الإحصاء وأظهر من أن يخفى»[(١)].

أما شيخ الإسلام فقد بين هذا التلازم بين هذه الجوانب الثلاث في مواضع كثيرة من كتبه، وسأكتفي بذكر شيء منها، يقول رحمه الله شارحا العلاقة التركيبية والتلازمية بين جوانب الإيمان: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح .

فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ثم الناس في هذا على أقسام.... وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه إلى غير ذلك من الأحوال فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة للمعلول.

ويتبع الاعتقاد قول اللسان، ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك»[(٢)].

ثم يؤكد شيخ الإسلام على التلازم بين هذه الجوانب، يقول رحمه الله: «وهنا أصول تنازع الناس فيها، منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح، وإنما يظهر نقيضه من غير خوف ؟ فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح، فمن قال: إنه يصدق الرسول ويحبه

---

(١) الإبانة الكبرى (٢/٧٦٠-٧٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٦٧٢).

ويعظمه بقلبه، ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئا من واجباته بلا خوف فهذا لا يكون مؤمنا في الباطن، وإنما هو كافر... وقد قال النبي ﷺ: "إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"، فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمنا ... وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط، فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان»[1].

ويقول أيضا: «فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف: الإيمان قول وعمل، ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الإرادة وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري»[2].

ويبين شيخ الإسلام أنه من الممتنع أن يكون الإيمان في الباطن ولا يظهر شيء منه في اللسان والجوارح يقول رحمه الله: «وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنا، ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه، كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد.

وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانا جازما امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة، فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام، وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة، فإن هذا ممتنع إذ لا يحصل

---

[1] مجموع الفتاوى (١٤/١٢٠-١٢١) باختصار.

[2] نفس المصدر (١٠/٢٧٢).

الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة، فإن من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبا جازما وهو قادر على مواصلته، ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك»[1].

ووضح شيخ الإسلام أن الله نفى الإيمان عمن صدق بالقلب ونطق باللسان و لم يأت بالعمل، قال رحمه الله: «بل قد نفى الله الإيمان عمن قال بلسانه وقلبه إذا لم يعمل، قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات: ١٤ [2].

كما يبين شيخ الإسلام أن من صدق بقلبه و لم يأت بأعمال القلوب واللسان والجوارح فليس بمؤمن، يقول رحمه الله: «فإن النصوص التي تنفي الإيمان عمن لا يحب الله ورسوله، ولا يخاف الله ولا يتقيه، ولا يعمل شيئا من الواجب، ولا يترك شيئا من المحرم كثيرة صريحة»[3].

وقال رحمه الله أيضا: «والسلف يقولون: الرسول وقفنا على معاني الإيمان وبينه لنا، وعلمنا مراده منه بالاضطرار، وعلمنا من مراده علما ضروريا أن من قيل: إنه صدق و لم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك، ولا صلى ولا صام، ولا أحب الله ورسوله، ولا خاف الله، بل كان مبغضا للرسول معاديا له يقاتله، أن هذا ليس بمؤمن»[4].

وأختم هذه النقول بكلام نفيس لشيخ الإسلام أيضا، يقول رحمه الله: «واعلم أن الإيمان وإن قيل هو التصديق فالقلب يصدق بالحق، والقول يصدق ما في القلب، والعمل يصدق القول، والتكذيب بالقول مستلزم للتكذيب بالقلب، ورافع للتصديق الذي كان في

---

[1] الإيمان الأوسط (ص/٩٨).

[2] الإيمان الكبير (ص/١١٦).

[3] نفس المصدر (ص/١٠٧).

[4] نفس المصدر (ص/١٠٨).

القلب، إذ أعمال الجوارح تؤثر في القلب كما أن أعمال القلب تؤثر في الجوارح، فأيهما قام به كفر تعدّى حكمه إلى الآخر، والكلام في هذا واسع، و إنما نبهنا على هذه المقدمة»[1].

وتلخيصا لما سبق أقول: إن ثبوت التلازم بين تصديق القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح يدل على أن تصديق القلب أصل الإيمان، وإن ثبوت التلازم بين هذه الجوانب الثلاثة يدل على أن قول اللسان وعمل الجوارح بدون تصديق القلب هو حال المنافقين، وإن ثبوت التلازم بين اعتقاد القلب وعمله يدل على أن اعتقاد القلب لا ينفع بدون عمله، وعليه فإن تصديق القلب الذي هو أصل الإيمان لا ينفع مع انتفاء عمل القلب وهذا يدل على أهمية أعمال القلوب وعظيم منزلتها من الإيمان.

تنبيه: وفي الأخير أريد أن أنبه إلى أمر مهم جدا، وهو أننا بعد أن بينا التلازم القوي بين الظاهر والباطن، وبينا التلازم بين جوانب الإيمان، يرد علينا سؤال هام وهو: ما هو الفرق بين قول أهل السنة ومذهب الوعيدية في عدم إتيان الرجل بالعمل؟

الجواب: حين يجعل أهل السنة العمل ركنا من الإيمان لا يتم الإيمان إلا به، لا يعني ذلك أنهم يوافقون بهذا مذهب الوعيدية في الإيمان، لأن أهل السنة يقولون: يزول الإيمان إذا زال العمل جميعه أو الصلاة عند بعضهم، ومنهم من يقول بزوال الإيمان إذا زالت بعض أركان الإسلام الأخرى كالزكاة، أو الصوم، أو الحج، ولا يقولون بزوال الإيمان بزوال بعض أجزائه مطلقا.

أما أهل الوعيد من الخوارج والمعتزلة وغيرهم، فهم يرون أن الإيمان يزول ببعض أفراده حتى وإن كانت من غير أركان الإسلام، فعندهم أن من ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب مثل السرقة، أو الزنا، أو شرب الخمر أنه يخرج من الإيمان وهذا لا يقوله أحد من أهل السنة، والحمد لله[1].

---

[1] الصارم المسلول (٣/٩٧٦).

المبحث الثالث: المفاضلة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

تمهيد

تقدم أن العمل عند أهل السنة من الإيمان، وأن العمل منقسم إلى أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وقد أشرنا إلى أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح وأنها أصل الإيمان، وفي هذا المبحث سأحاول أن أبين أوجه المفاضلة[2] بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

فإن الناظر في الكتاب والسنة يجد فيهما الاهتمام الكبير والعناية الفائقة بهذا القلب وأعماله، وأنها موقع الأرواح من الأجساد، وتقوم مقام جذور الشجرة من السوق والفروع والأغصان، فكيف يكون حال الأجساد إذا نزعت منها الأرواح؟ وكيف تكون شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار؟

وتظهر أفضلية أعمال القلوب على أعمال الجوارح وأنها مقدمة عليها من خلال جوانب متعددة:

---

[1] منزلة العمل من الإيمان عند أهل السنة (ص/١١٦)، لشيخنا صالح بن محمد العقيل، مطبوع ضمن مجلة البحوث الإسلامية، (العدد/٧٨)، تصدر عن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

[2] المفاضلة هي المقارنة بين شيءين أو جهتين وتغليب أحدهما على الآخر، وهي تدور على أركان أربعة هي: الفاضل، والمفضول، وسبب الفضل و وجهه، و المُفَضِّل الحاكم بالفضل، وجماعه هو في مورد الفضل وسببه ووجهه، انظر: مباحث المفاضلة في العقيدة (ص/١٣، و-١٧) لشيخنا محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي.

المطلب الأول

القلب هو الملك المتصرف بالجوارح

فمما يدل على كون أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح، أن الله خلق الأعضاء لتؤدي وظيفة ما، وكذلك القلب، إلا أن القلب هو كالملك المتصرف بها، والأعضاء جنوده، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء، كما خلق له العين يرى بها الأشياء، والأذن يسمع بها الأشياء، كما خلق له سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال، فاليد للبطش والرجل للسعي واللسان للنطق والفم للذوق والأنف للشم والجلد للمس، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة... ثم إن سيد الأعضاء ورأسها هو القلب، كما سمي قلبا، قال النبي ﷺ: "إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"، وقال ﷺ: "الإسلام علانية والإيمان في القلب"، ثم أشار بيده إلى صدره وقال: "ألا إن التقوى هاهنا ألا إن التقوى هاهنا"[(١)]»[(٢)].

ثم يوضح شيخ الإسلام أن تعطيل بعض الأعضاء عن وظائفها كالصم والبكم والعمي أصلها تحصل في القلب، ويبين أن القلب يتصرف بها كما يتصرف الملك بجنده، فقال رحمه الله: «وقال (الله تعالى) عن المنافقين: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ البقرة: ١٨، ومن الناس من يقول؛ لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق، جُعلوا صما بكما عميا، أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمي البكم، وليس كذلك، بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٥)، كتاب البر والصلاة والآداب، كتاب تحريم ظلم المسلم.

(٢) مجموع الفتاوى (٩/٣٠٨)، باختصار.

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ الحج: ٤٦، والقلب هو الملك والأعضاء جنوده، وإذا صلح صلح سائر الجسد وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى: لا يفقهه وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما، فإن الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب وبغض المكروه، فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلا فجاز نفيه، لأن ما لم يتم ينفى كقوله للذي أساء في صلاته: "صل، فإنك لم تصل"[1]»[2].

ويبين شيخ الإسلام هذا الأمر أكثر، ويوضح أن تصرف القلب في الجوارح أقوى من تصرف الملك بجنده، لأن الملك وإن كان صالحا فلجنده نوع من اختيار وقد يعصونه، بخلاف الجوارح مع القلب، فإنها لا تخرج عن إرادته قط، يقول رحمه الله: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب".

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: "القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده"، وقول أبي هريرة تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بيانا. فإن الملك وإن كان صالحا فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ: "إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد"»[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٣)، في كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للإمام والمأمون في الصلوات كلها، ومسلم في صحيحه (ص/١٧٠)، في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

[2] مجموع الفتاوى (٢٧/٧).

[3] الإيمان الكبير (١٤٩).

ويفصل هذا الأمر أكثر تلميذ شيخ الإسلام ابن القيم رحمهما الله، ويبين أن القلب كالملك المتصرف بالجوارح، تأتمر بأمره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتظل تحت قهره وعبوديته، فهو المسئول عنها كلها، يقول رحمه الله: «ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله"، فهو ملكها وهي المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها لأن كل راع مسئول عن رعيته»[1].

المطلب الثاني

أصل الإيمان في القلب

ومما يدل على أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح، أن أصل الإيمان في القلب، وأن الله أضاف الإيمان إليه في كثير من الآيات، وأخبر أن أصله فيه، بل وجعل القلب مستقرا له.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ الحجرات: ١٤.

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ الحجرات: ٧.

وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ المجادلة: ٢٢.

قال القرطبي: «وخص القلوب بالذكر، لأنها موضع الإيمان»[2].

---

[1] إغاثة اللهفان (١/٣٥).

[2] تفسير القرطبي (٢٠/٣٣٢).

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ النحل: ١٠٦.

وغيرها من الآيات التي تبين أهمية أعمال القلوب وأنها مقدمة على أعمال الجوارح، وأن أصل الإيمان هو ما وقر في القلب.

يبين شيخ الإسلام أن ما يقوم بالقلب من التصديق والأعمال هو الأصل وعليه ينبني ما يقوم بالجوارح من الأعمال الظاهرة، وأن أعمال الجوارح بدون أعمال القلوب هي أعمال المنافقين، ويقول رحمه الله: «المأمور به نوعان: نوع ظاهر على الجوارح، ونوع باطن في القلب»، وبعد بيانه للنوع الأول قال: «النوع الثاني: ما يكون باطنا في القلب، كالإخلاص، وحب الله ورسوله، والتوكل عليه والخوف منه، وكنفس إيمان القلب وتصديقه بما أخبر به الرسول، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر، فإنه محله، وهذا النوع هو أصل النوع الأول، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له، لا يتم شيء من المأمور به ظاهرا إلا بها، وإلا فلو عمل أعمالا ظاهرة بدون هذه كان منافقا، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالا ظاهرة توافقها وهي أشرف من فروعها»[1].

ويقول أيضا: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علما وحالا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان، فالدين أول ما يبنى من أصوله ويكمل بفروعه»[2].

ويقول أيضا: «فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، والأعمال الظاهرة تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له، لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح»[3].

---

[1] مجموع الفتاوى (١٤/١١٩).

[2] نفس المصدر (١٠/٣٥٥).

[3] نفس المصدر (٧/٦٤٤)، باختصار.

ثم إن العبودية التي خلقنا الله من أجلها وطلب منا القيام بها هي منقسمة إلى عبودية القلب واللسان والجوارح، ولكن أهمها عبودية القلب، بل العبودية في الحقيقة هي عبودية القلب يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «عبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ولو أكره على تكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»[1].

كذلك عبودية القلب طاعة مستقلة، أي يحصل بها مدح وذم، وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح، بخلاف أعمال الجوارح، إذ هي بدون أعمال القلوب تكون من أعمال المنافقين كما أسلفنا، وهذا يدل على أن أصل الإيمان هو في القلب، إذ لا يستقل بأمر إلا صاحب الأمر، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «بل قول القلب وعمله هو الأصل، مثل تصديقه وتكذيبه، وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه ما لا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة»، و بعد أن ذكر أن: «أقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام؛ أحدها ما هو حسنة وسيئة بنفسه»، بيّن هذا القسم فقال: «هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب، والحب والبغض، وتوابع ذلك، فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب، وعلو الدرجات وأسفل الدركات بما يكون في القلوب من هذه الأمور وإن لم يظهر على الجوارح، بل المنافقون يظهرون بجوارحهم

---

[1] العبودية (ص٦٨)

الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض»[1].

ومما يدل على أن أصل الإيمان في القلب، أن التكليف أصله في القلب والجوارح تبع له، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعا، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه»[2].

المطلب الثالث

التقوى في الحقيقة هي تقوى القلب

ومما يدل على أهمية أعمال القلوب ويبين عظيم مترلتها من الدين أن التقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح فقط، قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢، والمعنى: «فتعظيم شعائر الله صادر عن تقوى القلوب، فالمعظِّم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»[3].

يقول القرطبي رحمه الله: «أضاف (التقوى) إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى في القلب»[4].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فالمقصود تقوى القلوب لله، وهو عبادتها له وحده دون سواه»[5].

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٧٥٨).

[2] نفس المصدر (١٤/١١٤).

[3] تفسير السعدي (ص/٥٣٨).

[4] تفسير القرطبي (١٤/٣٨٩).

[5] مجموع الفتاوى (١٧/٤٧٥).

وقال الله تعالى أيضا: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الحج: ٣٧، والمعنى: «العبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالقشور الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه»[١].

قال محمد صديق حسن خان[٢] رحمه الله: «﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ﴾ أي؛ يبلغ إليه ﴿ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ أي؛ تقوى قلوبكم، ويصل إليكم إخلاصكم له في العمل الصالح وإراداتكم بذلك وجهه مع الإيمان، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه»[٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فتقوى القلوب هي التي تنال الله كما قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾»[٤]، وقال أيضا: «فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب»[٥].

وقال الله تعالى أيضا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الحجرات: ٣، والمعنى: «مدح (الله) من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك

---

[١] تفسير السعدي (ص/٥٣٩).

[٢] هو محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيب الهندي، العلامة المحقق، عالم مشارك في أنواع من العلوم، من مصنفاته: فتح البيان في مقاصد القرآن، والدين الخالص، ولد سنة ١٢٤٨هـ، وتوفي سنة ١٣٠٧هـ. انظر: الأعلام (١٦٧/٦)، ومشاهير علماء نجد وغيرهم (ص/٤٥١).

[٣] فتح البيان في مقاصد القرآن (٥٣/٩).

[٤] مجموع الفتاوى (١٦١/١٤).

[٥] منهاج السنة (٢٢٢/٦).

بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى»[1].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن ذلك؛ أنه حرم أن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل، وأخبر أن ذلك سبب حبوط العمل، فهذا يدل على أنه يقتضي الكفر لأن العمل لا يحبط إلا به، وأخبر أن الذين يغضون أصواتهم عنده هم الذين خلصت قلوبهم للتقوى، وأن الله يغفر لهم ويرحمهم»[2].

وقال النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات[3]، قال الإمام النووي رحمه الله: «الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما يحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى، وخشيته، ومراقبته، ومقصود الحديث أن الاعتبار في ذلك كله بالقلب»[4].

ومثله ما تضمنه الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا»[5]، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وفي هذ الكلام دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح»[6].

---

(١) تفسير السعدي (ص/٧٩٩)، وانظر: تفسير االقرطبي (٣٦٤/١٩).

(٢) الصارم المسلول (٨٠٦/٣).

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (ص١٠٣٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٤) شرح النووي على مسلم (١٢١/١٦).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٩)، كتاب البر والصلة و الآداب، باب تحريم الظلم.

(٦) جامع العلوم و الحكم (٤٧/٢).

ويوضح هذا الأمر ابن القيم فيقول رحمه الله: «فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٧، وقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الحج: ٣٧، وقال النبي ﷺ: "التقوى ههنا وأشار إلى صدره".

وكان أصحاب رسول الله صلى ﷺ يحققون المثل الأعلى في ذلك، فهذ أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: "يا حبذا نومُ الأكياس وفطرهم كيف يغبنون به سهر الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين"[١].

وهذا من جواهر الكلام ومن الأدلة على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم»[٢].

المطلب الرابع

أعمال القلوب هي موضع نظر الرب

مما يدل على تقدم أعمال القلوب على أعمال الجوارح في الأهمية والمترلة من الإيمان، أن أعمال القلوب هي موضع نظر الرب، فالرب عز وجل ينظر إلى القلوب والنيات، لا إلى الصور والأموال والأبدان كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص/١٧١)، وأبو نعيم في الحلية (١/٢١١).

[٢] الفوائد (ص/٢٠٦)، بتصرف يسير.

الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، لكن ينظر إلى قلوبكم»، وفي لفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

قال القرطبي رحمه الله: «وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال.

ولعل من رأينا عليه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه»[2].

ويوضح شيخ الإسلام رحمه الله هذا الأمر، ويبين أنه ليس كل جميل يحبه الله، بل الجميل الذي يحبه الله هو الجميل في الباطن، يقول رحمه الله: «وتفسير هذا قوله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

فعلم أن مجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فإن كان الظاهر مزينا مجملا بحال الباطن أحبه الله، وإن كان مقبحا مدنسا بقبح الباطن أبغضه الله، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيء الفاحش»[3].

ويبين شيخ الإسلام رحمه الله أن تفضيل الناس ينبغي أن يكون تبعا لتفضيل الله لهم، وإنما يفضل الله العباد بما في القلوب، لأنه موضع نظر الرب تعالى، قال رحمه الله: «وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، فإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فكيف يُفَضَّلُ الشخص بما لم يفضله الله به»[1].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٥)، في كتاب البر و الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، واللفظان له.

[2] تفسير القرطبي (٣٨٩/١٩).

[3] الاستقامة (٣٥٧/١).

[1] مجموع الفتاوى (٤١٦/١٥).

ويقول أيضا: «والأعمال تفضل بنيات أصحابها وطاعتهم لله تعالى وما في قلوبهم من الإيمان بطاعتهم لله كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، وبذلك يثابون وعلى ترك ما فرضه الله يعاقبون، وبذلك يندفع عنهم بلاء الدنيا والآخرة»[١].

ثم التميز بين أهل طاعة الله وأهل معصيته يكون بما في القلب لأنه محط نظر الرب ﷻ، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وإنما يمتاز أهل طاعة الله عن أهل معصيته بالنية والعمل الصالح كما في الصحيحين عن النبي ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم"»[٢].

يقول ابن القيم: «فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم، لا إلى صور الأعمال، وقيمة العبد؛ همته وإرادته»[٣].

ويقول ابن رجب رحمه الله: «وإذا كان أصل التقوى في القلوب، فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله ﷻ، كما قال ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم"، وحينئذٍ، فقد يكون كثير ممن له صورة حسنة، أومال، أوجاه، أورياسة في الدنيا، قلبه خرابا من التقوى، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبه مملوءا من التقوى، فيكون أكرم عند الله، بل ذلك هو الأكثر وقوعا»[٤].

ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه إلى أمر قد يغتر به البعض، وهو شبهة البعض الذين إذا واجهتهم بالأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، يقولون أن العمدة والعبرة بما في القلب، وللأسف يستدلون بهذا الحديث، وهم لا يدرون أن الحديث في الحقيقة حجة عليهم لا لهم،

---

[١] نفس المصدر (٢٧/٤٢٤).

[٢] السياسة الشرعية (ص/١٤٢).

[٣] مدارج السالكين (٢/١٧٠).

[٤] جامع العلوم والحكم (٢/٢٧٦).

يقول الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث في تخريجه لأحاديث رياض الصالحين: «زاد مسلم وغيره "و أعمالكم"، وهذه زيادة هامة جدا، لأن كثيرا من الناس يفهمون الحديث بدونها فهما خاطئا، فإذا أنت أمرتهم بما أمرهم به الشارع الحكيم، من مثل؛ إعفاء اللحية، وترك التشبه بالكفار، ونحو ذلك من التكاليف الشرعية، أجابوا بأن العمدة على ما في القلب، واحتجوا على زعمهم بهذا الحديث، دون أن يعلموا بهذا الزيادة الصحيحة الدالة على أن الله تبارك وتعالى ينظر أيضا إلى أعمالهم، فإن كانت صالحة قبلها وإلا ردها، كما تدل على ذلك عديد من النصوص، والحقيقة أنه لا يمكن تصور صلاح القلوب إلا بصلاح الأعمال، ولا صلاح الأعمال إلا بصلاح القلوب»[1].

المطلب الخامس

أعمال القلوب هي الأصل والجوارح تبع

إذا كان القلب يتصرف بالأعضاء كالملك في جنده، وكانت حقيقة التقوى في القلب، وإذا كانت أعمال القلوب هي موضع نظر الرب فلا غرو أن تكون هي الأصل المراد المقصود من الله ﷻ وأعمال الجوارح تبعا لها.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب، فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعا، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه، وإنما يقصد بالطاعة والامتثال القلب، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به كالصلاة والزكاة والصيام، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أول المعصية منه، بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك»[1].

---

[1] رياض الصالحين، تخريج الشيخ الألباني (المقدمة: ل- م – ن).

[1] مجموع الفتاوى (١٤/١١٤).

يفهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أن الأمر والنهي يجبان على القلب قبل الجوارح، لأن بالقلب يكون الإدراك والفهم للأمر أو النهي، ثم عدم قيام العبد بالأمر أول ما يكون، يكون بإعراض القلب عن معرفة الأمر وقصد الامتثال.

وقال أيضا: «والله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته، وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب"»[1].

ويوضح شيخ الإسلام ذلك بمثال وهو الخشوع في الصلاة، يقول رحمه الله: «وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب، إذا لم يكن الرجل مرائيا يظهر ما ليس في قلبه»[2].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبع، ومكملة، ومتممة»[3].

ويقول ابن رجب رحمه الله: «وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله تعالى، فسد وفسدت حركات الجسد بحسب حركة القلب»[4].

وقد مر معنا أن أعمال الجوارح لا يكون إيمان بدونها، لأن أعمال القلوب هي الأصل وأعمال الجوارح تبع لها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «و معلوم أنه لم يرد (أي: النبي ﷺ) أن

---

[1] نفس المصدر (١٦٣/١٨).

[2] الإيمان الكبير (ص/٢٧).

[3] بدائع الفوائد (١١٤٠/٣).

[4] جامع العلوم والحكم (٢١٢/١).

هذه الأعمال[1] تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب، لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان»[2].

ويقول أيضا: «أصل الدين في الحقيقة هي الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونه»[3]، وتوضيح ذلك أن الأعمال كلها يشترط في قبولها الإخلاص لله ﷻ، والإخلاص عمل قلبي، ولهذا كانت الأعمال القلبية واجبة على كل أحد، ولا يكون تركها محمودا في حال من الأحوال.

ويبين شيخ الإسلام أن قول اللسان وعمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين، يقول رحمه الله: «فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين»[4].

المطلب السادس

تفاوت أعمال الجوارح يكون بحسب ما في القلب

إن مما يدل على أهمية أعمال القلوب وكونها مقدمة على أعمال الجوارح في الإيمان، أن الأعمال - سواء كانت تؤدى باللسان، أو تؤدى بالجوارح - لا تتفاضل من حيث الصورة الظاهرة، شكلا وكثرة، حجما وعددا فقط، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلب من إيمان وتقوى، وإخلاص ومحبة، ورجاء وخوف، وإنابة وخشوع إلى غير ذلك من الأعمال القلبية،

---

(1) هي الأعمال المذكورة في حديث وفد عبد القيس، أخرج الحديث البخاري في صحيحه (ص/١٣)، في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، ومسلم (ص/٤٠)، في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله.

(2) الإيمان الكبير (ص/١٠).

(3) نفس المصدر (ص٣٠٨)

(4) الإيمان الأوسط (ص/٥٥).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل»[1].

ويقول أيضا: «وإذا عرف أن الحسنات والسيئات تتفاضل بالأجناس تارة، وتتفاضل بأحوال أخرى تعرض لها، تبين أن هذا قد يكون أعظم من هذا، وهذا أعظم من هذا. والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها، كما في حديث صاحب البطاقة الذي رجحت بطاقته التي فيها "لا إله إلا الله" بالسجلات التي فيها ذنوبه، وكما في حديث البغي التي سقت كلبا بموقها فغفر الله لها، وكذلك في السيئات، والله أعلم»[2].

ويقول أيضا: «وهذا مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان في الأعمال الظاهرة، بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر، لأنه أفضل في الإيمان الذي في القلب، وأما إذا تفاضلا في إيمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله ألبتة»[3].

يقول ابن القيم رحمه الله: «إن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلب»[4].

واتضح أن أقوال اللسان وأفعال الجوارح قد تشتركان في الصورة الظاهرة والشكل الخارجي، لكنها بعد ذلك تتفاضل تفاضلا كبيرا بحسب ما في القلب من الأحوال، ثم قد يقترن بالطاعة من الحقائق القلبية من الخشية والإخلاص والتقوى ما يرفع من قدر الطاعة، ويعظم متزلتها، كما هو الشأن في الرجلين اللذين يكونان في صف واحد، ولكن شتان ما بين أحدهما والآخر في الفضل، وفي المقابل قد يقترن بالمعصية الخوف من الله، والوجل من عذابه ما يخفف من شأنها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٨٢/٢٥).

[2] نفس المصدر (٦٦٠/١١).

[3] الإيمان الكبير (ص/٢٦٩).

[4] مدارج السالكين (٢٤٩/١)، وانظر: شرح الطحاوية (٥١٠/٢).

«والذنب يتغلظ بتكراره، وبالإصرار عليه، وبما يقترن به من سيئات أخر، وكذلك لو قدرنا أن الزاني زنى وهو خائف من الله ﷻ من عذابه، والشارب يشرب لاهيا غافلا لا يراقب الله، كان ذنبه أعظم من هذا الوجه.

فقد يقترن بالذنوب ما يخففها وقد يقترن بها ما يغلظها، كما أن الحسنات قد يقترن بها ما يعظمها وقد يقترن بها ما يصغرها»[١].

والآن أذكر بعض الأمثلة على تفاضل الظاهر بتفاضل الباطن:

١- تفاضل إقرار اللسان بتفاضل ما في القلب.

فالأعمال التي تؤدى باللسان تتفاضل بعددها وتكرارها وليس الحسب، بل تفاضلها الأعظم هو بما قام في القلب من معاني الإيمان وحقائقه من الأعمال القلبية، وتأمل حديث البطاقة[٢] التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بسبب ذنوبه، لكن قائل هذه الكلمة لما قام في قلبه معاني الإيمان بالله وتجريد التوحيد، ثقلت بطاقته في الميزان.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والنوع الواحد من العمل، قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: "يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فيقال: هل

---

[١] مجموع الفتاوى (٦٥٩/١١).

[٢] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٩٥)، في كتاب الإيمان عن رسول الله، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وابن ماجه في سننه (ص/٧١٢)، في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، هو حديث صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٥).

تنكر من هذا شيئا؟ فيقول لا يا رب. فيقول؛ لا ظلم عليك، فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفة والسجلات في كفة، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات" فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار، كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، و لم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة»[1].

٢- تفاضل أعمال الجوارح بتفاضل ما في القلب.

كذلك أعمال الجوارح، قد تكون صورة العملين واحدة، بل وقد يكون الرجلان في صف واحد، ولكن شتان ما بين أحدهما والآخر في الفضل، يقول النبي ﷺ: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»[2]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا، وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب، فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله، عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق»[3].

وتأمل ما قام بقلب البغي من الإيمان، حين نزعت مُوقَها[4] سقت الكلب من الرَكِيَّة[5]، فغفر لها»[1]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

---

[1] منهاج السنة (٦/٢١٨-٢٢٠).

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (رقم١٨٩١٤)، وأبو داود في سننه (ص/١٤٠)، في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، وحسنه الألباني.

[3] منهاج السنة (٦/٢٢١-٢٢٢).

[4] هو: الخف فارسية معربة، انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (٢/٣٧٨).

[5] الركي: بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد الياء، وهو البئر، انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/٢٦١).

«فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبا يغفر لها، وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق[٢]، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص»[٣].

ومما سبق تبين أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح، وأنها أفضل وأهم من أعمال الجوارح، وتتضح هذه المفاضلة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح من عدة جوانب؛ لما كان القلب هو الملك المتصرف بالجوارح كان من المعقول أن ما يقوم به من الأعمال أهم مما يقوم بغيره، ثم أصل الإيمان الذي بعث به الرسل وأنزل به الكتب هو في القلب، كذلك التقوى التي هي من أهم الأعمال القلبية في الحقيقة هي تقوى القلب، ثم إن الله لاينظر إلى صورنا وأجسادنا ، ولكنه ينظر إلى قلوبنا، لأنها هي موضع نظر الرب، وكما أن أصل الإيمان في القلب والجوارح تبع، كذلك القلب يكون الأصل في جميع الأوامر والنواهي، وفي الأخير تفاوت أعمال الجوارح يكون بحسب ما في القلب.

وقبل أن أختم هذا المبحث بقي أمر لابد أن أوضحه، وهو أن أفضلية أعمال القلوب، وتقدمها على أعمال الجوارح هو من حيث الجنس لا الأفراد، لأنه قد يكون عمل من أعمال الجوارح أفضل من عمل من أعمال القلوب، كل ذلك بحسب العمل والأحوال الأخرى المحيطة به، سئل شيخ الإسلام رحمه الله: «أيما أولى: معالجة ما يكره الله من قلبك مثل؛ الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب وغير ذلك، مما يختص بالقلب من

---

[١] الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (ص٥٨٤)، في كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم في صحيحه (ص/٩٢٣)، في كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها.

[٢] الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٨/١٥)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٦/٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

[٣] منهاج السنة (٢٢١/٦)، وانظر: مدارج السالكين (٢٤٩/١)، وشرح الطحاوية (٥١١/٢).

درنه وخبثه ؟ أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة، من الصلاة والصيام وأنواع القربات؛ من النوافل والمنذورات مع وجود تلك الأمور في قلبه ؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب رحمه الله:

الحمد لله، من ذلك ما هو عليه واجب، وأن للأوجب فضلا وزيادة، كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ: "ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه"، ثم قال: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه". والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا خبث الملك خبثت جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله"، وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر في عمل الجسد.

وإذا كان المقدم هو الأوجب، سواء سمي باطنا أو ظاهرا، فقد يكون ما يسمى باطنا أوجب مثل؛ ترك الحسد والكبر، فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام، وقد يكون مما سمي ظاهرا أفضل؛ مثل قيام الليل فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التي تخطر في القلب من جنس الغبطة ونحوها، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ونحو ذلك من الآثار العظيمة، هي أفضل الأعمال والصدقة، والله أعلم»[1].

ويتبين من كلام شيخ الإسلام العلاقة القوية بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأن كل واحد من عمل الباطن والظاهر يؤثر في الآخر، ولكن الأصل هو عمل القلب من حيث الجنس، أما من حيث الأفراد فكما ذكر ليس القيام بالنوافل أفضل من ترك الحسد والكبر، لأن النوافل مستحبة، أما الحسد والكبر حرام، وبالتالي كان تركهما واجبا، فالواجب مقدم على المستحب.

---

[1] مجموع الفتاوى (١١/٢٨١-٢٨٢).

وكذلك قد يكون أمران مستحبان ولكن أحدهما أفضل من الآخر، مثل ما ذكر قيام الليل الذي هو من أفضل الأعمال بعد الفرائض، وترك بعض الخواطر التي تخطر في القلب، وهما وإن اشتركا في الاستحباب فقيام الليل لا شك أنه أفضل من ترك بعض الخواطر غير المحرمة، والله تعالى أعلم.

المبحث الرابع: أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه.

التمهيد

بيان أن الإيمان يزيد وينقص

قد سبق أن بينا أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وقلنا أن هذا معتقد أهل السنة والجماعة الذين يدخلون العمل في الإيمان، والآن أنتقل إلى أمر آخر، وهو بيان أن الإيمان يزيد وينقص ليكون ذلك توطئة لتوضيح أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه.

والبحث فيهما فرع عما سبق من خلاف الطوائف في الإيمان، هل الأعمال منه، أم لا، وهل الإيمان حقيقة واحدة، لا تتبعض ولا تتجزأ، فمتى ذهب بعضه ذهب كله، فلم يبق منه شيء، أم ليس الإيمان حقيقة واحدة، لأنه يتبعض ويتجزأ، وإذا ذهب بعضه لا يلزم ذهاب كله، فإن أصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمعتزلة والمرجئة هو هل الإيمان حقيقة واحدة أم لا، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم قالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان، فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان، وقالت المرجئة والجهمية: ليس الإيمان إلا شيئا واحدا، لا يتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أوتصديق القلب واللسان كقول المرجئة، قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءا منه، فإذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهوقول المعتزلة والخوارج»[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠).

ولما هدى الله أهل السنة للحق من أن العمل من الإيمان، وأنه يتبعض، وأن له شعب متعددة كما أخبر بذلك النبي ﷺ، قالوا: الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[1].

فإن الحق الواجب اعتقاده، والمنعقد الإجماع عليه هو أن الإيمان يزيد بالإخلاص والطاعات والمسارعة إلى رضوان الله، وتقديم مرضاته وتتبع محابه حتى يستكمل الإيمان.

وكذا عكسه، أن الإيمان ينقص كلما ارتكب العبد المحرمات واقترف المنهيات، وفرغ قلبه من تحقيق معاني الألوهية ومعاني أسماء الله وصفاته، وأمره وشرعه حتى يزول الإيمان بالكلية[2]، والله المستعان.

ولقد جاء عن السلف الصالح آثار كثيرة قرروا فيها أن الإيمان قول وعمل، وبينوا أنه يزيد وينقص، بل لقد حكى إجماعهم واتفاقهم على ذلك غير واحد من أهل العلم.

قال الإمام عبد الرزاق الصنعاني[3] رحمه الله: «لقيت اثنين وستين شيخا»، فذكر عددا منهم، ثم قال: «كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[4].

وقال أبو زرعة الرازي: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا وشامًا ويمنًا وكان من مذهبهم؛ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[5].

---

(1) انظر: العقيدة الواسطية (ص/٢٦٣)، مع الشرح للشيخ الهراس رحمه الله.

(2) مسألة الإيمان، دراسة تأصيلية (ص/٣٧)، تأليف علي الشبل.

(3) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصنعاني، ولد بصنعاء سنة ١٢٦ هـ، أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، صنف في التفسير والحديث، توفي سنة ٢١١ هـ، انظر: الطبقات الكبري (١٠٨/٨)، الجرح والتعديل (٣٨/٦)، والأعلام (٣٥٣/٣).

(4) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠٢٩/٥).

(5) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٩٨/١).

وقال إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله: «أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله ﷺ... فذكر أمورا منها: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[١].

وقال الإمام الصابوني رحمه الله: «ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٢].

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٣].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[٤].

وقال أيضا: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[٥].

وقال ابن القيم رحمه الله: «إن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٦].

بما أننا ذكرنا إجماع السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، يحسن بنا الآن أن نذكر مستندهم من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة الذي يدل على ما ذهبوا إليه من أن الإيمان يزيد وينقص.

---

[١] رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص/٢٢٨).

[٢] عقيدة السلف (ص/٢٦٤)

[٣] التمهيد (٢٣٨/٩).

[٤] الإيمان الأوسط (ص/٥٤).

[٥] مجموع الفتاوى (٦٧٢/٧).

[٦] مدارج السالكين (١٩/٢).

أ – الأدلة من القرآن:

الأدلة من القرآن التي تدل على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة، لكني أسوق بعض ما جاء فيه، ومن الأدلة من كتاب الله ما ذكره الإمام البخاري رحمه الله حيث قال في كتاب الإيمان من صحيحه وهو قول وعمل، ويزيد وينقص، قال الله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ الفتح: ٤، ﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ الكهف: ١٣، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ مريم: ٧٦، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ محمد: ١٧، ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ المدثر: ٣١، وقوله: ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ التوبة: ١٢٤، وقوله جل ذكره: ﴿ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ آل عمران: ١٧٣، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب: ٢٢[(١)].

وكما ترى من الآيات التي استدل بها الإمام البخاري، قد تنوعت أساليب القرآن في بيان زيادة الإيمان ونقصانه، فمنها ما جاء التصريح فيها بزيادة الإيمان، ومنها ما جاء فيها التصريح بزيادة الهدى، ومنها ما جاء التصريح فيها بزيادة التسليم لله ﷻ، وقد ذكر هذا التنوع شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله في كتابه «زيادة الإيمان ونقصانه»[(٢)].

ومن أدلة القرآن أيضا، ما ذكره الإمام ابن بطة في كتاب الإبانة الكبرى: قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢، وقال ﷻ: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ البقرة: ٢٦٠، قال ابن بطة: يريد لأزداد إيمانا إلى إيماني، بذلك جاء التفسير.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، أول كتاب الإيمان (ص/٤).

(٢) (ص/٥٣-٨٢).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ النساء:

١٣٦، قال رحمه الله: فلولم يكونوا مؤمنين لما قال لهم: ياأيها الذين آمنوا، وإنما أراد بقوله دوموا على إيمانكم، وازدادوا يقينا وبصيرة ومعرفة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[1].

ب- الأدلة من السنة:

كذلك جاء من السنة أدلة كثيرة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه، فمراعاة للاختصار أكتفي بإيراد بعضها دون الدخول في بيان موضع الاستشهاد منها، إذ هو واضح وبين من ظاهرها ولا يحتاج إلى كثير تأمل، ومنها:

- حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم وهو مؤمن»[2].

- حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أوبضع وستون شعبة، فأفضلها قول:لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء من الإيمان»[3].

- حديث أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»[1].

---

[1] الإبانة الكبرى (٢/٨٣٣-٨٣٤).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٧٣)، ومسلم في صحيحه (ص/٥٤)، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان.

[3] تقدم تخريجه (٥٦).

- وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢].

- وحديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»[٣].

ج- الأدلة من أقوال الصحابة:

سبق أن ذكرت بعض النقول عن السلف الصالح المبينة لإجماع أهل السنة والجماعة على زيادة الإيمان ونقصانه، وتتمة لبيان مستندهم أنقل بعض الأقوال للصحابة الكرام رضي الله عنهم:

- كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: «هلموا نزداد إيمانا»، وفي لفظ: «تعالوا نزداد إيمانا»[٤].
- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اجلسوا بنا نزدد إيمانا»[٥]، وكان يقول في دعائه: «اللهم زدني إيمانا ويقينا وفقهًا»[٦].
- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول: «اجلسوا بنا نؤمن ساعة»[١].

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠)، في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٨)، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة مترلة فيها.

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٥١)، في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص.

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٢٢)، في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، ومسلم في صحيحه (ص/١١٧)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة يغير حساب ولا عذاب.

[٤] أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص/٧١)، و الآجري في الشريعة (ص/١١٣)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٠١٢/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٤/١) وغيرهم.

[٥] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٩/١).

[٦] أخرجه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١٠١٣/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٩/١).

وعن أبي الدرداء[٢] رضي الله عنه قال: «من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما ينقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص؟»[٣].

هذه بعض أقوال الصحابة رضي الله عنهم في زيادة الإيمان ونقصانه، والآثار عنهم وعمن اقتدى بهم من بعدهم كثيرة جدا، ولكن المقصود بيان قول أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد ينقص، وأن الإجماع على ذلك.

المطلب الأول

أوجه زيادة الإيمان ونقصانه

قد أوضحنا في التمهيد أن الإيمان يزيد وينقص، وهو من أصول أهل السنة والجماعة، وذكرنا الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة، والآثار عن الصحابة والتابعين وأئمة السلف من بعدهم.

وفي هذا المطلب سأبين الأوجه التي يكون فيها زيادة الإيمان ونقصانه، إذ إن الإيمان الذي أمر الله به عباده، والذي يكون من عباده المؤمنين يزيد وينقص من أوجه متعددة، قد ذكر هذه الأوجه شيخ الإسلام رحمه الله في كتابيه؛ الإيمان الكبير[٤] والإيمان الأوسط[٥]،

---

[١] أخرجه أبو عبيد في الإيمان (ص/٤٤)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص/٧٠)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (١٠١٤/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٨/١).

[٢] هو الصحابي الجليل عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، كان من الحكماء الفرسان القضاة، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظا على عهد النبي ﷺ، مات بالشام سنة ٣٢ هـ. انظر: السير (٣٣٥/٢)، والأعلام (٩٨/٥).

[٣] أخرجه اللالكائي في شرح الاعتقاد (١٠١٦/٥).

[٤] الإيمان الكبير (ص/١٨٣-١٨٧).

[٥] الإيمان الأوسط (ص/١٠٦-١١٩).

فذكر ثمانية منها في الأول، وسبعة في الثاني، وسأحاول أن أذكرها بشيء من الاختصار وعدم التكرار[1].

فهذه الأوجه هي كالتالي:

الأول: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، فإنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنا وظاهرا، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنا بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوبا ووقوعا، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل.

الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقا فلم يكذبه قط، لكن أعرض عن معرفة أمره، ونهيه، وخبره، وطلبِ العلم الواجب عليه، فلم يعلم الواجب عليه و لم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به و لم يعمل به، وإن اشتركوا في الوجوب، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به، فإيمانه أكمل ممن عرف ما وجب عليه والتزمه وأقر به، لكنه لم يعمل بذلك كله، وهذا المقر بما جاء به الرسول المعترف بذنبه الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل، أكمل إيمانا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ، مع أنه مقر بنبوته باطنا وظاهرا.

[1] غالب هذه الأوجه أخذتها من الإيمان الكبير، وما أخذت من الإيمان الأوسط قد أشرت في موضعه.

الثالث: أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال، وإن اشتركوا فيها، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه، يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب، أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل.

الخامس: زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء، والكبر، والعجب ونحو ذلك، والرحمة للخلق، والنصح لهم، ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية[1].

السادس: أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة، هي أيضا من الإيمان والناس يتفاضلون فيها[2].

السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك، بحيث لا يكون غافلا عنه، أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم، والتصديق والذكر

---

(1) الإيمان الأوسط (ص/١٠٦).

(2) قد ذكرت هذ الوجه بشيء من التفصيل، في المطلب السادس من المبحث الثالث من هذا الباب، وذكرت كلام شيخ الإسلام في ذلك.

والاستحضار يكمل العلم واليقين، - ثم ذكر شيخ الإسلام بعض الأدلة من القرآن والسنة وبعض الآثار - ثم قال: فالآيات المخلوقة والمتلوة، فيها تبصرة، وفيها تذكرة: تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي، والإنسان يقرأ السورة مرات، حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه، ثم كلما فعل شيئا مما أمر به استحضر أنه أمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلا عنه، وإن لم يكن مكذبا منكرا .

الثامن: أن الإنسان قد يكون مكذبا ومنكرا لأمور لا يعلم أن الرسول أخبر بها، وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية أو الحديث، أويتدبر ذلك، أويفسر له معناه، أويظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بما كان مكذبا به، ويعرف ما كان منكرا، وهذا تصديق جديد، وإيمان جديد ازداد به إيمانه، و لم يكن قبل ذلك كافرا بل جاهلا.

التاسع: التفاضل يحصل من هذه الأمور من جهة الأسباب المقتضية لها، فمن كان مستند تصديقه ومحبته أدلة توجب اليقين، وتبين فساد الشبهة العارضة، لم يكن بمترلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك، بل من جعل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمترلة من تعارضه الشبه، ويريد إزالتها بالنظر والبحث، ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها، وبفساد الشبه المعارضة لذلك، وبيان بطلان حجة المحتج عليها، ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له، فإن الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت، وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله وقوته وتمامه[1].

---

[1] الإيمان الأوسط (ص/١١٠).

ومما سبق تبين أن الإيمان يزيد وينقص، وذلك من أوجه متعددة، فهو يزيد من جهة ما في القلب وتصديقه وأعماله، ومن جهة قول اللسان وأذكاره، ومن جهة الأعمال الظاهرة، ومن أوجه أخرى، وفي هذه الأوجه أكبر دليل على زيادة الإيمان ونقصانه في أركان الإيمان الثلاثة، لأنه قد يفهم البعض من مراد السلف بزيادة الإيمان ونقصانه، أنهم يقصرون مجال التفاضل على عمل الجوارح وقول اللسان، والحقيقة خلاف ذلك، فقول السلف إن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، لا يقصدون بالطاعة عمل الجوارح وقول اللسان فقط، بل عمل القلب من الطاعة، فالحب في الله والبغض في الله، والخوف، والرجاء، والتوكل... الخ كل ذلك من الطاعات وهو من الإيمان كما سبق، ومن ثم يتفاوت الناس فيه، بل نفس التصديق والمعرفة تشمله الزيادة والنقصان وهو من الطاعات.

ثم إن هذه الأوجه تتلخص في وجهين، هما:

١- إن الإيمان يتفاضل من جهة أمر الرب.

٢- إن الإيمان يتفاضل من جهة فعل العبد، وفي ذلك رد على من يقتصر بزيادة الإيمان ونقصانه في جهة ما أمر الله به فقط، ولا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه من جهة ما يقع من العبد من عمل، مع أن المخالفة موجودة في الوجهين، لكنها في الثانية أشهر.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين: من جهة أمر الرب، ومن جهة فعل العبد.

أما الأول: فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة. و أيضا، فمن وجب عليه الحج والزكاة أوالجهاد يجب عليه

من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

والنوع الثاني: هو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع.

وهذا أيضا يتفاضلون فيه، فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه، بل هذا أفضل دينا وبرا وتقوى فهو كذلك أفضل إيمانا»[1].

المطلب الثاني

أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه

فمن أوجه زيادة الإيمان ونقصانه التي ذكرها شيخ الإسلام زيادة الإيمان ونقصانه من جهة أعمال القلوب، لأن أعظم باعث للإيمان، وأنفع مقوياته وأهم أسباب زيادته ونمائه هو صلاح القلب بالإيمان بالله وبالحب لله ولرسوله ولما يحبه الله ورسوله ﷺ، وتطهيره مما يخالف هذا ويناقضه.

فالقلب هو الأساس والباعث، وفيه تبدأ الإرادات والخواطر، وتتحرك الدواعي والصوارف، وعنه تنشأ أعمال الظاهر وأفعال الجوارح، فتصديق القلب بالله ورسوله يترجمه اللسان نطقا بالشهادتين، وعمل القلب محبة ورجاء وخوفا تعبر عنه حركة الأعضاء استقامة على طاعة الله، وتنفيذا لأمره ﷻ.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٣/٥١-٥٥)، باختصار.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن ضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب... فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق»[1].

ثم إن العبودية التي خلقنا الله من أجلها وطلب منا القيام بها هي منقسمة إلى عبودية القلب واللسان والجوارح، ولكن أهمها عبودية القلب بل العبودية في الحقيقة هي عبودية القلب، والعبودية لا تكمل إلا باستغنائه عن الخلق وإخلاص الدين لله تعالى من المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستعانة وغيرها من الأعمال القلبية، وكلما قويت هذه الأعمال كملت عبوديته لله واسنغناؤه عن المخلوقات، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله.

فكلما قوي إخلاص دينه لله، كملت عبوديته لله واستغناؤه عن المخلوقات، وكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر ومن الشرك»[2].

وقد مر معنا في مبحث التلازم بين الظاهر والباطن، أن الأعمال الظاهرة لازمة للإيمان الباطن، وأنها من موجبه ومقتضاه، وبالتالي فإنها تقوى بقوته، وتزيد بزيادته، وتنقص بنقصانه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وإذا كانت الأعمال والتروك الظاهرة لازمة للإيمان الباطن كانت من موجبه ومقتضاه، وكان من المعلوم أنها تقوى بقوته، وتزيد بزيادته، وتنقص

---

[1] مجموع الفتاوى (١٨٧/٧).

[2] العبودية (ص/٨٢).

بنقصانه، فإن الشيء المعلول لا يزيد إلا بزيادة موجبه ومقتضيه، ولا ينقص إلا بنقصان ذلك، فإذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم أن تكون زيادته لزيادة الباطن، فيكون دليلا على زيادة الإيمان الباطن ونقصه لنقص الباطن، فيكون نقصه دليلا على نقص الباطن وهو المطلوب.

وهذه الأمور كلها إذا تدبرها المؤمن بعقله تبين له أن مذهب السلف هو المذهب الحق، الذي لا عدول عنه، وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول وصحيح المنقول، كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السلف والأئمة، والله أعلم»[1].

ويبين شيخ الإسلام في معرض كلامه عن زيادة الإيمان ونقصانه، أن ذلك لا يكون في التصديق فقط، بل الزيادة تكون في أعمال القلوب أيضا، وهي في نفس الوقت موجبة لزيادة الإيمان، فيقول رحمه الله: «قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ الفتح: ٤، وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة: ٢٦، وقال تعالى: ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة: ٤٠، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن، ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب، وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه»[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/٥٨٤-٥٨٥).

[2] الإيمان الكبير (ص/١٨١).

ويبين شيخ الإسلام أيضا أن سبب وقوع الناس في المعاصي هو لضعف أعمال القلوب ونقصانها، يقول رحمه الله: «ومعلوم أن الزاني حين يزني، إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها لم يزن، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف: ٢٤، فمن كان مخلصا لله حق الإخلاص لم يزن وإنما يزني لخلوه عن ذلك»[(١)].

وبعد هذا البيان المجمل لأثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه[(٢)]، يحسن بنا أن نذكر بعض الأمثلة التي توضح مدى تأثير أعمال القلوب في حياة المسلم وزيادة الإيمان ونقصانه.

الأول: أثر معرفة أسماء الله وصفاته في زيادة الإيمان.

فإن معرفة أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، والتي تدل على كمال الله المطلق من كافة الوجوه، من أعظم أبواب العلم التي يحصل بها زيادة الإيمان ونقصانه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «إنه من المعلوم أن معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه، ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه، ومعرفة المخوف تقتضي خوفه، فنفس العلم والتصديق وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له وتعظيمه وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته»[(٣)].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/٢٤٠).

(٢) انظر في هذا الموضوع كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: «زيادة الإيمان ونقصانه» (ص/٢٢٧-٢٣٣).

(٣) الإيمان الأوسط (ص/٧٣).

ويقول أيضا: «وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لا يعرف تلك الأسماء، بل آمن إيمانا مجملا، أوعرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة أسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه أكمل»[1].

فإن الاشتغال بمعرفة أسماء الله وصفاته وفهمها مشتمل على فوائد كثيرة، منها:

١- أن علم توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم وأهمها على الاطلاق.

٢- أن علم التوحيد والصفات هو أصل العلوم الدينية.

٣- أن العلم بأسماء الله وصفاته يفتح للعبد باب معرفة الله.

٤- أن العلم بأسماء الله وصفاته هو حياة القلوب.

٥- أن معرفة أسماء الله وصفاته اشتغال بالعبودية التي من أجلها خلقنا الله[2].

ومن هذه الفوائد أن معرفة الله بأسمائه وصفاته مقتضية لآثاره من العبودية والخضوع، فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فلكل اسم من أسماء الله تأثير في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى هذا الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة في تفكيره وسلوكه.

ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فمثلا: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا.

---

[1] الإيمان الكبير (ص/١٨٤).

[2] انظر: «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» لشيخنا محمد بن خليفة التميمي (ص/١١-٢٥)، و «زيادة الإيمان ونقصانه» لشيخنا عبد الرزاق البدر (ص/٢٠٣-٢٠٤).

وعلمه بسمعه تعالى وبصره، وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل مالا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطنا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمترلة أنواع العبودية. فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها[1].

الثاني: أثر الإخلاص في زيادة الإيمان ونقصانه.

ففي الحقيقة أعمال القلوب ليس لها تأثير في زيادة الإيمان ونقصانه فقط، بل هي أصول الإيمان وقواعد الدين، فإن الأعمال الظاهرة لا تقبل بدون الأعمال القلبية، لأن الأعمال كلها يشترط في قبولها الإخلاص لله عز وجل، والإخلاص عمل قلبي.

ومن أكبر أسباب تحقيق العبودية لله هو الإخلاص، إذ به يخرج من القلب تأله ما يهواه، وهو يصرفه عن الذنوب والمعاصي، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم: لا إله إلا الله، فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة أخرى، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله... وكلما حقق العبد الإخلاص في قول : لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصي والذنوب كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ يوسف: ٢٤، فلعل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من

[1] مفتاح دار السعادة (٢/١٢٧-١٢٨).

عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ الحجر: ٤٢، وقال الشيطان: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ص: ٨٢ – ٨٣.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه حرمه الله على النار"[1]، فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة أن يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥»[2].

ثم الإخلاص يجعل المباح طاعة وقربة، فإن كثيرا من تصرفات الناس في حياتهم يدخل في دائرة المباحات، التي لا يثاب فاعلها كما لا يعاقب تاركها، غير أن المؤمن إذا صحح إراداته وأخلص نيته، تحول العمل المباح في حقه إلى عبادة مستحبة، وأصبح من عموم حسناته وطاعته التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى[3].

الثالث: أثر المحبة في زيادة الإيمان ونقصانه.

إن المحبة أصل الإيمان، فوجوده بوجودها، وكماله بكمالها، فليس مؤمنا بالله من لا يحبه، وكما أن من ادعى المحبة وهو غير مؤمن أو غير متبع لسبيل الرسول ﷺ فحبه مجرد ادعاء، فمن أحب الله حبا صحيحا فلا بد من أن يؤمن به وبرسالاته، ويتبع هدي كتابه وسنة نبيه ﷺ، وأي نقص في هذا الحب وأي ضعف فيه لا بد أن يؤثر على سلوك المحب نحو

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٤) في كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، ومسلم في صحيحه (ص/٢٥٩) في كتاب المساجد، باب الرخص في التخلف عن الجماعة بعذر.

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٢٦٠-٢٦١).

[3] انظر: الإيمان الكبير (ص/٣٨-٣٩).

المحبوب، وأي نقص في العبادة فإنه دليل على نقصان المحبة، كما أن ارتكاب المعاصي دليل على ضعف الإيمان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة، إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة... فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملا صالحا، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله»[1].

وقال أيضا: «فمن كان محبا لله لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.... فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر، والفسوق، والعصيان.

ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة، استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوب، فإذا كان العبد قادرا عليها حصلها، وإن كان عاجزا عنها، فعل ما يقدر عليه من ذلك، كان له أجر الفاعل.... وإذا تبين هذا، فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا، وفضله عما سواه»[2].

---

(1) التحفة العراقية (ص/٣٧٣)، باختصار.

(2) العبودية (ص/٧٥-٧٧)، باختصار.

والكلام على تأثير المحبة في حياة المسلم، وتأثيرها في زيادة الإيمان يطول، وإنما أردنا الإشارة إلى بيان فضل هذا العمل، وأنه لا يتصور إيمان صحيح بدونها، وأن لها تأثيرا كبيرا في مسير العباد إلى ربهم، بل هي توصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها[(١)]، فنسأل الله أن يزين قلوبنا بزينة الإيمان والمحبة.

الرابع: أثر الخوف في زيادة الإيمان ونقصانه.

وإذا كانت المحبة أصل الإيمان، فالخوف يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الخائف يفر من المخوف لينال المحبوب، فالخوف هو وصول العبد إلى ما يرضي الله ﷻ وهذ من أبلغ المقامات، فهو يبعث إلى الإكثار من ذكر الله، وهو الجالب للطاعات والمبعد عن المعاصي، وذلك أن العبد كلما تذكر عذاب الله كان هذا الخوف حاجزا ومانعا من ارتكاب أي محذور يغضب الله سبحانه وتعالى.

ثم أيضا الخوف يدفع إلى المسارعة في الخيرات وكثرة الطاعات، ويدفع إلى الابتعاد والحذر الشديد عن الوقوع في المحرمات.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن عبد الله وأحسن إلى الناس فهذا قائم بحقوق الله، وحق عباد الله في إخلاص الدين له، ومن خاف الله فيهم و لم يخفهم في الله كان محسنا إلى الخلق وإلى نفسه، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم، ومن خافهم و لم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم، حيث خاف غير الله ورجاه.

فإن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه، ولا سيما إذا كان طالبا ما لم يحصل له، فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته

[(١)] انظر: مدارج السالكين (٦/٣).

ما تستريح إليه وبه، فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور»[1].

الخامس: أثر الرجاء في زيادة الإيمان ونقصانه.

الرجاء أحد أركان العبادة وهو قسيم الخوف، لأن المسلم لا بد أن يكون في عبادته ما بين رجاء ثوابها، والخوف من عدم قبولها، وعند وقوع الذنب يكون بين خوف عقاب الله ورجاء رحمته.

فالرجاء مع كونه شعبة من شعب الإيمان فإنه يزيد إيمان القلب بربه ويثبته ويقويه، وهو من أعظم محركات الجوارح نحو الطاعات، إذ الرجاء لا بد من اقترانه بالعمل، وإلا يكون تمنيًا لا رجاء، فكل من كان يرجو شيئا من ربه فإنه يحسن العمل حتى ينال مرجوه، ويجتنب الأعمال السيئة والمنكرة التي تحول بينه وبين مراده من ربه، ومن المعلوم أن فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أعظم ما يزيد الإيمان، وارتكاب المعاصي من أعظم ما ينقص الإيمان، فالرجاء من حيث هذا المعنى مما يتأثر به الإيمان زيادة ونقصانا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، ويأسه منه يوجب غناء قلبه عنه كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، أفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له، يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له، يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولايرجو الخالق»[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٥٤-٥٥)، باختصار.

[2] العبودية (ص/٦٦-٦٧).

وقد جمع شيخ الإسلام بين تأثير المحبة والخوف والرجاء في الإيمان، فقال رحمه الله: «ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب الى الله ﷻ فتعتصم به، فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته.

فنقول: اعلم أن محركات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة؛ المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة وهى مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد فى الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول فى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يونس: ٦٢، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير الى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره»[1].

السادس: أثر التوكل في زيادة الإيمان ونقصانه.

التوكل على الله سبحانه وتعالى من مقتضيات الإيمان الصادق ولوازمه، فلا يكون مؤمنا بالله من لا يثق به ويفوض أمره إليه، إذ الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه عليم بذات الصدور، وهو نعم المولى ونعم النصير، وأنه حي لا يموت، وأنه حسب من توكل عليه وناصره ومؤيده، كل هذا مما يستدعي التوكل عليه وحده دون سواه، فكل ما سوى الله سبحانه لا يصلح أن يكون متعلق توكل المرء، لأن الجميع إلى الفناء سائر، وما يفنى لا يصلح لأن يتوكل عليه.

إن التوكل على الله مبعث قوة العزيمة والثبات، ودفع التردد والنكوص عن المطالب، وهو لذلك عدة للنجاح وقوة معنوية، وهو سكون وطمأنينة، ذلك أن صاحبه يوقن أنه قد

---

[1] مجموع الفتاوى (٩٥/١)

أوى إلى ركن شديد، وأنه وضع أصله حيث يجب أن يوضع بعد بذله جهده في مباشرة السبب الذي أرشده إليه خالق الأسباب.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته»[1].

وقال أيضا: «من وجد حقيقة الإخلاص، والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم، وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم، فلا ينفعونه؛ إما لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه.

وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصا له الدين، أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة، فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره»[2].

السابع: أثر الذكر في زيادة الإيمان ونقصانه.

إن الإكثار من ذكر الله هو من علامات الإيمان، وهو صلة المخلوق الضعيف بالخالق الرحيم، وهو باعث للقوة النفسية في مواجهة مصاعب الحياة، وبه يتجه المؤمن إلى الله طالبا منه زوال الكرب ونزول الرحمات، فإنه خير عيش السعداء، فلم يرتقوا أعلى المنازل إلا به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

---

(1) مجموع الفتاوى (١٠/١٧٦).

(2) نفس المصدر (١/٦٥٠-٦٥١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وخص الذكر بالخيفة[١] لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات»[٢].

الثامن: أثر الحياء في زيادة الإيمان ونقصانه.

وكذلك الحياء من الإيمان، وهو خلق له، وهو خير كله، ولا يجلب لصاحبه إلا الخير، وهو يحمل على البر والخير، ويمنع من الفواحش، وهو من دواعي الإِقبال على الطاعة والعبادة، وهو سببٌ لهجر المعاصي، وهو سبب كل خير، وعمدة كل فضيلة، وهو يكسو صاحبه الوقار، ومن قوي حياؤه قوي إيمانه، ومن ضعف حياؤه ضعف إيمانه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب»[٣].

وقال ابن القيم-رحمه الله-: «قاعدةٌ: الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة»، وذكر منها: «السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه؛ فإن العبد متى علم بنظره إليه، ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه، ومسمع، وكان حييا، استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه»[٤].

فإنَّ من فقد الحياء تدرج في حياته من السيء إلى الأسوأ، وهبط من الرذيلة إلى الأرذل، ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدركات السفلى، والعياذ بالله.

---

[١] يقصد شيخ الإسلام رحمه الله قول الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ الأعراف: ٢٠٥.

[٢] مجموع الفتاوى (١٥/٢٠).

[٣] نفس المصدر (١٠/١٠٩).

[٤] طريق الهجرتين (ص/٤٠٨).

فالأعمال التي مرّ ذكرها كلها أعمال ممدوحة مأمور بها[1]، فبتقويتها يقوى الإيمان ويزيد، وبضعفها ينقص الإيمان ويضعف[2]، وهناك أعمال قلبية مذمومة منهي عنها، بوجودها ينقص الإيمان، وكلما قويت أثرت في ضعف الإيمان ونقصانه ، ونكتفي بذكر اثنين من هذه الأعمال لكي لا يطول المقال فيفضي إلى الإملال.

الأول: أثر الكبر في نقصان الإيمان.

إن من أعظم الأمراض التي تصيب القلوب الكبر، فهو يفسد القلوب ويأسر النفوس، فآفته عظيمة، وغائلته هائلة، فإن الإنسان إذا رأى نفسه بعين الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز، ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات كبره.

وهو من أوائل الذنوب التي عصي الله بها، لأن إبليس استكبر وحسد آدم فكفر، وقد بينا أن الإنسان كلما كان أكثر استكبارا عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله، قال شيخ الإسلام: «فالإنسان له إرادة دائما، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك فلا بد أن له مرادا محبوبا يستعبده غير الله.

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارا عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب، الذي هو المقصود - مقصود القلب بالقصد الأول- فيكون مشركا بما استعبده من ذلك»[3].

---

[1] وللاستزادة في معرفة أثر كل عمل قلبي مأمور به في زيادة الإيمان ونقصانه راجع رسالة الأخ الشيخ محمد دوكوري بن محمد: «أعمال القلوب وأثرها في الإيمان»، إذ عقد مطلبا في نهاية كل عمل يبين فيه أثر ذاك العمل في الإيمان.

[2] انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٢٤٥).

[3] العبودية (ص/٨٠-٨٢) باختصار.

فالحاصل أن الكبر دليل على ضعف الإيمان، وليس من صفات أهل الإيمان، وأنه عنه تصدر أعمال ظاهرة هي ثمرته، فيظهر ذلك الخلق السيء على الجوارح، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

الثاني: أثر الحسد في نقصان الإيمان.

ومن الأعمال القلبية المذمومة المنقصة للإيمان، بل هو من أشد أمراض القلوب الحسد، وهو تمني زوال النعمة عن المحسود، فالحاسد يسعى إلى إزالة النعمة عنه وإن لم يصر له مثلها، فإنه يتألم ويتأذى بوجود النعمة عند غيره، ويلتذ بزوالها، وإن لم يحصل له نفع بزوالها.

وللحسد مفاسد كثيرة، منها أنه تشبه باليهود، ومنها أن فيه دليلا على خبث نفس الحاسد، ومنها أن فيه اعتراضا على قدر الله ﷻ، ومنها أنه كلما أنعم الله على عباده نعمة التهبت نار الحسد في قلب الحاسد، فصار دائما في حسرة وغم، ومنها أن الحسد يعرقل الإنسان عن السعي في الأشياء النافعة، ومنها أنه ربما يتدرج بالإنسان إلى أن يصل إلى درجة أنه يظلم الناس، وذلك بأساليب مختلفة وقد يكون منها أنه يصيب المحسود بالعين، ومن مفاسده أيضا أنه يؤدي إلى تفرق المسلمين، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من الحسد، ومن منكرات الأخلاق والأعمال[١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين وهما أعظم الذنوب التي بها عصي الله أولا، فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه»[٢].[٣]

---

[١] قد ذكر هذه المفاسد للحسد الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه لرياض الصالحين (٥٧٨/٢).

[٢] رسالة في التوبة (٢٣٣/١)، وانظر: المجموع (١٢٦/١٠).

[٣] للاستزادة في معرفة أثر الأعمال القلبية المنهي عنها في نقص الإيمان، راجع الكتاب: «القلوب وآفاتها»، تأليف صلاح الدين علي بن عبد الموجود.

وبذلك نصل إلى نهاية هذا المبحث، وقد حاولنا أن نسلط الضوء على شيء من تأثير أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه، وذلك ببيان؛ أن معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان أنه يزيد وينقص، وأن ذلك متفرع عن قولهم إن العمل من الإيمان.

كما بيّنا أن زيادة الإيمان ونقصانه يكون على عدة أوجه، فهو يزيد من جهة ما في القلب وتصديقه وأعماله، ومن جهة قول اللسان وأذكاره، ومن جهة الأعمال الظاهرة، وتتلخص هذه الأوجه في وجهين؛ أن الإيمان يتفاضل من جهة أمر الرب، وأنه يتفاضل من جهة فعل العبد.

وبما أن من أوجه زيادة الإيمان هو زيادة الإيمان ونقصانه من جهة أعمال القلوب، وقد بينا في غير موضع أن أعمال القلوب بمثابة الأصل للفرع، والروح للبدن، فلا شك أن لها تأثيرا قويا في زيادة الإيمان ونقصانه، وقد ذكرت مدى تأثير أعمال القلوب في ذلك، ثم ذكرنا بإيجاز بعض الأمثلة من الأعمال القلبية التي توضح تأثير أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه، والله تعالى أعلم.

المبحث الخامس: أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان.

التمهيد

تعريف نواقض الإيمان

لا شك أن موضوع الإيمان من أهم ما يتفقه فيه المرء، معرفة لحده وأركانه وثمراته ونواقضه، ومعرفة أسباب نقض الإيمان من أهم ما يدرس في هذا الباب، إذ بها يعرف الإسلام من الكفر، والصواب من الخطأ، وبها يحافظ على أصل الإيمان الذي تكون به النجاة في الدنيا والآخرة، قال الشيخ عبد الله[1] بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله: «اعلم أن هذه المسائل من أهم ما ينبغي للمؤمن الاعتناء بها، لئلا يقع في شيء منها وهو لا يشعر، وليتبين له الإسلام والكفر، حتى يتبين له الخطأ من الصواب، ويكون على بصيرة في دين الله»[2].

ولما كان من المقرر عند أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان قول وعمل، وله شروط وأركان، فإن من المقرر أيضا؛ أن للإيمان نواقض تنقض الإيمان وتهدمه، وتمهيدا لبيان أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان أحببت أن أعرف بنواقض الإيمان حتى يستطيع القارىء استيعاب المسألة التي نحن في صدد شرحها، ومن ثم تتبين له أهمية أعمال القلوب ومدى تأثيرها في نقض الإيمان.

---

[1] هو عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي الإمام العلامة الحبر والورع الحافظ الثقة الثبت الشجاع، أخذ العلم عن والده وخلق كثير، كان عارفا بالتفسير والحديث والفقه والأصول، من مصنفاته: جواب أهل السنة في نقض كلام الشيعة الزيدية، والكلمات النافعة في المكفرات الواقعة وغيرها، توفي في مصر سنة ١٢٤٣ هـ، انظر: كتاب التراجم ضمن الدرر السنية (١٦/٣٧٦-٣٨٠)، والأعلام (٤/١٣١).

[2] الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة (ص/٥).

ونواقض الإيمان جملة مركبة من كلمتين؛ من كلمة «نواقض» جمع «ناقض»، ومن كلمة «الإيمان»، وكلمة الإيمان مر تعريفها لغة وشرعا، فلا حاجة لإعادة الكلام، فالآن أعرّف بكلمة «النواقض».

فالناظر في المعاجم اللغوية يجد أن كلمة النقض مدارها على إفساد ما أبرمت من عقد أوبناء، فهو بمعنى نكث الشيء، وانتشار العقد.

والنقض ضد الإبرام، و نقيضك الذي يخالفك[1].

جاء في التعريفات: «نقيض كل شيء؛ رفع تلك القضية، فإذا قلنا؛ كل إنسان حيوان بالضرورة، فنقيضه؛ أنه ليس كذلك»[2].

وقال الفيومي[3]: «ونقضت الحبل حللت برمه، ومنه ما يقال: نقضت ما أبرمه إذا أبطلته، وانتقض هو بنفسه، وانتقضت الطهارة بطلت، وانتقض الجرح بعد برئه، والأمر بعد التئامه فسد، وتناقض الكلامان تدافعا كأن كل واحد نقض الآخر، وفي كلامه تناقض إذا كان في بعضه يقتضي إبطال بعض»[4].

ويكتمل معنى كلمة النقض إذا عرفنا معنى كلمة العقد، إذ النقض نقيض العقد وعكسه، فأقول:

جاء في اللسان: «العقد نقيض الحل... والعقد العهد، والجمع عقود، وهي أوكد العقود. ويقال؛ عهدت إلى فلان كذا وكذا وتأويله ألزمته ذلك، فإذا قلت؛ عاقدته أوعقدت

---

(١) انظر: لسان العرب (٣٣٩/١٤)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/١٠٠٧)، والقاموس المحيط (ص/٨٤٦).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص/٢٤١).

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي، فقيه لغوي، له مصنفات، توفي سنة ٧٧٠ هـ، انظر: معجم المؤلفين (١٣٢/٢)، والأعلام (٢٢٣/١).

(٤) المصباح المنير (ص/٥٠٩).

عليه فتأويله أنك ألزمته ذلك باستيثاق، والمعاقدة والمعاهدة، وعاقده وعاهده، وتعاقد القوم تعاهدوا... والعقد؛ ما عقدت من البناء»[1].

وجاءت مادة «نقض» في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾ النحل: ٩٢، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ النحل: ٩١، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ الرعد: ٢٠.

كما وردت مادة «نقض» في الأحاديث النبوية، منها قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة»[2]، أي هدمتها، ومنها ما جاء عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئا فيه تصاليب إلا نقضه»[3]، أي أزاله، ومنها قول النبي ﷺ: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة»[4].

فمن خلال ما سبق عرضه من النصوص يمكن القول، بأن معنى النواقض في الاصطلاح أنها اعتقادات، أو أقوال، أو أفعال تزيل الإيمان وتقطعه وهي موجبة للردة، يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «فنواقض الإيمان وهي الموجبة للردة، تسمى نواقض، والناقض يكون قولا، ويكون عملا، ويكون شكا، فقد يرتد الإنسان بقول يقوله، أو بعمل يعمله، أو باعتقاد

---

[1] لسان العرب (١٠/٢٢٠-٢٢١).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٧)، في كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار، ومسلم في صحيحه (ص/٥٢٧)، في كتاب الحج، باب نقض الكعبة.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٤٣)، في كتاب اللباس، باب نقض الصور.

[4] أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٦/٤٨٥)، والحاكم في المستدرك (٥-٢٢)، وصححه.

يعتقده، أو بشك يطرأ عليه، وهذه الأمور الأربعة كلها يأتي منها الناقض الذي يقدح في العقيدة ويبطلها»[1].

فالناقض هو الموجب للردة المخرج عن ملة الإسلام، فالنواقض وموجبات الردة متلازمان.

فالردة في اللغة هي الرجوع، وشرعا هي الرجوع عن الإسلام إما باعتقاد، أو فعل، أو قول، يقول البهوتي[2]:«المرتد؛ لغة هو الراجع، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴾ المائدة: ٢١، وشرعا: الذي يكفر بعد إسلامه نطقا، أواعتقادا، أوشكا، أوفعلا»[3].[4]

ولبيان هذه النواقض قسمت المبحث إلى مطالب:

المطلب الأول

بيان أن نقض الإيمان يكون بالقول، والفعل، والاعتقاد

قد تبين من خلال تعريف نواقض الإيمان، أن نقضه يكون بالقول، والفعل، والاعتقاد، وأن أقسام الكفر بحسب ما يقوم من أعضاء البدن لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة، وقبل الشروع في ذكر بعض الأقوال لأهل العلم الدالة على أن نقض الإيمان يكون بأحد هذه الثلاثة، أو بها جميعا، أريد أن أعرف بكل واحدة منها:

---

[1] القوادح في العقيدة، له (ص/٤).

[2] هو منصور بن يونس بن صالح البهوتي الحنبلي، شيخ الحنابلة بمصر، له مؤلفات في الفقه، توفي بمصر سنة ١٠٥١ هجرية، انظر: مختصر طبقات الحنابلة للشطي (ص/١١٤)، ومعجم المؤلفين (٢٢/١٣).

[3] كشف القناع (٢١٤/٦).

[4] انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية، تأليف د. عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف (ص/٤٨-٥١).

النواقض القولية: هي الأقوال والألفاظ الصريحة التي ثبتت بالأدلة الشرعية القطعية الدلالة على أنها كفر أكبر مخرج من الملة دون اشتراط الجحود أو الاستحلال أو الاعتقاد أو قصد الكفر، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ التوبة: ٦٥ – ٦٦، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فبين أنهم كفار بالقول، مع أنهم لم يعتقدوا صحته»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النحل: ١٠٦، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط، لأن ذلك لا يكره الرجل عليه، وهو قد استثنى من أكره، ولم يرد من قال واعتقد، لأنه استثنى المكره وهو لا يكره على العقد والقول، وإنما يكره على القول فقط، فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم وأنه كافر بذلك، إلا من أكره وهو مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا من المكرهين فإنه كافر أيضا، فصار من تكلم بالكفر كافرا إلا من أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان»[(٢)].

النواقض الفعلية: هي الأفعال التي ثبت بالأدلة الشرعية القطعية الدلالة أن فعلها كفر أكبر مخرج من الملة دون اشتراط الجحود، أو الاستحلال، أو قصد الكفر، مثل السجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ﷺ وسبّه، وغيرها.

---

(١) الصارم المسلول (٣/٩٧٦).

(٢) نفس المصدر (٣/٩٧٧).

النواقض الاعتقادية: هي الاعتقادات الباطلة التي ثبتت بالأدلة الشرعية القطعية الدلالة على أنها كفر أكبر مخرج من الملة، مثل بغض النبي ﷺ ومعاداته مع اعتقاد صدقه، أو اعتقاد حل إحدى المحرمات المعروفة في الشرع، أو اعتقاد أن أحدا يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، أو غير ذلك من الاعتقادات المكفرة التي تناقض قول القلب أوعمله[1].

والآن أذكر بعض أقوال أئمة أهل السنة والجماعة في أن الكفر يكون بالاعتقاد والقول والفعل:

قال الإمام سفيان بن عيينة[2] رحمه الله تعالى عندما سئل عن الإرجاء: «يقولون: الإيمان قول، ونحن نقول: الإيمان قول وعمل، والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله؛ مصراً بقلبه على ترك الفرائض، وسموا ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم، وليس بسواء؛ لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصية، وترك الفرائض متعمداً من غير جهل ولا عذر هو كفر»[3].

وسئل الإمام الشافعي رحمه الله عمن هزل بشيء من آيات الله تعالى، فقال: هو كافر واستدل بقول الله تعالى﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾التوبة: ٦٥ ــ ٦٦[4].

---

[1] انظر: قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة (ص/٤٨٣)، وكتاب شيخنا إبراهيم بن عامر الرحيلي: «التكفير وضوابطه» (ص/١٠٦-١٠٨).

[2] هو سفيان بن عيينة ابن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم، الإمام الكبير حافظ العصر، شيخ الإسلام، أبو محمد الهلالي الكوفي، ثم المكي، مولده بالكوفة سنة ١٠٧هــ، وتوفي سنة ١٩٨هــ، قال الشافعي: ما رأيت أحدا فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أكف عن الفتيا منه، انظر: حلية الأولياء (٧/٢٧٠)، وفيات الأعيان (٢/٣٩١)، وسير أعلام النبلاء (٨/٤٥٤).

[3] كتاب السنة لعبدالله بن الإمام أحمد (ص/٣٣٤-٣٣٥).

[4] الصارم المسلول (٣/٩٥٦).

وقال الإمام إسحاق بن راهويه المروزي[1] رحمه الله: «أجمع المسلمون على أن من سب الله وسب رسوله ﷺ، أو دفع شيئا مما أنزل الله أو قتل نبيا من أنبياء الله، أنه كافر بذلك، وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله»[2].

وقال الإمام محمد بن سحنون المالكي[3] رحمه الله : «أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المنتقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة: القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر»[4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن من سب الله، أو سب رسوله كفر ظاهراً وباطناً؛ سواءً كان الساب يعتقد أن ذلك محرم، أوكان ذاهلاً عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل»[5].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وشعب الإيمان قسمان؛ قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان؛ قولية وفعلية، ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زواله زوال الإيمان، فكذلك من شعب الإيمان الفعلية ما يوجب زوال الإيمان. وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية، فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارا، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود لصنم، والاستهانة بالمصحف...»[6].

---

(1) هو الإمام إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي المشهور بابن راهويه، أحد الأئمة المجمع على إمامتهم وفضلهم، توفي ٢٣٨ هـ. انظر: السير (١١/ ٣٥٨).

(2) الصارم المسلول (٣/٩٥٥).

(3) هو محمدبن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي، أبو عبد الله فقيه مالكي، كان حافظا خبيرا بمذهب مالك، عالما بالآثار،كثير التصانيف، توفي سنة ٢٥٦ هـ، انظر: الوافي بالوفيات (٣/٧٢)، والأعلام (٦/٢٠٤-٢٠٥).

(4) الصارم المسلول (٣/٩٥٦)

(5) نفس المصدر (٣/٩٥٥).

(6) الصلاة وحكم تاركها (ص/٧٠)

وقال الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي[1] رحمه الله: «باب حكم المرتد، وهو من كفر بعد إسلامه، ويحصل الكفر بأحد أربعة أمور: بالقول كسبّ الله تعالى ورسوله وملائكته، أو ادعاء النبوة، أو الشرك به تعالى، وبالفعل كالسجود للصنم ونحوه، وإلقاء المصحف في قاذورة، وبالاعتقاد كاعتقاد الشريك له تعالى، أو أن الزنا والخمر حلال، وأن الخبز حرام ونحو ذلك ومما أجمع عليه إجماعا قطعيا، وبالشك في شيء من ذلك»[2].

وقال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله: «للحكم بالردة والكفر موجبات وأسباب هي نواقض الإيمان والإسلام، من اعتقاد، أو قول، أو فعل، أو شك، أو ترك مما قام على اعتباره ناقضا الدليل الواضح، والبرهان الساطع من الكتاب والسنة، أو الإجماع»[3].

المطلب الثاني

أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان

سبق أن عرفنا حقيقة الإيمان عند أهل السنة، وأنه قول وعمل، وله شروط وأركان، وبينا أن للإيمان نواقض تنقض الإيمان وتهدمه، ووضحنا المراد بنواقض الإيمان، كما قررنا أيضا أن نواقض الإيمان تكون بالقول، وبالفعل، وبالاعتقاد.

ومما ينبغي أن يعلم أن أصل النواقض هي النواقض الاعتقادية، وما يظهر من النواقض القولية والفعلية لازم ودليل لما في القلب من كفر أو نفاق، ومن هنا يتضح جليا مدى تأثير

---

[1] هو مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي، من كبار الفقهاء، له نحو سبعين كتابا، منها: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، وغاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى في فقه الحنابلة، وغيرها. توفي سنة ١٠٣٣هـ. انظر: الأعلام (٧/٢٠٣).

[2] دليل الطالب (ص/٣٢٣).

[3] درء الفتنة عن أهل السنة (ص/٥٦).

أعمال القلوب في نقض الإيمان، وقد وضح ذلك شيخ الإسلام في عدة مواضع، من ذلك أن سب الرسول ﷺ وتنقيصه، كل ذلك لا يقوله إلا من هو فاسد القلب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الإيمان والنفاق أصله في القلب، وإنما الذي يظهر من القول والفعل فرع له دليل عليه، فإذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم عليه، فلما أخبر سبحانه أن الذين يَلْمِزون النبي ﷺ والذين يؤذونه من المنافقين، ثبت أن ذلك دليل على النفاق وفرع له، ومعلوم أنه إذا حصل فرع الشيء ودليله حصل أصله المدلول عليه، فثبت أنه حيثما وجد ذلك كان صاحبه منافقا سواء كان منافقا قبل هذا القول، أو حدث له النفاق بهذا القول»[(1)].

ومن ذلك أيضا؛ الامتناع عن فعل الواجبات الظاهرة المتواترة، فإن امتناعه يدل على أنه لم يكن في الباطن مقرا بالوجوب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم من رمضان، ولا يؤدي لله زكاة، ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة، لا مع إيمان صحيح»[(2)].

ثم سبق أن قررنا التلازم بين جوانب الإيمان، ومن ذلك التلازم بين قول القلب وعمله، وقلنا أنه بانتفاء الأعمال القلبية يزول الإيمان بالكلية، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «التصديق من الإيمان، ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانا ألبتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية»[(3)].

---

(1) الصارم المسلول (٢/٧٦).

(2) مجموع الفتاوى (٧/٦١١).

(3) الإيمان الكبير (ص/٢٤٠-٢٤١).

وقال أيضا رحمه الله: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد... والكفر هو عدم الإيمان، سواء كان معه تكذيب، أو استكبار أو إباء، أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان؛ قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان؛ عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح.

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب، لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة.

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرا وجهرا ويقولون ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به»[2].

يفهم من كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهم الله وهو معتقد أهل السنة والجماعة، أنه إذا زال عمل القلب بالكلية مع بقاء التصديق زال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء العمل، وبهذا يظهر أيضا تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان.

---

[1] مجموع الفتاوى (٦٣٨/٧-٦٣٩).

[2] الصلاة وحكم تاركها (ص/٧٠-٧١).

ومما يبين تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان أيضا، أن كل عمل قلبي يكون عبادة لله، يمكن أن يكون ناقضا للإيمان، لكن متى يكون عمل قلبي معين ناقضا للإيمان؟، هذ ما سنبينه فيما يلي:

القاعدة العامة[١] تقول: ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله على وجه التعبد شرك أكبر ولا يكون شركا أصغر، إذ العبادة خاصة بالله[٢]، والأدلة عليها كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ الجن: ١٨، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢، وقال النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار»[٣].

فالعبادة تشمل ما كان بالقلب مثل؛ المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستعانة وغيرها، وتشمل ما يكون باللسان مثل؛ التكلم بالشهادتين، وقراءة القرآن، والذكر وغيرها، وتشمل ما يكون بالجوارح مثل؛ الصلاة، والزكاة، والحج ، والصوم وغيرها، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة»[٤].

---

[١] انظر: قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/٣٩).

[٢] وقد نصّ على هذه القاعدة جماعة من العلماء، منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند مسائل: باب من الشرك؛ النذر لغير الله، والشيخ سليمان بن عبد الله في التيسير (ص/١٦٥)، والشيخ عبد الرحمن بن حسن في كتاب: كشف ما ألقاه ابليس (ص/٧٧)، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في القول السديد (ص/١٢٠-١٢١)، والشيخ ابن عثيمين في قول المفيد (١/٢٤٣).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٦٤)، في كتاب التفسير، ومسلم في صحيحه (ص/٦٤)، في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، و من مات مشركا دخل النار.

[٤] العبودية (ص/١٧).

والقيد في القاعدة (على وجه التعبد) قيد مهم، والفائدة منه أن هناك أمورًا تُفعل لله ولغيره، لكن فعلها لله تعبدي، ولغيره على خلاف ذلك، من هذه الأمور الأعمال القلبية كالمحبة والخوف والرجاء وغيرها، فإذا أطلقت على غير الله تعبدًا صارت شركًا، وإذا أطلقت على وجه مباح لم تكن شركا، وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذا القيد، إذ يقول رحمه الله: «لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له»، ثم قال: « ومن خضع لإنسان مع بغض له فلا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا و لم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله»[1].

وبعد هذا التقرير، أذكر بعض الأعمال القلبية التي تكون شركا وناقضا للإيمان، ومن خلالها يتبين أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان، لكن قبل ذلك أريد أن أنبه أنه قد سبق أن ذكرت بعض الأمثلة في ذلك، في الفصل الأول من هذه الرسالة، في مبحث أنواع أعمال القلوب، حين تكلمت عن الأعمال القلبية المحرمة الشركية، فالذي ذكرته هناك لا أعيده هنا، فالآن أحاول أن أذكر أمثلة أخرى غير ما سبق:

الأول: موالاة المحادين لله ورسوله.

إن من تمام محبة الله هو أن يحب العبد ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، فإن من أحب الله وأحب لله، أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى من يواليه الله، وعادى من يعادي الله، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابه، والبعد عن مكروهاته.

أما موالاة المحادين لله ورسوله وموادتهم فإنها تنافي المحبة، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ

[1] العبودية (ص/٢٢-٢٣).

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ المجادلة: ٢٢، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فأخبر أنك لا تجد مؤمنا يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه، كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب»[1].

وقال أيضا: «هذه الآية فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله، وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[2].

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٨٠ – ٨١، فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف «لو» التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي، وما أنزل إليه[3].

---

[1] الإيمان الكبير (ص/١٧).

[2] مجموع الفتاوى (١٤٧/٧).

[3] الإيمان الكبير (ص/١٧-١٨).

ومثله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ المائدة: ٥١، فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمنا، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم، فالقرآن يصدق بعضه بعضا[(١)].

لكن هل يعني ذلك أن كل من وجد في قلبه شيء من المودة والرحمة تجاه أحد الكفار يكون كفرا مخرجا من الملة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافرا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة[(٢)] لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ الممتحنة: ١، وكما حصل لسعد بن عبادة[(٣)] لما انتصر لابن أبيّ[(٤)] في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ[(٥)]:"كذبت والله، لا تقتله ولا تقدر

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٨).

(٢) هو حاطب بن أبي بلتعة، أبو محمد، صحابي جليل، شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه رسول الله ﷺ بكتاب إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ، مات بالمدينة سنة ٣٠ هـ، وصلى عليه عثمان بن عفان، انظر: طبقات ابن سعد (١٠٦/٣)، والإصابة (٣١٤/١).

(٣) هو سعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة الأنصاري الخزرجي أحد النقباء وأحد الأجواد، وقع في صحيح مسلم أنه شهد بدرا، والمعروف عند أهل السير أنه تهيأ للخروج فنُهِش فأقام، توفي بأرض الشام سنة ١٥ هـ، وقيل غير ذلك، روى عن النبي ﷺ وروى له الأربعة، انظر: تقريب التهذيب (ص/٢٣٨). الإصابة (٨٠/٣)، وطبقات ابن سعد (٥٦٦/٣).

(٤) هو عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن مالك الخزرجي الأنصاري وهو بن أبي بن سلول، وكان رأس المنافقين في المدينة، حاول إيذاء النبي ﷺ عدة مرات، وما قصة الإفك إلا واحدة منها، أهلكه الله سنة ٨ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٥٠٠/٣)، والإصابة (٩٥/٤) ذكراه عند ترجمة ابنه عبد الله.

(٥) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، الأوسي الأنصاري، صحابي من الأبطال من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لوائهم يوم بدر، وشهد أحدا فكان ممن ثبت فيها، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسما،

على قتله"، قالت عائشة: "وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية "[1]، ولهذه الشبهة سمى عمر حاطبا منافقا..فكان عمر متأوّلا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها»[2].

إذًا، ما الضابط الذي يميز الموالاة المخرجة من الدين من غيرها؟، هو ما قلناه سابقا، هو محبة الكفار لأجل دينهم ونصرتهم لأجله والرضا به ، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن جنس موالاة الكفار التي ذم الله بها أهل الكتاب والمنافقين: الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٥١.... ومن تولى أمواتهم أو أحياءهم بالمحبة والتعظيم والموافقة فهو منهم، كالذين وافقوا أعداء إبراهيم الخليل من الكلدانيين وغيرهم من المشركين عباد الكواكب أهل السحر، والذين وافقوا أعداء موسى من فرعون وقومه بالسحر، أوادعى أنه ليس ثم صانع غير الصنعة، ولا خالق غير المخلوق، ولا فوق السماوات إله كما يقوله الاتحادية وغيرهم من الجهمية، والذين وافقوا الصائبة والفلاسفة فيما كانوا يقولونه في الخالق ورسله في أسمائه وصفاته والمعاد وغير ذلك»[3].

رمي بسهم يوم الخندق فمات من أثر جرحه، ودفن بالبقيع سنة ٥ هـ، انظر: التقريب (٢٣٩)، والإصابة (٨٧/٣/ وطبقات ابن سعد (٣٣٨/٣).

[1] الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٣١)، في كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، ومسلم في صحيحه (ص/١١١٢) ، في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف.

[2] مجموع الفتاوى (٥٢٣/٧).

[3] مجموع الفتاوى (١٩٩/٢٨-٢٠٢)، باختصار.

قال القرطبي: «من كثر تطلعه على عورات المسلمين، وينبه عليهم، ويعرف عدوهم بأخبارهم، لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعله لغرض دنيوي واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد، و لم ينو الردة عن الدين[١]»[٢].

ويقول الشيخ الفوزان حفظه الله حين قسم مظاهرة الكفار إلى أقسام:

«**القسم الأول**: مظاهرتهم ومعاونتهم على المسلمين مع محبة ما هم عليه من الكفر، والشرك، والضلال، فهذا القسم لا يشك أنه كفر أكبر مخرج من الملة...

القسم الثاني: أن يعاونهم على المسلمين لا مختارا، بل يكرهونه على ذلك بسبب إقامته بينهم، فهذا عليه وعيد شديد، ويخشى عليه الكفر المخرج من الملة...

القسم الثالث: من يعين الكفار على المسلمين وهو مختار غير مكره، مع بغضه لدين الكفار، وعدم الرضا عنه، فهذا لا شك أنه فاعل لكبيرة من كبائر الذنوب، ويخشى عليه من الكفر، و لولا أنه يبغض دينهم ولا يحبهم لحكم عليه بالكفر، فهو على خطر شديد»[٣][٤].

---

[١] يشير بذلك إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٩٦)، في كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، والتجسس، والتبحث، ومسلم في صحيحه (ص/١٠١٢)، في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر، جاء فيه أن حاطب بن أبي بلتعة أرسل الرسالة إلى قريش يخبرهم بقدوم رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟»، قال: لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا في قريش و لم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم، أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا، ولا ارتدادا عن دين، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم».

[٢] نفسير القرطبي (٣٩٩/٢٠).

[٣] شرح نواقض الإسلام (ص/١٥٨-١٥٩) للشيخ الفوزان، باختصار.

[٤] انظر: حقيقة الولاء والبراء في الكتاب والسنة (ص/٢٣٧-٢٤١، و ص/٢٩٧ وما بعدها)، تأليف د. عصام بن عبد الله السناني.

الثاني: التوكل.

قد جاء الأمر بالتوكل في آيات كثيرة، منها: قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ ﴾ هود: ١٢٣، وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٠، وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ الفرقان: ٥٨، فإنه فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين[١]، فالواجب على العبد أن يتوكل على الله لا على المخلوقين، فإن (المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله ... فهذا الوجه يقتضي، التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه، ومسألته، دون ما سواه، ويقتضي أيضا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه)[٢].

والتوكل، حقيقته اعتماد القلب على الله، وثقته به، والتجاؤه إليه، ورضاه بما يقضيه له؛ لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور به واجتهاده في تحصيلها[٣].

والتوكل عمل قلبي، وعبادة قلبية محضة، ولهذا كان إفراد الله بها واجبا، وكان صرفها لغير الله جل وعلا شركا.

التوكل على غير الله سبحانه وتعالى له حالتان:

---

[١] انظر: التيسير (ص/٤٢٧).

[٢] مجموع الفتاوى (١/٢٧-٢٨).

[٣] انظر: كتاب الروح لابن القيم (ص/٤٩١-٤٩٢).

الحالة الأولى: أن يكون شركا أكبر، وهو أن يتوكل على أحد من الخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، كأن يتوكل على المخلوق في مغفرة الذنب، وأن يتوكل على المخلوق في تحصيل الخيرات الأخروية إلى غير ذلك من الأشياء، وهو لا يقدر على ذلك الشيء.

والحالة الثانية: أن يتوكل على المخلوق فيما أقدره الله عليه، وهذا نوع شرك، بل هو شرك خفي، وشرك أصغر، وكونه شركا لأن التوكل هو تفويض الأمر والالتجاء بالقلب إلى من بيده الأمر وهو الله ﷻ، والمخلوق لا يستحق شيئا من ذلك[1].

فإذا توكل العبد على مخلوق فيما أقدره الله عليه ففي هذا نوع تعلق لقلبه بذلك المخلوق، أما إذا توكل على العبد فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر، وهو هذا الذي يجب الإخلاص فيه، نسأل الله السلامة.

الثالث: الاستعاذة.

وقد عرف الشيخ سليمان الاستعاذة فقال: «الاستعاذة الالتجاء والاعتصام والتحرز، وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا وملجأ ووزرا»[2].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «و قول القائل أعوذ بالله معناه أستجير بالله، والمستعيذ يطلب منع المستعاذ منه، أو رفعه»[3].

الاستعاذة من العبادات التي أمر الله عباده بها كما قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ الأعراف: ٢٠٠، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ الفلق: ١، وقال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ الناس: ١.

---

[1] انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لمعالي الوزير الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ (ص/٣٧٥-٣٧٦).

[2] التيسير (ص/١٧٠).

[3] الرد على البكري (٥٤٧/٢)، بتصرف يسير.

وقد اختلف العلماء في الاستعاذة على قولين، هل الاستعاذة خاصة بالله لفظا ومعنى، أم يجوز صرفها للمخلوق فيما يقدر عليه؟

القول الأول: أنه لا يجوز صرفها لغير الله مطلقا، وليس ثم استعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، لأن الاستعاذة توجه القلب، واعتصامه، والتجاؤه، ورغبته، وهذه المعاني لا تصلح إلا لله، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والاستعاذة لا تصلح بمخلوق كما نص عليه الأمام أحمد وغيره من الأئمة، إلى أن قال: والاستعاذة لا تكون بمخلوق»[١].

القول الثاني: جواز الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، لأن حقيقة الاستعاذة: طلب انكشاف الشر، وطلب العياذ، وهو أن يستعيذ من شر أحْدَقَ به، واستدلوا بأحاديث، منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة ﵁، أن النبي ﷺ قال: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ، أو معاذا فليعذ به»[٢]، وهذا القول هو ظاهر قول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما طلب ما يقدر عليه في حياته فهذا جائز، سواء سمي استغاثة، أواستعاذة، أو غير ذلك»[٣].

لكن الذي لا نزاع فيه بين علماء أهل السنة والجماعة، أنه لا يستعاذ بمخلوق في أمر خاص بالله، كأن تفعل على وجه التعبد، أو يكون الاستعاذة بمخلوق فيما لا يقدر عليه، لأنه شرك أكبر، وناقض للإيمان، مخرج صاحبه من الملة.

الرابع: الاستعانة.

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم (٣٢٣/٢).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٢٠)، في كتاب الفتن، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من فتنة القائم، وكسلم في صحيحه (ص/١١٥٦)، في كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع المطر.

[٣] الرد على البكري (٧١٧/٢).

الاستعانة هي طلب العون، وهي عبادة جاء بها الكتاب والسنة كقوله:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥، وكقول رسول الله ﷺ فيما ثبت عند الترمذي عن ابن عباس رضى الله عنه: «إذا استعنت، فاستعن بالله»[١].

وحقيقة الاستعانة هي الثقة بالله والاعتماد عليه، يقول ابن القيم رحمه الله: «الاستعانة تجمع أصلين؛ الثقة بالله، والاعتماد عليه»[٢].

وجاء في الكتاب والسنة الاستعانة على غير الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ البقرة: ١٥٣، وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه»[٣]، و بهذه النصوص استدل شيخ الإسلام على أن الاستعانة تكون من غير الله، لكن الضابط الذي ذكرنا في التوكل، والاستعاذة، أن صرفهما لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر، يفيد أيضا في ضبط الاستعانة الشركية، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله»[٤]، وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «فالاستعانة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك في الإلهية والربوبية»[٥].

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في المنسد (٤/٤١٠)، والترمذي في سننه (ص/٥٦٧)، في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

[٢] مدارج السالكين (١/٥٩).

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٢)، في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

[٤] مجموع الفتاوى (١/١٠٤).

[٥] بيان كشف ما ألقاه إبليس (ص/ ٨٨).

ومن خلال هذه الأمثلة يتبين لنا تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان، وأنه ما من عمل قلبي يكون عبادة لله، إلا وهو يتحول فيكون ناقضا للإيمان في أحوال، وهو كما ذكرنا أن تقع هذه الأعمال على وجه التعبد لغير الله.

والخلاصة مما سبق: لما كان من المقرر عند أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان قول وعمل، وأن له شروطا وأركانا، فإن من المقرر أيضا؛ أن للإيمان نواقض تنقض الإيمان وتهدمه، وقد بينا المراد بنقض الإيمان لغة وشرعا، ثم بينا أن نقض الإيمان يكون بالقول والعمل والاعتقاد، وأن هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة قاطبة، بخلاف المرجئة.

ومن ثم بينا؛ أن نقض الإيمان يكون بهذه الثلاثة إلا أن أصل النواقض هو ما في القلب من الاعتقاد، وهذا الأمر يظهر بجلاء مدى تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان.

وقد وضحنا أيضا أن زوال أعمال القلوب هو زوال للإيمان، وهذا يبين شدة التلازم بين تصديق القلب وعمله من جهة، ومن جهة أخرى يبرز قوة تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان.

وفي ختام هذا المبحث ذكرنا بعض الأمثلة من الأعمال القلبية التي يكون بها نقض الإيمان، مع بيان الفرق متى تكون هذه الأعمال ناقضا للإيمان، ومتى تكون شركا أصغر، أو معصية، أو تكون مباحة، والله تعالى أعلم.




الباب الثاني: دراسة الأعمال القلبية، وتفاضلها، ودرجات الناس فيها.

وفيه فصلان:

الفصل الأول : دراسة الأعمال القلبية.

الفصل الثاني: تفاضل أعمال القلوب، وأسبابه، ودرجات الناس فيها.




تمهيد

من المعلوم أن الإيمان الذي أمرنا الله به له شعب وأجزاء كما قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة»، وأن له أدنى وأعلى: «أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[1]، وأن أهله متفاوتون فيه، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فاطر: ٣٢، ولما كان الأمر كذلك كان جديرا بطلاب العلم دراسة هذه الشعب، ومعرفة مراتب المؤمنين في تحقيقها، إذ إن مباحث الإيمان ومسائله هي أهم المسائل على الإطلاق.

يقول الخطابي رحمه الله في شرحه لحديث الشعب: «في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم بمعنى ذي شعب وأجزاء، لها أعلى وأدنى، وأقوال وأفعال، وزيادة ونقصان، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها وتستوفي جملة أجزائها، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها، ويدل على صحة ذلك قوله (الحياء شعبة من الإيمان)، فأخبر أن الحياء أحد الشعب، وفيه إثبات التفاصيل في الإيمان وتباين المؤمنين في درجاتهم»[2].

فقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث ثلاث شعب، أعلاها وهي قول لا إله إلا الله، وأدناها وهي إماطة الأذى عن الطريق، وخص الحياء بالذكر للأهمية، أما بقيتها فجاءت متفرقة في النصوص، وقد استنبطها العلماء من الكتاب والسنة، قال القاضي عياض رحمه الله: «تكلف

---

(١) سبق تخريجه (ص/٥٦).

(٢) معالم السنن (٣١٢/٤).

جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان»[1].

ثم هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن، فالذي اخترناه منها للدراسة في بحثنا هذا؛ هي الشعب التي تتعلق بالقلب والتي سميناها أعمال القلوب، فأنا في هذه الدراسة أتناول دراسة الأعمال القلبية المأمور بها التي هي من شعب الإيمان، وذلك بما يتيسر لي من جمع ما تفرق من كلام شيخ الإسلام وبضم النظير إلى نظيره، الأمر الذي يحصل معه إيضاح المسألة وتقريبها وتكميل صورتها وبيان أحكامها، إذ به أبرز جهد هذا العالم الجليل الرباني في هذا المجال، فإن لم أجد كلاما له في بعض المسائل ذكرت كلام غيره من العلماء المعتبرين من أهل السنة والجماعة، وذلك لكي تكتمل الصورة التي خططناها لدراسة هذه الأعمال.

ومنهجي في دراسة الأعمال القلبية يتمثل في النقاط التالية:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي للعمل.

المطلب الثاني: العمل في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أنواع العمل، أو أقسامه (إن كان للعمل أنواع وأقسام)، وشروطه (إن كان للعمل شروط).

المطلب الرابع: ثمرات العمل.

وهذا المنهج سأتبعه في أكثر الأعمال، وقد أتعرض لذكر بعض الجوانب الأخرى التي أرى لشيخ الإسلام كلاما فيها، أو أرى أنها مهمة لإيرادها، وبالله التوفيق.

---

[1] فتح الباري (٥٢/١) لابن حجر، وانظر: إكمال المعلم (٢٧٢/١).

الفصل الأول: دراسة الأعمال القلبية.

وفيه تسعة عشر مبحثا:

المبحث الأول: النية

المبحث الثاني: الإخلاص.

المبحث الثالث: المحبة.

المبحث الرابع: الخوف.

المبحث الخامس: الرجاء.

المبحث السادس: الصدق.

المبحث السابع: التوكل.

المبحث الثامن: الصبر.

المبحث التاسع: الرضا.

المبحث العاشر: اليقين.

المبحث الحادي عشر: الاستعانة.

المبحث الثاني عشر: الاستعاذة.

المبحث الثالث عشر: التوبة.

المبحث الرابع عشر: التقوى.

المبحث الخامس عشر: الزهد.

المبحث السادس عشر: الورع

المبحث السابع عشر: الذكر.

المبحث الثامن عشر: الشكر.

المبحث التاسع عشر: الحياء

المبحث الأول: النية.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: النية محلها القلب.

المطلب الرابع: أنواع النية.

المطلب الخامس: ثمرات النية.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

النية: مصدر نوى ينوي نية ونواة، أصلها نِوْية بكسر النون وسكون الواو، ووزنها فعلة، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء.

والنية لغة: نوى الشيء ينويه نية قصده، وعزم عليه[1]، ويراد بالنية أمران: الأول؛ نوع من الارادة، مثل نويت أن أصلي، والثاني؛ نفس المراد، مثل هذه نيتي أي؛ هذه البقعة التي نويت إتيانها.

ولفظ النية في كلام العرب من جنس لفظ القصد والإرادة[2]، إلا أن بين النية وبين القصد والإرادة فروقا.

أما الفرق بين النية والقصد فمن وجهين:

أحدهما: أن القصد معلق بفعل الفاعل نفسه وبفعل غيره، والنية لا تتعلق إلا بفعل نفسه، فلا يتصور أن ينوي الرجل فعل غيره، ويتصور أن يقصده ويريده، ومن هذه الزاوية يكون القصد أعم من النية.

الثاني: أن القصد لا يكون إلا بفعل مقدور يقصده الفاعل، وأما النية فينوي الإنسان ما يقدر عليه وما يعجز عنه[3].

وكذلك بين النية والإرادة فروق، وأن الإرادة أعم من النية من ناحيتين:

---

[1] القاموس المحيط (ص/١٧٢٨)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/٩٦٦)، ولسان العرب (١٤/٣٩٤).

[2] مجموع الفتاوى (١٨/٢٥٢).

[3] انظر: بدائع الفوائد (٣/١١٤٣).

الأولى: من ناحية معناها، فالإرادة تشمل النية وغيرها، وقد عد القرافي[1] أقسام الإرادة فكانت ثمانية، والنية واحدة منها، فالإرادة إذا اطلقت تشمل النية وغيرها.

الثانية: أن النية لا تتعلق إلا بفعل الناوي، والإرادة تتعلق بفعله وفعل غيره، فإنك تقول؛ أردت من فلان كذا، ولا تقول؛ نويت من فلان كذا[2].

المسألة الثانية: التعريف الاصطلاحي.

ذهب جمع من العلماء إلى تعريف النية بمدلولها اللغوي، فمنهم من عرفها بالعزم والقصد، ومنهم من عرفها بالإرادة، وقد بينا أوجه الفرق بين النية وبين القصد والإرادة، ومنهم من عرفها بالإخلاص وليس كذلك، إذ يعد «الإخلاص أمرا زائدا على النية، لا يحصل بدونها، وتحصل بدونه»[3].

وأحسن تعريف عرفت به النية اصطلاحا هو تعريف البيضاوي رحمه الله، إذ قال: «النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض، من جلب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا»[4].

المسألة الثالثة: التعريف الشرعي.

جماهير العلماء يرون أن الشارع نقل النية من معناها اللغوي إلى معنى شرعي يخصه، فمنهم من عرفها: «أنها توجه القلب نحو الفعل ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالا لأمره»[1]، مثل ما فعل البيضاوي وتبعه الآخرون.

---

(1) نقل عنه السيوطي في منتهى الآمال (ص/٨٢-٨٣).

(2) ذكر الفرق الثاني شيخ الإسلام في المجموع (٢٥٢/١٨)، عند شرحه لحديث «إنما الأعمال بالنيات».

(3) الأشباه والنظائر للسيوطي (٤١/١).

(4) عمدة القاري للعيني الحنفي(٥٣/١).

ومنهم من عرفها: «بأنها عقد القلب على إيجاد الفعل جزما»، أو: «بأنها قصد الشيء مقترنا بفعله»[٢].

ويعارض التعريف الأول ما تقرر من أن النية عمل من أعمال القلوب، وأفعال القلوب كأفعال الجوارح لم ينقل الشارع مسماها عن الاسم اللغوي إذا قصد بها وجه الله تعالى، لم ينقل الشارع حركة البدن بالسجود عن مسماه بالسجود للصنم بل الكل سجود.

كل ما يمكن أن نقول أن السجود لله مأمور به، والسجود لغير الله منهي عنه، وكذلك بالنسبة للنية التي هي حركة القلب وانبعاثه، فإنها باقية على مسماها اللغوي لم ينقلها الشارع ولا خصصها، بل بين أن ما كان منها لله فهي المطلوبة المحبوبة، وما كان منها رياء وسمعة فهي مكروهة ممقوتة، ومما يؤيد هذا القول أن الذين قالوا بأن للنية معنى شرعيا غير المعنى اللغوي عند ما جاءوا إلى تفسير النية في الأحاديث التي وردت فيها النية، فسروها بمعناها اللغوي.

أما التعريف الثاني، فليس هناك دليل يلزم أن يكون العمل مع النية، بل قد يقع العمل مع النية مقترنا، وقد يتخلف العمل عن النية، ومما يدل على هذا أن الله يثيب أناسا على نياتهم فقط، إن عجزوا عن العمل.

فالصواب – إن شاء الله – أن الشارع استعمل النية في معناها اللغوي، ولم يضع لها معنى اصطلاحيا خاصا[٣]، والله تعالى أعلم.

ويشير إلى هذا شيخ الإسلام أيضا، إذ يقول رحمه الله: «والنية هي مما يخفيه الإنسان في نفسه فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب، وإن كان قصده رياء الناس استحق العقاب كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ

---

(١) حاشية السندي على النسائي (١/٦٣).

(٢) إعانة الطالبين (ص/٣٧).

(٣) انظر: النيات في العبادات (ص/٣٢-٣٧).

يُرَآءُونَ ﴾ الماعون: ٤ – ٦، وقال : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ النساء: ١٤٢، وفي حديث أبي هريرة الصحيح[1] في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار في الذي تعلم وعلم ليقال عالم قارئ، والذي قاتل ليقال جريء وشجاع، والذي تصدق ليقال جواد وكريم، فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم، لم يقصدوا بذلك وجه الله، وإن كانت صور أعمالهم صورا حسنة فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب»[2].

وقال في كلامه عن حديث إنما الأعمال بالنيات: «وقال الجمهور: بل الحديث على ظاهره وعمومه، فإنه لم يرد بالنيات فيه الأعمال الصالحة وحدها، بل أراد النية المحمودة والمذمومة، والعمل المحمود والمذموم ولهذا قال في تمامه: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله إلخ، فذكر النية المحمودة بالهجرة إلى الله ورسوله فقط، والنية المذمومة وهي الهجرة إلى امرأة أو مال، وهذا ذكره تفصيلا بعد إجمال»[3].

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

المسألة الأولى: الأدلة من الكتاب.

قد ذكرت أن النية في كلام العرب إنما يراد بها الإرادة، ولذلك يعبر عنها بلفظ **الإرادة** في القرآن، وذلك في آيات كثيرة، منها:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٩١)، في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

(٢) مجموع الفتاوى (١١٣/١٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٥٣/١٨)، وانظر أيضا قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/٧)، ضمن جامع المسائل.

١- قول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ آل عمران: ١٥٢.

٢- وقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ الأنفال: ٦٧.

٣- وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ الشورى: ٢٠.

٤- وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ الإسراء: ١٨ – ١٩.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الكهف: ٢٨.

يوضح الله في الآيات السابقة أن إرادات الناس ونياتهم تختلف، فمنهم من ينوي الحصول على الدنيا ولذاتها، وهذه غاية بعضهم القصوى، ومنهم من يخلص الدين لله وهمه الآخرة، ومنهم من يجمع بينهما، فأحيانا تغلب هذه، وأحيانا تغلب هذه، والعبرة بالأصل.

أما الآية الأولى فنزلت يوم أحد، يوم انهزم المسلمون فيه بسبب مخالفتهم أمرا لرسول الله ﷺ، وكان سبب المخالفة غلبة حبهم العاجل لبعض الأمور من الدينا مثل الغنيمة، وأما الآخرون الذين ثبتوا في المركز امتثالا لأمر رسول الله ﷺ، هممهم تجاوز الدنيا ونعيمها، وكان همهم الوحيد الآخرة[1].

---

[1] انظر: تفسير البغوي (٤٣٢/١)، وابن كثير (٥٣٦/١)، وفتح البيان (٣٥٤/٢).

أما الآية الثانية فتوجه الله بخطاب لأصحاب النبي ﷺ وفيه إنذار لهم، لئلا يغتروا بأعراض الدنيا وأغراضها، والمراد بعرض الدنيا نفعها ومتاعها بما قبضوا من الفداء يوم بدر، وسمي عرضا لأنه سريع الزوال.

والله يريد لهم الآخرة، وما يحصل لهم فيها من الثواب في الإثخان بالقتل[1].

أما الآية الثالثة فيخبر الله أن من الناس من يريد حرث الآخرة وأجرها وثوابها، فآمن بها وصدّق وسعى لها سعيها، ووعده بأن يضاعف عمله وجزاءه أضعافا كثيرة، ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد له أن يأتيه.

ومن الناس من كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها و لم يخش عقابها، فجزاؤه أن نؤتيه نصيبه الذي قسم له، وفي الآخرة حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها[2].

أما الآية الرابعة فيخبر تعالى أن من كان يريد الدنيا العاجلة المنقضية الزائلة فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، وأن الله يعجل له من متاعها ما يشاؤه ويريده مما كتب الله له في اللوح المحفوظ.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا ﴾ أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

ومن أراد الآخرة، فرضيها وآثرها على الدنيا وسعى لها سعيها الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية فعمل بذلك على قدر إمكانه وهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

---

[1] فتح البيان (٥/٢١٤)، وانظر: تفسير البغوي (٢/٢٣٩)، وتفسير القرطبي (١٠/٧١).

[2] انظر: تفسير السعدي (ص/٧٥٧).

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ أي: مقبولا منميا مدخرا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم، ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلا يمده الله منها لأنه عطاؤه وإحسانه[1].

أما الآية الخامسة، فيأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ، - وغيره أسوته في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

ولا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك، ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية[2].

وقد يعبر عن النية في القرآن بلفظ «**الابتغاء**»، والآيات فيها كثيرة، منها:

١- قول الله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۞ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۞ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾ الليل: ١٧ – ٢١، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والمتصدق يتصدق لوجه الله ولا يطلب أجره من المخلوقين، بل من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۞ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۞ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾»[3]، و يقول أيضا: «وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه

---

[1] تفسير السعدي (ص/٤٥٥).

[2] نفس المصدر (ص/٤٧٥).

[3] الفتاوى الكبرى (٣/٤٤٧).

الأعلى، لا يطلب جزاء من مخلوق، فقال تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى، فإنه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد»[1].

٢- ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١١٤، يقول ابن رجب رحمه الله: «فنفى الخير عن كثير مما يتناجى به الناس إلا في الأمر بالمعروف، وخص من أفراده الصدقة والإصلاح بين الناس لعموم نفعهما، فدل ذلك على أن التناجي بذلك خير، وأما الثواب عليه من الله، وخصه بمن فعله ابتغاء مرضات الله.

وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة، والإصلاح بين الناس وغيرهما خيرا، وإن لم يبتغ به وجه الله، لما يترتب على ذلك من النفع المتعدي، فيحصل به للناس إحسان وخير، وأما بالنسبة إلى الأمر، فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته كان خيرا له وأثيب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرا له ولا ثواب عليه»[2].

٣- ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ البقرة: ٢٦٥، قال العلامة السعدي رحمه الله: «هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربه ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في

---

[1] مجموع الفتاوى (١٨٧/١).

[2] جامع العلوم والحكم (٦٧/١).

إخراجها، وذلك أن النفقة تعرض لها آفتان؛ إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتا من أنفسهم»[1].

وفي الآيات المذكورة عُبر عن النية بلفظ الابتغاء، والملاحظ أن الابتغاء بمعنى النية استعمل في المراد الحسن فقط، بخلاف الإرادة.

وفُهم من الآيات أيضا، أن ابتغاء الرجل هو قصده ونيته، فإن كان الابتغاء هو ابتغاء وجه الله وابتغاء مرضات الله، فتلك النية الحسنة المحمود أهلها، و إن كان الابتغاء غير ذلك فإما أن يكون الابتغاء ضارا أو غير نافع، والله أعلم.

المسألة الثانية: الأدلة من السنة.

وقد ورد في السنة النبوية ذكر النية في أحاديث كثيرة، أذكر هنا بعضها:

١- ما رواه عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2]، بين النبي ﷺ أن الأعمال تجازى بحسب النيات، وأن العبرة بالقصد والنية، فمن كان قصده ونيته التقرب إلى لله والعبادة له فأجره عند الله، ومن كانت نيته غير ذلك فلا شيء له عند الله، وإن كانت صورة العمل عبادة كما في الحديث الذي ذكر فيه الهجرة وهي من العبادات، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقول النبي ﷺ "إنما الأعمال بالنيات" كلمة جامعة كاملة، فإن النية للعمل كالروح للجسد، وإلا فكل واحد من الساجد لله والساجد للشمس والقمر قد وضع جبهته

[1] تفسير السعدي (ص/١١٤).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١)، في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، ومسلم في صحيحه (ص/٧٩٢)، في كتاب الإمارة، باب قوله «إنما الأعمال بالنيات».

على الأرض فصورتهما واحدة، ثم هذا أقرب الخلق إلى الله تعالى وهذا أبعد الخلق عن الله»، ويقول أيضا: «وهذا الحديث من أجمع الكلم الجوامع التي بعث بها، فإن كل عمل يعمله عامل من خير وشر هو بحسب ما نواه، فإن قصد بعمله مقصودا حسنا كان له ذلك المقصود الحسن، وإن قصد به مقصودا سيئا كان له ما نواه»(١).

واختلف العلماء في تقدير الأعمال المذكورة في الحديث هل المقصود جميع الأعمال، أو المقصود الأعمال الشرعية فقط، يقول ابن رجب رحمه الله: «وعلى هذا القول(٢)، فقيل تقدير الكلام: الأعمال واقعة أو حاصلة بالنيات، فيكون إخبارا عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن قصد من العامل هو سبب عملها ووجودها، ويكون قوله بعد ذلك "وإنما لامرئ ما نوى" إخبارا عن حكم الشرع، وهو أن حظ العامل من عمله نيته، فإن كانت صالحة فعمله صالح، و إن كانت فاسدة فعمله فاسد، فعليه وزره»(٣).

٢- وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك»(٤)، وفي هذا الحديث دلالة على أن الأعمال بالنيات، وأنه إنما يثاب على عمله بنيته، وفيه أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه الله تعالى، وفيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى صار طاعة ويثاب عليه(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/٤٣١).

(٢) يقصد بهذا القول، قول من يقول في الحديث "إنما الأعمال بالنيات" على عمومها، ولا يخص منها شيء، كما هو قول لبعض أهل العلم، أن الأعمال في هذا الحديث تخص الأعمال الشرعية، انظر: جامع العلوم والحكم (١/٦٣-٦٤)، ومجموع الفتاوى (١٨/٤٣٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/٦٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٣)، و في كتاب الإيمان ، باب أن الأعمال بالنيات، ومسلم في صحيحه (ص/٦٦٧)، في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث.

(٥) شرح النووي على مسلم (١١/٧٧).

٣- وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[(١)]، ومعنى الحديث لا هجرة بعد الفتح من مكة، لأنها صارت دار إسلام وإنما تكون الهجرة من دار الحرب، ولكن جهاد ونية، أي: ولكن لكم طريق إلى تحصيل الفضائل التي في معنى الهجرة وذلك بالجهاد ونية الخير في كل شيء وإذا استنفرتم[(٢)].

٤- وعن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم»، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارها؟ قال: «يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»[(٣)]، قال شيخ الإسلام رحمه الله في معرض بيانه أن الكفار قد يقاتلون وفيهم مؤمن يكتم إيمانه يشهد القتال معهم، ولا يمكنه الهجرة وهو مكره على القتال ويبعث يوم القيامة على نيته، ثم استدل بالحديث الذي معنا هنا، فقال: «وهذا في ظاهر الأمر، وإن قتل وحكم عليه بما يحكم على الكفار فالله يبعثه على نيته، كما أن المنافقين منا يحكم لهم في الظاهر بحكم الإسلام ويبعثون على نياتهم، والجزاء يوم القيامة على ما في القلوب لا على مجرد الظواهر»[(٤)].

وأمثال هذه الأحاديث في السنة النبوية كثيرة، وكلها تبين أهمية النية وعظم مترلتها، وأن قبول الأعمال مبني على النية الصالحة، التي هي أول كل عمل، بشرط أن تكون هذه الأعمال موافقة لما جاء به الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٦١)، في كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، ومسلم في صحيحه (ص/٥٣٥)، في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٨/١٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٥٥)، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت.

(٤) مجموع الفتاوى (٢٢٥/١٩).

المطلب الثالث

النية محلها القلب

بين شيخ الإسلام رحمه الله أن النية محلها القلب، لأنها عبارة عن قصد القلب وإرادته، ومحلها فيه باتفاق العلماء، فإن نوى بقلبه و لم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم.

ولو تكلم بلسانه بشيء وفي قلبه خلافه، كانت العبرة بما في قلبه لا بما تلفظ به، كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ الفتح: ١١، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٦٧، فأخذهم الله بما في قلوبهم من الكفر و لم ينظر إلى ما تلفظوا بألسنتهم من الإيمان.

و (قد تنازع الناس في حكم التلفظ بالنية سرا:

فقالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد: يستحب ليكون أبلغ.

وقالت طائفة من أصحاب مالك وأحمد: لا يستحب ذلك، بل التلفظ بها بدعة، فإن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لم ينقل عن واحد منهم أنه تكلم بلفظ النية لا في صلاة ولا طهارة ولا صيام، قالوا: لأنها تحصل مع العلم بالفعل ضرورة، فالتكلم بها نوع هوس وعبث وهذيان، والنية تكون في قلب الإنسان، ويعتقد أنها ليست في قلبه فيريد تحصيلها بلسانه وتحصيل الحاصل محال، فلذلك يقع كثير من الناس في أنواع من الوسواس.

واتفق العلماء على أنه لا يسوغ الجهر بالنية، لا لإمام ولا لمأموم ولا لمنفرد، ولا يستحب تكريرها، وإنما النزاع بينهم في التكلم بها سرا: هل يكره أو يستحب؟).[1]

فالنية إرادة القلب وقصده، وهي عمل من أعمال القلوب، «ولا يجب التلفظ بما في القلب في شيء من العبادات»[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (١٨/٢٦٣-٢٦٤).

وبعد ما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أقوال أهل العلم في التلفظ بالنية ورجح عدم التلفظ بها قال: «وهذا القول أصح، بل التلفظ بالنية نقص في العقل والدين: أما في الدين فلأنه بدعة، وأما في العقل فلأن هذا بمترلة من يريد أكل الطعام فقال: أنوي بوضع يدي في هذا الإناء أني آخذ منه لقمة، فأضعها في فمي فأمضغها، ثم أبلعها لأشبع فهذا حمق وجهل.

وذلك أن النية تتبع العلم، فمتى علم العبد ما يفعل كان قد نواه ضرورة، فلا يتصور مع وجود العلم به أن لا تحصل نية، وقد اتفق الأئمة على أن الجهر بالنية وتكريرها ليس بمشروع، بل من اعتاده فإنه ينبغي له أن يؤدب تأديبا يمنعه عن التعبد بالبدع، وإيذاء الناس برفع صوته، والله أعلم»[٢].

ويذكر شيخ الإسلام: «أن الإمام أحمد سئل هل تقول شيئا قبل التكبير، فقال: لا، وحمله بعض أصحابنا على أنه ليس قبل التكبير ذكر مشروع، وكلام أحمد عام في الذكر واللفظ بالنية، وذلك لأن النية محض عمل القلب فلم يشرع إظهارها باللسان لقوله سبحانه:

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحجرات: ١٦، وفاعل ذلك يعلم الله بدينه الذي في قلبه»[٣].

فالله ﷻ عليم بذات الصدور لا تخفى عليه خافية، وهو ينظر سبحانه وتعالى إلى القلوب التي هي موضع النيات، كما ثبت في الحديث أن الله لا ينظر إلى صورنا وأموالنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا، فبالتالي فلا حاجة إلى التلفظ بالنية لأنه عمل قلبي، بل التلفظ بها بدعة منكرة، والله أعلم.

---

[١] انظر: جامع العلوم والحكم (٩٢/١).

[٢] الفتاوى الكبرى (٢١٤/١).

[٣] شرح العمدة (٥٩١/٤).

المطلب الرابع

أنواع النية

إن الناظر في كلام أهل العلم يجد أن لفظ النية عندهم يجري على نوعين:

النوع الأول: تمييز العبادة عن العادة، وتمييز العبادة عن العبادة، فمن الأول تمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف، أو صيام العبادة من الصيام الذي يكون من مرض، أو كره، أو من أجل الصحة، ومن الثاني تمييز صلاة الظهر من صلاة العصر، أو صوم رمضان من صيام غيره، وهذا النوع هو الذي يوجد في كتب الفقه ويذكره الفقهاء.

والنوع الثاني: تمييز المقصود بالعمل، هل هو الله وحده لا شريك له، أم غير الله، أو بعبارة أخرى تمييز المعبود عن معبود، وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرا في كلام السلف الصالح[1].

وقد ذكر شيخ الإسلام هذين النوعين في أكثر من موضع من كتبه، يقول رحمه الله: «ولفظ النية يجري في كلام العلماء على نوعين: فتارة يريدون بها تمييز عمل من عمل وعبادة من عبادة، وتارة يريدون بها تمييز معبود عن معبود ومعمول له عن معمول له.

فالأول: كلامهم في النية: هل هي شرط في طهارة الأحداث؟ وهل تشترط نية التعيين والتبييت في الصيام؟ وإذا نوى بطهارته ما يستحب لها هل تجزيه عن الواجب؟ أو أنه لا بد في الصلاة من نية التعيين ونحو ذلك؟

والثاني: كالتمييز بين إخلاص العمل لله وبين أهل الرياء والسمعة، كما سألوا النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة

---

[1] انظر: جامع العلوم والحكم (١/٦٥-٦٦).

الله هي العليا فهو في سبيل الله"[1]، وهذا الحديث يدخل فيه سائر الأعمال، وهذه النية تميز بين من يريد الله بعمله والدار الآخرة، وبين من يريد الدنيا: مالا وجاها ومدحا وثناء وتعظيما وغير ذلك، والحديث دل على هذه النية بالقصد وإن كان قد يقال: أن عمومه يتناول النوعين، فإنه فرق بين من يريد الله ورسوله، وبين من يريد دنيا أو امرأة، ففرَق بين معمول له ومعمول له، و لم يفرق بين عمل وعمل»[2].

وقال أيضا: «وأصل ذلك أن النية المعهودة في العبادات تشتمل على أمرين: على قصد العبادة، وقصد المعبود»، ثم تكلم عن النية التي بمعنى الإخلاص، وقال أنه لا بد لكل بشر من همة و إرادة هو مقصوده وغايته، ثم ذكر النية بمعنى قصد العبادة، وبين أنها التي تذكر غالبا في كتب الفقه المتأخرة، وأن كل واحدة من النيتين فرض على الجملة، ثم قال رحمه الله: «**أما الأولى**: فبها يتميز من يعبد الله مخلصا له الدين ممن يعبد الطاغوت أو يشرك بعبادة ربه، ومن يريد حرث الآخرة ممن يريد حرث الدنيا، وهو الدين الخالص لله الذي تشترك فيه جميع الشرائع الذي نهى الأنبياء عن التفرق فيه.

وأما **النية الثانية**: فبها تتميز أنواع العبادات، وأجناس الشرائع فيتميز المصلي من الحاج والصائم، ويتميز من يصلي الظهر ويصوم قضاء رمضان، ممن يصلي العصر ويصوم شيئا من شوال، ويتميز من يتصدق عن زكاة ماله، ممن يتصدق من نذر عليه أو كفارة»[3].

فتبين لنا أن النية في كلام العلماء على نوعين: أحدهما: تمييز العبادة عن العادة أو تمييز العبادة عن العبادة، والثاني: تمييز المعبود عن المعبود، ولنا وقفة قصيرة مع النوع الأول وهو تأثير

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٦٦)، في كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ومسلم في صحيحه (ص/٧٩٠)، في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

[2] مجموع الفتاوى (١٨/٢٥٦-٢٥٧).

[3] نفس المصدر (٢٦/٢٣-٢٥). وانظر كذلك شرح العمدة لشيخ الإسلام أيضا (٤/٥٧٦).

النية في تحويل العادة المباحة إلى العبادة، وقد ذكر شيخ الإسلام هذا الأمر في كتبه كثيرا، قال رحمه الله: «فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة»، ثم ذكر بعض الأدلة على ذلك، منها حديث سعد بن أبي وقاص الذي مر ذكره قريبا، ثم قال: «والآثار في هذا كثيرة، فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته، والمنافق - لفساد قلبه ونيته - يعاقب على ما يظهره من العبادات رياء، فإن في الصحيح أن النبي ﷺ قال: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب"»[1].

ويقول أيضا: «ثم إن هذا يعتبر فيه القصد، فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك المحرم مثل من يشتغل بالنظر إلى امرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطئها، أو يأكل طعاما حلالا ليشتغل به عن الطعام الحرام فهذا يثاب على هذه النية والفعل، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: "وفي بضع أحدكم صدقة"، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر، قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أما كان عليه وزر"[2]، فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال، وقد يقال المباح يصير واجبا بهذا الاعتبار، وإن تعين طريقا صار واجبا معينا وإلا كان واجبا مخيرا، لكن مع هذا القصد»[3].

---

[1] مجموع الفتاوى (٣٦٩/٢٨).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٨٩)، في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

[3] مجموع الفتاوى (٥٣٤/١٠)، وانظر (٤٦٠/١٠)، والإيمان الكبير (ص/٣٨).

المطلب الخامس

أقسام الناس في النية

بعد أن ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنواع النية، وأنها تقع على نوعين؛ تمييز العبادة عن العبادة، وتمييز معبود عن معبود، بين رحمه الله أن النيات قد تحصل جملة وقد تحصل تفصيلا، أي قد تحصل مجملة بحيث يقصد الإنسان طاعة الله وعبادته مطلقا من غير تعيين لعمل خاص، وقد تحصل مفصلة بحيث يقصد الإنسان عبادة الله ﷻ ويقصد العمل المعين المأمور به.

وبناء على هذا الاعتبار قسم شيخ الإسلام الناس في النية إلى ثلاثة أقسام:

«**القسم الأول**: الذي يقصد عبادة الله وطاعته، ولم يقصد العمل المعين المأمور به، كرجل له أموال ينفق منها على السائل والمحروم، مريدا بذلك وجه الله من غير أن يخطر بباله لا زكاة، ولا كفارة، ولا وضعها في الأصناف الثمانية دون بعض، فهذا يثاب على ما يعمله لله سبحانه، لكن يبقي في عُهْدة الأمر بالواجبات.

القسم الثاني: ورجل قد يقصد العمل المعين من غير أن يقصد طاعة الله وعبادته، كمن يدفع زكاة ماله إلى السلطان لئلا يضرب عنقه أو ينقص حرمته أو يأخذ ماله أو قام يصلي خوفا على دمه أو ماله أو عرضه وهذه حال المنافقين عموما والمرائين في بعض الأعمال خصوصا كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ النساء: ١٤٢، وقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ الماعون: ٤ – ٦، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة: ٥٤.

والقسم الثالث: أن يقصد فعل ما أمر به من ذلك العمل المعين لله سبحانه، واتفق الفقهاء على أن نية نوع العمل الواجب لا بد منها في الجملة، فلا بد أن يقصد الصلاة أو الحج أو الصيام ولهم في فروع ذلك تفصيل وخلاف ليس هذا موضعه»[1].

ثم ذكر شيخ الإسلام اختلاف العلماء في النية الأولى؛ أي أن يقصد الإنسان بعمله الإخلاص لله ﷻ عموما، هل تجب إضافة النية إلى الله في عمل معين، وقد ذكر ثلاثة أقوال؛ منهم من قال لا تجب نية الإضافة إلى الله، ومنهم من فرق بين العبادات المقصودة، كالصلاة، والحج، والصوم، وغير المقصودة كالطهارة والتيمم. بمعنى لا تجب في العبادت المقصودة، وتجب في العبادات غير المقصودة، والقول الثالث وجوبها في جميعها، وهذا ما أيده شيخ الإسلام رحمه الله، وتحدث عمن لم يخلص النية لله في الأعمال واصفا إياهم بالنفاق والرياء، ثم قال: «عندنا و عند أكثر العلماء، أن هذه العبادات فاسدة لا يسقط الفرض بهذه النية»[2].

خلاصة القول مما سبق:

- إن لفظ النية في كلام العرب من جنس لفظ القصد والإرادة، وحقيقته عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض، من جلب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا.

أما النية شرعا، فقد اختلف في تعريفها، قيل إنها توجه القلب نحو الفعل ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالا لأمره، وقيل بأنها عقد القلب على إيجاد الفعل جزما، وقيل إن الشارع استعمل النية في معناها اللغوي، ولم يضع لها معنى اصطلاحيا خاصا، وقلت أن هذا هو الصواب إن شاء الله.

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٦/٢٨-٢٩).

[2] انظر: مجموع الفتاوى (٢٦/٢٩-٣٢).

- قد ذكرت أن النية في كلام العرب إنما يراد بها الإرادة، ولذلك يعبر عنها بلفظ الإرادة في القرآن، وقد يعبر عن النية في القرآن بلفظ الابتغاء، أما في السنة فقد جاءت النية بلفظها، وذكرنا الأدلة على ذلك.

- النية محلها القلب، لأنها عبارة عن قصد القلب وإرادته ومحلها فيه باتفاق العلماء، فإن نوى بقلبه و لم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم، ولو تكلم بلسانه بشيء وفي قلبه خلافه، كانت العبرة بما في قلبه لا بما تلفظ به.

وقد تنازع الناس في حكم التلفظ بالنية سرا:

١- فقالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد: يستحب ليكون أبلغ.

٢- وقالت طائفة من أصحاب مالك وأحمد: لا يستحب ذلك، بل التلفظ بها بدعة، هذا في السر، أما التلفظ بها جهرا فبدعة منكرة.

- إن الناظر في كلام أهل العلم يجد أن لفظ النية عندهم يجري على نوعين:

النوع الأول: تمييز العبادة عن العادة، وتمييز العبادة عن العبادة، فمن الأول تمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف، ومن الثاني تمييز صلاة الظهر من صلاة العصر.

والنوع الثاني: تمييز المقصود بالعمل، هل هو الله وحده لا شريك له، أم غير الله، وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرا في كلام السلف الصالح.

- بين شيخ الإسلام رحمه الله أن النيات قد تحصل جملة وقد تحصل تفصيلا، وبناء على هذا الاعتبار قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي يقصد عبادة الله وطاعته، و لم يقصد العمل المعين المأمور به.

القسم الثاني: ورجل قد يقصد العمل المعين، من غير أن يقصد طاعة الله وعبادته.

والقسم الثالث: أن يقصد فعل ما أمر به من ذلك العمل المعين لله سبحانه.

واتفق الفقهاء على أن نية نوع العمل الواجب لا بد منها في الجملة.

ثم ذكر شيخ الإسلام اختلاف العلماء في النية الأولى؛ أي أن يقصد الإنسان بعمله الإخلاص لله ﷻ عموما، وقد ذكر ثلاثة أقوال؛ منهم من قال لا تجب نية الإضافة إلى الله، ومنهم من فرق بين العبادات المقصودة، وغير المقصودة، والقول الثالث وجوبها في جميعها، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام رحمه الله، والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني: الإخلاص.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: مراتب الإخلاص.

المطلب الرابع: إخلاص النية والرياء.

المطلب الخامس: ثمرات الإخلاص.

تمهيد.

وضح الإسلام الغاية التي ينبغي أن يسعى الإنسان إلى تحقيقها، وبيّن الأسباب التي تدعو إلى ذلك، والنتائج الخيرة التي ينالها الإنسان من ورائها، والمطلع في النصوص الإسلامية في القرآن والسنة يدرك مدى عناية الإسلام بإيضاح الغاية وتجليتها والكشف عن أبعادها.

ويكفي في هذا أن نعلم أن الغاية التي يرجوها المسلم من وراء الأفعال هي المعيار الذي يقوّم به عمله، فالأعمال تصبح ذات قيمة أو تفقد قيمتها باعتبار الغاية التي يرمي إليها العامل من عمله، فالذي يصلي ابتغاء مرضات الله عمله أفضل الأعمال، والذي يصلي رياء لينال مدحا ومكانة عند الناس عمله شر الأعمال، والذي يهاجر استجابة لأمر الله ونصرة لدينه عمله في المرتبة العليا، والذي يهاجر طلبا لنفع دنيوي، من مال أو زواج، عمله باطل مردود، كما ورد في الحديث «إنما الأعمال بالنيات[1]».

والغاية التي رسمها الإسلام للبشرية هي أن يقصد الإنسان الله سبحانه وتعالى بعبادته دون سواه، ويتوجه بأعماله كلها إلى الله تبارك وتعالى، فيتوجه بالأعمال القلبية لله وحده، كما يتوجه بالأعمال الظاهرة، وهذا هو الإخلاص الذي بعث الله به الأنبياء والرسل جميعا، وهو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول واجب على المكلفين، ومن أجله خلقت الخليقة، وبه افترق إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار[2].

وهو أحد أهم الأعمال القلبية الذي هو حقيقة الإسلام وهو جوهر العبادة، وهو الفيصل بين التوحيد والشرك، وهو شرط لشهادة أن لا إله إلا الله، وشرط في قبول الأعمال.

---

[1] انظر: الإخلاص (ص/٦-٧)، تأليف الدكتور: عمر سليمان الأشقر.

[2] انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/٢٠).

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي:

الإخلاص في اللغة: مصدر أخْلَصَ، يُخْلِصُ إخلاصا، وهو مأخوذ من مادة (خ ل ص) التي تدل على التصفية والتنقية عن الكدورات والأوشاب التي تخالط الشيء، يقال خلص خُلاصا وخَلاصا، أي؛ صفا وزال عنه شوبه، ويقال هذا شيء خالص لك، أي؛ لا يشاركك فيه غيرك[1].

وتطلق العرب (الإخلاص) على الزبد إذا خلص من اللبن والثُّفْل.

و (الخِلاص) في لغة العرب: ما أخلصته النار من الذهب والفضة[2].

والخالص من الألوان عندهم ما صفا ونصع، وهو الأبيض[3].

قال الجوهري في الصحاح: «خلص الشيء يخلص خلوصا، أي صار خالصا، وخلص إليه الشيء وصل، وخلصته من كذا تخليصا، أي نجيته فتخلص»[4].

وقال ابن فارس: «خلص: الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، يقولون: خلصته من كذا وخلص هو»[5].

وقد جاءت معاني الإخلاص هذه في الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ النحل: ٦٦، أي لا يخالطه دم وروث[1].

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢٥/٥).

(٢) انظر: القاموس المحيط (ص/٧٩٧).

(٣) انظر لسان العرب (١٢٦/٥).

(٤) الصحاح (٢٣٨/٣).

(٥) معجم مقاييس اللغة (ص/٣٠٩).

وقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ يوسف: ٨٠، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا ﴾ الأنعام: ١٣٩، يحكي الله حال المشركين أنهم لم يكونوا يشركون الإناث فيما في بطون الأنعام من اللبن وغيره[٣].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي:

تقدم أن الإخلاص من أهم الأعمال القلبية التي لا يصح عمل من الأعمال بدونه، وهو ليس خاصا بعمل دون آخر، بل المقصود به أن يتوجه العبد بأعماله كلها إلى الله وحده.

وتعريفات العلماء للإخلاص متقاربة، مدارها على أن يتوجه قصد العبد إلى الله، وأن لا يكون له مقصود غيره، وهو إفراد الله بالعبادة والطاعة عن غيره.

والآن أذكر بعض التعريفات لأهل العلم للإخلاص:

يقول الراغب: «الإخلاص: هو التبرّي عن كل ما دون الله»[٤].

وقال الفيروزآبادي: «أخلص لله، ترك الرياء»[٥].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٢/٣٥٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٦٣٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٤٤).

(٤) المفردات (ص/٢٩٣).

(٥) القاموس المحيط (ص/٧٩٧).

وعرفه أبو القاسم القشيري[١] بأنه: «إفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعات بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، واكتساب محمدة من الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله سبحانه»[٢].

وعرفه العز بن عبد السلام[٣] قائلا: «الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد تعظيما من الناس ولا توقيرا، ولا جلب نفع ديني ولا دفع ضرر دنيوي»[٤].

وعرفه الغزالي: «أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه، ومعبود قلبه، ومقصود قلبه فقط»[٥].

يقول شيخ الإسلام: «إخلاص الدين له، هو إرادته وحده بالعبادة»[٦].

وقال صاحب المنازل[٧]: «الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب»[١].

---

[١] هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد أبو القاسم القشيري النيسابوري، كان من أئمة الأشاعرة عالما بالأصول والتفسير والكلام، ولد سنة ٣٧٥هـ توفي سنة ٤٦٥هـ، انظر: السير (٢٢٧/١٨)، وطبقات الشافعية (١٥٣/٥)، والأعلام (٣٤٦/٣).

[٢] الرسالة القشيرية (ص/٣٠٠).

[٣] هو الشيخ عز الدين، عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، المغربي أصلا، الدمشقي مولدا، المصري دارا ووفاة، لقب بـ: سلطان العلماء، كان عالما ورعا زاهدا، ولد بدمشق سنة ٥٧٨ هـ، توفي سنة ٦٦٠ هـ، انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢٠٩/٨).

[٤] قواعد الأحكام (١٢٣/١).

[٥] إحياء علوم الدين (٣٣/٥).

[٦] مجموع الفتاوى (٤٩٦/١٠).

[٧] هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، شيخ خراسان في عصره، من كبار الحنابلة، من ذرية أبي أيوب الأنصاري، كان بارعا في اللغة، حافظا للحديث، عارفا بالتأريخ والأنساب، مظهرا للسنة داعياً إليها. من كتبه: ذم الكلام وأهله، والفاروق في الصفات، وكتاب الأربعين في دلائل التوحيد، ومنازل السائرين، وغيرها. ولد سنة ٣٩٦هـ، وتوفي سنة ٤٨١هـ. انظر: السير (٥٠٣/١٨)، و (الأعلام ١٢٢/٤).

وعرفه حافظ الحكمي: «الإخلاص هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك»[٢].

وقد عرف الإخلاص بتعريفات كثيرة غير هذه التعريفات، ولكنها متقاربة المعاني، ومدارها على شيءين:

١- تصفية العمل من كل شائبة، سواء كانت هذه الشائبة ملاحظة المخلوقين، أو أي مصلحة أخرى دنيوية .

٢- إفراد الله بالعبادة والطاعة، وأن يكون العمل كله لله، أي: لا نصيب لغير الله فيه.

ونخلص من هذه التعريفات أن الإخلاص هو إفراد الله بالعبادة، وتصفية العبد قصده مما يشوبه من شائبة رياء أو سمعة، أو إشراك بالله سبحانه وتعالى، وبهذا يتبين أن بين المعنى اللغوي والشرعي تناسبا وتوافقا، فكما مرّ أن الإخلاص في اللغة هو التصفية والتنقية من الشوائب، فكذلك المخلص دينه لله ينقي عمله من جميع الأوشاب والأخلاط والفساد الذي يزاحمه ويخالطه، بحيث يصفى القصد لله ﷻ دون سواه في جميع العبادات.

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

من يستقرئ نصوص الكتاب والسنة يجد الاهتمام الكبير من قبل الشارع بالإخلاص، ويلاحظ أن الإقرار بأن الله هو الرب يستلزم أن يخلص له الدين، كما يلاحظ أيضا أن الأعمال لا تقبل عند الله إذا خلت من الإخلاص، كذلك يلاحظ أن الإخلاص هو الأصل الذي بُعث به الرسل وأمر به الخلق، وأيضا يتبين له أن الشارع حذر من الوقوع في ما يضاد

---

[١] مدارج السالكين (٢/٦٩).

[٢] معارج القبول (٢/٤٢٣).

الإخلاص من الشرك والرياء وحظوظ النفس، كل هذه الأوجه التي تكلم عنها الشارع الحكيم تبين أهمية الإخلاص وفائدته، وقد تكلم شيخ الإسلام عن هذه الأوجه في كتبه[(١)]، وعالج هذا الأمر أيما علاج مستدلا على ذلك بالكتاب والسنة، والآن أذكر هذه الأوجه باختصار، مقتصرا على بعض الأدلة من الكتاب والسنة وعلى كلام شيخ الإسلام الذي ما هو إلا تقريب لما ورد في نصوص الكتاب والسنة.

المسألة الأولى: الإقرار بالربوبية يستلزم إخلاص الدين لله.

إن من المقرر عند أهل السنة والجماعة أن أقسام التوحيد ثلاثة، توحيد الربوبية وهو إفراد الله بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة إلى آخره، وتوحيد الأسماء والصفات وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، وما أثبت له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وتوحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة، وقد تكلم العلماء في العلاقة بين هذه الأنواع الثلاثة، وقالوا إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وإن توحيد الأسماء والصفات يشمل توحيد الربوبية والألوهية ، وإن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية.

والذي يهمنا هنا أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وإخلاص الدين لله، و(كما قدمنا على اعتقاد أنه هو سبحانه رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه القائم على أمور عباده والكافل لها، والمربي لهم بنعمه المادية والروحية، هذا التوحيد مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة، فهو منه كالمقدمة من النتيجة، فإنه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته، كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له)[(٢)]، وقد ذكر الله هذا الأمر في القرآن كثيرا

---

(١) انظر بعض هذه الأوجه في رسالة الشيخ أحمد بن عبد الله الغنيمان: «جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة» (ص/١٢٤-١٢٨)، و (ص/٣٨٩-٣٩٣).

(٢) دعوة التوحيد (ص/٧٨)، للشيخ محمد خليل الهراس.

حتى قيل إنه ما من آية في القرآن تتكلم عن توحيد الربوبية إلا وهي تدعو وتقصد توحيد الألوهية، ومن هذه الآيات، الآية التي تتضمن أول أمر في القرآن وهو إخلاص الدين لله وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ٢١،ثم ذكر أمورا من خلقه، ثم قال تعال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢، وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ النمل: ٦٠ – ٦٤، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢، يقول شيخ الإسلام رحمه الله عقب هذه الآية: «وهذا التوحيد كثير في القرآن، وهو أول الدين وآخره، وباطن الدين وظاهره، وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل، ثم للخليلين محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم تسليما»[1]، نعم هو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، إذ يأمر الله نبيه أن يقول ويعلن دينه ليقتدي به الآخرون، ومن دينه أن العبادات كلها تكون لله ولا يصرف شيء من ذلك لغيره، ومن أعظم العبادات الصلاة والذبح، فجاء الأمر بالتنصيص عليهما لشرفهما وفضلهما، ودلالتهما على إخلاص الدين لله

---

[1] مجموع الفتاوى (٥/٢٣٥).

ومحبته، ومن أخلص في صلاته ونسكه استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر الأعمال، بل حتى المحيا والممات يجب أن يكون لله، وختم الله هذه الآية ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لدلالة أن من كان متفردا في الخلق والملك والتدبير يجب أن تخلص له العبادة وتفرد له الإرادة[١].

ويبين شيخ الإسلام أن توحيد الربوبية يستلزم إخلاص العبادة لله من وجه آخر، إذ يقرر أن من المعلوم أن كل عابد يعبد معبوده لأجل أن ينفعه معبوده بجلب الخير أو دفع الشر، فإذا ما أيقن العبد أن النفع والضر لا يملكه إلا الله سواء في الدينا أو الآخرة، ولا يمكن أن ينفع إنسان إنسانا ولا يضره إلا بإذن الله، ولا يمكن أن يشفع شافع إلا بعد إذنه ورضاه، دعاه ذلك إلى الإخلاص لله وحده وتحقيق التوحيد[٢]، فإن من حقق التوحيد علم (أنه لا ينفع أحد ولا يضر إلا بإذن الله، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله، ولا يستعان به من دون الله، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله، ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة، فلا يبقى من يدعي لنفسه معه شركا في ربوبيته أو إلهيته، ولا من يدعي ذلك لغيره بخلاف الدنيا، فإنه وإن لم يكن رب ولا إله، إلا هو فقد اتخذ غيره ربا وإلها وادعى ذلك مدعون)[٣] وبتيقنه هذا وعلمه يندفع إلى حقيقة التوحيد لله، والعمل بمقتضى هذا العلم واليقين.

المسألة الثانية: توقف قبول العمل عند الله على الإخلاص.

إن مما هو معلوم أيضا أنه يجب على العبد أن يخلص في جميع أعمال التعبدية، وإلا فإنها لن تقبل منه كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف: ١١٠، فجعل الإخلاص أحد ركني قبول العمل يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

---

[١] انظر: تفسير السعدي (ص/٢٨٢).

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/١).

[٣] نفس المصدر (١١٩/١-١٢٠).

«والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلان:

أحدهما؛ أن لا يعبد إلا الله.

والثاني؛ أن لا يعبد إلا بما أمر وشرع، لا بغير ذلك من الأهواء والبدع، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ١١٠»[١].

فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «قال الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"» [٢]، وثبت في الصحيح أيضا حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار:«القارئ المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي»[٣][٤].

بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، ولا يصح عمل بدونه، قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه»[٥]،[٦].

---

[١] العبودية (ص/٤٩).

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٩٦)، في كتاب الزهد والرقاق، باب من أشرك في عمله غير الله.

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٩١)، في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

[٤] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٠).

[٥] أخرجه النسائي (ص/٤٨٤)، كتاب الجهاد،باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، وحسنه الألباني السلسة الصحيحة (٥٢).

[٦] وهنا يذكر العلماء مسألة: وهي إذا خالط نية العبادة نية أخرى غير الرياء، مثلا إن خالط نية الجهاد نية أخرى، كأخذ شيء من الغنيمة، هل تبطل هذه العبادة أم لا؟

قد تكلم ابن حجر عن هذه المسألة في الفتح، ما ملخصه: أن مراتب الناس في النية خمس:

أ- أن يقصد العبادة لله بنية خالصة، هذه لا إشكال فيها أنها مقبولة.

ب- أن يقصد الغرض الدنيوي صرفا، وهذا لا إشكال فيها أنها مردودة.

فإذا كان الأمر كذلك في عمل واحد، قد فَقَدَ الإخلاص، فكيف يكون الأمر بمن فقده في جميعها وأصل الدين، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان: ٢٣، قال ابن كثير رحمه الله: «فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصا على الشريعة المرضية فهو باطل»[1].

المسألة الثالثة: الإخلاص هو الأصل الذي بعث به الرسل وأمر به الخلق.

يبين شيخ الإسلام أن الإخلاص هو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل: ٣٦، وجميع الرسل أمروا به وافتتحوا دعوتهم بهذا الأصل، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء: ٢٥.

فالدين كله يقوم على هذا الأصل العظيم الذي من أجله افترق الناس إلى موحد ومشرك، مؤمن وكافر، والقرآن مليء بالآيات البينات التي تدعو إليه وتحذر من ضده، ففي سور الأنعام، والأعراف، والنور، وألم، وألحم، والطس، والمر، وسورة المفصل وغير ذلك من

ج- أن يقصد العبادة أولا، ويقصد الغرض الدنيوي - غير الرياء - ضمنا، فهذا رجح أنها مقبولة، ولكن أجرها ناقص وهذا قول الجمهور.

د- أن يقصد الغرض الدنيوي أولا، ويقصد العبادة لله ضمنا، فهذه مردودة.

ر- أن يقصد الأمرين معا على حد واحد، وهذه مردودة، وعلى هذه المرتبة حمل هذا الحديث: «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه»، انظر: فتح الباري (٦/٢٨)، وانظر كذلك جامع العلوم والحكم (١/٨٢).

[1] تفسير ابن كثير (٣/٤١٦).

السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى في سورتي الكافرون والإخلاص[1].

فـــ (إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ الزمر: ٢ – ٣، والسورة كلها عامة في هذا المعنى، كقوله: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الزمر: ١١ – ١٢، إلى قوله ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ الزمر: ١٤، إلى قوله ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ الزمر: ٣٦، إلى قوله ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر: ٣٨، إلى قوله ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۞ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۞ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٣ – ٤٥، إلى قوله ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ الزمر: ٦٦)[2].

---

[1] انظر: التحفة العراقية (ص/٣٧٥-٣٨٣).

[2] التحفة العراقية (ص/٣٧٥).

فالإخلاص هو الذي دعت إليه الرسل وأمر الناس به، وعلى هذا يجب أن يكون انطلاق العبد في حياته كلها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله:«والله سبحانه وتعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يكون الدين إلا له، وأن تكون الموالاة فيه والمعاداة فيه، وأن لا يتوكل إلا عليه، ولا يستعان إلا به.

فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرهم به الرسل ليكون الدين كله لله لا له، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه وسر بوجود مطلوبه.

وإذا أحسن إلى الناس فإنما يحسن إليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويعلم أن الله قد منّ عليه بأن جعله محسنا و لم يجعله مسيئا، فيرى أن عمله لله وأنه بالله»[1].

المسألة الرابعة: الحذر من الوقوع في الشرك.

إن الشرك هو أعظم الذنوب على الإطلاق، وقد سماه الله تعالى على لسان لقمان عليه السلام بالظلم العظيم، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾لقمان: ١٣، ولما نزل قول الله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ الأنعام: ٨٢ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فبين لهم النبي ﷺ أن المراد هو الشرك فسري عنهم، كما أن الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله أبدا إلا بالتوبة، كذلك أعظم افتراء على وجه الأرض هو أن يشرك به، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾ النساء: ٤٨.

ويبين شيخ الإسلام أن الإتيان بالإخلاص والبعد عن الشرك والحذر منه هو حق الله على عباده، يقول رحمه الله: «واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به

[1] مجموع الفتاوى (٣٢٩/١٤).

شيئا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ عن النبي ﷺأنه قال: "أتدري ما حق الله على عباده؟" قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟"، قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "حقهم أن لا يعذبهم"[1]...»[2].

قد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أنه ينبغي على العبد المسلم الذي يريد أن يحقق التوحيد والقرب من الله تعالى أن يحقق الإخلاص لله ﷻ في جميع أموره التعبدية، وأن يحذر أشد الحذر من الشرك الظاهر والباطن، (فإن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة أن يقول: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥، والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله؛ إما خوفا منه، وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك)[3].

وهذه النصوص من القرآن والسنة وغيرها تدل على عظم شأن الإخلاص، وأنه شرط لقبول العمل عند الله، وأن الله أمر جميع الرسل أن يبلغوا أممهم أن يفردوه بالعبادة، وأن يجتنبوا ما يضاده من الشرك والرياء، وكوننا نقبل أن لهذا الكون وهذا العالم خالقا، وهو القادر الخالق العليم المدبر، كلها هذه الأمور تستلزم توجهنا نحوه بالعبادة وإفراده بالدعاء، بل كل من يرجو لقاء هذا الرب يجب عليه تحقيق هذا الأمر إن أراد أن يكون غدا من الناجين.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٤٤)، في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل، ومسلم في صحيحه (ص/٤٦)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.

[2] مجموع الفتاوى (٢٣/١).

[3] نفس المصدر (٢٦١/١٠).

المطلب الثالث

درجات الإخلاص

سبق أن ذكرت متى يكون الإخلاص واجبا[(١)]، وقد بينت هناك أن الإخلاص يكون واجبا في موضعين، في أصل الدين، وفي كل عبادة بمفردها، وكذلك ذكرت أن الإخلاص يكون مستحبا وذلك في تحويل العادة إلى عبادة، فبالتالي مراتب الإخلاص هي:

المرتبة الأولى: الإخلاص في أصل الدين، فهذا لا بد منه في أصل الإقرار والشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإلا كان قائلها مشركا أو منافقا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الشهادة بأن لا إله إلا الله تتضمن إخلاص الألوهية له، فلا يجوز أن يتأله القلب غيره، لا بحب ولا خوف ولارجاء ولا إجلال ولا إكرام ولا رغبة ولا رهبة، بل لا بد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ الأنفال: ٣٩. فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله كان ذلك من الشرك بحسب ذلك»[(٢)].

المرتبة الثانية: الإخلاص في سائر أعمال الإيمان، وهي الأعمال التعبدية التي يقصد بها التعبد لله عز وجل، كتعلم العلم وتعليمه، وقراءة القرآن ونحوها، قال شيخ الإسلام: «ولا بد في جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ البينة: ٤ ــ ٥،

---

(١) انظر مبحث أنواع أعمال القلوب، من هذه الرسالة.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٣٧٤).

وقال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾ الزمر: ١ – ٣.

فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة، كالإيمان بالله ورسوله، والعبادات البدنية والمالية، ومحبة الله ورسوله، والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال، هو مأمور بأن يفعله خالصا لله رب العالمين، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء، لا دعاء ولا غير دعاء، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء لا دعاء ولا غيره»[1].

فمن لم يحقق الإخلاص فيها فإنه متوعد بهذا الوعيد المذكور في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ هود: ١٥ – ١٦[2].

المرتبة الثالثة: الإخلاص في الأعمال الاعتيادية لا التعبدية، كالأكل والشرب والنوم ونحوها، فإنه لا يجب الإخلاص فيها واستحضار النية، بل يستحب ذلك لنيل الأجر والثواب الجزيل من الله عز وجل، وقد مرت نقول كثيرة عن شيخ الإسلام في ذلك.

---

[1] مجموع الفتاوى (١/١٩٠).

[2] الأصل في هذه الحالة أن العمل يحبط، لكن هناك تفصيل لأهل العلم يأتي ذكره في مطلب إخلاص النية والرياء.

المطلب الرابع

إخلاص النية والرياء[1]

الواجب على العبد أن يخلص الدين لله، وأن لا يقصد بعبادته سواه، فإن الإخلاص لب العبادة وروحها.

وإخلاص النية هو أساس قبول الأعمال وردها، فهو الذي يؤدي إلى الفوز أو الخسران، فهو الطريق إلى الجنة أو إلى النار، ويضاد إخلاص النية في الدين الرياء، فإن كان الرياء في أصل الدين فهو كفر ونفاق، أما إن كان فيما دون ذلك ففيه تفصيل.

وقبل أن أذكر التفصيل في المسألة يحسن بنا أن نعرف بالرياء؛

الرياء مصدر راءى، ومصدره يأتي على بناء مفاعلة وفعال، وهو مهموز العين لأنه من الرؤية.

وحقيقة الرياء لغة: أن يري غيره خلاف ما هو عليه[2].

والرياء شرعا: عرفه الحارث المحاسبي: «الرياء إرادة العبد العباد بطاعة الله»[3].

ويقول العز بن عبد السلام: «الرياء إظهار عمل العبادة، لينال مظهرها عرضا دنيويا، إما بجلب نفع دنيوي، أو تعظيم أو إجلال»[4].

وقال القرطبي: «وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس»[1].

---

[1] إنما ذكرت هذا المطلب وإن لم أجدكلاما لشيخ الإسلام في هذه المسألة، وذلك لأهميتها ولتعلقها بالإخلاص من حيث هو عمل قلبي، ولتأثير إخلاص النية لله في قبول الأعمال عند الله.

[2] انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/٤١٥).

[3] الرعاية (ص/١٦٣).

[4] قواعد الأحكام (١/١٢٤).

وقال ابن حجر: «هو إظهار العبادة ليقصد رؤية الناس، فيحمدوا صاحبها»[٢].

وقد عرف العلماء الرياء بتعريفات كثيرة وهي متقاربة المعاني، ومدارها على شيء واحد هو: أن يقوم العبد بالعبادة التي يتقرب بها إلى الله، يقصد بها عرضا دنيويا [٣].

وإليكم الآن ملخص ما ذكره ابن رجب[٤] في المسألة:

أ – أن يدخل في العمل رياء محض بحيث لا يراد به سوى مرئيات المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم قال الله ﷻ: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٤٢، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة والتي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

ب– أن يكون العمل لله و يشركه الرياء:

---

(١) تفسير القرطبي (٥١٣/٢٢).

(٢) فتح الباري (٣٣٦/١١).

(٣) قد يكون العابد لا يريد ما عند الله ﷻ، بل يريد الدنيا بعبادته ومع ذلك لا يعد مرائيا، وهذا يتصور في حالتين:

الحالة الأولى: أن يعمل العمل الصالح ويطلب به الدنيا، وصرح بذلك ولا يخفيه كمن يطلب العلم لقصد الرئاسة والوظيفة، أو يحج لتحصيل مال موعود به.

الحالة الثانية: أن يعمل العمل الصالح الذي شرعه ليعبد به كالصلاة والصدقة وصلة الأرحام، ويزعم أنه مخلص في ذلك، لكنه يريد من الله بعبادته هذه أن يجازيه بحفظ ماله وتنميته أو حفظ عياله، وليس له مراد في إرضاء الله وتحصيل ثوابه، فهذا ليس له في الآخرة نصيب، وقد ذكر الله هذا الصنف في قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴾ البقرة: ٢٠٠، انظر: الإخلاص (ص/٩٤)، للدكتور الأشقر.

(٤) جامع العلوم والحكم (٧٩/١)، وانظر كذلك إعلام الموقعين لابن القيم (٤٣٥/٣-٤٣٦)، فقد فصل الكلام في هذا الأمر أيضا.

١- المشاركة من الأصل فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضا وحبوطه وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال يقول الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» وممن يروى عنه هذا المعنى أن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلا طائفة من السلف، منهم؛ عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، والحسن، وسعيد بن المسيب وغيرهم، ولا نعرف عن السلف في هذا خلافا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين.

٢- المشاركة طارئة وأصل العمل لله، قال ابن رجب: «وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطرا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، فإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره»، ثم قال: «وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نية».

ويفهم من كلام ابن رجب رحمه الله أن الرياء على قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وهو إذا كان قصد الإنسان بجميع أعماله مراءاة الناس، ولا يقصد وجه الله أبدا، وإنما يقصد العيش مع المسلمين، وحقن دمه، وحفظ ماله، فهذا رياء المنافقين، وهو شرك أكبر.

القسم الثاني: يصدر من مؤمن، ويكون في بعض الأعمال، وهو أن يكون العمل فيه قصد لله وفيه قصد لغير الله، فلا يكون محضا لله ولا يكون محضا للناس، وهذا له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن كان الرياء مقصودا في العمل من أوله، واستمر معه إلى آخره، فإن هذا عمل مردود، لا يقبله الله تعالى.

الحالة الثانية: أن يكون أصل العمل لله ثم يطرأ عليه الرياء، فهذا إن تاب منه صاحبه ودفعه، وأخلص العمل لله، فإنه لا يضر صاحبه.

الحالة الثالثة: أن يطرأ الرياء في أثناء العمل ويستمر معه، فهذا موضع خلاف بين أهل العلم، منهم من قال إنه يحبط العمل كالنوع الأول، ومنهم من قال إنه يثاب على قدر نيته لله في هذا العمل، وهذا الخلاف في الأعمال التي يرتبط آخرها بأولها.

المطلب الخامس

ثمرات الإخلاص

للإخلاص فضيلة كبيرة ومنزلة رفيعة، هو عمل قلبي من أعظم أعمال القلوب، بل هو أهمها وأعظمها قدرا وشأنا، فهو حقيقة الدين، ومقصود الرسالة، وزبدة الكتاب، وله خلق الخلق، وهو الغاية التي إليها ينتهون، وبذكره تحصل السعادة لأوليائه، وبتركه تكون الشقاوة لأعدائه، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وعليه اتفقت الرسل، وله قامت السماوات والأرض[1].

وفي هذا المطلب سأذكر بعض الفضائل والثمرات للإخلاص، وذلك من خلال ما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام رحمه الله:

١- من فوائد الإخلاص وثمراته ما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الله سبحانه وتعالى يصرف عن المخلصين السوء والفحشاء، كما قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يوسف: ٢٤، فامرأة العزيز كانت مشركة

---

[1] قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/٥٠)، ضمن جامع المسائل لشيخ الإسلام.

فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومراودتها له، واستعانتها عليه بالنسوة، وعقوبتها له بالحبس على العفة، عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقا لقوله تعالى على لسان إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ص: ٨٢ – ٨٣، والغي هو اتباع الهوى[1].

ويبين شيخ الإسلام أيضا أن سبب وقوع الناس في المعاصي هو لضعف أعمال القلوب ونقصانها، وأنهم لو أخلصوا لله لوقاهم الله بسبب إخلاصهم، يقول رحمه الله: «ومعلوم أن الزاني حين يزني، إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها؛ لم يزن، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف: ٢٤، فمن كان مخلصا لله حق الإخلاص لم يزن وإنما يزني لخلوه عن ذلك»[2].

٢- ومن فوائد الإخلاص وثمراته أن الله بسببه يحمي المخلص الموحد من نزغات الشياطين وتسلطهم، فلا يكون لهم عليه سلطان ولا سبيل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الحجر: ٤٢، وقال تعالى مخبرا عن إبليس أنه يقول يوم القيامة: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾ إبراهيم: ٢٢.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فقد تبين أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف: ٢٤.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/٤٢١).

(٢) الإيمان الكبير (ص/٢٤٠).

فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعا له من فعل ضد ذلك، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك، وإذا لم يخلص لربه الدين، ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه، عوقب على ذلك، وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله»[1].

٣- ومن فوائد الإخلاص وثمراته، أن المخلص ذاق حلاوة الإيمان واطمأن قلبه بالله، واجتباه ربه، وأحيا قلبه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمنة عبوديته لله ومحبته له وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبا إلى الله خائفا منه راغبا راهبا.

وإذا كان العبد مخلصا لله اجتباه ربه، فأحيى قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبا وإرادة وحبا مطلقا، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه كالغصن أي نسيم مر به عطَفه وأماله.

فتارة تجذبه الصور المحرمة، وغير المحرمة، فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك نقصا وعيبا وذما.

وتارة يجذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٤/٣٣٢-٣٣٣).

ومن لم يكن مخلصا لله، عبدا له، قد صار قلبه مستعبدا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون هو أحب إليه مما سواه، ويكون ذليلا خاضعا له، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه السوء والفحشاء ما لم يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه»[1].

فإن أسعد الناس أطوعهم لله وأعبدهم له، وبقدر الإخلاص تكون سعادته وأمنه وفلاحه وفوزه وقوته ونصره، فأهل التوحيد هم الآمنون في الدينا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأنعام: ٨٢، وأهل التوحيد والصلاح هم أهل السعادة والحياة الطيبة كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٧، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله، وإقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين، لا يحبون شيئا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستعينون به، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى، قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب»[2].

٤- إن من فوائد الإخلاص وثمراته، بل من أهم نتائجه أن العمل يقبل بوجوده ويرد بعدمه، لأن (من أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان

---

[1] العبودية (ص/١٠٣-١٠٤).

[2] مجموع الفتاوى (١/١٣١-١٣٢).

والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة،كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب كعباد مشركي الهند وعباد النصارى، وغيرهم، فإنهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه)[1].

ولهذا أعمالهم لا تقبل، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان: ٢٣.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالعمل الصالح لا بد أن يراد به وجه الله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا، أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك".

وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الاسلام، وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله، وله خلق الخلق، وهو حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا»[2].

٥- ومن فوائد الإخلاص وثمراته أنه سبب للتطهير من الذنوب والمعاصي، فإن من رحمة الله وفضله على أهل التوحيد والإخلاص أنه يطهرهم من ذنوبهم التي يقترفونها بسبب تحقيقهم للتوحيد، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيها بإخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر -كحديث البطاقة، وذكر أنه ثقلت البطاقة وطاشت السجلات - فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار، كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، ولم يترجح

---

[1] مجموع الفتاوى (٦٧١/١٤).

[2] الاستقامة (٢٢٧/٢).

قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة، وكالبغي التي سقت كلبا فغفر الله لها، وكالذي أماط الأذى عن الطريق فغفر الله له»[1].

٦- و من فضائل الإخلاص وثمراته أنه سبب لنيل شفاعة النبي ﷺ، فقد جاء في الحديث أن أبا هريرة رضي الله عنه سأل النبي ﷺ فقال: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه»[2]، وهذه هي الشفاعة العظمى التي جاء في الخبر أن النبي ﷺ يأتي فيسجد لربه ويحمده ولا يبدأ بالشفاعة أولا، فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه، يقال له؛ أي محمد! ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع، فيقول؛ أي رب أمتي! فيحد له حدا فيدخلهم الجنة، وكذلك في الثانية، وكذلك في الثالثة[3].

وهذه الشفاعة هي لأهل الإخلاص وأهل تحقيق التوحيد خاصة بعد إذن الله، وليس لمن أشرك بالله، ولا تكون إلا لمن أذن الله له، وحقيقته أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك، وينال به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ، ومن لم يكن من أهل تحقيق التوحيد والإخلاص فلن ينال الشفاعة[4].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين أن الشفاعة إنما تكون في أهل "لا إله إلا الله" ، وقد ثبت في صحيح البخاري أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : (يا أبا هريرة، لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس

---

[1] منهاج السنة (٦/٢١٨-٢٢٠)، بتصرف واختصار.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٢)، في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٥٥)، في كتاب الأنبياء، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٨)، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة مترلة فيها.

[4] انظر: مجموع الفتاوى (٧/٧٧-٧٨).

بشفاعتي يوم القيامة؛ من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه)، فبين أن المخلص لها من قبل نفسه، هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره، ممن يقولها بلسانه وتكذبها أقواله وأعماله»[(١)].

٧- من فوائد الإخلاص وثمراته وهو غاية كل مسلم ومسلمة، أن الله بسبب الإخلاص وتحقيق التوحيد يدخل المؤمنين الجنة ويعيذهم من النار، وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن الإخلاص أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وكلما حقق الإنسان الإخلاص خرج من قلبه تأله ما يهواه، ويصرفه عنه المعاصي، وليس للشيطان عليه سبيل (وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه، حرمه الله على النار»، فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله؛ إما خوفا منه، وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك)[(٢)].

وهذه بعض الفوائد والثمرات للإخلاص والتي هي كثيرة، لكن اكتفيت بذكر بعضها مقتصرا في ذلك قدر الإمكان على ما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

وخلاصة القول أن الإخلاص عنوان الدين، وهو أوله وآخره، وباطنه وظاهره، وإخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦١).

المبحث الثالث: المحبة.

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أنواع المحبة.

المطلب الرابع: مراتب المحبة.

المطلب الخامس: علامات المحبة.

المطلب السادس: الأسباب الجالبة للمحبة.

المطلب السابع: ثمرات المحبة.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

المحبة في اللغة: مفعلة من الحب، وهو ضد البغض، يقال حبه، وأحبه، حُبا بضم الحاء وكسرها حِبا، والحِب بالكسر يقال أيضا للحبيب، وقد اشتقوا اسم الفاعل من أحب فقالوا؛ مُحِب، واشتقوا المفعول من حب يحب، فقالوا؛ محبوب وحبيب، فلم يشتقوا اسم الفاعل من المجرد، ولا اسم المفعول من المزيد إلا قليلا[1].

ومادة هذه الكلمة تدل على عدة معان، ردها ابن فارس إلى ثلاثة أصول:

١- اللزوم والثبات، وجعل المحبة منه، ٢- الحَبة من الشيء ذي الحب، وجعل منه حَبَب الأسنان وهو تَنَضُّد الأسنان، ٣- نعت القِصَر، ومنه الحبحاب؛ للرجل القصير[2].

أما ابن القيم فقد ردها إلى خمسة، وهي: ١- الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان، ٢- العلو والظهور، ومنه حبب الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحَبَب الكأس منه، ٣- اللزوم والثبات، ومنه حَبَّ البعير وأحب، إذا برك ولم يقم،٤- اللب، ومنه حبة القلب للبه وداخله، ومنه الحبة لواحدة الحبوب، إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه،٥- الحفظ والإمساك ومنه حِبُّ الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسك[3].

---

(١) انظر: لسان العرب (٦/٤)، والقاموس المحيط (ص/٩٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/٢٣١).

(٣) مدارج السالكين (٨/٣)، وقد سبق ابن القيم إلى بعض هذا صاحب «الرسالة القشيرية» (ص/٤٢٤)، وأضاف اشتقاقات أخرى، وكذلك زاد ابن القيم في روضة المحبين (ص/١٧-١٨)، معان غير ما ذكر في المدارج.

المسألة الثانية: أقوال العلماء في حدود المحبة.

المحبة أمر شعوري وجداني يصعب تعريفها بالحد الجامع المانع، إذ معانيها لا ترى بالأبصار فيشترك الواصفون لها في الصفة، وليس لدينا ما نقيس به هذه العاطفة، وإنما يُتحدث عنها من خلال آثارها وعلاماتها ومقتضياتها[١]، وهذه الأمور التي ذكرها ابن فارس وابن القيم رحمهما الله تستطيع أن تكون عناصر يمكن أن يعبر عن المحبة من طريقها.

قال ابن حجر رحمه الله: «وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تحد، وإنما يعرفها من قامت به وجدانا ولا يمكن التعبير عنها»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: «لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة»[٣].

ومع ذلك وُجد من العلماء من عرف المحبة، ولكنهم - والله أعلم- لم يريدوا أن يضعوا لها تعريفا جامعا مانعا، وإنما أرادوا تقريب معناها إلى الأذهان، إما بذكر موجباتها، أو آثارها، أو لوازمها أو نحو ذلك، ومن تلك التعريفات[٤]:

---

[١] لذا نجد من العلماء - مثل ما فعل الغزالي- يكتفي في كلامه عن المحبة بالإشارة إلى معناها اللغوي، فيقول: «والمحبة في وضع اللسان: عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق»، إحياء علوم الدين (٤٧/٥).

[٢] فتح الباري (٤٦٢/١٠-٤٦٣).

[٣] مدارج السالكين (٨/٣).

[٤] ذكر ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين ثلاثين تعريفا للمحبة، وردّ عليها بأن أكثرها في حكم المحبة وآثارها، وموجباتها، ومقتضياتها، ووشواهدها، وحقوقها، وثمراتها، انظر: المدارج (٩/٣-١٣).

الأول: ميلك للشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

هذا بيان للوازم المحبة وآثارها في النفس.

الثاني: موافقة المحبوب، في المشهد والغيب.

الثالث: إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

الرابع: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

وهذه الثلاثة من مقتضيات المحبة وآثار كمالها.

الخامس: صدق المجاهدة في أوامر الله وتجريد المتابعة لسنة رسول الله ﷺ.

وهذا أيضا من لوازم المحبة الصحيحة، وهو خاص بتعريف محبة العبد لربه، إلى غير ذلك من التعريفات التي ذكرها ابن القيم.

ويمكن أن يستفاد من مجموعها تعريف محبة الله ﷻ بأنها: ميل القلب إلى الله ﷻ وتعلقه به، ثم إيثار مرضاته والجد في تحصيلها بكل وسيلة[1].

وهناك مناسبة بين المعنى اللغوي وبين متعلقات وآثار المحبة المذكورة هنا، قد أوضح ذلك ابن القيم رحمه الله فقال: «ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزوما لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبه وأشرف ما عنده وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإرداته وهمومه على محبوبه، فاجتمعت فيها المعاني الخمسة»[2].

---

[1] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٢٦)، وانظر: حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة، لشيخنا محمد بن خليفة التميمي (١/٢٧٠-٢٧٣)، و: محبة الله ورسوله (ص/٧-١٠) تأليف صالح أحمد الشامي.

[2] مدارج السالكين (٣/٨).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

المحبة ثابتة بالكتاب والسنة، وقد أوجب الله محبته ومحبة رسوله وعلق صحة الإيمان بوجود هذه المحبة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين (له سبحانه) كما في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا ﴾ البقرة: ١٦٥، وقوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة: ٥٤، وقوله تعالى: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار "[١]»[٢].

فالمحبة أصل الإيمان، وهي تلقي العبد فى السير الى محبوبه، وعنها تنشأ وتصدر كافة أفعال القلوب والجوارح، وبكمالها يكمل الدين وبنقصها ينقص.

والله وضع للمحبة الحقة ضابطا، بتحقيقه تتحقق المحبة، وبالإخلال فيه تخل المحبة، وحقيقتها موافقة المحبوب في محبوبه وبغيضه، بحيث يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله.

وقد تكلم شيخ الإسلام على هذه الأوجه في كتبه مدعما أقواله بالأدلة من الكتاب والسنة، بل المحبة من أكثر الأعمال القلبية التي تكلم عنها شيخ الإسلام، والآن أذكر هذه الأوجه باختصار، مقتصرا على بعض الأدلة من الكتاب والسنة وعلى كلام شيخ الإسلام.

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦)، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩)، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

[٢] التحفة العراقية (ص/٤٠٥).

المسألة الأولى: محبة الله ورسوله أصل الإيمان والعمل.

فإن محبة الله ورسوله هي أوثق عرى الإيمان وأقواها، وأجلها وأعلاها، بل هي من أوجب العبادات المناطة بقلب المؤمن، ذلك لأنه لا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

فالمحبة في مقام الأصل للأعمال، والقاعدة لحركاته، والأساس لإراداته، وعنها تنشأ وتصدر كافة أفعال القلوب والجوارح، وقد دلت الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة على وجوبها وأنها أصل الدين والعمل، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ البقرة: ١٦٥.

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾ التوبة: ٢٤.

وقال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ الذاريات: ٥٦، وقوله: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ البقرة: ٢١، وأمثال هذا، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون

معبودا، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودا ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥، فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أندادا، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم، لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره، وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب[1].

وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن المحبة أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق أصل كل قول من الأقوال، وأن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة؛ إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمودة، فالأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون صالحا[2].

يقول رحمه الله: «وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، فالتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان، وهو قول وعمل»[3].

ويقول أيضا: «وإذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ، وحب الله أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأليه الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة، مع أكمل أنواع الخضوع، وهذا هو الإسلام»[4].

---

[1] التحفة العراقية (ص/٣٨٨-٣٩٠).
[2] نفس المصدر (ص/٣٧٣).
[3] قاعدة في المحبة (ص/١١٣).
[4] نفس المصدر (ص/١٣٣).

المسالة الثانية: كمال الدين بكمال المحبة ونقصه بنقصها.

كما أن أصل الدين والعمل هو المحبة، كذلك كمال الدين يكون بكمال المحبة، ونقصه يكون بنقصها، فكما (بين سبحانه أن محبته أصل الدين فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»[1]، فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل، وهو أعلاه وأشرفه، وقد قال تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ التوبة: ١٩ – ٢٢، والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة، وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد، والجهاد دليل المحبة الكاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ التوبة: ٢٤ ، وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٩٠)، في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ المائدة: ٥٤، فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

فإن المحبة مستلزمة للجهاد، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك[(١)]، وهذا مما يبين أن بكمالها يكمل الدين وبنقصها ينقص.

ويبين شيخ الإسلام هذا الأمر أكثر وذلك من خلال بيان التلازم بين المحبة ووجود المراد، فيقول: «فكما أن المحبة الواجبة تستلزم فعل الواجبات، وكمال المحبة المستحبة تستلزم فعل المستحبات، والمعاصي تنقص المحبة، ثم أورد البيتين:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه :: هذا محال في القياس شنيع

لو كان حبك صادقا لأطعته :: إن المحب لمن أحب مطيع[(٢)]».[(٣)]

لعلي أكتفي بهذا، لأنه سيأتينا مطلب أذكر فيه بعض فوائد المحبة، ومنها أن المحبة تلقي المحب في السير إلى المحبوب، وأنها من أقوى محركات القلوب نحو المحبوب مما يبين الأمر الذي نحن في صدده أنه بكمال المحبة يكمل الدين وبنقصها ينقص.

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٩٠-٣٩٢).

(٢) عزاه صاحب شعب الإيمان (٤٥/٢) لرابعة، وأبي العتاهية.

(٣) قاعدة في المحبة (ص/١٤٠-١٤١)، وانظر: (ص/١٧٦)، وانظر العبودية (ص/٧٥).

المسألة الثالثة: ضابط المحبة؛ اتباع الرسولﷺ.

إن محبة العبد لله تعالى ومحبة الله للعبد اللتين جمعهما قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة: ٥٤ هما المنزلة العليا التي لا يصل إليها إلا من تفضَّل الله عليه وجعله أهلا لذلك، كما ورد في ختام هذه الآية الكريمة: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ المائدة: ٥٤.

ومن هذا الفضل أن يُوَفِّقَ الله تعالى الإنسان المؤمن إلى سلوك الطريق الموصل إليه، والذي رسمه القرآن واضحا جليا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١، فجعله الله ضابطا للمحبة الحقة لله، يقول ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»[(١)].

قال شيخ الإسلام بعد إيراده هذه الآية: «فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه، ولهذا يروى عن ذي النون المصري[(٢)] أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده فقال: اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها.

وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٦٧/١).

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفيض، المشهور بذي النون المصري، أحد أعلام الصوفية، نُوْبي الأصل، من الموالي، كان حكيما فصيحا، انظر: حلية الأولياء (٣٣١/٩)، والسير (٥٣٢/١١).

وازع الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ المائدة: ١٨، ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية.

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره، لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة»[١].

نعم، يوجد من المتصوفة وغيرهم من يدعي المحبة ومع ذلك يخالفون أوامر الشرع، ويرون أن الموافقة تكون في الأمر الكوني القدري، ويستشهدون على ذلك بقول بعض مشايخهم: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى الانسلاخ من ربقة العقل والدين وخروج عن الشريعة كلها، مع أن قائل هذا القول قصد بمراد الله الإرادة الدينية الشرعية التي بمعنى محبته ورضاه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعا من أمور الجهل بالدين :

إما تعدي حدود الله.

وإما تضييع حقوق الله.

وإما ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم، فإن هذا الجنس يحرك ما في القلب من الحب، ولهذا أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١، فلا يكون محبا لله إلا من يتبع رسوله.

---

[١] التحفة العراقية (ص/٤٤٤-٤٤٧)، باختصار.

وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية، وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسننه ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسننه وطاعته.

بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله الجهادَ في سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في وصفه من يحبهم ويحبونه:

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ﴾ المائدة: ٥٤، ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم»[(١)].

المسألة الرابعة: حقيقة المحبة موافقة المحبوب فيما يحب وفيما يبغض.

فإذا عرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره، لم تكن لتستوي إرادته لجميع الحوادث فطرة وخلقا، ولا هو مأمور من جهة الشرع أن يكون مريدا لجميع الحوادث، بل قد أمر الله بإرادة أمور وكراهة أخرى.

فإن كان أصل المحبة كما تقدم هو أن يحب العبد ربه ﷿، فالله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته، ولما علم العبد أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين، ولما علم أيضا أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك، فكان حبه لما يحبه تابعا لمحبة الله وفرعا عليه وداخلا فيه.

وكذلك لما علم أن الله يبغض بعض الأعمال وينهى عنها كالكفر والفسوق والعصيان، وعلم أيضا أن الله يبغض بعض الناس من الكفار والظالمين والفاسقين وأمثالهم أبغضهم[(١)].

---

(١) العبودية (ص/٩٥-٩٦)، باختصار.

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وهو موافقته في حب ما يحبه وبغض ما يبغضه، بل ولا تتحقق العبودية لله إلا بذلك، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وإنما عبدُ الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه، وهذا الذي استكمل الإيمان كما في الحديث: "من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان"[٢]، وقال: "أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله"[٣].

وفي الصحيح عنه ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار"، فهذا وافق ربه فيما يحبه ومايكرهه، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب؛ فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره.

وقد قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٤، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١، فإن الرسول يأمر بما يحب الله، وينهى عما يبغضه الله، ويفعل ما يحبه الله، ويخبر بما يحب الله

---

[١] انظر: قاعدة في المحبة (ص/١٣٨-١٤١، و (ص/١٦٢-١٦٣)، والتحفة العراقية (ص/٤٠٥-٤٠٨)، و (ص/٤٤٦)، والعبودية (ص/٧٢-٧٥).

[٢] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٣/٢٤)، وأبو داود في سننه (ص/٨٤٥)، في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، و صححه الألباني في الصحيحة (٣٨٠).

[٣] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٩/٣٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦٢١/١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٩٨).

التصديق به، فمن كان محبا لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله»[1].

ويقول أيضا: «فإن المحبة مستلزمة للجهاد، ولأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك.

وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ هم إنما يرضون ما يرضاه، ويبغضون ما يغضب له»[2]، فالجزاء من جنس العمل.

فالمحبة تستلزم محبة ما يحب المحبوب وبغض ما يبغض المحبوب من الأقوال والأعمال والأعيان، فهذا حقيقة المحبة، لكن محبة الله هي الأصل بحيث تدور المحبوبات في نطاق محبوبات الله جل شأنه.

ثم ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الناس في هذا الباب أربعة أنواع:

النوع الأول: أكملهم الذين يحبون ما أحبه الله ورسوله ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته، فيأمرون بما أمر الله به ورسوله ولا يأمرون بغير ذلك، وينهون عما نهى الله عنه ورسوله ولا ينهون عن غير ذلك، وهذا حال الخليلين أفضل البرية محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم.

النوع الثاني: عكس هذا، وهو أنهم يتبعون هواهم لا لأمر الله، فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبه بهواهم، ولا يتركون وينهون إلا عن ما يكرهون بهواهم، وهؤلاء شر الخلق، قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ الفرقان: ٤٣ ، قال الحسن البصري: هو المنافق لا يهوى شيئا إلا ركبه.

---

[1] العبودية (ص/٧٢-٧٣).

[2] التحفة العراقية (ص/٣٩٢).

النوع الثالث: الذي يريد تارة إرادة يحبها الله، وتارة إرادة يبغضها الله، وهؤلاء أكثر المسلمين، فإنهم يطيعون الله تارة ويريدون ما أحبه، ويعصونه تارة ويريدون ما يهوونه وإن كان يكرهه.

النوع الرابع: أن يخلو عن الإرادتين، فلا يريد لله ولا لهواه، وهذا يقع لكثير من الناس في بعض الأشياء، ويقع لكثير من الزهاد والنساك في كثير من الأمور[1].

المسالة الخامسة: لا يحب لذاته إلا الله.

قد ذكرنا أن هناك أمور تحب وتبغض لأجل الله، لأن من تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب وبغض بغيضه، لكن المحبوبات على قسمين:

١- قسم يحب لغيره،

٢- وقسم يحب لنفسه وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه لا بد من محبوب يحب لنفسه وإلا أفضى ذلك إلى التسلسل، وليس هناك شيء يحب لذاته إلا الله تعالى، وكذلك التعظيم، تارة يعظم الشيء لنفسه، وتارة يعظم لغيره، وليس شيء يستحق أن يعظم لذاته إلا الله تعالى.

فمن أحب شيئا لذاته، أوعظّم شيئا لذاته غير الله فذلك شرك به، وإن أحب ليتوصل به إلى محبوب آخر وتعظيم آخر سوى الله فهو من فروع هذا، والله لم يشرع أن يعبد الإنسان شيئا من دونه، أو يتخذ إلها ليتوصل بعبادته، كما قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الزخرف: ٤٥، وقال تعالى:

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ آل عمران: ١٥١.

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٤٦٨-٤٨٠)، باختصار.

فمن أحب شيئا كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا، وإن كان يقول إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى وإنهم شفعاؤنا عند الله، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء: ٢٢، فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا الله ، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله، أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة.

والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء، وحب النساء لما في ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الإنسان، فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل، والمقصود بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره.

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعا لمحبته، فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين ويحب الأعمال الصالحة، فحبها لله هو من تمام حبه، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله»[2].

---

[1] قاعدة في المحبة (ص/١٧٤-١٧٥)، باختصار.

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٦٠٧-٦٠٨).

المطلب الثالث

أنواع المحبة

إن الناظر في كلام أهل العلم يرى أن طرقهم قد تنوعت في تقسيم المحبة، فقسمها ابن القيم رحمه الله في كتابه طريق الهجرتين[١] إلى قسمين:

١- محبة مشتركة، وهي ثلاثة أنواع؛ محبة طبيعية مشتركة، ومحبة رحمة وإشفاق، ومحبة أنس وإلف.

٢- محبة خاصة، وهي محبة العبودية التي معها الذل والخضوع، وتبعه في ذلك الشيخ سليمان بن عبد الله في كتابه تيسير العزيز الحميد[٢]، والشيخ محمد بن صالح العثيمين في القول المفيد[٣].

وقسمها في الجواب الكافي[٤] إلى خمسة أقسام: (١) محبة الله، (٢) محبة ما يحب الله، (٣) الحب لله وفيه، (٤) المحبة مع الله، (٥) المحبة الطبيعية، وتبعه في ذلك الشيخ السعدي رحمه الله في القول السديد[٥]، لكنه جعلها أربعة أقسام؛ (١) محبة الله، (٢) المحبة في الله، (٣) المحبة مع الله، (٤) المحبة الطبيعية.

أما بالنظر في كتب شيخ الإسلام فنجد أنه يقسم المحبة إلى قسمين: المحبة المحمودة النافعة، وهي محبة الله والمحبة لله وفي الله والتي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة.

---

[١] طريق الهجرتين (ص/٤٤١-٤٤٢).

[٢] التيسير (ص/٤٠٢-٤٠٣).

[٣] قول المفيد (٢/٦٢٣).

[٤] الداء والدواء (ص/٤٤٣-٤٤٤).

[٥] القول السديد (ص/٢٠٣-٢٠٤).

المحبة المذمومة الضارة، وهي المحبة لغير الله والمحبة مع الله والتي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء.

وكذلك نجد أنه يبين أن المحبة متبادلة بين العبد وربه، وكذلك يوضح أن هناك محبة بين الخلق أنفسهم.

ومن خلال جمع كلام شيخ الإسلام نستطيع أن نقول أن المحبة من حيث العموم على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: محبة الله سبحانه وتعالى لخلقه[1] كمحبته للمتقين والمحسنين، وهذه المحبة من صفات الكمال التي تثبت لله سبحانه وتعالى بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة: ٩٣، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة: ٤، وقال النبي ﷺ: «إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل؛ إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل..»[2].

وهذه المحبة من أعظم الغايات التي يسعى إليها كل مؤمن، بل هي أعظم مطالب المؤمن على الإطلاق، وكل المطالب الأخرى تابعة لها، وهي ليست مقصودة بعنوان المبحث لأنها لا تتعلق بعمل الإنسان إلا من حيث كونها غاية يسعى إليها، وهي ليست من فعله بل هي من فعل الله سبحانه وتعالى[3].

---

[1] انظر: التحفة العراقية (ص/٤٠٥، و ص-٤٠٨)

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٣٦)، في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٥٧)، في كتاب البر و الصلة، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده.

[3] وقد أنكر هذه المحبة الجهمية ومن سار على نهجهم من المتكلمين، فقالوا أن المراد بهذه المحبة الإحسان، أو إرادة الإحسان، أوالثناء والمدح، فأولوها إما بالمفعول المنفصل، أو بنفس الإرادة، أو ردوها إلى صفة الكلام حين قالوا أنها ثناء، وبهذه التأويلات ينكرون المحبة بمعناها الحقيقي، بل إنهم ينكرون حتى محبة الخلق لربهم، ويؤولون ذلك أيضا بإرادة الطاعة أو التقرب.

النوع الثاني: محبة العباد بعضهم لبعض، وهي قسمان:

أ- المحبة الغريزية التي فطر الله عليها العباد[1]، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، وهذه مبعثها طبيعة الإنسان وجبلته، وكمحبة الوالد لولده، ومبعثها الرحمة والإشفاق، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا، أو المشتركين في صناعة أو علم، ومبعثها الأنس والألفة.

ب- المحبة الاختيارية، التي تكون لله وفي الله، كمحبة أولياء الله، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال، أو المحبة التي تكون مع الله وهي المحبة الشركية، كمحبة الأنداد والأوثان.

وهذه المحبة داخلة في مقصود العنوان، لأنها تابعة لمحبة الله ﷻ في شقها الأول، ومضادة لها في شقها الثاني الذي هو المحبة الشركية، وعلى هذا التقسيم أكثر كلام شيخ الإسلام حيث كان يقسم المحبة؛ في المحبة الإيمانية والمحبة الشركية، أو إلى المحبة لله والمحبة مع الله[2].

النوع الثالث: محبة العباد لربهم ﷻ[3]، وهي المقصود الأساسي بعنوان المبحث[4].

وقد رد أئمة أهل السنة على هذه التأويلات الباطلة، انظر: التحفة العراقية (ص/٤٠٩) وما بعدها، وقاعدة في المحبة (ص/١١٥)، والمجموع (٦٢٧/٨)، ومدارج السالكين (١٥/٣).

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٦٠٧/١٠-٦٠٨).

[2] انظر: الرد على البكري (ص/٣٧٩)، وقاعدة في المحبة (ص/١٤١)، مجموع الفتاوى (٤٦٥/١٠)، و (٣٢١/١٨).

[3] انظر: التحفة العراقية (ص/٤٠٩ وما بعدها)، وقاعدة في المحبة (ص/١١٥)، والعبودية (ص/٦٤، وما بعدها)، ومجموع الفتاوى (٦٢٧/٨)،

[4] قد استفدت هذا التقسيم من الرسالة «أعمال القلوب وأثرها في الإيمان» ص/١٢٨-١٢٩)، لما رأيت فيه أنه يجمع كلام شيخ الإسلام ويقرب الأنواع والأقسام التي ذكرها شيخ الإسلام.

المطلب الرابع

مراتب المحبة

إن المتأمل في الكتاب والسنة وفي واقع حال الناس يجد أن المحبة في نفسها متفاوتة أعظم التفاوت، كما يجد بين العلاقة التي هي تعلق القلب بالمحبوب والخلة التي هي أعلى مراتب الحب تفاوتا عظيما، بل هي تختلف من إنسان لآخر بحيث لا تتماثل في شخصين، والناظر في كلام شيخ الإسلام يجد أنه جعل مراتب المحبة خمسا[1]، بينما أوصلها بعضهم إلى نحو عشر مراتب[2]، وهي كما يلي[3]:

الأولى: العلاقة، وهي تعلق القلب بالمحبوب، وقد ذكرها شيخ الإسلام.

الثانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه، وطلبه له.

الثالثة: الصبابة، وهي انصباب القلب إلى المحبوب، يحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور، وقد ذكرها شيخ الإسلام.

الرابعة: الغرام، وهي الحب الملازم للقلب الذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سمي عذاب النار غراما للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ الفرقان: ٦٥ ، وقد ذكرها شيخ الإسلام.

الخامسة: المودة، من الود، وهو صفو المحبة وخاصها ولبها، قال تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ مريم: ٩٦.

---

[1] انظر: التحفة العراقية (ص/٤٢٠-٤٢١)، والعبودية (ص/٢٢)، و الإيمان الأوسط (ص/١١٠-١١١).

[2] انظر: مدارج السالكين (٣/)، وروضة المحبين (ص/١٧) وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية (١/٢٣٨-٢٣٩).

[3] أنا سأذكر مراتب المحبة العشرة مع الإشارة إلى المراتب التي ذكرها شيخ الإسلام.

السادسة: الشغف، يقال شُغِف بكذا فهو مشغوف، وقد شغفه المحبوب أي وصل حبه إلى شغاف قلبه، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ يوسف: ٣٠، والشغاف غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب.

السابعة: العشق، وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه، ولا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا العبد في محبة ربه[١]، وقد ذكرها شيخ الإسلام.

الثامنة: التتيم، وهو التعبد والتذلل، وتيم الله عبد الله، فيصير القلب عبدا للمحبوب مطيعا له لا يستطيع الخروج عن أمره، وهذه آخر مراتب المحبة عند شيخ الإسلام رحمه الله.

التاسعة: التعبد، وهو فوق التتيم، فإن العبد الذي قد ملك المحبوب رِقّه، فلم يبق له شيء من نفسه ألبته، بل كله عبد لمحبوبه ظاهرا وباطنا، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك كمل مرتبتها، وحقيقة العبودية كما تقدم هي الحب التام مع الذل والخضوع التام للمحبوب.

العاشرة: الخلة، التي تخللت روح المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، وهي أعلى مراتب الحب، حيث تتضمن كمال المحبة ونهايته.

قال ابن أبي العز الحنفي[٢] بعد أن ذكر هذه المراتب: «و قيل في ترتيبها غير ذلك، وهذا ترتيب تقريب حسن، لا يعرف حسنه إلا بالتأمل في معانيه»[٣].

---

[١] انظر: قاعدة في المحبة (ص/١١٤-١٢٣)، فقد فصل شيخ الإسلام الكلام هناك لم لا يجوز أن يوصف الله بالعشق، ولا العبد في محبته لربه.

[٢] هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي، الفقيه، كان قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق، صاحب شرح العقيدة الطحاوية، ولد سنة ٧٣١هـ، وتوفي سنة ٧٩٢هـ، انظر: الأعلام (٣١٣/٤).

[٣] شرح العقيدة الطحاوية (٢٤٩/١).

المطلب الخامس

لوازم المحبة

سبق أن ذكرت أن المحبة ميدان يكثر فيها الادعاء، ويكثر فيها الخوض دون أي سهم فيها، فالمحبة ليست بالادعاء فقط، بل هناك لوازم لها لا بد من الالتزام بها حتى تصح الدعوة، وهذه اللوازم في نفس الوقت تكون علامات على صدق المحبة، ومن هذه اللوازم ما ذكر شيخ الإسلام في كتاب الاستقامة، حيث قال: «إن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه محبته، وذكر موجباتها وعلاماتها، وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ البقرة: ١٦٥.

وقال: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ آل عمران: ٣١.

وقال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ المائدة: ٥٤.

فهذه ثلاثة أصول لأهل محبة الله؛ إخلاص دينهم، ومتابعة رسوله، والجهاد في سبيله.

(الأصل الأول) فإنه أخبر عن المشركين الذين يتخذون الأنداد أنهم يحبونهم كما يحبون الله، ثم قال: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا** ﴾ البقرة: ١٦٥، فالمؤمنون أشد حبا لله من المشركين الذين يحبون الأنداد كما يحبون الله، فمن أحب شيئا غير الله كما يحب الله فهو من المشركين لا من المؤمنين.

ومحبة رسوله من محبته، ولهذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه في الصحيحين: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين".

وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ التوبة: ٢٤، فبين أنه إن كان الأهل والمال أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره، فلم يرض منهم أن يكون حبهم لله ورسوله كحب الأهل والمال وأن يكون حب الجهاد في سبيله كحب الأهل والمال، بل حتى يكون الجهاد في سبيله الذي هو تمام حبه وحب رسوله أحب إليهم من الأهل والمال.

فهذا يقتضي أن يكون حبهم لله ورسوله مقدما على كل محبة ليس عندهم شيء يحبونه كحب الله بخلاف المشركين.

ويقتضي **الأصل الثاني** وهو أن يكون الجهاد في سبيله أحب إليهم من الأهل والمال، فإن ذلك هو تمام الإيمان الذي ثوابه حب الله ورسوله

كما قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ إيمانا لا يكون بعده ريب: ﴿ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ الحجرات: ١٥.

وبذلك وصف أهل المحبة في قوله: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ المائدة: ٥٤، فأخبر سبحانه بذلهم للمؤمنين، وعزهم على الكافرين، وجهادهم في سبيله، وأنهم لا يخافون لومة لائم، فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك.

وهؤلاء هم الذين يحتملون الملام والعذل في حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، والله يحبهم وهم يحبونه، ليسوا بمترلة من يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله ورسوله، ولا

بمترلة الذين أظهروا من مكروهات الحق ما يلامون عليه ويسمون بالملامتية[1]، ظانين أنهم لما أظهروا ما يلومهم الخلق عليه من المنكرات مع صحتهم في الباطن كان ذلك من صدقهم وإخلاصهم، وهم في ذلك إنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس.

فإن ذلك المنكر الذي يكرهه الله ورسوله لا يكون فعله مما يحبه الله ورسوله، ولا يكون من الصدق والإخلاص في حب الله ورسوله، والناس يُلامون عليه.

وسنام ذلك الجهاد في سبيل الله، فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله، واللائمون عليه كثير، إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه، وهم إما مخذِّلون مفتِّرون للهمة والإرادة فيه، وإما مرجفون مضعِّفون للقوة والقدرة عليه، وإن كان ذلك من النفاق.

قال الله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الأحزاب: ١٨.

وقال تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الأحزاب: ٦٠.

وأما **الأصل الثالث**؛ وهو متابعة السنة والشريعة النبوية، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١.

قال طائفة من السلف؛ ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية، فجعل حب العبد لربه موجبا ومقتضيا لاتباع رسوله، وجعل اتباع رسوله موجبا

[1] الملامتية طائفة من الصوفية أظهروا للخلق قبائح ما هم فيه، وكتموا عنهم محاسنهم، فلامهم الخلق على ظواهرهم، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم، انظر: عوارف المعارف للسهروردي، المطبوع بذيل إحياء علوم الدين (٦٩/٥).

ومقتضيا لمحبة الرب عبده، فأهل اتباع الرسول يحبهم الله ولا يكون حبا لله إلا من يكون منهم»[1].

المطلب السادس

الأسباب الجالبة للمحبة

تقدم بأن المحبة أصل أعمال الإيمان، وأنها أيضا فطرة فطر الله الإنسان عليها، ولذا لا يكون له سلطان على قلبه لدفعه مرة واحدة إلى الوجهة التي يريد، لذا فإن المطلوب منه أن يسلك الأسباب التي تجعل قلبه يحب الله سبحانه ويحب محابه، ومن أهم تلك الأسباب:

السبب الأول: معرفة الله، لأن المحبة تتبع العلم فمن عرف ربه أحبه.

قال شيخ الإسلام: «وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالى، ولها أصلان:

أحدهما: وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، والله سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة، إذ هو ميسر الوسائط ومسبب الأسباب، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه، وكذلك كل من أحب شيئا لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه، وهذا ليس بمذموم بل محمود.

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله ﷺ: "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهلي بحبي" [1]، والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه.

---

[1] الاستقامة (١/٢٦١-٢٦٦)، باختصار، وانظر العبودية (ص/٧٤)، إلا أنه لم يذكر الإخلاص.

وهذا كما قالوا: إن الحمد لله على نوعين؛ حمد هو شكر، وذلك لا يكون إلا على نعمته، و حمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له، وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه، فكذلك الحب.

فإن **الأصل الثاني** فيه هو: محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه، حتى جميع مفعولاته، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محمودا على كل حال، ويستحق أن يحمد على السراء والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة»[2].

السبب الثاني: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلب به، ولهذا أمر الله ﷻ بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ الأحزاب: ٤١ ــ ٤٢.

السبب الثالث: مطالعة آلائه ونعمائه، لأن القلوب قد جبلت على حب من أحسن إليها كما تقدم، قال الله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ الأعراف: ٦٩.

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه، من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا في القلوب[3].

---

(1) أخرجه الترمذي (ص/٨٥٥)، في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي في الشعب (١١/٢)، وقد ضعفه محقق الشعب، وضعفه الألباني أيضا في تخريج فقه السيرة (٢٣)

(2) التحفة العراقية (ص/٤٤٩-٤٥١).

(3) مجموع الفتاوى (١/٩٠-٩٦).

وهناك أسباب أخرى جالبة للمحبة، وما ذكرت أهم ما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام، وإلا هناك أسباب أخرى، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أسباب جالبة للمحبة[(١)].

المطلب السابع

ثمرات المحبة

سبق أن قلنا أن كل حركة في العالم تصدر عن محبة، إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة، فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى[(٢)].

ومن المقرر أيضا أن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام»، فالحارث الكاسب الفاعل، والهمام فعال من الهم[(٣)].

فمن خلال هذا التقرير يتبين أن الإنسان حساس يتحرك كسائر الأشياء في الكون، وأن حركته و جميع الحركات في العالم لا تصدر إلا عن المحبة، فالأعمال الإيمانية تصدر عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة هي محبة الله، والنتيجة أن المحبة هي الأصل الذي يلقي العبد في السير إلى الله تبارك وتعالى، وأنها أساس العمل، وجوده بوجودها وكماله بكمالها ونقصه بنقصها.

وقد قرر هذا الأمر شيخ الإسلام في أكثر من موضع، يقول رحمه الله: «ومعلوم أن الحب يحرك الإرادة، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/١٣-١٤)، للفائدة.

(٢) انظر: التحفة العراقية (ص/٣٧٣).

(٣) انظر: العبودية (ص/٨٠).

تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المطلوب، فإذا كان العبد قادرا عليها حصلها، وإن كان عاجزا عنها ففعل ما يقدر عليه كان له أجر الفاعل»[(١)].

وحين تكلم عن محركات القلوب الثلاثة المحبة والخوف والرجاء، قال رحمه الله: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة؛ المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي المقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة»، إلى أن قال: «المحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون السير إليه»[(٢)].

ثم كلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، فبتحقيقها تتحقق العبادة التي من أجلها خلقنا الله سبحانه وتعالى، وبيان ذلك أن العبودية تتضمن المقصود المطلوب المحبوب وهو الله سبحانه، وذلك يكون على أكمل الوجوه، بحيث يكون الله غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المقصود بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحب لأجله، والعبودية تتضمن أيضا المستعان الذي يستعان به على المطلوب، وبهما تتحقق العبادة، وبالنقص فيهما تنقص، فمتى كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أن يعينه، كان عبدا لما أحبه، وعبدا لما رجاه بحسب حبه ورجاه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه.

والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين: من جهة العبادة والعلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية.

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ

---

(١) العبودية (ص/٧٥)، وانظر: قاعدة في المحبة (ص/١٦٢)، و (ص/١٦٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١/٩٥).

فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥.

فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه فإنه يحبه لأجله، لا يحب شيئا لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا، لم يكن قد حقق حقيقة (لا إله إلا الله)، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب، بل ومن الآلام والحسرة والعذاب بحسب ذلك، ولو سعى في هذا المطلوب، فلم يكن مستعينا بالله، متوكلا على الله، مفتقرا إليه في حصوله لم يحصل له، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به، المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين؛ فمتى كان محبا لغير الله لذاته، أو ملتفتا إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدا لما أحبه وعبدا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وكل ما أحبه سواه فإنما أحبه له، ولم يَرْجُ قط شيئا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها، كان مشاهدا أن الله هو الذى خلقها، وقدرها، وأن كل من في السماوات والأرض، فالله ربه ومليكه وخالقه، وهو مفتقر إليه، كان قد حصل من تمام عبوديته لله، بحسب ما قسم له من ذلك»[1].

ثم إن للإيمان حلاوة وهي تنال بالمحبة، وذلك عند تحقيق ثلاثة أمور، قال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله و رسوله أحب إليه مما سواهما، و أن

---

[1] العبودية (ص/٧٦-٧٨).

يحب المرء لا يحبه إلا لله، و أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»، والحديث صريح أن وجد الإيمان واللذة به من آثار المحبة الصادقة وثمراتها.

ثم هذه الحلاوة توجد بتحقيق ثلاثة أشياء، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به، والفرح ما يجده المؤمن الواجد لحلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور:

تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها.

فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهية الإلقاء في النار»[1].

---

(1) انظر: العبودية (ص/٩٢).

المبحث الرابع: الخوف.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الخوف.

المبحث الرابع: الأسباب الجالبة للخوف.

المبحث الخامس: لوازم الخوف.

المبحث السادس: ثمرات الخوف.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الخوف هو من مادة (خ و ف) التي تدل على الذُعْر والفزع في اللغة العربية، ويضاده الأمن، وهو حالة يشعر فيها الإنسان توقع حلول مكروه أو فوات محبوب في الدنيا والآخرة.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع، يقال؛ خِفت الشيء خوفا وخيفة، والياء مبدَلة من واو لمكان الكسرة، ويقال خاوفني فلان فخفته، أي كنت أشد خوفا منه»[1].

وقال الراغب: «الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف الأمن، ويستعمل في الأمور الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧، وقال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ الأنعام: ٨١، والخيفة؛ الحالة التي يكون عليها الإنسان من الخوف، قال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ طه: ٦٧، واستعمل استعمال الخوف في قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ الرعد: ١٣، وقوله: ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الروم: ٢٨»[2].

وقد ورد ذكر الخوف في القرآن على خمسة أوجه:

---

[1] معجم مقاييس اللغة (ص/٣١٧)، وانظر: القاموس المحيط (ص/١٠٤٥-١٠٤٦)،ولسان العرب (١٧٩/٢-١٨٠).

[2] المفردات (ص/٣٠٣)، باختصار.

الأول: النكبة تصيب المسلمين من قتل أو هزيمة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ النساء: ٨٣، يعني القتل والهزيمة.

الثاني: القتال، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ الأحزاب: ١٩، يعني القتال والحرب، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ الأحزاب: ١٩، أي إذا انجلى الحرب.

الثالث: العلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ البقرة: ١٨٢، يعني فمن علم.

الرابع: التنقص: وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ النحل: ٤٧، أي على تنقص.

الخامس: الخوف الذي نحن في صدد الكلام عنه، كالخوف من العذاب، وذلك في قوله: ﴿ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ آل عمران: ١٧٠، يعني من العذاب[1].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

لقد عرف الخوف بتعاريف كثيرة، منها:

قال الجنيد: «الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس»[2].

وعرف الغزالي الخوف بأنه: «عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال»[3].

وعرفه الجرجاني بأنه: «توقع حلول مكروه أو فوات محبوب»[1].

---

[1] انظر: بصائر ذوي التمييز (٢/٥٧٨-٥٧٩)، والقاموس المحيط (ص/١٠٤٦)، ولسان العرب (٢/١٨٠).

[2] مدارج السالكين (١/٣٨٢).

[3] إحياء علوم الدين (٤/١٩٥).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «الخوف المحمود؛ ما حجزك عن محارم الله»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: «الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عَجَّلَ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط»[٣].

وقال صاحب تفسير التحرير والتنوير[٤] بأن الخوف: «توقع حصول ما تكرهه النفس، وهو ضد الأمن، ويطلق على أثره، وهو السعي في مرضاة المخوف منه - وهو الله سبحانه وتعالى عند جميع المسلمين - وامتثال أوامره»[٥].

وقد وردت أقوال أخرى في تصوير معنى الخوف، منها: «أنه مطالعة الوعيد وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة، والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغي على الرشاد»[٦].

وقد تقدم عن الراغب أنه عرف الخوف بأنه: «توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة».

وقال صاحب المنازل: «الخوف هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر»[٧].

---

(١) التعريفات (ص/١٠٦).

(٢) مدارج السالكين (١/٣٨٣).

(٣) نفس المصدر (١/٣٧٣).

(٤) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة بها، ولد سنة ١٢٩٦هـ وتوفي سنة ١٣٩٣هـ. انظر: الأعلام (٦/١٧٤).

(٥) تفسير التحرير والتنوير (٢/٤٠٩).

(٦) مدارج السالكين (٣/٢١٣).

(٧) مدارج السالكين (١/٣٨٣).

ومن هذه التعريفات يمكن تلخيص تعريف الخوف بأنه: الحالة النفسية التي تحول دون ارتكاب السيئات أو الخوض في المحرمات، مع جعل إرضاء الله سبحانه وتعالى الغاية التي يسعى إليها[1].

المسألة الثالثة: مرادفات الخوف.

وردت للخوف ألفاظ متقاربة المعنى، تؤدي معنى الخوف، أو تشترك معه في جميع الأحكام، وهذه الألفاظ هي الرهبة، والوجل، والإشفاق، والخشية.

فالرهبة هي خوف مع التحرز والاضطراب، أو هي شدة الخوف والإمعان في الهروب.

قال الراغب: «الرهبة والرهَب: مخافة مع تحرز واضطراب»[2].

قال ابن القيم: «وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه»[3]، فالرهبة هي الخوف المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بعمل.

أما الوجل، فهو استشعار الخوف، ورجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو رؤيته[4].

أما الإشفاق، فهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة و أرقها[5].

---

(1) انظر: الخوف والرجاء في القرآن الكريم (ص/٢٠)، تأليف عبد الله أسود خلف الجوالي، وانظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٧٨).

(2) المفردات (ص/٣٦٦).

(3) مدارج السالكين (١/٣٨٢).

(4) انظر: المفردات (ص/٨٥٥) للراغب، ومدارج السالكين (١/٣٨٢).

(5) مدارج السالكين (١/٣٨٦).

والخشية الخوف المشوب بالتعظيم، والناتج عن العلم، فهي أخص من الخوف، لأنها خوف مقرون بعلم، فإن لم يكن علم فهو مجرد خوف، فالخشية للعلماء بالله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ فاطر: ٢٨[١]، وكما قال النبي ﷺ:«إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»[٢]، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية[٣].

قال ابن القيم رحمه الله في بيان الفرق بين الخوف والخشية: «فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية...

فصاحب الخوف: يلتجىء إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية: يلتجىء إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما مثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجىء إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء»[٤].

ومما سبق يتضح أن معاني هذه الكلمات كلها تدور حول الخوف، وفي هذا المبحث قد أستعمل إحدى هذه الألفاظ مكان الأخرى، وخاصة الخوف والخشية التي كثر ذكرهما في النصوص.

---

[١] انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٠)، ومجموع الفتاوى (٢٩٢/١٤)

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٤)، في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ومسلم في صحيحه (ص/٩٥٨)، في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته.

[٣] انظر: المفردات (ص/٢٨٣)، ومدارج السالكين (٣٨٢/١).

[٤] مدارج السالكين (٣٨٢/١).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

وإذا كانت المحبة أصل الإيمان، فالخوف يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الخائف يفر من المخوف لينال المحبوب، فالخوف هو وصول العبد إلى ما يرضي الله ﷷ، وهذ من أبلغ المقامات، وهو الجالب للطاعات والمبعد عن المعاصي، وذلك أن العبد كلما تذكر عذاب الله وخافه كان حاجزا ومانعا من ارتكاب أي محذور يغضب الله سبحانه وتعالى، واشتمال قلب المؤمن عليه علامة على صحة الإيمان، وهو أحد محركات القلوب الثلاثة، وقد جاءت النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في الأمر به، والحث عليه، ومدح أهله، وفيما يلي أذكر بعضا من أساليب القرآن والسنة في الأمر به، مراعيا فيها جمع كلام شيخ الإسلام حول هذه الأساليب المذكورة في الوحيين:

المسألة الأولى: الخوف شرط لصحة الإيمان.

قد أمر الله تعالى بإخلاص الخوف له وحده، وجعله شرطا لصحة الإيمان، ولا يجوز صرفه لغير الله، وقد جاء النهي عن صرفه لغير الله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ آل عمران: ١٧٥.

فصرف الخوف لغير الله تعالى هو شرك، إذ لا يخاف الإنسان أحدا الخوف التعبدي إلا إذا اعتقد في قلبه أنه يملك نفعه أو ضره، أو يشارك في ملك الله، واعتقاد مثل هذا شرك أكبر[1] .

---

[1] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٩٥).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك»[1].

وقد فصل شيخ الإسلام الكلام عن هذه الآية ما المراد بأوليائه، حيث ذكر خلاف أهل العلم في ذلك، وأن منهم من يقول أن المراد هو؛ أن الشياطين يخوّفون الناس بأوليائهم، ومنهم من يقول إن الشياطين يخوّفون أوليائهم، ثم قال إن كلا القولين صحيح من حيث المعنى، لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوّفين لا خائفين كما دل عليه السياق.

ثم قال رحمه الله: «ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس، كما قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ المائدة: ٤٤، فخوف الله أمر به، وخوف أولياء الشيطان نهى عنه، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ البقرة: ١٥٠، فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الأحزاب: ٣٩، وقال: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ النحل: ٥١»[2].

وبين ابن القيم رحمه الله العلاقة بين الخوف والإيمان، وأن كلا منهما مستلزم للآخر، إلا أن الإيمان سبب يقتضي وجود الخوف، أما الخوف سبب في حصول الإيمان وتحقيقه، يقول رحمه الله: «فجعل الخوف منه شرطا في تحقيق الإيمان، وإن كان الشرط داخلا في الصيغة على الإيمان، فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقيق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه،

---

[1] مجموع الفتاوى (٣٣٣/٢٧).

[2] نفس المصدر (٥٦/١).

وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته، فتدبره...» ثم قال رحمه الله: «والمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه»[1].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله في شرحه لهذه الآية: «فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب، ففيها أن إخلاص الخوف لله من الفرائض»[2].

المسألة الثانية: قد أمر الله بالخوف، وأثنى على أهله.

سبق أن ذكرنا أن الله أمر بالخوف في غير ما آية في القرآن، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ آل عمران: ١٧٥، وقال تعالى: ﴿ **فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ** ﴾ النحل:٤٠، وقال تعالى: ﴿ **فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ** ﴾ المائدة: ٤٤.

وكما أمر الله بالخوف، كذلك ذم ضده، وهو الأمن من مكر الله، إذ لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، وحقيقة الأمن من مكر الله جهل بالله وقدرته، وثقة بالنفس وعجب به[3]، قال تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴾ الأعراف: ٩٩.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** ﴾ يونس: ٧ – ٨.

---

[1] طريق الهجرتين (ص/٤٢٢-٤٢٣).

[2] تيسير العزيز الحميد (ص/٤١٩).

[3] انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/٤٣٩).

وقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ نوح: ١٣ – ١٤، ففي هذه الآيات ذم وتوبيخ ووعيد لمن أمن مكر الله، فلم يخف بأس الله وعذابه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالمؤمن يخاف مكر الله، ومكر الله أن يعاقبه على سيئاته، والكافر لا يخشى الله فلا يخاف مكره، ومكره أن يعاقبه على الذنب لكن من حيث لا يشعر»[1].

ويقول أيضا: «وكل من ادعى الأمن فهو جاهل بالله وبما أخبر به عن نفسه: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾»[2].

وقد أثنى الله على أهل الخوف المتصفين به، وأخبر أنه يجازي من كان من أهله، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ النور: ٣٦ – ٣٨.

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ السجدة: ١٦.

ولما ذكر الله في الآيات التي قبلها الكافرين بآياته وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين ووصفهم وما أعد لهم من الثواب، ومن وصفه إياهم أنهم تتجافى أي ترتفع جنوبهم عن المضاجع إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى،

---

[1] مختصر الفتاوى المصرية (ص/١٢٨).

[2] مجموع الفتاوى (٥/٨٢).

يدعون ربهم جامعين بين الوصفين، خوفا أن ترد أعمالهم، وطمعا في قبولها، خوفا من عذاب الله، وطمعا في ثوابه[١].

بل العابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه يدعو ربه خوفا وطمعا، ولا يتصور تركهما في أي دعاء، سواء أكان دعاء عبادة أو دعاء مسألة[٢].

وكذلك في السنة جاء الثواب الجزيل على المتصفين بالخوف، عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «أسرف رجل على نفسه، فلما حضره الموت أوصى بنيه، فقال؛ إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا، قال؛ ففعلوا ذلك به، فقال للأرض؛ أدي ما أخذت فإذا هو قائم، فقال له؛ ما حملك على ما صنعت؟ فقال؛ خشيتك يا رب، أو قال مخافتك، فغفر له بذلك»[٣].

فمن الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ثبت إسلامه إلا بعد وجود شروط التكفير وانتفاء موانعه، وقد تكلم شيخ الإسلام عن هذا الأصل كثيرا، وكانت عمدته في ذلك من النصوص هذا الحديث، وبيان ذلك أن هذا الرجل أتى بأمر هو كفر في نفسه، هوالشك في قدرة الله، وإنما فعل ذلك متأولا، فكان تأويله مانعا من تكفيره، حمله على هذا الشك الخوف من الله، فغفر الله له بسبب هذا الخوف[٤].

والمهم هنا بيان ما يترتب على الخوف من الجزاء، وهو الغفران من هذه الذنوب مهما عظمت، والله تعالى أعلم.

---

[١] تفسير السعدي (ص/٦٥٥).

[٢] انظر مجموع الفتاوى (١٠/٢٤٠).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٨١)، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى عليه السلام، ومسلم في صحيحه (ص/١١٠٢)، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله.

[٤] انظر: مجموع الفتاوى (٢٣١/٣)، و (٤٠٨/١١).

وكذلك جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله قوله ﷺ: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال؛ إني أخاف الله»[1].

فسبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فذكر ﷺ هؤلاء السبعة إذ كل منهم كمل العبادة التي قام بها: ومن هؤلاء الذين كملوا العبادة؛ العفيف الذي كمل الخوف من الله فوقاه من الزنا[2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٧)، في كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسلم في صحيحه (ص/٣٩٧)، في كتاب الزكاة، باب في فضل إخفاء الصدقة.

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١٤٤/٢٣).

المسألة الثالثة: الخوف دأب الملائكة والأنبياء والصالحين.

كان من حكمة الله أنه اصطفى من الخلق من شاء، فاصطفى الملائكة من الجن والإنس، واصطفى من الإنس الأنبياء، واصطفى من أتباعهم الصلحاء، فأمرنا بالإقتداء بهم واقتفاء أثرهم، لنكون في هذه الدنيا من المهتدين، ونغدوا في الآخرة من الآمنين.

فكان من دأب هؤلاء كما ذكر الله عنهم الخوف، والخشية منه، (وقد وصف الملائكة في القرآن بالخشية والخوف: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ النحل: ٥٠، وقال: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٨)[١].

وقال عن الأنبياء: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ الأنبياء: ٩٠، الضمير في قوله تعالى في هذه الآية يعود إلى مجموعة الأنبياء المذكورين من قبل، ممن ابتلاهم الله، فصبروا فاستجاب الله لهم، وكان من حالهم أنهم يسارعون في الخيرات، ويدعون ربهم خوفا ورجاء، وكانوا له خاشعين.

وقد أثنى على حالهم أنهم يفردون الله بالخشية، ولا يخشون سواه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ الأحزاب: ٣٩.

وذكر أهل الخوف من المؤمنين المتقين الصالحين، ومدحهم وأثنى عليهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ المؤمنون: ٥٧ - ٦١، وقد جاء عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها وعن أبيها – الصديقة بنت الصديق أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ

---

[١] الصفدية (١/٢١٤)، بتصرف يسير.

﴿وَجِلَةٌ﴾، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال النبي ﷺ:«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرت»[1]، يخافون أن لا تقبل منهم العبادات من أجل تقصيرهم في الإتيان بها، لا أنهم يخافون أن لا يوفيهم الله أجورهم[2].

المسألة الرابعة: الخوف يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور.

إن الناظر لآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ التي تحدثت عن الخوف، والتي جاءت على أساليب مختلفة يدرك أنها تصب كلها في قالب واحد وهو الخوف من الله ﷻ بالانقياد والإذعان لأوامره، وحفظ فرائضه وحدوده، واجتناب محارمه ونواهيه، وتذكر يوم القيامة من مرحلة الموت إلى انقسام الناس إلى فريقين؛ فريق في الجنة وفريق في السعير[3].

فالخوف يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور، ولهذا كان الخوف أصل كل خير للإنسان، يقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنفال: ٢، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله، وزيادة إيمانهم إذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع، فكان هذا مستلزما للباقي، فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه، وقد فسروا ﴿وَجِلَتْ﴾ بفَرِقَت، وفي قرآءة ابن مسعود : ﴿إذا ذكر الله فرقت

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٥٦/٤٢)، والترمذي في سننه(ص/٧١٤)، وابن ماجه في سننه (ص/٦٩٧)، والحاكم في المستدرك (٣/٤-٥) وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصحح الحديث الألباني أيضا في الصحيحة (١٦٢) .

[2] انظر: السلسلة الصحيحة (٢٥٧/١).

[3] الخوف والرجاء (ص/٥٧).

قلوبهم ﴾ وهذا صحيح، فإن الوجل في اللغة هو الخوف يقال؛ حمرة الخجل وصفرة الوجل، ومنه قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ قالت عائشة: يا رسول الله! هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: لا يا ابنة الصديق؛ هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه.

وقال السدي[1] في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم، أو يهم بمعصية فيترع عنه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات: ٤٠ – ٤١، وقوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمن: ٤٦، قال مجاهد وغيره من المفسرين: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله، فيتركها خوفا من الله.

وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته، فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور، قال سهل بن عبد الله: ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٤، فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله»[2].

---

[1] هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي: تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة، صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس، حدث عن أنس وابن عباس، وغيرهما، توفي سنة ١٢٨ هـ، انظر: السير (٥/٢٦٤)، والأعلام (١/٣١٧).

[2] الإيمان الكبير (ص/١٩-٢٠).

المطلب الثالث

أقسام الخوف

فالخوف يقع تارة عبادة، وتارة طبيعة وعادة، وذلك بحسب متعلقاته وأسبابه، والمطلع على كلام شيخ الإسلام يرى أنه لم يقسم الخوف تقسيما كما نجده عند الشيخ سليمان بن عبد الله وغيره[(١)]، إلا أننا نستطيع أن نستشهد ببعض أقواله على كل قسم من هذه الأقسام، فأقول:

قد قسم العلماء الخوف من حيث العموم إلى قسمين:

القسم الأول: الخوف التعبدي: وهو خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وهو الله سبحانه وتعالى، وهو يحمل العبد على فعل الطاعات، ويزجره عن الوقوع في المحرمات وهو مبني على التعظيم والتقديس، وهو لا يجوز صرفه لغير الله، ولا يكون العبد مسلما إلا بإخلاصه لله ﷻ، وقد جاء النهي عن صرفه لغير الله، قال تعالى:

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ المائدة: ٤٤[(٢)].

فصرف الخوف لغير الله تعالى هو شرك، إذ لا يخاف الإنسان أحدا الخوف التعبدي إلا إذا اعتقد في قلبه أنه يملك نفعه أو ضره، أو يشارك في ملك الله، واعتقاد مثل هذا شرك

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/٤١٧-٤١٨)، وفتح المجيد (ص/٣٠١-٣٠٢)، والدر النضيد (ص/٢٦٨-٢٦٩)، وقول السديد (ص/٢٠٦-٢٠٧) وغيرها.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/٥٧)، و (٣/٢٣٣).

أكبر[1]، بعبارة أخرى اعتقاد إيجاد المسببات - النفع أو الضر - بدون مباشرة الأسباب إلا الله ﷻ شرك[2]، وهذا الذي سماه الشيخ سليمان خوف السر[3] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك»[4].

ودون خوف السر هو الخوف من الناس الذي يؤدي إلى ترك ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا محرم وهو شعبة من الشرك[5].

القسم الثاني: الخوف الطبيعي: كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري، لأن هذا الخوف يحصل بغير اختيار العبد ليس خوف عبادة، وهذا إذا كان خوفا محققا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم.

فإن كان هذا خوفا وهميا؛ كالخوف الذي ليس له أسباب أصلا، أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء فهو من أخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع[6].

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٩٥).

(٢) قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/٦٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص/٤١٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٣٣/٢٧).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣٢/١٤)، و (١٦٥/٢٨-١٦٦).

(٦) القول السديد (ص/٢٠٧).

المطلب الرابع

الأسباب الجالبة للخوف

تقدم بأن الله أمر بالخوف، وأثنى على من اتصف به، بل وجعل الخوف شرطا لصحة الإيمان، كما بينا أيضا أن الخوف هو الدافع إلى فعل المأمور وترك المحظور، وفي هذا المطلب أحاول أن أذكر بعض الأسباب التي يجلب بها الخوف.

وفي مقدمة هذه الأسباب لا شك هو العلم والمعرفة بالله وعظمته، ومعرفة أسمائه وصفاته، وقد بين شيخ الإسلام أن الخوف من الله يستلزم معرفته، ومعرفته تستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته، فمن عرف الله خافه، ومن خافه خشي عقابه، وامتثل طاعته وانتهى عن معصيته، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به، فالعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه...، ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ الأعلى: ٩ – ١٢.

فأخبر أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ غافر: ١٣، وقال: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ق: ٨، ولهذا قالوا في قوله: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾، سيتعظ بالقرآن من يخشى الله، وفي قوله: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة، وهذا لأن التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره، فإن تذكر محبوبا طلبه، وإن تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يس: ١٠.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ يس: ١١، فنفى الإنذار عن غير هؤلاء مع قوله: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾، فأثبت لهم الإنذار من وجه، ونفاه عنهم من وجه، فإن الإنذار هو الإعلام بالمخوف، فالإنذار مثل التعليم والتخويف، فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه، وآخر يقول: علمته فلم يتعلم، وكذلك من خوفته فخاف، فهذا هو الذي تم تخويفه، وأما من خوف فما خاف، فلم يتم تخويفه، وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه، ومنه قوله تعالى﴿ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ٢، ومن هديته فلم يهتد كما قال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ فصلت: ١٧، فلم يتم هداه كما تقول: قطعته فانقطع، وقطعته فما انقطع.

فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاما، والفعل إذا صادف محلا قابلا تم، وإلا لم يتم، والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه، ولهذا يسمى هذا العلم: الداعي»[1].

ولهذا فأكثر الناس خشية لله هم أهل العلم المنتفعين بعلمهم، الذين وصفهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ فاطر: ٢٨، والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم، فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الزمر: ٩[2].

ومن الأسباب التي تجلب الخوف وتحركه هي مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكذلك الخوف، تحركه مطالعة آيات الوعيد،

---

[1] الإيمان الكبير (ص/٢٣-٢٤).

[2] نفس المصدر (ص/٢٠).

والزجر، والعرض، والحساب ونحوه»[1]، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفًا﴾ الإسراء: ٥٩.

فإنه سبحانه يقول: وما نرسل بالعبر والذكر إلا تخويفا للعباد، قال قتادة[2]: إن الله يخوف الناس بما شاء من آيات لعلهم يعتبرون أو يذكرون أو يرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود ﷺ، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه لما مات ابنه إبراهيم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله ﷻ يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله وكبّروا وصلّوا وتصدّقوا، ثم قال: يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا"[3][4].

يقول شيخ الإسلام في كلامه عن هذا الحديث: «وهذا بيان منه ﷺ أنهما سبب لنزول عذاب الناس، فإن الله إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه وعصوا رسله، وإنما يخاف الناس مما يضرهم، فلو لا إمكان حصول الضرر بالناس عند الخسوف ما كان ذلك تخويفا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ الإسراء: ٥٩، وأمر

---

[1] مجموع الفتاوى (٩٦/١).

[2] قتادة ابن دعامة بن قتادة بن عزيز، وقيل: قتادة بن دعامة بن عكابة، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه، ولد سنة ٦٠ هـ، وتوفي سنة ١١٨ هـ، انظر: الجرح والتعديل (١٣٣/٧)، وفيات الأعيان (٨٥/٤)، سير أعلام النبلاء (٢٦٩/٥).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٦٧)، في كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، ومسلم في صحيحه (ص/٣٤٩)، في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف.

[4] تفسير ابن كثير (٦٨/٣)، وتفسير القرطبي (١٠٩/١٣)، وتفسير السعدي (ص/٤٦١).

النبي ﷺ بما يزيل الخوف، أمر بالصلاة والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والعتق، حتى يكشف ما بالناس، وصلى بالمسلمين في الكسوف صلاة طويلة»[١].

وأما مطالعة أحوال القيامة التي ذكر شيخ الإسلام أنها من محركات الخوف، فأكتفي بذكر آية من كتاب الله، يقول تبارك و تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۞ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ الإنسان: ٨ – ١١، أي؛ وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة أنفسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى لا يريدون جزاء ولا شكورا، بل يفعلون ذلك خوفا من ربهم من يوم طويل عبوس، شديد هوله عظيم أمره، تعبس فيه الوجوه من شدة المكروهات التي تراها، ويطول بلاء أهله ويشتد، إنه يوم عصيب، نسأل الله السلامة في ذلك اليوم.

فلا يحزنهم الفزع الأكبر، فآمنهم الله مما خافوا منه، وأعطاهم حسنا في وجوههم، وسرورا في قلوبهم، فجمع الله لهم بين نعيم الظاهر والباطن[٢].

المطلب الخامس

لوازم الخوف

إن الخوف بشكل عام له مظاهر وصور وأشكال شتى، ولكن الخوف من الله لا بد أن يتخذ شكلا خاصا حتى يدخل باب التعبد، فهو ليس كالخوف الطبيعي رعبا، وفزعا، وهربا،

---

[١] مجموع الفتاوى (٢٤/٢٥٩).

[٢] انظر: تفسير القرطبي (٢١/٤٦٨)، وتفسير ابن كثير (٤/٥٨٤-٥٨٥)، وتفسير السعدي (ص/٩٠١).

وإعراضا، ولا هو مجرد شكل خارجي صيحة، أو بكاء، أو ارتجافا، فهذه الأشكال ما لم تكن وراءها نتائج ملموسة من فعل المأمور والمسارعة في الخيرات وكثرة الطاعات، ويدفع إلى الابتعاد والحذر الشديد عن الوقوع في المحرمات لا تعد خوفا من الله.

كذلك إذا تجاوز الخوف حده بحيث أوصل صاحبه إلى اليأس والقنوط، فإنه يكون حينئذ مذموما وغير مشروع.

إذا، لا بد من مراعاة هذين الجانبين في الخوف، حتى تنتج عنه نتائج ملموسة، وأن لا يصل بصاحبه إلى اليأس والقنوط، وهذان الجانبان هما من لوازم الخوف.

الأول: أن الخوف يحمل الإنسان على اجتناب محارم الله، والتزام شريعته ظاهرا وباطنا[(١)].

وقد أسلفنا أن الناظر والمتأمل في الآيات التي تتحدث عن الخوف، كلها تقصد هذا الجانب المهم، وهو ثمرة الخوف، لأن المقصود من الخوف هو الزجر والمنع من الخروج عن طريق المحبوب وهو الله سبحانه وتعالى.

وقد مثل شيخ الإسلام لذلك بمثل ؛ كيف يكون الخوف سببا لإعطاء حقوق الناس وعدم ظلمهم قال رحمه الله: «فمن عبد الله وأحسن إلى الناس فهذا قائم بحقوق الله، وحق عباد الله في إخلاص الدين له، ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم في الله كان محسنا إلى الخلق وإلى نفسه، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم، حيث خاف غير الله ورجاه، فإن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه»[(٢)].

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١/٥٤-٥٥)، باختصار.

الثاني: أن الخوف لا بد أن يقترن بالرجاء، حتى لا يؤدي إلى اليأس والقنوط.

فإذا غلب على المرء الرجاء وحده ربما حمله على الأمن من عذاب الله وسطوته، وكذلك إذا غلب على المرء الخوف وحده ربما حمله على اليأس والقنوط من رحمة الله[1]، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣، يقول شيخ الإسلام في كلامه عن هذه الآية: «فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف؛ إن الفقيه كل الفقه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرئهم على معاصي الله»[2].

---

[1] مسألة الجمع بين الخوف والرجاء، وكذلك الجمع بينهما وبين المحبة نؤجلهما إلى مبحث الرجاء إن شاء الله.

[2] مجموع الفتاوى (١٦/١٩-٢٠).

المطلب السادس

ثمرات الخوف

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥، دلت الآية على أن المؤمنين لا يجوز أن يخافوا أولياء الشياطين، ولا أن يخافوا الناس، بل يجب عليهم أن يخافوا الله وحده، وذلك هو تحقيق الإيمان بالله[١].

فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سواه، قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ الأحزاب: ٣٩، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف[٢].

فإن من أثر الخوف من الله أنه يمنع من تخويف الشيطان وحزبه، لأنه لا يملك الضر إلا الله، نعم قد يقول أحد: (يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك، فهذا كلام ساقط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا، فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه.

وإذا قيل قد يؤذيني قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله، وإنما يسلط على العبد بذنوبه، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر، ولم يسلطه عليك، فإنه قال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ الطلاق: ٣، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك، كما قال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الأنفال: ٣٣ ...

---

[١] مجموع الفتاوى (٢٠٦/١٤).

[٢] نفس المصدر (٩٤/١).

وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ آل عمران: ١٤٦، والربيون الكثير عند جماهير السلف والخلف، هم الجماعات الكثيرة... والمعنى على قراءة أبي عمرو: أي أن الربيون يقتلون فما وهنوا، أي وما وهن من بقي منهم لقتل كثير منهم، أي ما ضعفوا لذلك، ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم، بل قاموا بأمر الله في القتال حتى أداهم الله عليهم وصارت كلمة الله هي العليا..)[١].

كذلك من أثر الخوف هو أنه كما أسلفنا يدفع إلى فعل المأمور وترك المحظور، بل الخوف هو سوط الله الذي يقوم به الشاردين عن بابه كما قال بعض السلف[٢]، وهو الوازع الذي يردع صاحبه عن الركون إلى الدنيا والاطمئنان بها والغفلة عن الآخرة وعدم الاستعداد لها[٣].

ومن آثار الخوف وثمراته أيضا أنه سبب للتمكين في الأرض في هذه الدنيا، أما في الآخرة أعد الله للمتخلقين به أجرا عظيما، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ إبراهيم: ١٣ – ١٤، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات: ٤٠ – ٤١، وقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمن: ٥، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب، ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله»[٤].

---

[١] نفس المصدر (١/٥٨-٥٩).

[٢] انظر: مدارج السالكين (١/٣٨٢).

[٣] انظر: الإيمان الكبير (ص/١٩-٢٠)، ومجموع الفتاوى (١٤/٢٩٣-٢٩٤).

[٤] الإيمان الكبير (ص/٢١).

وقد مر معنا أيضا أن من أسباب الدخول في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله هو الخوف، وكذلك الخوف سبب الغفران يوم القيامة كما في الحديث الذي أمر أولاده أن يحرقوه، ولما سأله الله ما حملك على هذا؟ قال خشيتك، فغفر الله له، و بهذا يتبين أن أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، وأنه من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يخلقنا بهذا الخلق الكريم.

المبحث الخامس: الرجاء.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الرجاء.

المطلب الرابع: الأسباب الجالبة للرجاء.

المطلب الخامس: لوازم الرجاء.

المطلب السادس: ثمرات الرجاء.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الرجاء بالمد رجاه يرجوه رجْوا ورجاء ورجاوة ومَرجاة ورجاة، فهو من مادة (رج و) التي تدل على الأمل الذي نقيضه اليأس، وهو حالة يأمل فيها الإنسان الشيء الحسن ويتوقع حصوله، وقد عبر عن الخوف بالرجاء، قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح: ١٣، أي لا تخافون الله عظمة، والرجاء لا يكون بمعنى الخوف إلا إذا كان مسبوقا بجحد، أي نفي[١].

أما الرجا بالقصر، فإنه يدل على ناحية الشي، كناحية البئر وحافتها، وكل ناحية رجا، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ ﴾ الحاقة: ١٧.

وأما المهموز، فإنه يدل على التأخير، يقال: أرجأت الشيء؛ أخرته، قال تعالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الأحزاب: ٥١، ومنه سميت المرجئة[٢].

وقد ورد ذكر الرجاء في القرآن الكريم على ستة أوجه:

الأول: الخوف والخشية كما سبق، وذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح: ١٣.

الثاني: الطمع، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ ﴾ الإسراء: ٥٧، يعني يطمعون في رحمته.

الثالث: توقع الثواب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾

---

[١] انظر: لسان العرب (١١٨/٦).

[٢] انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/٤٢٤)، والقاموس المحيط (ص/١٦٦٠)، ولسان العرب (١١٨/٦).

النساء: ١٠٤.

الرابع: الرجا بالمقصور، بمعنى الطرف: وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ﴾ الحاقة: ١٧.

الخامس:الرجاء بالمهموز، بمعنى الترك والتأخير، وذلك في قوله:

﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الأحزاب: ٥١.

السادس: أرجه، أي احبسه، وذلك في قوله: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ الأعراف: ١١١ [١].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

لقد عرف الرجاء بتعاريف كثيرة، مضمونها توقع الخير والطمع في رحمة الله ومغفرته مع فعل الأسباب المشروعة، ومن هذه التعريفات:

قال الراغب: «الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة»[٢].

وقال الجرجاني: «الرجاء في اللغة: الأمل، واصطلاحا: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل»[٣].

وعرفه الغزالي: «حالة إيمانية، يرتاح القلب فيها لانتظار ما هو محبوب عنده»[٤].

---

[١] بصائر ذوي التمييز (٣/٥٠).

[٢] المفردات (ص/٣٤٦).

[٣] التعريفات (ص/١١٢).

[٤] إحياء علوم الدين (٤/١٨٠).

[٣] مجموع الفتاوى (٤/٣٣).

ويشير شيخ الإسلام إلى مفهوم الرجاء، فيقول رحمه الله: «فالرجاء لا يكون إلا بما يلقى في نفسه من الإيعاد بالخير الذي هو طلب المحبوب أو فوات المكروه»[1].

ويقول في كلامه عن الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾، وجاء تفسيرها في الحديث أنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم[2]، فقال شيخ الإسلام: «فهو يرجو أن يكون الله تقبل عمله، فيثيبه عليه، ويرحمه في المستقبل، ويخاف ألا يكون تقبله فيحرم ثوابه...»[3].

وقال ابن حجر رحمه الله: «والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها»[4].

وقد ذكر ابن القيم عدة تعريفات للرجاء، منها:

قيل: «هو الاستشعار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه».

وقيل: «هو الثقة بجود الرب تعالى».

ثم ذكر الفرق بين الرجاء والتمني فقال رحمه الله: «والفرق بينه وبين التمني، أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها، ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه، ويفلحها، ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

---

[1] مجموع الفتاوى (٣٣/٤).

[2] تقدم تخريجه (ص/٣٣٤).

[3] مجموع الفتاوى (٤٥٢/٧-٤٥٣).

[4] فتح الباري (٣٠١/١١).

ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل»[١].

فالخلاصة أن العبد في هذه الحياة بين الطاعة والمعصية، فالطاعة يعملها ويرجو من الله قبولها، وأما المعصية يتوب منها فيرجو من الله قبولها، فهذا هو الرجاء الشرعي، أو بعبارة أخرى؛ الرجاء هو توقع الخير من الله مع الأخذ بالأسباب.

المسألة الثالثة: الرجاء والرغبة.

ومما يؤدي معنى الرجاء الرغبة، وهي في اللغة: الإرادة والسعة.

قال ابن فارس: «رغب: الراء والغين والباء أصلان:

فالأول: الرغبة في الشيء: الإرادة له، وإذا لم ترده قلت: رغبت عنه. والآخر: الشيء الرغيب: الواسع الجوف»[٢].

بل قال بعض العلماء أن أصل الرغبة هو السعة في الشيء، فلا تطلق الرغبة على مجرد الإرادة، بل لا بد من أن يكون هناك نوع من السعة في هذه الإرادة، بأن يسعى صاحبها في الحصول عليها.

قال الراغب:«أصل الرغبة السعة في الشيء، والرغبة، والرغَب والرَّغبي: السعة في الإرادة... فإذا قيل: رغب فيه، وإليه: يقتضي الحرص عليه،.. وإذا قيل: رغب عنه: اقتضى صرف الرغبة عنه، والزهد فيه»[٣].

فالرجاء والرغبة عند الاطلاق يقصد بهما شيء واحد، وهو إرادة الحصول على الشيء المحبوب للنفس، ولكن الرغبة أقوى من الرجاء إذ هي تتضمن معنىً زائداً على مجرد الطمع والإرادة، فهي الطمع والإرادة مع الطلب.

---

[١] مدارج السالكين (٢٧/٢)، وانظر: كتاب الروح (ص/٤٧٤).

[٢] معجم مقاييس اللغة (ص/٣٩٢) باختصار.

[٣] المفردات (ص/٣٥٨).

قال ابن القيم: «الفرق بين الرغبة والرجاء، أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئا هرب منه»، ثم قال:« فالفرق الصحيح أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فإذا قوي الطمع صار طلبا»[1].

إذا، معنى الرجاء والرغبة متقارب، وفي النصوص يطلق أحدهما على الآخر، وكذلك في أقوال العلماء[2]، ولذا لن أفرق بينهما.

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

الرجاء من أجل الأعمال القلبية، وهو أحد أركان العبادة، وهو أحد محركات القلوب الثلاثة، وهو قسيم الخوف، لأن المسلم كما أسلفنا لا بد أن يكون في عبادته ما بين رجاء ثوابها والخوف من عدم قبولها، وعند وقوع الذنب يكون بين خوف عقاب الله ورجاء رحمته.

والناظر في الكتاب والسنة يرى أن أساليب الترغيب والحث على الرجاء مختلفة، فتارة يأتي الأمر بصرف هذه العبادة لله، وتارة يأتي بمدح المتصفين به والثناء عليهم، وتارة نجد أن الله يرغب عباده في الإتيان بهذه العبادة بذكر سعة رحمته وشمول مغفرته، كما ينهى عما يضاد هذه العبادة من اليأس والقنوط، لذا سأذكر هذه الأساليب مع جمع ما تيسر لي من كلام شيخ الإسلام حولها، فأقول:

---

(١) مدارج السالكين (٢/٤٢-٤٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/١٦٤-١٦٦)، و (١٠/٢٥٥-٢٥٧)، والعبودية (ص/٦١-٦٤) .

المسألة الأولى: أمر الله بالرجاء.

فقد وردت نصوص كثيرة في القرآن والسنة بالأمر بالرجاء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف: ٥٦، فأمر الله أن لا نفسد في الأرض بالمعاصي والذنوب، فإن أعظم الفساد في الأرض هو الشرك بالله، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته واتباع سنة نبيه، وكل فساد وشر وفتنة وبلاء، فسببه الإشراك بالله وعبادة غيره ومخالفة نبيه.

ثم أمر الله أن ندعوه، وأن نجمع بين الخوف والرجاء حال الدعاء، فالدعاء يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فالمطلوب من كل عابد وسائل أن يكون خائفا راجيا، فإن من دعاه خوفا وطمعا فهو المحسن، والرحمة قريب منه[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٦.

يأمر الله بالرجاء على لسان نبي من أنبيائه وهو شعيب عليه السلام، إذ قال لقومه ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أي: ارجوا ثواب الله في اليوم الآخرة يا أيها الذين أخلصتم الدين لله وأفردتموه بالعبادة والطاعة، وإن كانت الآية وردت في سياق قصته، فإن حكايات القرآن عن الأنبياء بهذه الصيغة إنما المراد أن يعتبر بها أمة القرآن، فإن الأنبياء متفقون على مسائل التوحيد وإن اختلفت شرائعهم، فالأنبياء جميعهم دعوا إلى التوحيد وإصلاح القلوب وتزكية النفوس، ومن ذلك محبة الله، والخوف منه ومن عذابه، ورجائه ورجاء ثوابه[2].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٥/٢٥-٢٦).

[2] تفسير الطبري (٢٠/٣٤)، وتفسير ابن كثير (٣/٥٤٣)، وانظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٥٤).

وقال النبي ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا و هو يحسن بالله الظن»[1].

وفي الحديث أمر بحسن الظن بالله، وهو الرجاء فيما عند الله من الثواب الجزيل، والطمع في غفرانه يوم الدين، ففي الحديث أمر بدوام حسن الظن بالله والاستعداد للموت بالأعمال الصالحة، لأننا ما ندري متى يفاجئنا الموت، كذلك في الحديث أنه ينبغي في حالة الاحتضار أن يغلب على الإنسان الرجاء على الخوف، إذا لم يبق للخوف كثير معنى، بل قد يؤدي في هذه الحالة إلى اليأس والقنوط.

وفهمنا من هذه النصوص الحث على الرجاء في فضل الله ورحمته، وحسن الظن به، وأنه لا يلقى أحد ربه إلا وهو يحسن الظن ربه.

وينبغي أن نعرف أيضا أن الرجاء عبادة قلبية لا يخلو قلب منها، فإن الإنسان مجبول على إرادة الخير ويرجو تحصيله، كما يكره المكروه ويرجو دفعه، فإذا توجه العبد برجائه إلى من يستطيع نفعه ويدفع عنه ضره فقد هدي، وإذا توجه به نحو من لا يستطيع له ذلك فقد ضل وغوى، فلذا كان الرجاء عبادة قلبية لا يجوز صرفها إلى غير مستحقها، بل يجب صرفها لله الواحد القهار الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن رجا من مخلوق كما يرجو من الله فيما لا يقدر عليه فقد أشرك مع الله غيره، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ النساء: ٤٨، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاءِ بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسبابا، فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيءة الله تعالى»[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٥٣)، في كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله.

[2] مجموع الفتاوى (٢٥٦/١٠).

فيفهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أنه لا يجوز أن تصرف هذه العبادة القلبية لغير الله، وإن كان بعض الخلق يستطيع أن ينفعك وأن يدفع عنك الضر، لكنهم سبب من الأسباب، فالأسباب لا تستقل بنفسها، بل لا بد من سبب آخر، ولا بد من منع المعارض، ولا يملك ذلك كله إلا الله تبارك وتعالى، فتبين من هذا أن نفعهم إياك، ودفع الضر عنك هو في الحقيقة من الله ﷻ، ولهذا يجب تعلق الرجاء به وحده دون سواه.

المسألة الثانية: ثناء الله على أهل الرجاء ومدحهم.

قد مدح الله المؤمنين بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ الإسراء: ٥٧.

يعاتب الله المشركين الجاهلين الذين يعبدون مخلوقات مثلهم، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فضلا عن غيرهم، مع هذا هؤلاء المعبودون هم أنفسهم عابدون لله يتقربون إليه بالأعمال الصالحة التي يحبها الله ويرضاها، ويطمعون في رحمته ويخافون من عقابه، وأخذوا يتسابقون في التقرب إلى الله، وهذا لا شك أنه مدح لهم إذ أتوا بهذه الأعمال الصالحة، ومنها الرجاء الذي نحن في صدد الكلام عنه[1].

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ الزمر: ٩.

وفي هذه الآية مدح لمن اتصف بهذه الصفات، وهي:

---

[1] مجموع الفتاوى (١/١٥٨)، وتفسيرالطبري (١٧/٤٧١)، وتفسير ابن كثير (٣/٦٦)، وتفسير السعدي (ص/٤٦١).

١- القنوت، وهو المداومة على الطاعة[(١)].

٢- الخوف من عذابه، هو معبر عنه هنا بالحذر من الآخرة.

٣- رجاء رحمة الله سبحانه وتعالى.

وفي الآية مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، فليس من اجتهد في العبادة والطاعة بأداء الفرائض والنوافل، مع ذلك هو يخاف من ربه التقصير، ويرجو رحمته والقبول عنده بمن ليس كذلك، لأن هذا قد جمع في العمل الظاهر والباطن، وهذه الطاعة دليل على علم صاحبها وحسن ظن بربه ﷻ، ولهذا عقب تعالى بقوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي (هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيرا، ولا يخافون بسيئها شرا؟ يقول: ما هذان بمتساويين)[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(٣)].

أما الحديث القدسي ففيه بشارة عظيمة لأهل الرجاء، حيث أخبر أنه عند ظن عبده به، فإن أحسن الظن بالله وجده عند حسن ظنه، أي عامله على حسب ظنه وفعل به ما يتوقعه منه، فمن يحسن رجاءه لن يخيب ظنه فيه، ومن ظن به ظن السوء فكذلك.

---

(١) انظر: رسالة في قنوت الأشياء كلها لله ﷻ (١/٥-٨)، ضمن جامع الرسائل لشيخ الإسلام.

(٢) تفسير الطبري (٢١/٢٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٧٤)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٩٨)، في كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها.

ولكن حسن الظن بالله يكون بعمل من الإنسان يقتضي حسن الظن به، وأن الله تعالى يقبل عمله، ويعفو عن تقصيره، وأما أن تحسن الظن بلا عمل فهو من باب التمني على الله، وأسوأ من ذلك أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان[1]، فنسأل الله حسن الظن فيه مقرونا بالعمل الصالح.

المسألة الثالثة: الطمع في رحمة الله ومغفرته، وعدم القنوط منهما.

ومن أساليب القرآن والسنة في الترغيب بالرجاء ما جاء فيهما من ذكر سعة رحمة الله وشمول مغفرته، مما يجعل العبد يبتعد كل البعد عما يضاد الرجاء وهو اليأس والقنوط.

ومما ورد في سعة رحمة الله وشمول عفوه ومغفرته قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ الأنعام: ١٢.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٦.

وقال النبي ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش؛ إن رحمتي غلبت غضبي»[2].

وقال النبي ﷺ: «إن الله ﷻ خلق مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، فبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»[3].

---

[1] انظر: شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣/٣٣٥).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٣٢)، في كتاب بدء الخلق، ومسلم في صحيحه (ص/١١٠١)، في كتاب التوبة، باب ذكر سعة رحمة الله.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٠١)، في كتاب التوبة، باب ذكر سعة رحمة الله.

فذكر الله في هاتين الآيتين أن الله كتب على نفسه الرحمة وأنه سبحانه رحيم بعباده، لا يعجلهم بالعقوبة، بل يقبل منهم الإنابة والتوبة[1]، وأن رحمته وسعت كل شيء، وسع المؤمن والكافر في الدنيا، ويخص الله بها المؤمنين يوم القيامة[2]، كما أخبر النبي ﷺ أن رحمته غلبت غضبه؛ بمعنى أن رحمته أوسع وأشمل من غضبه، وأن لله مائة رحمة، منها رحمة يتراحم بها الخلق في الدنيا، وتسعة وتسعون ادخرها إلى يوم القيامة.

فكل هذه النصوص تجعل العبد طامعا في رحمة الله وراجيا مغفرته، كما يجعل المؤمن بالله المصدق لرسوله مجتنبا اليأس والقنوط من هذه الرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣، وكأن الله يقول أيها العبد الذي تعرف أن الله غفور رحيم، وأن رحمته وسعت كل شيء وغلبت غضبه، مهما فعلت من الذنوب ما عدا الشرك وشعرت بعظمة الباري وسعة رحمته وقدرته حق التقدير لا تقنط من رحمة الله، فإن الله يغفر الذنوب جميعا، كما جاء في الحديث القدسي، قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي»[3].

---

[1] انظر: تفسير الطبري (٢٧٣/١١)، وتفسير البغوي (١٠/٢)، وتفسير ابن كثير (١٧٢/٢) وتفسير القرطبي (٣٣٠/٨)، وتفسير السعدي (ص/٢٥١).

[2] انظر: تفسير الطبري (١٥٦/١٣)، وتفسير البغوي (١٥٧/٢)، وتفسير ابن كثير (٣٣٤/٢-٣٣٥) وتفسير القرطبي (٣٥٠/٩-٣٥١)، وتفسير السعدي (ص/٣٠٥).

[3] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٢/٣٥)، والترمذي في سننه (ص/٨٠٤)، في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، والحديث صححه الألباني في الصحيحة (١٢٧-١٢٨).

فالحاصل أن رحمة الله واسعة، فلا يقنط المؤمن ولا يقطع رجاءه منها، بل يحرص على حصولها بالدعوة الخالصة والعمل الصالح، فنسأل الله أن يرحمنا وأن يجعلنا من الذين خصهم بها، إذ قال تعالى﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

المطلب الثالث

أقسام الرجاء

سبق أن ذكرت التعريف الشرعي للرجاء، وبينت أن العبد في هذه الحياة بين الطاعة والمعصية، فالطاعة يعملها ويرجو من الله قبولها، وأما المعصية يتوب منها فيرجو من الله قبولها، فمن خلال التعريف الشرعي للرجاء نستطيع أن نفهم أن الرجاء المحمود قسمان:

القسم الأول: هو أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله راجيا لثواب الله ورحمته والفوز بدار كرامته.

القسم الثاني: هو رجاء من أذنب ذنوبا ثم تاب منها، فهو يرجو مغفرة الله تعالى له وعفوه عنه وإحسانه له، وجوده وكرمه عليه.

كما ذكرنا أيضا أن الرجاء هو توقع الخير من الله مع الأخذ بالأسباب، فمن لم يأخذ بالأسباب، بل يتمادى في التفريط والخطايا، ويزعم أنه يرجو رحمة ربه بلا عمل، فهذا غرور وتمنٍ، وهذا هو **القسم الثالث** للرجاء، وهو الرجاء المذموم[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن الظن بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا غرور، وما أحسن قول أبي عثمان

[1] انظر: مدارج السالكين (٢/٢٧).

الجيزي[(١)]: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو»[(٢)].

ومن الرجاء ما هو شرك أكبر مخرج من الملة، كما أسلفنا في مبحث أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان، قال الشيخ سليمان: «ومنها الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو غيرهم، راجيا حصول مطلوبه من جهتهم، فهذا شرك أكبر قال الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ٢١٨»[(٣)].

ومنه ما هو طبيعي، وهو أن يرجو شيئا من رجل قادر عليه، مثل ما يرجى من المحسنين قضاء حوائج الأرامل والمساكين واليتامى.

المطلب الرابع

الأسباب الجالبة للرجاء

إن المتأمل في الكتاب والسنة وكلام العلماء عموما وشيخ الإسلام خصوصا، يجد الاعتناء الكبير بأمر الرجاء وذلك بالأمر أن يفرد الله به، وأن لا يشرك فيه معه غيره، وقد وضح شيخ الإسلام رحمه الله أن الواجب على العبد أن لا يقطع نفسه من رحمة ربه، بل يرجوه ويخشى ذنوبه، فإذا كثرت ذنوبه تعلق برجاء المغفرة من الله له مع التوبة منها ومع بذله

---

(١) هو سعيد بن الجهم بن نافع، مولى الحرب بن داحر الأصبحي، ثم السحولي، أبو عثمان الجيزي، مسكنه الجزيرة، ذكره أبو عمر الكندي، قال؛ وكان فقيها من أصحاب مالك، وهو أحد أوصياء الشافعي، توفي سنة ٢٠٩ هـ، انظر: ترتيب المدارك في تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (٢٨٨/٣).

(٢) فتح الباري (٣٠١/١١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص/٢٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٥٦/١٠).

للأسباب، (فإن الخير لا موجب له إلا مشيءة الله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والمعوق له من العبد هو ذنوبه، وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله، وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى، لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببا للنجاة والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه، فإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال؛ لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه[1]، وفي الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ: أنه دخل على مريض فقال: «كيف تجدك ؟ فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال: ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف»[2].

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق، ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيءة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ الشرح: ٧ – ٨، فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ المائدة: ٢٣، فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى

---

[1] أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١/٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/١٠١)، والبيهقي فى شعب الإيمان (١٢/١٩٥).

[2] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٢٣٤)، في كتاب الجنائز، وابن ماجه في سننه (٧٠٦)، في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، والحديث حسنه الألباني في الصحيحة (١٠٥١).

الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب،وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الحج: ٣١.

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ آل عمران: ١٥١، والخالص من الشرك يحصل له الأمن)[1] التام.

وفي هذا المطلب أحاول أن أذكر بعض الأسباب التي يجلب بها الخوف، وفي مقدمة هذه الأسباب لا شك هو العلم والمعرفة بالله وعظمته، وقد تقدم أن الرجاء عبادة قلبية لا يخلو قلب منها، فإن الإنسان مجبول على إرادة الخير ويرجو تحصيله، كما يكره المكروه ويرجو دفعه، فإذا علم أنه لا يستطيع نفعه ولا دفع ضره إلا الله، وأنه على كل شيء قدير، وأنه لا معقب لأمره، وأنه لا معارض لحكمه، بل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وجب عليه أن لا يعلق رجاءه إلا بالله[2].

كذلك، إذا علم العبد المسلم (أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك، وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه.

والرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضرة، فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أوتطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول، كما أنه لا يقدر عليه، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٢٥٥-٢٥٧).

[2] نفس المصدر (١٠/٢٥٦).

الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى . ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ الليل: ١٧ – ٢٠، وقال فيه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ الإنسان: ٩.)[1].

ومن الأسباب الجالبة للرجاء أيضا ما ذكره شيخ الإسلام من مطالعة الكرم والحلم والعفو[2] من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكرنا أنه من أساليب القرآن في ترغيب الناس على الرجاء.

المطلب الخامس

لوازم الرجاء

الرجاء من المزالق الخطيرة، يؤدي سوء الفهم فيه إلى التمادي في المعاصي والمنكرات وترك الجد والاجتهاد وعدم الأخذ بالطاعات.

وحتى لا يصل الأمر إلى هذا الحد لا بد من مراعاة أمرين في الرجاء وهما من لوازمه:

الأمر الأول: اقتران الرجاء بالعمل الصالح.

فإن المتأمل في الكتاب والسنة يجد أن الله قرن بين الإيمان والعمل، وأنه لا يكفي في الدين مجرد الدعوى، بل لا بد من العمل، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠، يخبر الله أن من يرجو رؤيته وثوابه، ويخاف

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٣٠).

[2] نفس المصدر (١/٩٦)

المصير إليه يعمل العمل الصالح ويجتنب الشرك، والعمل الصالح هو ما كان لوجه الله خالصا موافقا لسنة نبيه ﷺ وهو الاحسان كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة: ١١٢، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله وكان محسنا في عمله فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب، ثم هذا هو تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله، ففي الأولى أن لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية أن محمدا هو رسوله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره[1].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ٢١٨، فربط الله في هذه الآية بين الرجاء وهذه الأعمال الثلاثة موضحة أن المتصفين بها هم الراجون رحمة الله في الحقيقة، لأنهم أتو بالأسباب الموجبة للرحمة، أما غيرهم فرجاؤهم ادعاء وتمن، لأنهم لم يقوموا بالأسباب، وهذا بمترلة من يرجو وجود الغلة بلا بذر وسقي، ويرجو وجود ولد بلا نكاح[2].

وكما أن الله ذم المشركين الذين يتمتعون في هذه الدنيا فيأكلون ويلههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة الله فيها وتزودهم لمعادهم منها، قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحجر: ٣[3].

وأختم هذا بكلام لشيخ الإسلام، إذ يقول رحمه الله: «فلا بد (للعبد) من العمل المأمور به، ولا بد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله، وشهود العبد لتقصيره، ولفقره إلى فضل ربه، وإحسان ربه إليه»[1].

---

[1] انظر: العبودية (ص/١٢٩)، والفتاوى الكبرى (٥/٢١٧).

[2] انظر: تفسير الطبري (٤/٣١٩)، ومنهاج القاصدين (٣/١١٤٦)، وتفسير السعدي (ص/٩٨).

[3] انظر تفسير ابن جرير (١٧/٦٥).

الأمر الثاني: اقتران الرجاء بالخوف.

تبين لنا من خلال المسائل السابقة أن المحبة أصل كل عمل ديني، وأن الخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب[٢].

والعبادة ترتكز على هذه الأعمال القلبية الثلاثة، فمن حقق هذه الأعمال المحبة والخوف والرجاء فقد حقق باقي الأعمال، فمن خاف الله واتقاه اتبع رضاه، ومن رجاه لم ييأس من رحمة الله فأقبل على طاعة الله، ومن أحبه لم يلتفت إلى ما سواه، لاكتفائه بمحبوبه عن غيره، ولذا قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «وكره من كره من أهل المعرفة والعلم؛ مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية»[٤].

فمرادهم أن دعوى المحبة بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء دعوى كاذبة، وهذا لأن فيها انبساطا في الأهواء ومن يدعي ذلك كثيرا ما يقع في المعاصي ولا يبالي، بل آل الأمر ببعض هؤلاء إلى الانسلاخ عن الدين كله نسأل الله السلامة.

وكذلك الرجاء وحده أورث العبد غرورا وأمنا من مكر الله، وإذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصي الله .

وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بالله وقنط من رحمته.

---

(١) رسالة في دخول الجنة (١/١٥١)، ضمن جامع الرسائل لشيخ الإسلام.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦١).

(٣) العبودية (ص/٩٣).

(٤) نفس المصدر (ص/٩٣).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات.... والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما كَلَّها شيء، كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الطريق، والرجا حاد يحدوها يطلب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يشوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا»[(١)].

وكما أسلفنا أن الخشية أبدا متضمنة للرجاء، ولو لا ذلك لكان قنوطا، فالرجاء يستلزم الخوف ويقترن به، ولو لا ذلك لكان أمنا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله[(٢)]، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ الإسراء: ٥٧، وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ السجدة: ١٦.

هذا الاقتران بين المقامين في الآيات الكريمات يدل على علاقة تكامل وتلازم وترابط وثيق بينهما، وأن الأصل أن يعتدلا في قلب العبد، ولا يترجح أحدهما على الآخر، مثله في ذلك مثل الطائر في حاجته إلى استواء جناحيه ليصح ويتم طيرانه، فإذا وقع النقص في أحدهما حدث الخلل، وإذا انتفيا بالكلية صار الطائر إلى حتفه وموته[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٠-٢١).

(٢) الإيمان الكبير (ص/٢٠).

(٣) انظر: الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (٢/٣٢٨)، ومدارج السالكين (٢/٢٧-٢٨)، وعبودية القلب (١/٣٢٦).

وكذلك لو نظرنا في الأحاديث النبوية وجدنا أن رسول الله ﷺ يقرن بين الخوف والرجاء مما يدل على تناسبهما وأنهما مهمان في حياة المسلم، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت، فقال؛ «كيف تجدك؟ قال؛ والله، يا رسول الله، إني أرجو الله، و إني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله؛ لا يجتمع في قلب عبد في هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»[1].

وقال النبي ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته»[2].

قال ابن حجر رحمه الله: «قوله (الرجاء مع الخوف) أي؛ استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، و لا في الخوف عن الرجاء، لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكل منهما مذموم»[3].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحدا، فأيهما غلب هلك صاحبه ونص عليه الإمام أحمد، لأن من غلب خوفه وقع في نوع من اليأس، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله»[4].

نعم، فالرجاء وحده يورد العبد غرورا وأمنا من مكر الله، وإذا استرسل فيه العبد وخلا قلبه من الخوف تجرأ على معاصي الله.

---

(1) تقدم تخريجه (ص/٣٦٢).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٢٢)، في كتاب الرقاق، باب الرجاء مع الخوف، ومسلم في صحيحه (ص/١١٠٢)، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله

(3) فتح الباري (٣٠١/١١).

(4) الفتاوى الكبرى (٣٥٩/٥).

فالحاصل أن العبد ينبغي أن يسعى إلى الله بين الخوف والرجاء اللذين يستلزمان المحبة، لكن هل يغلَب الإنسان جانب الرجاء أو جانب الخوف، اختلف العلماء في ذلك على أقوال، أذكرها بإيجاز[1]:

١- منهم من قال: يغلب جانب الرجاء مطلقا، ليكون متفائلا ومحسنا للظن بربه، لأن الله عند ظن عبده به.

٢- ومنهم من قال: يغلب جانب الخوف مطلقا، ليكون أدعى للعمل، ويحمله على اجتناب المعاصي.

٣- ومنهم من قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاءه سواء، لأن إذا غلب جانب الرجاء أمن من مكر الله، وإن غلب جانب الخوف يئس من رحمة الله، وكلهما مذموم، ويؤيد هذا القول الآيات والأحاديث الكثيرة التي جاءت بالجمع بينهما.

ويؤيد هذا القول أيضا قصة الشاب الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو يحتضر، كما سبق.

ومما يؤيد هذا القول أيضا أن الحافظ ابن حجر حكى الاتفاق على استحباب التسوية بينهما في حال الصحة، فإن ثبت هذا الاتفاق فهو يدل على أن التسوية تكون في غيرها من الحالات أيضا، استدلالا باستصحاب حكم الإجماع في محل النزاع[2].

وبهذا القول قال الإمام أحمد، قال رحمه الله: «ينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجائه واحدا، فأيهما غلب هلك صاحبه»[3].

---

(١) انظر هذه الأقوال في الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (٣٢٠/٢)، ومدارج السالكين (٣٨٥/١-٣٨٦)، وفتح الباري (٣٠١/١١)، والتخويف من النار (ص/٢٥-٢٦)، وشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣٣٨/٣).

(٢) قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/٧٣).

(٣) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١١٨/٢).

كذلك هو قول شيخ الإسلام رحمه الله، وقد سبق نقل كلامه قريبا، وأيضا حين سئل رحمه الله عن قول مطرف بن عبد الله[1]: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا»، قال شيخ الإسلام معلقا على قوله: «وهو كلام صحيح»[2].

وقال ابن رجب رحمه الله: «فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنهما يتساويان، لا يرجح أحدهما على الآخر، قال المطرف والحسن وأحمد»[3].

٤- ومنهم من قال: في حالة الصحة يكون خوفه ورجاءه واحدا، وفي حال المرض يغلب الرجاء، وهذا اختيار النووي رحمه الله إذ قال: «اعلم أن المختار في حال الصحة أن يكون خائفا راجيا، ويكون خوفه و رجاءه سواء، وفي حال المرض يُمحّض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك»[4].

٥- ومنهم من قال: إذا كان في طاعة فليغلب الرجاء وأن الله يقبل له، وإذا كان عند المعصية فليغلب الخوف، لئلا يتقدم على المعصية، ويشكل على هذا القول قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ المؤمنون- ٦٠، وقد تقدم أن هؤلاء في طاعة، يصلون ويتصدقون ويصومون مع ذلك يخافون أن لا يقبل منهم.

٦- ومنهم من قال: في حالة الصحة يغلب جانب الخوف ليكون أدعى إلى الازدياد من العمل واجتناب المعاصي، وفي حالة المرض يغلب جانب الرجاء لأنه حنيئذ لا يطيق العمل

---

[1] هو مطرف بن عبد الله بن الشخير بن ربيعة العقيلي رضي الله عنه، تابعي مشهور، ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كان ذا عبادة وورع، توفي سنة ٨٧ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (١٤٢/٩)، والسير (١٨٧/٤).

[2] مجموع الفتاوى (٣٧٩/١٨).

[3] التخويف من النار (ص/٢٥).

[4] رياض الصالحين (ص/١٦٨).

ودواعي الشر قد قلّت و لم يبق في هذه الحالة للخوف كثير معنى، فعليه أن يحسن الظن بالله كما جاء في الحديث، قال النبي ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[1].

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «الخوف أفضل من الرجاء ما دام العبد صحيحا، فإذا نزل به الموت، فالرجاء أفضل»[2].

٧- ومنهم من قال: إذا أمن داء القنوط فالرجاء أولى، وإن أمن داء المكر فالخوف أولى.

يقول الغزالي: «والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل»، ثم قال: «وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل، فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي، فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه، وخفيه وجليه، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاءه»[3].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «والإنسان ينبغي أن يكون طبيب نفسه، إذا رأى من نفسه أنه أمن من مكر الله، وأنه مقيم على معصية الله، ومتمن على الله الأماني، فيعدل عن هذه الطريق، وليسلك طريق الخوف.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٥٣)، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.

(٢) حلية الأولياء (٨٩/٨).

(٣) إحياء علوم الدين (٢٠٧/٤).

وإذا رأى أن فيه وسوسة، وأنه يخاف بلا موجب، فيعدل عن هذا الطريق وليغلب جانب الرجاء حتى يستوي خوفه ورجاؤه»[1].

المطلب السادس

ثمرات الرجاء

إن الله خلق الخلق الجن والإنس لعبادته، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، بل إنه سبحانه خلق الملائكة أيضا لعبادته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠.

فالعبادة أنواع كثيرة، كما قال شيخ الإسلام في تعريفها: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[2]، والعبادات القلبية التي تكون في القلوب، من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة التي يجب إفرادها لله تعالى وهذا هو معنى التوحيد، فالناظر في كلام شيخ الإسلام حين تكلم عن أعمال القلوب يجد أنه يركز على هذا الجانب كثيرا، بل جلّ كلامه منصب في هذا الموضوع.

فأقول إن من الأعمال القلبية التي يجب إخلاصها لله هو الرجاء كما أسلفنا، لأنه بذلك تتحقق العبودية التي خلقنا الله من أجلها وهذا من أعظم ثمرات الرجاء وفوائده، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، ويأسه منه يوجب غناء قلبه عنه، كما قيل؛ استغن عمن شيءت تكن نظيره،

---

[1] شرح رياض الصالحين (٣/٣٣٩).

[2] العبودية (ص/١٧).

وأفضل على من شيءت تكن أميره، واحتج إلى من شيءت تكن أسيره، فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له.

وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولايرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رياسته وجنوده، واتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه، وملِكه، وشيخه، ومخدومه، وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ الفرقان: ٥٨»[1].

بل عدم إخلاص الرجاء لله وتعليق القلب بغيره يورث للعبد الخيبة والذلة والخذلان، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «اعتماده (الإنسان) على المخلوق، وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضا معلوم بالاعتبار والاستقراء، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ مريم: ٨١ – ٨٢»[2].

وفي ذلك – أن من رجا مخلوقا في شيء ذل من تلك الجهة – أمثلة كثيرة، منها أنك تجد (طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم)[3].

---

[1] العبودية (ص/٦٦-٦٧).

[2] مجموع الفتاوى (٢٩/١).

[3] العبودية (ص/٧١).

ومن أمثلة ذلك أيضا أنك تجد (الرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيرا لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لا سيما إذا درت بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن)[1].

فمن حقق التوحيد وأخلص الرجاء لله، فالله يجعل له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، بل من كمال إحسان الله إلى عباده أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد[2].

فأسأل الله أن يجعلنا من محققي التوحيد، وأن يجعلنا ممن يعبدون الله بالمحبة والخوف والرجاء، وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

---

[1] العبودية (ص/٦٧).

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٣٣١-٣٣٢).

المبحث السادس: الصدق.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: مراتب الصدق.

المطلب الرابع: ثمرات الصدق.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الصدق بالكسر والفتح، هو من مادة (ص د ق) التي تدل على قوة في الشيء قولا وغيره، ومن ذلك الصدق الذي خلاف الكذب، سمي بذلك لقوته في نفسه، لأن الكذب لا قوة له بل هو باطل.

وأصل هذا من قولهم؛ شيء صَدْق أي: صلب ، ورمح صَدق، يقال؛ صدقوهم القتال، وفي ذلك كذبوهم.

ويقال؛ صَدَق في الحديث وصَدَق الحديث، أي تصادقا في الحديث بحيث أنبأ بعضهم بعضا بالصدق، والمصَدِّق الذي يصدّقك في حديثك، أي يقبل قولك.

ويقال؛ رجل صَدق أي صالح كامل، نقيض رجل سوء، ورجل صدوق أبلغ من الصادق، والصدّيق الدائم التصديق والملازم له.

ويقول؛ صادقت فلانا، أي خاللته واتخذته صديقا، أي أخلص له المودة، والصدقة ما يخرج من المال على وجه القربة، لأنها تظهر صدق العبودية، والصداق هو ما يعطى للمرأة عند الزواج، وسمي بذلك لدلالته على صدق الرغبة[1].

فالناظر في المعاجم اللغوية وتعريف مادة (صدق) ومشتقاتها، يجد أن (صدق) تحتوي على معاني الكمال والخلوص والشدة.

فالصدق في القول يدل على كمال شخصية القائل.

والصدق في العمل يدل على خلوص النية وشدة التحمل.

---

[1] انظر معجم مقاييس اللغة (ص/٥٦٥)، والقاموس المحيط (ص/١١٦١)، ولسان العرب (٨/٢١٤).

والصادق هو المخلص المستقيم.

والصدقة تدل على صدق الإيمان[١].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

تقدم في تمهيد هذه الرسالة، أن الإيمان لا يرادفه التصديق، وعلى فرض تسليم الترادف بينهما قلنا أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال والأعمال.

فنظرا لأقوال العلماء في تعريف الصدق نرى أن منهم من يخص الصدق في الأقوال بناء على معناه اللغوي، ومنهم من يبين أن الصدق يكون في قول القلب وعمله، وفي قول اللسان وأعمال الجوارح.

فمن الأول، يقول الراغب: «الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا»[٢].

ويقول الماوردي[٣]: «الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه»[٤].

ويقول ابن عقيل[١]: «هو الخبر عن الشيء على ما هو به، وهو نقيض الكذب»[٢].

---

[١] الصدق في القرآن الكريم (ص/١٦)، تأليف مذكر محمد عارف، وانظر: أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (٢٧٦/١).

[٢] المفردات (ص/٤٧٨).

[٣] هو علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى قضاة عصره، صاحب التصانيف الكثيرة، ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جعل أقضى القضاة في أيام القائم بأمر الله العباسي، كان يميل إلى مذهب الاعتزال، له كتاب النكت والعيون في التفسير، والحاوي في فقه الشافعية، وغيرها. ولد سنة ٣٦٤ هـ، وتوفي سنة ٤٥٠ هـ. انظر: طبقات الشافعية (٢٦٧/٥)، والسير (٦٤/١٨)، والأعلام (٣٢٧/٤).

[٤] أدب الدينا والدين (ص/٢٧١).

ويقول الغزالي في تعريف الصادق، هو: «من حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، فهو صادق»[٣].

ومن الثاني، قال القشيري: «الصدق أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب»[٤].

ويقول عبد الواحد بن زيد[٥]: «الصدق الوفاء لله بالعمل»[٦].

ويقول أبو المظفر السمعاني[٧]: «قلنا الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو به، والكذب الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به، و هذا حد المتكلمين، والأولى أن نقول إذا كان المخبر على ما تضمنه الخبر فهو صدق»[٨].

---

(١) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي، الحنبلي المتكلم، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٣١ هـ. قال الذهبي: كانوا ينهونه عن مجالسة المعتزلة، ويأبى حتى وقع في حبائلهم، وتجاسر على تأويل النصوص، نسأل الله السلامة، انظر: السير (١٩/٤٤٣).

(٢) الواضح (١/١٢٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٥/١٢١).

(٤) التعريفات (ص/١٣٥).

(٥) هو عبد الواحد بن زيد البصري، أبو عبيدة، الزاهد، شيخ العباد، حدث عن الحسن، وعطاء وغيرهما، قال ابن حبان: كان ممن غلب عليه العبادة حتى غفل عن الإتقان، فكثرت المناكير في حديثه توفي بعد سنة ١٥٠ هـ، انظر: الحلية (٦/١٥٥)، والسير (٧/١٧٨).

(٦) مدارج السالكين (٢/٢٠٣).

(٧) هو العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، أبو المظفر منصور ابن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني، المروزي. له تفسير السمعاني، والانتصار لأصحاب الحديث، والمنهاج لأهل السنة، وغيرها. ولد سنة ٤٢٦ هـ. وتوفي سنة ٤٨٩ هـ. انظر: طبقات الشافعية (٥/٣٣٥) ، والسير (١٩/١١٤)، والأعلام (٧/٣٠٣).

(٨) قواطع الأدلة (١/٢٣١).

يقول ابن القيم رحمه الله: «الصدق هو حصول الشيء وتمامه، وكمال قوته، واجتماع أجزائه»[١]، ويقول أيضا: «فالصدق في الأقوال؛ استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها، والصدق في الأعمال؛ استواء الأعمال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد، والصدق في الأحوال؛ استواء أعمال القلوب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع وبذل الطاقة»[٢].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: "كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه"[٣].

ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة جازمة، ويقال فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك، ولهذا يريدون بالصادق؛، الصادق في إرادته وقصده وطلبه وهو الصادق في عمله، ويريدون الصادق في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذبا في خبره، أو كاذبا في عمله كالمرائي في عمله»[٤].

ومما سبق نخلص إلى أن الصدق هو موافقة القول والعمل للاعتقاد، مع تحري الاستقامة في كل الأحوال[٥].

---

[١] مدارج السالكين (٢/٢٠٧).

[٢] نفس المصدر (٢/٢٠٠).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٨٧)، في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٦٥)، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره.

[٤] التحفة العراقية (ص/٣٠٦).

[٥] انظر: الصدق في القرآن الكريم، دراسة موضوعية (ص/٢٢).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

إن الصدق خلق كريم، ومنه تنشأ جميع منازل السالكين، وهو الطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، فهو قرين الإخلاص، وهو من شروط لا إله إلا الله – وهو أن يقولها صادقا من قلبه يواطئ قلبه لسانه –، وهو في الحقيقة تحقيق الإيمان، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فأساس النفاق الذي ينبني عليه هو الكذب.

والناظر في الكتاب والسنة يجد الاهتمام الكبير بخلق الصدق، يتجلى هذا الاهتمام في تعدد أساليب عرضه، وتنوع تناوله له، فأحيانا نجد أن الله يأمر بالصدق وينهى عن ضده، وأحيانا يمدح المتصفين به ويثني عليهم، وأحيانا يذكر الله ما أعد لهم من النعيم، كل هذا مما يزيد لهذا العمل أهميته ويرغب النفوس بالتخلق به، وكما هي عادتي في هذا المطلب أحاول أن أذكر بعض نصوص الكتاب والسنة موضحا لها بما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

المسألة الأولى: الأمر بالصدق والنهي عن ضده.

إن الصدق خلق يمثل الحق الذي تنتظم به الحياة الفردية والجماعية، وبه تتحقق السعادة الدنيوية والأخروية، وهو خلق يعتصم به الفضلاء الأصفياء الأوفياء، يرتفعون به عن الخلود إلى الأرض واتباع الهوى والشهوات.

وإن الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، وتباين ثقافاتهم وغاياتهم ومذاهبهم، وتباعد زمانهم ومكانهم، كلهم يجلون هذا الخلق الكريم، ولا يرضون أن ينتسبوا إلى ضده، ولو كان واقع حياتهم يخالفه أو يحيد عنه[1].

والمهتم بالشرع والمطلع عليه يعرف (أن الشرع أمر بالواجبات العقلية وأوجبها، كما أوجب الصدق والعدل، وحرم الكذب والظلم)[2]، والقرآن الكريم في عدد من آيات يأمر بالصدق وأن نكون من أهله، وينهى عن الكذب ويقبحه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة: ١١٩.

هذه الآية والآيات قبلها في السورة، تتكلم عن توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «هذه الآية نزلت في قصة كعب بن مالك لما تخلف عن غزوة تبوك، وصدق النبي ﷺ في أنه لم يكن له عذر، وتاب الله عليه ببركة الصدق وكان جماعة أشاروا عليه بأن يعتذر ويكذب كما اعتذر غيره من المنافقين وكذبوا، وقوله تعالى ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي كونوا معهم في الصدق وتوابعه، فاصدقوا كما يصدق الصادقون ولا تكونوا مع الكاذبين»[3].

قال ابن كثير رحمه الله: «فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرجا»[4].

---

[1] الصدق في القرآن الكريم (ص/٥٢).

[2] الفتاوى الكبرى (٣٤٩/٦).

[3] منهاج السنة (١٩٣/٧-١٩٤)، بتصرف يسير.

[4] تفسير ابن كثير (٥٢٢/٢)، وانظر: تفسير السعدي (ص/٣٥٥)،

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ الأحزاب: ٧٠، يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقول ﴿ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ أي؛ مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف»[1] .

قال شيخ الإسلام في شرحه لمعنى السديد المذكور في الآية: «﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾، قولوا قَصدا حقا، وعن ابن عباس صوابا، وعن قتادة ومقاتل[2] عدلا، وعن السدي مستقيما، وكل هذه الأقوال صحيحة، فإن القول السديد هو المطابق الموافق، فإن كان خبرا كان صدقا مطابقا لمخبره لا يزيد ولا ينقص، وإن كان أمرا كان أمرا بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص، ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل»[3].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ ﴾ الأنعام: ١٥٢ لقد ورد هذا الأمر الإلهي في سياق مجموعة من وصايا الله ﷻ للناس، يأمرهم أن يطبقوها في حياتهم، لأنها هي الصراط المستقيم الذي تستقيم به حياتهم وتنتظم أمورهم على ما يرضي الله سبحانه، ومن هذه الوصايا ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ ﴾، أي فاصدقوا في الحكم والشهادة، ومنهم من يجعله عاما مطلقا يدخل كل ما يتصل من القول والعمل[4].

وتساند هذه الآيات في الأمر بخلق الصدق أقوال المصطفى ﷺ، لتؤكد المنزلة الرفيعة لهذ العمل القلبي الجليل، قال النبي ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم

---

[1] تفسير ابن كثير (٣/٦٨٤).

[2] هو مقاتل بن سليمان، كبير المفسرين أبو الحسن البلخي، قال الذهبي: قال ابن المبارك – وأحسن –: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة! توفي سنة نيف وخمسين ومائة، انظر: السير (٧/٢٠١).

[3] مجموع الفتاوى (١٧/٢٣٠).

[4] انظر: تفسير البغوي (٢/٧٩)، وتفسير ابن كثير (٢/٢٥٦)

والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[1].

فهذا الحديث لخص لنا مترلة الصدق في الإسلام، إذ أمر الرسول ﷺ بالصدق وبين أنه يوصل إلى البر، و (البر اسم جامع للخير كله)[2]، والبر يوصل إلى الجنة.

ثم نهى عن الكذب وبين خطورته بأنه يوصل إلى الفجور، و (الفجور اسم جامع لجميع أنواع الشر)[3]، والفجور يوصل إلى النار، ولهذا قال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها»[4].

فالصدق أصل للخير وأعظمه الصدق على الله، والكذب أصل للشر وأعظمه الكذب على الله[5]، لهذا يقول الله مبينا شناعة هذا الكذب فيقول تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ الزمر: ٣٢، يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول الله ﷻ مخاطبا المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا - تعالى عن قولهم علوا كبيرا -، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال ﷻ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ أي؛ لا أحد أظلم من هذا،

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٣)، في كتاب الأدب، باب قول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ ومسلم في صحيحه (ص/١٠٤٨)، في كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

[2] فتح الباري (٥٠٨/١٠).

[3] نفس المصدر (٥٠٨/١٠).

[4] التحفة العراقية (ص/٣٠٠).

[5] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١٢٨/١)، بتصرف يسير.

لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله وكذّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال جلّت عظمته متوعدا لهم ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وهم الجاحدون المكذبون»[1].

ومما يبين شناعة الكذب عموما، ما ورد عن المصطفى ﷺ في بيان صفات المنافقين، إذ يقول رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»[2]، بينما يقول في حديث آخر: «آية المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[3].

ففي هذين الحديثين تحذير شديد عن الكذب الذي هو ضد الصدق، وأنه من علامات المنافقين، ومما يزيد الأمر ترهيبا من الكذب أنه عند التأمل في الحديث الثاني نجد أن هذه الخصال الثلاثة كلها مشتملة على الكذب، فما خلف الوعد والخيانة إلا ضربان من الكذب في الأفعال[4]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «قلت (شيخ الإسلام) الغدر ونحوه داخل في الكذب»[5].

---

(1) تفسير ابن كثير (٤/٦٩)، وانظر: تفسير السعدي (ص/٧٢٤)، وانظر: منهاج السنة (٧/١٣٤).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/٥٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/٥٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق.

(4) الصدق في القرآن الكريم (ص/٩٨).

(5) العقيدة الأصفهانية (ص/١٣١).

المسألة الثانية: مدح المتصفين بالرجاء والثناء عليهم.

سبق أن ذكرنا أن الصدق من الحسنات التي تثمر الحسنات، وأنه الفارق بين المؤمن والمنافق، لأن الأصل الذي ينبني عليه النفاق هو الكذب، و (لهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق، كما قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الحجرات: ١٤ - ١٥، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الحشر: ٨، فأخبر أن الصادق في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يعقب إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم...

وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الإيمان في قوله: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٧.

وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ البقرة: ١٠، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

لَكَٰذِبُونَ ﴾ المنافقون: ١، وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ التوبة: ٧٧، ونحو ذلك في القرآن كثير)[١].

يفهم من كلام شيخ الإسلام أن الذين أتوا بهذه الأعمال الصالحة المذكورة في الآيات المتقدمة المختتمة بالصدق أن هؤلاء ﴿ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ وحققوا الإيمان واجتازوا الاختبار الذي اقتضته حكمته؛ وهي أن من يدعي الإيمان لابد أن يبتلى ويمتحن، لكي يعرف الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ العنكبوت: ١ – ٣، ولا شك أن هذا مدح للمتصفين بالصدق.

كذلك الصدق هي الدرجة التالية بعد النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، فالصديقون هم في الدرجة التي تلي الأنبياء في الفضل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ النساء: ٦٩[٢]، وهؤلاء هم المعنيون في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٦ - ٧، نسأل الله أن يهدينا إلى اتباع صراطهم.

المسألة الثالثة: بيان ثواب الصادقين.

إن الصدق عنوان الإسلام وميزان الإيمان وعلامة الكمال، والصدق يهدي إلى البر الجامع لأبواب الخير كلها الموصلة إلى جنات النعيم ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ الانفطار:٣١،

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٠٣-٣٠٥)، باختصار.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/١٧)، وانظر: (٤/٣٣٩).

والكذب الممقوت الداعي إلى الفجور الجامع لأبواب الشر كلها المؤدية إلى نار جهنم ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ الانفطار: ١٤ .

فالصدق في الأقوال والأعمال من أبرز صفات المؤمنين التي يتميزون بها عن غيرهم في الدنيا والآخرة، ومن أجل ذلك وعدهم الله جنات النعيم، وأوجب لهم الخلود فيها، ورضي الله عنهم لصدقهم في معاملته، ورضوا عنه بجزيل ثوابه ففازوا بأعظم مطلوب، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ المائدة: ١١٩.

نعم، الذين اتصفوا بالصدق هم المتقون المحسنون، لهم ما يشاءون عند ربهم، يكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذين كانوا يعملون، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۞ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الزمر: ٣٣ – ٣٤، وقد اختلف أهل العلم من المراد بالذي جاء بالصدق وصدق به على أقوال:

- منهم من قال: الذي جاء بالصدق هو رسول الله، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون.
- منهم من قال: الذي جاء بالصدق هو رسول الله، والصدق لا إله إلا الله، والمصدق به أيضا رسول الله.
- ومنهم من قال: الذي جاء بالصدق هو رسول الله، والمصدق هو أبو بكر.
- ومنهم من قال: الذي جاء بالصدق جبريل، والصدق القرآن، والمصدق به رسول الله.

- ومنهم من قال: الذين جاؤوا بالصدق هم المؤمنون، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون، وقد رجح القول الأخير الطبري رحمه الله[1].

و (قد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٠ ، وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ الشعراء: ٨٤، وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ القمر: ٥٤ - ٥٥.

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء، هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًا ثابتًا بالله، وفي مرضاته.وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ مريم: ٥٠.

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة.

وأما مقعد الصدق فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[2].

---

[1] انظر: تفسير الطبري (٢٨٩/٢١)، وتفسير البغوي (١٧/٤)، وتفسير القرطبي (٢٧٨/١٨)، وتفسير ابن كثير (٦٩/٤)، ومنهاج السنة (١٣٢/٧-١٣٤).

[2] مدراج السالكين (٢٠٠/٢-٢٠٢)، باختصار

المطلب الثالث

مراتب الصدق

سبق أن قررنا أن الصدق يكون في الأقوال وفي الأعمال، وبحسب تحقيق مجالات الصدق يتفاوت الناس، وهم فيه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: الصادق.

المرتبة الثانية: الصدوق.

المرتبة الثالثة: الصديق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية: وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسل[(١)]، والفرق بين الصادق والصديق كما يقول الماوردي هو: «أن الصادق في قوله بلسانه، والصديق من تجاوز لسانه إلى صدق أفعاله في موافقة حاله، لا يختلف سره وجهره، فصار كل صديق صادقا، وليس كل صادق صديقا»[(٢)]، ويشير إلى هذا المعنى شيخ الإسلام إذ يقول رحمه الله: «فالصديق قد يراد به الكامل في الصدق، وقد يراد به الكامل في التصديق، والصديق (يريد أبا بكر) ليست فضيلته في مجرد تحري الصدق، بل في أنه علم ما أخبر به النبي ﷺ جملة وتفصيلا، وصدق ذلك تصديقا كاملا في العلم والقصد والقول والعمل»[(٣)].

و (لذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ذروة سنام الصديقية، سمي الصديق على الاطلاق، والصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق)[(٤)].

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٠٠).

(٢) تفسير الماوردي (٣/٤٣).

(٣) المنهاج (٤/٢٦٦-٢٦٧).

(٤) مدارج السالكين (٢/٢٠٠).

والصديق: الدائم التصديق، المبالغ في الصدق[1]، وأحسن ما يفسر به الصديق هو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ الزمر: ٣٣، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ الحديد: ١٩، وقول النبي ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق، لتفاضل ما بينهم»، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى - والذي نفسي بيده - رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»[2]، يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، في كمال طاعتهم لله ولرسوله، فقيامهم بهذه الأمور به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين»[3].

وكما تفاوت أهل الصدق في صدقهم وأنهم على مراتب، فمنهم الصادق، ومنهم الصدوق ومنهم الصديق، فكذلك الصديقون أنفسهم يتفاوتون في ما بينهم، لأن مجالات الصدق كثيرة، فأكملهم صدقا الصحابة رضوان الله عليهم، وأفضل الصديقين بعد الأنبياء هو أبو بكر الصديق ﷺ، يقول شيخ الإسلام رحمه الله وهو يتكلم عن الصوفية أنهم يطلقون لفظ الصوفي على الصديق، يقول رحمه الله: «لكن هو (الصوفي)[4] في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال: صديقو العلماء وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

---

[1] معجم مقاييس اللغة (ص/٥٦٥).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٤٣)، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ومسلم في صحيحه (ص/١١٣٨)، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

[3] التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص/٤٤-٤٥).

[4] يقصد شيخ الإسلام بالصوفي هنا الذي اشتهر بالزهد والعبادة، كما كان اطلاق هذا الاصطلاح في بداية أمرهم، كما سنبين هذا حين يأتي مبحث الرد على الصوفية.

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين: إنهم صديقون، فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضا، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم، والصديقون درجات وأنواع»[1]، «وأبو بكر أفضل الصديقين»[2].

والصديقية مرتبة تكون للرجال والنساء، ولهذا قال تعالى في عيسى بن مريم ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ المائدة: ٧٥، ويقال عن عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق، والله يمنّ على من يشاء من عباده[3].

كذلك منزلة الصديقين تأتي بعد منزلة الأنبياء في الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ النساء: ٦٩.

بل الصديق أفضل من المحدَّث[4]، كما قرر ذلك شيخ الإسلام في أكثر من موضع، وبيان ذلك أن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم ﷺ كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم، بل حين تكلم شيخ الإسلام عن قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/١٧).

(٢) نفس المصدر (٢/٢٢٤).

(٣) انظر أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (١/٢٨١-٢٨٣).

(٤) اختلف أهل العلم في تأويل المحدث، فقيل: هو الملهم، قاله أكثر العلماء، وقيل: المحدث هو الرجل الصادق الظن، وهو من ألقي في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى، فيكون كالذي حدثه غيره به، وقيل: من يجري الصواب على لسانه من غير قصد، وقيل: المحدث هو المكلَم أي تكلمه الملائكة بغير نبوة، انظر: فتح الباري (٧/٥٠).

ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ الحج: ٥٢، قال رحمه الله: «والقراءة العامة ليس فيها المحدث، إذ يجوز أن يقرّ على بعض الخطأ ويدخل الشيطان في أمنيته بعض ما يلقيه فلا ينسخ، بخلاف الرسول والنبي، فإنه لا بد من نسخ ما يلقي الشيطان وأن يحكم الله آياته لأنه حق والمحدث مأمور بأن يعرض ما يحدثه على ما جاء به الرسول»[١]، وقال في موضع آخر: «فقد ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته ولم يضمن ذلك للمحدث»[٢]، وذكر شيخ الإسلام لذلك شواهد كيف كان أفضل الصديقين – وهو أبو بكر – أعلم ورأيه أصوب من رأي أفضل المحدَّثين – وهو عمر الفاروق – رضي الله عنهما، مما يبين درجة الصديقين العالية في المؤمنين[٣].

المطلب السادس

ثمرات الصدق

إن المسلم لا ينظر إلى الصدق كخلق فاضل يجب التخلق به لا غير، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، يذهب إلى أن الصدق من متممات إيمانه، ومكملات إسلامه، فإن الله تعالى أمر به، وأثنى على المتصفين به، ورتب على المتخلقين به ثوابا وأجرا جزيلا، وبهذا يتبين أن للصدق ثمرات طيبة يجنيها الصادقون في الدنيا والآخرة.

(فالصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها ويظهر ذلك من وجوه:

---

[١] مجموع الفتاوى (٢/٥٢).

[٢] نفس الصدر (١١/٦٥).

[٣] انظر على سبيل المثال مجموع الفتاوى (٢/٢٢٧)، و (١١/٦٥) ، (١١/٢٠٧)، و (١١/٤٢٩)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/١٥٧) وما قبلها.

أحدها: أن الإنسان هو حي ناطق، فالوصف المقوّم له الفاصل له عن غيره من الدواب هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، والخبر صحته بالصدق وفساده بالكذب، فالكاذب أسوأ حالا من البهيمة العجماء، والكلام الخبري هو المميز للإنسان وهو أصل الكلام الإنشائي، فإنه مظهر العلم والإنشاء مظهر العمل، والعلم متقدم على العمل وموجب له.

فالكاذب لم يكفه أنه سلب حقيقة الإنسان حتى قلبها إلى ضدها ولهذا قيل: لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا إخاء لملوك، ولا سؤدد لبخيل، فإن المروءة مصدر المرء كما أن الإنسانية مصدر الإنسان .

الثاني: أن الصفة المميزة بين النبي والمتنبئ هو الصدق والكذب، فإن محمدا رسول الله الصادق الأمين، ومسيلمة الكذاب، قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الزمر: ٣٢ – ٣٣.

الثالث: أن الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فإن أساس النفاق الذي بني عليه الكذب، وعلى كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة والكذب، وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقا، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

الرابع : أن الصدق هو أصل البر، والكذب أصل الفجور، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا».

الخامس: أن الصادق تنزل عليه الملائكة، والكاذب تنزل عليه الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣ .

السادس: أن الفارق بين الصديقين والشهداء والصالحين وبين المتشبه بهم من المرائين والمسمعين والملبسين، هو الصدق والكذب.

السابع: أنه مقرون بالإخلاص الذي هو أصل الدين في الكتاب...[1]، وكلام العلماء والمشايخ، قال الله تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۞ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ الحج: ٣٠ – ٣١، وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئا فجلس فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[2].

الثامن: أنه ركن الشهادة الخاصة عند الحكام، التي هي قوام الحكم والقضاء، والشهادة العامة في جميع الأمور، والشهادة خاصة هذه الأمة التي ميزت بها في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٤٣، وركن الإقرار الذي هو شهادة المرء على نفسه، وركن الأحاديث والأخبار التي بها يقوم الإسلام، بل هي ركن النبوة والرسالة التي هي واسطة بين الله وبين خلقه، وركن الفتيا التي هي إخبار المفتي بحكم الله، وركن المعاملات التي تتضمن أخبار كل واحد من المتعاملين للآخر بما في سلعته، وركن الرؤيا التي قيل فيها: أصدقهم رؤيا أصدقهم كلاما، والتي يؤتمن فيها الرجل على ما رأى.

---

[1] بياض في الأصل قدر كلمة، ولعلها «والسنة» (المحقق).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٣٠)، في كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ومسلم في صحيحه (ص/٦٣)، في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

التاسع: أن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق كما جاء في الأثر: أساس النفاق الذي بني عليه الكذب، وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، ووصف الله المنافقين في القرآن بالكذب في مواضع متعددة، ومعلوم أن المؤمنين هم أهل الجنة، وأن المنافقين هم أهل النار في الدرك الأسفل من النار.

العاشر: أن المشايخ العارفين اتفقوا على أن أساس الطريق إلى الله هو الصدق والإخلاص كما جمع الله بينهما في قوله: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ الحج: ٣٠ – ٣١ ، ونصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة دال على ذلك في مواضع، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ التوبة: ١١٩، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الزمر: ٣٢.

وقال تعالى لما بيّن الفرق بين النبي والكاهن والساحر: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٦ ، إلى قوله: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٣ ، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الأنعام: ٩٣ ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ النساء: ١٣٥)[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٠/٧٤-٧٨).

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع أخرى بعض الثمرات غير ما ذكر هنا، منها:

- حين تكلم عن الذي يكره على فعل المحرم، بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه أو حبسه، أو أخذ ماله أو قطع رزقه الذي يستحقه من بيت المال ونحوه من الضرر، بين رحمه الله أنه يجوز فعله عند أكثر أهل العلم وهو المشهور عن الإمام أحمد، ثم قال رحمه الله: «ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه، ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان، ومن علم الله منه الصدق أعانه الله، وقد يعافى ببركة صدقه من الأمر بذلك»[1]، ومنها،

- أن الصدق يورث الطمأنينة والسكون، قال رحمه الله: «يقال؛ القلب يسكن إلى فلان ويطمئن إليه إذا كان معروفا بالصدق، فإن الصدق يورث الطمأنينة والسكون»[2]، فالذي يصدق مطمئن في نفسه وكذلك الآخرون يطمئنون إلى خبره، بخلاف الكاذب، منها،

- أن الصدق سبب في محو السيئات، حين تكلم رحمه الله عن حديث البطاقة، وأن السجلات طاشت وثقلت البطاقة، قال رحمه الله: «فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتا عظيما»[3]،ومنها،

- أن صدق المتبايعين يُحل البركة في بيعهما، وكذبهما يمحق بركة بيعهما، قال رحمه الله: «فالصدق يعم الصدق فيما يخبر به عن الماضي والحاضر والمستقبل، والبيان يعم بيان صفات المبيع ومنافعه، وكذلك الكذب والكتمان، وإذا كان الصدق والبيان واجبين في المعاملة موجبين للبركة، فالكذب والكتمان محرمين ماحقين للبركة»[4].

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٣٧٣).

[2] نفس المصدر (٥/٥٧١).

[3] نفس المصدر (١٠/٧٣٥).

[4] الفتاوى الكبرى (٦/١٥١).

هذا ما تيسر لي جمعه، وأختم هذا المبحث بدعاء ذكره شيخ الإسلام عن الإمام أحمد أنه علّم أحد الناس أي يقول: «يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين»[1].

فأقول؛ يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين، آمين.

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٢٠٧).

المبحث السابع: التوكل.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: التوكل والأخذ بالأسباب.

المطلب الرابع: أقسام التوكل.

المطلب الخامس: ثمرات التوكل.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

التوكل من مادة (وكل)، وهو أصل صحيح يدل على اعتماد غيرك في أمرك، ومن ذلك الوكالة، والوَكَل؛ الرجل الضعيف، وُكَلَة تُكَلة. والتوكل منه، وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وواكل فلان إذا ضيع أمره متكلا على غيره، وسمي الوكيل لأنه يوكل إليه الأمر .

وهو في اللغة مصدر توكّل يتوكل، ويتعدى بأحد حرفي الجر: اللام وعلى، فإذا تعدي باللام كان معناه: التولية، فيقال؛ وكلته في الأمر فتوكل لي، أي وليته إياه فتولاه لي.

وإذا تعدى بعلى كان المعنى الاعتماد، فيقال: توكلت عليه في هذا الأمر، أي اعتمدت عليه في قضائه لي، قال الراغب: «والتوكل على وجهين، يقول: توكلت لفلان، بمعنى: توليت له، ويقول: وكلته فتوكل لي، وتوكلت عليه بمعنى اعتمدته، وواكل فلان، إذا ضيع أمره متكلا على غيره...، ورجلا وكلة تكلة؛ إذا اعتمد على غيره في أمره»[1].

وقال الجوهري: «والتوكل إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم: التكلان، واتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته، وأصله اوتكلت، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أبدلت منها التاء فأدغمت في تاء الافتعال... »[2].

---

[1] المفردات (ص/٨٨٢)

[2] الصحاح (١٤٣/٥).

وقال ابن منظور: «يقال: تَوكَّل بالأمر إذا ضَمِن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكل فلان فلانا، إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزا عن القيام بأمر نفسه، ووكل إليه الأمر؛ سلمه، ووكله إلى رأيه وكلا ووكولا، تركه... »[1].

ومما سبق يتبين أن التوكل في اللغة هو الاعتماد على الغير في أي أمر من الأمور، وتفويض الأمر إليه مع الشعور بالعجز والاطمئنان والثقة في المفوض إليه.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

اختلفت عبارات السلف في تعريف التوكل على الله تبعاً لتفسيره تارة بأسبابه ودواعيه، وتارة بدرجاته، وتارة بلازمه، وتارة بثمراته وغير ذلك من متعلقاته، وسبب ذلك أن التوكل عمل قلبي، فيصعب على المتكلم أن يحده بحد، أو يحصره بلفظ.

فقد عرفه الإمام أحمد بأنه (قطع الاستشراف بالإياس من الخلق)، أي لا يرجو بقلبه أحدا فيستشرف إليه، فلا يتطلع على ما في أيدي الناس فيتعلق به ويرجوه، بل يعتمد على الله في طلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، لا يتوجه بقلبه إلا إلى الله[2].

وقال ابن جرير: «الصواب في حد التوكل الثقة بالله تعالى والاعتماد في الأمور عليه، وتفويض كل ذلك إليه بعد استفراغ الوسع في السعي فيما للعبد الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه على ما أمر به من السعي فيه»[3].

وعرفه الحليمي بأنه (تفويض الأمر إلى الله عز وجل، الثقة بحسن الظن بالله فيما أمر به وأباح)[4].

---

[1] لسان العرب (٢٧٢/١٥)

[2] انظر: مجموع الفتاوى (٢٥٩/١٠).

[3] شرح ابن بطال لصحيح البخاري (٤٠٨/٩).

[4] المنهاج في شعب الإيمان (٥/٢).

وقال العز بن عبد السلام: «التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى فيما يفعله من خير، أو يزيله من ضر»[١].

وقال ابن رجب رحمه الله: «هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه»[٢].

يلاحظ على هذه التعريفات أن التوكل عمل قلبي محله القلب، ومنشأه الثقة بالله وحسن الظن به، والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه، إلا على تعريف ابن جرير الذي أدخل في التعريف الأخذ بالأسباب، والسعي فيما للعبد الحاجة إليه، وهذ طبعا من لازم التوكل وليس هو التوكل نفسه، وهذا بيان منه على أن التوكل والأخذ بالأسباب لا منافاة بينهما، لأن السعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، وعلى هذا النمط درج كثير من العلماء في تعريفهم للتوكل، يدخلون الأسباب في التوكل[٣].

ومما يجدر الإشارة إليه، أن في التوكل تتجلى العلاقة الوثيقة التلازمية بين قول القلب وعمله، وأن بهما يحصل التوكل ويتحقق، يقول ابن القيم رحمه الله: «فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله.

أما علمه؛ فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

---

[١] شجرة المعارف (ص/٦٣).

[٢] جامع العلوم و الحكم (٤٩٧/٢).

[٣] انظر على سبيل المثال: ابن القيم في مدارج السالكين يقول: «وحقيقة التوكل القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب» (مدارج السالكين: ٣٦٨/٣)، وقال ابن حجر: «التوكل؛ هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب» (الفتح: ٣٨٤/٣)، وقال الشيخ ابن عثيمين: «التوكل هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها» (القول المفيد: ٦٦٦/٢).

وأما عمله؛ فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل وهما جماعه»[1].

---

[1] طريق الهجرتين (ص/٣٨٩).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

التوكل على الله سبحانه وتعالى من مقتضيات الإيمان الصادق ولوازمه، وهو من أوجب الواجبات القلبية وأفضلها، بل عده بعض العلماء نصف الدين، لأن الدين نصفه الإنابة وهي الغاية، ونصفه التوكل لأنه وسيلة إلى الغاية[1]، فإذا استعرضنا نصوص القرآن والسنة وجدنا الاهتمام الكبير من قبل الشارع بالتوكل، فتارة يأمر بإفراد التوكل على الله، وتارة يقرنه بالعبادة، وتارة أخرى يثني على المتوكلين عليه وحده دون سواه، كما يبين أيضا الأجر الجزيل الذي أعد لهم وأنه من أوصاف المقربين له، نذكر بعض هذه الأساليب بشيء من التفصيل، محاولا الاستشهاد عليه بكلام شيخ الإسلام على ذلك.

المسألة الأولى: الأمر بالتوكل وبيان أنه من لوازم الإيمان.

فالنصوص التي تأمر بالتوكل على الله كثيرة، حتى قال شيخ الإسلام رحمه الله: «التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات، كما أن الإخلاص لله واجب، وحب الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ هود: ١٢٣، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التغابن: ١٣، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ آل

---

[1] انظر: طريق الهجرتين (ص/٤٢٥).

عمران: ١٦٠، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ يونس: ٨٤»[١].

فالتوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣، قال ابن القيم رحمه الله: «فجعل التوكل شرطا في الإيمان، فدل ذلك على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل»[٢]، فلا يكون مؤمنا بالله من لا يثق به ويفوض أمره إليه، إذ الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه عليم بذات الصدور، وهو نعم المولى ونعم النصير، وأنه حي لا يموت، وأنه حسب من توكل عليه وناصره ومؤيده، كل هذا مما يستدعي التوكل عليه وحده دون سواه، فكل ما سوى الله سبحانه لا يصلح أن يكون متعلق توكل المرء، لأن الجميع إلى الفناء سائر، وما يفنى لا يصلح لأن يتوكل عليه.

فالواجب على العبد أن يتوكل على الله لا على المخلوقين، فإن (المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته، دون ما سواه ، ويقتضي أيضا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه)[٣]، فكلما قوي إيمان العبد كان توكله أكبر، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل.

---

[١] الإيمان الكبير (ص/١٧).

[٢] طريق الهجرتين (ص/٤٢٣).

[٣] مجموع الفتاوى (١/٢٧-٢٨).

فالإيمان بالله أنه الملك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، كل هذه يستلزم إفراد التوكل لله رب العالمين، ومن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أوالنافع، أو المعز أو المذل غيره، فقد أشرك بربوبيته.

لكن من أراد التخلص من هذا الشرك، فلينظر إلى المعطي الأول مثلا، فيشكره على ما أولاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه، لكن فليعلم أن النعم من الله، وأنه هو المعطي في الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها، وساقها إلى من يشاء من عباده، فالمعطي هو الذي أعطاه، وحرك قلبه لعطاء غيره، فهو الأول والآخِر.

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم، وأراح الناس من لومه وذمه إياهم، وتجرَّد التوحيد في قلبه، فقوي إيمانه، وانشرح صدره، وتنور قلبه، ومن توكل على الله فهو حسبه، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله : "من عرف الناس استراح"، يريد - والله أعلم - أنهم لا ينفعون ولا يضرون[1].

فالتوكل أصل من أصول العبادة التي لا يتم توحيد العبد إلا به، وقد جاء الأمر بالجمع بينهما في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ هود: ١٢٣، وقال تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨، وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ الفرقان: ٥٨، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ المزمل: ٨ - ٩[2]، وقال المصطفى ﷺ: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت... »[3].

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٩٢-٩٣)، باختصار وتصرف يسير.

[2] انظر: مجموع الفتاوى (٨/٥٢٦-٥٢٧).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٧١)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٤)، في كتاب الصلاة، الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

وبيان الجمع بين التوكل والعبادة هو؛ أن القلب فقير إلى الله من وجهين:

من جهة أن العبد لا بد أن يقصد شيئا يريده، ويطمئن إليه ، فالقلب لا يطمئن ولا يلتذ ولا يسر إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه.

ومن جهة أن العبد لا بد له من شيء يثق فيه ويعتمد عليه في نيل مطلوبه، ولا يحصل هذا للعبد إلا بالتوكل على الله والاستعانة به، ف (هو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به، المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان محبا لغير الله لذاته، أو ملتفتا إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدا لما أحبه، وعبدا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها، كان مشاهدا أن الله هو الذى خلقها وقدرها وسخرها، وأن كل من في السماوات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه وهو مفتقر إليه، كان قد حصل من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك)[1].

فالتوكل على الله داخل في عبادته، ولكنه قرنه بها لمزيد الاهتمام به، لأن العبادة لا تصح بدون التوكل على الله، كما أن التوكل لا يصح بدون عبادته وطاعته.

قال شيخ الإسلام رحمه: «فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد ليكون عابدا لله متوكلا عليه، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل أو مثله أو دونه، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به

---

[1] العبودية (ص/٧٨).

فلم يقم بالواجب، بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه»[1].

وإذا كان الله ﷻ قد قرن بين التوكل والعبادة في أكثر من موضع في كتابه، فإن الناس في مقام التوكل والعبادة ينقسمون إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أهل عبادة وتوكل، وهذا القسم المحمود.

القسم الثاني: المعرضون عن العبادة والتوكل.

القسم الثالث: من لهم نوع عبادة بلا توكل.

القسم الرابع: من يتوكلون على الله، ولا يعبدونه[2].

المسألة الثانية: التوكل من أوصاف عباد الله المقربين وأوليائه المتقين.

جعل الله التوكل شعار المؤمنين، ومن أوصاف عباده المقربين وأوليائه المتقين، وقد أثنى الله عليهم بهذا الوصف فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ثم قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ الأنفال: ٢ ـ ٤.

صفة التوكل من أبرز صفات المؤمنين الجليلة لأن اعتماد القلب على الأسباب الظاهرة واعتقاد أنها هي المؤثرة بنفسها يخل بصحة الإيمان وسلامته، بل هو في الحقيقة يفضي إلى الشرك بالله تعالى، وهذا التوكل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما في صفة السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال النبي ﷺ: «هم الذين لا

---

[1] مجموع الفتاوى (٤٩١/١٠)، وانظر كذلك (٤٩٢/١٠).

[2] التحفة العراقية (ص/٣٣٩-٣٤٥).

يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[1]، ففي هذا الحديث بيان لصفات المتوكلين على الله، إذ التوكل هو الجامع للخصال الأخرى، وفيه كذلك أن هؤلاء هم المصطفون الأخيار من عباده.

والتوكل سمة أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ آل عمران: ١٧٣، هذه الآية نزلت في الصحابة رضي الله عنهم حيث حصل عليهم ما حصل في غزوة أحد، مما أصابهم من القرح والجروح والشهداء، فقيل لهم: إن أبا سفيان قد عزم على الكرة عليكم، وجمع لكم الناس، فندبهم النبي ﷺ إلى ملاقاته ومقابلته، فاستجابوا لله والرسول، متوكلين على الله موقنين به، قائلين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل لما توكلوا عليه بقولهم: حسبنا الله، أي كافينا الله»[3].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾»[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٣٣)، في كتاب الرقاق، باب يدخلون الجنة سبعون ألفا بغير حساب، ومسلم في صحيحه (١١٧)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٧٧) في كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران.

[3] رسالة في تحقيق التوكل (٨٩/١)، ضمن جامع الرسائل.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٧٧)، في كتاب التفسير.

نعم، التوكل من أوصاف الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ يونس: ٧١.

وكذلك قال عن هود لما قال لقومه: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هود: ٥٤ – ٥٦، فهذا من كلام المرسلين مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه.

فنوح يقول: ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾، فدعاهم إذا استعظموا ما يفعله كارهين له أن يجتمعوا به ما يريدونه من الإهلاك، وقال تعالى: ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾، فلو لا أن تحقيقه هذه الكلمة، وهو توكله على الله، يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزا لهم من مناجزته، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه، وهذا لا يجوز، وهذا طلب تعجيز لهم، فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به.

وكذلك هود يشهد الله وإياهم أنه بريئ مما يشركون بالله، ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾، بين أنه توكل على من أخذ بنواصي الأنفس وبسائر الدواب، فهو يدفعكم عني لأني متوكل عليه[1].

[1] رسالة في تحقيق التوكل (١/٩٦-٩٧)، ضمن جامع الرسائل.

وقد مر معنا أن من أدعية النبي ﷺ: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت... »[1].

المسألة الثالثة: النتائج المرتبة على التوكل.

إذا كان الله جعل لكل عمل جزاء من جنسه، فقد جعل جزاء التوكل عليه الكفاية، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا** ﴾ الطلاق: ٢ – ٣، ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن التوكل على الله سبب كونه حسبا له مستدلا بهذه الآية، وذلك من وجهين:

١- إن الله رتب هذا الأجر على الوصف المناسب، وأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع في مثل هذا أن يكون وجود الشرط كعدمه، فلا يقال: هو حسب غير المتوكلين كما هو حسب المتوكلين، فعلم أن توكل العبد هو سبب كونه حسبا له.

٢- إن سياق الآية في الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره، لم يكن مرغبا في التوكل، كما جعل التقوى سببا للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب[2].

ومن النتائج العظيمة المرتبة على التوكل هو أن الله يعصم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون من الشيطان الرجيم وتسلطه عليهم، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٧١)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٤)، في كتاب الصلاة، اب الدعاء في صلاة الليل و قيامه.

[2] رسالة في تحقيق التوكل (١/٨٨-٨٩)، ضمن جامع الرسائل.

ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۞ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ النحل: ٩٨ – ٩٩، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فأخبر سبحانه أن المتوكلين على الله ليس للشيطان عليهم سلطان، وإنما سلطانه على المتولين له، والمتولي من الولاية وأصله المحبة والموافقة، كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة، فالمتولون له هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان ويوافقه، فهم مشركون به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره»[1]، و قال النبي ﷺ: «من قال – يعني حين يخرج من بيته –: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان»، وزاد أبو داود: «فيقول – يعني الشيطان– لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي»[2].

ومما يدل على أهمية التوكل حاجة المسلم إليه حاجة شديدة وخصوصاً في قضية الرزق، فالتوكل على الله يكون سببا في تحصيل الحظ من الرزق، قال النبي ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصا وتروح بطانا»[3]، يقول ابن رجب رحمه الله: «وهذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب به الرزق، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾الطلاق:٢-٣ ، وقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية على أبي ذر، وقال له: "لو أن الناس

---

[1] قاعدة في المحبة (ص/١٤٥).

[2] أخرجه أبو داود في سننه (ص/٩٢٢)، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، والترمذي في سننه (ص/٧٧٩)، في كتاب الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا خرج من بيته، وقال الترمذي:حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٢٤٤٣).

[3] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٢/١)، والترمذي في سننه (ص/٥٢٩)، في كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، وقال الترمذي حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في سننه (ص/٦٩٢)، في كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، والحاكم في المستدرك (٢٣٧/٥)، وقال :هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٠).

كلهم أخذوا بها لكفتهم"[1]، يعني: لو أنهم حققوا التقوى والتوكل، لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم»[2].

التوكل مقام جليل القدر عظيم الأثر، جعله الله سبباً لنيل محبته قال تعالى:

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران: ١٥٩، فهذه الآية صريحة في أن التوكل سبب يحصل به محبة الباري تبارك وتعالى، وإذا أحب الله عبدا، أحبته الملائكة كذلك، ووضع له القبول في الأرض كما قال النبي ﷺ: «إذا أحب الله عبدا نادى جبريل؛ إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء؛ إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»[3].

هذه بعض النتائج العاجلة المرتبة على التوكل، وأما النتائج الآجلة المرتبة عليه فهي دخول الجنة والتمتع بما فيها من النعم، والنجاة من النار وما فيها من النقم، قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الشورى: ٣٦،

يقول الله تبارك وتعالى محقرا شأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، أي مهما حصلتم وجمعتم، فلا تغتروا بها، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ وما عند الله من النعيم في جناته لأهل طاعته باق غير نافذ، ثم ذكر الله لمن هذ الثواب، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٦/٣٥)، وابن ماجه في سننه (ص/٧٠٠) في كتاب الزهد، باب الورع والتقى، وابن حبان في صحيحه (١٥،٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٦/١)، وضعفه الألباني في المشكاة (٥٣٠٦).

[2] جامع العلوم والحكم (٤٩٧/٢).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٣٦)، في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٥٧)، في كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده.

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي؛ جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو وسيلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام[1].

المطلب الثالث

التوكل والأخذ بالأسباب

سبق أن قلنا؛ إن أصل التوكل هو: حسن الظن بالله، والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه.

وحقيقة التوكل الشرعي: هو أن يعتمد العبد على الله سبحانه اعتمادا صادقا في مصالح دينه ودنياه مع فعل الأسباب المأذون فيها.

فالتوكل إذا: اعتقاد، واعتماد، وعمل.

أما الاعتقاد: فهو أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والله سبحانه هو المعطي المانع، النافع الضار، المعز المذل.

أما الاعتماد: فهو أن يعتمد قلبه على ربه سبحانه، ويثق به غاية الثقة.

أما العمل: فهو أن يعمل الأسباب المأذون بها شرعا.[2]

إذا، (إن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدّر الله المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، و التوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ النساء: ٧١، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ

---

[1] انظر تفسير الطبري (٢١/٥٤٤)، وابن كثير (٤/١٤٨)، وتفسير السعدي (ص/٧٦٠).

[2] انظر: طريق الهجرتين (ص/٣٨٩)، والقول المفيد (٢/٦٦٦)، وأعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها(١/٣٩٦).

ﱡﭐ ٱلۡخَيۡلِ ﱠ الأنفال: ٦٠، وقال تعالى: ﱡﭐ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﱠ الجمعة: ١٠)[1].

فالاعتقاد بأن الأخذ بالأسباب مناف للتوكل اعتقاد خاطئ، وذلك أن الذي أمر بالتوكل هو الذي أمر بالأخذ بالأسباب، وهو خالق الأسباب ومسببها، وقد جاء الأمر بهما جميعا في مواضع، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فرض الله على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﱡﭐ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﱠ هود: ١٢٣، وقال: ﱡﭐ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۞ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﱠ المزمل: ٨ – ٩، وقال: ﱡﭐ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﱠالطلاق:٢-٣، والتقوى تجمع فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه...

والمقصود أن الله لم يأمر بالتوكل فقط، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذر، فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر كان ضالا، كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل كان ضالا، بل فعل العبادة التي أمر الله بها فرض...

وقد جمع الله بين عبادته والتوكل عليه في مواضع كقوله: ﱡﭐ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﱠ الرعد: ٣٠، وقال شعيب: ﱡﭐ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﱠ هود: ٨٨، فإن الإنابة إلى الله والمتاب هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله، والعبد لا يكون مطيعا لله ورسوله فضلا أن يكون من خواص أوليائه المتقين إلا بفعل ما أمر الله وترك ما نهى عنه، ويدخل في ذلك التوكل، وأما من ظن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قُدّر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله...

[1] جامع العلوم والحكم (٢/٤٩٨).

فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله، كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مُفَرِّط مذموم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"[١]»[٢].

كذلك إن التوكل عمل قلبي، والأخذ بالأسباب من أعمال الجوارح، فلا تعارض بينهما، بل كل منهما في موضعه، فالتوكل على الله لا بد أن يجمع فيه بين خلع الأسباب عن القلوب، وعدم الاعتماد عليها، وبين إثباتها بالجوارح وأخذها بها، وقد اختصر لنا ذلك ابن حجر فقال: «التوكل؛ هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب»[٣]، ولهذا قال بعض العلماء: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع».

وبيان ذلك:

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٦٩)، في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.

[٢] مجموع الفتاوى (٨/٥٢٦-٥٢٩)، وانظر كذلك (١٨/١٨٥-١٨٩).

[٣] فتح الباري (٣/٣٨٤).

- الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والإسناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس مستقلا، ولا بد له من شركاء وأضداد، ومع هذا كله، فإن لم يسخره مسبِّب الأسباب لم يسخر.

- ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، وهو أيضا طعن في الشرع، لأن القرآن والحس والعقل يشهد لبعض الأمور أنها أسباب، ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في اختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر، وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر.

- الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، بل هو أيضا قدح في العقل، فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيط بها، فإن ما أمر الله من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيط بها من السعادة، وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوة[1].

فالأخذ بالأسباب من لوازم التوكل على الله، ومن ترك الأسباب فهو متواكل مضيع لنفسه وليس متوكلا، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وزعمت طائفة أن من تمام التوكل ألا يحمل الزاد (في الحج)، وقد رد الأكابر هذا القول، وبالغوا في الرد على من قال بذلك، وذكروا من الحجج عليهم ما يبين غلطهم، وأنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل، وأنهم عاصون لله بما يتركون من طاعته، وقد حكي لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل، كان إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع في فمه، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام، فأنكر ذلك أشد الإنكار، ومن هؤلاء من حرم المكاسب»[2].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٨/١٦٩-١٧٧)

[2] مجموع الفتاوى (٨/٥٣٠).

وليس من فعَل شيئا أمر به، وترَك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعَل توكلا أمر به وترَك فعل ما أمر به من السبب، إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه، وهما؛ مع اشتراكهما في جنس الذنب، فقد يكون هذا ألوم، و قد يكون الآخر، مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب[1].

مع كل هذا، ذكر لنا شيخ الإسلام بعض الضوابط التي يجب معرفتها ومراعاتها في الأخذ بالأسباب، يقول رحمه الله: «ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه، فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب، كما جعل المطر سببا لإنبات النبات، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ ﴾ البقرة: ١٦٤، وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقه بهما، وكما جعل الشفاعة والدعاء سببا لما يقضيه بذلك، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها، ويثيب عليها المصلين عليه، لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لا بد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع، لم يحصل المقصود، وهو - سبحانه - ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله.

الثاني: أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئا سببا بلا علم أو يخالف الشرع، كان مبطلا، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال:"إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل".

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره - وإن ظن أن

---

[1] مجموع الفتاوى (١٨/١٨١).

ذلك سبب في حصول بعض أغراضه -، وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة - وإن ظن ذلك -، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان، فلا يحل له ذلك، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرسول ﷺ بُعث بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة»[1].

وذكر الضابط **الرابع** في كتابه الاستقامة، فقال: «إن الأسباب: إما أن تكون مقدورة أو غير مقدورة، فغير المقدور ليس فيه إلا الدعاء والتوكل، والمقدور إما أن يكون فساده راجحا أو لا يكون، فإن كان فساده راجحا نهى عنه، وإن لم يكن فساده راجحا فينهى عنه كما ينهى عن إضاعة المال والعبث، وأما السبب المقدور النافع منفعة راجحة فهو الذي ينفع ويؤمر به ويندب اليه»[2].

إذا، التوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع، فالموحد المتوكل الآخذ بالأسباب، لا يلتفت إلى الأسباب؛ بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها، فإنه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه، وله موانع وعوائق تمنع موجبه، وما ثم سبب مستقل بالإحداث إلا مشيءة الله وحده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[3].

---

[1] مجموع الفتاوى (١/١٣٧-١٣٨).

[2] الاستقامة (١/١٥٤).

[3] منهاج السنة (٥/٣٦٦-٣٦٧)، بتصرف يسير.

المطلب الرابع

أقسام التوكل

من خلال كلام شيخ الإسلام نستطيع أن نقول أن التوكل حسب المتوَكل عليه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: التوكل على الله، وينقسم بحسب موضوعه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: وهو توكل الخاصة من عباد الله في حصول مستحبات وواجبات[(١)]، وهو التوكل في تجريد التوحيد والاستقامة عليه، والتمسك بدين الله علما وعملا، ظاهرا وباطنا، وقد جعله بعض العلماء على درجتين:

الدرجة الأولى: هو توكل العبد على الله في إصلاح نفسه، دون النظر إلى غيره من الناس، إذ مهمته استقامة نفسه وهدايتها.

الدرجة الثانية: هو توكل العبد في استقامة نفسه -كما تقدم- بالإضافة، إلى إرشاد الناس إلى الخير وهدايتهم، والاهتمام بمصالح الناس ونفعهم، وإقامة دين الله في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا أفضل التوكل وأنفعه، وهو توكل الأنبياء وورثتهم، قال ابن القيم رحمه الله: «فأفضل التوكل: التوكل في الواجب أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم»[(٢)].

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٤٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/٨٥).

النوع الثاني: هو توكل العامة على الله في حصول مباحات[١]، وهو التوكل على الله في تحصيل المطالب الدنيوية والحظوظ النفسية، كمن يتوكل على الله في حصول رزق أو ولد أو عافية أو غير ذلك من الحظوظ الدنيوية، وهذا تحصل له الكفاية فيما توكل عليه فيه في الدنيا دون الآخرة، إلا إذا كانت نيته الاستعانة بذلك على طاعة الله كما سبق، لكن متى توكل العبد في النوع الأول حق توكله كفاه الله النوع الثاني تمام الكفاية[٢].

النوع الثالث: هو توكل الظالم لنفسه على الله في حصول محرمات[٣]، كمن يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش، وهؤلاء آثمون لمخالفتهم أمر الله ورسوله وكانت عاقبتهم سيئة[٤].

القسم الثاني: التوكل على غير الله، وينقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من جلب منفعة أو دفع مضرة، فهذا شرك أكبر، لأن التوكل على الله من لوازم الإيمان، فصرفه لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من الشرك الأكبر، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين في جلب منفعة أو دفع مضرة، لأنه يعتقد أن لهؤلاء تصرفا خفيا في الكون[٥].

النوع الثاني: التوكل على حي حاضر فيما يقدر عليه من رزق أو دفع أذى، مع الشعور بعلو مرتبة المتوكل عليه وانحطاط مرتبة المتوكل، فهذا شرك أصغر لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه، ولهذا قيل الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد[٦].

---

[١] التحفة العراقية (ص/٣٤٧).

[٢] الفوائد (ص/١٢٤-١٢٥).

[٣] التحفة العراقية (ص/٣٤٧).

[٤] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٧٦).

[٥] انظر: القول المفيد (٢/٦٦٨).

[٦] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٥٧).

وأما لو اعتمد عليه على أنه سبب، وأن الله تعالى هو الذي قدر ذلك على يده، فإن ذلك لا بأس به، إذا كان للمتوكل عليه أثر صحيح في حصوله[1].

النوع الثالث: الاعتماد على الغير في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، فهذا جائز، وهو الذي يسمى بالوكالة، وقد دل على جوازه الكتاب والسنة والإجماع، ولكن لا يعتمد عليه في حصول ما وكّل فيه، بل يعتمد على الله في تيسير أمره الذي يطلبه، ولا يقول: توكلت على فلان، و إنما يقول: وكّلت فلانا[2].

المطلب الخامس

ثمرات التوكل

ذكرنا فيما سبق أن من أساليب القرآن في الترغيب في التوكل ذكر النتائج المرتبة عليه، وزيادة في الأمر أذكر بعض ثمرات التوكل وفوائده التي وقفت عليها من كلام شيخ الإسلام.

فمن ثمرات التوكل كفاية الله المتوكل في جميع شيءونه، وأن من يتوكل عليه فالله كفيله كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا** ﴾ الطلاق: ٢ – ٣، وقال تعالى: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا** ﴾ الأحزاب: ٣، وإذا كان الله أمر بالتوكل عليه، ثم قال ﴿ **وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا** ﴾ علم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه، قال شيخ الإسلام رحمه الله:

---

[1] شرح ثلاثة أصول، للشيخ ابن عثيمين (ص/٥٩).

[2] انظر: رسالة في تحقيق التوكل (٨٩/١)، ضمن جامع الرسائل، والقول المفيد (٦٦٨/٢)، وشرح ثلاثة أصول للشيخ ابن عثيمين (ص/٥٩)، وشرح الأصول الثلاثة للشيخ الفوزان (ص/١٣٨).

«فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلا، علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار، إذا لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلا»[(١)].

ومن ثمرات التوكل وفوائده أنه سبب تنال به نعمة الله وفضله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فعقّب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء على ذلك العمل»[(٢)].

كذلك نصر الله يأتي بالتوكل عليه، وهذه ثمرة أخرى للتوكل، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ آل عمران: ١٥٩ – ١٦٠، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فأمره إذا عزم أن يتوكل على الله، فلو كان المتوكل لا يعينه على مثل ما عزم لم يكن به عند العزم فائدة، يبين سبحانه أنه هو الناصر دون غيره فقال﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فنهى عن التوكل على غيره، وأمر بالتوكل عليه يحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره»[(٣)].

وبالتوكل على الله يدفع شر أعداء المرسلين وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يونس: ٧١،

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل (٩٢/١)، ضمن جامع الرسائل.

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (٩٠/١) ، ضمن جامع الرسائل.

(٣) رسالة في تحقيق التوكل (٩٥/١).

وقال تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هود: ٥٤ – ٥٦، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والله تعالى مع رسله وأوليائه، فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع عن المؤمنين المتقين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ﴾ الحج: ٣٨، علم أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة يجلب بها المنفعة ويدفع بها المضرة، فالتوكل من أعظم ذلك»[1].

هذا ما تيسر لي جمعه، فأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا وجميع المسلمين إلى التوكل على الله والاعتماد عليه في أمور ديننا ودنيانا وآخرتنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

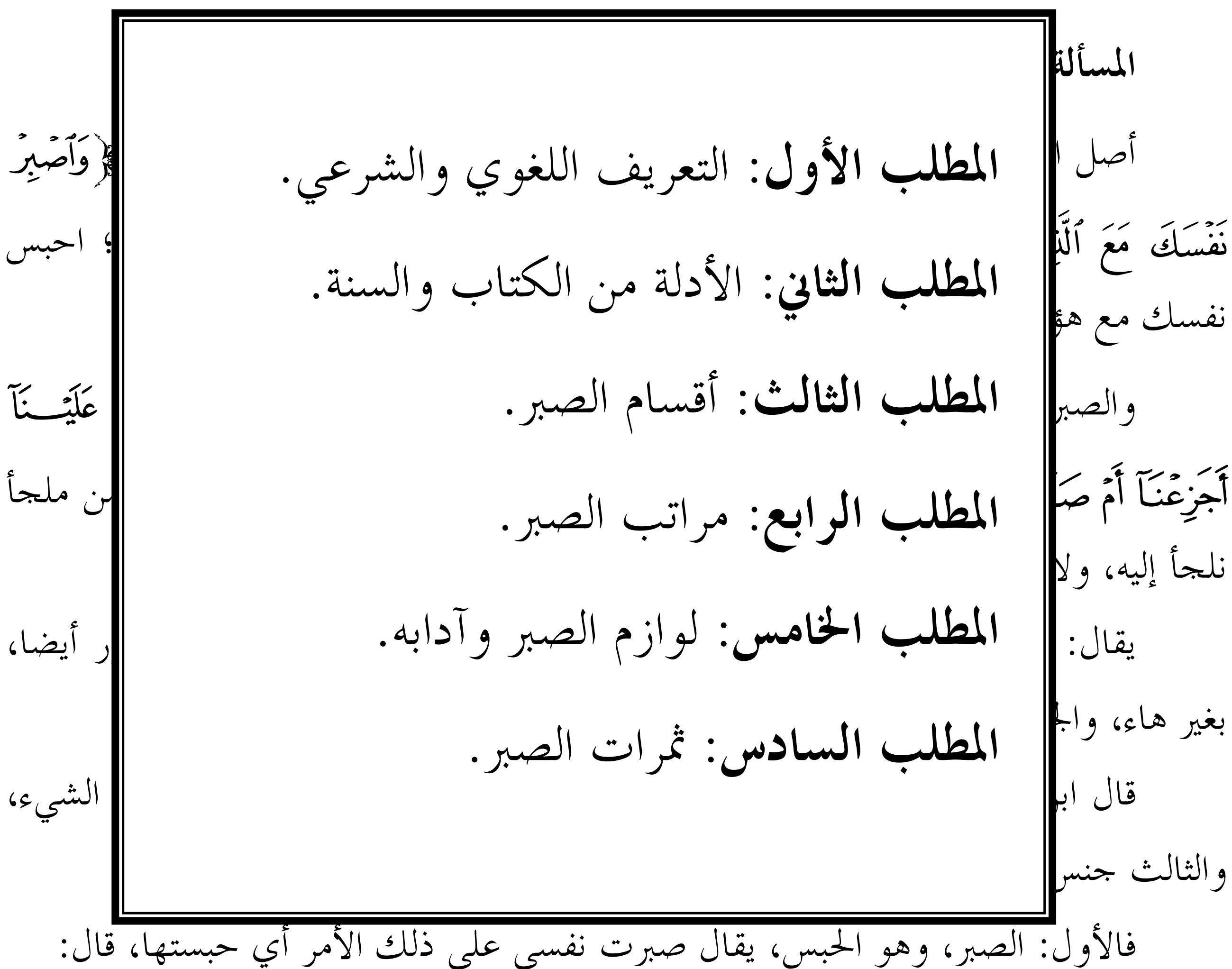
[1] نفس المصدر (٩٧/١).

المبحث الثامن: الصبر.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي


المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الصبر.

المطلب الرابع: مراتب الصبر.

المطلب الخامس: لوازم الصبر وآدابه.

المطلب السادس: ثمرات الصبر.

فالأول: الصبر، وهو الحبس، يقال صبرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها، قال:

فَصَبَرْتُ عارفةً لذلك حرةً :: تَرسو إذا نَفْسُ الجبانِ تَطلع[1].

---

[1] انظر: لسان العرب (١٩٣/٨)، والقاموس المحيط (ص/٥٤١).

والمصبورة المحبوسة على الموت، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل شيء من الداوب صبرا[٢].

ومن الباب: الصبير، وهو الكفيل، إنما سمي بذلك لأنه يُصبَر على الغُرم.

وأما الثاني، فقالوا: صُبر كل شيء، أعلاه، قالوا: وأصبار الإناء؛ نواحيه، والواحد صُبر.

وأما الأصل الثالث، فالصُبرة من الحجارة: ما اشتد وغلظ، والجمع صِبار»[٣].

وحين تكلم ابن القيم عن معنى الصبر واشتقاق هذه اللفظة وتصريفاتها، ذكر أن الصبر قيل أن مأخوذ من الجمع والضم[٤].

فعند التأمل نجد أن هذه المعاني الأربعة، المنع والضم والشدة وأعلى الشيء محققة في الصبر، إذ الصبر كما سنبين هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما، فالصابر عليه أن يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع، وهذا شديد على النفس فيحتاج من العبد إلى الجهد والمثابرة، لكنه – الصبر – من أشرف المقامات وأعلاها، بل هو نصف الدين كما سنبينه لاحقا.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

حقيقة الصبر تكمن في بيان معناه الشرعي، فلقد عرف العلماء الصبر بتعريفات عدة، يستفاد من مجموعها المعنى الشرعي له:

عرفه الجرجاني بقوله: «هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله»[١].

---

(١) عزاه صاحب اللسان لعنترة (١٩٣/٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩٨٢)، في كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، ومسلم في صحيحه (ص/٨١٠)، في كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم.

(٣) معجم مقاييس اللغة (ص/٥٦١).

(٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص/١٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٣٣/١٧).

وقيل في تعريفه: «الصبر: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب».

وقيل فيه: «هو: الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى»[٢].

قال ذو النون المصري: «الصبر التباعد من المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظاهر الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة»[٣].

وقال عمرو بن عثمان[٤]:«هو ثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والدعة»[٥].

وقال الغزالي: «الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة»[٦].

وقال ابن القيم رحمه الله: «هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكاوى، وحبس الجوارح عن التشويش»[٧].

فالناظر في هذه التعريفات يرى أن منهم من قصر الصبر في عدم الجزع عند البلاء والمكاره، وجلّ تعريفات العلماء - التي ذكرتها، أو التي لم أذكرها - متجهة إلى هذا المعنى، ولهذا الصبر المطلق في غالب استعمال العلماء هو حبس النفس عن الجزع في المصائب، وأن أنواعا أخرى من الصبر تسمى بأسماء أخرى، فيسمى الصبر والثبات في المعارك شجاعة، ويسمى الصبر عن شهوة الفرج المحرمة عفة، ونحو ذلك[٨].

---

(١) التعريفات (ص/١٣٤).

(٢) ذكر هذين التعريفين ابن القيم رحمه الله في عدة الصابرين (ص/٢٠)، ومدارج السالكين (١١٧/٢).

(٣) مدارج السالكين (١١٧/٢)، وعدة الصابرين (ص/١٩).

(٤) هو عمرو بن عثمان ابن كرب بن غصص، شيخ الصوفية، العالم بالأصول، أبو عبد الله المكي الزاهد، من أهل مكة، كان ينكر على الحلاج ويذمه ويلعنه، ويثبت الصفات، وينفي الحلول، توفي سنة ٢٩١هـ، انظر: حلية الأولياء (٢٩١/١٠)، والسير (٥٧/١٤).

(٥) مدارج السالكين (١١٨/2)، وعدة الصابرين (ص/٢٠).

(٦) إحياء علوم الدين (٨١/٤).

(٧) مدارج السالكين (١١٦/2).

(٨) انظر: عدة الصابرين (ص/٢٨-٣٠).

ومنهم من يذكر الصبر عند البلاء بالإضافة إلى ترك المحرمات كما فعل ذو النون المصري، أما تعريف عمرو بن عثمان، إذا اعتبرنا أن الثبات مع لله يعني الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته، يمكن أن يقال أنه جمع أنواع الصبر الثلاثة.

تعريف الغزالي يشير إلى إخلاص هذا العمل لله، وأن مبدأه ومنتهاه إلى الدين، وأما تعريف ابن القيم فمتوجه نحو المحل الذي يكون به الصبر مع بيان صفة الصبر فيه.

ومما سبق نرى أن أقوال أهل العلم اختلفت في تحديد الصبر وتعريفه، وبيان ماهيته، لأن دائرته واسعة ومجالاته متعددة، ويمكن أن نخلص من جميعها بأن الصبر هو: خلق إسلامي فاضل يقدم به المرء على فعل الطاعات وترك المعاصي ويمنعه عند المصائب من فعل لا يحسن فعله كمسلم، وفي كل ذلك يكون غرضه ابتغاء مرضاة الله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ الرعد: ٢٢ [1].

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

الصبر من أعظم خصال الخير التي حث الله عليها في كتابه العظيم، وأمر بها رسوله الكريم ﷺ في سنته المطهرة، وهو من أوجب الأعمال القلبية، بل هو نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر[2]،

فالعبد في هذه الدنيا بين مصيبة يحتاج معها إلى الصبر، وبين نعمة يقابلها بالشكر، وهو ضرورة دينية ودنيوية لازمة للإنسان كي يعيش بسلام، فدينه لا ينتصر ودنياه لا يستقيم إلا بالصبر، ومما يدل على أهميته ومكانته العظيمة أن الله سبحانه ذكر الصبر في القرآن في نحو

---

[1] انظر: الصبر في ضوء الكتاب والسنة (ص/٤٩)، تأليف أسماء عمر حسن فدعق.

[2] انظر: قاعدة في الصبر (ص/٨٩-٩٠).

تسعين موضعا[1]، يذكره بصيغة الأمر والمداومة، ويقرنه بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا، ويذكر المتصفين به بالمدح والثناء عليهم تارة، ويذكر ما يترتب عليه من الجزاء الحسن والعاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة تارة أخرى.

والآن أذكر هذه الأوجه بذكر الأدلة من الكتاب والسنة، مع الجمع - ما تيسر لي - من كلام شيخ الإسلام رحمه الله حولها.

المسالة الأولى: أمر الله بالصبر والمداومة عليه.

إن الحوادث التي تصيب العباد بغير أفعالهم، فتارة يؤمروا بدفعها بالباطن والظاهر، كما يؤمروا بجهاد أعداء الدين.

وتارة يُخيَّروا بين الأمرين بين دفعها وقبولها، وإن كان يترجح أحدُهما، كدفع الصائل عن المال، وكالتداوي أحيانا ونحو ذلك.

وتارة يؤمروا بالصبر عليها، وهو ما قضي من المصائب، كالمصائب في الأنفس والأموال والأعراض[2]، (فالمؤمن مأمور بأن يصبر على المقدور، ولذلك قال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ آل عمران: ١٢٠، فالتقوى فعل المأمور وترك المحظور، والصبر على أذاهم، ثم إنه حيث أباح المعاقبة قال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۞ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧.

فأخبر أن صبره بالله، فالله هو الذي يعينه عليه، فإن الصبر على المكاره بترك الانتقام من الظالم ثقيل على الأنفس، لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله في قوله: ﴿ وَلِرَبِّكَ

---

[1] انظر: مدارج السالكين (١١٣/٢)

[2] قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/١٠-١١).

﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ المدثر: ٧، لكن هناك ذكره في الجملة الطلبية الأمرية، لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره، وهنا ذكره في الخبرية فقال: ﴿ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾، فإن الصبر وسائر الحوادث لا تقع إلا بالله، ثم قد يكون ذلك وقد لا يكون، فما لا يكون بالله لا يكون، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم، ولا يقال: واصبر بالله فإن الصبر لا يكون إلا بالله لكن، يقال: استعينوا بالله واصبروا، فنستعين بالله على الصبر)[1].

وهذا الكلام الوجيز لشيخ الإسلام يستخرج منه فوائد عدة:

الأولى: إن الصبر من واجبات الإيمان، وأنه قرين التقوى.

الثانية: إن الصبر من الأعمال التي يجب أن تكون لله، وما كان لغيره فإنه لا ينفع ولا يدوم.

الثالثة: إن الصبر يحصل بالاستعانة بالله، وإلا فلا يكون.

مع أن الصبر من الأعمال التي لا تحصل إلا بالاستعانة، إلا أن الله جعل الصبر نفسه من أسباب الاستعانة يستعان به على تغلب المشاعر عند المصائب والنائبات، ففيه عون كبير على المداومة على الطاعة واجتناب المعاصي، بالإضافة إلى ما يترتب عليه من جزيل الثواب وحسن العاقبة، (ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى عنه، قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ البقرة: ٤٥، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٣)[2].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة، ثلاثة أمور:

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/٣٢٩).

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٥٤).

أحدها: الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن.

الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب، ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا كقوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وكقوله تعالى﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ هود: ١١٤ – ١١٥...، أما قرنه بالصلاة والزكاة فكثير جدا، فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية»[1].

أمر الله عباده بالصبر والمداومة عليه في مواطن مختلفة، ومن هذه المواطن الجهاد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٥ – ٤٦، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٥٠، وسبق أن ذكرنا أن الصبر والثبات في المعارك يسمى شجاعة، وما وجه تسمية الصبر شجاعة، وما العلاقة بينهما، هذا ما سيبينه لنا شيخ الإسلام، يقول رحمه الله: «وقد ذكر (الله) الجهاد بالنفس والمال في سبيله ومدحه في غير آية من كتابه وذلك هو الشجاعة والسماحة في طاعته سبحانه وطاعة رسوله، وملاك الشجاعة الصبر الذي يتضمن قوة القلب وثباته ولهذا قال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٤٩، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٨/٣٦٢).

تُفۡلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٥ – ٤٦، والشجاعة ليست هي قوة البدن، فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وانما هي قوة القلب وثباته، فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهوّر الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم، ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد.

وقد تقدم أن جماع ذلك هو الصبر، فإنه لا بد منه، والصبر صبران؛ صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة، كما قال الحسن رحمه الله: "ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة".

وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم، وهذا هوالشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم، والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب، وان كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن، ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز، ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال؛ قال النبي ﷺ: "ما تعدون الرَقوب فيكم؟ قالوا: الرقوب الذي لا يولد له، قال: ليس ذاك بالرقوب، ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئا، ثم قال: ماتعدون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، فقال: ليس بذلك، ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب"[1]، فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب»[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٤٩)، في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، والجزء الأخير منه «ليس الشديد بالصرعة..» أخرجه البخاري في صحيحه كذلك (ص/١٠٦٦)، في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

[2] الاستقامة (٢/٢٧٣-٢٧٦)، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٨/١٥٨-١٦٠).

فذكر شيخ الإسلام أن الشجاعة والقوة الحقيقية هو أن يملك العبد نفسه عند الغضب وعند المصيبة، وهذا هو حقيقة الصبر المأمور به، بل أفضل الصبر هو الصبر عند الصدمة الأولى كما روى أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «اتقي الله واصبري»، فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوّابين، فقالت: يا رسول الله، لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

المسألة الثانية: اقتران الصبر بالأعمال الصالحة عموما وببعض أنواعها خصوصا.

إن المتتبع للمواضع التي ذكر فيها الصبر يرى أن الله قد قرن الصبر بالقيم العليا في الإسلام، فقرنه بالأعمال الصالحة عموما، وقرنه ببعضها خصوصا، كما قرنه بالصلاة، وقرنه باليقين، وقرنه بالتقوى، وقرنه بالرحمة، وقرنه بالتوكل، وقرنه بالشكر وغيرها من الأعمال، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ يونس: ١٠٩، وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقا لخبر الله وطاعة لأمره.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۞ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هود: ١١٤ – ١١٥، وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ غافر: ٥٥، وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ طه: ١٣٠، وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٥)، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٩)، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ البقرة: ٤٥، وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٣، فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر.

وقد قرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ البلد: ١٧»[1].

وقد تكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران بعض هذه الأعمال بالصبر، فمثلا تكلم عن مناسبة اقتران الصبر والتقوى، فبين أن نجاح الإنسان وسعادته يتوقف على أمرين:

- في الأمور المخيرة عليه الطاعة بفعل المأمور وترك المحظور، وهذا هو التقوى.

- في الأمور التي تكون بغير اختياره عليه الصبر، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ولا بد للإنسان من شيءين: طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور، فالأول هو التقوى، والثاني هو الصبر، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ آل عمران: ١١٨، إلى قوله:﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ آل عمران: ١٢٠، وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ آل عمران: ١٢٥»، ثم ذكر رحمه الله: «أن الناس في التقوى وهي طاعة الأمر الديني، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام:

أحدها: أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة:

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٦٧٧)، و (١١/٣٥).

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات، لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه، أو في ماله أو في عرضه، أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه.

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام....

وأما القسم الرابع: لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ المعارج: ١٩ – ٢١، فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا»[(١)].

كذلك تكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران الصبر بالشكر، وكما أسلفنا أن الصبر نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر، فالعبد في هذه الدنيا بين مصيبة يحتاج معها إلى الصبر، وبين نعمة يقابلها بالشكر، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «جعل الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بكل منزلة خيراً منه، فهم دائماً في نعمة من ربهم، أصابهم ما يحبون أو ما يكرهون، وجعل أقضيته وأقداره التي يقضيها لهم ويقدرها عليهم متاجر يربحون بها عليه، وطرقاً يصلون منها إليه، كما ثبت في الصحيح عن إمامهم ومتبوعهم الذين إذا دعي يوم القيامة كل أناس بإمامهم دعوا به صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، لايقضي الله لمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٧-٦٧٤)، باختصار.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٢٠٠)، في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

فهذا الحديث يعم جميع أقضيته لعبده المؤمن وأنها خيرله إذا صبر على مكروهها وشكر محبوبها، بل هذا داخل في مسمى الإيمان كما قال بعض السلف: "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر"، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ إبراهيم: ٥ ،إذا اعتبر العبد الدين كله رآه يرجع بجملته إلى الصبر والشكر... »[١].

وتكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران الصبر والرحمة، ووجه ذلك أن للعبد حقوقا، منها ما يتعلق بالخالق، ومنها ما يتعلق بالمخلوق، فالذي جاء بالصبر عند المصيبة فقد أدى حق الله عليه عند المصائب، وهو أن يتقبل ما جاء من قضاء الله بالصبر والرضا، والذي جاء بالرحمة عند المصيبة قد أتى بحق المخلوقين الذين يشركونه في المصيبة وذلك برحمته إياهم وإحسانه إليهم، قال شيخ الإسلام: «وبهذا يعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال: "إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[٢]، وأن هذا ليس كبكاء من يبكي على فوات حظه لرحمة الميت، وقد قيل: إن الفضيل بن عياض[٣] لما مات ابنه ضحك، وقال: رأيت أن الله تعالى قد قضى بقضاء، فأحببت أن أرض بما رضي الله به[٤]، ويحكى أن رجلا عزى الحسن بن علي في ولد له مات، وأطنب في مدحه ووصف شمائله، فقال له الحسن: "إذا أحب الله ما تكره فيمن نحب رضينا" [٥]، فهذه الحالة حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضاء بالقضاء وحمد الله تعالى

---

[١] قاعدة في الصبر (ص/٨٠-٩٠).

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٥٨)، في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

[٣] هو أبو عبد الله الفضيل بن عياض التميمي، الإمام الزاهد المشهور، أصله من خرسان، وسكن مكة، ثقة عابد، توفي سنة ١٨٧ هـ، انظر: تقريب التهذيب (١٥/٢).

[٤] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٠/٨).

[٥] أخرجه ().

كحال النبي صلى الله عليه وسلم فهذا أكمل، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ البلد: ١٧، فذكر سبحانه وتعالى التواصي بالصبر والمرحمة.

والناس (في الصبر والرحمة) أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزه، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس»[١].

كذلك تكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران الصبر باليقين، ووجه الاقتران بينهما أن الصبر هو العمل بمقتضى اليقين، لأن الإيمان يطلق على التصديق والأعمال جميعا، فيكون له ركنان، أحدهما يمثل المعرفة والتصديق وأعلاه اليقين، والآخر يمثل الحركة والعمل، وهو الصبر، فالمتيقن أن المعاصي ضارة والطاعات نافعة، لا يمكن ترك المعاصي والمواظبة على الطاعات إلا بالصبر[٢]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤، فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر كما قال معاذ بن جبل ﷺ: "عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يعرف الله ويعبد، وبه يمجد الله ويوحد، يرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم"، فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولا بد في الجهاد من الصبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ العصر: ١ – ٣.

---

[١] التحفة العراقية (ص/٣٦٩–٣٧١)، وانظر مجموع الفتاوى (١٠/٦٧٧).

[٢] انظر: الصبر في القرآن، مفتاح الفرج وعدة الفلاح (ص/١٣)، تأليف أ.د سيد محمد ساداتي الشنقيطي.

فالعلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغي، فالضلال العمل بغير علم، والغي اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿ **وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ** ﴾ النجم: ١ – ٢، فلا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر، ولهذا قال علي: "ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد – ثم رفع صوته – فقال؛ ألا لا إيمان لمن لا صبر له" [(١)]»[(٢)].

المسألة الثالثة: فضل الصبر ومدح الصابرين.

لما كان الصبر خلقا كريما ومعلما رفيعا في الدين كان التحلي به من أعظم الدلالات على كمال الخلق، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يستعفِفْ يعفَّهُ الله، ومن يستغن يغنِهِ الله، ومن يصبر يصبّرْهُ الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر»[(٣)]، لأن بالصبر يتمكن المرء من المداومة على الطاعات في اليسر والعسر والمنشط والمكره، وبه يستعين على مجانبة المعاصي مهما كانت المغريات كثيرة وكثيفة، وبه يحتمي من الوقوع في الجزع والتسخط واليأس والقنوط، فالصبر مفتاح كل خيرات الدنيا والآخرة، ومفتاح السعادة والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة[(٤)].

[(١)] أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص/٨٣)، واللالكائي في شرح السنة (٩٢٤/٤)، والبيهقي في الشعب (١٤٧/١).

[(٢)] التحفة العراقية (ص/٣٥٤-٣٥٦).

[(٣)] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٣٣٩)، في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسالة، ومسلم في صحيحه (ص/٤٠٤)، في كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر.

[(٤)] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣٠٠).

فالصبر ضياء[1] كما أخبر الصادق المصدوق، ينور طريق العبد إلى ربه، ويحرق الشهوات المانعة من الوصول إلى محبوبه، فهو خلق كريم، وعمل من أفضل الأعمال يعطي الله عليه ما لا يعطي على غيره، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ الزمر: ١٠.

ولما كان الله الصبور الشكور خص بالصبر عددا من أوليائه وأثنى عليهم به، قال تعالى في مدح أيوب عليه السلام: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ ص: ٤٤.

ومدح المتصفين به، فقال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٧، بين الله في هذه الآية الخصال الإيمانية التي تستوجب لأصحابها المدح، وذكر من هذه الخصال الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، أي في الأحوال الشديدة، كحال الفقر المعبر عنه بالبأساء، وحال المرض والأسقام المعبر عنه بالضراء، وحال الحرب والقتال وهو المعبر عنه بالصبر حين البأس[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذه الآية عظيمة جليلة القدر من أعظم آي القرآن وأجمعه لأمر الدين...، وقد دلت على أمور:

أحدها: أنه أخبر أن الفاعلين لهذه الأمور هم المتقون، وعامة هذه الأمور فعل مأمور به.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٩)، في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٧٣).

والثاني: أنه أخبر أن هذه الأمور هي البر وأهلها هم الصادقون يعني في قوله: ﴿ ءَامَنَّا ﴾ البقرة: ٨»[١].

وقد جعل الله الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين»[٢]، وهذا لا شك أنه مدح وثناء على المتصفين بالصبر.

كذلك من أفضل الأعمال الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فصلت: ٣٣، وقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر: ١ – ٣، فمن شروط الداعي إلى الله والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو الصبر على ما يواجهه أثناء دعوته وأمره ونهيه، والصبر في هذه الحالة من أفضل الأمور[٣]، بل هو من عزم الأمور، قال تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ لقمان: ١٧، فلا يعزم المرء عليه إلا أنه من أجل الأمور وأشرفها، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا أولو العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ الأحقاف: ٣٥، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه، وإظهار

---

[١] مجموع الفتاوى (١٣٣/٢٠).

[٢] مجموع الفتاوى (٣٥٨/٣).

[٣] انظر: مجموع الفتاوى (١٦٧/١٥-١٦٨)

آياته وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومجاهدة المكذبين لهم، والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ الأحزاب: ٧، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ الشورى: ١٣، وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر فقيل له:

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ الأحقاف: ٣٥»[١].

ونستخلص من هذه النصوص أن الصبر من أوجب الأعمال القلبية، بل هو نصف الدين، وهو مفتاح كل خير، وباب كل السعادة، وقد أثنى الله على المتصفين به وبين أنهم من أعلى الناس مترلة في الدنيا والأخرة.

المطلب الثالث

أقسام الصبر

ينقسم الصبر إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة، فينقسم باعتبار محله إلى قسمين:

القسم الأول: الصبر البدني، وهو ما يتعلق بالجوارح، وقد يكون اختياريا، كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختيارا وبدنا، وقد يكون اضطراريا، كالصبر على ألم الضرب والمرض والبرد والحر وغير ذلك.

---

[١] مجموع الفتاوى (١٧/٣١-٣٢).

القسم الثاني: الصبر النفسي، وهو ما يتعلق بالقلب، وهو أيضا قد يكون اختياريا، كصبر النفس على فعل ما لا يحسن فعله شرعا ولا عقلا، وقد يكون اضطراريا، كصبر النفس على محبوبها قهرا، إذا حيل بينها وبينه[1].

والصبر الاختياري من القسمين أعلى وأكمل من الاضطراري، لأن ذلك هو المتعلق بفعل العبد الذي يأتيه باختياره طلبا لمرضاة الله وثوابه، وأما النوع الاضطراري منهما فإن العبد مضطر إلى فعله، وهو مشترك بين جميع الناس، فإن العبد إذا أصيب بمصيبة من المصائب التي لا حول ولا قوة في دفعها، فإنه إما أن يصبر ابتداء لكي يثيبه الله سبحانه على هذا الصبر، وإما أن يجزع ويشتكي ويسخط، وهذا لا ينفعه شيئا ولا يرد المقدور، وهو في النهاية سيتحمل شاء أم أبى، فإن عاد إليه صوابه وتدارك الموقف وأناب إلى الله، وتاب من التشكي والجزع، فهناك يحمد، أما إذا تمادى في غيه حتى وصل إلى حيث لم يعد الجزع والتسخط ينفعه فصبره حينئذ صبر اضطراري[2].

وينقسم الصبر باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى، أي؛ الصبر على الطاعة حتى يفعلها، فإن العبد لا يكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبرٍ ومصابرة ومجاهدة لعدوه الباطن والظاهر، فبحسب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات وفعله للمستحبات.

القسم الثاني: الصبر عن محارم الله ﷻ، أي؛ الصبر عن المنهي عنه حتى لا يفعله، فإن النفس ودواعيها، وتزيين الشيطان، وقرناء السوء تأمره بالمعصية وتجرئه عليها، فبحسب قوة

---

[1] انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/٢٦٧)، وعدة الصابرين (ص/٣٥)، و لم أقف على كلام لشيخ الإسلام يقسم الصبر بهذا التقسيم.

[2] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢٩٠-٢٩١)، وانظر: عدة الصابرين (ص/٥٩) و (ص/٩٤-٩٥).

صبره يكون تركه لها، قال بعض السلف: أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقدر على ترك المعاصي إلا صديق[١] [٢].

القسم الثالث: الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى، أي؛ الصبر على ما يصيبه بغير اختياره من المصائب، وهي نوعان:

النوع الأول: هو ما يصيب الخلق بما لا اختيار لهم فيه، كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسهل الصبر فيها، لأن العبد يشهد فيها قضاء الله وقدره، وإنه لا مدخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارا، وإما اختيارا، فإن فتح الله على قلبه باب الفكرة في فوائدها وما في حشوها[٣] من النعم والألطاف[٤] انتقل من الصبر عليها إلى الشكر لها، والرضا بها، فانقلبت حينئذ في حقه نعمة[٥].

النوع الثاني: هو أن يحصل له مكروه بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه، وهو بالاختيار أن ينتقم ويأخذ حقه منهم أو يصبر ويعفو، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون، وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والعز والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠ /١٩٧) بإسناده عن سهل بن عبدالله التستري ضمن كلام له طويل بلفظ «ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله، ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب ، وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر»، (المحقق).

(٢) قاعدة في الصبر (ص/٩٠-٩١).

(٣) معنى الحشى: الناحية، والمقصود نواحيها أو داخلها. انظر: لسان العرب مادة (حشا) (١٣٥/٤)، (المحقق).

(٤) اللطيف من الكلام: ما غمض معناه وخفي، واللطف في العمل: الرفق فيه. انظر: لسان العرب مادة (لطف) (٢٠٢/١٣)، (المحقق).

(٥) قاعدة في الصبر (ص/٩١-٩٢)، باختصار.

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، فإذا انضاف إلى هذا الصبر قوة اليقين والإيمان ترقى العبد في درجات السعادة بفضل الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[١].

وذكر شيخ الإسلام أن الناس في الانتصار لله ولنفسه أربعة أقسام:

القسم الأول: من ينتصر لنفسه ولربه، وهو الذي يكون فيه دين وغضب.

القسم الثاني: من لا ينتصر لا لنفسه ولا لربه، و هو الذي فيه جهل وضعف دين.

القسم الثالث: من ينتقم لنفسه لا لربه، وهم شر الأقسام.

القسم الرابع: من ينتصر لحق الله، ويعفو عن حقه، وهذا هو الكامل من الناس[٢].

وقد ذكر شيخ الإسلام عشرين سببا تعين العبد على هذا النوع من الصبر، و لن أذكرها كلها خشية الإطالة، ولكن سأورد أهمها في نظري:

الأول: أن يشهد أن الله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد حركاهم وسكناهم وإراداهم، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشيءته، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تستريح من الهم والغم والحزن.

الثاني: أن يشهد العبد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ الشورى: ٣٠، فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه[٣] عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم، وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا

---

(١) قاعدة في الصبر (ص/٩٢-٩٣)، باختصار وتصرف يسير.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦٩/٣٠).

(٣) هكذا في الأصل، ولعل الصواب (التي سلطه عليه)، (المحقق).

يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر، وقال: هذا بذنوبي صارت في حقه نعمة.

الثالث – وهي من أعظم الفوائد –: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفر غفر الله له، فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه، سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويحسن إليه على ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره ويكفي العاقل هذه الفائدة.

الرابع: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه وانتقامه لها خلاف ما عليه رسول الله ﷺ، فإنه ما انتقم لنفسه قط[1]، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم يكن ينتقم لنفسه مع أن أذاه أذًى لله ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها وأبعدها من كل خُلقٍ مذموم، وأحقها بكل خُلقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من العيوب والشرور، بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

الخامس: أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه، ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفع عنه أحد من خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٦، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٦ .

السادس: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل[2] من إيمانه جزءاً في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص، والله تعالى يدفع عن الذين آمنوا.

---

[1] انظر: صحيح البخاري (ص/٥٩٧)، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، وصحيح مسلم (ص/٩٥١)،كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام.

[2] هكذا في الأصل ولعل الصواب (يبذل). (المحقق)

السابع: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فإن الله وكيل من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها، فأين من ناصره الله خير الناصرين، إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه.

الثامن: أن هذه المظلمة التي قد ظُلمها هي سبب، إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.

التاسع: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولد أخرى، وهلم جرا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما أن من عقاب السيئة السيئة بعدها، وربما كان هذا سبباً لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك[1].

المطلب الرابع

مراتب الصبر

سبق أن قلنا أن الصبر ينقسم باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصبر على طاعة الله سبحانه وتعالى.

القسم الثاني: الصبر عن محارم الله ﷻ.

القسم الثالث: الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى.

لكنه مراتب، فالصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي، والصبر عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار.

---

[1] قاعدة في الصبر (ص/٩٤-١٠٣)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣٠/٣٦١-٣٧١) تكلم عن هذ النوع من الصبر بكلام نفيس.

فالصبر على الواجبات أعلى أنوع الصبر[1]، لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات، كذلك إن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة[2].

كذلك الصبر على المحرمات أعلى منزلة من الصبر على المصائب[3]، لأن هذا الصبر والذي قبله يكونان باختياره، بخلاف ما يصيب العبد من المصائب التي لا خيار له فيها، وليس له إلا كف النفس والصبر.

---

[1] هذا هو الراجح إن شاء الله، وقد رجحه شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم رحمهم الله، لكن في المسألة خلاف، فمن نظر إلى المخالفات والمعاصي، وأن الصبر عليها مخالفة لهوى النفس، وهذا أمر شاق وصعب لا يقوى عليه إلا صديق، رجحوا أن الصبر على المخالفات أفضل، ومن نظر إلى أن مصلحة فعل الطاعات أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعاصي رجحوا أن الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على المحظور، وقد فصل الكلام في ذلك ابن القيم في عدة الصابرين (ص/٦٣-٧٦)، وقد ذكر عشرين وجها في ترجيح هذا القول، وأيضا في كتابه الفوائد (ص/١٧١-١٨٤)، رجح هذا القول، وذكر له ثلاثة وعشرين وجها، وذكر الخلاف في طريق الهجرتين (ص/٤١٤-٤١٥)، ثم قال: «وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوعا ونحوه».

[2] مجموع الفتاوى (١١/٦٧١).

[3] يقول ابن القيم رحمه الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابا، وداعية

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرا اختياريا، فإنه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان ذلك أعظم من صبر يوسف، لأن يوسف طلب منه الفاحشة وإنما عقب إذا لم يفعل بالحبس، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه طلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوه طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون من عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة، ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك و لم يكن أحد يهاجر إلا سرا، إلا عمر بن الخطاب ونحوه، فكانوا قد ألجؤوهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه .

فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة - وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه - فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح، وقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ التوبة: ١٢٠.

الشباب إليها قوية، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟»، مدارج السالكين (٢/١١٦-١١٧).

بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد، كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة، لكن المصيبة يكفر بها خطاياه، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها»[1].

إذا، الصبر على المحرمات أفضل من الصبر على المصائب، كما أن الصبر على ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك، فإن النفس تميل إلى الرئاسة والمال وفعل الفاحشة، وإن كان قادرا على فعلها والحصول عليها، ومع ذلك تركها لله، هذا أفضل من الذي يصبر في شيء لا يشتهيه ولا تميل النفس إليه، أو تميل النفس إليه ولكنه غير قادر على حصوله.

كذلك إذا طلب النفس شيئا من هذه الأمور وهو قائم بأمر ديني، كالخروج إلى الصلاة، أو طلب العلم، أو الجهاد، فصبر على ما تميل إليه النفس في هذا الحالة، فهو أعظم أجرا من الذي ابتلي بما تميل إليه النفس بدون عمل صالح.

كذلك من ابتلي بمرض أو فاقة وهو في أمر ديني، كالجهاد مثلا وصبر، هو أفضل ممن ابتلي بشيء منها وهو مقيم في بلده[2].

المطلب الخامس

لوازم الصبر وآدابه

إذا أمعنا النظر في القرآن والسنة وكتب العلماء وجدنا أن الله ورسوله قد وضعا ضوابط ولوازم وآداب للأعمال حتى تقع من العباد على وجه الكمال، وكذلك هو شأن الصبر.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/١٢٢-١٢٤).

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٧٦-٥٦٨).

ومن خلال استعراض نصوص الكتاب والسنة نجد أن للصبر لوازم وآدابا تجعله مفيدا دنيا وأخرى، ومن هذه اللوازم والآداب:

١- التحلي بالصبر عند الصدمة الأولى.

٢- الاسترجاع على حلول المصيبة.

٣- تجنب ما يضاد الصبر من التشكي وإظهار الجزع والفزع[١].

الأمر الأول: التحلي بالصبر عند الصدمة الأولى.

وهذ الأمر مستنبط من حديث المرأة التي أمرها الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر فلم تأتمر، ثم لما علمت أن الآمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت إليه معلنة صبرها، فعندئذ قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[٢]، فأوضح لها الرسول أن الصبر الذي يؤجر عليه صاحبه ويحمد فاعله هو الصبر والثبات عند أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، وإلا بعد أيام لا بد منه والرجل يسلو[٣]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «من لم يصبر عليها (المصائب) صبر الكرام سلا سلو البهائم»[٤]، لكن إذا لم يصبر عند الصدمة الأولى، ولكنه أيضا لم يستمر في حالة الجزع والتسخط، بل تدارك الأمر وأناب إلى الله وتاب، فهو إن شاء الله مأجور كذلك.

الأمر الثاني: الاسترجاع عند حلول المصيبة.

الاسترجاع هو قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ، وهو دليل على صبر صاحبه عند حلول المصيبة، و (قد شرع (الله) الاسترجاع عند المصيبة بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (٢-٢٧٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص/٤٣٤).

(٣) انظر: فتح الباري (٣/١٥٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/١٢٢).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ البقرة: ١٥٥ - ١٥٧، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرا منها»[١])[٢].

بين الله أن الصابرين الذين بشرهم بهذه الأمور هم الذين عند المصيبة يسلون بقولهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، ويعلمون أن أرحم الراحمين تصرف بمماليكه وأموالهم، ويعلمون أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة[٣]، قال القرطبي: «جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب، وعصمة للممتحَنين، لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالهُلْك على أنفسنا، والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له»[٤].

وأوضح النبي ﷺ أن من استرجع عند المصيبة آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها.

ولا شك أن الاسترجاع من كمال الصبر على المصائب، وهو الدليل على صدق صاحبه في الصبر ورضاه بقدر الله وقضائه، كما أنه عامل مهم من عوامل الاستفادة دنيا وأخرى.

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٥٦)، في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة.

[٢] مجموع الفتاوى (٥١١/٤) بتصرف يسير، وانظر (٣٠٨/٢٥).

[٣] انظر: تفسير ابن كثير (٢٥٩/١)، وتفسير السعدي (ص/٧٦).

[٤] تفسير القرطبي (٤٦٧/٢).

الأمر الثالث: تجنب ما يضاد الصبر.

سبق أن قلنا أن الصبر هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما، فمِن الأمور التي تنافي الصبر وتضاده هو التشكي بلسان الحال والقال، والجزع والتسخط المتمثلان في عدة أمور، أشهرها لطم الخدود وشق الجيوب والنياحة.

أ- التشكي، فالتشكي إلى المخلوق مناف للصبر، لأنه شكوى في غيره محله، وهو شكوى الخالق إلى المخلوق، وشكوى الرحيم إلى من لا يرحم[1]، أما الشكوى إلى الله فذلك غير مناف للصبر، قال شيخ الإسلام: «الصبر الجميل؛ صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يوسف: ٨٦ مع قوله: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ يوسف: ١٨، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل...، وكان عمر بن الخطاب ﵁ يقرأ في صلاة الفجر: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف[2]، بخلاف الشكوى إلى المخلوق، قرئ على الإمام أحمد في مرض موته أن طاوسا كره أنين المريض، وقال:"إنه شكوى"، فما أنّ حتى مات[3].

---

(1) انظر: مدارج السالكين (٢/١٢٠)، وعدة الصابرين (ص/٥٢٣).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/٢٢٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/١١١)، والبيهقي في الشعب (٣/٤١٤).

(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/١٨٣).

وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال إما إزالة ما يضره، أو حصول ما ينفعه، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ الشرح: ٧ - ٨، وقال ﷺ لابن عباس: "إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله"[(١)].

ولا بد للإنسان من شيءين: طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور، فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر»[(٢)].

فالشكوى ينقسم إلى قسمين:

الأول: شكوى إلى الخالق سبحانه، وهذا لا ينافي الصبر الجميل.

الثاني: الشكوى إلى المخلوق، وهذه نوعان أيضا:

١- شكوى محرمة منافية للصبر، وهي التي تكون على سبيل التسخط للقدر والتضجر، وهو كما أسلفنا هو شكوى الخالق إلى المخلوق، وشكوى الرحيم إلى من لا يرحم[(٣)].

٢- شكوى مباحة، وذلك إن خلا من تسخط للقدر وتضجر، إنما يكون من باب الإخبار طلبا للاستعانة أو الانتفاع.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله، فإن هذا هو الصبر الجميل، وأما الكتمان فيراد به شيئان:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٠٩/٤)، والترمذي في السنن (ص/٥٦٧)، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصحح الحديث الشيخ الألباني في ظلال الجنة (ص/١٥٠-١٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٦٦/١٠-٦٦٧)، باختصار.

(٣) وقد ذم السلف هذا النوع من التشكي كثيرا، قال علي ﷺ: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك»، وقال شقيق البلخي: «من شكا مصيبة به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدا»، انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/٢٧١).

أحدهما: أن يكتم بثه وألمه ولا يشكو إلى غير الله، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره وهذا أعلى الكتمانين ، لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد، بل كثير من الناس يشكو ما به، وهذا على وجهين:

- فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفتي وهذا حسن، وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام،

- وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة، كما أن المصاب يشتكي مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الاستعانة على معصية، فهذا ينقص صبره، لكن لا يأثم مطلقا، إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط»[1].

ب- إظهار الجزع والفزع، وذلك كما أسلفنا تكون بعدة أمور، منها النياحة عند المصيبة، وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، ووالنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[2].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[3].

---

(1) مجموع الفتاوى (١٤/٢٠٨)، وانظر: عدة الصابرين (ص/٥٢٣).

وقد ذكر شيخ الإسلام المراد الثاني من الكتمان أيضا، أذكره هنا للفائدة، وإلا ليس له علاقة بما نحن فيه، فقال رحمه الله: «والثاني: أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس، لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهت وتمنت وتتيمت، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعيا له إلى الفعل...»، مجموع الفتاوى (١٤/٢٠٨)

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٦٢)، في كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٧)، في كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، ومسلم في صحيحه (ص/٦٧)، في كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود.

فهذه الأمور عند المصيبة تنافي الصبر عند الصدمة الأولى، بل تنافي الصبر كله، لأن صاحبها لا يسلو إلا إذا عجز ورأى أن الجزع لا يفيده شيئا، ولا يرد له ما فقد.

وهي منافية لكمال الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن المصيبة بإذن الله، وأن الله أتم الحكمة في تقديرها، وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، فالنادب الجازع حاله مشعر بأن ما أصابه من المصيبة لم تكن من الحكمة أن تصاب بها، أو أن هذا الشخص الذي توفي كان الأولى أن لا يموت الآن[1].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعا: «وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، لأنها مشتملة على التسخط على الرب وعدم الصبر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور، والتظلم من اللّه تعالى، وبدون هذا يثبت التحريم الشديد، فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقًا لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم، ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد لما رواه في مسنده عن عائشة: "أن أبا بكرﷺ دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه"[2]. وكذلك صح عن فاطمة رضي الله عنها أنها ندبت أباها ﷺ فقالت: "يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه"[3]، الحديث»[4].

فالصبر الجميل هو الذي لا يكون فيه التشكي إلى الخلق، ويكون خاليا من جميع مظاهر الجزع والسخط والفزع، اللهم إلا البكاء الذي ليست فيه ندبة ولا نياحة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافي للرضاء قط، مع أنه لا فائدة فيه فقد يكون مضرة،

---

[1] انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣١٠).

[2] أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٢/٤٠)، وحسنه المحقق.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٥٨)، في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ و وفاته.

[4] تيسير العزيز الحميد (ص/٤٤٤-٤٤٥)

ولكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله، لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة له حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات الحظ منه، ويهذا يعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال:"إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[1]»[2].

المطلب السادس

ثمرات الصبر

فإن الصبر آخية المؤمن التي يجول حولها، وساقُ إيمانه التي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له[3].

وقد جعل الله الصبر جوادا لا يكبو، وصارما لا ينبو، وجندا غالبا لا يهزم، وحصنا حصينا لا يهدم ولا يثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان[4]، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «واعلم أن النصر مع الصبر»[5]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٣، فإن من معاني المعية الخاصة هو النصر - المرتب على الصبر-، وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ

---

(١) تقدم تخريجه (ص/٤٣٧).

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٦٩).

(٣) عدة الصابرين (ص/٨-٩).

(٤) نفس المصدر (ص/٥).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩/٥)، والحاكم في المستدرك (٢٦١/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥١/٢)، وصحح الحديث الشيخ الألباني في ظلال الجنة (ص/١٥١).

وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ آل عمران: ١٢٥، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ ﴾ آل عمران: ١٢٠.[1]

كما أن الصبر سبب للحصول على محبة الله ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٦.

وجعل الله الإمامة في الدين موروثة عن الصبر و اليقين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: [2]٢٤.

ولما كان ذكر ثمرات العمل وفوائده سببا ودافعا إلى العمل نجد شيخ الإسلام رحمه الله حين تكلم عن النوع الثاني من الصبر على الأقدار والمصائب، وذلك إذا كانت المضرة والمصيبة حاصلة من قبل الناس، شجع المصاب على العفو والتجاوز بذكر بعض ثمرات الصبر، فمن تلك الثمرات:

- أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه، ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفع عنه أحد من خلقه، قال الله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٤٦، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٦.

- أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل[3] من إيمانه جزءاً في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص والله تعالى يدفع عن الذين آمنوا.

- أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فإن الله وكيل من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها، فأين من ناصره الله خير الناصرين، إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه[1].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٣٤/١١).

[2] التحفة العراقية (ص/٣٥٤).

[3] هكذا في الأصل ولعل الصواب (يبذل)، (المحقق).

هذه بعض ثمرات الصبر في الدنيا، أما في الأخرة قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ المؤمنون: ١١١، ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ الإنسان: ١٢، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ الفرقان: ٧٥.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ولما كان في الصبر من حبس النفس والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه، كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة والحرير الذي فيه اللين والنعومة والاتكاء الذي يتضمن الراحة والظلال المنافية للحر»[٢].

هذا ما تيسر لي جمعه، أسأل الله تعالى أن يخلقنا بخلق الصبر، كما أسأله سبحانه أن يسلك بنا سبيل الصابرين وأن يجعلنا منهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[١] انظر: قاعدة في الصبر (ص/٩٤-١٠٣).

[٢] رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان (٧٣/١)، ضمن جامع الرسائل.

المبحث التاسع: الرضا.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: متعلقات الرضا.

المطلب الثالث: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الرابع: أقسام الرضا.

المطلب الخامس: ثمرات الرضا.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الرضا: مصدر رضي يرضى رِضا ورِضوانا، ويُضَمَّان، ومَرضاة وهو ضد السخط، ويتعدى بعن وبالباء، فيقال: رضيت عنه ورضيت به، كما يتعدى عند بعض العرب بعلى، فيقولون: رضيت عليه، بمعنى رضيت عنه، وعلى هذا جاء قول الشاعر(١):

إذا رَضِيَتْ علي بنو قشير :: لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رِضاها.

ويتعدى الرضا بنفسه أيضا، رضيت الشيء، فالرضا حنيئذ بمعنى الاختيار، وارتضيت الشيء: اخترته،

وراضيت فلانا: وافقته(٢).

قال ابن فارس: «الراء والضاد والحرف المعتل أصل واحد يدل على خلاف السخط، تقول: رضي يرضى رضى، وهو راض، ومفعوله مرضي عنه، ويقال إن أصله الواو، لأنه يقال منه رضوان»(٣).

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

عرف العلماء الرضا بتعريفات متعددة، ترجع بمجموعها إلى أن الرضا هو أن يشعر العبد بالارتياح والطمأنينة لما يختاره الله له من الأمور الكونية والشرعية، مع التسليم التام وعدم الحرج والسخط.

---

(١) انظر: الصحاح للجوهري (6/٣١٤)، ولسان العرب (١٦٩/٦)، وقد نسب ابن منظور البيت للقُحيف العُقيلي.

(٢) انظر: المصباح المنير (ص/١٩١)، والقاموس المحيط (ص/١٦٦٢)، ولسان العرب (١٦٨/٦-١٦٩).

(٣) معجم مقاييس اللغة (ص/٣٨٦).

قال الجرجاني: «الرضا: سرور القلب بمر القضاء»[1].

وقال ابن العربي[2]: «الرضاء سكون النفس إلى القدر والقضاء»[3].

وقيل: «الرضا سكون القلب وطمأنينته إلى قدم اختيار الله للعبد بأنه اختار له الأفضل فيرضى به»[4].

وقيل: «نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، وترك السخط».

وقيل: «ارتفاع الجزع في أي حكم كان»[5].

فالناظر في هذه التعريفات يلاحظ أنها مركزة نحو تعريف نوع واحد من أنواع الرضا، وهو الرضا بالقضاء، كما نلاحظ في بعضها مداخلة بين الصبر والرضا، إذ في كلا الحالتين يوجد المؤلم، لكن الصبر هو ترك إظهار الجزع والتشكي، أما الرضا بالإضافة إلى ما سبق فهو انشراح الصدر والسعة والطمأنينة بما يؤدي إلى تخفيف المؤلم، أو عدم الإحساس بالألم بالكلية، وهذا في الحقيقة هو الفرق بين الصبر والرضا كما بينه ابن رجب رحمه الله إذ قال: «والفرق بين الرضا والصبر: أن الصبر؛ كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، وتمني زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا؛ انشراح الصدر وسعته بالقضاء،

---

[1] التعريفات (ص/١١٤).

[2] هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر بن العربي، قاض، من حفاظ الحديث، ولد سنة ٤٦٨ هـ في إشبيلية، ورحل إلى إلى المشرق، وولي قضاء إشبيلية، صنف كتبا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتأريخ، فمن مؤلفاته: العواصم من القواصم، وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وأحكام القرآن، والقبس في شرح موطأ مالك بن أنس وغيرها، توفي سنة ٥٤٣ هـ، انظر: الأعلام (٦/٢٣٠)، ووفيات الأعيان (٤/٢٩٦).

[3] عارضة الأحوذي (2/٢٦٥).

[4] انظر: مدارج السالكين (٢/١٣٠)، ولوامع الأنوار (١/٣٥٩).

[5] ذكرهما ابن القيم في مدارج السالكين (٢/١٣٢).

وترك تمني زوال ذلك المؤلم، وإن وجد الإحساس بالمؤلم، لكن الرضا يخففه لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا، فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية»[1].

فالرضا إذًا عمل قلبي، إذا تحقق به المؤمن استطاع أن يَتلقَّى نوائب الدهر وأنواع الكوارث بإيمان راسخ، ونفس مطمئنة، وقلب ساكن، بل قد يترقى إلى أرفع من ذلك فيشعر بالسرور والفرحة بمر القضاء، وذلك نتيجة ما تحقق به من المعرفة بالله تعالى، والحبِّ الصادق له سبحانه.

المطلب الثاني

متعلقات الرضا

إن الرضى الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، قال صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا»[2].[3]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربا، وبمحمد رسولا، وبالإسلام دينا، غفر له ذنبه»[4].

فإن الرضا بالله يعني الرضا بربوبية الله الذي يتضمن الرضا بعبادته وحمده لا شريك له، والرضا بتدبيره للعبد واختياره له، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

---

[1] جامع العلوم والحكم (٤٨٨/١).

[2] تقدم تخريجه ().

[3] مجموع الفتاوى (٤٨٤/١٠).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٦٦)، في كتاب الصلاة، باب استحباب قول مثل قول المؤذن.

الأنعام: ١٤، وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ التغابن: ١١.

والرضا بالإسلام دينا يقتضي اختياره على سائر الأديان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ آل عمران: ١٩، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥.

والرضا بمحمد ﷺ يقتضي الرضا بجميع ما جاء من عند الله، وقبول ذلك بالتسليم والانشراح، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ النساء: ٦٥، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ الأحزاب: ٣٦، وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ التوبة: ٥٩.[١]

يقول ابن القيم رحمه الله: «وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضى بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضى برسوله والانقياد له، والرضى بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة : فهو الصديق حقا. وهي سهلة بالدعوى واللسان وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضى كان لسانه به ناطقا، فهو على لسانه لا على حاله.

[١] انظر: جامع العلوم والحكم (١/١١٨).

فالرضى بإلهيته: يتضمن الرضى بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فعَل الراضي بمحبوبه كل الرضى وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضى بنبيه رسولا: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه...

وأما الرضى بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى: رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليما، ولو كان مخالفا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته»[1].

المطلب الثالث

الأدلة من الكتاب والسنة

الرضا من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، قال الله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ المائدة: ١١٩، وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ الفتح: ١٨، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾

[1] مدارج السالكين (٢/١٢٨-١٢٩).

طه: ١٠٩، وقال النبي ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[١].

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات الرضا لله، فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف لا تمثيل، وهو رضا حقيقي يليق بالله تعالى ليس كرضا المخلوقين[٢].

فالرضا أمر متبادل بين الرب وبين العبد، كما قال تعالى عن الصادقين: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ المائدة: ١١٩، وقال عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ التوبة: ١٠٠، وقال عن قوم يؤمنون بالله واليوم الأخر الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ المجادلة: ٢٢، وقال عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ البينة: ٨.

ونحن في هذا المقام بصدد البحث في رضا الناس الذي هو من أجل أعمال القلوب وأشرفها، وقد أجمع العلماء على مشروعيته، واختلفوا في وجوبه واستحبابه في مواضع، وقد جاء في القرآن والسنة بيان أهمية الرضا، ومدح الراضين والثواب المرتب على من اتصف بهذا الخلق العظيم، كما ذم الذين استعملوه في غير موضعه، وبيان ذلك كالتالي:

المسألة الأولى: النصوص الواردة في بيان أهمية الرضا.

كما أسلفا في مبحث متعلقات الرضا، بينا أن من الرضا بالله ربا؛ الرضا بربوبيته وإلهيته، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الأنعام: ١٦٤، وقال تعالى:

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٩٤)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب.

[٢] انظر: شرح لمعة الاعتقاد (ص/٥٣)، للشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ الأنعام: ١٤، وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ ﴾ الأنعام: ١١٤، يقول ابن القيم عقب ذكره لهذه الآيات: «وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا...، فكثير من الناس يرضى بالله ربا ولا يبغي ربا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرا، بل يوالي من دونه أولياء ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد : أن لا يتخذ سواه ربا ولا إلها ولا غيره حكما»[1].

فكما ترى ففي هذا الآيات لم يذكر لفظ الرضا مع أن معناه هو المقصود، وذلك ببيان أن الله متفرد بالربوبية، وأنه رب كل شيء، وأنه فطر السموات والأرض، وأنه يطعم ولا يطعم، كل هذا يستلزم إفراد الخالق بالعبودية التي من أجلها خلق الخليقة، ومن تبين هذا تعيّن عليه أن يتخذ الرب إلها ويرضى به، ولا يتعلق بأحد من المربوبين العاجزين.

ثم إن الرضا كما سيأتينا ينقسم إلى ثلاثة أقسام، منها الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، وهذا الرضا بالقضاء الديني الشرعي، وقد تكلم عن هذا النوع شيخ الإسلام كثيرا وذكر الأدلة عليه من الكتاب والسنة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا" ، وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥، وقال تعالى:

---

[1] مدارج السالكين (١٣٥/٢)، باختصار.

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ التوبة: ٥٩»[١].

فبين ﷺ في هذا الحديث أن ذوق طعم الإيمان لمن رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا.

ففي الآية الأولى دليل على أنه يجب على المسلمين أن يحكموا رسول الله في كل ما شجر بينهم، وأنه لا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «كل من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وشريعته فقد أقسم الله بنفسه المقدسة؛ أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله ﷺ في جميع ما يشجر بينهم من أمور الدين والدنيا وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه، ودلائل القرآن على هذا الأصل كثيرة»[٢].

أما الآية الثانية فتتحدث عن المنافقين الذين جلّ همّهم منصب على حطام هذه الدنيا الفانية، فإن هم نالوا من هذا الحطام شيئا رضوا، وإلا فهم ساخطون، وقد وجّههم المولى ﷻ إلى ما هو خير لهم من هذا، فقال ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾، أي لو أنهم رضوا بما قسم الله لهم من الرزق، وبما هو حظهم من الغنائم والعطايا التي يعطونها من قبل رسول الله ﷺ وقالوا: حسبنا الله الذي تكفل بأرزاق عباده، ووعد من توكل عليه واعتمد عليه بالرزق، وتعهد عباده المخلصين له بالفضل، وانتظروا تحقيق هذا الوعد، لو فعلوا ذلك لكان خيرا لهم، وهذا هو الجواب المحذوف الذي يدل عليه السياق[٣].

---

[١] التحفة العراقية (ص/٣٥٧-٣٥٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٩٠/٨).

[٢] مجموع الفتاوى (٤٧١/٢٨)، وانظر (١٥٥/٥).

[٣] انظر: تفسير ابن كثير (٤٧٨/٢)، وتفسير أبي سعود (٧٥/٤)، وانظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣٢١).

فهذه النصوص تبين أهمية الرضا، وأنه من أهم أعمال القلوب، بل هي تدل على وجوب الرضا بالله ربا وإفراده بالإلهية، والرضا بما قسم وبما قضى وقدر، ويدخل في ذلك الرضا بأحكامه الشرعية، والرضا بنبوة النبي ﷺ.

المسألة الثانية: المدح والثناء على المتصفين بالرضا.

تقدم معنا أن الرضا أمر متبادل بين الرب وبين العبد، فقد رضي الله عن المؤمنين المتقين ورضوا عنه، ولما رضوا ما يرضى وسخطوا ما يسخط، كان الحقُ يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ ذلك متلازم بين طرفين[(١)].

وكان شيخ الإسلام حين يتكلم عن الرضا بالمصائب، كالفقر والمرض والذل، كان يحكي خلاف العلماء في استحبابه ووجوبه، ويرجح الاستحباب لأمرين:

- لعدم وجود الدليل على وجوب الرضا في هذه الحال.
- أنه لم يأتي في القرآن إلا مدح الراضين والثناء عليهم[(٢)].

نعم، إذا رجعنا إلى القرآن والسنة لم نجد دليلا صريحا صحيحا في وجوب الرضا عند المصائب، لكننا نجد المدح والثناء العظيم عليهم، والنصوص في ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ البينة: ٧ – ٨، نعت الله الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بأنهم خير البرية، وأعد لهم من الجزاء جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، وزيادة على ذلك الجزاء وعدهم رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره وقبلوا شرائعه ورضوا عنه، وذلك لمن خشي ربه[(٣)]، وقال تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٣٧٤).

(٢) انظر: التحفة العراقية (ص/٣٥٧).

(٣) انظر: فتح البيان (١٥/٣٣٦-٣٣٨)، لمحمد صديق حسن خان.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ١٠٠، ففي هذه الآية يخبر الله عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم[(١)]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فكل من أخبر الله عنه أنه رضي عنه، فإنه من أهل الجنة وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح عليه... وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۞ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ الفجر: ٢٧ – ٣٠»[(٢)]، ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء في الآيات قبلها، ذكر بعض أحوال السعداء ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، الراضية بقضاء الله ﴿ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ارجعي راضية عن الله، وعن ما أكرمها من الثواب، والله قد رضي عنها ﴿ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۞ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ أي ادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وادخلي معهم في جنتي»[(٣)].

وقال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا»، فإن من الأمور التي بها يذاق طعم الإيمان هو الرضا بهذه الثلاثة، وهذا يبين فضل هذا العمل وأهميته في حياة المسلم.

---

(١) تفيسر ابن كثير (٥٠٢/٢).

(٢) الصارم المسلول (١٠٦٩/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦٥٨/٤)، وفتح البيان (٢٣٢/١٥-٢٣٣)، لمحمد صديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/٩٢٤).

وقال ﷺ: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»[1]، ففيه إيضاح بأن الرضا بما قسم الله للعبد هو رأس الغنى، وأن صاحبه أغنى الناس، وهذا لا شك أنه مدح للراضين بما قسم الله لهم من الأرزاق.

المسالة الثالثة: النصوص التي وردت في ذم الذين استعملوا الرضا في غير موضعه.

إن الرضا شعبة من شعب الإيمان، لا يتم إيمان المرء إلا به، ولك أن ترضى بالله ربا ومعبودا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وبذلك يذوق المرء طعم الإيمان.

ولكن، نجد من الناس من يخل بهذه العبادة، بحيث لا يكون رضاه لله، بل يرضى بالحياة الدنيا الفانية وببعض حظوظها ويغفل عن الآخرة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ التوبة: ٣٨، ففي هذه الآية إنكار وتوبيخ على الذين يتثاقلون عند داعي الجهاد، وتنبيه أن هذا التثاقل هو دليل على رضاهم بالحياة الدنيا بدل الآخرة، مع أن الحياة الدنيا إزاء الآخرة لا تساوي شيئا، بل هي قليلة الفائدة والأهمية[2].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ يونس: ٧ – ٨، أما هذه الآية ففيها إخبار أن من اتصف بهذه الصفات – ومنها الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها،

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٢١)، في كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٨/١٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٣٠).

[2] انظر: تفسير الطبري (٢٥١/١٤)، وتفسير ابن كثير (٤٧٠/٢)، وتفسير القرطبي (٢٠٦/١٠)، وتفسير السعدي (ص/٣٣٧).

والغفلة عن الآخرة – أن مصيرهم إلى النار، وأن مأواهم جهنم، وذلك بسبب الكفر والشرك وأنواع المعاصي[1].

فالرضا بالحياة الدنيا والتعلق بها وببعض حظوظها، لا شك أنه خلل في الإيمان، بل هو نوع من أنواع الشرك الخفي، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إذا أعطي رضي وإذا منع سخط "[2].

فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاءً وخبرا، وهو قوله: "تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش". والنقش إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإن منع سخط كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ التوبة: ٥٨، فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة، أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق

[1] انظر: تفسير الطبري (٢٥/١٥)، وتفسير ابن كثير (٥٣٣/٢)، وتفسير القرطبي (٤٥٧/١٠)، وتفسير السعدي (ص/٣٥٨).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١١٧)، في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.

والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ولهذا يقال:

العبد حر ما قنع :: والحر عبد ما طمع»[١].

ومما سبق تبين أن الرضا يجب أن يكون بالله وبما قسم لنا من هذه الدنيا، كما تبين أنه لا يجوز لنا أن نتعلق بالدنيا ومتاعها ونركن إليها ونرضى بها، لأن ذلك صرف شيء من العبودية لغير الله، بل يكون الرضا بالله غاية يسعى إليها.

المطلب الرابع

أقسام الرضا

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام نجد أنه يقسم الرضا إلى ثلاثة أنواع أحيانا[٢]، أو يقسمه إلى نوعين، إلى الرضا المحمود، والرضا المذموم، ثم الرضا المحمود يقسم إلى قسمين[٣].

النوع الأول: هو الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، وهو الرضا بالقضاء الديني الشرعي، وهو من توابع المحبة، وهو من الرضا المحمود، قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا ونبيا»، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ ، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ التوبة: ٥٩، وقال تعالى:

---

[١] العبودية (ص/٥٩-٦١)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٩٧-٥٩٨).

[٢] انظر: التحفة العراقية (ص/٣٥٦-٣٥٩)، ومجموع الفتاوى (١٠/٤٨٢).

[٣] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٨٢-٦٨٣).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ محمد: ٢٨، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة: ٥٤ فهذا الرضا واجب، وعدم الرضا له من صفات المنافقين الذين ذمهم الله في قوله: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴾ التوبة: ٥٨.

النوع الثاني: هو الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب التي يبتليه بها، كالفقر والمرض والذل، وهو الرضا بالقضاء الكوني القدري، وهو من الرضا المحمود أيضا، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٥، وقال تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ ﴾ البقرة: ١٧٧، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ ﴾ البقرة: ٢١٤.

وقد اختلف أهل العلم في حكم هذا النوع من الرضا على قولين:

– أنه واجب[1].

---

[1] الذين قالوا بالوجوب، احتجوا ببعض الأدلة، قد ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين (٢/١٣٩-١٤٠)، فأذكر هنا كلام ابن القيم باختصار، قال رحمه الله : «وأوجبته (الرضا بالمصائب) طائفة كما أوجبوا الرضى به، واحتجوا بحجج:

– منها: أنه إذا لم يكن راضيا عن ربه فهو ساخط عليه، إذ لا واسطة بين الرضى والسخط، وسخط العبد على ربه مناف لرضاه به ربا.

الرد عليهم: هذاكلام مدخول، لأن السخط بالمقضي لا يستلزم السخط على من قضاه، فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راض عمن قضاه وقدره، بل قد يجتمع تسخطه والرضى بنفس القضاء كما سيأتي إن شاء الله (قلت: وذلك في الرضا بالمنهيات، كما سنبينه).

- أنه مستحب، وذلك أن الإيجاب يستلزم دليلا شرعيا، ولا دليل يدل على وجوب الرضا بالمصائب، وهذا هو الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن رجب رحمهم الله[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه، وأن محبة ذلك واجبة، بحيث يبغض ما أبغضه الله، ويسخط ما أسخطه الله من المحظور، ويحب ما أحبه ويرضى ما رضيه الله من المأمور.

- **قالوا**: وأيضا فعدم رضاه عنه يستلزم سوء ظنه به، ومنازعته له في اختياره لعبده، وأن الرب تبارك وتعالى يختار شيئا ويرضاه، فلا يختاره العبد ولا يرضاه، وهذا مناف للعبودية.

الرد عليهم: قولهم؛ «إنه يستلزم سوء ظن العبد بربه ومنازعته له في اختياره» فليس كذلك، بل هو حسن الظن بربه في الحالتين، فإنه إنما يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر، كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه، فينازع قدر الله بقدر الله ، كما يستعيذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، ويستعيذ به منه.

فأما كونه: «يختار لنفسه خلاف ما يختاره الرب» فهذا موضع تفصيل، لا يسحب عليه ذيل النفي والإثبات، فاختيار الرب تعالى لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ الأحزاب: ٣٦، فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا.

النوع الثاني: اختيار كوني قدري، لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلى الله بها عبده، فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

- **قالوا**: وفي بعض الآثار الإلهية من لم يرض بقضائي، ولم يصبر على بلائي فليتخذ ربا سواي، ولا حجة في شيء من ذلك، انظر: مدارج السالكين (٢/١٣٩-١٤٠).

[1] جامع العلوم والحكم (١/٤٨٨).

وإنما تنازعوا في الرضا بما يقدره الحق من الألم بالمرض والفقر، فقيل هو واجب، وقيل هو مستحب، وهو أرجح، والقولان في أصحاب الإمام أحمد وغيرهم، وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب»[(١)].

وقال رحمه الله: «ولهذا لم يجئ في القرآن إلا مدح الراضين، لا إيجاب ذلك»[(٢)].

قال الحسن البصري رحمه الله: «الرضا عزيز، لكن الصبر معول المؤمن»[(٣)].

النوع الثالث: الرضا بالمنهيات كالكفر والفسوق والعصيان، فالذي عليه أئمة الدين والعلماء المعتبرون أنه لا يشرع الرضا بها، كما لا تشرع محبتها، فإن الله سبحانه لا يحبها ولا يرضاها، وإن قدرها وقضاها، كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ البقرة: ٢٠٥، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ الزمر: ٧، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ النساء: ١٠٨، بل يسخطها، كما قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ التوبة: ٩٦، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ محمد: ٢٨.

فإذا كان الله لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم، فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك، وألا يسخطه ويغضب لما يسخط الله ويغضبه[(٤)].

وقالت طائفة: ترضى من جهة كونه مضافة إلى الله خلقا، وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلا وكسبا، وهذا القول لا ينافي الذي قبله، بل هما يعودان إلى أصل واحد،

---

(١) قاعدة في المحبة (ص/٢٦٨-٢٦٩).

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٥٧).

(٣) نفس المصدر (ص/٣٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/٦٨٣).

وهو سبحانه إنما قدر الأشياء وكونها لحكمة، فهي لاعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة، إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان: يحب من أحدهما، و يكره من الآخر، كما في الحديث الصحيح: «ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»[1] [2].

المطلب الخامس

ثمرات الرضا

سبق أن قلنا أن الرضا من أجل الأعمال القلبية، ولا يتم إيمان المرء إلا به، وفي هذا المطلب سأذكر بعض الفضائل والثمرات للرضا، وذلك بما يتيسر لي من كلام شيخ الإسلام رحمه الله، فأقول:

إن من أسباب الرضا بالقضا هو اليقين والثقة بأن الله لا يقضي للمؤمن قضاء إلا وهو خير له، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الحمد على الضراء يوجبه مشهدان:

أحدهما: علم العبد بأن الله سبحانه وتعالى مستوجب لذلك، مستحق له لنفسه، فإنه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم.

والثاني: علمه أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: "والذي نفسي بيده، لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خير له"[3]»[1].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٢٧)، في كتاب الرقاق، باب باب التواضع.

[2] التحفة العراقية (ص/٣٥٩-٣٦٠).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٢٠٠)، في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له، إذا كان صبارا شكورا، أو كان قد استخار الله تعالى، وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له، كان قد رضي بما هو خير له، و جاء في الحديث عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[(٢)].[(٣)]

يفهم من كلام شيخ الإسلام أن من سعادة العبد هو الرضا بالله وبما قسم له، فالرضا يترل على العبد سكينة لا تتترل عليه بغيره، فالرضا يؤدي إلى طمأنينة القلب وسكونه وقراره، وذلك إذا علم العبد أن ما يختاره الله له خير من اختياره لنفسه فيصبر على ما قضى الله له وقدر، ويرضى بذلك، هذا لا شك أنه ثمرة عظيمة للرضا، وكل هذا بسبب أن من تحلى بالرضا قد ذاق طعم الإيمان،كما قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا».

ثم إن الرضا يثمر رضا الرب عن العبد، وهذا زيادة على سعادته وطمأنينته، وهو من طعم العبودية والإيمان، ومن المقرر أن الجزاء من جنس العمل، فإن الله يرضى عن الذين يرضون به ربا، ويعبدونه ولا يعبدون من سواه، وينقادون لدينه ويستسلمون، ويتبعون نبيه ويطيعونه، قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ المائدة: ١١٩، قال شيخ الإسلام رحمه الله:

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٦٣)، ثم أورد شيخ الإسلام أشكالا، كيف يجمع بين هذا وبين ما يقضى على المؤمن من المعاصي، فذكر جوابين على هذا الإشكال:

الأول: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد، لا ما فعله العبد، (والمعاصي من فعل العبد).

الثاني: أن هذا في حق الصبار الشكور، فمن ليس كذلك لا يلزم أن يكون القضاء في حقه كله خير، انظر: التحفة العراقية (ص/٣٦٤-٣٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سنن (ص/٥٤٠)، في كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٦٦)، في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، وصحح الحديث الألباني في الصحيحة (٩٣٦).

(٣) التحفة العراقية (ص/٣٦٧).

«عباد الله المؤمنين وأولياءه المتقين، فهؤلاء يحبهم ويحبونه، ويوافقونه فيما يحبه ويرضاه ويأمر به، فقد رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولما رضوا ما يرضى وسخطوا ما يسخط، كان الحق يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ ذلك متلازم من الطرفين»[1].

ثم من رضي الله عنه، فإن الله يأذن أن يُشفع له يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٨.

كذلك الرضا سبب لغفران الذنوب، قال النبي ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، غفرت له ذنوبه»[2].

بل، الرضا سبب لشيء فوق ذلك، ألا و هو دخول العبد الراضي الجنة، قال النبي ﷺ: «يا أبا سعيد: من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا وجبت له الجنة»[3].

والخلاصة، أن الرضا يثمر نفسا مطمئنة وحياة طيبة، وهو حسن ظن العبد بربه، وبه يحصل المرء على رضوان الله، وبه تكون النجاة من النار، والفوز بالجنة.

فأسأل الله العظيم، رب العرش الكريم أن يمنّ علينا بأن نرضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٣٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٦٦)، في كتاب الصلاة، باب استحباب قول مثل قول المؤذن.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٨٤)، في كتاب الإمارة، باب ما أعد الله للمجاهد في الجنة من الدرجات.

المبحث العاشر: اليقين.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام اليقين.

المطلب الرابع: درجات اليقين.

المطلب الخامس: ثمرات اليقين.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن اليقين في اللغة: هو العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر[١].

قال ابن فارس: «يَقَنٌ، الياءِ والقاف والنون: اليَقَن واليقين؛ زوال الشك، يقال: يَقِنْت، واسْتَيْقَنْت، وأيْقَنْت»[٢].

وقال الفيروز آبادي: «يقن الأمر، يقنا، وأيقنه، وبه، وتيقنه، واستيقنه، وبه؛ علمه وتحقق به، واليقين إزاحة الشك، و (يطلق على) الموت»[٣].

وقال الجوهري: «اليقين: العلم وزوال الشك يقال؛ منه يقنت الأمر يقنا واستيقنت، وأيقنت، وتيقنت، كله بمعنى واحد، أنا على يقين منه...، وربما عبروا عن الظن باليقين وبالظن عن اليقين، قال الشاعر:

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ، وَأَيْقَنَ أَنَّني :: بِهَا مُفْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لا أُغامِرُه

يقول، تشمم الأسد ناقتي، يظن أنني أفتدي بها منه، وأستحيى نفسي فأتركها له، ولا أقتحم المهالك لمقاتلته»[٤].

وقال الراغب: «اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال؛ علم يقين، ولا يقال؛ معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم»[٥].

---

(١) لسان العرب (٣٢١/١٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/١٠٧١).

(٣) القاموس المحيط (ص/١٦٠١)، باختصار.

(٤) الصحاح (6/١١٢).

(٥) المفردات (ص/٨٩٢).

فنخلص مما سبق أن اليقين في اللغة يطلق على العلم الذي هو نقيض الجهل والشك، كما يطلق أحيانا على الظن والموت، فهذه هي أربع إطلاقات لليقين، ولكنها راجعة إلى معنى العلم، أو نوع من أنواعه[1].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

اختلفت عبارات العلماء في تعريف اليقين، إلا أن مضمونها أنه استقرار العلم مع طمأنينة القلب الذي لا يتطرق إليه شك أو احتمال.

قال الجنيد: «اليقين: استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب»[2].

وعرفه المبرد[3]: «اليقين هو الاعتقاد الجازم»[4].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «اليقين هو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه، وضده الريب»[5].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «اليقين هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل»[6].

---

[1] انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢٣٥).

[2] مدارج السالكين (٢/٢٩٤).

[3] هو جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي الشهير بابن المبرد الصالحي الحنبلي، علامة متفنن، من فقهاء الحنابلة، من أهل الصالحية بدمشق، له مصنفات كثيرة منها: مغني ذوي الافهام عن الكتب الكثيرة في الاحكام، والدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي وغيرها، انظر: شذرات الذهب (١٠/٦٢)، والأعلام (٨/٢٢٥).

[4] الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي (١/١٠٠).

[5] مجموع الفتاوى (٣/٣٢٩).

[6] تفسير السعدي (ص/٤١).

والملاحظ على التعريفات السابق ذكرها، أنه لا يوجد اختلاف بين المعنى اللغوي وبين المعنى الشرعي لليقين، إلا أن اليقين في اللغة يتعلق بكل أمر يتوقع فيه شك، أو وقع فيه الشك فعلا، أما في الشرع فيتعلق بالأمور الإيمانية التي يجب فيها اليقين ولا يقبل فيها التردد.

ثم هذا اليقين ينتظم منه أمران: أحدهما: علم القلب، والثاني: عمل القلب، كما فصل ذلك شيخ الإسلام، إذا يقول رحمه الله: «فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر، ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم، كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه، وقد لا يصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم، والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم تكن ضدا لأصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك»[1].

ولعله بهذا يتبين الفرق بين العلم واليقين: فالعلم قد لا يحمل صاحبه على العمل والامتثال، فقد يعلم المرء باليوم الآخر مثلا، ولكن هذا العلم قد يضعف في قلبه، وقد تعتريه في بعض الأحيان بعض الشكوك وبعض الشبهات، فتؤثر عليه. وأما إذا كان اليقين مستقراً في القلب، فلا طريق للشُبه، ولا طريق للأمور المشككة، وإنما هو اعتقاد جازم راسخ، لا يقبل التشكيك بحال من الأحوال، فهذا يثمر ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (٣/٣٢٩).

[2] انظر: سلسلة أعمال القلوب (ص/٣٧)، لخالد بن عثمان السبت

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

إن اليقين من أهم الأعمال القلبية، وأرفعها شأنا عند الله، فهو لب الإيمان وخلاصته، فإذا كان الصبر نصف الإيمان، «فاليقين الإيمان كله»[1].

فاليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قوامه، وهما يُمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال وبقوهما تقوى الأعمال، وجميع منازل السائرين إنما تُفتتح بالمحبة واليقين، وهما يثمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم[2].

ومن خلال استعراض النصوص التي وردت بشأن اليقين يتضح لنا جليا أهمية اليقين، فلقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة إضافة اليقين إلى آيات الله المتلوة والكونية، وإلى اليوم الآخر بما فيه من أمور عظام، كما نجد فيهما بيان ما يحصل به اليقين وبعض النتائج المرتبة عليه، كما يرد فيهما ذكر اليقين من أوصاف أهل الإيمان، وذم من لا يقين عنده.

المسألة الأولى: النصوص المتعلقة بذكر متعلق اليقين.

اليقين يتعلق بالأمور الإيمانية المتفرعة في مجموعها عن ثلاثة أمور هي:

١- توحيد الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وبألوهيته وربوبيته، فهذا لا بد أن يكون على اليقين، ولا يقبل فيه الشك والتردد أبدا.

---

[1] وقد أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (ص/٥) عن ابن مسعود ﷺ، في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، أخرجه تعليقا، مجزوما به.

[2] انظر: مدارج السالكين (١٩٣/٢)، ومفتاح دار السعادة (٢٤٢/١).

٢- الإيمان بالغيب، ومنه ما أخبرنا الله سبحانه وتعالى به من أمور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وغير ذلك من الأمور الغيبية.

٣- الأوامر والنواهي المتضمنة في شرع الله ﷻ الذي أنزله على رسله عليهم الصلاة والسلام، وأودعها كتبه التي أنزلها على رسله.

فهذه الأمور الثلاثة هي أصول الأمور الإيمانية التي يجب فيها اليقين[١].

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة ؓ، أن النبي ﷺ قال له: «اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلا اللّه مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة»[٢].

يخبر النبي ﷺ أن من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها غير شاك فيها فله الجنة، ومن المعلوم أن تلك الشهادة تتبع بقية أركان الإيمان، إذ لا يمكن أن يشهد أن لا إله إلا الله ويكفر بأنبيائه ورسله، أو كتبه، أو باليوم الآخر أو القدر، فهذه كلها داخلة في تلك الشهادة، لأن إثبات الألوهية لله وحده يقتضي عبادة الله وحده بما شرعه على لسان أنبيائه ورسله، والتصديق بكل ما أخبر الله به في كتبه المترلة على رسله[٣].

ولما كان الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، وأنه من أعظم البواعث على الرغبة والرهبة والعمل، ولما وقع فيه الشك والريب من قبل الكفار كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ الجاثية: ٣٢ ، نجد أن القرآن ينوّه كثيرا على اختصاصه باليقين الذي هو أعلى درجات الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: ٤، قال الشيخ

---

[١] انظر: مدارج السالكين (٢/٢٩٧-٢٩٨)، و: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢٣٦).

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٤٦)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.

[٣] انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/٦٦-٦٧).

السعدي رحمه الله: «﴿ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾، والآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، وأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل»[1].

وقال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ الرعد: ٢، يبين الله سبحانه وتعالى لعباده بعض الآيات الدالة على قدرته وعظمته لنستدل بها، ونتيقن منها أن لقائه سبحانه يوم القيامة حق لا ريب فيه، قال الشيخ السعدي رحمه الله: «ويترل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها ﴿ لَعَلَّكُم ﴾بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية ﴿ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾، فإن كثرة الأدلة وبيانها وإيضاحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور»[2].

والخلاصة أن هذه النصوص وما في معناها تدل على أن اليقين يتعلق بالأمور الإيمانية كلها، واختص بالآخرة لأهميتها.

المسألة الثانية: النصوص المتعلقة ببيان أسباب حصول اليقين.

بيّن لنا شيخ الإسلام رحمه الله الأسباب التي بها يحصل اليقين في الدين – وهي مستنبطة من الكتاب والسنة –، فقال رحمه الله: «وأما كيف يحصل اليقين؟ فبثلاثة أشياء:

أحدها: تدبر القرآن.

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق، التي تبين أنه حق.

---

[1] تفسير السعدي (ص/٤١)، وانظر: الاستقامة (١/٤١٨-٤١٩).

[2] تفسير السعدي (ص/٤١٢).

والثالث: العمل بموجب العلم».

ثم بين أن اليقين يحصل بالقرآن لأن الله قد بين فيه كل ما يحتاج إليه في أصول الدين، فقرر التوحيد والنبوة والمعاد بالبراهين التي لا ينتهي إلى تحقيقها نظر.

وأما الآيات، فإن منها ما هو ماثل للعيان، ومنها ما يعلم بالتواتر من عقوبات مكذبي الرسل ومن عصاهم، ومن نصر الرسل وأتباعهم، وما علم من إكرام الله لأهل طاعته، وانتقامه من أهل معصيته، وكل ذلك فيه عبرة تبين أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وغير ذلك مما يوافق القرآن، ويورث اليقين في القلب بأنه حق لا ريب فيه.

وأما العمل فقد بين أن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره، ومخالفته تضعفه، بل قد تذهبه، كما قال تعال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصف: ٥ [1].

فأما ما يتعلق بالأمر الأول الذي يحصل به اليقين وهو تدبر القرآن، فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ الجاثية: ٢٠، أي إن هذا القرآن الكريم والذكر الحكيم يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

وبه يهتدون إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، وبه يحصل الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي رحمة تزكو بها نفوسهم وتزداد بها عقولهم، ويزيد بها إيمانهم ويقينهم، وتقوم بها الحجة على من أصر وعاند[2].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ النمل: ١ – ٣.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٣١-٣٣٣)

(٢) تفسير السعدي (ص/٧٧٧).

كما أن سبب عدم هداية من ضل عن الصراط المستقيم هو تركهم لتدبر القرآن واستكبارهم عن سماعه، قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ المؤمنون: ٦٦ ــ ٦٨.

أما ما يتعلق بالأمر الثاني الذي يحصل به اليقين، وهو تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق، فقد ذكره الله تعالى في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت: ٥٣. وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ الذاريات: ٢٠ ــ ٢١، وقال تعالى: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ الجاثية: ٤.

ففي هذه الآيات إخبار من الله ﷻ أنه سيري هؤلاء الكفار من الآيات المشهودة في الآفاق وفي أنفسهم ليبين لهم الآيات المسموعة التي هي حق لا ريب فيها، فكل ما جاء في هذا الكتاب العزيز تصدقه الوقائع التي يروها ماثلة أمام أعينهم، بل لو عادوا إلى أنفسهم لرأوا فيها عجيب الصنعة ودقته ما يبعد أن يكون ذلك سدى، وأن يكون الغاية منه مجرد هذه الحياة الدنيا الفانية، وكل هذا مما يزيد العبد يقينا وثباتا في القلب[١].

أما ما يتعلق بالأمر الثالث الذي يحصل به اليقين، وهو العمل بموجب العلم، فقد ذكره الله أيضا في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحديد: ٢٨، وقال

---

[١] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢٤٣)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/٣٣١)، و (٧/٢٣٦).

تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ المائدة: ١٥ – ١٦.

ففي هذه الآيات، أن كل عمل يقوم به المسلم مما شرعه الله تعالى ويخلص نيته فيه يزيد إيمانه، لأن الإيمان يزيد بزيادة الطاعات وكثرة العبادات[1].

فالخلاصة أن اليقين يحصل بعدة أسباب، من أهمها ما ذكره شيخ الإسلام من تدبر كتاب الله ﷻ وما اشتمل عليه من المعاني العظيمة والأخبار الصادقة والأحكام الحسنة، ثم النظر والتفكر في آيات الله التي يبثها في الكون، ثم إذا انضم إلى ذلك الفهم العمل التطبيقي، فلا شك أنه يورث في القلب من الثبات والقرار ما لا يحصل بغيره.

المسألة الثالثة: المدح والثناء على من اتصف باليقين.

يذكر الله اليقين من أوصاف أهل الإيمان لأن اليقين تصديق ممتد من الدنيا إلى الآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ البقرة: ٤، قال الفخر الرازي: «إن الله مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة، والكافرين النار»[2].

فاليقين وأهله هم الذين مدحهم الله وأثنى عليهم، لأن اليقين مشاهدة الإيمان بالقلب، فكما أن العين تشاهد الحقائق الماثلة أمامها في العالم المشهود عالم الشهادة؛ فإن اليقين هو

---

(١) انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٢٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير للرازي (٢/٣١).

مشاهدة الغيب بالقلب، فإذا وصل القلب إلى هذه المرتبة وإلى هذا المستوى؛ فإنه يكون قد تيقن، وارتقى العبد بإيمانه، وصار بمترلة عالية قد توصله عند الله ﷻ إلى أعلى المنازل[1].

كذلك من صفات الهادين المهديين أئمة الهدى والدين الذين يخرج الله بهم العباد من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد هو اليقين المقترن بالصبر، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤، فمن أعطي الصبر واليقين : جعله الله إماما في الدين[2].

وتارة نجد القرآن الكريم يذم من لا يقين عنده كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ النمل: ٨٢[3].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقال تعالى في ذم الكفار: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ الجاثية: ٣٢، ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون»[4].

فالخلاصة أن اليقين شعبة من شعب الإيمان، بل هو من أرفعها شأنا وأعظمها أجرا، ومن اتصف به فقد حقق الإيمان، وبالتالي كان القرآن هدى له، كذلك إذا تزوج اليقين بالصبر ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، ومن أعرض عنه فهو من المذمومين الضالين.

---

(١) سلسلة أعمال القلوب (ص/٣٧)، لخالد بن عثمان السبت.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢١٥/٦).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢٩٣/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨٣/١٦).

المطلب الثالث

أقسام اليقين

من خلال النظر إلى أقوال أهل العلم نستطيع أن نقول إن اليقين في الشرع له معنيان:

الأول: من حيث هو أصل للإيمان، إذ لا إيمان مع الشك.

الثاني: من حيث هو درجة عليا من درجات الإيمان.

فاليقين **بالمعنى الأول**، شرط من شروط شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وذلك أن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هاتين الكلمتين يقينا جازما يطمئن قلبه إليه، وضده الشك والتوقف والظن والريب، أي أن الإيمان المجمل الذي هو قول القلب وعمل القلب لا يتحقق إلا بهذا اليقين، فمن شك في الله أو رسوله ﷺ وما جاء به من عند الله فهو كافر لا شهادة له ولا إيمان له[1].

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلا اللّه مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة»[2].

وقد ذم الله المنافقين بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ التوبة: ٤٥.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «اليقين الذي هو صفة العبد، فذاك قد فعله من حين عبد ربه، ولا تصح العبادة إلا به، وإن كان له درجات متفاوتة»[3].

---

[1] انظر: معارج القبول (٤١٩/٢)، و: الشهادتان، معناهما، وما يستلزم كل منهما (ص/٣٨)، للشيخ عبد الله الجبرين.

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٤٦)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.

[3] الاستقامة (٤١٨/١).

أما اليقين **بالمعنى الثاني**، أي اليقين باعتباره درجة من أعلى الدرجات، فهو لب الإيمان وخلاصته، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عن: «اليقين الإيمان كله»[1].

يقول ابن رجب في شرحه لقول ابن مسعود رحمه الله: «إنما مراده أن اليقين هو أصل الإيمان كله، فإذا أيقن القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله و اليوم الآخر انبعثت الجوارح كلها للاستعداد للقاء الله تعالى بالأعمال الصالحة، فنشأ ذلك كله عن اليقين.

قال الحسن البصري رحمه الله: "ما طلبت الجنة إلا باليقين، ولا هربت من النار إلا باليقين، ولا أديت الفرائض إلا باليقين، ولا صبرت على الحق إلا باليقين"[2].

وقال سفيان الثوري[3]: "لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطارت القلوب اشتياقا إلى الجنة وخوفا من النار"»[4].

قال النبي ﷺ في الدعاء المأثور عنه: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا... "[5].

---

(1) وقد أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (ص/٥) عن ابن مسعود ﷺ، في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، أخرجه تعليقا، مجزوما به.

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه اليقين (ص/٦).

(3) هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله الثوري الكوفي المجتهد، قال ابن المبارك: كتبت عن ألف ومئة شيخ، ما كتبت عن أفضل من سفيان، ولد سنة ٩٧ هـ، ومات سنة ١٦١ هـ، انظر: الجرح والتعديل (١/٥٥ – ١٢٦)، حلية الأولياء (٦ / ٣٥٦)، سير أعلام النبلاء (٧/٢٢٩)، والأعلام (٣/١٠٤).

(4) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/١٧).

(5) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٧٩٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وحسن الحديث الألباني في المشكاة (٢٤٩٢).

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن كثيرا ممن يقر بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يكون معه من الإيمان هذا الإقرار، وهذا الإقرار لا يستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب، فخلق كثير من المسلمين ظاهرا وباطنا لم يصلوا إلى اليقين، فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم برسول ﷺ مجملا.

إلى أن قال: «فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شُكِّكوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفارا ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، وهؤلاء إن عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق»[1].

ثم نجد شيخ الإسلام رحمه الله يشير إلى تقسيم آخر لليقين، وهو:

الأول: اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته.

الثاني: اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره.

فاليقين في القيام بأمر الله هو العمل المطلوب من العبد، فيوقن بأمر الله فيستقيم عليه، ويقوم بأداء هذا العمل الذي افترضه الله عليه.

أما اليقين بما وعد الله أهل طاعته هو الإيمان بصدقه وتحقق وقوعه إيمانا لا شك فيه، ويدخل في ذلك الإيمان بالبعث والنشور والصراط والميزان والجنة والنار ونحوها.

أما اليقين بقدرالله وخلقه وتدبيره فهو الرضا والتسليم لقدر الله الكوني مثل الفقر والمرض والذل ونحوها.

---

[1] الإيمان الكبير (ص/٢١٣).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره»[1] [2].

المطلب الرابع
درجات اليقين

كما أن العلم يتفاوت – واليقين هو من جملة مراتب العلم – فكذلك اليقين يتفاوت، فهو على ثلاث مراتب بعضها فوق بعض، فأدنى مراتب اليقين هي مرتبة (علم اليقين)، والمرتبة التي فوقها هي مرتبة (عين اليقين)، وأعلى المراتب هي مرتبة (حق اليقين)، والله ﷻ يقول: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ التكاثر: ٥ - ٧[3].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن منازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله»[4].

فعلم اليقين: هو العلم المستفاد بالسماع والخبر والقياس والنظر.

وعين اليقين: هو ما شاهده الإنسان وعاينه بالبصر.

وحق اليقين: هو ما باشره ووجده وذاقه.

وقد مثّل شيخ الإسلام لهذه الدرجات الثلاث **بالعسل**، فقال رحمه الله: «فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلا، وصدق المخبر، أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده، والثاني

---

[1] مجموع الفتاوى (٥١/١).

[2] انظر: أعمال القلوب حقيقتها وأحكامه (٢٥٣/١-٢٦٥).

[3] انظر: مجموع الفتاوى (٦٤٥/١٠)، ومدارج السالكين (٢٩٧/٢-٣٠٠).

[4] مجموع الفتاوى (٧٣/١١).

مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ: "ليس المخبِر كالمعايِن"[(١)]، والثالث مثل من ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله»[(٢)].

ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد كما قال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[(٣)].

وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا»[(٤)].

- فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

---

(١) أخرج الحديث الإمام أحمد في المسند (٣/٣٤١)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٣٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضا ابن حبان في صحيحه (١٤/٩٦)، والطبراني في الأوسط (١/١٢)، ولفظ الحديث (ليس الخبر كالمعاينة) ولم أجد باللفظ الذي أورده شيخ الإسلام، وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٥)، ومثّل بأمر آخر، وهو العشق والنكاح، قال رحمه الله: «فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه،كان له علم به، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته»، مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦)، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩)، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٤) تقدم تخريجه (ص/٤٦٣).

الثانية: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر، والمستدل بآثارهم.

الثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ: "لقد كنت في حال أقول فيها، إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب"، وقال الآخر: "لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم".

- والناس فيما أُخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

إحداها: العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

الثانية: إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

الثالثة: إذا باشروا ذلك، فدخل أهل الجنة الجنة وذاقوا ما كانوا يوعدون، ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون،

- ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص، والتوكل، والدعاء لله وحده، فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

منهم: من علم ذلك سماعا واستدلالا .

ومنهم: من شاهد وعاين ما يحصل لهم .

ومنهم: من وجد حقيقة الإخلاص، والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه: إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصا له الدين، أجاب دعاءه وأزال ضرره وفتح له أبواب الرحمة، فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل

والدعاء لله ما لم يذق غيره، وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك[1].

المطلب الخامس

ثمرات اليقين

إن اليقين يورث صاحبه أمورًا جليلة عظيمة، ويؤثر في سلوكه تأثيرًا عجيبًا، فهو يزيد العبد المسلم قربة من الله ﷻ وحبًّا ورضًا بما قدره وقضاه، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعًا لربه جل جلاله، كما أنه يكسبه رفعة وعزة، ويبعده عن مواطن الذل والضعة، ونجمل هنا من ثمرات اليقين ما يلي:

إن من عوامل ثبات العبد عند المصيبة هو اليقين بالله، وأن ما قدره الله وقضاه لعبده فهو خير له، فيكون القلب مستريحاً مطمئناً،، فيرتفع عنه السخط والهم والغم، فيمتلأ قلبه محبة لله ورضاً به وشكراً له، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور، وترك السيء المحظور، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر.

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن له ويتنعم به ويغتذى به وهو اليقين»[2].

وقال أيضا مبينا موجبات الرضا والحمد: «والثاني علمه (العبد) أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ، أنه قال: "والذي

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٦-٦٥٠)

[2] الاستقامة (٢/٢٦١)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/٣٣٠).

نفسي بيده، لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خير له"[1]»[2].

كذلك من عوامل القيام بأمر الله والثبات على طاعته هو اليقين بالله أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، واليقين أن ما وعد الله لأهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة حق وصدق[3]، بل ترك القيام بأمر الله يكون بسببين:

١- من ضعف تصديق العبد بما وعد الله أهل طاعته.

٢- ومن ميل العبد والتفاته إلى ما في أيدي الناس من أمور الدنيا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله شارحا لمسألة إرضاء الخلق بسخط الله: «فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك:

إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم.

وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة.

فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفا منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين.

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك»[1].

---

(١) تقدم تخريجه (ص/٤٣٦).

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٦٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٨٢/١٦).

كذلك اليقين يورث صاحبه الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة، فاليقين من أسباب الهداية إلى الصراط المستقيم، والفلاح والنجاة يوم الدين، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة: ٤.

ومن ثمرات اليقين أيضا أنه إذا تزوج بالصبر ولد بينهما حصول الإمامة في الدين[٢]، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤، وهي مرتبة فوق الهداية في الدين، لأن الموقنين بالإضافة إلى كونهم مهتدين فهم أئمة هداة يهدون الناس[٣].

ومن أعظم ثمرات اليقين هو أن بسببه تكفّر الذنوب ويدخل صاحبه الجنة، قال النبي ﷺ لأبي هريرة ﵁: «اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلا اللّه مستيقنا بها قلبه، فبشره بالجنة»[٤].

ومن يشهد هذه الشهادة وهو مخلص فيها موقن بها، فلا بد أن يسير في حياته على وفق ما يأمر الله به ورسوله، ولا شك في أن من سار في حياته على هذا المنهج فإنه سيكون من الفائزين يوم القيامة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إذا قالها العبد بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحالة مصرا على ذنب، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء وأخوف عنده من كل شيء، فلا يبقى في قلبه إرادة ما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، فهذا الذي يحرم على النار»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/٥١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/٢٩٣)، ومجموع الفتاوى (٣/٣٥٨).

(٣) انظر: تفسير السعدي (ص/٦٥٦).

(٤) تقدم تخريجه (ص/٤٩١).

(٥) تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء (١/٣٦٠).

المبحث الحادي عشر: الاستعانة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الناس في الاستعانة والعبادة.

المطلب الرابع: أقسام الاستعانة.

المطلب الخامس: ثمرات الاستعانة.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن الاستعانة في اللغة مأخوذة من كلمة العوْن الذي هو الظهير على الأمر، فزيدت عليه السين والتاء التي تدل على الطلب، فالاستعانة في اللغة هي المظاهرة على الشيء أو طلب العون من الغير.

قال الفيروزآبادي: «العون الظهير، للواحد والجمع، والمؤنث، ويكسر أعوانا، والعوين؛ اسم للجمع، واستعنته، و- به، فأعانني وعوّنني»[1].

وقال ابن منظور: «العون: الظهير على الأمر، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء، وقد حكي في تكسيره أعوان...، وتقول: أعنته إعانة، واستعنته واستعنت به فأعانني»[2].

إذا، الاستعانة في اللغة هي طلب العون من الغير، سواء كان ذلك من الله أو من غيره، وسواء كان في أمور محسوسة أو معنوية، وسواء كان في أمور دنيوية أو دينية.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

تقدم أن الاستعانة في اللغة هي المظاهرة على الشيء أو طلب العون من الغير، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الاستعانة طلب العون»[3].

---

[1] القاموس المحيط (ص/١٥٧١).

[2] لسان العرب (١٠/٣٤٣).

[3] مجموع الفتاوى (١/١٠٣).

وفي الشرع الاستعانة هي: طلب العون من الرب الجليل، لدفع الضر أو جلب المنفعة أو تثبيت الدين.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «الاستعانة هي: الاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك»(١).

وقال الآلوسي(٢): «الاستعانة هي طلب ما يتمكن به العبد من الفعل ويوجب السير عليه»(٣).

فالفرق بين التعريف اللغوي والتعريف الشرعي: أن التعريف في الشرع أخص من التعريف في اللغة، إذ التعريف في الشرع طلب العون من الله فقط، وهذا فيه إشعار بأن الطلب من غير الله شرك.

ثم الاستعانة كما بين ابن القيم: «تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره – مع ثقته به – لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه – مع عدم ثقته به – لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به»(٤).

---

(١) تفسير السعدي (ص/٣٩).

(٢) هو أبو الفضل محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي نسبة إلى جزيرة في نهر الفرات كان يسكن به جد الأسرة الآلوسية بالعراق، المفسر المحدث الأديب، من مصنفاته: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، والأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية، رد به على الشيعة، توفي سنة ١٢٧٠ هـ، انظر: الأعلام (١٧٦/٧).

(٣) تفسير الآلوسي (٨٧/١).

(٤) مدارج السالكين (٥٩/١).

وقال المقريزي رحمه الله[1]: «فإن قيل ما حقيقة الاستعانة عملا؟ قلنا هي التي يعبر عنها بالتوكل، وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى، وتفرده بالخلق والأمر والتدبير والضر والنفع، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتوجب اعتمادا عليه وتفويضا إليه وثقة به»[2].

إذا، الاستعانة حالة تنشأ عن المعرفة بالله والإيمان به الذي يوجب الثقة والاطمئنان به، والاعتماد عليه، وتفويض الأمر كله إليه.

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

إن الاستعانة من أهم الأعمال القلبية، فهي نصف الدين؛ لأن الدين نصفان: نصفه عبادة، ونصفه استعانة على العبادة، وقد ذكر الله هذا الأمر في فاتحة الكتاب، إذ قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥، فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية، فالعبادة غاية مقصودة، والاستعانة وسيلة إليها[3].

والاستعانة لها منزلة عظيمة، والعبد بالاستعانة يدخل في غمار التوحيد، فتفتح له أنوار المعارف في آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، لأن العبد الذي يستعين بربه، أولاً؛ لا بد أن يكون قد استيقن في قلبه أن الرب الذي هو فوق العرش ويعلم ما نحن عليه، هو القادر المقتدر

---

[1] هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي، إمام مؤرخ محدث، من مصنفاته: تجريد التوحيد المفيد، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، توفي سنة ٨٤٥ هـ، انظر: شذرات الذهب (٣٧٠/٩)، ومعجم المؤلفين (١١/٢).

[2] تجريد التوحيد (ص/٧٠-٧١)، للمقريزي، وأصله في مدارج السالكين (٦٣/١-٦٤).

[3] انظر: مجموع الفتاوى (١٨/١٠) و (٢٨٤/١٠).

القدير الرب الجليل الذي إذا أراد شيئا أن يكون يقول له كن فيكون، فبيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء.

ويعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا شيء يتحرك في الكون إلا بإرادة الله جل في علاه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يس: ٨٢، فلما استيقن هذا اليقين في ربه، دعاه هذا اليقين إلى أن يحسن الظن بالله، ويستعين بالله جل في علاه، ثم هذا هو دأب خيار الناس، ودأب الصلحاء من البشر الذين استعانوا بربهم على إقامة الدين، ودأب الأنبياء والمرسلين الذين استعانوا بربهم، وأجلوا لنا هذه العبادة الجليلة.

وفيما يلي بيان هذين الأسلوبين لورود الاستعانة في نصوص الكتاب والسنة:

المسألة الأولى: الأمر بإفراد الله تعالى بالاستعانة.

إن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب، فلا بد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به .

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه.

فإن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٢١-٢٢).

فالاستعانة من أنواع الدعاء الذي أمرنا الله بأن نفرده به وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥، فقرنها سبحانه مع العبادة وأمر بهما جميعا في قوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ هود: ١٢٣، وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ الفرقان: ٥٨، وقوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨[1]، والتوكل من مقتضيات الاستعانة.

ولقد فرض الله علينا أن نعبده ونستعينه في كل صلاة، وذلك في قوله تعالى سبحانه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وهذا يقتضي أن نستعين به وحده وأن نتوكل عليه وحده، وقد أمر الرحمن نبيه بأن يعبده ويتوكل عليه فقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ وأمره أن يقول: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ الرعد:٣٠، فأمر نبيه أن يقول على الرحمن توكلت وإليه متاب، و الأمر له أمر لأمته[2][3].

فالاستعانة تكون بالله ﷻ دون غيره من الخلق، لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإن المعنى لا تحوّل للعبد من حال إلى حال، ولا قوة على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وكنز من كنوز الجنة، فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها، وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة

---

(١) مجموع الفتاوى (٦٩/١).

(٢) نفس المصدر (١٤/٨-٩).

(٣) جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة (ص/٤٣٥-٥٣٦)، رسالة الدكتوارة في قسم العقيدة، في الجامعة الإسلامية، إعداد الشيخ: أحمد بن عبد الله الغنيمان.

على ذلك إلا الله ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»[(١)] [(٢)].

فالواجب على العبد أن يتوكل على الله ويستعين به لا بالمخلوقات، فإن (المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل هو الذي خلقه ورزقه وبصره وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون سواه، ويقتضي أيضا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عباده وإسباغ نعمه عليهم)[(٣)].

ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولا، يقول شيخ الإسلام: «وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره، خضع له وذل، وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته وينسى مقصوده منه، كما يصيب كثيرا ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان»[(٤)].

والخلاصة أن الاستعانة عبادة يجب صرفها لله، وبتحقيقها يتحقق التوحيد، ثم هذه الاستعانة لا تنافي الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه إذا لم يتعلق القلب به كما سأبينه حين أذكر أقسام الاستعانة، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١-٦٩)، في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/٤٨١-٤٨٢)، وانظر: مجموع الفتاوى (٨/١٦٦-١٦٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١/٢٧-٢٨).

(٤) نفس المصدر (١/٣٥).

المسألة الثانية: البيان أن الاستعانة من شيم الأنبياء والمرسلين.

إذا استعرضنا نصوص الكتاب والسنة نجد أن الاستعانة كانت من دأب الأنبياء والمرسلين، وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام لما أُخبر بما جرى ليوسف، وجاءت له هذه المصيبة، استعان بالله أن يعينه على احتمال ما عرف منهم من الكذب[1]، واستعان بالله أن يعينه على تقبّله لهذه البلية بالصبر والرضا، فاستعان عليه السلام على هذه العبادة الجليلة، يقول تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ يوسف: ١٨، يقول الشيخ السعدي رحمه الله عن قول يعقوب ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾: «أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أن أصبر على هذه المحنة صبرا جميلا، سالما من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يوسف: ٨٦، لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفّى»[2].

وكذلك (قول العبد الصالح شعيب: ﴿ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨، وقول إبراهيم والذين معه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ الممتحنة: ٤، وقوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴾ الرعد: ٣٠.

---

[1] تفسير البغوي (٢/٤٤٤).

[2] تفسير السعدي (ص/٣٩٥).

فأمر نبيه أن يقول: على الرحمن توكلت وإليه متاب، كما أمره بهما في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ هود: ١٢٣، والأمر له أمر لأمته، وأمره بذلك في أم القرآن وغيرها ليكون فعلهم ذلك طاعة لله وامتثالا لأمره، ولا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولهذا كان عامة ما يفعله نبينا ﷺ والخالصون من أمته من الأدعية والعبادات وغيرها إنما هو بأمر من الله، بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به وإن كان حسنا أو عفوا، وهذا أحد الأسباب الموجبة لفضله وفضل أمته على من سواهم، وفضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ما جاء به بغيره كالمنحرفين عن الصراط المستقيم.

وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عباداته وأذكاره ومناجاته مثل قوله في الأضحية: «اللهم هذا منك ولك»[(١)]، فإن قوله : «منك» هو معنى التوكل والاستعانة وقوله: «لك» هو معنى العبادة، ومثل قوله في قيامه من الليل: «لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت والجن والإنس يموتون»[(٢)]، إلى أمثال ذلك)[(٣)].

ومما سبق عرفنا أنه لا يمكن لطالب علم أن يطلب العلم إلا بالله، ولا يمكن لمستغفر أن يستغفر إلا بالله، ولا يمكن لمجاهد أن يجاهد إلا بالله سبحانه وتعالى،كما لا يمكن لعبد أن يدفع الشر عن نفسه فضلا عن غيره إلا بالله، فإذا عرف هذا تعيّن على العبد أن يخلص هذه العبادة لله وحده.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٧/٢٣)، وأبو داود في سننه (ص/٤٩٦) في كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، والحاكم في المستدرك (٢٨/٢)، وقال: هذا حديث صحيح، وأقره الذهبي، وصحح الحديث الألباني في الإرواء (١١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٨٠)، في كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٤)، في كتاب الصلاة، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٣) مجموع الفتاوى (٩/١٤-١٠).

كما تبين لنا من حال الأنبياء والمرسلين كيف أجلوا لنا هذه العبادة جليّا، وكيف أنهم طبقوا هذا التوحيد عمليا، وكيف استعانوا بالله على الاستقامة في الدين، وكيف استعانوا الله على تجاوز وتحمل المصائب والمشاكل التي واجهوها في هذه الحياة، وهذا لا شك مما يوضح أهمية هذه العبادة، وأن لها مترلة عظيمة، وأنها وسيلة لتحقيق الغاية.

المطلب الثالث

أقسام الناس في الاستعانة والعبادة

سبق أن قلنا إن الاستعانة من أهم الأعمال القلبية، فهي نصف الدين، لأن الدين نصفان: نصفه عبادة، ونصفه استعانة على العبادة، فبالعبادة لله تستغني عن معبود آخر، وبالاستعانة تستغني عن الاستعانة بالخلق، ولهذا قرن الله بينهما في كثير من آي القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥، وقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ هود: ١٢٣، وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ الفرقان: ٥٨، وقوله تعالى: ﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨.

لكن الناس في القيام بهما وفي تحقيقهما انقسموا إلى أقسام أربعة كما بين ذلك شيخ الإسلام رحمه الله، قد أوضح رحمه الله أن الناس في العبادة والاستعانة أربعة أقسام، منهم من يأتي بالعبادة والاستعانة، ومنهم من يأتي بالعبادة فقط، ومنهم من يأتي بالاستعانة فقط، ومنهم من يتركهما جميعا، وإليك تفصيل ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله:

بين رحمه الله أن بني آدم في هذا الموضع قد انقسموا أربعة أقسام:

القسم الأول: قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة، شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات

الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان، لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

القسم الثاني: هم يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون به، لكن على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته، وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة، ولهذا كثيرا ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود ولا يقصدون ما يرضي الرب ويحبه، وكثيرا ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي، ويسمون هذا حقيقة، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوي مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهرا وباطنا.

وهؤلاء كثيرا ما يسلبون أحوالهم وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق بل كثير منهم يرتد عن الإسلام، لأن العاقبة للتقوى، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين، فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة في بدعة يظنونها شرعة، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر.

القسم الثالث: وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به[1]، فهؤلاء شر الأقسام، وهؤلاء عاصين لله ورسوله، بل هم خارجون عن حقيقة الإيمان، ولهذا قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

---

[1] وقد جعل شيخ الإسلام هؤلاء فريقين: أهل دين وأهل دنيا.

- فأهل الدين، هم أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله، ويستعينون بغير الله بظنهم وهواهم.
- أهل الدنيا، هم الذين يطلبون ما يشتهون من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب، (مجموع الفتاوى: ١٤/١٢).

القسم الرابع: هو القسم المحمود، وهم الذين يشهدون أن الله إلههم ومعبودهم، واستعانوا به على طاعته في أمره ونهيه، وهو حال الذين حققوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ هود: ١٢٣ [١].

المطلب الرابع

أقسام الاستعانة

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رحمه الله نجد أنه يتكلم عن ثلاثة أقسام للاستعانة، الاستعانة التوحيدية الإيمانية، والاستعانة الشركية ، والاستعانة المباحة، إذا أنواع الاستعانة من حيث العموم ثلاثة[٢]:

القسم الأول: الاستعانة التوحيدية.

وهي الاستعانة بالله جل وعلا، وهي الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته، وهي المقصودة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، ووجه الاختصاص أن الله قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾، وقاعدة اللغة التي

---

[١] التحفة العراقية (ص/٣٣٩-٣٤٥)، مجموع الفتاوى (٣٦/١) و (١٤/١٠-١٢)

[٢] وقد قسمها الشيخ ابن عثيمين خمسة أقسام، **القسم الأول:** الاستعانة بالله، **القسم الثاني:** الاستعانة بالمخلوق على أمر يقدر عليه، **القسم الثالث:** الاستعانة بمخلوق حي حاضر غير قادر، **القسم الرابع:** الاستعانة بالأموات مطلقا، أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون على مباشرته، **والقسم الخامس:** الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله، مثل الصلاة والصبر، انظر: شرح ثلاثة أصول (ص/٦٢-٦٣).

نزل بها القرآن أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وعلى هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله شركا مخرجا من الملة[١].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكذلك الاستعانة أيضا منها ما لا يصلح إلا لله وهي المشار إليها بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله»[٢].

القسم الثاني: الاستعانة الشركية.

وهي الاستعانة بغير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله، مثل جعل العلم والهدى في القلب، وجعل الإرادة والطلب في القلب، وخلق القوى الباطنة والظاهرة، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالغائبين، فهذا شرك أكبر[٣].

ولقد ضبط هذا شيخ الإسلام، فقال رحمه الله: «وأما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله»[٤].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: «فالاستعانة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك في الإلهية والربوبية»[٥].

فمن استعان بغير الله في شيء لا يقدر عليه إلا هو فقد صرف هذه العبادة إلى غير مستحقها فهي شرك في الألوهية، ومن اعتقد أن خلقًا من المخلوق يستطيع أن يفعل الأمور التي سبق ذكر بعضها، مثل جعل العلم والهدى في القلب، وجعل الإرادة والطلب في القلب، وخلق القوى الباطنة والظاهرة، فهو قد أشرك في الربوبية أيضا.

---

(١) شرح ثلاثة أصول (ص/٦٢)، للشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

(٢) الرد على البكري (ص/٢٠٣-٢٠٤).

(٣) انظر: الرد على البكري (ص/٢١٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١/١٠٤).

(٥) بيان كشف ما ألقاه إبليس (ص/ ٨٨).

القسم الثالث: الاستعانة المباحة.

وهي الاستعانة بالغير في أمر يقدر عليه، وهذا جائز، كمن يستعين بأحد أن يبني له بيتا، أو أن يحمل له متاعا، أو يعينه على أي مطلوب مباح، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ المائدة: ٢، وقال النبي ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه»[2].

وإن كانت الاستعانة بالغير في أمر يقدر عليه مع عدم اعتماد القلب عليه جائز، إلا أن تركها يكون أفضل، (وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب...هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى رهم يتوكلون»[3].

فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأهم لا يسترقون، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه، والرقية من نوع الدعاء، وكان هو ﷺ يرقي نفسه وغيره، ولا يطلب من أحد أن يرقيه...، فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه، فإن من لا يسأل الناس - بل لا يسأل إلا الله - أفضل ممن يسأل الناس،

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٢)، في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

[2] الرد على البكري (ص/٢٠٤)، ومجموع الفتاوى (١/١٠٣).

[3] تقدم تخريجه (ص/٤٠٩).

ومحمد ﷺ سيد ولد آدم)[1] وطلب الرقية وكذلك الكي نوع من الاستعانة بالغير، وهذه استعانة جائزة، لكن تركها أفضل من باب تحقيق التوحيد[2].

وقد تكلم شيخ الإسلام عن مسألة لها تعلق بما نحن فيه، وهي؛ أن الاستعانة بالغير بطلب الدعاء منه نوعان، وبين رحمه الله أن منها راجح ومنها مرجوح:

أما الراجح فهو أن يطلب من الغير الدعاء بقصد انتفاعه بالدعاء، لكون الملائكة تدعو له بما دعا لمن أوصاه بالدعاء، فيكون أرجى للقبول مما لو دعا هو لنفسه، وهذا حال نبينا محمد ﷺ حين أمر أمته أن يدعوا له بالوسيلة والمقام المحمود[3].

وأما الدعاء المرجوح، فهو: أن يطلب من غيره أن يدعو له على قصد أن ينتفع هو وحده به، دون أن ينظر إلى انتفاع الداعي، وهذا مما لم يؤمر به[4]، وتركه إلى الرغبة إلى الله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله[5].

المطلب الخامس

ثمرات الاستعانة

وكما هي عادتنا أن نختم المبحث بذكر ثمرات العمل وفوائده، فكذلك مبحث الاستعانة نختمه بذكر شيء من ثمرات هذا العمل وفوائده.

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٣٢٨).

[2] جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة (ص/٤٣٧)، رسالة الدكتوراه، تاليف الشيخ أحمد بن عبد الله الغنيمان.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٢)، كتاب الآذان، باب الدعاء عند النداء، ومسلم في صحيحه (ص/١٦٥)، في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن.

[4] انظر: مجموع الفتاوى (١/١٨٥، و ١/١٩٠).

[5] مجموع الفتاوى (١/١٩٣).

فأقول؛ على رأس هذه الثمرات والفوائد، أن تحقيق الاستعانة هو تحقيق للتوحيد، ومن قام بإخلاص هذا العمل لله فقد حقق التوحيد، وفتحت له أنوار المعارف في آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلية، فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يلتذ، ولا يسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه. ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن و لم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائما مفتقر إلى حقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥، فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئا لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة "لا إله إلا الله" ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب و لم يكن مستعينا بالله متوكلا عليه مفتقرا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدا لما أحبه، وعبدا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحدا لذاته

إلا الله، وأي شيء أحب سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها؛ كان مشاهدا أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها، وأن كل ما في السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره، وهو مفتقر إليه؛ كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك.

والناس في هذا على درجات متفاوتة، لا يحصي طرقها إلا الله، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله، وأقواهم وأهداهم؛ أتمهم عبودية لله من هذا الوجه»[١].

ثم إن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر في كثير من آي القرآن ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته[٢].

فإن الاستعانة والتوكل ليست هي العون على العبادة فقط، بل تيسير الأمور كلها تكون باستعانة الله جل وعلا، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له، هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[٣].

ثم تعلق القلوب بغير الله والتوكل عليهم والاستعانة بهم يورث لصاحبها ذلا وخذلانا من تلك الجهة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «اعتماده (المرء) على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضا معلوم بالاعتبار و الاستقراء؛ ما علق العبد رجاه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل»[٤].

---

[١] العبودية (ص/٧٦-٧٨).

[٢] نفس المصدر (ص/٥٣).

[٣] التحفة العراقية (ص/٣٤٠).

[٤] مجموع الفتاوى (١/٢٩).

وحين تكلمنا عن أقسام الناس في تحقيق العبادة والاستعانة، ذكرنا أن منهم الذين لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا به.

فهؤلاء هو المخلصون الذين يتوجهون إلى الله في الشدة والرخاء وتظهر عبوديتهم لربهم في الضراء والسراء، لأن من الإيمان بالقدر (أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعايب، والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه، ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير، فعكس القضية، بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسّرها وتفضل بها، فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها، وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها، وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه)[1]، فيصبر عليها ويستعين الله على ذلك.

ونخلص مما سبق أن الاستعانة عبادة يجب إخلاصها لله، وأن المستعين لا بد أن تكون ثقته واعتماده على الله في جلب المنفعة ودفع المضرة وتثبيت الدين، ثم هذا لا ينافي الاستعانة بالخلق في شيء أقدرهم الله عليه، مع عدم تعلق القلب بهم.

فالاستعانة هي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر في كثير من آي القرآن ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته.

والناس في تحقيق العبادة والاستعانة أربعة أقسام، وأفضلهم الذين لا يعبدون إلا الله ولا يستعينون إلا به، فهم المخلصون الذين يتوجهون إلى الله في الشدة والرخاء وتظهر عبوديتهم لربهم في الضراء والسراء.

فأسأل الله أن يجعلنا منهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٧/٩٨).

المبحث الثاني عشر: الاستعاذة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام المستعاذ منه.

المطلب الرابع: أقسام الاستعاذة.

المطلب الخامس: ثمرات الاستعاذة.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن الاستعاذة في اللغة مأخوذة من كلمة العوْذ الذي هو الالتجاء إلى الشيء والاعتصام به والتحرز إليه، فزيدت عليه السين والتاء التي تدل على الطلب، فالاستعاذة في اللغة طلب العوذ من الغير، وحقيقته الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه[١].

قال ابن فارس: «عوذ: العين والواو والذال أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الالتجاء إلى الشيء، ثم يُحمَل على كل شيء لصق بشيء أو لازمه»[٢].

وقال ابن منظور: «عوذ: عاذ به يعوذ عوذا وعياذا ومعاذا: لاذ به ولجأ إليه واعتصم، ومعاذ الله أي أعوذ بالله»[٣].

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله فرقا بين العياذ واللياذ، وهو أن العياذ هو الفرار من شيء مخوف إلى ما يؤمَّن منه، أو إلى من يؤمِّن منه، وأما اللياذ فهو الفرار إلى طلب الخير والإقبال عليه[٤].

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن أصل العوذ في اللغة مأخوذ من قولين:

أحدهما: أنه مأخوذ من الستر، فإن العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه، واستجن به منه.

---

[١] انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/١٧٠)، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص/١٦٧-١٦٨).

[٢] معجم مقاييس اللغة (ص/٦٩٣).

[٣] لسان العرب (١٠/٣٢٩).

[٤] انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٥).

والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة، فإن العائذ قد استمسك بالمعاذ، واعتصم به ولزمه[1].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

إذا كانت الاستعاذة في اللغة: هي طلب العوذ من الغير، وهو الفرار من شيء مخوف إلى من يعصمك منه، سواء كان ذلك من الله أو من غيره، فالاستعاذة في الشرع: هي الاعتصام بالله والالتجاء إليه في دفع المكروه والشرور، قال ابن كثير رحمه الله: «الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر»[2].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «قول القائل أعوذ بالله معناه أستجير بالله، والمستعيذ يطلب منع المستعاذ منه أو رفعه»[3].

وقال الماوردي: «والاستعاذة هي استدفاع الأذى بالأعلى من وجه الخضوع والتذلل»[4].

قد تقدم معنا بيان ابن القيم أن أصل العوذ مأخوذ من كلمتين، الستر ولزوم المجاورة، ثم بين رحمه الله أن (الاستعاذة تنتظمهما معا، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه مستمسك به معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا شهر عدوه سيفا وقصده به، فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، واستجار به، والتجأ إليه.

---

(1) بدائع الفوائد (٧٠٣/٢).

(2) تفسير ابن كثير (٢٥/١).

(3) الرد على البكري (ص/٢٩٦)، بتصرف يسير.

(4) تفسير الماوردي (٢١٣/٣).

فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات، وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يديّ الرب، والافتقار إليه والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة)[1].

فالاستعاذة في الشرع هي توجه نحو الرب القدير والشعور بعظمة من اعتصمت به والتجأت إليه، مع الافتقار إليه والتذلل بين يديه.

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

تبين مما سبق أن الاستعاذة هي: الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، فإذا علم العبد أنه لا شيء يقدر على أن يدفع عنه الشر والضرر إلا الله، تيقن أن الاستعاذة من العبادات القلبية التي يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا.

فإذا استعرضنا نصوص الكتاب والسنة وجدنا أن الاستعاذة عبادة يجب أن تصرف لله ﻷ، وأن صرفها لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا هو شرك، كما نجد في النصوص وصف حال الأنبياء في مواجهة الصعوبات والمشاكل بالاستعاذة بالله لرفع أضرارها أو عدم وجودها، وبيان ذلك كالتالي:

المسألة الأولى: الأمر بإفراد الله بالاستعاذة.

قد بين شيخ الإسلام أن الاستعاذة من أنواع الدعاء التي يجب أن تكون لله تعالى، وخاصة فيما لا يقدر عليه إلا الله جل شأنه، فإنه خير من أعاذ، أما إن كان المخلوق يقدر على إعاذة المستعيذ مما استعاذ منه إعاذة شرعية فلا بأس[1].

---

[1] بدائع الفوائد (٢/٧٠٤).

فإن الاستعاذة بالله عبادة لله، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية، وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك[٢].

ولما كان الشيطان عدو الإنسان، وأقسم على الله أنه سيضل الناس أجمعين إلا عباد الله منهم المخلصين، جاء الأمر بالاستعاذة منه كثيرا، فإن الشيطان (يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن، فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه، قال تعالى:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨، فإن المستعيذ بالله مستجير به لاجئ إليه مستغيث به من الشيطان، فالعائذ بغيره مستجير به، فإذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه، ولذلك قال الله تعالى:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأعراف: ٢٠٠، فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعند ما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعند ما يأمره الشيطان بالسيئات)[٣].

يقول ابن القيم رحمه الله: «ولما علم سبحانه جد العدو وتفرغه للعبد، وعجز العبد عنه، أمره بأن يستعيذ به سبحانه، ويلتجئ إليه في صرفه عنه، فيكتفي بالاستعاذة مؤنة محاربته ومقاومته، فكأنه قيل له: لا طاقة لك بهذا العدو، فاستعذ بي واستجر بي، أكفكه وأمنعك منه، وقال لي شيخ الإسلام قدس الله روحه يوما: "إذا هاش عليك كلب الغنم، فلا تشتغل بمحاربته ومدافعته، وعليك بالراعي، فاستغث به، فهو يصرف عنك الكلب"»[٤].

---

[١] الرد على البكري (ص/٢٩٧)، و (ص/٤٠٥).

[٢] تيسير العزيز الحميد (ص/١٧١).

[٣] مجموع الفتاوى (٢٨٣/٧) باختصار.

[٤] الكلام على مسالة السماع (ص/١٩٤-١٩٥).

ومن الآيات التي جاء فيها الأمر بالاستعاذة بالله وحده، سورة الفلق وسورة الناس، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الفلق: ١ – ٥، (فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموما ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الزمان الذي يعم شره، ثم خص بالذكر السحر والحسد...

وقيل فيها برب الفلق، لأن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو سبحانه لا يفلق شيئا إلا بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق، وهذا حاصل بالفلق، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع)[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ الناس: ١ – ٦، وفي هذه السورة ذكر سبحانه الاستعاذة من الوسواس الخناس فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان، ففيها الاستعاذة من الذي يوسوس من الجنة والناس في

---

[1] مجموع الفتاوى (١٧/٥٠٧-٥٠٨).

صدور الناس، فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، وإيحاؤهم هو وسوستهم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام: ١١٢، وفيها الاستعاذة من شر نفسه ووسوسته، فإن النفس لها وسوسة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ ق: ١٦ .

فالذي يوسوس في صدور الناس نفسُه، وشياطين الجن، وشياطين الإنس[1].

وقد أمر الله في سورة الناس بأن يستعيذ الناس (بربهم وملكهم وإلههم من شر ما يوسوس في صدورهم، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم، والوسواس أصل كل شر يضرهم، لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان ...وبهذا يتبين من الاستعاذة والتي قبلها كما جاء بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلهما.

فإن الوسواس أصل كل كفر وفسق وعصيان، فهو أصل الشر كله، فمتى وقي الإنسان شره وقي عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، فإن جميع هذه إنما تحصل عن طريق الوسواس..)[2].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه، أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦، جاء في التفسير أنه: كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، وكانت الإنس تستعيذ بالجن، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى

---

[1] مجموع الفتاوى (١٧/٥٠٩-٥١٠).

[2] نفس المصدر (١٧/٥١٤-٥١٩).

يصبح، فزاد الإنس الجن باستعاذهم رهقا أي طغيانا وتكبرا وإثما وشرا، أو على التفسير الثاني، فزاد الجن الإنس طغيانا أي ذعرا وتخويفا، بسبب استعاذهم بهم كما سبق[1].

ولهذا جاء الإرشاد عن النبي ﷺ في هذه الحالة بالاستعاذة بكلمات الله التامات من شر ما خلق، قال النبي ﷺ: «من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»[2].

المسألة الثانية: بيان أن الاستعاذة من شيم الأنبياء والمرسلين.

إن الاستعاذة عبادة يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، وأن صرفها لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، ولو استعرضنا نصوص الكتاب والسنة لوجدنا أن الاستعاذة كانت من دأب الأنبياء والمرسلين وصالحي المؤمنين، فهذا نبي الله نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ هود: ٤٧، فنوح عليه السلام يتوب إلى الله ويستغفره، ويطلب من الله أن يعيذه من شر ما يمكن أن يلحقه بالسبب أنه تكلم في شيء لا علم له به[3]، فصيغة الكلام وإن كان خبرا لكنها تتضمن طلبا ودعاء كما ذكر ذلك شيخ الإسلام رحمه الله[4].

---

[1] انظر: تفسير الطبري (٢٣/٦٥٤)، وتفسير البغوي (٤/٤٨٢-٤٨٣)، وتفسير ابن كثير (٤/٥٥٠-٥٥١)، وتفسير القرطبي (٢١/٢٨٣-٢٨٤)، وتفسير السعدي (ص/٨٩٠)، ومجموع الفتاوى (١/٣٦٢) و(١٥/٢٢٧).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٦)، في كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره.

[3] وقد بين شيخ الإسلام أن الاستعاذة تكون من الضرر الفعالي والضرر الغائي، فإن سبب الضرر هو شر النفس وغايته عقوبة الذنب، ولهذا استعاذ النبي: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعملنا» (يأتي تخريج الحديث)، انظر: مجموع الفتاوى (١٨/٢٨٩-٢٩٠).

[4] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٤٤).

وهذا كليم الله موسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ البقرة: ٦٧، أي لما أخبرهم موسى أن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة إن أرادوا أن يعرفوا من القتيل، فاستغربوا كلامه واستبعدوه، ما العلاقة بين القتيل وذبح البقرة؟، فظنوا أن موسى يستهزئ بهم، فموسى استعاذ بالله أن يكون تكلم بجهل أو بكلام لا فائدة فيه، بل هو أمر من الله وهو صدق[1].

واستعاذت امرأة عمران بالله حين وضعت مريم، فقالت: ﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ آل عمران: ٣٦، فدعت لها وذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم[2].

وكذلك مريم استعاذت بالله حين جاءها جبريل مبشرا بولادة الولد، فظنته رجلا يريد منها سوءا فاستعاذت بالله منه: ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ مريم: ١٨.

وهذا نبي الله يوسف استعاذ بالله مرتين، مرة حين ابتلي بامرأة العزيز، استعاذ بالله أن يصرف عنه كيدها: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يوسف: ٢٣،

والمرة الثانية، حين طلب منه إخوته أن يأخذ أحدهم مكان الأخ الذي وجد عنده متاعه، فاستعاذ بالله أن يكون من الظالمين: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ يوسف: ٧٩.

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير (١/١٤٧)، وتفسير السعدي (ص/٥٥)

[2] انظر: تفسير السعدي (ص/١٢٩)

وكذلك كان حال نبينا ﷺ، ومن ينظر في كتب الأذكار والأدعية يجد ذلك واضحا جليا، وأنا أذكر هنا بعضا من تلك الأحاديث التي جاءت الاستعاذة بالله فيها على لسان رسول الله ﷺ مما يبين أنه كان دائم الاستعاذة بالله[١].

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه:«لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ الأنعام: ٦٥، قال: أعوذ بوجهك، ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾قال: أعوذ بوجهك، فلما نزلت ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾قال: هاتان أهون، أو أيسر»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوّذ الحسن والحسين، ويقول: «إن أباكما كان يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[٤].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه[١] عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من

---

[١] انظر: مجموع الفتاوى (٢/٤٠٨).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٥٩)، في كتاب الاعتصام بالله والسنة.

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٦٥)، في كتاب أحاديث الأنبياء.

[٤] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٢٠١)، في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

[١] هو شداد بن أوس بن ثابت الخزرجي ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري، صحابي جليل، من الذين أوتوا العلم والحلم، قيل شهد بدرا، سكن حمص، وتوفي ببيت المقدس سنة ٥٨ هـ، انظر: الإصابة (٣/١٩٥)، وأسد الغابة (٢/٦١٣).

شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: «ومن قال من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»[1].

المطلب الثالث

أقسام المستعاذ منه

بين شيخ الإسلام رحمه الله أقسام المستعاذ منه المذكورة في سورتي: الفلق والناس، وأنها جاءت على أحسن ترتيب، بل المتأمل في الأمر يرى أن المستعاذ منه في الواقع لا يخرج عن هذه الأقسام، فوضح رحمه الله أنه (وقع ترتيب المستعاذ منه في سورة الفلق على كمال الترتيب، انتقالا من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل، فجعلت أربعة أقسام:

الأول: من شر المخلوقات عموما، وقول الحسن: إنه إبليس وذريته، وقول بعضهم: إنه جهنم، ذكر للشر الذي هو لنا شر محض من الأرواح والأجسام.

والثاني: شر الغاسق إذا وقب، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب.

والثالث: شر النفاثات في العقد، وهن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام.

والرابع: الحاسد، وهي النفوس المضرة سفها، فانتظم بذلك جميع أسباب الشرور.

وخص في سورة الناس، الشر الصادر من الجن و الإنس، وهم الأوراح المضرة)[1].

يقول ابن القيم رحمه الله: «والشر الذي يصيب العبد، لا يخلو من قسمين:

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٩٧)، في كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار.

[1] مجموع الفتاوى (١٧/٥٣٥).

إما ذنوب منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدْوَمُهما وأشدهما اتصالا بصاحبه.

وإما شر واقع بغيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان، أو ليس نظيره وهو الجني، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحُمّى وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان من هذه الشرور كلها، بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما»[1].

وقد قسم شيخ الإسلام رحمه الله المستعاذ منه – باعتبار وجوده أو عدمه – إلى نوعين:

الأول: نوع موجود، يستعاذ من ضرره الذي لم يوجد بعد، ومثاله قول (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

الثاني: نوع مفقود، يستعاذ منه، ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ المؤمنون: ٩٧ – ٩٨، وقول النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أُضل، أو أزل أو أُزل»[2].

وقد يشترك النوعان في مستعاذ واحد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الفلق: ١ – ٥، فإنه يستعاذ من الشر الموجود ألا يضر، ويستعاذ من الشر الضار المفقود ألا يوجد، ومثله قوله ﷺ في الحديث: «... ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات

---

[1] بدائع الفوائد (٢/٧١٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٧/٥٣٦).

[2] أخرجه أبو داود في سننه (ص/٩٢٢)، في كتاب الأدب، باب ما يقال إذا خرج من بيته، والنسائي في سننه (ص/٨٢٦)، في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الضلال، والترمذي في سننه (ص/٧٧٩)، في كتاب الدعوات، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٤٠)، في كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا خرج من بيته، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (٢٠).

أعمالنا»[١]، فيحتمل أن يكون المراد نعوذ بالله أن يكون منها شر، ونعوذ بالله أن يصيبنا شرها، وهذا أشبه، والله أعلم[٢].

المطلب الرابع

أقسام الاستعاذة

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رحمه الله نجد أنه يتكلم عن ثلاثة أقسام للاستعاذة، الاستعاذة التوحيدية الإيمانية، والاستعاذة الشركية ، والاستعاذة المباحة، إذًا أنواع الاستعاذة من حيث العموم ثلاثة[٣]:

القسم الأول: الاستعاذة التوحيدية.

وهي الاستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل، صغير أو كبير، بشر أو غير بشر، ودليلها قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ إلى آخر السورة ، وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ص/٣٦٨)، في كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح، والنسائي في سننه (ص/٢٣٠)، في كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة، والترمذي في سننه (ص/٢٦١)، في كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٣٢٩)، في كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، وصححه الألباني في خطبة الحاجة (٢٠-٢١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٨/٢٨٨-٢٨٩)، و بدائع الفوائد (٢/٧١٥-٧١٧).

(٣) وقد قسمها الشيخ ابن عثيمين أربعة أقسام، **القسم الأول**: الاستعاذة بالله، **القسم الثاني**: الاستعاذة بصفة من صفات الله ككلامه وعظمته، **القسم الثالث**: الاستعاذة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ فهذا شرك، **القسم الرابع**: الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز، انظر: شرح ثلاثة أصول (ص/٦٣-٦٤).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ إلى آخر السورة[1].

أما الاستعاذة بصفات الله التي جعلها الشيخ ابن العثيمين رحمه الله قسما خاصا، فإنه في الحقيقة يعود إلى هذا القسم، لأن الاستعاذة بصفة الله استعاذة بالله[2].

القسم الثاني: الاستعاذة الشركية.

وهي الاستعاذة بغير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله، مثل الاستعاذة بالأموات، أو الاستعاذة بالغائبين، أو الاستعاذة بالحاضرين غير القادرين فهذا شرك أكبر.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يطلب إلا من الله»[3].

القسم الثالث: الاستعاذة المباحة.

وهي الاستعاذة بغير الله في أمر يقدر عليه، كمن يستعيذ برجل أو مكان يستطيع كف الشر والضرر عنه، فهذا هو الذي اختلف العلماء فيه على قولين، وإن كان الراجح جوازها:

القول الأول: أن الاستعاذة لا يجوز صرفها لغير الله مطلقا، سواء في أمر لا يقدر عليه المخلوق، أو في أمر يقدر عليه المخلوق، وقدأشار إلى ذلك شيخ الإسلام، إذ قال رحمه الله: «والاستعاذة لا تصح بمخلوق كما نص عليه الإمام أحمد و غيره من الأئمة»، إلى أن قال: «قالوا: والاستعاذة لا تكون بمخلوق»[1].

القول الثاني: الاستعاذة بغير الله في شيء أقدره الله عليه جائز، وهذا ما تؤيده الأدلة، جاء في الحديث عن جابر بن عبد الله أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فأتي بها النبي ﷺ فعاذت

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٥٠٨/١٧)، (٥١٤/١٧).

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١١١/١)، والرد على البكري (ص/٢٩٥)

[3] مجموع الفتاوى (١٠٤/١).

[1] الرد على البكري (ص/٢٩٥-٢٩٦).

بأم سلمة زوج النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع يدها»[1].

وهذا القول هو ظاهر قول شيخ الإسلام، قال رحمه الله: «أما طلب ما يقدر عليه في حياته، فهذا جائز سواء سمي استغاثة أو استعاذة أو غير ذلك»[2].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «وكذلك في الاستعاذة والفرق، إلا أن المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يستعاذ فيه إلا بالله»[3].

وقد ذكر الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ كلاما نفيسا يمكن أن يجمع القولين، فقال حفظه الله: «والذي يظهر أن المقام فيه تفصيل، وهو: أن الاستعاذة فيها عمل ظاهر، وفيها عمل باطن، فالعمل الظاهر: أن يطلب العوذ، وأن يطلب العياذ، وهو أن يُعصم من هذا الشر، أو أن ينجو من هذا الشر، وفيها - أيضا - عمل باطن وهو: توجه القلب وسكينته واضطراره، وحاجته إلى هذا المستعاذ به، واعتصامه بهذا المستعاذ به، وتفويض أمر نجاته إليه.

فإذا كانت الاستعاذة تجمع هذين النوعين فيصح أن يقال: إن الاستعاذة لا تصلح إلا بالله، لأن منهما ما هو عمل قلبي - كما تقدم - وهو بالإجماع لا يصلح التوجه به إلا لله، وإذا قصد بالاستعاذة العمل الظاهر - فقط - وهو طلب العياذ والملجأ، فيجوز أن يتوجه بها إلى المخلوق، وعلى هذا يحمل الدليل الوارد في جوازها»[1].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٧٠)، في كتاب الحدود، باب إقامة الحدودعلى الشريف والوضيع، ومسلم في صحيحه (ص/٧٠١)، في كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره..، واللفظ له.

[2] الرد على البكري (ص/٤٠٥).

[3] تيسير العزيز الحميد (ص/١٧٢).

[1] التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص/١٦٩-١٧٠).

وعلى كل حال، إن كانت الاستعاذة بغير الله في شيء أقدر الله عليه، مع عدم تعلق القلب بالسبب، بل يعلق القلب بمسبِّب الأسباب، فالاستعاذة جائزة ومباحة، والله تعالى أعلم.

المطلب الخامس

ثمرات الاستعاذة

إن للاستعاذة ثمرات وفوائد جمة، وإن أعظم هذه الثمرات والفوائد أن في الاستعاذة بالله تحقيق للعبادة، وذلك بصرف هذه العبادة إلى مستحقها، لأنه لا شيء يقدر على منع الضرر ورفعه إلا الله، وكل من يعين العبد من المخلوقات على منع الضرر ورفعه فليعلم أن الله هو الذي أقدره على ذلك ويسّره له، فلا يلتفت إلى السبب، بل يلتفت ويتعلق بمسبب الأسباب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وإن كان الله قد جعل لها أسبابا، فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعاوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيءة الله»[1].

فبالاستعاذة بالله تحصل الطمأنينة والأمن للعبد، لأنه يعلم أنه آوى إلى ركن شديد، لأنه هو الذي فلق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وأنه فلق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والرب هو الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم وهو الذي يستعاذ به مما يضرهم، فكما فلق الشيء عن الشيء ، وأخرج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت والميت من الحي، فهو القادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع[1]، ولا شك أن العبد إذا استشعر هذه المعاني العظيمة تورد له الطمأنية، وأنه أسند أمره إلى رب عظيم لا يعجزه شيء.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٢٥٦).

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٧/٥٠٨).

ومن ثمرات الاستعاذة بالله هي: أنها سبب لحفظ الله للعبد، بل من الأسباب القوية التي تجعل العبد يستعيذ بالله هو اعتقاده في كفاية الله وتمام حمايته من كل شيء، ولهذا علم شيخ الإسلام ابن القيم حين يهاجم له العدو – الشيطان– أن يستعيذ بربه، فيكتفي بالاستعاذة مؤنة محاربته ومقاومته، قال له شيخ الإسلام: «إذا هاش عليك كلب الغنم، فلا تشتغل بمحاربته ومدافعته، وعليك بالراعي، فاستغث به، فهو يصرف عنك الكلب».

ويبين شيخ الإسلام أن الاستعاذة سبب لحماية الله لعبده، فيقول: «فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨، فإن المستعيذ بالله مستجير به لاجئ إليه مستغيث به من الشيطان، فالعائذ بغيره مستجير به، فإذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويجيره منه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأعراف: ٢٠٠، فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه، وعند ما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات، وعند ما يأمره الشيطان بالسيئات»[1].

ونخلص مما سبق أن الاستعاذة من أجل الأعمال القلبية التي يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، وأن المستعيذ لا بد أن تكون ثقته واعتماده على الله، وأن يكون اعتقاده في كفاية الله وتمام حمايته من كل شيء، ثم هذا لا ينافي الاستعاذة بالخلق في شيء أقدرهم الله عليه، مع عدم تعلق القلب بهم.

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٨٣/٧) باختصار.

المبحث الثالث عشر: التوبة.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: شروط التوبة.

المطلب الرابع: أقسام التوبة.

المطلب الخامس: أحكام التوبة.

المطلب السادس: ثمرات التوبة.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن التوبة مصدر الفعل تاب، وأصل هذه المادة: التاء، والواو، والباء (توب)، وهي تدور حول معاني الرجوع، والعودة، والإنابة، والندم[1].

قال ابن فارس: «توب: التاء والواو والباء كلمة واحدة، تدل على الرجوع، يقال تاب من ذنبه، أي رجع منه، يتوب إلى الله توبة ومتابا، فهو تائب، والتوب والتوبة، قال تعالى: ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ غافر: ٣»[2].

وقال الفيروزآبادي: «تاب إلى الله توبا وتوبة ومتابا وتابة وتَتْوِبة، رجع عن المعصية، وهو التائب وتواب، تاب الله عليه: وفقه للتوبة، أي رجع به من التشديد إلى التخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وهو تواب على عباده»[3].

وقال الأزهري: «أصل تاب عاد إلى الله ورجع وأناب، وتاب الله عليه: عاد بالمغفرة، وقال ﷻ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ النور: ٣١، أي عودوا إلى طاعته وأنيبوا، والله التواب يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه، واستتبت فلانا أي عرضت عليه التوبة مما اقترف، أي الرجوع والندم على ما فرط منه»[1].

ويتبين من خلال هذه النقول أن التوبة في اللغة، هي الرجوع والعودة والإنابة، أو على المعنى الأخص هي الرجوع من الذنب والتقصير إلى الطاعة والاجتهاد، وتكون من العبد إلى

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/٢٤٤)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/١٥٧)، وتهذيب اللغة (١٤/٣٣٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/١٥٧).

(٣) القاموس المحيط (ص/٧٩).

(١) تهذيب اللغة (١٤/٣٣٢).

الله، وتكون من الله على العبد، فإذا كانت من العبد عُدّيت بإلى، وإذا كانت من الله عديت بعلى، وتكون بمعنى قبول توبة العبد.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

إذا كان كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، وإذا كانت الأخطاء والذنوب والمعاصي ترجع إلى أصلين: ترك مأمور، وفعل محظور، فالتوبة التي قلنا إنها في اللغة الرجوع عن مسلك المعصية إلى مسلك الطاعة، فهي في الشرع تشمل الرجوع إلى الله بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، وإن كان الذنب في الأمور الاعتقادية تكون التوبة بالقلب، وذلك بالرجوع عن الاعتقادات الفاسدة إلى الاعتقادات الصحيحة، وإن كان الذنب في الأمور العملية، فالتوبة تكون بالجوارح، وذلك بالرجوع عن المعاصي العملية إلى الطاعات العملية.

وقد عرف الجرجاني التوبة بقوله: «هي الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب»[1].

ويقول الراغب: «التوب ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر؛ لم أفعل، أو يقول؛ فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة»[2].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «التوبة هي جماع الرجوع من السيئات إلى الحسنات»[1].

---

[1] التعريفات (ص/٧٤).

[2] المفردات (ص/١٦٩).

[1] الاستقامة (١/٤٦٣).

ويقول أيضا: «التوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه، فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وليست التوبة من فعل السيئات فقط»[1].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «فإن حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر»[2].

ويقول أيضا: «التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا»[3].

ويقول أيضا: «فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل»[4].

إذًا التوبة في مفهوم الشرع هي جامعة لأمرين: الرجوع عن ترك المأمور إلى فعله، والرجوع عن فعل المحظور إلى تركه، ظاهرا وباطنا، مع العلم بقبح حاله، والندم على فعله، والعزم على ألا يعود إليه إذا قدر، والتدارك لما يمكن تداركه من التقصير، مع إخلاص تام لله ورجاء ثوابه وخوف عقابه[1].

المسألة الثالثة: مرادفات التوبة.

يرادف التوبة لفظان آخران هما: الاستغفار والإنابة، وإليك تعريفا مختصرا بهما.

---

[1] رسالة في التوبة (٢٢٨/١)، ضمن جامع الرسائل.

[2] مدارج السالكين (٢٣٠/١).

[3] نفس المصدر (٢٣٠/١).

[4] مدارج السالكين (١٣٨/١).

[1] انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٤٦٥-٤٦٦)، والتوبة وظيفة العمر (ص/١٠-١١)، تأليف محمد بن إبراهيم الحمد.

أولا: الاستغفار.

وهو لغة: طلب المغفرة، كالاستعانة طلب العون، والاستعاذة طلب العياذ.

أما في الشرع فالمراد به طلب المغفرة من الله ﷻ، وهي وقاية شر الذنوب مع سترها.

والاستغفار قد يكون بالقلب، وقد يكون باللسان، فالاستغفار القلبي هو طلب المغفرة بالقلب.

والاستغفار باللسان هو الدعاء بطلب المغفرة، ويكون بنحو قول المستغفر: أستغفر الله، اللهم اغفر لي.

والاستغفار مما يكمل التوبة ويتممها، وهو مأمور به كالتوبة، فالتائب إذا عاد إلى الله سبحانه وتعالى وإلى طلب رضاه، فعليه أن يطلب منه أن يغفر له ما تقدم من ذنوبه، ولا بد من ذلك حتى تكون التوبة خالصة، وحتى يكون صاحبها بعيدا عن آثار ماضيه الأثيم.

ولهذه الرابطة القوية بين التوبة والاستغفار لا تكاد تجدهما منفصلين في النصوص الشرعية في الكتاب والسنة كما سنرى عند ذكر الآيات والأحاديث في التوبة.

فيقال عنهما: إذا افترقا اجتمعا، فإذا ذكر الاستغفار وحده في سياق دخلت معه التوبة، وإذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار، فالتوبة تتضمن الاستغفار والاستغفار يتضمن التوبة، فكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وإذا اجتمعا افترقا، فعند اقتران أحد اللفظين بالآخر كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ هود: ٣، يكون الاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، وتكون التوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل[1].

ويرى بعض العلماء أن الاستغفار عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنب بالقلب والجوارح[1].

---

[1] انظر: مدارج السالكين (٢٣٢/١).

ثانيا: الإنابة.

وهي لغة: الرجوع كالتوبة، يقال: أناب إلى الله إذا تاب إليه ورجع إلى الطاعة[٢].

وفي الشرع: هي الرجوع إلى الطاعة والنزوع عن المعصية.

لكن الإنابة في مفهومها العام لها معنيان:

المعنى الأول: وهو الذي ذكرنا، أنها بمعنى التوبة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ص: ٣٤، أو أنها منزلة بعد التوبة، فإن كانت التوبة رجوعا إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، فالإنابة تتمة ذلك، فهي: رجوع إلى الله بالاجتهاد، والنصح في طاعته[٣].

والمعنى الثاني: أنها بمعنى العبادة كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ الشورى: ١٠، لأن العبادة رجوع إلى الله واعتراف باستحقاقه للعبادة وعودة إلى المنهج الذي أمر بسلوكه، وهذه هي الإنابة بهذا المفهوم[٤].

ومن كلام ابن القيم رحمه الله يلاحظ التفرقة بين التوبة والإنابة، فالتوبة والإنابة كل منهما رجوع إلى الطاعة وعدول عن طريق المعصية، لكن التوبة في الغالب تطلق إزاء الذنوب، فيقال: تاب من الذنب، والإنابة تطلق على التزام الطاعة، وتطلق على ما يعم الدين كله وهو العبادة.

ومهما يكن من أمر، فإن الإنابة وقعت كثيرا موقع التوبة في نصوص الكتاب والسنة – كما سيأتي – ومن هنا أدرجتها تحت التوبة، والله أعلم.

---

[١] انظر: جامع العلوم والحكم (٤٠٨/٢).

[٢] انظر: القاموس المحيط (ص/١٧٩)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/٩٦٦).

[٣] انظر: مدارج السالكين (٣٢٤/١).

[٤] انظر: مجموع الفتاوى (٥٢٧/٨)، وطريق الهجرتين (ص/٣٧٨).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

التوبة وظيفة العمر، وبداية العبد ونهايته، وأول منازل العبودية وأوسطها وآخرها، وحاجتنا إلى التوبة ماسة، بل إن ضرورتنا إليها مُلِحّة، فنحن نذْنب كثيرا، ونفرط في جنب الله ليلا ونهارا، فنحتاج إلى ما يصقل القلوب، وينقيها من رين الذنوب، فإن كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، فالعبرة بكمال النهاية، لا بنقص البداية[(١)].

وإذا استعرضنا نصوص الكتاب والسنة، نجد أن الشارع الحكيم أوْلى التوبة اهتماما بليغا، بل التوبة من أكثر الأعمال القلبية ورودا في نصوص الكتاب والسنة، ويأتي ذكرها في النصوص بأساليب مختلفة[(٢)]، منها ما هو أمر مباشر بالتوبة موجه لجميع المؤمنين، ومنها ما هو ترغيب للذين أسرفوا على أنفسهم ألا ييأسوا من رحمة الله، ومنها ما هو إخبار بأن الله سبحانه يقبل التوبة عن عباده وهو التواب الرحيم، ومنها الإخبار أن الاتصاف بها من شيم أولياء الله من الأنبياء والمرسلين، ومنها أن التوبة تترتب عليها سعادة الدنيا والآخرة، وبيان ذلك فيما يلي:

المسألة الأولى: الأمر بالتوبة لعموم المؤمنين.

إن التوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن المعصية، ولو خلا عن معصية بالجوارح، لم يخْل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه، لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما

---

(١) التوبة، وظيفة العمر (ص/٣).

(٢) انظر: رسالة في التوبة (١/٣١٩-٣٢٦)، ومجموع الفتاوى (١٠/٣١٠-٣١٣)، و (١١/٢٥٣-٢٥٦).

يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد[1]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال، لأنه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور، أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائما»[2].

وإذا كانت طبيعة البشر النقص والتقصير والذنوب والأخطاء، كما أخبر بذلك المصطفى الله ﷺ بقوله: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[3]، فإنما يتوجب على العبد التوبة إلى الله والاستغفار له .

ويأتي التأكيد على هذا الوجوب بالأمر الصريح من الله عز وجل في آيات كثيرة، والأمر الصريح من نبيه ﷺ في أحاديث صحيحة بوجوبها وضرورتها، مما لا يترك المجال للعبد أن يتهاون بشأنها، بل يتبادر بالامتثال والتوبة والاستغفار.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هود: ٣، في الآية أمر صريح بالتوبة موجه إلى أمة الإسلام بأجمعها، وقد وردت الآية في سياق دعوة النبي ﷺ قومه كافة إلى الدين الإسلامي، وبيان المضامين العامة التي احتوى عليها القرآن الكريم، حيث أخبر المولى سبحانه أن كتابه العزيز محكم الآيات ومفصل من لدن الحكيم الخبير، وأن مضمون هذا الكتاب هو الأمر بالتوحيد الخالص لله رب العالمين، وأن محمدا عليه الصلاة والسلام نذير وبشير، وأن من مضمون هذا الكتاب المحكم الأمر بالاستغفار والتوبة إلى الله اللذين يترتب عليهما التمتع بالمتاع الحسن في الدنيا والتفضل على العباد بالخير العميم جزاء أعمالهم، وأما من تولى عن

---

[1] مختصر منهاج القاصدين (ص/١٤٩-١٥٠).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٣٣٠)، وانظر (١٠/٥٧٩-٥٨٠).

[3] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٦٣)، في كتاب صفة القيامة، وابن ماجه في سننه (ص/٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، الحاكم في المستدرك (٥/١٧٠) في كتاب التوبة والإنابة، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٢٢٤١).

هذين العملين الجليلين والإيمان بهذا الكتاب المحكم فإنه يخاف عليه العذاب الكائن في ذلك اليوم الكبير[(١)]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فبين أن من وحده واستغفره متّعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى، ومن عمل بعد ذلك خيرا زاده من فضله»[(٢)].

ويقول تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١، بعد ما ذكر الله جملة من الأوامر التي يجب على المؤمن أن يتخلق بها، والنواهي التي يجب الابتعاد عنها، ولما كان لا بد من وقوع سهو وتقصير، جاء هذا الإرشاد الرباني بأن يتوب المؤمنون إلى الله لعلهم بسبب إيمانهم بالله والتوبة إليه يفلحون[(٣)]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «في قوله في آخر الآية: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فوائد جليلة، منها (الأولى): أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة، في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي: ترك غض البصر، وحفظ الفرج، وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك، فمستقل ومستكثر»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التحريم: ٨، فقد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، وقد ذكر المفسرون في تفسيرها

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢٩/١٥)، وتفسير البغوي (٣٨٥/٢-٣٨٦)، وتفسير ابن كثير (٥٦٨/٢)، وفتح البيان (١٣٨/٦-١٣٩) لمحمد صديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/٣٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦٣/٨).

(٣) انظر تفسير البغوي (٢٩٠/٣)، وتفسير ابن كثير (٣٧٩/٣)، وتفسير القرطبي (٢٢٧/١٥)، وفتح البيان (٢١٢/٩)، لمحمد صديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/٥٦٧).

(١) مجموع الفتاوى (٤٠٣/١٥).

نحو ثلاثة وعشرين قولا متقارب المعنى، وملاك الأمر فيها أن يتوب توبة صادقة خالصة بالعزم على أن لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع[1]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة والتابعين ﵃ التوبة النصوح: **أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه**، و (نصوح) هي صفة للتوبة وهي مشتقة من النصح والنصيحة، وأصل ذلك هو الخلوص...

فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش، وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه، **فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب فهذه التوبة النصوح**، وهي واجبة بما أمر الله تعالى»[2].

ومن الأحاديث التي جاء فيها الأمر بالتوبة، قول النبي ﷺ: «يأيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة»[1].

ففي الحديث الأمر الصريح بالتوبة إلى الله عز وجل والإكثار منها، ثم أكد هذا الأمر بإخبار النبي ﷺ عن نفسه أنه يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة، فإن كان هذا حال النبي ﷺ الذي هو أفضل الخلق، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو أتقى الناس لله وأخشاهم له، فكيف الحال بغيره الذي يذنب ليلا ونهارا، ويفرط في جنب الله ويقصر، فالواجب عليه وعلى المؤمنين أجمعين أن يكثر من التوبة والاستغفار[2].

---

(1) انظر: تفسير البغوي (٤/٤٣٠-٤٣١)، وتفسير ابن كثير (٤/٥٠٢)، وتفسير القرطبي (٢١/٩٦-١٠٠)، وفتح البيان (١٤/٢١٨)، لمحمدصديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/٨٧٤).

(2) مجموع الفتاوى (١٦/٥٧-٥٨) باختصار.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٣)، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(2) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/٥٦).

ونخلص من خلال استعراضنا لهذه النصوص من الكتاب والسنة أن التوبة واجبة على كل مؤمن، بل كل الناس بحاجة إليه، ولا يستغني عنها أحد مهما بلغت درجته في العبادة والطاعة.

المسألة الثانية: ترغيب المؤمنين بالتوبة، وعدم اليأس والقنوط.

سبق الكلام في مبحث الاستعاذة أن الشيطان اللعين أقسم على الله أن يغوي الناس أجمعين، وأنه تفرغ لهذه المهمة، وبيّنا طريق الحماية منه بالاستعاذة بالله عز وجل.

ولكن من أساليب الشيطان لإغواء الناس وإضلالهم هي الوساوس التي يوسوس بها في صدور الناس، ومن تلك الوساوس أنه يوحي إلى العبد القنوط من رحمة الله واليأس من مغفرته لكي لا يحقق العبد عبادة تصقل بها القلوب، وتغفر بها الذنوب، ألا وهي التوبة إلى الله عز وجل والإنابة إليه.

وللشيطان في وقوع الناس في القنوط مسلكان، كما بين ذلك شيخ الإسلام رحمه الله:

الأول: أن يوسوس إلى الإنسان أن الله لا يغفر له، وهذا لكونه يستعظم الذنوب ويستبعد غفران الله عليها.

الثاني: أن يوسوس إليه أن التوبة متعذرة عليه، لأنه يرى للتوبة شروطا كثيرة ويقول لنفسه أنه لا يستطيع التوبة، فلا يتوب أصلا[1].

وعند تأمل نصوص الكتاب والسنة نجد أن الشارع الحكيم عالج هذا الموضوع تمام العلاج، فنجد في النصوص الترغيب العظيم لمن أسرف على نفسه بأنواع الظلم بأن يتوب إلى الله لأن رحمة الله واسعة، وأن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وكل هذا ترغيب في أن باب التوبة مفتوح

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٦/١٩-٢٠).

وأن مغفرته واسعة، وأن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، وإليكم بعض النصوص من الكتاب والسنة تدل على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣، فهذه الآية هي أرجى الآيات للمذنبين، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط والرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، ثم أخبر تعالى أنه يغفر الذنوب جميعا بصيغة التوكيد، للدلالة على أن الذنوب مهما عظمت فإنها داخلة تحت الغفران، (فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنَهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلا ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما...)[(١)]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرئهم على معاصي الله»[(١)].

---

(١) تفسير الشوكاني (٤/٦٦٨).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٩-٢٠).

وحين شرح شيخ الإسلام الحديث القدسي: وفيه قول النبي ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: «... يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم.. »[1]، قال رحمه الله: «فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان[2]:

أحدهما: المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ الزمر: ٥٤، فهذا السياق مع سبب نزول الآية يبين أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، وقد دخل في هذا العموم الشرك وغيره من الذنوب فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب»[3].

ومن الآيات التي ترغب في التوبة قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ النساء: ١٧، فبين الله أن التوبة ليست محجوزة لفئة معينة من المذنبين، بل إنها مقبولة من كل مَن عمل السوء بجهالة ثم تاب من قريب، ومعنى ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ أي بغفلة من القلب عن مضار العمل السيء، أو أنهم أقدموا على بصيرة وعلم بأن عاقبته مكروهة، ولكنهم آثروا العاجل على الآجل، فسموا جهالا لإيثارهم القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة، وليس الأمر أنهم يجهلون أن العمل المعين سوء، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «والمقصود هنا: أن كل عاص

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٩)، في كتاب البر و الصلة و الآداب، باب تحريم الظلم.

[2] **النوع الثاني** لمعنى المغفرة العامة عند شيخ الإسلام هو تخفيف العذاب، أو تأخيره إلى أجل مسمى، فمن الأول: دعاء النبي ﷺ لتخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، ومن الثاني ما يحصل من عدم المؤاخذة والعذاب لبعض الذنوب في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فاطر: ٤٥، (مجموع الفتاوى ١٩٢/١٨).

[3] مجموع الفتاوى (١٨/١٨٥-١٨٦).

لله فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله، وإنما يكون جاهلا لنقص خوفه من الله، إذ لو تم خوفه من الله لم يعص»[1].

وقوله ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، أي قبل أن يدركهم الموت أو قبل حضور مقدماته، قال أبو العالية[2]: سألت أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا لي: «كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب»[3]، ويدل على ذلك الآية التي تليها: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ النساء: ١٨.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما من تاب عند معاينة الموت، فهذا كفرعون الذي قال: أنا الله، فلما أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، قال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يونس: ٩١، وهذا استفهام إنكار بين به أن هذه التوبة ليست هي التوبة المقبولة المأمور بها، فإن استفهام الإنكار: إما بمعنى النفي إذا قابل الإخبار، وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء، وهذا من هذا.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ غافر: ٨٣ – ٨٤، بين أن التوبة بعد رؤية البأس

---

[1] الإيمان الكبير (ص/٢١-٢٢).

[2] هو رفيع بن مهران، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، أبو العالية الرياحي البصري، أحد الأعلام. أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، ودخل عليه. وسمع من عمر، وعلي، وأبي، وأبي ذر، وابن مسعود، وعائشة، وأبي موسى وعدة. قال أبو عمرو الداني: أخذ أبو العالية القراءة عرضا عن أبي، وزيد، وابن عباس. توفي سنة ٩٠ هـ. وقيل ٩٣ هـ. انظر: طبقات ابن سعد (١١١/٩)، والسير (٢٠٧/٤).

[3] انظر: مجموع الفتاوى (٣٠٧/١٠-٣٠٨).

لا تنفع، وأن هذه سنة الله التي قد خلت في عباده، كفرعون وغيره، وفي الحديث: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"[(١)]»[(٢)].

ومن الأحاديث التي جاء الترغيب فيها بالتوبة قول النبي ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[(٣)]، ففي الحديث الإخبار بأن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، أي أن الفرصة متاحة للمذنب دائما لكي يتوب، ولا يقتصر على وقت معين طالما كان العبد حيا ولم تحضر مقدمات الموت، وطالما أن باب التوبة لم يقفل بطلوع الشمس من المغرب، فمن آوى إلى فراشه في الليل فليحاسب نفسه، وينظر ما عمل في النهار، فيستغفر الله ويتوب إليه مما كان قد أحدث في النهار من المعاصي والتقصير، حتى يبيت وهو طاهر، وحتى يقدم على ربه - لو قدر ذلك أثناء النوم - وهو مغفور الذنوب مجبور الكسر، وإذا استيقظ العبد في الصباح واستعد لمواجهة نهاره، فليعط نفسه فرصة محاسبتها بالليل وماذا عمل فيه، حتى يتدارك ما كان حصل فيه بالتوبة والاستغفار، ليبدأ نهاره وصفحته بيضاء نقية[(١)].

فالخلاصة أن على العبد أن لا يؤخر التوبة بسبب الذنوب التي ارتكبها، لأن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، ولأن رحمته واسعة، فلا ينبغي له أن يقنط وييأس،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٠/٣٠٠)، والترمذي في سننه (ص/٨٠٣)، في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٢٣٤٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٩٠-١٩١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٠٤)، في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

(١) انظر: أعمال القلوب واثرها في الإيمان (ص/٤٧٤).

كما ينبغي عليه أيضا أن يبادر بالتوبة قبل دخول الإنسان في سياق النزع والاحتضار، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

المسألة الثالثة: الإخبار بأن الله يقبل التوبة عن العباد وأنه هو التواب الرحيم.

وفي سياق المعالجة لداء اليأس والقنوط، تأتي نصوص الكتاب والسنة بتأكيد أمر التوبة والترغيب فيها بأسلوب آخر، ألا وهو الإخبار والبيان أن الله يقبل التوبة عن عباده، أنه هو التواب الرحيم، ذكر شيخ الإسلام رحمه الله فائدة ثانية[1] من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور: ٣١، فقال: «ومنها: أن أهل الفواحش الذين لم يغضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة، وإنما أمروا بها لتقبل منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ التوبة: ١٠٤، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الشورى: ٢٥، وسواء كانت الفواحش مغلظة لشدتها وكثرتها..، بخلاف ما عليه طائفة من الناس فإنهم إذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئا آيسوه من رحمة الله...

فإن القنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى، وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش، فإن هذا أمّن أهلها من مكر الله وذاك قنّط أهلها من رحمة الله، والفقيه كل الفقيه هو الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله»[1].

وحكى شيخ الإسلام رحمه الله حال بعض الصحابة، منهم قدامة بن مظعون [1]، الذين تأولوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ

---

[1] وقد سبقت الفائدة الأولى في هذا المبحث (ص/٥٤٣).

[1] مجموع الفتاوى (١٥/٤٠٤-٤٠٥).

﴿ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المائدة: ٩٣، فظنوا أن الخمر حرمت على العامة دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فشربوها متأولين، فلما ذكر لعمر بن الخطاب اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا، فأقروا بالتحريم، ثم حصل لهم لذلك نوع من اليأس والقنوط لما فعلوا، فكتب عمر إلى قدامة، يقول له: ﴿ حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ غافر: ١ – ٣، ما أدري أي ذنبيك أعظم: استحلالك للمحرم أولا؟ أم يأسك من رحمة الله ثانية؟[٢] [٣].

فالمهم، أن شيخ الإسلام بين أن التوبة مقبولة من سائر المذنبين ولذلك استدل بالآيتين اللتين توضحان أن الله يقبل التوبة، ففي الآية الأولى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التوبة: ١٠٤، يوجه سبحانه الخطاب إلى عباده بطريق الاستفهام التقريري، فيقول: ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، أي يقبل التوبة من جميع عباده إذا أخلصوا في التوبة.

والآية الثانية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ الشورى: ٢٥، إخبار بأن الله يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، لكنها أضافت وصفا ثالثا وهو العلم بأفعال العباد، وذلك إرشاد إلى أن يخلصوا في أعمالهم ويحسنوا تعاطيها، لأن (التوبة لما

---

[١] هو قدامة بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، صحابي جليل، من السابقين الأولين إلى الإسلام، شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين، ثم عزله لشرب الخمر متأولا، مات بالمدينة النبوية في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سنة ٣٦ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٣٧١/٣)، والإصابة (٢٣٢/٥).

[٢] وقد أورد القصة النسائي في السنن الكبري (٢٥٣/٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٤٠/٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣١٥/٨).

[٣] انظر: مجموع الفتاوى (٤٠٤/١١-٤٠٥)، والاستقامة (١٩٠/٢).

كانت من الأعمال العظيمة، التي تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾)[1].

أما قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي حكاه شيخ الإسلام رحمه الله، أنه عاتب قدامة بن مظعون رضي الله عنه، فإنه عاتبه مذكرًا إياه بقوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾، للدلالة على أن الله الذي يعذب، وأن عذابه شديد، فهو كذلك يغفر الذنوب ويقبل التوبة ويُنعِم ويتفضل لأنه ذو الطول، فلا تيأس ولا تقنط، فإنك لو فعلت ذلك، فما أدري أي الذنبين أعظم.

المسألة الرابعة: الإخبار أن التوبة من شيم أولياء الله المقربين.

إذا أمعنا النظر في الكتاب والسنة، تبين لنا أن التوبة إلى الله والاستغفار كانا من شيم أولياء المقربين؛ من الأنبياء والمرسلين، وقبل ذلك أريد أن أنبه إلى أن الأمر بالتوبة إلى الله والاستغفار كان من الأمور المتفق عليها بين الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾ نوح: ١٠ – ١١.

وقال عن هود: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ هود: ٥٢.

وقال عن صالح: ﴿ فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾ هود: ٦١.

[1] تفسير السعدي (ص/٧٥٩).

وكذلك قال شعيب: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ هود: ٩٠[1].

والآن أذكر بعض الآيات التي وردت أن الأنبياء لم يكونوا يأمرون بالتوبة فقط، بل كانوا أول الممتثلين لها، بل غاية المؤمنين من الأنبياء فمن دونهم هي التوبة[2]، قال تعالى عن أبينا آدم عليه السلام: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ٣٧، يخبر الله عن أبي البشر آدم عليه السلام أنه تاب إلى ربه من معصية الأكل من الشجرة، فتاب الله عليه، لأن الله هو التواب الرحيم.

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٣، يخبر الله عن توبة موسى عليه السلام لما سأل ربه أن ينظر إليه، فأخبره الله أنه لا يقدر على ذلك لضعفه الجسماني الذي يتسم به البشر في هذه الحياة الدنيا، وقد تجلى الرب عز وجل للجبل فصار دكا، فخر موسى صعقا، فلما أفاق من صعقته أعلن توبته إلى الله عن سؤال ما كان ينبغي له أن يسأله.

وقال عن داود عليه السلام: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ص: ٢٤، يخبر الله عن توبة داود عليه السلام حين تأكد لديه أن الخصومة التي حُملت إليه تَحمل في طياتها فتنة له واختبارا من الله عز وجل، فما كان منه إلا أن بادر إلى التوبة والاستغفار، وخر راكعا، فأتبع التوبة عملا صالحا يؤكد به مضمون التوبة.

وقال النبي ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة»[1]، فقد أخبر النبي صلى عليه وسلم أنه يغان على قلبه، وهو ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر،

---

[1] انظر: رسالة في التوبة (١/٢١٩-٢٢٠) ضمن جامع الرسائل.

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١٧/٥١٤).

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٣)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

فيغفل عن ذكر الله في بعض الأحيان، لكنه يفزع إلى الاستغفار ويكثر منه، قال شيخ الإسلام: «والغين حجاب رقيق أرق من الغيم، فأخبر أنه يستغفر الله استغفارا يزيل الغين عن القلب، فلا يصير نكتة سوداء، كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينا»[(1)].

والخلاصة من هذه النصوص أن المترلة عند الله والزلفى لديه لا تغني العبد عن التوبة إلى الله والإكثار منها، فغاية المؤمنين من الأنبياء فمن دونهم هي التوبة، فلا يُغتر بقول المعتزلة ومن وافقهم القائلين بعدم توبة الأنبياء ليتمكنوا من القول أن الأنبياء معصومون من الذنوب، فمن نظر في الكتاب والسنة يجد أن النصوص تذكر توبة الأنبياء من الذنوب كما أسلفنا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به في كتابه، وما ثبت عن رسوله، من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها، وهذه التوبة رفع الله بها درجاهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، **وعصمتهم هي من أن يقروا على الذنوب والخطأ**، فإن من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب والخطأ من غير توبة، والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم»[(2)].

المطلب الثالث

شروط التوبة

إن للتوبة شروطا لا تتحقق إلا بها، وقد استنبطها العلماء من نصوص الكتاب والسنة، وهذه الشروط هي كالتالي[(1)]:

---

(1) مجموع الفتاوى (١٥/٢٨٣).

(2) رسالة في التوبة (١/٢٦٩)، ضمن جامع الرسائل، وانظر: مجموع الفتاوى (١٥/٥١-٥٤).

(1) انظر هذه الشروط في رياض الصالحين (ص/٣٣-٣٤)، ومختصر منهاج القاصدين (ص/٢٥٧)، ومدارج السالكين (١/١٣٨)، أما شيخ الإسلام فلم يذكرها مجتمعة، لكنه تكلم عنها في مواضع متفرقة.

١- الإخلاص لله تعالى.

٢- الإقلاع عن المعصية.

٣- الندم على ما فات..

٤- العزم على أن لا يعود إليها.

٥- أن تكون التوبة قبل إقفال بابها.

فهذه الشروط إذا كانت المعصية بين العبد وبين ربه تعالى، أما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، فيزاد على هذه الشروط، شرط سادس، وهو:

٦- رد الحق إلى أهله.

الشرط الأول: الإخلاص لله تعالى، فإن التوبة عبادة، بل هي من أجل العبادات، والعبادات كلها يشترط فيها الإخلاص لله، فمن ترك ذنباً من الذنوب لله صحت توبته، ومن تركه لغير الله لم يكن مخلصاً ولم تصح توبته، فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له وحده ليس لأحد فيه شيء، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد يظن الظان أنه تائب ولا يكون تائبا بل يكون تاركا، والتارك غير التائب، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضي لعجزه عنه، أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة، بل لا بد من أن يعتقد أنه سيئة ويكره فعله لنهي الله عنه ويدعه لله تعالى، لا لرغبة مخلوق ولا لرهبة مخلوق، فإن التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره»[1].

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية، فلا تتصور صحة التوبة مع الإقامة على المعاصي حال التوبة، فإن الإقلاع عن الذنب شرط أساسي للتوبة المقبولة، فالذي يرجع إلى الله وهو مقيم على الذنب لا يعد تائباً، فإن الصادق في توبته يقلع عن المعصية التي كان متلبسا بها في

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٣١٨).

الحال، ويكون إقلاعه هذا من أجل الله خوفا منه وحياء، لا رغبة ورهبة من غير الله، أو لعدم القدرة على فعلها، فالإقلاع من الذنب لازم التوبة.

الشرط الثالث: الندم على ما فات، والندم ركن من أركان التوبة لا تتم إلا به، ولا تتصور التوبة إلا من نادم خائف وجل، مشفق على نفسه مما حصل منه، وقد وضح النبي ﷺ قيمة الندم فقال: «الندم توبة»[1]، وقد أشار شيخ الإسلام إلى عناصر الندم، فقال رحمه الله: «والندم يتضمن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح ما ندم عليه، وبغضه وكراهيته، وألم يلحقه عليه»[2].

فمن أهم هذه العناصر اعتقاد قبح ما ندم عليه، وهذا الاعتقاد بقبح عمله الذي كان يعمله لا يمكن حصوله إلا بعد معرفته بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب فيفعله، ولهذا يقول: إن أول التوبة العلم بالذنب، فإن الذي لا يعلم أنه يذنب لا يمكن أن يتوب من شيء لا يعده ذنبا[3]، فمن عرف قبح ذنبه واعتقده، أورده ذلك كراهية لما كان يفعله، فحصل له بذلك ألم وأذى وغم، فيطلب التملص منه ومن تبعاته.

الشرط الرابع: العزم على أن لا يعود إلى المعصية في المستقبل، فهو ضروري للدلالة على الصدق في التوبة، بل العزم على أن لا يعود هو تفسير للتوبة النصوح المأمور بها في الآية، لأن التوبة رجوع عن الماضي واستشراف إلى المستقبل المغاير له، فإذا كان التائب يريد أن يعود كما كان في الماضي فليس بتائب، بل هو مستهزئ بربه، فهو يظهر الندم مع أنه مستعد لأن يعمل مثله مرة أخرى.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧/٦)، وابن ماجه (ص/٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، والحاكم في المستدرك (١٦٩/٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الروض النضير (٦٤٤).

(2) رسالة في التوبة (٤٨٤/١)، ضمن جامع الرسائل، وانظر: مجموع الفتاوى (٣٢٥/١٠).

(3) انظر: التحفة العراقية (ص/٢٩٧).

ويكفي العزم على عدم العودة من الذنب، ولا يشترط عدم تكرار المعصية، فإن تكررت المعصية فعليه أن يتوب مرة أخرى، ولو عاد مائة مرة، فالله سبحانه لرأفته بعباده يغفر لهم ما داموا يستغفرون ويتوبون إليه ولو تكررت المعاصي منهم[1].

الشرط الخامس: أن تكون التوبة قبل إقفال بابها[2]، فلا بد أن تكون التوبة في الزمن الذي يقبل فيه التوبة، وهو أن تكون التوبة قبل حضور الموت ومقدماتها[3]، قال النبي ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[4]، أو أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها، وهو أحد أشراط الساعة الكبرى، قال النبي ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

فهذه الشروط إذا كانت المعصية بين العبد وبين ربه، أما إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، فكما أسلفنا هناك شرط سادس.

الشرط السادس: رد الحق إلى أهله، ومن شروط التوبة التي لا تتم إلا بها رد المظالم إلى أهلها، فرد المظالم إلى أهلها من تمام الإقلاع من الذنوب، وهذه المظالم إما أن تتعلق بأمور مادية، أو بأمور غير مادية، فإن كانت المظالم مادية كاغتصاب المال فيجب على التائب أن يردها إلى أصحابها إن كانت موجودة، أو أن يتحللهم منها، وإن كانت المظالم غير مادية

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٦/٥٨)، ومدارج السالكين (١/٢١٢).

[2] وقد سبق الكلام عنها في مطلب: الأدلة من الكتاب والسنة، من هذا المبحث.

[3] انظر: مجموع الفتاوى (١٨/١٩٠-١٩١).

[4] أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٠/٣٠٠)، والترمذي في سننه (ص/٨٠٣)، في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٧٠٤)، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٢٣٤٣) .

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٠٤)، في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

فيجب على التائب أن يطلب من المظلوم العفو عن ما بدر من ظلمه وأن يعمل على إرضائه[1].

المطلب الرابع

أقسام التوبة

سبق أن قلنا أن التوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به على وجه إيجاب أو استحباب، وترك ما نهي عنه على وجه تحريم أو كراهة، فمن اقتصر على التوبة بالرجوع من ترك مأمور واجب أو فعل محظور محرم كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبة التامة من ترك الواجبات والمستحبات، ومن فعل المحرمات والمكروهات كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالتوبة الأولى كان من الظالمين؛ إما الفاسقين، وإما الكافرين.

فإذا كان الأمر ينقسم إلى فعل مأمور وترك محظور، فهو كذلك ينقسم إلى واجب ومستحب، فالتوبة إذاً تكون توبة واجبة وتوبة مستحبة،كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام رحمه الله[1].

ثم من المعلوم من الدين بالضرورة أن التوبة تكون من السيئات، فالتوبة من الحسنات لا تجوز عند أحد من المسلمين، فمن ندم على فعل الحسنات التي هي: الإيمان والأعمال الصالحة، فقد تاب ورجع عما أمر الله به من الواجبات، والرجوع عن الإيمان كفر، والرجوع عن الأعمال الصالحة معصية إن كان عالما بذلك، وإن لم يعلم فهو جاهل ضال[2].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٨/١٨٦-١٨٩)، ورياض الصالحين (ص/٣٤)، ومختصر منهاج القاصدين (ص/٢٥٨-٢٥٩)، ومدارج السالكين (١/٢١٨-٢١٩).

[1] رسالة في التوبة (١/٢٢٧)، ضمن جامع الرسائل.

[2] انظر: رسالة في التوبة (١/٢٤٨، و (١/٢٥٥)، ضمن جامع الرسائل.

(وتوبة الإنسان من حسناته على أوجه:

أحدهما: أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها.

والثاني: أن يتوب مما كان يظنه حسنات، و لم يكن كحال أهل البدع.

والثالث: يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها، وأنها حصلت بقوته وينسى فضل الله وإحسانه، وأنه هو المنعم بها، وهذه توبة من فعل مذموم وترك مأمور)[1].

فنخلص من هذا أن التوبة تكون من السيئات التي يعملها العبد سواء علم أنها سيئات أو لم يعلم، أما التوبة من الحسنات فلا يجوز عند أحد من المسلمين، فإنه إما يكون كفرا، أو فسقا، أو معصية، أما توبة العبد من الحسنات على الأوجه السابق ذكرها فهي من كمال الإيمان.

أما قول القائل:(حسنات الأبرار سيئات المقربين)، فإنه ليس من كلام النبي ﷺ ولا أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا سلف الأمة وأئمتها، وإنما هو من كلام المتأخرين وليس بحجة، وإن كان له معنى صحيح، وقد يحمل على معنى فاسد تحتمله العبارة.

أما معناه الصحيح، فوجهان:

أحدهما: أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات، وهذا الاقتصار سيئة في طريق المقربين، ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين فيحرم درجاتهم، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات، لا يتوبون من نفس الحسنات التي يعمل مثلها الأبرار، بل يتوبون من الاقتصار عليها. وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والإقتصار على الحسن.

---

[1] مجموع الفتاوى (١١/٦٨٧-٦٨٨)، وانظر: رسالة في التوبة (١/٢٥٦).

والثاني: أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسنا منه، إما واجبا، وإما مستحبا، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته، ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك، بل يؤمر بما هو أعلى منه، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة،،،

مثال ذلك: أن العامي يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه، وإن كان في ذلك تقليد لهم، إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه، وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهما، فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامي لكانوا مسيئين بذلك.

وأما المعنى الفاسد، فأن يظن الظان أن الحسنات التي أمر الله بها أمرا عاما يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين، مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هي سيئات في حق المقربين، فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعباد، فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين الذي لا يؤمرون فيه بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرمات، كالزنا والخمر والميسر.

وكذلك زعم قوم في أحوال القلوب التي يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات في حقهم[١].

المطلب الخامس

أحكام التوبة

أقصد بهذا المطلب أن أذكر بعض أحكام التوبة التي وقفت عليها من كلام شيخ الإسلام رحمه الله:

[١] رسالة في التوبة (١/٢٥١-٢٥٥)، باختصار.

المسألة الأولى: هل العبد إذا تاب من الذنب، يرجع إلى الدرجة التي كان عليها قبل الذنب؟

فقد اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: إنه يرجع إلى درجته، لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن، والمقتضي لدرجته: ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليه بالتوبة.

القول الثاني: إنه لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه لم يكن في وقوف، وإنما كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعدا به للترقي.

يقول ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام رحمه الله يحكي هذا الخلاف، ثم قال: والصحيح: أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيرا مما كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه، وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرا مما كان وأعلى درجة، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته، وكان منحطا عنها، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة»[1].

وامتدادا على هذه المسألة، يأتي سؤال آخر: هل التائب توبة نصوحا أفضل من الطائع الذي لم يعص الله أصلا، ففي المسألة خلاف[2]، ويفهم من كلام شيخ الإسلام السابق أن

---

[1] مدارج السالكين (١/٢٢٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٩٣-٢٩٤).

[2] انظر هذا الخلاف في مدارج السالكين (١/٢٢٢-٢٢٩).

الأمر ليس بمطرد، بل يكون بحسب حال التائب والطائع، فقد يكون هذا أفضل وقد يكون ذاك أفضل، فالاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل[1].

المسألة الثانية: هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجب لغفرانها وكشف الكربة عنها، أم يحتاج إلى شيء آخر؟

بين شيخ الإسلام أن الاعتراف هذا يمكن أن يكون على وجهين:

الوجه الأول: إن كان الاعتراف بالخطيئة مع التوحيد يتضمن في نفسه توبة فقد أوجب الغفران، فإذا غفر الذنب زالت عقوبته[2].

الوجه الثاني: أما إن كان الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه فهذا هو نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه، وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يقطع له بالمغفرة له، فإنه داع دعوة مجردة[1].

المسألة الثالثة: هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددة، أم لا بد من استحضار جميع الذنوب؟

أجاب شيخ الإسلام رحمه على هذا السؤال بجواب مبني على ثلاثة أصول:

---

[1] انظر مجموع الفتاوى (١٠/٣٠٠-٣٠٩).

[2] بين شيخ الإسلام في هذا الموضع الفرق بين المغفرة والستر منبهًا على غلط من يفسر اسم الله الغفار بأنه الستار، فقال رحمه الله: «فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه. وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن، ومن عوقب على الذنب باطنا أو ظاهرا فلم يغفر له، وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب. وأما إذا ابتلي مع ذلك بما يكون سببا في حقه لزيادة أجره فهذا لا ينافي المغفرة».(مجموع الفتاوى ١٠/٣١٧).

[1] مجموع الفتاوى (١١/٣١٧-٣١٩).

الأصل الأول: أن التوبة تصح من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر إذا كان المقتضى للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضي للتوبة من الآخر، أو كان المانع من أحدهما أشد، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على آخر، قالوا : لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها.

وقد أجاب شيخ الإسلام على دليلهم: أن الخشية توجب العموم، أنه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر، وإنما يتوب مما يعلم قبحه.

وأيضا، فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه في أحدهما دون الآخر، فيتوب من هذا دون ذاك، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض.

الأصل الثاني: أن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض، فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه، أما ما لم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب، لا على حكم من تاب، وما عُرف في هذا نزاع إلا في الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه، وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر و لم يتب منها في الإسلام ؟ هذا فيه قولان معروفان:

القول الأول: يغفر له الجميع لإطلاق قوله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله»[1]، مع قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ الأنفال: ٣٨ .

والقول الثاني: أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه، فإذا أسلم وهو مصر على كبائر دون الكفر، فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر، وهذا القول هو الذي

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٣-٧٤)، في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج.

تدل عليه الأصول والنصوص، فإن في الصحيحين أن النبي ﷺ قال له حكيم بن حزام[1]: يا رسول الله: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ فقال: «من أحسن منكم في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»[2]، فقد دل هذا النص على أنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التي فعلت في حال الجاهلية عمن أحسن، لا عمن لا يحسن، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر ومن لم يتب منها فلم يحسن.

وأجاب عن الآية التي استدل بها القول الأول: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾، أن المنتهي عن شيء يغفر ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن شيء يغفر له ما سلف من غيره.

أما الحديث: «الإسلام يهدم ما كان قبله، و التوبة تهدم ما كان قبلها، و الهجرة تهدم ما كان قبلها»، فمن المعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب.

الأصل الثالث: أن الإنسان قد يستحضر ذنوبا فيتوب منها، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنبا، لأن التوبة العامة تتضمن عزما عاما بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندما عاما على كل محظور.

---

(1) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، أبو خالد، صحابي جليل، وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، وكان صديقا للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها، وكان من سادات قريش في الجاهلية والاسلام، عالما بالنسب، أسلم يوم الفتح، مات بالمدينة سنة ٥٤ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان وهو ابن مائة وعشرون سنة، انظر: طبقات ابن سعد (٦/٥٠)، والاصابة (٢/٣٢).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٩٢)، في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله، وعقوبته في الدنيا والآخرة، ومسلم في صحيحه (ص/٧٣)، في كتاب الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية.

فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه، لقوة إرادته إياه، أو لاعتقاده أنه حسن ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لم يتب منه لم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملته، وأما التوبة المطلقة: وهي أن يتوب توبة مجملة، ولا تستلزم التوبة من كل ذنب، فهذه لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سببا لغفران المعين، كما تصلح أن تكون سببا لغفران الجميع، بخلاف العامة فإنها مقتضية للغفران العام كما تناولت الذنوب تناولا عاما[1].

فنخلص من هذا أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه، فتصح[1]، كذلك إذا كانت التوبة عامة بحيث لو استحضر جميع الذنوب تاب منها، ولم يعارض هذا العام معارض يوجب التخصيص فهي مقتضية لغفران الذنوب كلها، بخلاف إذا كانت التوبة مطلقة التي لا توجب دخول كل فرد من أفراد الذنوب فيها، ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق فلا نجزم أنها مقتضية لغفران الذنوب، والله تعالى أعلم.

المسألة الرابعة: هل توبة العاجز عن الفعل صحيحة مقبولة، أم لا؟

حين تكلم شيخ الإسلام عن مسألة، الفرق بين الهم والإرادة الجازمة، وأن الإنسان الذي له إرادة جازمة إذا فعل معها ما يقدر عليه كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام، بخلاف الهم المجرد، تطرق إلى هذه المسألة، هل توبة العاجز عن الفعل صحيحة مقبولة، أم لا؟

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٣١٦-٣٢٨)، ومدارج السالكين (١/٢٠٦-٢٠٧)

[1] الفرق بين التوبة من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، والتوبة من ذنب مع مباشرة ذنب آخر لا تعلق له به، قد ذكره ابن القيم في المدارج (١/٢٠٧، أما شيخ الإسلام لم يفصل الأمر بهذا التفصيل.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ومما يبنى على هذا مسألة معروفة - بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية - وهي: توبة العاجز عن الفعل، كتوبة المجبوب عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة ونحوه من العجز، فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية، بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل، بل يعاقب على تركه وليس كذلك، بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه كالتائب القادر عليها سواء، فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل كإصرار العاجز عن كمال الفعل»[(١)].

فيفهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله، أن المعصية إذا كانت في بداياتها، فهي مجرد هم، فإذا عجز العبد عنها، وأتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وفعله وهجرانها وتركها بقلبه، فهذا توبته صحيحة مقبولة.

أما إذا هم بالمعصية وقد ارتقى هذا الهم إلى الإرادة الجازمة التي لا يتخلف عنها العمل، وقد أخذ بالأسباب، إما بالقول، أو بالعمل، أو على أقل تقدير بالإشارة، ثم عجز عن مباشرة المعصية، ثم لم يندم، بل يتمنى لو أكمل المهمة، وباشر المعصية، فهو يؤاخذ مثل الفاعل، لأن من المتقرر عند شيخ الإسلام - وهو الذي تؤيده الأدلة - أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فبالتالي توبته غير صحيحة، والله تعالى أعلم[(١)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٧٤٢-٧٤٣).

(١) انظر أيضا كلام ابن القيم في هذه المسألة، فبعد ما ساق الخلاف في المسألة، رجح أن توبة العاجز عن الذنب صحيحة مقبولة (١/٢١٣-٢١٥).

المطلب السادس

ثمرات التوبة

- إن عبودية التوبة من أحب العبادات إلى الله، وأكرمها عليه، فإن عبودية التوبة فيها الذل والانكسار والخضوع والتذلل لله، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه، ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله، والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل، والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة، كمن ذاق الجوع والعطش والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك ...، وينبغي أن يعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها»[1]، فكلما ازداد العبد تواضعا وعبودية ازداد إلى الله قربا ورفعة، ومن ذلك توبته واستغفاره[2].

- فإن الغاية التي يسعى إليها كل مسلم هي محبة الله ﷻ، وهي تنال بأسباب عديدة، من أهمها التوبة إلى الله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ البقرة: ٢٢٢، ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلي بالذنب أكرم الخلق، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذي يوجب وقوع محبوبه من التوبة وزيادة محبته لعبده، فإن التائب عنده محبة خاصة[3].

---

[1] مجموع الفتاوى (١٥/٥٥).

[2] مجموع الفتاوى (١٥/٥٧).

[3] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢٩٤)، ومدارج السالكين (١/٢٢٣).

- ثم للتوبة عند الله سبحانه وتعالى منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة، بعد فقدها، وأيس من أسباب الحياة، و لم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، قال النبي ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده، وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[1].

- فالتوبة سبب من أسباب رفع العقوبة وغفران الذنوب[1]، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم، وأكبر طاعاتهم، وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب»[2].

- فبالتوبة تصقل القلوب وتغفر الذنوب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور، ويزداد هدى، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك،

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٩٧)، في كتاب الدعوات، باب التوبة، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٩٨)، في كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها.

[1] ذكر شيخ الإسلام عشرة أسباب تزول بها عقوبة الذنوب عن العبد، وأول هذه الأسباب التوبة إلى الله، انظر: الإيمان الأوسط (ص-٣٣).

[2] مجموع الفتاوى (٥٣/١٥).

فيتوب مما تركه وفعله، والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب، كما قال النبي ﷺ:"إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤ "[١]»[٢].

- ومن تمام نعمة الله على عبده أنه يبدل سيئاته حسنات، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الفرقان: ٧٠، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «العبد المؤمن إذا تاب وبدل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية»[١].

- فإن التوبة ليس لها جزاء أخروي فقط، بل بالتوبة تنال السعادة الدنيوية أيضا، فالتوبة من أسباب نيل ما يتمنى العبد من الخيرات، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ نوح: ١٠ – ١٢، يخبر الله عن نوح عليه السلام حين أمر قومه بالاستغفار، وأخبرهم نوح أنهم إذا استغفروا

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٣/١٣)، والترمذي في سننه (ص/٧٥٦)، في كتاب التفسير، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٧٠٣)، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، والحاكم في المستدرك (١٠٠/١)، من طريقين، قال في أحدهما: صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألباني في التعليق الترغيب (٣٦٨).

[٢] رسالة في التوبة (٢٣٧/١).

[١] مجموع الفتاوى (٥٥/١٥)

الله، فإنه يرسل عليهم السماء مدرارا أي يكثر الغيث عليهم، ويمدهم بالأموال والبنين، ويبارك لهم في أرضهم فيجعل لهم فيها جنات ويجعل لهم أنهارا.

هذه بعض الثمرات والنتائج المرتبة على التوبة، والخلاصة أن التوبة من أجل العبادات، وأنها من شيم أوليائه الصالحين، وأنها واجبة على كل مؤمن، ولا يستغني عنها أحد، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله ويزول عنه كل مكروه إلا بها.

فأسأل الله تبارك وتعالى أن يتوب علينا، ويبدل سيئاتنا حسنات، وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين.

المبحث الرابع عشر: التقوى.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: لوازم التقوى.

المطلب الرابع: ثمرات التقوى.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

التقوى فعلى من: وقى يقي، قلبت فاؤه - وهي الواو - تاء، لكن التاء صارت لازمة للفعل، فقيل: تقي يتقي، ومن هنا نجد أصحاب المعاجم بعضهم يلحق هذه الكلمة بما هو مبدوء بالتاء، وبعضهم يضعها في مكانها في باب الواو.

قال الأزهري: «قلت: وأصل هذا الحرف: وقي تقي، ولكن صارت التاء لازمة لهذه الحروف فصارت كالأصلية، ولذلك كتبتها في باب التاء، والتقوى: اسم، وموضع التاء واو، وأصلها وقْوي، وهو فعلى من وقيت»[1].

فالتقوى إذا أصلها من الوقاية، وهي الحفظ والصون[2]، يقال وقاه الله وقاية، أي حفظه، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ التحريم: ٦، أي امنعوهم واحفظوهم وصونوهم من الوقوع في ذلك العذاب.

قال ابن فارس: «وقي: الواو والقاف والياء: كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، ووقيته أَقِيه وقْيا. والوقاية: ما يقي الشيء، واتق الله: توقّه، أي اجعل بينك وبينه الوقاية، قال النبي ﷺ: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"[3]، وكأنه أراد: اجعلوها وقاية بينكم وبينها»[4].

---

(١) تهذيب اللغة (٩/٢٥٨)، مادة (تقي).

(٢) انظر: لسان العرب (١٥/٢٦٥-٢٦٦)، والقاموس المحيط (ص/١٧٣١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٣٢)، في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عُذب، ومسلم في صحيحه (ص/٣٩٢)، في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة.

(٤) معجم مقاييس اللغة (ص/١٠٦١).

وقد تطلق التقوى ويراد بها الخوف، فيقال اتقى الشيء أي خافه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ البقرة: ٤١، ويقول في هذا الراغب: «والتقوى جعل النفس في وقاية مما تخاف، هذا تحقيقه، ثم يسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفا، حسب تسمية مقتضَى الشيء بمقتضيه، والمقتضِي بمقتضاه.. »[١].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

التقوى عمل قلبي، ينشأ عن الخوف من الله تعالى والحياء منه والتعظيم له، فيجعل الإنسان يمتثل الأمر ويكتفي بالحلال، ويجتنب النواهي والمحرمات والشهوات، حتى ينتهي به المطاف إلى الكمال البشري.

وقد عرفها العلماء بتعريفات يرجع معظمها إلى ما ينتج عن التقوى من أعمال، ومن التعريفات:

قال الجرجاني: «التقوى هو الاحتراز عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك»[٢].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «التقوى: هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه»[٣].

وقال أيضا: «تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا واستحبابا، وما نهى عنه تحريما وتنزيها، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد»[٤].

وقال ابن رجب رحمه الله: «فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[١].

---

[١] المفردات (ص/٨٨١).

[٢] التعريفات (ص/٦٩).

[٣] مجموع الفتاوى (١٠/١٤٤).

[٤] نفس المصدر (١٠/٦٥٨-٦٥٩)، وانظر: (٣/٤١٦).

فهذه التعريفات تشير إلى أن التقوى اسم جامع يشمل فعل المأمورات وترك المنكرات، ليكون ذلك الفعل أو الترك وقاية للإنسان من الوقوع في ما يخاف ويحذر من عذاب الله وعقابه وسخطه.

والمتتبع لنصوص الكتاب والسنة يجد أن دخول هذه الأمور في التقوى إنما هو من باب التلازم والالتزام، ففعل المأمورات وترك المنكرات من لوازم التقوى، والتقوى كما أسلفنا باعثة عليها وداعية إليها، ولكن التقوى نفسها هي تلك الخصلة الكامنة في القلب والمحركة للجوارح على العمل.

فالتقوى وإن كان أصلها في القلب إلا أن منها تنتج أعمال وعبادات كثيرة، فحقيقتها كما قال ابن القيم: «التقوى: العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمرا ونهيا، فيفعل ما أمره الله به إيمانا بالأمر وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى عنه إيمانا بالنهي وخوفا من وعيده»[٢]، ومصداق ذلك قول طلق بن حبيب[٣] رحمه الله لما قيل له ما التقوى؟ قال: «أن تعمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معاصي الله على نور من الله خوف عقاب الله»[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٣٩٨).

(٢) الرسالة التبوكية (ص/٧-٨)، لابن القيم رحمه الله.

(٣) هو طلق - بسكون اللام - بن حبيب العنزي البصري، وصفه الذهبي بالزاهد الكبير، ومن العلماء العاملين، وأنه من صلحاء التابعين، إلا أنه يرى الإرجاء، كان وفاته ما بين التسعين إلى المائة للهجرة، انظر: طبقات ابن سعد (٩/٢٢٦)، والسير (٤/٦٠١).

(٤) رواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (كتاب الإيمان) (٢/٥٩٨)، وقد ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/٤٣٣)، وابن القيم في الرسالة التبوكية (ص/٨)، والذهبي في السير (٤/٦٠١).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

كان من نعم الله العظام على الأمة المحمدية نعمة الهداية للتقوى، تلك الخصلة المباركة، والمنقبة الهادية المضيئة التي أشرقت بها آي القرآن الكريم وأوضح طرائقها، ودل عليها قولا وفعلا وتقريرا رسولنا المصطفى ﷺ، فهي الخصلة التي تجمع خير الدنيا والآخرة، وهي ذلك الكتر العزيز الذي إن ظفرت به فكم تجد من خير كثير، ورزق كريم، وغنم جسيم، وملك عظيم، فالناظر ببصيرة متفتحة يرى كم عُلق بها في القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضيف إليها من سعادة في الدنيا موصولة بسعادة في الآخرة[1].

وفيما يلي أذكر بعض الأساليب لورود التقوى في نصوص الكتاب والسنة:

المسألة الأولى: التقوى هي وصية الله للأولين والآخرين.

التقوى فيها جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيده الإنسان[2]، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ** ﴾ النساء: ١٣١، وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾ التوبة: ١١٩، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فهي واجبة على الخلق، وقد أمر الله بها ووصى بها في غير موضع، وذم من لا يتقي الله، ومن استغنى عن تقواه توعده»[3].

---

[1] التقوى في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين (١٦١/١)، تأليف: أ.د. محمد أديب الصالح.

[2] تفسير القرطبي (٢٥٠/١).

[3] شرح العمدة (٦٢٧/٣).

وهي وصية الرسل لأممهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشعراء: ١٠٥ – ١٠٦، وقال أيضا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشعراء: ١٢٣ – ١٢٤، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشعراء: ١٤١ – ١٤٢، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشعراء: ١٦٠ – ١٦١، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشعراء: ١٧٦ – ١٧٧.

ولا شك أن الرسل هم أزكى البشر وأنصح الناس لهم، فلو علموا أن هناك خصلة للناس أنفع لهم من التقوى لما عدلوا عنها، فلما أجمعوا عليها بان خطرها وعظيم موقعها وشرفها[1].

التقوى هي وصية رسولنا ﷺ أيضا، قال النبي ﷺ لأبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[2].

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها[3]، وهذا شيخ الإسلام رحمه الله لما سأله سائل أن يوصيه بما يكون فيه صلاح دينه ودنياه، أجابه رحمه الله قائلا: «الحمد لله رب العالمين، أما الوصية: فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ووصى النبي ﷺ معاذا لما بعثه إلى

---

(١) التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة (ص/٢٢)، تأليف أحمد فريد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٤/٣٥)، والترمذي في سننه (ص/٤٥١) في كتاب البر والصلة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١٥٣/١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وكون الحديث على شرط الشيخين رده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٩٥/١) لسببين، يراجع للفائدة، وقد حسن الحديث الألباني في المشكاة (٥٠٨٣).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ذكر جملة من أقوال السلف في التواصي بعضهم البعض بالتقوى (٤٠٥/١-٤٠٧).

اليمن، فقال: "يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"، وكان معاذ ﷺ من النبي ﷺ بمترلة علية...

ثم إنه ﷺ وصاه هذه الوصية، فعلم أنها جامعة، وهي كذلك لمن عقلها مع أنها تفسير الوصية القرآنية.

أما بيان جمعها فلأن العبد عليه حقان:

حق لله ﷻ، وحق لعباده. ثم الحق الذي عليه لا بد أن يخل ببعضه أحيانا: إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه، فقال النبي ﷺ: "اتق الله حيثما كنت" وهذه كلمة جامعة، وفي قوله "حيثما كنت" تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية. ثم قال:"وأتبع السيئة الحسنة تمحها" فإن الطبيب متى تناول المريض شيئا مضرا أمره بما يصلحه، والذنب للعبد كأنه أمر حتم، فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث "السيئة" وإن كانت مفعولة، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة...

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو، والذنوب يزول موجبها بأشياء:

أحدها: التوبة.

والثاني: الاستغفار من غير توبة، فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة: إما الكفارات المقدرة.. وإما الكفارات المطلقة...

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله: من عمل الصالح وإصلاح الفاسد، قال: "وخالق الناس بخلق حسن" وهو حق الناس.

وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام، والدعاء له والاستغفار والثناء عليه، والزيارة له، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض، وبعض هذا واجب وبعضه مستحب.

وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمدا ﷺ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقا، هكذا قال مجاهد[١] وغيره، وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"[٢]، وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر.

وأما بيان أن هذا كله في وصية الله، فهو أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا واستحبابا، وما نهى عنه تحريما وتتريها، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد.

لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم جاء مفسرا في حديث معاذ....

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"[٣] فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق، ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله.

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله، لكن ينبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥»[١].

---

[١] هو مجاهد بن جبر الإمام، شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، روى عن ابن عباس، فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن، والتفسير، والفقه، وعن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعدة. قيل توفي سنة ١٠٠هـ، وقيل ١٠٢هـ وقيل غير ذلك. انظر: حلية الأولياء (٣/٢٧٩)، وسير أعلام النبلاء (٤/٤٤٩).

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٢٩٣)، في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض.

[٣] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢/٣٦٤)، وأبو داود في سننه (ص/٨٤٦)، في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي في سننه (ص/٢٧٦)، في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

[١] مجموع الفتاوى (٦٥٣-٦٦٠)، باختصار.

فيشرح لنا شيخ الإسلام بكلام موجز وصية الله لخلقه، وأن تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا واستحبابا، وما نهى عنه تحريما وتنزيها، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد، والتقوى بهذا المعنى هو الدين كله، وهو الإيمان كله،

لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم جاء مفسرا في حديث معاذ.

المسألة الثانية: كون التقوى باعثة على الأعمال وشرطا لقبولها، ورادعة عن الأعمال السيئة.

إن الناظر في النصوص الشرعية يجد دلالة واضحة على أن التقوى هي الباعثة على الأعمال الصالحة، بل هي شرط في قبول تلك الأعمال، وهي كذلك رادعة عن السيئات.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة: ٣٥.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ التوبة: ١١٩.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ الأحزاب: ٧٠.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٢٧٨.

فالمتأمل في هذه النصوص يلاحظ أن الله مهّد لهذا الأمر والنهي بالأمر بالتقوى، كما ربط بالإيمان للدلالة على أن التقوى والإيمان إذا تأصلا في الإنسان فإنهما يبعثان على فعل المأمور ويزجران عن ارتكاب المحظور، وترك المأمور وفعل المحظور إنما يحصلان عن قسوة في القلب وغلظة في النفس لا تتفقان مع نور الإيمان وضياء التقوى في الفؤاد[1].

---

[1] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢١٧).

فالتقوى لسيت الباعثة على الحسنات والرادعة عن السيئات فقط، بل هي أيضا الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه، فكما أن الواجب الاحتماء عن سبب مرض الجسم قبل حصوله، وإزالته بعد حصوله، فهكذا أمراض القلوب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء وإلى إعادتها – بعد أن عرض له المرض – دواما، فحفظ صحتها بتقوى الله الشاملة لفعل جميع ما أمر، وترك جميع ما نهى عنه وزجر، وإزالة مرضها – بعد أن عرض له – بالتوبة والاستغفار[1].

ثم إن الله لا يتقبل الأعمال إلا من المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧، فالتقوى شرط لقبول العمل أي عمل كان،

وقد ضل في فهم هذه الآية طائفتان من الناس، فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة، فصاحب الكبيرة عندهم ليس من المتقين، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم المتقين، وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصا لله موافقا لأمر الله، فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصيا في غيره، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعا في غيره[2].

وليس من شرط المتقين أن لا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب[3]، لكن من صفات المتقين إنهم إذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان يتذكرون ما علموه قبل ذلك فيزول الطيف ويبصرون الحق الذي كان معلوما،كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف:

[1] انظر مجموع الفتاوى (١٠/١٤٤-١٤٥).

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٣٢٢)، و (٧/٤٩٤-٤٩٥).

[3] انظر: منهاج السنة (٧/٨٢).

٢٠١، قال سعيد بن جبير[١]: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ، وقال مجاهد بن جبر: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه[٢].

المسألة الثالثة: كون التقوى سببا في تحصيل كثير من المصالح الدنيوية.

ومما يجدر الإشارة إليه أن العبد يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه وجوارحه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ الحج: ٣٧، فتقوى القلوب هي التي تنال الله[٣].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب»[٤].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الناظر في النصوص الشرعية يجد أن الله علق حصول كثير من المصالح الدنيوية بالتقوى، كما أن عدم التقوى حرمان من تلك المنافع،

ومن تلك المنافع أن الله بسبب التقوى يجعل للعبد المتقي المخرج من كل ضيق، ويرزقه من حيث لا يحتسب، قال تعالى:﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ الطلاق: ٢ – ٣، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فقد بين فيها أن المتقي يدفع الله عنه المضرة بما

---

[١] هو سعيد بن جبير الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق. وهو حبشي الأصل. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. ثم كان ابن عباس، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء ؟ قتل على يد الحجاج بواسط. قال الإمام أحمد: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. ولد سنة ٤٥ هـ. وكان مقتله سنة ٩٥هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣٧١/٢)، والسير (٣٢١/٤)، والأعلام (٩٣/٣).

[٢] انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٩)، ومجموع الفتاوى (٣٤٧/١٦).

[٣] مجموع الفتاوى (١٦١/١٤).

[٤] منهاج السنة (٢٢٢/٦).

يجعله له من المخرج، ويجلب له من المنفعة بما ييسره له من الرزق، والرزق اسم لكل ما يغتذى به الإنسان، وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة»[1].

وقال أيضا: «ولهذا قال بعض السلف: ما احتاج تقي قط، يقول: إن الله ضمن للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع عنهم ما يضرهم ويجلب لهم ما يحتاجون إليه، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللا فليستغفر الله وليتب إليه»[2].

ومن تلك المنافع أيضا أن الله يعطي للمتقي العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ البقرة: ٢٨٢، فالتقوى طريق العلم، بل التقوى وتعليم الله متلازمان، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد شاع في لسان العامة أن قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، من الباب الأول، حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة، لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل، واتقوا الله ويعلمكم، ولا قال فيعلمكم، وإنما أتى بواو العطف وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك.... فقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ قد يكون من هذا الباب فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه، فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك ومتى اتقاه زاده من العلم وهلم جرا»[3].

ومن تلك المنافع أيضا أن الله يورث الأرض لمن اتقى وأن العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

---

[1] مجموع الفتاوى (٥٢/١٦).

[2] نفس المصدر (٥٢٦/٨).

[3] مجموع الفتاوى (١٧٧/١٨-١٧٨).

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ الأعراف: ١٢٨، وقد وردت الآية في سياق نصيحة موسى عليه السلام لقومه، وإخباره لهم بوعد الله سبحانه بأن يورث الأرض لهم، وأن لهم العاقبة إن هم اتقوا، قال شيخ الإسلام رحمه الله مبينا أن العاقبة للتقوى: «وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الأطعمة المؤذية، فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة، وغير المتقي بمنزلة من خلط من الأطعمة، فإنه وإن اغتذى بها لكن تلك التخاليط قد تورثه أمراضا، إما مؤذية، وإما مهلكة...»[١].

فإن كانت العاقبة للمتقين، فإن حسن العاقبة تكون في هذه الدنيا بحصول كل ما فيه مصلحة وإن كان يظن أن فيه مضرة له، أما حسن العاقبة في الآخرة فتكون بدخول المتقين الجنة والنجاة من النار.

المسألة الرابعة: كون التقوى سببا لمغفرة الذنوب والنجاة من النار.

إن من سعة فضل الله وكرمه، أنه تبارك وتعالى يغفر للمتقين ما بدر منهم من سيئات وذنوب، و يجعل لهم في قلوبهم نورا يفرقون به بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الأنفال: ٢٩، فقد رتب فيه سبحانه وتعالى على تقواه عدة أمور، وهي:

---

[١] قاله شيخ الإسلام في معرض بيان أن التقوى ليست ترك المحظورات فقط، بل هي فعل المأمور وترك المحظور، ومن فعلهما كان بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الأطعمة المؤذية، فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة (٢٠/١٣٦-١٣٧).

١- أنه يجعل لصاحبه فرقانا، وقد اختلفت عبارات السلف في معناه، ومن أشمل ما قيل فيه قول محمد بن إسحاق[١]: أنه الفصل بين الحق والباطل، وقد أورد ابن كثير رحمه الله هذا القول وعلق عليه بقوله: «وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وُفّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصرته ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادة القيامة... »[٢].

٢- تكفير السيئآت.

٣- المغفرة، وأغلب ما تضاف المغفرة في القرآن الكريم إلى الذنوب، والفرق بين تكفير السيئآت ومغفرة الذنوب: أن التكفير هو المحو، والمغفرة هي الوقاية من شر الذنوب[٣] ، وقيل أن السيئآت هي الصغائر، والذنوب: الكبائر، وقيل غير ذلك[٤].

فالآية إذا دليل على سعة فضل الله ومغفرته، وأنه سبحانه يغفر للمتقين ما صدر منهم من سيئآت وذنوب، ويجعل لهم في قلوبهم نورا يبصرون به بين الحق والباطل.

وإذا انتقلنا إلى عالم الآخرة لنرى أن التقوى سبب للنجاة من النار، قال تعالى:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ مريم: ٧١ – ٧٢، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾، فيه بيان نعمة الله على المتقين: أنهم مع الورود والعبور عليها وسقوط غيرهم فيها نجوا منها، والنجاة من الشر لا

---

[١] هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني، من أقدم مؤرخي العرب، من أهل المدينة، له السيرة النبوية رواها عنه ابن هشام، وكتاب الخلفاء، وكتاب المبدأ، وكان قدريا من حفاظ الحديث، وسكن بغداد وتوفي فيها عام ١٥١هـ، انظر: السير (٣٣/٧) والأعلام (٢٨/٦).

[٢] تفسير ابن كثير (٣٩٩/٢)، وانظر: الفرقان بين الحق والباطل (ص/٦-٧) لشيخ الإسلام.

[٣] انظر: مجموع الفتاوى (٣١٧/١٠).

[٤] انظر: تفسير ابن كثير (٣٩٩/٢)، ومدارج السالكين (٢٣٤/١).

تستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم...»[1].

ونرى أيضا أن الجنة التي عرضها السماوات والأرض موروثة للمتقين وأعدت لهم، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ مريم: ٦٣، قال السعدي رحمه الله: «فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾،أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا يبغون عنه حولا، كما قال تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٣»[2].

ونخلص من هذه النصوص إلى أن التقوى من أهم الأسباب الموصلة إلى العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة، إذ هي سبب لامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهما سبب كل خير في الدنيا والآخرة.

المطلب الثالث

لوازم التقوى

سبق أن قلنا أن التقوى محلها القلب، لكن هذه الخصلة القلبية بحاجة إلى علامات ظاهرة - كشأن سائر الأعمال القلبية - تكون على الصدق فيه، فصدق التقوى لا بد أن ينشأ منه العمل الصالح، واجتناب المعاصي، وتعظيم حرمات الله.

---

[1] درء تعارض العقل والنقل (٧/٤٩-٥٠).

[2] تفسير السعدي (ص/٤٩٧).

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٧.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢.

وفي هاتين الآيتين وأمثالهما من نصوص الكتاب والسنة تنبيه إلى أن التقوى الصادقة في القلب لا بد أن تبعث الجوارح على إتيان ما تستطيع من أعمال البر الواجبة والمستحبة، ولا بد أن تبعثها على تعظيم شعائر الله.

الآية الأولى توضح أن البر ليس مجرد الصورة الظاهرة المتمثلة في تولية الوجه قبل المشرق والمغرب للصلاة أو للدعاء دون أن يكون هناك أي أمر آخر[١]، ولكن البر هو الجمع بين خصال الخير الواجبة والمستحبة، وقد عددها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية، ثم ختمها بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، أي هؤلاء الذين أتوا بهذه الأعمال هم الصادقون في إيمانهم، وهم المتقون حقا، فمن لم يأت بهذه الأعمال فليس بصادق في دعواه الإيمان، ولا بتقي صادق في تقواه، إذ الصدق في التقوى مستلزم للإتيان بخصال البر[٢].

وينبغي أن أشير إلى مسألة: وهي أنه (قد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، قال:

---

[١] سياق الآية في اليهود والنصارى – كما رجحه إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله – ولكنها عامة في معناها كما ذكر كثير من المفسرين، انظر تفسير الطبري (٣/٣٣٦)، وتفسير ابن كثير (١/٢٧١).

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/١٣٢) فما بعد.

فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه، أو جاوزته، أو قصرت عنه، قال: ذلك التقوى)[1]،

ولكن المقرر لدى أهل العلم أن التقوى هو اسم يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجابا واستحبابا، ونهى عنه تحريما وتنزيها[2].

ولمزيد البيان لهذه المسألة أورد شيخ الإسلام ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن آية البر التي سبق ذكرها، والآيات في بداية البقرة: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ البقرة: ١ – ٢، إلى آخر الآية الخامسة، وصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة...أي عامة هذه الأمور فعل مأمور به.

الأمر الثاني: إنه حيث عبر في القرآن بالتقوى عن ترك المنهي، مثل قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ المائدة: ٢، فلا يكون ذلك إلا مقرونا بفعل المأمور به كما ذكر في هذه الآية البر.

الأمر الثالث: قد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات، لأن أكثر بني آدم قد يفعل بعض المأمور به، ولا يترك المنهي عنه إلا الصديقون، كما قال بعض السلف: لأن المأمور به له مقتض في النفس، أما ترك المنهي عنه إلى خلاف الهوى ومجاهدة النفس فهو أصعب وأشق، فقلّ أهله، لكن لا يمكن أحدا أن يترك المنهي عنه إلا مع فعل المأمور به[3].

إذا إن التقوى لا بد من مصاحبتها أمرين اثنين هما من لوازمها:

---

[1] جامع العلوم والحكم (٤٠٢/١).

[2] مجموع الفتاوى (٦٥٨/١٠-٦٥٩).

[3] انظر: مجموع الفتاوى (١٣٢/٢٠-١٣٧).

١- العمل الصالح.

٢- اجتناب المحرمات، كما قال شيخ الإسلام: «فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التي أمروا بها، وتمنعهم من السيئآت التي تضرهم»[١]، بالإضافة إلى اللازم الثالث للتقوى:

٣- تعظيم شعائر الله التي جعلها الله من علامة صدق التقوى في القلوب، لأن التقوى الصادقة مبعثها الخوف من الله ﷻ، والخوف من الله مستلزم لتعظيمه وتعظيم ما أمر به، وكذلك التقوى مستلزمة لتعظيم ما أمر الله بتعظيمه، والتعظيم يتضمن الإتيان به على الوجه المطلوب مع اجتناب ما نهي عنه فيه، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢ [٢].

المطلب الرابع

ثمرات التقوى

فإذا تبين لنا أن التقوى هي حرص شديد على رضا الله سبحانه وتعالى، وحذر شديد من غضبه بالمسارعة إلى طاعة أوامره واجتناب نواهيه، وإحسان عبادته، وتحري كل ما يرضيه، فلا شك أن لها تأثير قويا في زيادة الإيمان ونقصانه، وفي تزكية القلوب وإحيائها وعمرانها، فكلما كان العبد لله أتقى، كان ما ينتج من العمل أكثر، وكان إيمانه في زيادة مستمرة، وكلما تجرأ على الله وضعفت التقوى في قلبه كلما كان إيمانه في نقصان إلى أن يحرم ثمرات الإيمان.

فالتقوى من مستلزمات الإيمان الصحيح، والإيمان الصحيح والأعمال الصالحة الناتجة عنها من علامات التقوى، فالتقوى والإيمان إذا متلازمان.

---

[١] مجموع الفتاوى (١٣٦/١٠).

[٢] انظر: تفسير السعدي (ص/٥٣٨)، وأعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٢٢٩).

ثم إن أهل الإيمان والتقوى في الحقيقة هم أولياء الله، وليس هؤلاء الذين يمشون في البحر ويطيرون في الهواء...، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يونس: ٦٢ – ٦٣.

قال شيخ الإسلام رحمه: «وإذا كان العبد لا يكون وليا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيا لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

وفي صحيح البخاري الحديث المشهور وقد تقدم، يقول الله تبارك وتعالى فيه: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه"[(١)].

ولا يكون مؤمنا تقيا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين...فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئآت لم يكن من أولياء الله»[(٢)].

فالتقوى هي آية الإيمان الصحيح والعقل السليم، فصاحبها من أولياء الله المقربين، فبها يكون التفاضل بين الخلق عند رب العالمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إنما يفضل الإنسان بإيمانه وتقواه، لا بآبائه، ولو كانوا من بني هاشم أهل بيت النبي ﷺ، فإن الله خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبدا حبشيا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان شريفا قرشيا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٢٧)، في كتاب الرقاق، باب التواضع.

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/١٢١).

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: "لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب"[1]، وفي الصحيحين عنه أنه قال لقبيلة قريبة منه: "إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين"[2]، فأخبر النبي ﷺ أن موالاته ليست بالقرابة والنسب، بل بالإيمان والتقوى»[3].

هذه بعض الفوائد الإيمانية المرتبة على التقوى، وبالإضافة إلى ما تقدم من ذكر ثمرات التقوى في المطلب الثاني، نخلص إلى أن التقوى هدف عام، من أجله بعث الرسل إلى أقوامهم، وكان من أجله التشريعات والأوامر والوصايا، وقد اتفقت دعوتهم لأقوامهم على «ألا تتقون»، وذلك أن التقوى إذا تحققت لديهم ووجدت في قلوبهم لم يحتاجوا بعدها إلى رقيب أو حسيب، فتقواهم حاجزة لهم عن كل شر، دافعة لكل خير، ولهذا نجد أوامر الرسل كلها منصبة عليها، وعلى طاعة الله[4].

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلنا من أهلها ويؤتي نفوسنا تقواها، فإنه خير من زكاها.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٧٩/٣٨)، والبيهقي في الشعب (١٣٢/٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٠٠).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٤٨)، في كتاب الأدب، باب تُبلُّ الرحِم ببلالها، ومسلم في صحيحه (ص/١١٥)، في كتاب الإيمان، باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم.

[3] مجموع الفتاوى (٥٤٣/٢٨).

[4] التقوى، دراسة تفسيرية، لغوية، إحصائية (ص/١٨-١٩)، تأليف: أحمد عبده عوض.

المبحث الخامس عشر: الزهد.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الزهد.

المطلب الرابع: أسباب الزهد وعلامته.

المطلب الخامس: ثمرات الزهد.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الزهد في اللغة يتجاذبه معنيان: القلة، وضد الرغبة.

يقال للشيء القليل، زهيد، إما لقلته، أو عدم رغبة الناس فيه، لأن طبع الناس النفور من القليل، وحب الكثير.

قال ابن فارس: «الزاء والهاء والدال أصل يدل على قلة الشيء، والزهيد: الشيء القليل، وهو مُزهِد: قليل المال»[1].

وقال الفيروزآبادي: «زهد فيه، كمنع وسمع وكرم، زهدا وهي في الدنيا، والزهد في الدين: ضد الرغبة...، والزهيد: القليل»[2].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام- فيما نقله عنه الأزهري-: «قال الأصمعي[3] وأبو عمرو[4]: المزهد: القليل الشيء، وإنما سمي مزهدا لأن ما عنده من قلته يزهد فيه»[5].

ومنه قول الشاعر[6]:

فلن يطلبوا سرها للغنى :: ولن يسلموها لإزهادها[1].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (ص/٤٤١).

(٢) القاموس المحيط (ص/٣٦٥).

(٣) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي البصري، أبو سعيد الأصمعي، الراوية المشهور، الامام العلامة، حجة الأدب، لسان العرب، توفي سنة ٢١٥ هـ، انظر: الجرح والتعديل (٣٦٣/٥)، والسير (١٧٥/١٠).

(٤) هو زبان بن العلاء: عمار التميمي المازني، البصري، أبو عمر، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة المشهورين، توفي سنة ١٥٤ هـ، انظر: وفيات الأعيان (٤٦٦/٣)، والسير (٤٠٧/٦).

(٥) تهذيب اللغة (١٤٤/٦).

(٦) البيت للأعشى كما في معجم مقاييس اللغة (ص/٤٤١).

وقال الجوهري: «الزهد: خلاف الرغبة، تقول: زهِد في الشيء، وعن الشيء، يزهد زهدا وزهادة، وزهَد يزهَد لغة فيه، وفلان: يتزهد: أي يتعبد، والتزهيد في الشيء وعن الشيء: خلاف الترغيب فيه، والمزهد: القليل المال،... والزهيد: القليل، يقال: رجل زهيد الأكل، وواد زهيد: قليل الأخذ للماء»[٢].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

تعددت عبارات السلف في تعريف الزهد في الدنيا، وكلها تدور على عدم الرغبة فيها وخلو القلب من التعلق بها:

قال الإمام أحمد: «الزهد في الدنيا قصر الأمل».

وقال عبد الواحد بن زيد: «الزهد في الدنيا والدرهم».

وقال أبو سليمان الداراني: «الزهد فيما يشغل عن الله»[٣].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «هو ترك ما لا ينفع، إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحا، لأنه مفوِّت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه، وأما المنافع الخالصة، أو الراجحة فالزهد فيها حمق»[٤].

وقال أيضا: «هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله»[٥].

---

[١] أي لا يسلمون هذه المرأة – التي يمدح الشاعر جيرانها – إلى من يريد هتك حرمتها لقلة مالها، بل يصونونها رغم ذلك (انظر تهذيب اللغة).

[٢] الصحاح (2/٦٨).

[٣] انظر: هذه التعريفات في مدارج السالكين (٩/٢)

[٤] مجموع الفتاوى (٥١١/١٠)، و (٦١٥/١٠).

[٥] نفس المصدر (٢١/١٠)، و (٦٤١/١٠).

وقال ابن قدامة: «هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، شرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبا فيه»[1].

وهذه التعريفات صحيحة، وكل من أصحابها نظر إلى جانب من جوانب الزهد فشرحه، ولعل التعريفات الثلاثة الأخيرة أشملها، لأنها تغطي غيرها من التعريفات، وأي تعريف آخر للزهد يمكن أن يندرج فيه إذا كان صحيحا، لأن الزهد ترك، فترك ما ينفع العبد في الآخرة ليس بزهد، بل هو حمق كما قال شيخ الإسلام، وأما إذا ترك العبد ما ينفعه في الدنيا من أجل أمر آخر أكثر منه نفعا[2] فهذا هو الزهد المشروع، أما ترك ما ينفع العبد في الدينا لغير ذلك فليس بزهد ألبتة، لأن الزهد ليس مجرد ترك، بل هو ترك لما هو خير منه[3].

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

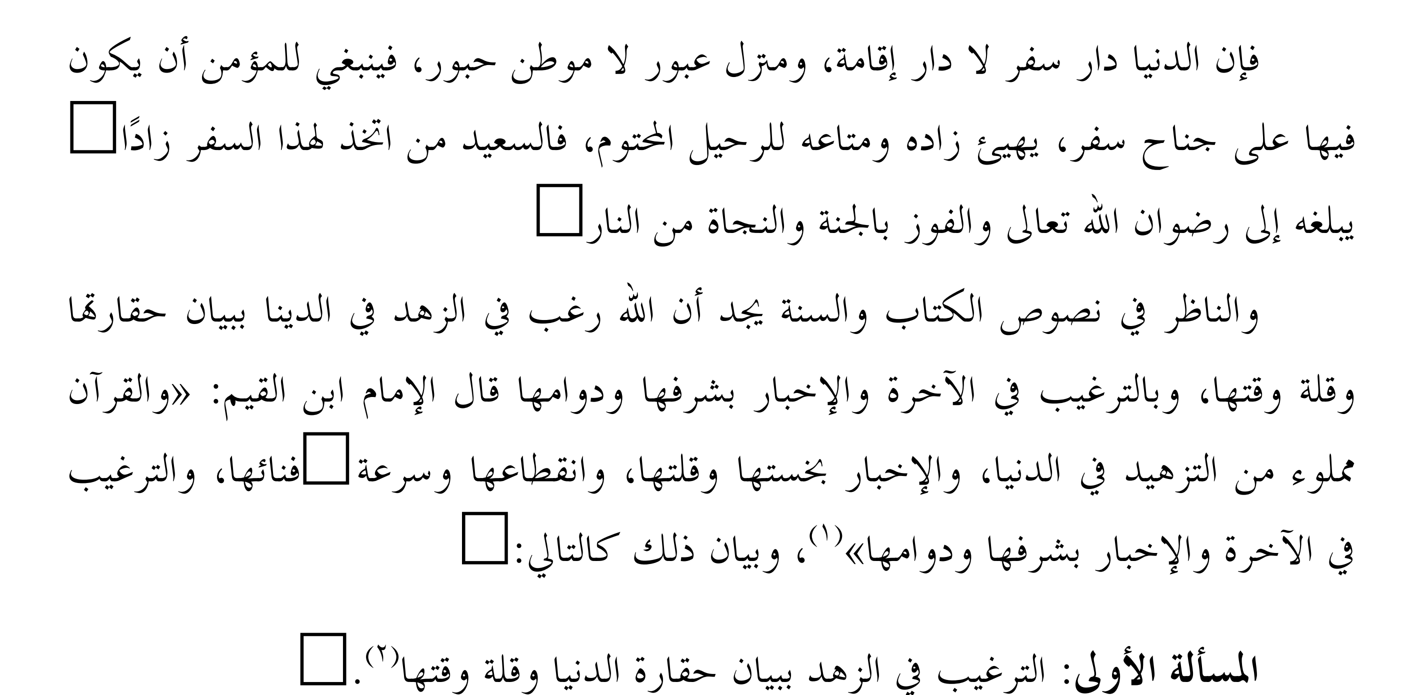
فإذا تقرر لدينا أن المفهوم الصحيح للزهد هو إيثار الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية، وليس معنى الزهد ترك الدنيا بالكلية، وإذا تبين لنا أيضا أن الحياة الدنيا عبارة عن مزرعة للآخرة ومطية لها، وأن مثل بقاء الإنسان فيها مثل راكب قال في ظل شجرة ثم راح، لا شك أن هذا سيورث للعبد الزهد في الدنيا والزجر عن التشاغل بها إلى حد لا يفضي إلى إهمال الآخرة، والتواني في طلبها.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص/٣٢٢)

(٢) وهو النفع الأخروي الذي يحصل للمؤمنين في الآخرة.

(٣) انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٤٤٧).



فإن الدنيا دار سفر لا دار إقامة، ومنزل عبور لا موطن حبور، فينبغي للمؤمن أن يكون فيها على جناح سفر، يهيئ زاده ومتاعه للرحيل المحتوم، فالسعيد من اتخذ لهذا السفر زادًا يبلغه إلى رضوان الله تعالى والفوز بالجنة والنجاة من النار

والناظر في نصوص الكتاب والسنة يجد أن الله رغب في الزهد في الدينا ببيان حقارتها وقلة وقتها، وبالترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها قال الإمام ابن القيم: «والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وقلتها، وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها»[١]، وبيان ذلك كالتالي:

المسألة الأولى: الترغيب في الزهد ببيان حقارة الدنيا وقلة وقتها[٢].

ولدى استعراض ما ورد بشأن الدنيا في الكتاب والسنة نجد أن هناك آيات كثيرة تبين حقارة الدنيا ومحدوديتها بالنسبة إلى الآخرة، وتبين أنها لا تستحق أن يعطيها العبد حياته كلها، قال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ** ﴾ آل عمران: ١٤، فيخبر الله أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا، وغيرها تبع لها، وقال تعالى:

﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ الكهف: ٧، فلما زينت لهم هذه المذكورات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا حسب الواقع إلى قسمين:

القسم الأول: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها

---

[١] مدارج السالكين (١/٨).

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (٦١٧/١٠).

ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، فجعلوها معبرا إلى الدار الآخرة ومتجرا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادا إلى ربهم[1].

فسواء أكنت من القسم الأول أو الثاني – وإن كان المطلوب أن تكون من الثاني –، فكل هذه الملذات والنعم الدنيوية فانية وزائلة، وأن ما عند الله من الجزاء والثواب خير وأحسن وهو باق ودائم، ولهذا ختم الآية: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ الحديد: ٢٠، يخبر الله عن حقيقة الدنيا وما هي عليها، ويبين غايتها وغاية أهلها، فذكر خمسة أشياء: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر بينهم، وتكاثر في الأموال والأولاد، ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة بمثل المطر الذي يأتي على الزرع، فيعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص الناس عليها وأميلهم إليها، ثم يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرا بعد ما كان خضرا نضرا، ثم يكون بعد ذلك كله حطاما أي يصير يبسا متحطما، فهكذا الحياة الدينا.

---

[1] تفسير السعدي (ص/١٢٤).

ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقطاعها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]، فأيهما تريد: تريد الآخرة، فيها عذاب شديد لمن آثر الدنيا على الآخرة، أم تريد الآخرة، فيها مغفرة ورضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها؟

ثم ختم هذه الآية والتي قبلها بأن الدنيا متاع أي شيء للمتعة والزينة الوقتية فقط، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ النساء: ٧٧، والقلة هنا عددية ونوعية، فهو قليل الوقت بالنسبة للآخرة، وقليل الأهمية كذلك، فلا ينبغي والحال هذا أن يغتر بها، ويركن إليها، ويميل إليها، ويترك الآخرة التي هي دار القرار.

وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٦، يخبر الله أن ما عندنا ينفد، أي يزول، وما عند الله فهو الباقي الذي لا ينقطع ولا يفنى، فأيهما إذا يجب على العاقل الاحتفاء به، أهو الدائم الذي لا يزول، أم الفاني الذاهب الذي لا يبقى إلا لفترة محدودة قليلة ثم يزول إلى الأبد، يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا، خصوصا الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضررا على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على حق الله، فإن هذا الزهد واجب، ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين.

وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر ونحوها، بل لا يكون العبد زاهدا زهدا صحيحا حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٩٩).

الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل، فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا والرغبة والسعي في كل ما ينفع»[1].

وأما الأحاديث فتؤيد ما دلت عليه الآيات من حقارة الدنيا وقلة أهميتها، وتدعو إلى الزهد فيها، وقد ثبت في صحيح مسلم[2] عن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلا من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بجَدْي[3] أَسَكّ[4] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟»، قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه، لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»، فهذا جدي لو كان حيا لا يساوي شيئا وما باله وهو ميت، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من هذا الجدي الأسك الميت، فهي ليست بشيء عند الله.

ثم يبين النبي ﷺ أنه: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء»[5]، أي إذ لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة لما مكّن الكفار من العيش فيها أو التمتع منها ولو بشربة ماء.

وزيادة إيضاح يضرب رسول الله ﷺ مثلا آخر يبين حقارة الدنيا وقلة وقتها فيقول ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[1]، أي

---

[1] تفسير السعدي (ص/٤٤٩).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٨٧)، في كتاب الزهد والرقائق.

[3] الذكر من أولاد المعز، انظر: لسان العرب (٣/١٠٠).

[4] صغير الأذنين، أو مقطوع الأذنين، انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (١/٥٩٨)، والنهاية في غريب الحديث (٢/٣٨٤).

[5] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٢٤)، في كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٨٤)، في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، وصحح الحديث الألباني في الصحيحة (٩٤٣).

نسبة الدنيا إلى الآخرة كنسبة ما ينقص من البحر ويتعلق بالإصبع إلى ماء البحر بكامله، ولايشك عاقل في أن لا مناسبة بينهما، وأن لو فرضت مناسبة فإن هذه النسبة لا تستحق أن يلتفت إليها.

ونخلص مما سبق أن الدنيا معبر إلى الآخرة، ووسيلة من وسائل الحصول عليها، وأن على العاقل أن لا ينشغل بالوسيلة عن الغاية، وأن يركن إلى الدنيا وملذاتها، لأنها وإن كانت حلوة خضرة فمصيرها الزوال، وهي دار عمل وابتلاء، والآخرة هي دار القرار.

المسألة الثانية: الترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها.□

إن من أساليب القرآن والسنة في ترغيب الناس في الزهد في الدنيا، هو الترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها، لكي يقبلوا عليها ويستعدوا لها، وقد رغب الله في الآخرة ببيان أن متاع الدنيا قليل وأن الآخرة خير لمن اتقى، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ النساء: ٧٧.

نعم، الآخرة خير من الدنيا، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها، فذاتها كما ذكر النبي ﷺ: «موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[٢]، ولذاتها صافية عن الكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٤٦)، في كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١١٤)، في كتاب الرقاق، باب مثل الدنيا في الآخرة.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ السجدة: ١٧، وقال الله على لسان نبيه: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١] [٢].

وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ الأعلى: ١٦ – ١٧، والآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة براحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة[٣].

ومن أوجه الترغيب في الآخرة، هو مدح الله لمن عمل لها، وذم من لا يستعد لها[٤] قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ الشورى: ٢٠، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ الإسراء: ١٨ – ١٩، ففي هذه الآيات يخبر الله عن الذين يريدون الدنيا العاجلة المنقضية الزائلة، فعملوا لها وسعوا، فإن الله يعجل لهم من حطامها ومتاعها ما يشاء ويريد، لكنهم في الآخرة ما لهم نصيب من الجنة ونعيمها، بل استحقوا النار وجحيمها،

بينما يخبرنا الله عن الذين يريدون الآخرة وآثروها على الدنيا، فعملوا لها وسعوا على قدر إمكانهم أن لهم جزاء مضاعفا ومُنَمَّى، ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٨٤٠)، في كتاب التفسير، باب سورة السجدة، ومسلم في صحيحه (ص/١١٣٦)، في أول كتاب الجنة.

(٢) تفسير السعدي (ص/١٨٨).

(٣) نفس المصدر (ص/٩٢١).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٤٥/٢٠).

وبعد كل هذا، ليس غرضنا من سردنا لهذه النصوص - في ذم الدنيا ومن عمل لها - ذم الدنيا على إطلاقها، بل المقصود بيان أن لا يشغل بها، وأن لا نجعلها أكبر همنا ومبلغ علمنا، بل نعطي لها حقها، ولا ننسى نصيبنا منها، لكن نجعلها دار سفر لا دار إقامة، ومنزل عبور لا موطن حبور.

ولهذا جاء في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة أن الدنيا وما فيها قد سخر للإنسان ليستفيد منها في حياته الأولى على طاعة الله سبحانه، لكي يفوز بالحياة الأخرى التي هي الغاية والهدف الأسمى من الوجود.

وقد أمر الله قارون بقوله: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ القصص: ٧٧.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢١ – ٢٢.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ الملك: ١٥.

فهذه الآيات وأمثالها توضح أن الدنيا وما فيها من نعيم إنما سخرت للإنسان لكي يتنعم بها ويستعين بها على الوصول إلى مرضات الله وإلى إقامة دينه وشرعه على هذه الأرض، فالإعراض عنها بالكلية إعراض عن نعم الله وتحقير لها، وليس ذلك من هدي النبي ﷺ، ولا سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

وكان النبي ﷺ أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال، وكان

الحسن بن علي ﷺ من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحا لهن، وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد، مع مال كثير[١].

والخلاصة مما سبق، أن الرغبة في الآخرة لا تتم إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين: نظر إلى الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، والنظر الثاني في الآخرة، وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها.

فإذا تم للعبد هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فإذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى والأفضل ترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، ومع كل هذا لو حصل إيثار الدنيا على الآخرة، فذلك يدل إما على فساد في الإيمان، وإما على فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما[٢].

المطلب الثالث

أقسام الزهد

الزهد قد يكون في الحرام البين، وقد يكون في المشتبه بالحرام، كما أنه يكون أحيانا في المباح، فهو إذا ثلاثة أقسام[٣].

---

(١) مارج السالكين (١٠/٢).

(٢) انظر: الفوائد (ص/١٣٦-١٣٧).

(٣) تقسيم الزهد على ثلاثة أقسام هو المشهور، (انظر: جامع العلوم والحكم ١٨٥/٢-١٨٦، ومدارج السالكين ١٠/٢-١٥) ، وإن اختلف في ذلك،

فالإمام أحمد يقسم الزهد ثلاثة أقسام، لكنه يجعل الزهد في الحرام والمشتبهات قسما واحدا، أو يجعل الزهد في المشتبهات والمستحبات قسما واحدا، والقسم الثالث عنده هو ترك ما يشغل عن الله، يقول الإمام أحمد رحمه الله:

فالزهد في الحرام واجب على كل مسلم، وهذا متى أخل به انعقد سبب العقاب، فلا بد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر يضاده.

والزهد في المشتبهات، هو بحسب مراتب الشبهة: فإن قويت التحقت بالواجب، وإن ضعفت كان مستحبا، وهو زهد الورعين، ويسمى زهد السلامة.

والزهد في الفضول، وهو الزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره، وهو زهد الخواص[1].

بينما نجد شيخ الإسلام يقسم الزهد بعدة اعتبارات:

١- يقسمه بحسب وجوبه واستحبابه إلى قسمين، فالزهد الواجب هو ترك ما يمنع الرجل من أداء الواجب والقيام به، وأما الزهد المستحب هو ترك ما يشغل الرجل من فعل المستحب، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «فثبت أن الزهد الواجب هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة، فالزهد المستحب هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين»[2].

٢- وقريب من هذا، يقسم الزهد إلى الزهد عن ما يضر في الآخرة، والزهد عن ما لا ينفع الآخرة، فالأول واجب، والثاني مستحب، يقول رحمه الله: «والزهد النافع المشروع الذي

«الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغلك عن الله، وهو زهد العارفين، (انظر مدارج السالكين ١٠/٢).

[1] ابن القيم في الفوائد (ص/١٧٠-١٧١)، يقسم الزهد إلى أربعة أقسام، الثلاثة المذكورة، والقسم الرابع هو الزهد فيما سوى الله وفي كل ما شغلك عنه (وهو القسم الثالث عند الإمام أحمد)، بينما نجده في طريق الهجرتين (ص/٣٨١-٣٨٤)، يذهب إلى تقسيم الإمام أحمد، إلا أنه هنا يجعل القسم الثالث نوعين: **أحدهما: الزهد في الدنيا جملة**، وهو أن تترك الدنيا من قلبك وهي في يدك، **والثاني الزهد في نفسك**، وهو أيضا نوعان: وسيلة وبداية، وهو أن تكون الدنيا ميتة بالنسبة إليك، فلا يبقى لها عندك من القدر شيء، والثاني: غاية وكمال، وهو أن يبذلها للمحبوب جملة بحيث لا يستبقي منها شيئا.

[2] مجموع الفتاوى (١٤٧/٢٠).

يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، فأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، **والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر أو زهد فيما لا ينفع**، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال»[1].

٣- ونجد شيخ الإسلام أيضا يقسم الزهد باعتبار صحته ومشروعيته إلى قسمين، فيقسم الزهد إلى النافع المشروع، وهو أن يكون موافقا لمحبة الله ومرضاته، وحقيقته ترك فضول المباحات التي لا تعين على طاعة الله تبارك وتعالى من مطعم وملبس ومال وغير ذلك، والزهد الفاسد المبتدع هو الذي يكون غير موافق لأمر الله ورسوله ﷺ، وحقيقته الإعراض عن نعم الله بالكلية وتحقيرها، وعدم تسخيرها في طاعة الله، كما سنوضحه في فصل الرد على الصوفية، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما نفس الزهد الذي هو ضد الرغبة وهو الكراهة والبغض، فحقيقة المشروع منه أن يكون كراهة العبد وبغضه وحبه تابعا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه، فيحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله ويرضى ما يرضاه، ويسخط ما يسخطه الله، بحيث لا يكون تابعا لهواه بل لأمر مولاه، فإن كثيرا من الزهاد في الحياة الدنيا أعرضوا عن فضولها ولم يقبلوا على ما يحبه الله ورسوله وليس مثل هذا الزهد يأمر الله به ورسوله»[2].

٤- وكذلك نجد شيخ الإسلام يقسم الزهد باعتبار ما يقوم به من الأعضاء، فيجعل الزهد بالقلب وهو عدم تعلقه بالدنيا، ومعنى ذلك أن لا تكون الدنيا أكبر همّ العبد، ولا يعطيها أكثر من حقها، بل يستخدمها كمطية يتوصل بها إلى ما خلق من أجله من عبادة الله سبحانه وطاعة أمره، فلا يشتغل بالدنيا ولا بما فيها عن تلك الغاية، وهوالزهد القلبي.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥١١/١٠)، وانظر: التحفة العراقية (ص/٣٢٠-٣٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٦٥٢/٧)، وانظر أيضا (٦١٧/١٠)، بل في كل موضع تكلم فيه شيخ الإسلام عن الزهد، أراد بيان أن المشروع منه موافق لمرضاة الله، والمبتدع منه غير موافق لأمر الله ورسوله.

والزهد بالجوارح وهو إمساكها عن فضول المباحات إذا كانت مما يشغل عن الواجبات، أو كانت مما لا يستعان بها على طاعة الله[1].

المطلب الرابع

أسباب الزهد وعلاماته

سبق أن قلنا أن من أساليب القرآن والسنة في الترغيب في الزهد هو ذم الدنيا ومن عمل لها فقط، فمن علم أن الدنيا ظل زائل وخيال زائر لا شك أنه لا يغتر بها، بل يعمل لما بعد الموت ويستعد له.

وكذلك من أساليب القرآن والسنة في الترغيب في الزهد هو مدح الآخرة ومن عمل لها، فمن علم أن وراء الدنيا دارا أعظم منها قدرا وأجل خطرا وهي دار البقاء، أعد لها وتجهز[2].

وهذان الأمران من أهم الأسباب الداعية إلى الزهد في الدنيا والرغبة عن الآخرة، وقد ذكر ابن القيم هذين السببين في طريق الهجرتين، ولكنه أضاف سببا ثالثا مهمّا وهو اليقين بقدر الله، فقال رحمه الله: «معرفته أن زهده فيها لا يمنع شيئا كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فإنه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه، بقي حرصه وتعبه وكده ضائعا، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك»[3].

ثم علمنا أن معنى الزهد الصحيح ليس الانقطاع الكامل عن الدنيا وملذاتها المباحة، والتي

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٤١).

(2) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦١٥-٦١٦)، و (٢٠/١٤٥-١٤٦)، ومدارج السالكين (٢/٨)، والفوائد (ص/١٣٦-١٣٧).

(3) طريق الهجرتين (ص/٣٨٣).

يستعين بها المؤمن على حياته الآخروية، لكن كيف يفرق بين هذا الزهد الشرعي وبين الزهد البدعي؟

لا شك أن للزهد علامات كثيرة، ولخصها بعض السلف الصالح بقوله: «ليس الزهادة بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء»[(1)].

ففي هذا الأثر ثلاث خصال هي من علامات الزهد، وهي كما يقول ابن رجب من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح: الأولى منها والثانية ناشيءتان من قوة اليقين وكماله، واتصاف المرء بصفة منها يكسب صفة الزهد بمعناه الشرعي.

الخصلة الأولى: أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته، فمن حقق اليقين، وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقات رجاء وخوفا، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك، كان زاهدا في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس، وإن لم يكن له شيء من الدنيا.

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٤١)، وقد عزاه إلى الترمذي، والحديث أخرجه الترمذي في السنن عن أبي ذر مرفوعا (ص/٥٢٨)، في كتاب الزهد، باب ما جاء في الزهادة، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي ذر مرفوعا أيضا (ص/٦٨٢)، في كتاب الزهد، في باب الزهد في الدنيا، وقال الألباني: ضعيف جدا (يعني مرفوعا)، انظر: تخريج المشكاة (٥٣٠١)، وقال ابن رجب: «والصحيح وقفه» على أبي مسلم الخولاني، أو يونس بن ميسرة، انظر: جامع العلوم والحكم (١٧٩/٢)، أما ابن القيم فذكره في مدارج السالكين (١١/٢) منسوبا – بالشك– إلى الحسن.

الخصلة الثانية: أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة في دنياه من ذهاب مال، أو ولد، أو غير ذلك أرغب في ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له، وهذا أيضا ينشأ من كمال اليقين، وهي من علامات الزهد في الدنيا.

الخصلة الثالثة: وهي من علامات الزهد في الدنيا وقلة الرغبة فيها، لأن صاحبها لا يقيم للدنيا وزنا، ولذا فلا يهمه مدح الناس له فيها أو ذمهم، فإن عظمت الدنيا عنده أحب المدح والذم، فربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح، فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق دل على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وهذا هو الزهد حقيقة[1].

وهذه الخصال كلها هي من صفة القلب، وحقيقتها اليقين بالله والثقة بما عنده، ولعل هناك علامة أخرى تتعلق بالجوارح وهو ترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك، يجمع هذا كله كلام شيخ الإسلام: «الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله»[2].

المطلب الخامس

ثمرات الزهد

فإن فهم الدنيا على حقيقتها، وأنها عبارة عن مزرعة الآخرة ومطية لها، وأن دار البقاء هي دار الآخرة، ثم إن ترسخ في الذهن أن المفاتن والمغريات الدنيوية كثيرة بحيث تكاد تحول بين المرء وبين تطبيق ما يؤمن به، ومع كل هذا فمن تمكن أن يزهد في الدنيا ويأخذ منها بقدر

[1] جامع العلوم والحكم (٢/١٨٠-١٨٣)، وانظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/٣٢٧).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٦٤١).

ما يؤدي الواجبات الشرعية ويستعين بها على الآخرة فهذا لا شك أنه من أهم ثمرات الزهد، وهو دليل على قوة إيمان العبد، وأن إيمانه فوق الشهوات والشبهات.

وسئل شيخ الإسلام عن الأسباب التي يقوى بها الإيمان إلى أن يكمل على ترتيبها، هل يبدأ بالزهد؟ أو بالعلم؟ أو بالعبادة؟ أم يجمع بين ذلك على حسب طاقته،

فأجاب رحمه الله أنه: «لا بد من الإيمان الواجب، والعبادة الواجبة، والزهد الواجب، ثم الناس يتفاضلون في الإيمان، كتفاضلهم في شعبه، وكل إنسان يطلب ما يمكنه طلبه، ويقدم ما يقدر على تقديمه من الفاضل، والناس يتفاضلون في هذا الباب: فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ التغابن: ١٦، وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أرضى لله، وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقا إذا كان متعذرا في حقه أو متعسرا يفوته ما هو أفضل له وأنفع»[1].

والذي يهمنا هو الاستدلال بكلام شيخ الإسلام رحمه الله لتقرير ما نحن في صدده من بيان أن الزهد من الشعب التي يقوى ويكمل بها الإيمان، ثم إذا ازدحمت مع غيرها، فيقدم الذي هو أقدر للعبد وأصلح له.

ثم الزهد مقام رفيع، وأنه سبب لنيل محبة الله ورضوانه، بل هو موجب لمحبة الناس أيضا، كما في الحديث، أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله، وأحبني الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: «ازهد في الدينا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي

---

[1] مجموع الفتاوى (٧/٦٥٤).

الناس يحبك الناس»[1]، قال ابن رجب رحمه الله: «وقد اشتمل هذا الحديث على وصيتين عظيمتين: إحداهما: الزهد في الدنيا، وأنه مقتض لمحبة الله ﷻ لعبده، والثانية: الزهد فيما في أيدي الناس، وأنه مقتض لمحبة الناس»[2].

فكما أن الزهد دليل على قوة إيمان العبد، وأنه مقتض لمحبة الله، وموجب لمحبة الناس، فهو كذلك علامة على صدق إيمان العبد، فالمتصف بالزهد قد استوعب وفهم نظرة الإسلام إلى الدنيا وعلاقة الإنسان بها، فلم يعط الدنيا أكثر مما تستحق، ولم يعتبرها أكبر من حجمها الحقيقي، بل وازن بين ما يفرضه عليه واقعه كبشر يعيش في مجتمع بشري، والذي لا يمكن أن يعيش إلا بالأخذ بالمقومات الأساسية للحياة، ووازن بين الأخذ بما يفرضه عليه إيمانه واستعداده للآخرة، فقدم الآخرة والسعي إلى الفوز بها، وقدم ما قدمه الله ورسوله، وبذلك حقق الإيمان بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الحجرات: ١.[3]

والخلاصة مما سبق، أنه يتبين لنا أن الزهد في الدنيا من أجل الأعمال القلبية، وأن الإنسان لا ينبغي أن يعلق نفسه بالدنيا، وأن تكون بيده لا في قلبه، حتى يقبل على الله ﷻ بقلبه، فإن هذا كمال الزهد، وليس معنى الزهد أنك لا تأخذ شيئا من الدنيا، بل خذ من الدنيا ما يحل لك، ولا تنس نصيبك منها، لكن اجعلها وسيلة إلى الغاية، ومزرعة للآخرة ومطية لها، قال شيخ الإسلام: «فثبت أن مجرد الزهد في الدنيا لا حمد فيه، كما لا حمد على الرغبة فيها، وإنما الحمد على إرادة الله والدار الآخرة، والذم على إرادة الدنيا المانعة من إرادة ذلك»[4].

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٨٢)، في كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٤)، بمجموع طرقه.

[2] جامع العلوم والحكم (٢/١٧٧).

[3] انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٤٦٢).

[4] مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٦).

المبحث السادس عشر: الورع.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الورع.

المطلب الرابع: قواعد في الورع.

المطلب الخامس: ثمرات الورع.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الورع لغة: ورع، يرِع، ورْعا، وورَعا، وورِعة، وهو مأخوذ من وَرَعَ التي تدل على الكف والانقباض، والورع في اللغة: العفة وهي الكف عما لا ينبغي، ويقال تورع أي تحرج، والورع: التقوى[1].

قال ابن فارس: «الواو والراء والعين أصل صحيح يدل على الكف والانقباض، منه الورَع: العفة، وهي الكف عما لا ينبغي»[2].

وقال صاحب اللسان: «والورع في الأصل: الكف عن المحارم والتحرج منه وتورَّع من كذا، ثم استعير للكف عن المباح والحلال»[3].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

أما الورع في معناه الشرعي فيمكن أن يقال: هو ترك ما يريبك، ونفي ما يعيبك والأخذ بالأوثق، وحمل النفس على الأحوط.

وقد تعددت عبارات السلف في تعريف الورع:

قال إبراهيم بن أدهم[4]: «الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك، وترك الفضلات»[1].

---

(1) انظر: القاموس المحيط (ص/٩٩٠)، ولسان العرب (١٥/١٩٣-١٩٤).

(2) معجم مقاييس اللغة (ص/١٠٤٩).

(3) لسان العرب (١٥/١٩٤).

(4) هو إبراهيم بن أدهم البلخي، أبو إسحاق، من أهل بلخ كان من ملوك المياسير، ثم تزهد وترك الدنيا، وصحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض، توفي سنة ١٦٠ هـ، انظر: حلية الأولياء (٧/٣٦٧).

قال الجرجاني: «هو اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع في المحرمات»[٢].

قال صاحب المنازل: «الورع توقي مستقصى على حذر، وتحرج على تعظيم»[٣].

يقول ابن القيم شارحا هذه العبارة: «الورع: توق مستقصى على حذر، يعني أن يتوقّى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي، لأن التوقي والحذر متقاربان، إلا أن التوقي فعل الجوارح، والحذر فعل القلب...

وقوله: أو تحرج على تعظيم، يعني أن الباعث على الورع عن الحرام والشبه إما حذر حلول الوعيد، وإما تعظيم الرب جلّ جلاله، وإجلال له أن يتعرض لما نهى عنه»[٤].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «هو الإمساك عما قد يضره، فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات واقع الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه»[٥].

والورع المشهور عنده رحمه الله هو الورع عما قد تُخاف عاقبته وهو ما يُعلم تحريمه وما يشك في تحريمه، مع ضابط في غاية الأهمية نبه عليه رحمه الله وهو أن لا يكون في تركه مفسدة أعظم من فعله وسيأتي بيان هذا الضابط.

والخلاصة أنه يمكن القول إن معنى الورع هو ترك ما يُخشى ضرره في الآخرة كما قال شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى: الورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة[٦]، فإن تركه يكون مطلوباً على جهة التورع، وهذا الذي يُخشى ضرره في الآخرة قد يكون شيئا

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٧).

(٢) التعريفات (ص/٢٤٧).

(٣) مدارج السالكين (٢/١٨).

(٤) نفس المصدر (٢/١٨).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/٦١٥).

(٦) التحفة العراقية (ص/٣٢٠)، والفوائد (ص/١٧١).

محرماً ظاهر التحريم، وقد يكون شيئا مشتبهاً، وقد يكون من باب التوسع في المباح الذي يجر صاحبه للوقوع في المكروه أو الوقوع في الشيء المحرم.

المسألة الثالثة: الفرق بين الورع وبين الزهد.

كثيراً ما يشتبه ويلتبس الورع بالزهد، ويمكن أن أذكر ثلاثة فروق بينهما:

أما الأول: فإن الزهد المشروع هو ترك الرغبة عما لا ينفع في الآخرة، والمقصود به فضول المباح الذي لا يستعان به على طاعة الله ﷻ، وأما الورع المشروع فهو ترك ما قد يضر في الآخرة، وهو ترك المحرمات والشبهات والمباحات التي يُخشى أن تجر صاحبها إلى المكروهات أو المحرمات[1].

وبهذا الاعتبار يمكن أن نقول بأن مقام الزهد أعلى من مقام الورع، فأول الزهد هو الورع، لأن الورع أن يترك الإنسان ما يضر، والزهد أن يترك ما لا ينفع،

فالزاهد يترك المحرمات، ويترك المكروهات والمشتبهات كما أنه يترك المباحات التي يُخشى أن تجر إلى المحرمات، فالزاهد الذي ترك هذا هو من باب أولى يكون قد ترك المكروهات والمشتبهات فضلاً عن المحرمات، فما ترك المباح – أعني التوسع فيه – إلا وقد ترك الحرام كما ترك المشتبه والمكروه[2].

والفرق الثاني[3]: هو أن الزهد من باب الترك المجرد وعدم الرغبة فقط، لكن ليس له موقف يوجب النفرة من هذا المزهود فيه، وأما الورع فإنه يعني الترك كما أنه يعني المنافرة لأن

---

[1] انظر: التحفة العراقية (ص/٣٢٠)، والفوائد (ص/١٧١).

[2] انظر: التحفة العراقية (ص/٣٢٠).

[3] فقد ذكر الفرق الأول والثاني الدكتور: خالد بن عثمان السبت في كتابه: سلسلة أعمال القلوب (ص/٨٩-٩٠).

هذا الأمر قد يضره في الآخرة ، فصار الورع أبلغ من هذه الجهة من الزهد، الزهد ترك مجرد و الورع ترك مع النفور.

والفرق الثالث: ومن جهة ثانية[1]: فإن كل ما صلح أن يكره وينفر منه (والذي يبتغي فيه الورع) صلح أن لا يراد ولا يرغب فيه (فيزهد فيه)، وبذلك كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد، من غير عكس، هذه ثلاثة فروق بين الزهد والورع[2] .

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

إن الورع مترلة عظيمة لا يصل إليها إلا من تعلق قلبه بالآخرة، فكلما ازداد العبد ورعا كلما كان أكمل في عبوديته لله سبحانه، والورع كلما أخذ به الإنسان كان أسرع جوازا على الصراط وأخف ظهرا، والتفاوت في الآخرة بحسب التفاوت في درجات الورع.

فبالنظر في القرآن الكريم يمكن أن يقال إن الله أشار إلى الورع في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ المؤمنون: ٥١، هذه الآية استدلَّ بها النبي ﷺ في حديثه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام،

---

[1] بالنسبة للجهة الأولى المذكورة في الفرق الثاني.

[2] انظر: مجموع الفتاوى (٦١٧/١٠).

ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[1]، قال ابن رجب رحمه الله: «و المراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما دام الأكل حلالا فالعمل صالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولا؟»[2]،

ثم ذكر النبي ﷺ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له، إشارة إلى الذين لا يأكلون الطيبات هم الذين لا يتورعون في المكاسب، الذين يعدون الحلال ما حل في اليد من أي وجه كان دون أن يفتشوا وينظروا في وجوه مكاسبهم.

ومن الآيات أيضا، قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ المدثر: ٤، أي نفسك فطهر من الذنب، فكنّى عن النفس بالثوب، وهذا قول جماعة من المحققين من أهل التفسير، كما قال الشاعر:

وإني – بحمد الله لا ثوب غادر :: لبست ولا من غدرة أتقنع

ولا ريب أن تطهير النفس من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به، إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق، والمقصود أن الورع يطهر دنس القلب ونجاساته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة[3] .

ويقول تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ البقرة: ١٨٧، ويقول تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ البقرة: ٢٢٩، ففي الآيتين إشارة إلى أنه على المسلم التنبه من الاقتراب من حدود الله، لأن الاقتراب منها يوشك أن يوقعه فيها ويجعله يقتحمها.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٩١)، في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.

[2] جامع العلوم والحكم (١/٢٦٠).

[3] انظر: مدارج السالكين (٢/١٦).

والحدود قد يراد بها أواخر الحلال حيث نهى عن القربان، والحدود من جهة أخرى قد يراد بها أوائل الحرام، فلا تعتدوا ما أباح الله لكم، ولا تقربوا ما حرم الله عليكم، فالورع يخلص العبد من مجاوزة الحد في الحلال الذي قد يؤدي به إلى الحرام، ومن اقتحام الحدود في الشبهات التي تؤدي به إلى الوقوع في المحرمات، ومصداق ذلك كله قول النبي ﷺ: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »[(١)].

فالنبي ﷺ جعل القسمة ثلاثية، الأول وهو الحلال البين الذي لا خفاء فيه، والثاني وهو الحرام البين الذي لا شبهة فيه، والثالث هو المشتبه الذي يخفى على كثير من الناس فيترددون في حكمه، وهذا معرفته ومعرفة الموقف منه هو الفقه، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين»[(٢)]، و على كل فحقيقة الورع إنما هو مجانبة القسم الذي هو من قبيل الحرام ومجانبة القسم الآخر الذي هو من قبيل المشتبهات.

ومما يؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ في الحديث الآخر المشهور: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٣)]، قال ابن رجب رحمه الله: «ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات

---

(١) تقدم تخريجه ().

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٥٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٤٩)، والترمذي في سننه (ص/٥٦٧)، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وأخرجه النسائي في سننه (ص/٨٥٥)، في كتاب الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، والحاكم في المستدرك (٢/١٤٦)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحح الحديث الألباني في ظلال الجنة (١٧٩).

واتقائها، فإن الحلال المحض لا يحصل للمؤمن في قلبه منه ريب - والريب بمعنى القلق والاضطراب -، بل تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فيحصل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك»[1].

ونظير ذلك أيضا، قول النبي ﷺ: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس» [2]، يقول ابن رجب رحمه الله: «وفي قوله ﷺ: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس"، إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجا وضيقا وقلقا واضطرابا، فلم ينشرح به الصدر، ومع هذا، فهو عند الناس مستنكر، بحيث ينكرونه عند اطّلاعهم عليه، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه، وهو ما استنكره الناس على فاعله وغير فاعله»[3].

ولا شك أن هذا الحديث مع ما فيه من الدلالة على الأمر بالتورع مما حاك في الصدر وإتيان ما اطمأنت إليه النفس، فهو إشارة إلى حال الصالحين وحال قلوبهم التي ترى بنور الله سبحانه وتعالى فتطمئن هذه القلوب للبر والهدى والتقى والصلاح، وتشعر باشمئزاز ونفور وتردد من الإثم وأسبابه.

وقد جمع النبي ﷺ الورع في كلمة واحدة فقال: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»[4]، فهذا يعم الترك لما لا يعنيه من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع[1].

---

(1) جامع العلوم والحكم (١/٢٨٠).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٢)، في كتاب البر والصلة والأدب، باب تفسير البر والإثم.

(3) جامع العلوم والحكم (٢/١٠١).

(4) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٥٩)، والترمذي في سننه (ص/٥٢٤)، في كتاب الزهد عن رسول الله، وابن ماجه في سننه(ص/٦٥٦)، في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، وابن حبان في صحيحه (١/٤٦٦)، وصحح الحديث الألباني في تخريج الطحاوية (٢٧٦).

ففي هذه النصوص الصحيحة[٢] عنه ﷺ دلالة واضحة على أن الورع مطلب ديني وواجب شرعي، لا يستبرىء دين المرء وعِرضه إلا به.

المطلب الثالث

أقسام الورع

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رحمه الله يتبين لنا أنه قسم الورع إلى أربع مراتب:

المرتبة الأولى: ترك المحرمات، وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح وبيان، فترك الحرام من الورع، ويجب على كل إنسان أن يتقي ما حرم الله ﷻ، كما يدخل في هذه المرتبة فعل الواجبات، وهذه المرتبة من الورع واجبة.

المرتبة الثانية: وهي ترك المكروهات، ومعلوم أن المكروه ما نهى الشارع عنه نهياً غير جازم، وهذه المرتبة أعلى من المرتبة التي قبلها يعني من توقى الحرام فقط وفعل الواجبات وتورع من تركها فهذا قد فعل الواجب، والمرتبة التي فوقه هي أن يتوقى المكروهات مع توقي المحرمات فهذه درجة أعلى من درجات العبودية ومراتبها.

المرتبة الثالثة: وهي أعلى من هاتين وهو أن يفعل ما يشك في وجوبه وأن يترك ما يشك في تحريمه، فهذا لم يثبت الدليل فيه أنه من المكروهات ولكنه تردد فيه، حصل عنده فيه شيء من التردد، انقبضت نفسه منه، حاك في نفسه، فإن الورع أن يُجانبه ويتباعد عنه.

والمرتبة الرابعة: وهي أعلى من ذلك، وهي رأس هذا السلم أن يترك فضول المباحات، إذا كانت تجره إلى المحرمات أو انشغال القلب عن الله والدار الآخرة.

---

(١) مدارج السالكين (١٧/٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٣٨/٢٠-١٣٩)، فقد ذكر جملة من الأحاديث الدالة على التورع من المشتبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان الورع المشروع الذي بعث الله به محمداً ﷺ: «هو اتقاء ما يُخاف أن يكون سبباً للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح، ويدخل في ذلك أداء الواجبات والمشتبهات التي تشبه الواجب، وترك المحرمات والمشتبهات التي تشبه الحرام، وإن أدخلت فيها المكروهات قلت: نخاف أن تكون سبباً للنقص والعذاب.

وأما الورع الواجب فهو اتقاء ما يكون سبباً للذم والعذاب، وهو فعل الواجب وترك المحرم، والفرق بينهما فيما اشتبه أمن الواجب هو أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم ليس منه؟»[1].

إذن صار الورع عندنا من حيث العموم ينقسم إلى قسمين: ورع واجب (وهو ترك الحرام وفعل الواجبات)، وورع مستحب (وهو ثلاث درجات ومراتب)، وقد أوضح هذا شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر حيث قال: «هو الورع عما قد تُخاف عاقبته، وهو ما يُعلم تحريمه وما يُشك في تحريمه، وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله... »، وقال: «وكذلك الاحتياط بفعل ما يُشك في وجوبه لكن على هذا الوجه»[2]، وقال في موضع آخر: «أما الورع، فإنه الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[3]، وقال في موضع آخر: «وإنما ذلك عائد إلى ترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات»[4].

ونخلص إذا إلى أن ما يتعلق بالأمور التي تترك وتفعل، فالواجبات يجب أن تُفعل والمحرمات يجب أن تُترك وهذا ورع واجب، وأما الورع المستحب فهو على ثلاث مراتب:

الأولى: ترك المكروهات وفعل المستحبات.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٣٨/٢٠).

[2] نفس المصدر (٥١١/١٠-٥١٢).

[3] مجموع الفتاوى (٦١٥/١٠).

[4] نفس المصدر (١٣١/٢٠).

والثانية: أن تفعل ما يشك في وجوبه احتياطاً، وأن تترك ما يشك في تحريمه احتياطاً وتورعاً.

والثالثة: أن تترك فضول المباحات التي يُخشى أن تجر إلى الحرام أو انشغال القلب عن الله والدار الآخرة.

المطلب الرابع

قواعد في الورع

أقصد بهذا المطلب أن أذكر بعض القواعد في الورع التي أشار إليها شيخ الإسلام رحمه الله وتستنبط من كلامه:

القاعدة الأولى: الورع منه واجب، ومنه مستحب.

سبق أن بينا أن الورع منه واجب، ومنه مستحب وهو على ثلاث مراتب، ولكن كثيرا من الناس حينما يطلق مصطلح الورع ينصرف ذهنه إلى دقائق الورع، والبعد عن المشتبهات، فيرى أن الورع ليس ضمن دائرة الواجبات، إنما هو مقام للخاصة والصالحين، وليس واجباً على آحاد الناس.

قال شيخ الإسلام: «فأما الورع المشروع المستحب الذي بعث الله به محمداً ﷺ فهو اتقاء ما يخاف أن يكون سبباً للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح، ويدخل في ذلك أداء الواجبات والمشتبهات التي تشبه الواجب، وترك المحرمات والمشتبهات التي تشبه الحرام، وإن أدخلت فيه المكروهات قلت: يخاف أن تكون سبباً للنقص والعذاب، وأما الورع الواجب فهو اتقاء ما يكون سبباً للذم والعذاب، وهو فعل الواجب وترك المحرم، والفرق بينهما (أي بين الورع الواجب والمستحب) فيما اشتبه أمِن الواجب أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم ليس منه؟»[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٠/١٣٧-١٣٨).

القاعدة الثانية: أن ما لا ريب في حله ليس فيه ورع، بل الورع فيه من التنطع[1].

قال رحمه الله: «وأمَّا ما لاريب في حله فليس تركه من الورع، وما لا ريب في سقوطه فليس فعله من الورع»[2].

القاعدةالثالثة: الورع يكون في الفعل كما هو في الترك.

وذلك أن البعض من الناس يعتقد أن الورع يكون في الترك فقط، قال شيخ الإسلام: «لكن يقع الغلط في الورع من ثلاث جهات: أحدها اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب، وهذا يُبتلى به كثيرٌ من المتدينين المتورعة، ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم أو معاملة فاسدة، ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا يترك أموراً واجبة عليه إما عيناً وإما كفاية وقد تعيَّنت عليه، من صلة رحم وحق جار ومسكين وصاحب ويتيم وابن سبيل وحق مسلم وذي سلطان وذي علم، وعن أمر بمعروف ونهي عن منكر، وعن الجهاد في سبيل الله، إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه، أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى بل من جهة التكليف ونحو ذلك، وهذا الورع قد يوقع صاحبه في البدع الكبار، فإن ورع الخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم من هذا الجنس، تورعوا عن الظلم وعن ما اعتقدوه ظلما من مخالطة الظلمة في زعمهم حتى تركوا الواجبات الكبار من الجمعة والجماعة، والحج والجهاد، ونصيحة المسلمين والرحمة لهم، وأهل هذا الورع ممن أنكر عليهم الأئمة كالأئمة الأربعة، وصار حالهم يذكر في اعتقاد أهل السنة والجماعة»[3].

القاعدة الرابعة: أن الورع إنما هو بأدلة الكتاب والسنة.

---

[1] إلا في الحالة التي سبق ذكرها: إذا كان التوسع في المباحات يجر إلى المحرمات، أو يشغل عن الله والدار الآخرة.

[2] مجموع الفتاوى (٢٠/١٣٨).

[3] نفس المصدر (٢٠/١٣٨).

قال رحمه الله: «الجهة الثانية من الاعتقاد الفاسد: أنه إذا فعل الواجب والمشتبه وترك المحرم والمشتبه، فينبغي أن يكون اعتقاد الوجوب والتحريم بأدلة الكتاب والسنة وبالعلم لا بالهوى، وإلا فكثير من الناس تنفر نفسه عن أشياء لعادة ونحوها، فيكون ذلك مما يقوي تحريمها واشتباهها عنده، ويكون بعضهم في أوهام وظنون كاذبة فتكون تلك الظنون مبناها على الورع الفاسد فيكون صاحبه ممن قال الله تعالى فيه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ النجم: ٢٣، ومن هذا الباب الورع الذي ذمه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: لما ترخص في أشياء فبلغه أن أقواما يتنزهون عنها، فقال: ما بال أقوام يتنزهون عن أشياء أترخص فيها؟ والله إني لأرجو أن أكون أعلمهم بالله وأخشاهم[(١)]، وكذلك حديث صاحب القُبلة[(٢)]، ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين، وإلاَّ فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم»[(٣)].

القاعدة الخامسة: الورع لا يكون إلا بالعلم، وبصفة خاصة عند تزاحم المصالح والمفاسد.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الجهة الثالثة، جهة المعارض الراجح هذا أصعب من الذي قبله، فإن الشيء قد يكون جهة فساده تقتضي تركه فيلحظه المتورع، ولا لحظ ما يعارضه من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٥٦)، في كتاب الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنزه في العلم، والغلو في الدين والبدع، ومسلم في صحيحه (ص/٩٥٩)، في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى، وشدة خشيته.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٨٠٧)، في كتاب التفسير، والمقصود بحديث صاحب القبلة، هو ذاك الصحابي الذي أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأُنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ هود: ١١٤، قال الرجل: ألي هذه؟ فقال النبي ﷺ: «لمن عمل لها من أمتي».

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٠-١٤١)، باختصار.

الصلاح الراجح، وبالعكس فهذا هذا. وقد تبين أن من جعل الورع الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد يعيب أقواما هم إلى النجاة والسعادة أقرب، وهذه القاعدة منفعتها لهذا الضرب وأمثاله كثيرة، فإنه ينتفع بها أهل الورع الناقص أو الفاسد»(١).

ومثال ذلك: رجل مات أبوه وعنده أموال مشبوهة وعليه (الوالد) ديون، فلما جاء الناس يطالبون حقوقهم، قال لهم الابن: أنا أتورع أن أقضي ديون أبي من مال مشبوه، فهذا ورع فاسد، فإن قضاء الدين واجب وترك الواجب سبب للعقاب، فلا يترك لما يحتمل أن يكون فيه عقاب ويحتمل أن لا يكون(٢).

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله في موضع آخر: «وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعا.. »(٣).

القاعدة السادسة: الورع لا يكون إلا بالإخلاص.

قد تأتي الإنسان اعتبارات تدفع إلى الورع، فقد يكون له مقام واعتبار ويرى أنه مما ينبغي أن لا يليق بأمثاله أمام الناس، فيكون دافعه إلى ذلك مُراءاة الناس، وقد يكون دافعه حظ النفس أو هوى النفس، أو غيرها من الأمور؛ فالورع مثل سائر الأعمال الصالحة التي يتقرب

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/٣١١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٥١٢).

فيها الإنسان إلى الله ﷻ لابد فيها من الإخلاص، قال شيخ الإسلام: «واعلم أن الورع لا ينفع صاحبه ويكون ثوابا إلا بفعل المأمور به من الإخلاص»[١].

القاعدة السابعة: التدقيق في مسائل الورع لمن استقامت أحواله، لا لمن وقع في انتهاك المحرمات الظاهرة.

قال الحافظ ابن رجب: «وههنا أمرٌ ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل له ذلك، بل ينكر عليه وهذا حال بعض المتكلفين المرائين يسلك هذا المسلك كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن النبي ﷺ، وسمعت النبي ﷺ يقول: "هما ريحانتاي من الدنيا"[٢].

وأنقل بعض النقول عن بعض السلف هي أمثلة عن هذا النوع من الورع، ومنها:"وسئل بشر بن الحارث[٣] عن رجل له زوجة وأمه تأمره بطلاقها، فقال: إن كان بر أمه في كل شيء ولم يبق من برها إلا طلاق زوجته فيفعل، وإن كان يبرها بطلاق زوجته ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه فيضربها فلا يفعل"»[٤].

---

[١] مجموع الفتاوى (١٠/١٤٥).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٤٩)، في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

[٣] هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء المروزي، المشهور ببشر الحافي، ولد سنة ١٥٢ هـ، كان أول عمره يمشي حافيا ويطلب العلم فاشتهر بذلك، إمام زاهد محدث، قيل للإمام أحمد: مات بشر، فقال: مات والله ما له نظير إلا عامر بن عبد قيس، توفي سنة ٢٢٧ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٩/٣٤٤)، والحلية (٨/٣٣٦)، والسير (١٠/ ٤٦٩).

[٤] جامع العلوم والحكم (١/٢٨٣).

وهذا الأمر مهم لابد أن نعيه ونحن نقرأ، ووردت بعض الروايات عن السلف في ورعهم حتى لا نقع في هذا الغلط الذي له آثار سلبية على نفوسنا؛ فنحن أحوج ما نكون إلى الورع الواجب، وأحوج ما نكون إلى اجتناب المحرمات الظاهرة الواضحة، وأحوج ما نكون إلى إصلاح قلوبنا، فإذا انشغلنا بهذه الدقائق تركت آثاراً سيئة على أنفسنا، منها أن تشعر أنفسنا بالزهو واحتقار الآخرين وأن الناس لا يتورعون، ومنها أن تنشغل النفس عما هي أولى به من إصلاح القلب والورع الواجب، والله تعالى أعلم.

المطلب الخامس

ثمرات الورع

إن للورع ثمرات وآثار سلوكية تحصل للعبد الذي تحلى به، وأول ذلك أن القليل معه كثير، لأن صاحبه نقي الثوب لا تثقله الأوزار ولا تدنسه المشتبهات فهو طيب خفيف الحمل من الذنوب يترك ما اشتبه عليه فضلاً عما تُحُقق تحريمه، وبهذا يكون العمل بالنسبة لمثل هذا وإن قل يكون عمله الصالح كثيراً، لأن العبرة بالموازنة فمن غلبت حسناته سيئاته فقد نجا ومن غلبت سيئاته حسناته فقد هلك، وقد قال يوسف ابن أسباط رحمه الله[1]: «يُجزىء قليل الورع عن كثير العمل، ويجزىء قليل التواضع عن كثير الاجتهاد»[2]، وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله نحو ذلك حيث قال: «قليل الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة»[3]، فهذه الآثار تدل على أن الورع سبيل إلى تكثير الأعمال وتثقيل موازين الحسنات لأن كفة السيئات تكون متلاشية أو خاوية.

ومن ثمراته هو ما نعلمه جميعاً أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه، فمن تورع عن بعض ما لا يليق رجاءَ ما عند الله أو خوفاً منه جل جلاله، فإن الله ﷻ يعوضه ويفيض عليه من ألوان النعم والأرزاق والبركات ما لا يقدر قدره، فإذا تركت الشيء لله فإن الله ﷻ يعوضك، وإبراهيم ﵇ لما ترك الأهل والوطن والعشيرة واعتزل قومه وهجرهم في الله ولله، قال الله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ﴾ مريم: ٤٩، فعوضه الله ﷻ بالذرية الطيبة الصالحة الذين ينسونه الوطن والأهل والعشيرة الذين لم يكونوا على دينه.

---

[1] هو يوسف بن أسباط، الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، روى عن سفيان الثوري وغيره، لم أجد له تأريخ وفاة، انظر: الحلية (٨/٢٣٧)، والسير (٩/١٦٩).

[2] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب: التواضع والخمول (ص/١١٧).

[3] ذكره القشيري في رسالته (ص/١٨٦).

ومن ثمرات الورع أنه يكون حاجزاً وحائلاً دون الوقوع في الحرام فهو يعصم صاحبه بإذن الله ﷻ عن الاستدراج، لذلك نجد أن من تعاطى ما نهي عنه فإنه يكون مظلم القلب لفقدان نور الورع فيقع في الحرام ولو لم يقصد الوقوع فيه ابتداءً.

ومما يورثه الورع أنه يصون عرض صاحبه، فإن من تنـــزه عن المحرمات والشبهات كان عرضه نقياً فيسلم من الأذى، ولا يكون لقائل فيه مقال ولا يكون في موضع ريبة ولا تهمة، فيكون سالماً بإذن الله ﷻ مستبرءًا لدينه وعرضه كما قال النبي ﷺ: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» أما الدين فالسلامة، وأما العرض فإنه يحفظ بسبب هذا الورع من تهمة الناس، ومن مقالة السوء، ومن الوقيعة فيه.

ومن ثمراته أيضا – وهو الأخير – أن له تأثيرا في تطهير دنس القلب كما قال ابن القيم رحمه الله: «بأن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته، كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة، ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثر كل منهما في الآخر، ولهذا نُهي عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع.

وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودناستها ورائحتها وبهجتها وكسفتها، حتى إن ثوب البر لُيعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما»[1] يعني لم تره على صاحبه تعرف إن هذا ثوب بر وأن هذا ثوب فاجر من الفجار.

على كل حال، الورع له آثار كثيرة منها ما ذكرت ومنها ما لم أذكر، من راحة البال وطمأنينة النفس واستراحة الضمير والقلب ونظافة المجتمع، وفضلاً عن إجابة دعاء صاحبه، ونحن نعرف ذلك الذي أخبرنا النبي ﷺ عنه يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه يقول: يا رب..

---

[1] مدارج السالكين (٢/١٦).

يا رب مع أن دعاء المسافر مستجاب، ولكن مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذي بالحرام فأنى يستجاب له [1].

فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، وأن يرزقنا البصيرة في الدين، ويزيننا بزينة الإيمان والإسلام، وأن يجعلنا من المتقين المتورعين الزاهدين، وأن يغفر لنا ذنوبنا أجمعين، آمين.

---

[1] هذه الثمرات مستفادة من كتاب «سلسلة أعمال القلوب» للدكتور: خالد السبت (ص/١٠٨-١١١).

المبحث السابع عشر: الذكر.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أنواع الذكر.

المطلب الرابع: درجات الناس في الذكر.

المطلب الخامس: الذكر المشروع والمبتدع.

المطلب السادس: ثمرات الذكر.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

فالذكر مصدر: ذكر، يذكر، ذِكرا، وذُكرا، وذِكرى، وهو حفظ الشيء في القلب خلاف النسيان، أو جريان الشيء على اللسان، وقيل: الذكر بالكسر لما جرى على اللسان، وبالضم لما حفظ على القلب.

ويطلق الذكر على الصيت والثناء، كما يطلق على العيب، وذلك على معنى الحذف، فالثناء الذكر الحسن، والعيب الذكر السيء، فإذا قيل: ذكر الله، علم أن المراد أثنى عليه، وإن قيل: فلان يذكر الناس؛ أي يعيبهم، كما قال تعالى عن قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتَىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الأنبياء: ٦٠، أي يذكرهم بسوء[١].

قال الأزهري: «يقول: فلان يذكر فلانا، أي يغتابهم ويذكر عيوبهم، وفلان يذكر الله، أي يصفه بالعظمة ويثني عليه ويوحّده، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه»[٢].

يقول ابن فارس: «الذكر: الذال والكاف والراء أصلان....، والأصل الآخر: ذكرت الشي، خلاف نسيته، ثم حمل عليه الذكر باللسان، ويقولون: اجعله منك على ذُكر، بضم الذال، أي لا تنسه، والذكر العلاء والشرف، وهو قياس الأصل»[٣].

وحاصل ما ذكروه في الذكر يتلخص فيما يلي:

١- الذكر: ضد النسيان، وهو حفظ الشيء في القلب.

٢- الذكر: بمعنى ما يجري على اللسان.

---

[١] انظر: لسان العرب (٦/٣٦-٣٧)، والقاموس المحيط (ص/٥٠٧-٥٠٨).

[٢] تهذيب اللغة (١٠/١٦٣-١٦٤).

[٣] معجم مقاييس اللغة (ص/٣٦٨).

٣- الذكر: بمعنى الصيت والثناء.

وقد ذكروا للذكر مباني ومعاني أخرى وهي تعود إلى هذه الثلاث وتتفرع عنها[١].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

الذكر في الشرع: هو ذكر المسلم ربه سبحانه وتعالى بالثناء عليه بما هو أهله، أو بسؤاله الحاجات والالتجاء إليه لكشف الكربات.

فكل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله تعالى، من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، أو تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، فهو من ذكر الله[٢].

يقول النووي: «وذكر الله ضربان: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وذكر القلب نوعان؛

أحدهما: وهو أرفع الأفكار وأجلها، الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه،

والثاني: ذكره بالقلب»

وقال القرطبي: «الذكر اسم مشترك، فالذكر بالقلب ضد النسيان، والذكر باللسان ضد الإنصات، وذكرت الشيء بلساني وقلبي ذكرا»[٣]، وقال أيضا: «وأصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسمي الذكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق إلى الفهم»[٤].

---

[١] وهذه المعاني لا تعلق لها بما نحن فيه.

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (٦٦١/١٠).

[٣] تفسير القرطبي (٧/٢).

[٤] نفس المصدر (٤٥٩/٢).

وفي لوامع البينات: «أن الذكر يكون باللسان والقلب والجوارح، فذكر اللسان بالألفاظ الواردة، وذكر القلب في أدلة الذات والصفات وفي أدلة التكاليف وفي أسرار المخلوقات، أما ذكر الجوارح فبالاستغراق في الطاعات والخلو من المنكرات»[١].

وقال في الكليات: «إذا أريد بالذكر الحاصل بالمصدر يجمع على (أذكار)، وهو الإتيان بألفاظ ورد الترغيب فيها، ويطلق ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندبه إليه، كالتلاوة وقراءة الحديث، ودرس العلم، والنفل بالصلاة»[٢].

وبهذا الاستعراض لتعريف الذكر يمكن أن نخلص إلى:

أن الذكر يطلق على الذكر بالقلب، وعلى الذكر باللسان، وعلى الذكر بالجوارح، وأن الأصل في الإطلاق لمصطلح الذكر هو على الذكر القلبي، لأنه هو الحامل على ذكر اللسان والجوارح، ولكن كثرة إطلاق الذكر على الذكر اللساني جعلته هو الأسبق إلى الأفهام حين تسمع لفظة ذكر، مع أن المعول عليه في الذكر ما كان بالقلب، أو باللسان ولكن بشرط حضور القلب، أو بالجوارح ولكن مع حضور القلب، ومع قصد وجه الله ومرضاته في كل ذلك[٣].

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

فلا ريب أن ذكر الله ودعاءه هو خير ما شغلت به الأعمار، وأزكى ما حوته الأعمال، وأنفع ما صرفت فيه الأنفاس، وأفضل ما تقرب به العباد إلى ربهم ومولى نعمتهم سبحانه

---

[١] انظر: لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات (ص/٥٣-٥٤)، للفخر الرازي.

[٢] كتاب الكليات (ص/٤٥٦)، لأبي البقاء أيوب الكفوي.

[٣] انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع (ص/٣١)، تأليف: عبد الرحمن محمود خليفة.

وتعالى، ولهذا أصبح للذكر والدعاء المنزلة العالية في الدين والمكانة الخاصة في حياة سيد الذاكرين ﷺ.

فأهمية الذكر وفائدته غير خاف على كل مسلم، إذ هو من أجل المقاصد، وأنفع الأعمال المقربة إلى الله، وقد أمر الله به في القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ورغب فيه، ومدح أهله وأثنى عليهم أحسن الثناء وأطيبه، وفيما يلي أذكر بعض وجوه ورود الذكر في القرآن والسنة[1]، مع جمع ما تيسر لي من كلام أهل العلم حولها.

المسألة الأولى: الأمر بالذكر والنهي عن ضده.

قد جاء الأمر بالذكر والنهي عن ضده في آيات وأحاديث كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف: ٢٠٥، فيأمر الله عبده ورسوله ﷺ أصلا وغيره تبعا بذكر الله أول النهار وآخره، دون الرفع في القول، بل يكون متضرعا خائفا، ثم كرر الأمر ثانية بالنهي أن لا يكون من الغافلين عن الذكر، مما يؤكد وجوب الذكر وأهميته[2].

قال السعدي رحمه الله: «الذكر للّه تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر اللّه عبده ورسوله محمدا أصلا وغيره تبعا، بذكر ربه في نفسه، أي: مخلصا خاليا.

﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أي: متضرعا بلسانك، مكررا لأنواع الذكر، ﴿ وَخِيفَةً ﴾ في قلبك بأن تكون خائفا من اللّه، وَجِلَ القلب منه، خوفا أن يكون عملك غير مقبول...

---

[1] ذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أوجه لورود الذكر في القرآن الكريم، يراجع للفائدة، مدارج السالكين (٢/٣١٣-٣١٥).

[2] انظر تفسير الطبري (١٣/٣٥٣)، وتفسير البغوي (٢/١٨٨)، وتفسير القرطبي (٩/٤٣٣-٤٣٥)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٧٣-٣٧٤)، ومجموع الفتاوى (١٠/٣٣-٣٦).

﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ الذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به»[1].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الأحزاب: ٤١ ــ ٤٢، فجاء هذا الأمر الصريح بالذكر، وليس هذا فقط بل بالإكثار منه من غير حد، وقد ورد فيها من أنواع الذكر التسبيح، وهو قول (سبحان الله)، وورد فيها مؤقتا بالغدوة والأصيل، وهما الوقتان – ذاهما – اللذان ذكرا في الآية الأولى، وقد ورد تقييد الذكر بهذين الوقتين كثيرا، وذلك أنهما وقتان مهمان في اليوم، وهما طرفا النهار والليل، فالعمل فيهما يترك أثره الواضح على بقية الأوقات، فالإنسان يقوم بالغداة من النوم فيبدأ بذكر الله ليكون أول أعماله ذكر الله ﷻ فيبارك له في بقية نهاره، وإذا أراد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت ختم يومه بالذكر ليكون كفارة لما عسى أن يكون قد اقترفه في النهار، واستعدادا لإقبال الليل، ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله ﷻ.

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن، لما في ذلك من جزيل الثواب وجميل المآب»، ثم أورد بعض الأحاديث في فضل الذكر، وأورد عن ابن عباس في تفسير الآية أنه قال: «إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإن الله تعالى لم يجعل له حدا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على تركه، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٩١، بالليل

---

[1] تفسير السعدي (ص/٣١٤).

والنهار، في البر والبحر، في السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الحشر: ١٩، ففي الآية نهي عن ضد الذكر وهو النسيان، حيث نهى الله سبحانه عباده المؤمنين أن يكونوا كالذين نسوا الله فلم يذكروه حين يجب ذكره، ولم ينقادوا لأمره ونهيه، فكان جزاؤهم أن أنساهم أنفسهم، فغفلوا عما يصلحها وما ينفعها في عاجلها وآجلها، وهذه النتيجة الطبيعية لمن نسي الله وغفل عن ذكره، فإن الجزاء من جنس العمل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «و هذا النسيان – نسيان الإنسان لنفسه ولما في نفسه – حصل بنسيانه لربه ولما أنزله...

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾، يقتضي أن نسيان الله كان سببا لنسيانهم أنفسهم، وإنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم.

ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم وغفلتهم وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم، كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم، فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكرا ينفعها ويصلحها، وأنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم...

فلما دلت الآية على أن نسيان الإنسان نفسه مُسبَب عن نسيانه لربه، دل على أن الذاكر لربه لا يحصل له هذا النسيان لنفسه»[2].

وأما الأمر بالذكر في الأحاديث، فقد قال النبي ﷺ: «وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»[1].

---

[1] تفسير ابن كثير (٣/٦٤٧-٦٤٨).

[2] مجموع الفتاوى (١٦/٣٤٨-٣٤٩).

ففي الحديث أمر بذكر الله، وإخبار بأن الذكر من أقوى الأسباب لنجاة العبد من الشيطان، وقد ورد الحديث ضمن وصايا أمر الله نبيه يحيى عليه السلام أن يعمل بها، ويأمر بني أسرائيل بها، وقد بلغها بعد تأكيد عيسى عليه السلام، وقد أخبرنا به رسولنا محمد ﷺ تأكيدا للمعنى الذي دل عليه، وهو الأمر بالأمور التي وردت فيه، ومن ضمنها: الأمر بذكر الله، وقد مثله بمن كاد عدوه يلحق به، فالتجأ إلى حصن حصين حال بينه وبين عدوه، وكذلك ابن آدم وعدوه الشيطان، دائما في معركة، ولا ينجي العبد من الهزيمة في هذه المعركة إلا ذكر الله.

قال ابن القيم رحمه الله: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان خليقا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثَبَ عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصْع[2] وكالذباب، ولهذا سمي الوسواس الخناس، أي: يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله تعالى خنس، أي: كف وانقبض»[3].

المسألة الثانية: بيان أهمية الذكر ومنزلته بين سائر الأعمال الصالحة.

الذكر من أجل العبادات وأفضلها، كما بين ذلك شيخ الإسلام رحمه حين سئل عن أفضل الأعمال بعد الفرائض، فذكر أن ذلك يختلف باختلاف الناس والأوقات والأزمان، إلا أن الذكر أفضل ما شغل العبد به نفسه فقال رحمه الله: «لكن مما هو كالإجماع بين العلماء

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/٤٠٤-٤٠٥)، والترمذي في سننه (ص/٦٤٠-٦٤١)، وقال: هذ حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/٥٢٨-٥٢٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في تخريج الترغيب (٣٦٩٣).

[2] الوصْع، الصغير من العصافير، أو طائر يشبه العصفور في صغره ، انظر: لسان العرب (١٥/٢٢٣).

[3] الوابل الصيب (ص/٨٣).

بالله وأمره : أن ملازمة ذكر الله دائما هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم:"سبق المفردون"، قالوا يا رسول الله ومن المفردون ؟ قال:"الذاكرون الله كثيرا والذاكرات"[1]، وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:"ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله"[2]. والدلائل القرآنية والإيمانية بصرا وخبرا ونظرا على ذلك كثيرة، وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ»[3].

والحديثان اللذان استدل بهما شيخ الإسلام تبين أهمية الذكر، وأنه خير الأعمال، وأزكاها عند الله، وأرفعها في درجات العبد، بل ذكر الله خير من إنفاق الذهب والفضة، وخير من ملاقاة العدو ومقاتلتهم، وذلك أن ذكر الله ﷻ مما يبعث على هذه الأعمال، ولأنها من أجله شرعت، وإذا خلت هذه الأعمال من ذكر الله فلا تنفع صاحبها، وبعد كل هذا، فلا شك في سبق الذاكرين لغيرهم يوم القيامة.

ومما يبين أهمية الذكر، ويوضح مترلته بين سائر الأعمال الصالحة هو أن الله كثيرا ما يقرن بين الذكر وبين كثير من الأعمال الصالحة، وجعله غاية بعضها، وأمر به في خاتمتها، وذلك أن العمل الصالح لكي يكون مقبولا، لا بد فيه أن يكون صاحبه محتسبا الأجر من الله ﷻ، ولا يحتسب الأجر منه سبحانه إذا كان غافلا لاهيا عنه.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٧٥)، في كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى.

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦/٣٣-٣٤)، والترمذي في سننه (ص/٧٦٧)، في كتاب الدعوات، وابن ماجه في سننه (ص/٦٢٥)،في كتاب الأدب، باب فضل الذكر، والحاكم في المستدرك (٢/٥٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في المشكاة (٢٢٦٩).

[3] مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٠).

فأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يذكروه بعد الفراغ من المناسك، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ البقرة: ٢٠٠.

كما أنه جل وعلا أمرهم أن يذكروه تبارك وتعالى بعد صلاة الخوف على أي حال كانوا، قياما وقعودا وعلى جنوبهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ النساء: ١٠٣.

قال ابن القيم رحمه الله: «فقيد الأمر بالذكر بالكثرة والشدة، لشدة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن ذكر الله عز وجل»[1].

بل أمر بالصلاة من أجل ذكره تعالى، لأن ذكره أجل المقاصد، وبه عبودية القلب وسعادته، فقال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه: ١٤، فمن أهم أهداف الصلاة هو إقامة ذكر الله، بل هو المقصود بالقصد الأول، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ العنكبوت: ٤٥ [2].

---

[1] الوابل الصيب (ص/٨٩).

[2] قال ابن القيم رحمه الله معلقا على هذه الآية، «وفيها (أي في الآية) أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات، لأن المقصود بالطاعات كلها إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعنى إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر محق كل خطيئة ومعصية، هذا ذكره المفسرون.

الرابع: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين:

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قاعدة: الحسنات تعلل بعلتين: إحداهما؛ ما تتضمنه من جلب المصلحة والمنفعة، والثانية؛ ما تتضمنه من دفع المفسدة والمضرة...

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾، فبيّن الوجهين جميعا فقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ بيان لما تتضمنه من دفع المفاسد والمضار، فإن النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه - لا سيما على وجه الخصوص - أكسبها ذلك صبغة صالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر، كما يحسه الإنسان من نفسه...

وقوله: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ بيان لما فيها من المنفعة والمصلحة أي ذكر الله الذي فيها أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر فإن هذا هو المقصود لنفسه كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الجمعة: ٩، والأول تابع، فهذه المنفعة والمصلحة أعظم من دفع تلك المفسدة»[1].

المسألة الثالثة: المدح والثناء على الذاكرين، وذم من غفل عن الذكر.

ومن أساليب القرآن والسنة في الترغيب في الذكر هو ما جاء فيهما من مدح الذاكرين والثناء عليهم، وما جاء فيهما من الذم لمن لها وغفل عن ذكر الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ آل عمران: ١٩٠ - ١٩١، فيخبر الله عن أولي

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر»، مدارج السالكين (٢/٣١٤-٣١٥).

[1] مجموع الفتاوى (٢٠/١٩٢-١٩٣)، وانظر أيضا (١٠/١٨٨)، و(١٠/٧٥٣)، و(١٥/٣٤٤)، و(٣٢/٢٣٢).

الألباب الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، وما أودع الله فيهما من الآيات والبراهين التي تدل على وحدانيته في الربوبية المستلزمة لإفراده بالألوهية، وأنه لا يمكن أن يكون هذا الخلق العظيم خلقا باطلا بدون حكمة، فيورث نظرهم هذا كثرة الذكر لله ﷻ، فيذكرونه في جميع أحوالهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم،ثم ختم الآية بالدعاء - بعد توطئة بالثناء الذي هو أهم آداب الدعاء - ، فيقولون﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ النور: ٣٦ - ٣٧، أثنى الله على الذين يذكرون الله ويسبحونه في أحب البقاع إلى الله وهي المساجد، فهم رجال ليسوا ممن يؤثر على ربه الدنيا - وإن اشتغلوا بها -، بل يجعلون طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، وما حال بينهم وبينها رفضوا، لأنهم يعلمون أن هذه الأمور فانية، وأن ما عند الله باق، فيخافون اليوم الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وبعد ما نهى الله المؤمنين عن أن ينشغلوا بأموالهم و أولادهم عن ذكر الله، أخبر سبحانه بأن أولئك الذين تلهيهم الأموال والأولاد عن ذكر الله هم الخاسرون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المنافقون: ٩، يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبرًا لهم بأنه من التَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة»[1].

---

[1] تفسير ابن كثير (٤/٤٧٧).

وأما في السنة، فقد جاء الثناء الكبير على الذاكرين، قال أبو هريرة ﷺ: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له: جُمْدان[(١)] فقال: «سيروا هذا جمدان، سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات»[(٢)]، فقد أخبر النبي ﷺ أن المفردين سبقوا غيرهم وتفردوا عنهم، لكونهم يحوزون خيري الدنيا والآخرة، وقد فسر المفردون في الحديث بأنهم الذاكرون لله كثيرا من الرجال والنساء، فهؤلاء يسبقون غيرهم وينفردون عنهم.

والمفردون في الأصل هم الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم، فبقوا يذكرون الله تعالى، ولكن الظاهر أن المقصود في الحديث أن هؤلاء انفردوا بهذا العمل الذي هو كثرة ذكر الله، دون الانفراد الحسي[(٣)].

قال ابن رجب: «ومن هذا السياق[(٤)] يظهر وجه ذكر السابقين في هذا الحديث، فإنه لما سبق الركب وتخلف بعضهم، نبه النبي ﷺ على أن السابقين على الحقيقة هم الذين يديمون ذكر الله، ويولعون به»[(٥)].

وقد جاء في السنة ذم الغافل واللاهي عن ذكر الله، وذلك بتشبيهه بالميت في بيوت الأموات، وأما الذاكر فهو كالحي في بيوت الأحياء، قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه

---

(١) جبل بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة، انظر: معجم البلدان (١٦١/٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص/٦٣٧).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٤/١٧)، وجامع العلوم والحكم (٥١٢/٢)، ومجموع الفتاوى (٨٥/١٠).

(٤) يشير إلى رواية الفريابي التي أوردها قبل هذا الكلام، وفيه: أن معاذ بن جبل ﷺ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ نسير بالدف إذ استنبه، فقال: «يا معاذ، أين السابقون؟»، فقلت: قد مضوا، وتخلف الناس، فقال: «يا معاذ، إن السابقين الذين يُستَهْتَرون بذكر الله»، وقد ذكر هذه الرواية الهيثمي في المجمع الزوائد (٧٣/١٠)، وقال: وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.

(٥) جامع العلوم والحكم (٥١٢/٢).

والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»، وفي رواية لمسلم: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر، وفي اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحي، والغافل بمنزلة الميت، فتضمن اللفظان: أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات، ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم :: وأجسامهم قبل القبور قبور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم :: وليس لهم حتى النشور نشور»[٢].

المطلب الثالث

أنواع الذكر

إن مما لا شك فيه أن من الأذكار المطلقة التي لم تربط بسبب، ولا مناسبة، ولا هيئة، ولا عدد، القرآن وهو أفضلها، ثم الذكر الذي هو ثناء، ثم يأتي الدعاء الذي هو سؤال، قال ابن القيم رحمه الله: «قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجردا»[٣].

أما بالنسبة للذكر المأثور في وقت أو لسبب، فما ورد من الذكر مختصا بزمان، أو مكان، أو حال، فالاشتغال به أفضل من الاشتغال بقراءة القرآن أو الأذكار المطلقة، كإجابة

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١١٢)، في كتاب الدعوات،باب فضل ذكر الله ﷻ، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٧)، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد.

[٢] مدارج السالكين (٢/٣١٧).

[٣] الوابل الصيب (ص/٢٣١).

المؤذن وأذكار الطواف، أو ما ورد النهي عن القراءة فيه كالركوع والسجود، فالتسبيح والتحميد في محلهما أفضل من القرآءة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أن الأفضل يتنوع تارة بحسب أجناس العبادات: كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذكر، وجنس الذكر أفضل من جنس الدعاء، وتارة يختلف باختلاف الأوقات: كما أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة، وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر: كما أن الذكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف، و تارة باختلاف الأمكنة: كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذكر والدعاء دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل، وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة: فالجهاد للرجال أفضل من الحج وأما النساء فجهادهن الحج، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها، بخلاف الأيمة فإنها مأمورة بطاعة أبويها، وتارة يختلف باختلاف حال قدرة العبد وعجزه: فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه، وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل»[1].

فبالنظر إلى كلام شيخ الإسلام رحمه الله نجد أن الذكر بعد القرآن الكريم – الذي هو أفضل الذكر– ثلاثة أنواع[2]:

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٤٢٧-٤٢٨)، وانظر(١٠/٢٦٣-٢٦٤)، (١/١٨٣-١٨٤)،(١١/٣٩٩، و 11/٦٦٠)، (١٧/١٣٢-١٣٣)، و (١١/١٣٩-١٤٠)، (١٩/١٢٠-١٢١)، (٢٢/٣٠٩، ٣٤٧-٣٤٨، ٣٨٨، ٣٩٥)، (٢٣/٦٢-٦٣)، و (٢٤/١٩٨، ٢٣٦-٢٣٩).

[2] أما ابن القيم رحمه الله فقد اختلف تقسيمه لأنواع الذكر، ففي مدارج السالكين يذكر ثلاثة أنواع للذكر:

النوع الأول: ذكر الأسماء والصفات، ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيده بها.

النوع الثاني: ذكر الأمر و النهي، والحلال والحرام.

النوع الثالث: ذكر الآلاء والنعماء، والإحسان، والأيادي، هو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هو ما كان ثناء محضا على الله، مثل قوله ﷺ: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»[1].

- ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها،
- وذكر بالقلب وحده، وهو في الدرجة الثانية،
- وذكر باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة، مدارج السالكين (٣١٨/٢).

وقريب من هذا التقسيم ذكره في الوابل الصيب (ص/٢١٦-٢٢١)، إلا أن النوع الأول في مدارج السالكين، جعله نوعين:

النوع الأول: ذكر أسماء الرب وتعالى وصفاته، والثناء عليه بها، وتتريهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى.

النوع الثاني: الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته.

وكذلك النوع الثاني: ذكر أمره و نهيه، في المدارج، جعله نوعين:

النوع الأول: ذكره بذلك إخبارا عنه بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، (و قد تكلم شيخ الإسلام عن هذا النوع في المجموع، (٦٦١/١٠).

النوع الثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه.

ففي الوابل الصيب إذا ذكر خمسة أنواع.

أما في جلاء الأفهام، ذكر خمسة أنواع:

النوع الأول: ذكره بأسمائه صفاته، والثناء عليه.

النوع الثاني: تسبيحه وتكبيره وتهليله وتمجيده، هو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

النوع الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر العلماء، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم ربهم.

النوع الرابع: هو ذكره بكلامه.

النوع الخامس: دعائه واستغفاره والتضرع إليه، جلاء الأفهام (ص/٥٣٠).

[1] أخرجه أبو داود في سننه (ص/١٣٧-١٣٨)، في كتاب الصلاة، والترمذي في سننه (ص/٧٠)، في كتاب أبواب الصلاة، وابن ماجه في سننه (ص/١٥٢)، في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، والحاكم في المستدرك (٣١٩/١)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الإرواء (٣٤١)

النوع الثاني: ما كان إنشاء من العبد، وهو الخبر عن عبادة العبد، مثل قوله ﷺ: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك... »[1].

النوع الثالث: ما كان دعاء من العبد، مثل قوله ﷺ: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب»[2].

وما تعرض شيخ الإسلام لذكر هذه الأنواع إلا ليبين أن ما كان من الذكر ثناء محضا هو أفضل من الذكر الذي بمعنى الدعاء، ولهذا أفضل ما يستفتح به في الصلاة هو ما كان ثناء محضا، ثم ذكر الأوجه التي تفضل الذكر المحض على الدعاء الذي هو سؤال، وإليك ملخصها:

الوجه الأول: إن الكلام إما إخبار، وإما إنشاء، وأفضل الأخبار ما كان خبرا عن الله، والإخبار عن الله أفضل من الخبر عن غيره، ومن الإنشاءات، ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، لأنه تتضمن الخبر عن الله، وكانت آية الكرسي أفضل آية في القرآن لأنها خبر عن الله.

الوجه الثاني: ومما يبين فضل الذكر على المسألة، هو ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، - وهنّ من القرآن-: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[3]، وهن الباقيات الصالحات.

الوجه الثالث: ففي الفاتحة، نوع الثناء أضافه الرب إلى نفسه، ونوع السؤال أضافه إلى عبده، «إذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قال الله حمدني عبدي، فإذا قال:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٩٨)، في كتاب الدعوات، باب النوم على الشق الأيمن، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٨٧)، في كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٠٦)، في كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٨٥)، في كتاب التعوذ من شر الفتن وغيرها.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٨٨٤)، في كتاب الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، قال أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، قال الله مجدني عبدي. فإذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾، قال: هذه الآية، بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، إلى آخر السورة، قال: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

الوجه الرابع: فجماهير العلماء على إيجاب الثناء، فيوجبون التشهد الأخير، وكذلك التشهد الأول عند بعضهم.

أما الدعاء، فلم يجب منه دعاء منفرد أصلا، بل ما وجب من الفاتحة والتشهد وجب بعد الثناء.

الوجه الخامس: فالدعاء لم يشرع مجردا، أما الثناء فقد شرع مجردا بلا كراهة، فلو اقتصر في الاعتدال على الثناء، وفي الركوع والسجود على التسبيح، كان مشروعا بلا كراهة، ولو اقتصر في ذلك على الدعاء، لم يكن مشروعا، وفي بطلان الصلاة نزاع.

الوجه السادس: فالثناء يتضمن مقصود الدعاء، كما في الحديث: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»[2]، فإن ثناء الداعي على المدعو بما يتضمن حصول مطلوبه،

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٦٩)، في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

[2] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٧٦٨)، في كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، وابن ماجه في سننه (ص/٦٢٧)، في كتاب الدعاء، باب فضل الحامدين، وابن حبان في صحيحه (١٢٦/٣)، حسنه الألباني في الصحيحة (١٤٩٧).

قد يكون أبلغ من ذكر المطلوب[1]، كقول أيوب عليه السلام مثلا: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الأنبياء: ٨٣، وهذا أحسن من قوله: ارحمني.

الوجه السابع: ومما يبين فضل الثناء على الدعاء، أن الثناء المشروع يستلزم الإيمان بالله، وأما الدعاء فقد لا يستلزمه، إذ الكفار يسألون الله فيعطيهم، كما أخبر بذلك القرآن في أكثر من موضع...، بخلاف الثناء المشروع، كقوله: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك»، فإن هذا لا يثني به إلا مؤمن.

الوجه الثامن: أن السائل غاية مقصوده حصول مطلوبه ومراده، فهو مريد من الله، وإن كان مطلوبه محبوبا لله، مثل أن يطلب من الله إعانته على ذكره وشكره، وحسن عبادته، فهو يريد منه هذا الأمر المحبوب لله، أما إذ كان مراده مجرد سؤاله أمرا دنيويا، فالسائل إذا حصل سؤاله برد وأعرض عن الله في الغالب.

---

[1] بالمناسبة، فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله بعض صيغ الدعاء، وهي:

الصيغة الأولى: وصف حال الداعي، والتصريح بالدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ القصص: ١٦.

الصيغة الثانية: وصف حال المدعو، والتصريح بالدعاء، كقوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ الأعراف: ١٥٥.

الصيغة الثالثة: الجمع بين حال الداعي والمدعو، كحال أيوب عليه السلام، وكقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الأعراف: ٢٣.

الصيغة الرابعة: الجمع بين حال الداعي والمدعو والتصريح بالدعاء، وهو أكمل الأنواع، مثل قول النبي ﷺ لما قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فا غفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»، أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٣٥)، في كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٨٤)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، (انظر: مجموع الفتاوى، ١٠/٢٤٤-٢٤٧).

أما المثني، فهو ذاكر نفس محبوب الحق من أسمائه وصفاته، فالمطلوب بهذا معرفة الله ومحبته وعبادته، وهذا مطلوب لنفسه لا لغيره، وهو الغاية التي خلق لها الخلق، ثم له يحصل مقصود السائل المجرد ضمنا وتبعا، فهذا أرفع، لكن هذا إنما يتم لمن يخلص إيمانه فصار يحب الله، ويحب حمده وثناءه وذكره[1].

وخلاصة القول في الذكر عموما، أنه أنواع، وبين أنواعه تفاضل، وبحسب هذا التفاضل ينبغي أن يكون ترتيب الاشتغال به، فأفضل الذكر بالقرآن الكريم، ثم ما كان ثناء على الله سبحانه وتعالى، ثم ما كان خبرا من العبد عن عبادته، ثم ما كان دعاء من العبد، ومن هذا الترتيب ومن الأسباب التي مر ذكرها يتضح أفضلية الذكر بعمومه على الدعاء.

المطلب الرابع

درجات الناس في ذكر الله

دل الكتاب والسنة على أن ذكر الله تعالى باعتبار ما يكون به ثلاثة أنواع[2]:

النوع الأول: الذكر بالقلب واللسان معا، وهو أفضل الذكر وهو المأمور به[3]، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكر في المعنى واستحضار عظمة الله تعالى.

فالذكر الجامع بين ذكر الله بالقلب واللسان أفضل من ذكره باللسان وحده دون مواطأة القلب - أي مع عدم إجرائه على القلب تسبيحا وتهليلا ونحوهما -، وأفضل من إمرار الذكر على القلب دون نطق باللسان.

---

[1] مجموع الفتاوى (٣٧٦/٢٢-٣٨٨).

[2] إنما أخّرت إيراد هذه الأنواع للذكر، لأتناولها مع درجات الناس فيها في مطلب واحد.

[3] انظر: مجموع الفتاوى (٥٦٦/١٠)، و (٣٥/١٥)، والاستقامة (١٧/٢)، ومدارج السالكين (٣١٨/٢)، والوابل الصيب (ص/٢٢١)، والفوائد (ص/٢٧٨-٢٧٩).

قال ابن حجر رحمه الله: «وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالا، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال»[١].

النوع الثاني: الذكر بالقلب وحده، وهو ما يسمى أيضا بالذكر الخفي، فالمراد من هذا الذكر هو ذكر الله تعالى تسبيحا وتهليلا ونحوهما بالقلب دون النطق باللسان، وهذا يأتي في الدرجة الثانية كما ذهب إليه بعض أهل العلم، قال ابن القيم رحمه الله: «وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة، ويثير الحياء ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا من ذلك الإثمار، وإن أثمر شيئا منها فثمرته ضعيفة»[٢].

النوع الثالث: الذكر باللسان وحده، وهو كون اللسان رطبا بذكر الله، فالمراد بالذكر باللسان هو أن يتحرك به لسانه ويسمع نفسه على الأقل إذا كان ذا سمع، ولم يكن هناك لغط يمنع السماع، وهذا يأتي في الدرجة الثالثة كما ذكر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله[٣]، للتعليل السابق في أفضلية الذكر بالقلب، لأن عمل السر أفضل وهو منشأ الأحوال.

وقد ذهب بعض أهل العلم أن الذكر باللسان أفضل من ذكر القلب، يقول محمد بن علان الشافعي[٤]: «والحق أن الأعلى ما جمع بين القلب واللسان، ثم اللساني، ثم القلبي، ونفي

---

[١] فتح الباري (٢٠٩/١١).

[٢] الوابل الصيب (ص/٢٢١).

[٣] انظر: مجموع الفتاوى (٥٦٦/١٠)، والاستقامة (١٧/٢)، ومدارج السالكين (٣١٨/٢)، والوابل الصيب (ص/٢٢١)، والفوائد (ص/٢٧٨-٢٧٩).

[٤] هو محمد بن علي بن محمدبن إبراهيم بن علان البكري الصديقي الشافعي الأشعري، من مصنفاته: ضياء السبيل إلى معالم التنزيل، وله شرح رياض الصالحين المسمى - دليل الفالحين، وله شرح الأذكار النووي المسمى-

الثواب فيه من حيث الذكر لا ينافي حصوله من حيث حضور القلب مع الله، والمراقبة والمشاهدة له تعالى، ففيه ثواب، أي ثواب.

وإنما فُضل عليه اللساني لأن في الإتيان به امتثالا لأمر الشارع من حيث الذكر بخلاف ذلك، ألا ترى أن ما تعبدنا به من الذكر لا يحصل إلا بالتلفظ به بحيث يسمع نفسه، بخلاف ما إذ لم يسمع، بأن يأتي به همسا أو بقلبه فقط، فإنه لا يحصل له الامتثال ويقع في لوم الترك، وثواب الحضور إنما هو على جهة أخرى أجنبية عن المأمور به، فتأمل ذلك»[1].

ففُضل ذكر اللسان من ناحية الثواب، فإن الذكر باللسان حتى مع الغفلة عن المعنى يحصل به الثواب، لأن فيه امتثالا لأمر الشارع من حيث الذكر، أما الذكر بالقلب وحده فلا يحصل به الثواب من حيث الذكر، وإن حصل له الثواب العظيم من حيث حضور القلب مع الله والمراقبة والمشاهدة له تعالى.

فالناس في ذكره تبارك وتعالى – بهذا الاعتبار – على أربع درجات:

الدرجة الأولى: من يأتي بالذكر بالقلب واللسان، وهو المأمور به.

الدرجة الثانية: من يأتي بالذكر بالقلب فقط، فإن كان مع عجز اللسان فحسن، وإن كان مع قدرته فترك للأفضل.

الدرجة الثالثة: من يأتي باللسان فقط، وهو كون لسانه رطبا بذكر الله.

الدرجة الرابعة: من يترك الذكر بالقلب واللسان، وهو حال الخاسرين[2].

الفتوحات الربانية وغيرها من الكتب، توفي سنة ١٠٥٧ هـ، انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر- للمحبي (٤/١٨٤).

[1] الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (١/٦٦).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٥٦٦).

المطلب الخامس

الذكر المشروع والمبتدع

من المعلوم أن الذكر من أفضل العبادات، وهو مأمور به شرعاً كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب: ٤١ – ٤٢.

فالمسلم مطالب بذكر الله تعالى في كل وقت، بقلبه، وبلسانه، وبجوارحه، وهذا الذكر من أعظم مظاهر وبراهين التعلق بالله تعالى، ولاسيما أذكار ما بعد الصلاة، وطرفي النهار، والأذكار عند العوارض والأسباب، فإن الذكر عبادة ترفع درجات صاحبها عند الله، وينال بها الأجر العظيم دون مشقة أو تعب وجهد.

لكن ينبغي للمسلم أن يكون في ذكره لله تعالى ملتزماً بحدود الشريعة ونصوصها، وهدي النبي ﷺ، وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وذلك لأن الاتباع شرط لصحة العمل وقبوله عند الله تعالى، كما قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[(١)]، أي باطل مردود على صاحبه.

فلا ينبغي، بل ولا يجوز التقرب إلى الله تعالى إلا بما شرع، وبما بيَّن على لسان رسوله ﷺ، ومن هنا كان لزاماً على المسلم أن يلزم السنة في كل عباداته، وألا يحيد عنها قيد أنملة، وإلا أحبط عمله وأبطله إذا كان مخالفاً هدي رسول الله ﷺ في العمل.

ولهذا فإن المسلم ينبغي له ألا يحدث في ذكره لله شيئا مخالفاً لما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه، وإلا كان مبتدعاً في الدين، محدثاً في العبادة ما ليس منها [(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٤٠)، في كتاب الصلح، ومسلم في صحيحه (ص/٧١٤)، في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكان ورد محدثات الأمور.

(٢) الذكر الجماعي بين الاتباع والابتداع (ص/٨)، للشيخ الدكتور: محمد بن عبد الرحمن الخميس.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لا ريب أن الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنه لسان، ولا يحيط به إنسان، وما سواها من الأذكار قد يكون محرما، وقد يكون مكروها، وقد يكون فيه شرك مما لا يهتدي إليه أكثر الناس وهي جملة يطول تفصيلها، وليس لأحد أن يسن للناس نوعا من الأذكار والأدعية غير المسنونة ويجعلها عبادة راتبة يواظب الناس عليها كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دين لم يأذن الله به»،

ثم قال: «وأما اتخاذ ورد غير شرعي واستنان ذكر غير شرعي فهذا مما ينهى عنه، ومع هذا ففي الأدعية الشرعية والأذكار الشرعية غاية المطالب الصحيحة ونهاية المقاصد العلية، ولا يعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثة المبتدعة إلا جاهل أو مفرط أو متعد»[1].

فالذكر المشروع وهو ذكر الله بالقلب، وتذكر آلائه ونعمائه، وكذلك تذكر بأسه الشديد الذي لا يرد عن القوم المجرمين، وكذلك ذكره باللسان بالأذكار الشرعية الواردة في الكتاب والسنة مع تقييد المقيد منها، بالزمن أو العدد، وإطلاق المطلق عنهما، وذلك وقوفا عند الحد، وتمشيا مع الشرع، فالمشروع من الأذكار لا بد من توفر ثلاثة عناصر:

١- أن يكون بالأسماء الحسنى أو الصفات العليا، أو بما رود في الكتاب والسنة من ألفاظ أخرى[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٥١١).

(٢) أو أن يكون من إنشاء العبد من عند نفسه مع التقيد بمضمون الشرع وضوابطه، وقد ذكر العلماء الضوابط التي يجب توفرها لإنشاء الذكر، وهي:

- أن يكون التوجه فيه إلى الله خالصا من أي شائبة لغيره.
- أن يكون المنشأ متضمنا للثناء على الله بما هو أهله.

٢- أن لا يقيد بقيد لا دليل عليه من الكتاب أو السنة.

٣- أن يطلق المقيد ولا يزاد فيه، ولا ينقص منه.[١]

فالمبتدع من الأذكار هو الذكر الذي لم يتوفر فيه أحد هذه العناصر، وذلك إما بإنشاء أذكار تتضمن صرف حقوق الله من العبادة والتذلل والخضوع إلى غيره، أو تتضمن الكفر بأي وجه كان،

أو تكون أذكارا تتضمن جزءا مما يدخل في حد البدعة، من التعيين والإلزام والحدود، ومن تحديد الكيفية والهيئة، والعدد والأجر[٢].

فالابتداع في الأذكار له أشكال ومظاهر شتى، منه:

١- ذكر الله سبحانه وتعالى بأسماء لم ترد في الكتاب والسنة، مثل قول بعض الصوفية: يا هو، أو لا هو إلا هو.

٢- تقييد الأذكار التي وردت مطلقة بقيود لم ترد في الكتاب والسنة، سواء قيدت بالعدد كأمر بعض المشايخ بالتسبيح كذا مرة، والتهليل كذا مرة، أو بالزمان كأمرهم مريديهم بالذكر في أوقات معينة وعدم تجاوز تلك الأوقات، أو فترة محدودة من اليوم أو الشهر، أو بالهيئة كأمرهم للمريد أن لا يأتي هذا الورد المعين إلا وهو مغمض عينه، أو متحول إلى جهة كذا، أو إلا في خلوة في غرفة مظلمة كاملة الإظلام، أو نحو ذلك.

- أن لا يكون مما يستلزم نقصا في حقه سبحانه بوجه من الوجوه.
- أن تكون ألفاظ ما ينشأ واضحة وبينة.
- أن تكون معاني ما ينشأ جامعة ومانعة وبينة.
- أن يكون الذكر المنشأ مطلقا غير مقيد بزمان ولا مكان ولا هيئة ولا عدد.
- وإذا كان المنشأ دعاء فعلى الداعي أن يجتنب الاعتداء فيه، والاعتداء في الدعاء يكون تارة في كثرة الألفاظ، وتارة في المعاني. انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع، (ص/٨٩-٩٠).

[١] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣٧٥-٣٧٦).

[٢] انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع (ص/٢٢٨-٢٣١).

٣- إطلاق ما ورد مقيدا من الأذكار أو الزيادة عليه، أو النقصان منه، كالزيادة على العدد الوارد في الأحاديث الصحيحة من التسبيح والتحميد والتكبير الوارد عقب الصلوات المفروضة، أو النقص منه، فمن زاد على ذلك أو نقص فقد ابتدع.

٤- الذكر بلفظ الجلالة مفردا (الله)، وهذا مما ابتدعته المتصوفة و لم يأت في الكتاب ولا السنة الصحيحة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن زعم أن هذا[١] من ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر فهم ضالون غالطون»[٢].

فالشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما تاما مفيدا، قال شيخ الإسلام: «أما الاسم المفرد مظهرا أو مضمرا، فليس بكلام تام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطى القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالا نافعا...، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيده بنفسه لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره»، إلى أن قال: «والذكر بالاسم المفرد أبعد عن السنة وأدخل في البدعة، وأقرب إلى إضلال الشيطان»، إلى أن قال: «والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر الله هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمى بالكلام الواحد منه بالكلمة، وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل على الثواب والأجر، والقرب إلى الله، ومعرفته ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية والمقاصد السامية.

وأما الاقتصار على الاسم المفرد مظهرا أو مضمرا فلا أصل له، فضلا عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين، بل هو وسيلة من أنواع البدع والضلالات وذريعة إلى تصورات أحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد»[٣].

---

[١] أي (لاإله إلا الله).

[٢] العبودية (ص/١١٦).

[٣] العبودية (ص/١١٧-١٢٧)، باختصار، وانظر: المجموع (١٠/٥٥٦) وما بعدها.

والحاصل أنه ينبغي على المسلم ألا يحدث في ذكره لله شيئا مخالفاً لما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه، فإن فيه الكفاية والرشد، ومن ابتغى الهدى في غيره كان مبتدعاً في الدين، محدثاً في العبادة ما ليس منها، ومآله إلى الخسران والخذلان.

المطلب السادس

ثمرات الذكر

فلا ريب أن ذكر الله ودعاءه هو خير ما أمضيت فيه الأوقات وصرفت فيه الأنفاس، وأفضل ما تقرب به العبد إلى ربه سبحانه وتعالى، وهو مفتاح لكل خير يناله العبد في الدنيا والآخرة، (فمتى أعطى الله العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله بقي باب الخير مرتجا دونه)[1] [2].

وللذكر ثمرات وفوائد كثيرة، فيما يلي أحاول أن أذكر بعضها[3]:

– إن الإكثار من ذكر الله تعالى من علامات الإيمان به سبحانه، فذكر الله – سواء كان بالقلب أو باللسان – أمان من النفاق، لأن الذي يجر إلى النفاق وغيره من أنواع البعد عن الله إنما هو الغفلة عن الله وترك ذكره، ولهذا قال بعض السلف: «من أكثر ذكر الله برئ من النفاق»[4].

---

(1) الفوائد (ص/١٤١).

(2) فقه الأدعية والأذكار (٧/١)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

(3) ذكر ابن القيم في الوابل الصيب ثلاثة وسبعين فائدة للذكر (ص/٩٤-٢٠٦)، فلتراجع فهي نافعة.

(4) ذكره ابن القيم في الوبل الصيب (١٩٥)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم عن أبي بن كعب (٥١٥/٢)، وأشار إلى وروده مرفوعا عند الطبري بإسناد فيه شيخ الطبري محمد بن سهل العسكري الذي قال فيه الذهبي: راو للموضوعات، انظر: ميزان الاعتدال (١٨٠/٦) للذهبي، وقد ضعفه الألباني في سلسلة الضعيفة (٨٩٠).

قال ابن رجب رحمه الله: «ويشهد لهذا المعنى[١] أن الله تعالى وصف المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلا[٢]، فمن أكثر من ذكر الله فقد باينهم في أوصافهم، ولهذا ختمت سورة المنافقين[٣] بالأمر بذكر الله، وأن لا يلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وأن من ألهاه ذلك من ذكر الله فهو من الخاسرين»[٤].

- إن من ثمرات الذكر وفوائده أنه يورث المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رَحى الدين، ومدار السعادة والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سببا، وجعل سبب المحبة دوام الذكر، فمن أراد أن ينال محبة الله ﷻ فلْيَلْهَج بذكر الله[٥].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا محركات القلوب الثلاثة، وأن أقواها المحبة، لكن في بعض الأحيان، قد لا تكون محبة تبعثه على طلبه محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب، فقال رحمه الله: «يحركها شيئان:

أحدها: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلب به، ولهذا أمر الله ﷻ بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب: ٤١ ــ ٤٢.

---

[١] أي معنى حديث ضعيف أورده، وهو: «من لم يذكر الله فقد برئ من الإيمان»، وقد أخرجه الطبراني في الصغير برقم (٩٧٤)، بنفس الإسناد الوارد في التعليق السابق.

[٢] يشير إلى الآية: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ النساء: ١٤٢.

[٣] يشير إلى الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ المنافقون: ٩.

[٤] جامع العلوم والحكم (٢/٥١٦).

[٥] الوابل الصيب (ص/٩٤).

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف: ٦٩، وقال: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ النحل: ٥٣.

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه، من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة والظاهرة، ومن الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا»[1].

وكذلك حينما جاء في ذكر فوائد إخفاء الدعاء، قال رحمه الله: «وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها[2]، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات... »[3].

- ومن ثمرات الذكر وفوائده، أن بالذكر تحصل طمأنينة القلب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨، فالقلوب المؤمنة بالله المصدقة بوعده ووعيده لا تطمئن ولا تستريح ولا تسكن إلا بذكر ربها، فذكر الله هو غذائها وروحها، وهو الذي يزيل قلقها واضطرابها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله في سياق تقريره أن الله يجب أن يفرد بالمحبة، وأن الله يجب أن يكون محبوبا مرادا لذاته، وأن هذه المحبة محبة مختصة به سبحانه وتعالى على سبيل الخضوع له والتعظيم، يوضح ذلك علاقته بالذكر فيقول: «ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ

---

[1] مجموع الفتاوى (١/٩٥-٩٦).

[2] فقد ذكر رحمه الله عشر فوائد في إخفاء الدعاء، انظر: مجموع الفتاوى (١٥/١٥-٢٠).

[3] مجموع الفتاوى (١٥/٢٠).

تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾، فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره، وهو تعالى إذا ذكر وجلت (أي قلوب العباد)، فحصل لها اضطراب ووجل لما تخافه من دونه، وتخشاه من فوات نصيبها منه، فالوجل إذا ذُكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة، لأنه هو المعبود لذاته، والخير كله منه»[١].

- ومن ثمرات الذكر وفوائده، أنه يورث حياة القلب، يقول ابن القيم رحمه الله سمعت شيخ الإسلام قدس الله روحه يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف كان حال السمك إذا فارق الماء؟!»[٢].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله أيضا: «وهؤلاء[٣] هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، و يكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون»[٤].

- ومن ثمرات الذكر وفوائده، أنه قوت القلوب والروح، فإذا فَقَده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته.

---

[١] كتاب النبوات (٣٧٨/١)، وانظر: التحفة العراقية (ص/٤٢٣-٤٢٤).

[٢] الوابل الصيب (ص/٩٦).

[٣] يريد شيخ الإسلام بهؤلاء: الذين يحبون الله بما له من الأسماء الحسنى و الصفات العليا.
لأن محبة الله قسمان:

القسم الأول: محبة العبد ربه لأجل إحسانه إليه، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والله سبحانه وتعالى هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، ولكن هذه المحبة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه، فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه.

القسم الثاني: محبة العبد لربه لما هو أهل له، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وهي محبة الله لما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا.

[٤] التحفة العراقية (ص/٤٥٢).

يقول ابن القيم رحمه: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغذ هذا الغذاء لسقطت قوتي، أو كلاما قريبا من هذا»[1].

- ومن ثمرات الذكر وفوائده، أنه يورث ذكر الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ البقرة: ١٥٢، يقول ابن القيم رحمه: «ولو لم تكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفا»[2].

قال النبي صلى الله عليه سلم: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم»[3]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فهذا الذكر يختص بمن ذكره، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته، ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ طه: ١٢٤ – ١٢٦»[4].

وخلاصة القول أن القلب لا ينبغي أن يخلو من ذكر الله أبدا، لأن قوام إيمان القلب بذكر الله، ولأن سلو القلب واطمئنانه وراحته فيه، (وهو قوت القلوب الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورا، وهو سلاحهما الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق.

---

[1] الوابل الصيب (ص/٩٦).

[2] نفس المصدر (ص/٩٦).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٧٣)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٧٠)، في كتاب الذكر و الدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى.

[4] مجموع الفتاوى (١٣/١٣٤).

وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا، ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقا، وإذا واطأ ذكر قلبه للسانه، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شي، وكان له عوضا من كل شيء.

وبه يزول الوقْر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه)[1].

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعل ألسنتنا رطبة بذكره، وأن يجعلنا ممن يذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ويدخلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وينجينا من النار، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

[1] مدارج السالكين (٣١٢/٢-٣١٣)، باختصار.

المبحث الثامن عشر: الشكر.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أوجه الشكر.

المطلب الرابع: بعض الفرق أنكرت شكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

المطلب الخامس: ثمرات الشكر.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الشكر في اللغة، من مادة شكر، يشكر، شكرا، وشكورا، وشكرانا، وهو الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف، أو هو الرضا باليسير[1].

قال ابن فارس: «الشين والكاف والراء أصول أربعة متباينة بعيدة القياس. فالأول: الشكر: الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه، ويقال إن حقيقة الشكر الرضا باليسير، يقولون: فرس شَكور، إذا كفاه لسمنه العلف القليل، وينشدون قول الأعشى[2]:

ولا بد من غَزوة في المَصِي :: ـــف رهب تُكِلّ الوقاح الشكورا»[3].

وهذا الأصل الأول هو المقصود في هذا المبحث، أما الأصول الثلاثة الأخر فلا تعلق لها بما نحن في صدده.

والشكر يتعدى باللام، فيقال:شكر له، قال تعالى:﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ البقرة: ١٧٢، وربما تعدى بنفسه فقيل، شكره، ولكن هذا قليل في لغة العرب.

---

(١) انظر: القاموس المحيط (ص/٥٣٧-٥٣٨)، وتهذيب اللغة (10/١٢)، ولسان العرب (١١٥/٨).

(٢) هو ميمون بن قيس بن جندل القيسي، أبو بصير الشاعر المشهور بأعشى قيس، شاعر جاهلي قديم، أدرك الإسلام في آخر عمره ولكنه لم يسلم، انظر ترجمته في الشعر والشعراء (٢٥٧/١).

(٣) معجم مقاييس اللغة (ص/٥١٢)، ثم ذكر ابن فارس المعاني الثلاثة الأخر، وهي:
الثاني: الامتلاء والغرز في الشيء، ومنه شَكِرت الشجرةُ، إذا كثُر فيئُها.
الثالث: الشكير من النبات، وهو الذي ينبت من ساق الشجرة.
الرابع: الشَكر، وهو النكاح، ويقال الفرج.

قال الفراء[(١)]: «والعرب لا تكاد تقول: شكرتك، إنما تقول: شكرت لك، ونصحت لك، ولا يقولون: نصحك»[(٢)].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

اختلفت عبارات السلف في تعريف الشكر تبعاً لتفسيره تارة بأسبابه، وتارة بلازمه، وتارة بثمراته وغير ذلك من متعلقاته، وسبب ذلك -كما أسلفنا - أنه يصعب على المتكلم أن يحد الأعمال القلبية بحد، أو يحصرها بلفظ، فمن تلك التعريفات أن الشكر هو:

- الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.
- الثناء على المحسن بذكر إحسانه.
- عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.
- هو مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة[(٣)].

وقال الجرجاني: «هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع والبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله»[(٤)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الشكر وهو العمل بطاعة الله تعالى»[(٥)].

---

(١) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، أبوزكرياء، المعروف بالفراء: العالم بالنحو واللغة وفنون الأدب. له كتاب: معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، وكتاب اللغات، وغيرها. وكان مع تقدمه في اللغة فقيها متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها، عارفا بالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال. ولد سنة ١٤٤هـ. وتوفي سنة ٢٠٧هـ. انظر: السير (١٠/١١٨)، والأعلام (٨/١٤٥).

(٢) معاني القرآن (١/٧٠).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/١٨١).

(٤) التعريفات (ص/١٣١).

(٥) قاعدة في الصبر (ص/١٠٣).

وبالنظر إلى هذه التعريفات – والتي لم أذكرها - فإنها تشير إلى خمسة أسس للشكر، التي إذا عدم منها واحد، اختل من قواعد الشكر قاعدة، قال ابن القيم رحمه الله: «وحقيقته في العبودية، هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه: شهودا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة.

والشكر مبني على خمسة قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره»[1].

فالشكر إذا ينتظم عمل القلب واللسان وسائر الجوارح، إلا أنه بقي أن أشير إلى مسألة، ألا وهي؛ أن المصائب أيضا داخلة في مفهوم النعم، لأنها لا تخلو من منح إلهية في ثناياها، ولذلك فإن العبد كلما أصيب بمصيبة عليه أن يصبر، وعليه أيضا أن يحمد الله سبحانه وتعالى عليها، ومستوجب الحمد في ذلك ما قاله شريح[2]: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان له فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وأن لا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت»[3].

ويعني بهذا القول أن المصائب الدنيوية التي تصيب الإنسان يجب أن يحمد الله عليها، إذ لم تكن في دينه، وكذلك كان يمكن أن تكون أعظم مما وقعت، كما أنها كان لا بد لها أن تقع، لأنها مقدرة عليه، فلما وقعت استراحت نفسه من طول الانتظار[4].

---

(١) مدارج السالكين (١٨١/٢).

(٢) هو شريح بن الحارث بن قيس بن جهم الكندي، أبو أمية، أسلم في عهد النبي ﷺ ولكنه لم يلقه، ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية، واستعفى في أيام الحجاج فأعفاه، توفي بالكوفة ٧٨ هـ، انظر: أخبار القضاة لوكيع (١٨٩/٢)، طبقات ابن سعد (٢٥٢/٨)، والسير (١٠٠/٤).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (٣٦/٣)، انظر: عدة الصابرين (ص/٢٣٣).

(٤) وقد زاد ابن قدامة على هذه الأسباب سببين اثنين يجعلان العبد شاكرا عند المصيبة، وهما:
الأول: أن هذه المصيبة والعقوبة كان يمكن أن تكون في الآخرة، فلما كانت في الدنيا كانت أخف، فإن مصائب الدنيا يسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة.

والخلاصة أن الشكر هو اعتراف العبد بنعم الله عليه، وثناؤه عليه بها، واستعمالها فيما يرضى، وكذلك الرضا بالقضاء والقدر، وملاحظة المنح الإلهية في المحن والمصائب[1].

المسألة الثالثة: الفرق بين الحمد والشكر.

قبل أن أبين الفرق بين الحمد والشكر، يحسن بنا أن نعرف الحمد حتى نكون على علم ما الذي نبينه، فالحمد هو الثناء على الله بذكر صفاته العظيمة ونعمه العميمة مع حبه وتعظيمه وإجلاله، وهو مختص به سبحانه لا يكون إلا له، فالحمد كله لله رب العالمين[2].

والشكر عرفنا أنه: هو ظهور نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه: شهودا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة.

فالحمد والشكر يجتمعان في أن كلا منهما ثناء على الله سبحانه وتعالى ناشيء عن محبته والخضوع له والانقياد لأمره، كما أن كلا منهما مأمور به، مرغوب إليه.

ولكنهما يفترقان من وجهين:

الأول: أن الحمد ثناء على الله باللسان والقلب، والشكر يكون باللسان والقلب والجوارح.

الثاني: أن الحمد ثناء في مقابل النعم وغيرها من الصفات الحسنة، بينما الشكر لا يكون إلا في مقابل النعم.

فبين الحمد والشكر علاقة عموم وخصوص من وجه،

والثاني: أن العبد إذا وفق للصبر على المصيبة لا شك أن فيه ثوابا جزيلا، فشكر الله على توفيقه لهذه العبادة التي حصل له بها أجر عظيم، انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/٢٩٠).

[1] أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣٣٣).

[2] فقه الأدعية والأذكار (١/٢٣٥)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

فالحمد أعم من حيث السبب الموجب له وهو النعم والصفات الحسنة، وأخص من حيث الأداء وهو اللسان والقلب.

والشكر أخص من حيث الموجب له وهو النعمة فقط، وأعم من حيث الأداة وهي بالقلب واللسان والجوارح[1].

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

فإن الشكر من أعظم خصال الخير التي أمر الله بها في كتابه العظيم، وحث رسوله الكريم ﷺ عليها في سنته المطهرة، وهو من أعلى المنازل، وهو فوق مترلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر[2]، فالعبد في هذه الدنيا بين مصيبة يحتاج إليها إلى الصبر، وبين نعمة يقابلها بالشكر، وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببا لمزيد من فضله، وحارسا وحافظا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسما من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكورا، وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده[3]، وفيما يلي أذكر بعض الأساليب لورود الشكر في نصوص الكتاب والسنة.

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١١/١٣٣-١٣٤)، ومدارج السالكين (٢/١٨٣).

[2] انظر قاعدة في الصبر(ص/٨٩-٩٠).

[3] مدارج السالكين (٢/١٨٠).

المسألة الأولى: الأمر بالشكر، والنهي عن ضده.

إن نعم الله علينا كثيرة لا تعد ولا تحصى كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ إبراهيم: ٣٤، ولذلك يجب علينا أن نشكر الله تعالى على هذه النعم صباح مساء، وأن لا نغفل عن ذلك أبدا حفاظا على هذه النعم وحتى تدوم لنا كما وعد الله من شكر بالزيادة والتعظيم، ومن كفر بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم: ٧ .

ومن أعظم نعم الله علينا أن أرسل إلينا الرسل ليخرجونا من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، وعلى مقدمة هؤلاء الرسل - فضلا وشأنا- نبينا صلوات ربي وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۞ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥١ – ١٥٢، أي كما أرسل إليكم رسولا من جنسكم يتلو عليكم آياته ويعلمكم ما أنزل من الكتاب والحكمة، ويرشدكم إلى ما فيه فلاحكم وتزكيتكم في الدنيا والآخرة، وهذه النعمة تستوجب منكم الشكر لله تعالى، فعليكم لذلك أن تذكروا الله وتشكروا له على هذه النعمة الجليلة التي ليس فوقها نعمة، ولا تقابلوا الإحسان بالإساءة، ولا النعمة بالكفر، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمقصود أنه أمر بذكر النعم وشكرها»[1].

ومن نعم الله على عباده التي تستوجب الشكر هي الطيبات التي أحلها الله لهم في هذه الحياة الدينا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢، يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، فمن تحقيق العبودية لله أن

---

[1] مجموع الفتاوى (١٩٣/١٦).

يصرف جميع أنواع العبادة له، ومنها الشكر، بل العبادة هي شكر الله سبحانه، وجميع أنواعها شكر له، ولهذا يقابل الشكر بالكفر دليلا على أن من لم يشكر فهو كافر، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فأمر بأكل الطيبات والشكر لله، فمن حرم الطيبات كان معتديا، ومن لم يشكر كان مفرطا مضيعا لحق الله»[١].

فالشكر والعبادة متلازمان، فإن عبادة العبد لا تتم إلا بشكر الله،كما أن الشكر لا يتم بدون إخلاص العبادة له وحده دون سواه[٢].

ونظير هذا – أي اقتران الشكر بالعبادة – هو قول الخليل عليه السلام: ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ العنكبوت: ١٧، يذكر الله تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله وتوحيده، وذلك ببيان أن ما يعبدون من دونه أوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فهي لا تملك حتى رزقهم، وفي جهة أخرى فإن الله هو المتفرد بالنفع والضر، وأنه هو المتفرد بالنعم ومنها الرزق، وأنه وحده هو الرزاق، وإذا كان الأمر كذلك فاعبدوه وحده لا شريك له، واشكروه وحده لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها[٣].

والشكر لا يجدي المولى ﷻ لاستغنائه المطلق عن الخلق، وإنما يعود عليهم بالنفع، لإعرابه عن تقديرهم للنعم الإلهية، واستعمالها في طاعته ورضاه، وفي ذلك سعادهم وازدهار حياهم.

---

[١] مجموع الفتاوى (٢٢/٣١٢).

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (٨/٣٣-٣٤).

[٣] انظر: تفسير السعدي (ص/٦٢٨).

لذلك دعت الشريعة الى التخلق بالشكر والتحلي به، وأن تعكس صوره في شتى مجالاته، فكما يكون بالقول فينبغي أن يكون بالفعل أيضا، كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ سبأ: ١٣، فهذه الآية دليل على أن الشكر كما يكون بالقول فإنه يكون بالعمل أيضا[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي وقلنا لهم: اعملوا شكرا على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، وشكرا مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، كما قال شاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة :: يدي ولساني والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن السلمي: "الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر الحمد"»[2]، ولهذا قال شيخ الإسلام:

«الشكر هو العمل بطاعة الله عز وجل».

وقال القرطبي: «فظاهر القرآن والسنة أن الشكر يكون بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان، فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر بالأقوال عمل اللسان»[3].

فالخلاصة من هذه الآيات أن الشكر من أجل الأعمال المأمور بها، ولأهميته قرن بالعبادة في غير ما آي في القرآن، كما فيها النهي عن ضده، وتسمية ذلك الضد كفرا لبيان شناعة جرم من لا يشكر الله على آلائه ونعمائه.

---

(1) مجموع الفتاوى (١١/١٣٤).

(2) تفسير ابن كثير (٣/٦٩٢).

(3) تفسير القرطبي (١٧/٢٧٩).

المسألة الثانية: الثناء على أهله، ووصف خواصه به.

لدى استعراضنا لبعض نصوص الكتاب والسنة، نجد أن الشكر لله تعالى من أهم السمات التي اتصف بها خواص أوليائه، من الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباد الله، وإليكم بعض النماذج من شكر بعض الأنبياء:

يقول الله عن عبده الشكور نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ الإسراء: ٣، يقول الله تعالى لذرية من حمله مع نوح مهيجا ومنبها على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم[1]، فـ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾، فجعله كالعلة لما قبله إيذانا بكون الشكر من أعظم أسباب الخير ومن أفضل الطاعات، وحثا لذريته على شكر الله سبحانه[2].

وقد وصف الباري خليله بالشكر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ النحل: ١٢٠ – ١٢١، بعد ما ذكر الله جملة من الصفات الحميدة التي اتصف بها خليله ابراهيم ختمها بوصفه بأنه كان شاكرا لأنعمه عليه، وقد (أخبر عنه سبحانه بأنه أمة، أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانت لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه، ثم ختم هذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله)[3].

وكان سليمان عليه السلام يحمد الله ﷻ أن أنعم عليه ووالديه نعما كثيرة، ومنها النبوة، والحكمة، ومعرفة منطق الطير وغيرها من النعم، ولذلك كان من دعائه: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ

---

[1] انظر: نفسير ابن كثير (٣/٣٧)

[2] انظر: فتح البيان (٧/٣٥٤).

[3] عدة الصابرين (ص/٢٢٣).

أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ النمل: ١٩، أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك، ووفقني أن أعمل عملا تحبه وترضاه، فإذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك[١].

وهذا الوصف الذي وصف به هؤلاء الأنبياء من أعظم ما يوصف به العبد، ولهذا كان رسول الله ﷺ يجدّ ويجتهد في العبادة حتى ينال هذا الوصف، ولم تعرف البشرية في تأريخها الطويل كله من كان يتجه إلى الله تبارك وتعالى بالثناء الجميل والحمد الوفير والشكر الجزيل مثل ما كان يفعله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان عليه الصلاة والسلام يشكر ربه ويثني عليه حتى تتورم قدماه، وكانت عائشة رضي الله عنها تشفق عليه وتسأله؛ أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول لها: «أفلا أكون عبدا شكورا»[٢].

والحديث يطول عن شكره عليه الصلاه والسلام خاصة، وشكر الأنبياء من قبله عامة، وقد كان هذا هو منهج الخلفاء الراشدين، يعرف ذلك كل من يرجع إلى سيرهم الحميدة، وكذلك كان شأن بقية الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

المسألة الثالثة: بيان متعلق الشكر، وأنه النعم.

سبق لنا – في تقرير الفرق بين الحمد والشكر– أن قلنا أن بينهما عموما وخصوصا، وقلنا أن الحمد موجبه المحاسن والإحسان، أما الشكر فموجبه هو الإحسان فقط، مما يبين أن متعلق الشكر هو النعم الكثيرة التي منّ الله بها على عباده، وعلى مقدمة هذه النعم لا شك هدايته للخلق إلى الإيمان به والإسلام له، ثم باقي النعم المتوالية التي يمنّ الله بها على من يشاء.

---

[١] انظر: تفسير ابن كثير (٤٧٤/٣).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٨٥٦)، في كتاب التفسير، ومسلم في صحيحه (ص/١١٣٤)، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الإكثار من الأعمال والاجتهاد في العبادة.

فتذكّر هذه النعم تحرك النفوس نحو محبة الله[1] والاعتراف بربوبيته وألوهيته، مما يوجب على المخلوق شكر الخالق والإيمان به، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إنه إذا تذكر أنه مخلوق وأن الله خالقه، وليس له إلها وربا كما ذكر، وذكر إحسان الله إليه، فهذا التذكر يدعوه إلى اعترافه بربوبية الله وتوحيده وإنعامه عليه، فيقتضي الإيمان والشكر»[2].

فالتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره، ومنه ذكر نعم الله على العبيد التي يليه شكره عليها الذي هو الغاية المقصودة من ورائها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والتذكر اسم جامع لكل ما أمر الله بتذكره، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ فاطر: ٣٧، أي قامت الحجة عليكم بالنذير الذي جاءكم، وبتعميركم عمرا يتسع للتذكر.

وقد أمر سبحانه بذكر نعمه في غير موضع، كقوله: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ البقرة: ٢٣١.

والمطلوب بذكرها شكرها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۞ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥٠ – ١٥٢»[3].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٩٦/١).

[2] مجموع الفتاوى (١٧٩/١٦).

[3] نفس المصدر (١٨٨/١٦-١٨٩).

والناظر في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يتبين له أن الله أمر بتذكر أنواع النعم التي أنعم بها عليهم يكون ذلك مقتضيا لشكره وعبادته، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل: ٧٨، يذكر الله بدء خلق الإنسان وأنه أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا، فركب فيه هذه الحواس لتكون وسيلة للإدراك، وخص هذه الثلاثة لأنها أمهات ما ينال به العلم، وكل ذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله.

فينظر الواحد في نعمة واحدة من هذه النعم الثلاث، وهي- مثلا - نعمة الإبصار، سواء بواسطة حاسة البصر الخارجية التي هي العين، أو الحاسة الداخلية التي هي القلب، فهذه النعمة التي يتمتع كل إنسان سوي، لو قام العبد عمره كله في شكرها لم يتمكن من ذلك، فكيف بالثلاث التي قال فيها شيخ الإسلام: «ثم هذه الأعضاء الثلاثة هي أمهات ما ينال به العلم ويدرك، أعني العلم الذي يمتاز به البشر عن سائر الحيوانات دون ما يشاركها فيه، من الشم والذوق واللمس، وهنا يدرك به ما يحب ويكره، وما يميز به من يحسن إليه ومن يسيء إليه إلى غير ذلك»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ القصص: ٧٣، وهنا يذكر الله نعمة أخرى هي من أعظم النعم التي تدعو إلى شكر الله والقيام بعبوديته، وهي نعمة الليل التي جعلها ليسكن فيها العباد ويستريحوا، ونعمة النهار التي جعلها ليشتغلوا فيه بما يعود إليهم بالنفع العاجل والآجل.

وهذه النعم التي مرّ ذكرها يشترك فيها المؤمن والكافر، لكن الله خص المسلمين ببعض النعم خالصة لهم دون غيرهم، ومن هذه النعم ما قال تعالى في شأن المهاجرين: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟

---

[1] مجموع الفتاوى (٩/٣٠٩-٣١٠).

إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ الأنفال: ٢٦، أي يقول تعالى ممتنا على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة، اذكروا حالكم قبل ذلك حين كنتم في مكة مستضعفين مقهورين تحت حكم غيركم، تخافون أن ينال منكم كل لحظة، فمن الله عليكم أن جعل لكم بلدا تأوون إليه وهي المدينة، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء، فكل هذا أن يتذكروها دائما، ويشكروا الله عليها أبدا[1].

فالحاصل أن هذه الآيات وأمثالها تذكرنا أن متعلق الشكر هو النعم، وأن نعمه علينا كثيرة، وأن علينا أن نشكر الله فيها، ونزداد من العمل بما يرضيه عنا.

المسألة الرابعة: مقابلة الشكر بالكفر.

إن الله أنعم علينا بنعم كثيرة تستوجب علينا القيام بالشكر لله ﷻ وعدم مقابلتها بالكفران، لأن الله سبحانه وتعالى (قد ذم من كفر بعد إيمانه كما قال: ﴿ **قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ الأنعام: ٦٣، فهذا في كشف الضر، وفي النعم قال: ﴿ **وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ** ﴾ الواقعة: ٨٢، أي:شكركم، وشكر ما رزقكم الله، ونصيبكم تجعلونه تكذيبا وهو الاستسقاء بالأنواء، كما ثبت في حديث ابن عباس الصحيح قال: «مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: "أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر"، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ** ﴾ الواقعة: ٧٥ حتى بلغ:

[1] انظر: تفسير السعدي (ص/٣١٩).

﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢»[1] [2].

فالشكر بالمعنى الخاص هو الشكر على نعم مخصوصة دنيوية، فإن الكفر المقابل لها هو كفر تلك النعم، أو جحدها وعدم استعمالها في طاعة الله، فمن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ النمل: ٤٠، يخبر الله عن قصة سليمان، حيث مكنه الله من أن يأتي عرش ملكة سبأ قبل وصولها هي إليه مسلمة مطيعة، فلما رأى سليمان تمكنه من ذلك قال: ﴿ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ﴾ أي هذا الذي حصل لي – والذي يستحيل في العادة – من فضل ربي ليختبرني بذلك ، أأشكر الله وأعترف بأنه من فضله من غير حول مني ولا قوة وأقوم بحقه، أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به، أو بأن أثبت لنفسي فعلا وتصرفا في ذلك، ولا شك أن سليمان عليه السلام قام بشكر هذه النعمة، ثم بين سبحانه وتعالى أن العباد سواء أشكروا على النعمة أم كفروها فإن نفع الشكر وضر الكفر راجعان على العباد أنفسهم، لأن الله غني عن عباده، لا تنفعه طاعة المطيع،كما لا تضره معصية العاصي.

أما إن جعلنا الشكر بمعناه العام الذي هو الشكر لله ﷻ على جميع نعمه – وفي مقدمتها نعمة الخلق والهداية إلى الإيمان به –، فالكفر المقابل لها هو الكفر المخرج من الملة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ الزمر: ٧، يقول تبارك وتعالى مخبرا عن نفسه المقدسة أنه الغني عما سواه من المخلوقات لا يضره كفر البشر، كما لا ينتفع بطاعاتهم، ولكن أمره ونهيه لهم محض فضل

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٦٧)، في كتاب الاستسقاء، ومسلم في صحيحه (ص/٥٩)، في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

[2] مجموع الفتاوى (٨/٣٣-٣٤).

وإحسان، ولكمال إحسانه بهم لا يرضى لعباده أن يكفروا، أي لا يحبه ولا يأمر به، لكن إن شكروه بتوحيده وإخلاص الدين له، يحبه لهم ويزدهم من فضله[١].

أما الحديث الذي أورده شيخ الإسلام، والذي بسببه نزل قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ الواقعة: ٨٢، فمحتمل للكفرين، كفر النعمة والكفر المخرج من الملة، لأن الاستسقاء نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر، إذ لا خالق إلا الله.

والثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك، المنزل له، إلا أنه سبحانه وتعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم[٢].

قال ابن قتيبة[٣] رحمه الله: «كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء: إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفرا، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعا في ذلك فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة، فليس بشرك، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة، لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر على المعنيين»[٤].

على كل حال، فإن النعم كثيرة، فمنها نعم دينية - وهي أعظمها - ومنها دنيوية، فمن النعم الدينية الهداية للإيمان بالله والإستسلام له، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، فشكر هذه النعم واجب، والكفر بها لا شك أنه كفر أكبر.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٦١)، وتفسير السعدي (ص/٧١٩-٧٢٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/٣٩٠).

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل: المروزي. من تصانيفه: غريب القرآن، وغريب الحديث، ومشكل القرآن، ومشكل الحديث، وكتاب الرد على من يقول بخلق القرآن، وغيرها. ولد سنة ٢١٣هـ. وتوفي سنة ٢٧٦هـ. انظر: وفيات الأعيان (٣/٤٢)، والسير (١٣/٢٩٦).

(٤) نقله ابن حجر في الفتح (٢/٥٢٤).

أما النعم الدنيوية، كخلق الشمس والقمر والسحاب والمطر والحيوان والنبات، فإن شكرها واجب أيضا، أما كفرها مراتب، قد يصل أعلاها إلى الكفر الأكبر، وذلك كما لو نسب إيجاد هذه النعم إلى غير الله، أما إذا لم يفعل ذلك لكنه لم يشكر الله عليها ويحمده عليها، فهذا وإن كان يعد كفرا للنعمة فإنه لا ينقل من الملة[1].

المطلب الثالث

أوجه الشكر

ثبت بما سبق أن شكر الله يجب على العباد لنعمه الكثيرة العظيمة السابغة لديهم، ولكن هذا الشكر يتم على وجوه متعددة، فبعضها من اللوازم التي لا تنفك عن الشكر، وبعضها من مكملات الشكر، ومن تلك الأوجه:

١- **الاعتراف بنعم الله سبحانه وتعالى**، وهو الاعتقاد أن الله قد أنعم فأكثر النعم وأجزل العطاء، وأن العبد مهما اجتهد في شكر النعم لن يبلغ شكره مدى النعم التي أنعم الله بها عليه، ولن يتمكن من إعطاء النعم حقها من الشكر، بل إن أقل ما يعتقد أنه نعمة لا يقدر العبد أن يوفيه حقها من الشكر، إذ إن التمكن من الشكر أيضا نعمة ينبغي الشكر عليها[2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله مبينا الفرق بين الحسنات والسيئات، وأن السيئات تضاف إلى النفس، وأنه ليس لها سبب إلا ذنبه الذي هو من نفسه، فانحصرت في نفسه، و(أما ما يصيبه من الخير والنعم: فإنه لا تنحصر أسبابه، لأن ذلك من فضل الله وإحسانه يحصل بعمله وبغير عمله، وعمله نفسه من إنعام الله عليه.

---

[1] انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٣٤٦).

[2] انظر: مدارج السالكين (١٨٧/٢).

وهو سبحانه لا يجزي بقدر العمل بل يضاعفه له، ولا يقدر العبد على ضبط أسبابها لكن يعلم أنها من فضل الله وإنعامه، فيرجع فيها إلى الله، فلا يرجو إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ويعلم أن النعم كلها من الله، وأن كل ما خلقه فهو نعمة كما تقدم، فهو يستحق الشكر المطلق العام التام الذي لا يستحقه غيره...

والمقصود هنا: أنه إذا عرف أن النعم كلها من الله وأنه لا يقدر أن يأتي بها إلا الله، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب السيئات إلا هو، وأنه ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ فاطر: ٢، صار توكله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده.

وكذلك إذا علم ما يستحقه الله من الشكر – الذي لا يستحقه غيره – صار علمه بأن الحسنات من الله: يوجب له الصدق في شكر الله والتوكل عليه)[1].

٢- الاستدلال بالنعم على المنعم جل وعلا، وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في غير ما آية من الكتاب العزيز، حيث أرشد العباد إلى ربهم بواسطة تنبيههم إلى ما أنعم الله به عليهم من النعم الجليلة والآلاء الجسيمة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والمقصود هنا: أنه سبحانه عدل لا يظلم، وعدله إحسان إلى خلقه، فكل ما خلقه فهو إحسان إلى عباده، ولهذا كان مستحقا للحمد على كل حال، ولهذا ذكر في سورة النجم أنواعا من مقدوراته، ثم قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ النجم: ٥٥، فدل على أن هذه الأنعم مثل إهلاك الأمم المكذبة للرسل، فإن في ذلك من الدلالة على قدرته وحكمته ونعمته على المؤمنين ونصره للرسل، وتحقيق ما جاءوا به، وإن السعادة في متابعتهم والشقاوة في مخالفتهم ما هو من أعظم النعم.

وكذلك ما ذكره في سورة الرحمن، وكل مخلوق هو من آلائه من وجوه: منها أنه يستدل به عليه وعلى توحيده وقدرته وغير ذلك، وأنه يحصل به الإيمان والعلم وذكر الرب،

---

[1] مجموع الفتاوى (١٤/٣٣٩-٣٤١).

وهذه النعمة أفضل ما أنعم الله به على عباده في الدنيا، وكل مخلوق يعين عليها ويدل عليها، هذا مع ما في المخلوقات من المنافع لعباده غير الاستدلال بها، فإنه سبحانه يقول: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن: ١٣، لما يذكره ما يذكره من الآية وقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ النجم: ٥٥، والآلاء: هي النعم، والنعم كلها من آياته الدالة على نفسه المقدسة ووحدانيته ونعوته ومعاني أسمائه، فهي آلاء آيات، وكل ما كان من آلائه فهو من آياته وهذا ظاهر، وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه، فإنه يتضمن التعريف والهداية والدلالة على الرب تعالى وقدرته وحكمته ورحمته ودينه، والهدى أفضل النعم»[1].

٣- الثناء على الله ﷻ وحمده، فلسان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله لهج اللسان بحمده والثناء عليه، فشكر القلب يستلزم الشكر باللسان، ومن أفضل الشكر لله باللسان ما كان حمدا لله على النعم بصفة عامة، وعند تجدد كل نعمة بصفة خاصة، وذلك بذكر بعض الأدعية التي تتضمن حمدا لله على هذه النعم، كقوله الحمد لله رب العالمين عقب الانتهاء من الطعام والشراب، ونحوهما من نعم الله الكثيرة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والله سبحانه أمر مع أكل الطيبات بالشكر، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٢، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها"[2]»[3].

---

[1] مجموع الفتاوى (٣١/٨)، وانظر أيضا (٢٠٨/٨-٢٠٩).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٩٤)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب.

[3] قاعدة في المحبة (ص/٢٣٥).

وقد (روي عن النبي ﷺ: أنه كان إذا أتاه الأمر يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أتاه الأمر الذي يسوءه قال: «الحمد لله على كل حال»[1])[2].

٤- إظهار النعمة وعدم كتمانها، ومن إظهارها التحدث بها على سبيل الإخبار لا الافتخار، بل على سبيل الاعتراف بهذه النعمة وشكر الله عليها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١، وفي هذا التحدث المأمور به قولان:

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها، كقول العبد: أنعم الله علي بكذا وكذا.

والثاني: أنه الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة.

وابن القيم بعد ما ساق هذين القولين، قال رحمه الله: «والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما مأمور بشكرها والتحدث بها، وإظهار من شكرها»[3].

ومن إظهار النعمة كذلك أن يرى أثر النعمة على العبد في هيئته ومظهره، وفي ملبسه ومطعمه ومشربه، ولهذا لما رأى رسول الله ﷺ رجلا رث الحال مع كونه غنيا قال له: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[4].

قال شيخ الإسلام رحمه الله مبينا الكلام أن الله يحب الجمال في كل شيء، وأورد بعض الأحاديث في ذلك، ثم ذكر هذا الحديث فقال: «لكن هذا لظهور نعمة الله وما في ذلك من

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٢٧)، في كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، والحاكم في المستدرك (٥٩/٢)، والبيهقي في الشعب (٢١٨/٦)، وقد صحح الحديث الحاكم، وسكت عنه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٦٥).

[2] التحفة العراقية (ص/٣٦١).

[3] مدارج السالكين (١٨٤/٢).

[4] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٩/٣٣)، وأبو داود في سننه (ص/٧٢٧)، في كتاب اللباس، باب في الخُلقان وفي غسل الثوب)، الترمذي في سننه (ص/٦٣١) في كتاب الأدب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في غاية المرام (٧٥).

شكره، وأنه يحب أن يشكر، وذلك لمحبة الجمال»[1]، فتبين أن الله يحب إظهار نعمة الله على العبد لما في ذلك من الشكر المحبوب لله، وكذلك يحب الجمال الذي باقتنائه يظهر أثر نعمة الله، والله أعلم.

٥- **استعمال النعمة في طاعة الله**، والاستعانة بها على مرضاة الله، فإن من كمال الشكر لله هو استعمال النعمة في طاعته ﷻ، وكون الشيء نعمة في ذاته لا يجوز استعماله في المعاصي، يقول شيخ الإسلام رادا على من يستدل من المتصوفة بأن الصوت الحسن نعمة من الله فبالتالي يجوز استعماله على السماع المحدث الصوفي[2]، قال رحمه الله: «كون الشيء نعمة لا يقتضى استباحة استعماله فيما شاء الإنسان من المعاصي، ولا يقتضي إلا حسن استعماله، بل النعم المستعملة في طاعة الله يحمد صاحبها عليها، ويكون ذلك شكرا لله يوجب المزيد من فضله، فهذا يقتضي حسن استعمال الصوت الحسن في قراءة القرآن...

فأما استعمال النعم في المباح المحض فلا يكون طاعة، فكيف في المكروه أو المحرم؟ ولو كان ذلك جائزا لم يكن قربة ولا طاعة إلا بإذن الله، ومن جعله طاعة لله بدون ذلك، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله.

ومعلوم أن القوة نعمة، والجمال نعمة، وغير ذلك من نعم الله التي لا يحصيها إلا هو، فهل يجعل أحد مجرد كون الشيء نعمة دليلا على استحباب إعماله فيما شاء الإنسان؟ أم يؤمر المنعم عليه بألا يستعملها في معصية، ويندب إلى ألا يستعملها إلا في طاعة الله تعالى؟

فالاستدلال بهذا مترلة من استدل بإنعام الله بالسلطان والمال على ما جرت عادة النفوس باستعمال ذلك فيه من الظلم والفواحش ونحو ذلك، فاستعمال الصوت الحسن في

---

[1] الاستقامة (١/٤٢٤).

[2] لأن ذلك يدخل عندهم في باب: التحدث بالنعمة المأمور به.

الأغاني وآلات الملاهي، مثل استعمال الصور الحسنة في الفواحش، واستعمال السلطان بالكبرياء والظلم والعدوان، واستعمال المال في نحو ذلك»[1].

فالمراد هو بيان أن النعم كلها من تمام الشكر لله وهو صرف هذه النعمة في طاعة الله والاستعانة بها على مرضاة الله، وليس الأمر كون الشيء نعمة يجوز استعمالها في معاصي الله، لأن الشكر كما أسلفنا هو العمل بطاعة الله.

المطلب الرابع

بعض الفرق أنكرت شكر الله ﷻ

بعد الانتهاء من عرض بعض المسائل المهمة التي تتعلق بأمر الشكر لله ﷻ، وأنه من أوجب الواجبات، وأنه من شيم أولياء الله المتقين من الأنبياء والمرسلين، وكذلك بينا أن الشكر متعلقه نعم الله الكثيرة، وأن عدم شكر هذه النعم في لغة الشرع يسمى كفرا، ثم بينا الوجوه التي يقع عليها الشكر، وأن بعضها من اللوازم التي لا تنفك عن الشكر، وبعضها من مكملات الشكر،

إلا أن هناك فِرقا - وبعضها تنتسب إلى الإسلام- تنكر شكر الله ﷻ، فبالتالي لا يحمدون الله ولا يشكرونه.

فالمنكرون لشكر الله من الفرق المنتسبة إلى الإسلام القدرية بشقيها الجهمية المجبرة والقدرية النافية، ومن فرق الباطنية باطنية الشيعة والمتصوفة القائلين بوحدة الوجود، أما المنكرون للشكر من غير منتسبي الإسلام فقد ذكر شيخ الإسلام الفلاسفة.

أما ما يتعلق بالقدرية، فينبغي أن نعرف أن الطوائف في باب القدر ما بين غال في إثبات القدر لله إلى حد القول بالجبر ونفي القدرة والإرادة عن العبد وهم الجهمية المجبرة، وما

---

[1] الاستقامة (١/٣٣٢-٣٣٣).

بين مفرط في القدر إلى حد نفي بعضه عن الله وإثباته للعبد وهم المعتزلة ومن وافقهم، أما أهل السنة فهم وسط بين الطائفتين[1].

فالجهمية المجبرة أنكروا الشكر لله من باب نفي الحكمة في أفعال لله، (وحقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا منعم، بل ولا إله يستحق أن يعبد ويحب، بل صدور الإحسان عنه كصدور الإساءة، وإنما هو يفعل بمحض مشيءته، ترجِّح الشيء على مثله لا لمرجِّح، وكل الممكنات عندهم متماثلة، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحسان إليهم، أو يريد فسادهم وهلاكهم وضررهم يقولون هذا كله عنده سواء.

ومعلوم أن الإنعام إنما يكون إنعاما إذا قصد به المنعم نفع المنعم عليه دون إضراره، وأما إذا قصد الأمرين، فهذا ليس جعله منعما مصلحا بأولى من جعله معتديا مفسدا)[2]، فإذا كان الله ليس برحيم ومنعم فعلى أي شيء يحمد ويشكر؟!

أما القدرية النافية فأنكروا الشكر لله ﷻ من باب: أن نعم الله على العبد واجبة عليه، ومن فعل الواجب الذي يستحق غيره عليه لم يستحق الشكر المطلق، وأيضا هداية الناس أو ضلالهم حصل بقدرتهم ومشيءتهم، فإن اهتدوا كان ذلك من أنفسهم و لم تكن نعمة من الله عليهم، فإذا كان الأمر كذلك فعلى أي شيء يشكر![3]

أما الباطنية الشيعة والمتصوفة القائلين بوحدة الوجود، فعندهم الوجود واحد، وجود المخلوق هو وجود الخالق، فيجب أن يكون كل موجود عابدا لنفسه شاكرا لنفسه حامدا لنفسه،

---

(1) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه (ص/٣٠١)، تأليف عبد الرحمن بن صالح المحمود.

(2) رسالة في تحقيق الشكر (١٠٣/١).

(3) نفس المصدر (١٠٣/١-١٠٤).

وابن عربي[1] يجعل الأعيان ثابتة في العدم، وقد صرح بأن الله لم يعط أحدا شيئا، وأن جميع ما للعباد فهو منهم لا منه، **وهو مفتقر إليهم لظهور وجوده في أعيانهم وهم مفتقرون إليه لكون أعيانهم ظهرت في وجوده**، فالرب إن ظهر فهو العبد، والعبد إن بطن فهو الرب، ولهذا قال: لا تحمد ولا تشكر إلا نفسك[2].

أما الفلاسفة: أرسطو واتباعه- عندهم أنه لا يفعل شيئا ولا يريد شيئا ولا يعلم شيئا ولا يخلق شيئا، فعلى أي شيء يشكر، أم على أي شيء يحمد ويعبد؟!![3]

هذه بعض الفرق التي ذكرها شيخ الإسلام أنهم ينكرون الشكر لله ﷻ، ولن أطيل في الرد عليهم، حتى لا يبعد بنا عن موضوع الشكر الذي حوله يدور المبحث، إلا إني أذكر بعض الأدلة من القرآن والسنة استدل بها شيخ الإسلام على أن كل النعم من الله وأنه يجب على العباد الشكر عليها، بدون أن أدخل في تفاصيل كل من هذه الفرق، وقد قال تعالى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ النحل: ٥٣، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية: ١٣، وقال النبي ﷺ: «من قال إذا أصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر ذلك اليوم، ومن قال إذا أمسى: اللهم ما أمسى بي من

---

[1] هو محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي ابن عربي، نزيل دمشق، صاحب التواليف الكثيرة، قال الذهبي: «ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص، فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر»، نسأل الله العفو والنجاة. توفي سنة ٦٣٨هـ. انظر: السير (٤٨/٢٣).

[2] رسالة في تحقيق الشكر (١/١٠٤-١٠٥).

[3] نفس المصدر (١/١٠٤).

نعمة أو بأحد من خلقك، فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر تلك الليلة»[1].

المطلب الخامس

ثمرات الشكر

إن موقع الشكر من الإيمان عظيم، لا يقل مكانة عن مقام الصبر الذي وصف أنه نصف الإيمان كما قال عبد الله بن مسعود: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر»[2]، والملاحظ أن هناك تلازما بين الصبر والشكر، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر على المعصية، وقال بعض الأئمة: الصبر يلتزم الشكر ولا يتم إلا به، و بالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، ومن كان في نعمة ففرضها الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه الصبر والشكر، أما الصبر فواضح، أما الشكر فالقيام بحق الله في تلك البلية، فإن لله على العبد عبودية في البلاء، كما له عبودية في النعماء»[3].

الشكر لله في أعلى مراتب الإيمان، فلا يناله إلا القليل، قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ سبأ: ١٣، ومرتبته فوق مرتبة الصبر والرضا، فالشاكر لم يقتصر على مجرد سكون القلب والجوارح عن الشكوى مع حركاتها به، أو رضا القلب وبروده به، بل تجاوز هذين إلى ملاحظة النعم في جميع ما يجري عليه في هذه الحياة، فزاد على الصبر عليها والرضا بها الشكر

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه (ص/٩١٦)، في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، وهو في الأذكار للنووي (ص/١٠٨)، وقال: إن إسناده جيد، وقد ضعف الحديث الألباني في الكلم الطيب (٢٦).

[2] سبق تخريجه ().

[3] فتح الباري (١١/٣٠٥)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٤/٣٠٥-٣٠٦).

لله والثناء عليه وحمده عليها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال... »[1].

فيجب علينا أن نشكر الله تعالى على النعم صباح مساء، وأن لا نغفل عن ذلك أبدا حفاظا على هذه النعم وحتى تدوم لنا كما وعد الله من شكر بالزيادة والتعظيم، ومن كفر بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم: ٧ ، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالشكر قيد النعم وهو موجب للمزيد، والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد»[2].

فمن قام بشكر الله تعالى فذلك الذي يحبه الله ويرضاه، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ الزمر: ٧، فيرضى سبحانه عن أعماله ويرضى عنه، ورضا الله عن العبد في الدنيا يترتب عليه رضاه عنه في الآخرة، ودخوله الجنة التي أعدها لأوليائه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «علق الرضا بشكرهم وجعله مجزوما جزاء له، وجزاء الشرط لا يكون إلا بعده»[3].

ولأهمية الشكر وعظيم مقامه، فإن العبد مهما شكر الله فهو مقصر في حق الله، لأن الله تعالى قال: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ إبراهيم: ٣٤، قال الحليمي[4] رحمه الله بعد أن تكلم عن أهمية الشكر: «وقد ثبت بجميع ما كتبناه، وما عسى سهونا عنه فلم نكتبه وجوب

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٢٥٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٢٢٦).

(٤) هو الحسين بن محمد بن حليم البخاري، المرجاني، أبو عبد الله، ولد سنة ٣٣٨ هـ، كان من فقهاء الشافعية، كان رئيس أهل الحديث فيما رواء النهر، له: المنهاج في شعب الإيمان، توفي سنة ٤٠٣ هـ، انظر: السير (١٧/٢٣١)، وشذرات الذهب (٥/١٩)، والأعلام (٢/٢٣٥).

شكر الله تعالى على العباد لنعمه الكثيرة العظيمة السابغة لديهم، ولا شك أنها إذا كثرت وفاتها الإحصاء لم يتوصل إلى شكرها إلا بذكرها ودراستها وعرضها على القلوب عند الغفلة»[1].

فأسأل الله العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه، المثنين بها عليه، فإنه سميع قريب وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[1] المنهاج (٢/٥٤٥).

المبحث التاسع عشر: الحياء.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الحياء.

المطلب الرابع: ثمرات الحياء.

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الحياء: أصله من حيِي يحيَى فهو حيي، على وزن فعيل، ويؤنث على حيية.

يُقال: استحياه واستحيا منه، ويقال: استحيت، بياءٍ واحدة وأصله استحييت، فأعلوا الياء الأولى وألقوا حركتها على الحاء، فقالوا: استحيت، لما كثر في كلامهم. وقال الأخفش: يتعدى بنفسه وبالحرف، فيقال: استحيا منك، واستحياك، واستحى منك، واستحاك، واستحييت منه، واستحييته، واستحيا منه، وقيل هما لغتان:

الأولى: أستحي بياءٍ واحدة لغة تميم، وإنما حذفوا الياء لكثرة استعمالهم لهذه الكلمة كما قالوا: لا أدرِ، في لا أدري .

الثانية: بياءين لغة أهل الحجاز وبها جاء القرآن وهي الأصل[1].

والحياء يرجع في الأصل إلى معنيين، كما قال ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر: الاستحياء الذي ضد الوقاحة».

وقال في تعليل ذلك: «والأصل الآخر: قولهم استحييت منها استحياء، وقال أبو زيد: حييت منه أحيا، إذا استحييت»[2].

والحياء: هو الانقباض والانزواء، وهو انقباض النفس عن القبائح وتركها لها.

وجاء في الموسوعة الفقهية: «الحياء لغةً مصدر حيي، وهو: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم» [3].

---

[1] انظر: لسان العرب (٤/٢٩٦-٢٩٧).

[2] معجم مقاييس اللغة (ص/٢٧١-٢٧٢).

[3] الموسوعة الفقهية (١٨/٢٥٩)، إصدار: وزارة الأوقاف والشيءون الإسلامية بالكويت.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

وردت في تعريف الحياء عبارات كثيرة ولكنها في العموم متقاربة المعنى، ومما عرف به الحياء شرعا:

قال الجرجاني: «الحياء: انقباض النفس من شيء وتركه حذرا عن اللوم فيه»[١].

وقال الجنيد: «الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء»[٢].

وقيل: «الحياء حالة حاصلة بين امتزاج التعظيم بالمودة، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياء»[٣].

وعرفه ابن حجر رحمه الله بقوله: «هو خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق»[٤].

وجاء في الموسوعة الفقهية: «وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح من الأفعال والأقوال، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق»[٥].

ونخلص من خلال هذه التعريفات أن الحياء: هو ذلك الوازع الديني في القلب المركب من الحب والتعظيم لله سبحانه الذي يحمل على ترك ما يستقبح شرعا أو عقلا من الصفات والأفعال والأقوال، ويمنع من التقصير في حق الله المتفضل المنعم سبحانه، والتقصير في حق ذي الحق.

وكما سبق في التعريف اللغوي للحياء أن أصله يرجع إلى معنيين: أحدهما خلاف الموت، والآخر: الاستحياء الذي ضد الوقاحة، فقد بين شيخ الإسلام العلاقة بين هذين

---

(١) التعريفات (ص/٩٩).

(٢) مدارج السالكين (١٩٢/٢).

(٣) نفس المصدر (١٩٦/٢).

(٤) فتح الباري (٥٢/١).

(٥) الموسوعة الفقهية (٢٥٩/١٨).

الأصلين، فقال رحمه الله: «الحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: "الحياء من الإيمان"[١]، وقال: "الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق"[٢]... »[٣].

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

الحياء خلق عظيم جاء به الشرع، وهو من الأخلاق الرفيعة التي أمر بها الإسلام، وأقرها، ورغب فيها، لذلك قال ﷺ: «إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء»[٤]، فإن كان على كل دين من الأديان سمة تتميز بها، فالإسلام دين الخلق الحسن، ويأتي على رأس الأخلاق الحسنة فيه الحياء.

ويبين أهمية الحياء ومترلته من الدين أن رسول الله ﷺ جعله من الإيمان، وكلما ازداد منه صاحبه ازداد إيمانه ، قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧)، في كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٨)، في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

[٢] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٤٥٨)، في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في العي، وقال الترمذي: «**هذا حديث حسن غريب..، والعِي قلة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسعون في الكلام ويتفصحون فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله**»، وقد صحح الحديث الألباني في كتاب الإيمان لابن أبي شيبة (١١٨).

[٣] مجموع الفتاوى (١٠/١٠٩).

[٤] أخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٩٥)، في كتاب الزهد، باب الحياء، ومالك في الموطأ (٢/٧٦)، كتاب الجامع، باب ماجاء في الحياء، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٤٠).

الإيمان»[1]، والسر في كون الحياء من الإيمان: أن كلا منهما داع إلى الخير مقرب منه، صارف عن الشر مبعد عنه، فالإيمان يبعث المؤمن على فعل الطاعات وترك المعاصي والمنكرات، والحياء يمنع صاحبه من التفريط في حق الرب والتقصير في شكره، ويمنع صاحبه كذلك من فعل القبيح أو قوله اتقاء الذم والملامة.

قال القاضي عياض رحمه الله: «انما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة، لأنه قد يكون تخلقا واكتسابا كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم، فهو من الإيمان بهذا ولكونه باعثا على أفعال البر ومانعا من المعاصي»[2].

ولأهمية الحياء في حياة المسلم وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تستثير في الإنسان بواعث الحياء من الله سبحانه وتعالى ومن خلقه، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ النساء: ١٠٨، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ غافر: ١٩، فيذكّرهم الله بعلمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ولا تحملهم غيبة الناس على ارتكاب ما يستحيون من اطلاع أحد عليه، لأن الله قادر على أن يفضحه على رؤوس الخلائق في الدنيا قبل الآخرة، فاستحضار هذه المعاني يجعل العاقل يكف عن كثير مما يريد الشروع فيه.

فحقيقة الحياء - كما سبق - أنه خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق، والحياء يكون بين العبد وبين ربه ﷻ فيستحي العبد من ربه أن يراه على

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٤٨)، في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان .

[2] إكمال المعلم (١/٢٧٣).

معصيته ومخالفته، وهو أعلى درجات الحياء فيستحي من ربه أن يجده حيث نهاه، وهذا الحياء الذي بين العبد وربه قد بين في الحديث الذي رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ مرفوعا: «استحيوا من الله حق الحياء». قال: قلنا: إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[1]، فقد بيّن في هذا الحديث علامات الحياء من الله ﷻ أنها تكون بحفظ الجوارح عن معاصي الله، وبتذكر الموت، وتقصير الأمل في الدنيا، وعدم الانشغال عن الآخرة بملاذ الشهوات والانسياق وراء الدنيا.

فالحياء ملازم للعبد المؤمن كالظل لصاحبه، لأنه جزء من عقيدته وإيمانه، بل كلمة الأنبياء قد أجمعت على اعتبار الحياء من أهم الوسائل لردع النفوس عن ارتكاب الفواحش والمنكرات، قال النبي ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شيءت»[2].والحديث لفظه أمر ومعناه توبيخ وتهديد. وهذا الحديث له تأويلان:

أحدهما: - وهو المشهور-: أي إذا لم تستح من العيب، ولم تخش العار مما تفعله، فافعل ما تحدثك به نفسك من أغراضها حسنا كان أو قبيحا، ولفظه أمر، ومعناه توبيخ وتهديد، وفيه إشعار بأن الذي يردع الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء، فإذا انخلع منه كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة وتعاطي كل سيئة.

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٥٤) في كتاب صفة القيامة، والإمام أحمد في المسند (١٨٧/٦)، والحاكم في المستدرك (٢٤٢/٥) في كتاب الرقاق، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد حسن الحديث الألباني في المشكاة (١٦٠٨).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٧)، في كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شيءت.

والثاني: أن يحمل الأمر على بابه، يقول: إذا كنت في فعلك آمنا أن تستحيي منه لجريك فيه على سنن الصواب، وليس من الأفعال التي يستحيا منها فاصنع ما شيءت[1]، وكلا القولين حسن والأول أشبه، لأن الكلام خرج من النبي ﷺ مخرج الذم لا مخرج المدح[2].

ومن هنا كان الحياء خيرا ولا يأتي إلا بالخير فهو مادة الخير بل الخير كله، لذا قال النبي ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[3]، وقال ﷺ: «الحياء خير كله»، وفي رواية أخرى: «الحياء كله خير»[4].

وليس من الحياء أن يمتنع الإنسان من السؤال عن أمور دينه، فالحياء يبعث على الخير ولا يصد عنه، وليس من الحياء أن يسكت الإنسان على الباطل، وليس منه أن تعطل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا جبن وخور وضعف، وليس من الحياء في شيء، قال النووي رحمه الله: «وأما كون الحياء خيرا كله، ولا يأتي إلا بخير، فقد يشكل على بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد يستحى أن يواجه بالحق من يجله، فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف في العادة، وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الائمة، منهم الشيخ أبوعمرو بن الصلاح[5] رحمه الله: أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٤٧٠-٤٧١)، بتصرف.

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٦)، في كتاب الأدب، باب الحياء، ومسلم في صحيحه (ص/٤٨)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٨)، كتاب الإيمان، باب بيان شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان.

(٥) هو الإمام الحافظ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري الشافعي أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، من مؤلفاته: علوم الحديث المعروف بـــ مقدمة ابن صلاح، والفتاوى وغيرها، توفي سنة ٦٤٣هـــ، انظر: تذكرة الحفاظ (٤/١٤٣٠)، وطبقات الشافعية (٨/٣٢٦)، والأعلام (٤/٣٦٩).

حياء من إطلاق بعض أهل العرف، أطلقوه مجازا لمشابهته الحياء الحقيقي، وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق»[1].

وقال ابن حجر رحمه الله: «قلت: و يحتمل: أن يكون أشير إلى أن من كان الحياء من خلقه أن الخير يكون فيه أغلب، فيضمحل ما لعله يقع منه مما ذكر في جنب ما يحصل له بالحياء من الخير، أو لكونه إذا صار عادة تخلق به صاحبه يكون سببا لجلب الخير إليه فيكون منه الخير بالذات والسبب» [2].

ونخلص من هذا العرض السريع لمعاني هذه النصوص إلى أن الحياء شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وأنه الحائل بين الإنسان وبين ارتكاب كثير من المعاصي، وأنه الباعث على فعل الطاعات، كما نخلص إلى أن الحياء هو ما حجز الإنسان عن فعل ما يذم عليه شرعا أو عقلا أو عرفا[3].

المطلب الثالث

أقسام الحياء

اختلف أهل العلم رحمهم الله في تقسيم الحياء، فقسموه بعدة اعتبارات، فكل يقسم بما يظهر له من خلال استقرائه للنصوص، وأناسأذكر هنا أقسام الحياء باعتبارين:

أقسام الحياء باعتبار تعلقه بالمستحي، وهو قسمان[1]:

---

[1] شرح صحيح مسلم (٢/٥-٦).

[2] فتح الباري (١٠/٥٢٢).

[3] انظر: الحياء في حياة المسلم (ص/١١-١٥)، تأليف عبدالرحمن بن فؤاد الجار الله، وأعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/٤٣١-٤٣٨).

[1] ذكر هذين القسمين غير واحد من العلماء، منهم أبو حاتم البستي في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص/٤٣)، وابن رجب في فتح الباري (١/٩٤)، وفي جامع العلوم والحكم (١/٥٠١)، والجرجاني في التعريفات (ص/٩٩).

١- **الغريزي**: وهو (خلق يمنحه الله العبد ويجبله عليه، فيكفه عن ارتكاب القبائح والرذائل، ويحثه على فعل الجميل)[1]، و (هو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليه...، فإنه يكف عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على مكارم الأخلاق ومعاليها)[2].

٢- **المكتسب**: وهو (ما كان مكتسبا من معرفة الله ومعرفة عظمته وقربه من عباده واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهذا من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان)[3].

وقال القرطبي: «وكان النبي ﷺ قد جمع له النوعان من الحياء: المكتسب، والغريزي، وكان في الغريزي أشدَّ حياء من العذراء في خدرها، وكان في المكتسب في الذروة العليا ﷺ»[4].

وأقسام الحياء باعتبار تعلقه بالمستحى منه، وهو أربعة أقسام:

١- **الحياء من الله**، وهو أعظم الحياء، ويكون بأن لا يقابل العبد إحسان الله ونعمته بالإساءة والكفر والجحود والطغيان، وأن لا يتضجر عند البلاء فينسى قديم إحسانه ومنته ورحمته به، وأن يلتزم أوامره سبحانه وتعالى ونواهيه، وأن يخاف منه حق الخوف، ولا يتولد هذا الحياء إلا حين يطالع العبد نعم الله عليه، ويتفكر فيها، ويدرك تمامها وشمولها، ثم يراجع نفسه بعد ذلك ويحاسبها على الخلل والزلل والتقصير، قال النبي ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء. قال: قلنا: إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٩٤/١).

(٢) جامع العلوم والحكم (٥٠١/١).

(٣) نفس المصدر (٥٠١/١).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢١٩/١).

أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[1].

فالحياء من الله يكون بترك نواهيه وامتثال أوامره، فلا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، وذلك أن الحياء لما كان خوف المذمة فإن المذمة من الله ﷻ فوق كل مذمة، والمدح منه فوق كل مدح، فالاستحياء منه سبحانه هو طريق الاستقامة على دينه، وهو من أقوى البواعث على الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، والذي لا يستحي من ربه أحرى أن لا يستحي من غيره.

٢- الحياء من الملائكة، من المعلوم أن الله قد جعل معنا ملائكة يتعاقبون علينا بالليل والنهار، وهناك ملائكة يصاحبون أهل الطاعات، كالخارج في طلب العلم، والمجتمعين على مجالس الذكر، والزائر للمريض، وغير ذلك.

وأيضاً هناك ملائكة لا يفارقوننا وهم الحفظة والكتبة: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ الانفطار: ١٠ ـ ١١.

فعلى المؤمن إذاً أن يستحي من الملائكة الكرام، فالحياء من الكريم من صفات الكرام، ولا ألأم ممن لا يستحيي من الكريم، ويكون ذلك: بالبعد عن المعاصي والقبائح، وإكرامهم عن مجالس الخنا، وأقوال السوء، والأفعال المذمومة المستقبحة.

٣- الحياء من الناس، فإن العبد إذا استحيا من ربه حقَّ الحياء واستحى من نفسه - كما سيأتي - انعكس ذلك عليه بالتأدب والتخلق بأخلاق النفس الكريمة على ممارساته، وسلوكه اليومي، وعلاقاته مع الناس الآخرين، فيجتنب عمل القبيح أمامهم كما اجتنب القبيح أمام الله، ويكون قريباً من الصدق والاستقامة مع الله ومع النفس ومع الناس.

---

[1] تقدم تخريجه (ص/٦٦٨).

وهذا الحياء قد يلتقي مع الحياء من الله، وذلك لأن صاحبه يستحي من الناس جازما بأنه لا يأتي هذا المنكر والفعل القبيح إلا خوفاً من الله تعالى أولاً، ثم اتقاء ملامة الناس وذمهم ثانياً، فهذا يأخذ أجر حيائه كاملاً لأنه استكمل الحياء من جميع جهاته إذ ترتب عليه الكف عن القبائح التي لا يرضاها الدين والشرع ويذمه عليها الخلق.

٤- الحياء من النفس، وهو حياء النفوس العزيزة من أن ترضى لنفسها بالنقص أو تقنع بالدون.

ويكون هذا الحياء بالعفة وصيانة الخلوات وحسن السريرة، فيجد العبد المؤمن نفسه تستحي من نفسه حتى كأن له نفسين تستحي إحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحيا، فإن العبد إذا استحى من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر[(١)].

المطلب الرابع

ثمرات الحياء

الحياء علامة تدل على ما في النفس من الخير، وهو أمارة صادقة على طبيعة الإنسان فيكشف عن مقدار بيانه وأدبه، فعندما ترى إنساناً يشمئز ويتحرج عن فعل ما لا ينبغي فاعلم أن فيه خيرا وإيماناً بقدر ما فيه من ترك للقبائح.

فالحياء سبب كل خيرٍ، وعمدة كل فضيلة: فقد قال علي ﵁: «والحياء سببٌ إلى كلِّ جميل»[(١)].

---

(١) مدراج السالكين (٢/١٩٥).

(١) إحياء علوم الدين (٥/١٣٩).

وقال أبو حاتم[1] رحمه الله: «إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان على الناس ومقت، ومن مقت أوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن فقد عقله، ومن أصيب في عقله كان أكثر قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له»، وقال: «وإن من أعظم بركته تعويد النفس ركوب الخصال المحمودة ومجانبتها الخلال المذمومة»[2].

فالحياء هو خلق الإسلام الذي يتميز به أهله، وهو خير كله، ولا يجلب لصاحبه إلا الخير، ومن هنا كان شعبة من أهم شعب الإيمان، لأنه دافع إلى فعل الطاعات، وزاجر عن اقتراف المنكرات، فمن لا حياء له لا إيمان له، و من قوي حياؤه قوي إيمانه، وإذا ضعف الحياء كان دليلا على ضعف الإيمان.

قال المناوي في شرح الحديث: "الحياء من الإيمان": «أي من أسباب أصل الإيمان وأخلاق أهله، لمنعه من الفواحش، وحمله على البر والخير... »، وقال: «الحياء والإيمان مقرونان لا يفترقان إلا جميعاً، أي: كأنهما رضيعا لبان ثدي، أو تقاسما أن لا يفترقا»، وقال: «لأن من استحيا من الناس أن يروه يفعل قبحاً، دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد فلا يهمل فرضاً ولا يعمل ذنباً، قال بعضهم: الحياء دليل الدين الصحيح، وشاهد الفضل الصريح، وسمة الصلاح الشامل، وعنوان الفلاح الكامل، من كان فيه نظم قلائد المحامد، ونسق وجمع من خلال الكمال ما افترق»[3].

---

[1] هو محمد بن أحمد، أبو حاتم البستي، من الحفاظ المتقنين الأئمة الأعلام، صاحب الكتب المشهورة، من تصانيفه: المسند الصحيح المعروف بـــ التقاسم والأنواع، والثقات، ومعرفة المجروحين وغيرها، ولد سنة بضع وسبعين ومائتين، وتوفي سنة ٣٥٤ هـــ. انظر: السير (٩٢/١٦)، وطبقات الشافعية (٣ /١٣١).

[2] روضة العقلاء (ص/٤٤-٤٥).

[3] الفيض القدير شرح الجامع الصغير (٥٦٥/٣-٥٦٦).

فالقلب الحي لا بد أن يكون حييا، وإلا دل على موت القلب الذي هو أشد من موت الجسد، (فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «الحياء من الإيمان»

فإن الحي يدفع ما يؤذيه، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحا، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحا يابسا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضرة.

ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح، بخلاف الوقح الذي ليس بحي فلا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك، فالقلب إذا كان حيا فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن، ليس هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ١٥٤)[1].

فأسأل الله العزيز القدير ذا العرش المجيد أن يعصمنا من القبائح، وأن يستر عوراتنا ويغفر زلاتنا، ويقينا شر أنفسنا وشر الشيطان وشركه.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/١٠٩-١١٠).

الفصل الثاني: تفاضل أعمال القلوب، وأسبابه، ودرجات الناس فيها.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تفاضل أعمال القلوب.

المبحث الثاني: أسباب تفاضل أعمال القلوب.

المبحث الثالث: درجات الناس في أعمال القلوب.

المبحث الأول: تفاضل أعمال القلوب.

التمهيد

تعريف التفاضل

إن من القواعد المقررة والأصول المعتبرة عند أهل السنة أن الإيمان مركب من شعب وأجزاء، وأن هذه الشعب ليست على درجة واحدة، بل هي تتفاوت وتتفاضل كما أخبر بذلك أعلم الخلق ﷺ في حديث شعب الإيمان، فكل شعبة منها تسمى إيمانا، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتا عظيما، ومنها ما يلحق بشعبة الشهادتين، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى، ويكون إليها أقرب[1].

فالتفاضل يشمل الإيمان والأعمال أيضا، فيتفاضل الإيمان الذي يقوم بالقلب، ويتفاضل ما يقوم به باللسان، ويتفاضل ما يقوم به من الجوارح، وليس الأمركما فهم البعض أن التفاضل إنما هو في الأعمال، وأما الإيمان الذي في القلب فلا يتفاضل.

فإن ما يقوم بالقلب من أحوال وأعمال ومقامات من محبة الله ورسوله، وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر له، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، مما يتفاضل الناس فيها نفاضلا لا يعرف قدره إلا الله ﷻ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره، وإما معاند[2].

---

[1] الصلاة وحكم تاركها (ص/٧٠)، باختصار.

[2] انظر: مجموع الفتاوى (٧/٤٠٧-٤٠٨)

ويبين شيخ الإسلام في معرض كلامه عن زيادة الإيمان ونقصانه، أن ذلك لا يكون في أعمال القلوب فقط، بل التفاضل يكون في التصديق أيضا، يقول رحمه الله: «والعلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه»[(١)].

وقبل أن أشرع في بيان تفاضل ما يقوم بالقلب، أريد أن أعرف التفاضل بإيجاز، فأقول:

التفاضل: من فضل يفضل فضلا، وهو ضد النقص.

قال ابن فارس: «الفاء و الضاد و اللام أصل صحيح يدل على زيادة في شيء، من ذلك الفضل: الزيادة، والخير، والإفضال، والإحسان»[(٢)].

والتفاضل نوعان:

محمود؛ كفضل العلم والحِلم، ومذموم؛ كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفضل في المحمود أكثر استعمالا، والفضول في المذموم.

والتفاضل: اسم مفاعلة من فضل، ومعناه؛ حصول الشيء وتزايده تدريجيا[(٣)].

المقصود بالتفاضل في أعمال القلوب هنا: الزيادة والنقصان، وقد ورد هذا الاستعمال عن السلف، كما قال عبد الله ابن مبارك: «الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل»[(٤)].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٨٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/٨١٩).

(٣) انظر: المفردات (ص/٦٣٩).

(٤) شرح أصول الاعتقاد (١٠٣٣/٥)، انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٤٦)، وأعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (٥٥٢/٢).

المطلب الأول

التفاضل في أقوال القلوب

إن ما يقوم بالقلب من حقيقة الإيمان ينقسم إلى قول القلب المعبر به عند العلماء بالتصديق والاعتقاد، وإلى عمل القلب من المحبة والخوف والرجاء والخشية والإنابة ونحوها، فإذا كان التصديق هو الأصل الذي ينبني عليه جميع شعب الإيمان، وأنه لا يتصور تصديق صحيح خال عن أعمال القلوب، أحببت أن أبين أن التفاضل يدخل حتى في التصديق ليسهل علينا بعد ذلك فهم التفاضل في أعمال القلوب.

فقد بين العلماء رحمهم الله أن التصديق والمعرفة والاعتقاد يتفاضل فيكون بعضه أقوى من بعض وأثبت، وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، فإن الإنسان يجد في نفسه أن علمه يتفاضل كما يتفاضل سمعه للأشياء، ورؤيته وحبه وكراهيته ورضاه وبغضه، وهكذا العلم والتصديق يتفاضل كما يتفاضل سائر صفات الحي من القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وسائر الأعراض.

قال النووي رحمه الله بعد أن ذكر قول من قال إن التصديق لا يزيد ولا ينقص، وأنه متى قبل الزيادة كان شكا وكفرا، قال: « فالأظهر - والله أعلم-، أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك، فهذا مما لا يمكن إنكاره، ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضى الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس»[1].

---

[1] شرح النووي (١/١٤٨-١٤٩).

وقد نقل ابن حجر رحمه الله النص السابق، ثم قال: «ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى أنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقينا وإخلاصا وتوكلا منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها»[1].

ويقول ابن رجب رحمه الله: «والتصديق القائم بالقلب يتفاضل، وهذا هو الصحيح...، فإن التصديق الذي ينجلي الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب ليس كإيمان غيرهم ممن لا يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شكك لدخله الشك»[2].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «إن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه،كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها»[3].

ثم إن من المعلوم أن الناس (يتفاضلون في معرفة الملائكة وصفاتهم والتصديق بهم، فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم، وكذلك إن كانوا يتفاضلون في معرفة روح الإنسان وصفاتها والتصديق بها، أو في معرفة الجن وصفاتهم وفي التصديق بهم، أو في معرفة ما في الآخرة من النعيم والعذاب - كما أخبروا به من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمسكونات - فتفاضلهم في معرفة الله وصفاته والتصديق به أعظم من تفاضلهم في معرفة الروح التي هي النفس الناطقة، ومعرفة ما في الآخرة من النعيم

---

(1) فتح الباري (١/٤٦).

(2) جامع العلوم والحكم (١/١١٣-١١٤).

(3) الإيمان الكبير (ص/١٨٣).

والعذاب، بل إن كانوا متفاضلين في معرفة أبدانهم وصفاتها وصحتها ومرضها وما يتبع ذلك فتفاضلهم في معرفة الله أعظم وأعظم)[(١)].

فاتضح من النقول السابقة أن قول القلب ومعرفته وتصديقه يتفاضل الناس فيه، وذلك من ثلاثة أوجه:

الأول: من حيث كثرة الأدلة وقوتها، أو قلتها وضعفها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن كان مستند تصديقه ومحبته أدلة توجب اليقين، وتبين فساد الشبهة العارضة، لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك، بل من جعل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه الشبه، ويريد إزالتها بالنظر والبحث، ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها، وبفساد الشبه المعارضة لذلك، وبيان بطلان حجة المحتج عليها، ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له، فإن الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله، وقوته وتمامه»[(٢)].

الثاني: من حيث الإجمال والتفصيل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «نفس التصديق والعلم في القلب يتفاضل باعتبار الإجمال والتفصيل، فليس تصديق من صدق الرسولﷺ مجملا من غير معرفة منه بتفاصيل أخباره، كمن عرف ما أخبر به عن الله وأسمائه وصفاته، والجنة والنار والأمم، وصدقه في ذلك كله، وليس من التزم طاعته مجملا ومات قبل أن يعرف تفصيل ما أمره به، كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلا وأطاعه فيه»[(٣)].

والثالث: من حيث التصديق اللازم لعمل القلب أو عدمه.

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/١١٤-١١٥).

(٢) نفس المصدر (ص/١١٠).

(٣) نفس المصدر (ص/١٠٩).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبَب دل على قوة السبب، وهذه الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم»[١].

إذا، التصديق يزيد وينقص من حيث:

أ- كثرة الأدلة وقوتها، أو قلتها وضعفها.

ب- من حيث الإجمال والتفصيل.

ج- من حيث التصديق المستلزم لعمل القلب أو عدمه، والله أعلم[٢].

المطلب الثاني

التفاضل في أعمال القلوب

إن من أوجه زيادة الإيمان ونقصانه هو تفاضله من جهة أعمال القلوب، وهو الأمر الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة[٣] كما دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، بل ذلك من الأمور المعلومة الظاهرة التي يجدها الإنسان من نفسه، (فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، والتوكل

---

[١] الإيمان الكبير (ص/١٨٥).

[٢] انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية (١/٩٢-٩٣)، وأعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (٢/٥٥٣-٥٥٧).

[٣] انظر مجموع الفتاوى (٦/٤٧٩).

عليه، والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء، والكبر، والعجب ونحو ذلك، والرحمة للخلق، والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ التوبة: ٢٤، وقال رسول الله ﷺ: «والله إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»، وقال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، وقال له عمر يا رسول الله: لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، قال: «لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك»، قال: فلأنت أحب إلي من نفسي، قال: «الآن يا عمر»[1].

وهذه الأحاديث ونحوها في الصحاح وفيها بيان تفاضل الحب والخشية، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فإنه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة، ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة ،ولهذا كان أهل المعرفة من أعظم الناس قولا بدخول الزيادة والنقصان فيه لما يجدون من ذلك في أنفسهم، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣، وإنما زادهم طمأنينة وسكونا، وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»[2])[1].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥)، في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم في صحيحه (٥٠)، في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة النبي ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين.

[2] أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٦٤/١٢)، وأبو داود في سننه (ص/٨٤٦)، في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي في سننه (ص/٢٧٦)، في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على

ويوضح شيخ الإسلام هذا الأمر أكثر، ويبين أن الزيادة الواردة في النصوص ليست في التصديق فقط، بل الزيادة تكون في التصديق وأعمال القلوب، يقول رحمه الله: «والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ الأنفال: ٢، وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣ ، فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينا وتوكلا على الله، وثباتا على الجهاد، وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق، بل يخافون الخالق وحده.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾ التوبة: ١٢٤ - ١٢٥، وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادهم إيمانا بحسب مقتضاها، فإن كان أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وإن كان نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: ﴿ وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ والاستبشار غير مجرد التصديق.

زوجها، وقال حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (٩٩/١)، وابن حبان في صحيحه (٢٢٧/٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

(١) الإيمان الأوسط (ص/١٠٦-١٠٨).

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ الرعد: ٣٦، والفرح بذلك من زيادة الإيمان، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ يونس: ٥٨،

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الروم: ٤ – ٥.

وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ الفتح: ٤، وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه، ولهذا قال يوم حنين: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة: ٢٦، وقال تعالى: ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة: ٤٠، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن، ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب، وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه»[1].

فإن إيمان القلب يزداد بزيادة العمل الصالح، وذلك أن تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة للجوارح مبني على تفاوت ما في قلوبهم من الأعمال الباطنة، ومن المعلوم أن عدم تحقق اللازم يؤثر على قوة الملزوم فيضعفه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والتفاضل في الإيمان بدخول الزيادة والنقص فيه يكون من وجوه متعددة:

---

[1] الإيمان الكبير (ص/١٨٠-١٨١).

أحدها: الأعمال الظاهرة: فإن الناس يتفاضلون فيها وتزيد وتنقص، وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان، لكن نزاعهم في دخول ذلك في مسمى الإيمان، فالنفاة يقولون هو من ثمرات الإيمان ومقتضاه، فأدخل فيه مجازا بهذا الاعتبار، وهذا معنى زيادة الإيمان عندهم ونقصه، أي زيادة ثمراته ونقصانها .

فيقال: قد تقدم أن هذا من لوازم الإيمان وموجباته، فإنه يمتنع أن يكون إيمان تام في القلب بلا قول ولا عمل ظاهر، وأما كونه لازما أو جزءا منه فهذا يختلف بحسب حال استعمال لفظ الإيمان مفردا أو مقرونا بلفظ الإسلام والعمل كما تقدم.

وأما قولهم الزيادة في العمل الظاهر لا في موجبه ومقتضيه، فهذا غلط، فإن تفاضل معلول الأشياء ومقتضاها يقتضي تفاضلها في أنفسها، وإلا فإذا تماثلت الأسباب الموجبة لزم تماثل موجبها ومقتضاها، فتفاضل الناس في الأعمال الظاهرة يقتضي تفاضلهم في موجب ذلك ومقتضيه، ومن هذا يتبين:

الوجه الثاني: في زيادة الإيمان ونقصانه: وهو زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن...»[1].

وبعد كل هذه النصوص التي أوردها شيخ الإسلام مع الإشارة إلى ما يدل على تفاضل أعمال القلوب، ثم ينضم إلى هذه النصوص الأمر الذي يجده كل واحد من نفسه من تفاضل ذلك، فإن الإنسان يجد نفسه في وقت أشد خوفا منه في الوقت الآخر، وفي وقت أشد حياء منه في الوقت الآخر، و هكذا في سائر أعمال القلب، ثم تفاضل المؤمنين في الأعمال الظاهرة للجوارح مبني على تفاوت ما في قلوبهم من الأعمال الباطنة، ومن المعلوم أن عدم تحقق اللازم يؤثر على قوة الملزوم فيضعفه.

---

[1] الإيمان الأوسط (ص/١٠٦).

وبعد كل هذه الأدلة، فإنكار التفاضل في أعمال القلوب لا يكون إلا من جاهل لم يستوعب الأمر، وإما من معاند عرف الحق فجحده، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم أحوال القلوب وأعمالها مثل محبة الله ورسوله، وخشية الله، والتوكل عليه، والصبر على حكمه، والشكر له، والإنابة إليه، وإخلاص العمل له، ما يتفاضل الناس فيها تفاضلا لا يعرف قدره إلا الله ﷻ، ومن أنكر تفاضلهم في هذا فهو إما جاهل لم يتصوره، وإما معاند»[1].

وبعد هذا البيان المجمل لتفاضل أعمال القلوب، أنتقل إلى تفصيل المسألة فيه، وهو ما يتعلق بتقرير التفاضل بين أعمال القلوب فيما بينها وفي نفسها، فسأذكر ذلك على النحو التالي:

المسألة الأولى: تفاضل أعمال القلوب فيما بينها.

لعله بالنظر إلى كلام أهل العلم يمكن أن نخلص إلى أن أعمال القلوب تتفاضل فيما بينها من جهات مختلفة، ولكن من أبرزها ما يلي:

أولا: تفاضل أعمال القلوب من جهة متعلقاته.

حين تكلم شيخ الإسلام رحمه الله عن محركات القلوب الثلاثة، وبين أنها: المحبة والخوف، والرجاء، قال: «وأقواها المحبة، وهي المقصودة لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ يونس: ٦٢، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق المحبوب، والرجاء يقوده... »[2].

---

[1] الإيمان الكبير (ص/٣١٩).

[2] مجموع الفتاوى (١/٩٥).

ووجه كون المحبة أقوى من الخوف والرجاء، أن متعلق المحبة ذات الله وصفاته، وما كان كذلك لا شك أنه يستمر ولن يفارق العبد لا في الدنيا وفي الآخرة، بخلاف الخوف مثلا، فإن متعلقه أفعال الرب ﷻ فإنه مفارق للعبد بحصول ما يرجو وأمنه مما كان يخاف.

يقول ابن القيم رحمه الله: «إن الخوف يتعلق بالأفعال، وأما الحب فإنه يتعلق بالذات والصفات، ولهذا يزول الخوف في الجنة، وأما الحب فيزداد...

فمتعلق الخوف ذنب العبد وعاقبته، وهي مفعولات للرب، فليس الخوف عائدا إلى نفس الذات، والفرق بينه وبين الحب أن الحب سببه الكمال، وذاته تعالى لها الكمال المطلق، وهو متعلق الحب التام، وأما الخوف فسببه توقع المكروه وهذا إنما يكون في الأفعال والمفعولات»[1].

فتبين لنا أن منزلة المحبة أعلى وأرفع من منزلة الخوف، وأنها هي المقصودة لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، لكون المحبة متعلقها ذات الرب وصفاته، أما الخوف فمتعلقه أفعال الرب ومفعولاته.

ثانيا: تفاضل أعمال القلوب من جهة جمعها لأعمال قلبية أخرى.

سبق أن قررنا أن علاقة أعمال القلوب هي علاقة التضمن وعلاقة الالتزام، وأن علاقة التضمن في أعمال القلوب هي أن يتضمن عمل قلبي واحد عملا آخر أو أكثر، فإن ما يندرج فيه جميع الأعمال القلبية أعلى وأرفع من غيره، وما يندرج فيه عملين قلبيين أعلى مما يندرج فيه عمل قلبي واحد، وهكذا، قال ابن القيم رحمه الله: «من المقامات ما يكون جامعا لمقامين، ومنها ما يكون جامعا لأكثر من ذلك، ومنها ما يدرج فيه جميع المقامات، فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه»[2].

---

[1] طريق الهجرتين (ص/٤٢٦-٤٢٧).

[2] مدارج السالكين (١/١٠٣).

ثم ذكر رحمه الله أمثلة على ذلك:

فمن أمثلة **النوع الأول**، قوله: «فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف...

والإنابة جامعة لمقام المحبة والخشية...

ومقام المراقبة جامع للمعرفة والخشية».

ومن أمثلة **النوع الثاني**، قوله: «والإخبات جامع لمقام المحبة والذل والخضوع...

ومقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام الطمأنينة جامع للإنابة والتوكل والتفويض والرضى والتسليم».

ومن أمثلة **النوع الثالث**، قوله: «ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان، ولذلك كان أرفعها وأعلاها»[1].

ثالثا: تفاضل أعمال القلوب من جهة ما يترتب عليها من جزاء.

ومما يدل على تفاضل أعمال القلوب فيما بينها، هو ما يترتب عليها من جزاء، ولعل أعظم هذا الجزاء هو ما يتعلق بصفاته جل وعلا.

فمن ذلك ما ذكر في منزلة التوبة، وأنها تثمر فرح الله بتوبة عبده، ومحبته ﷻ لهذا العبد، وكفى بذلك شرفا.

فللتوبة عند الله سبحانه وتعالى منزلة ليس لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوية المهلكة بعد فقدها وأيس من أسباب الحياة، ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التوبة، قال النبي ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى

---

[1] مدارج السالكين (١٠٣/١-١٠٤).

أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده، وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[1].[2]

ولعله يلحق بهذا[3] ما ذكره شيخ الإسلام وغيره عن التوكل وعظيم جزائه، فقد جعل الله ﷻ جزاء المتوكل أن يكون الله حسْبه، وهو من أقوى الأسباب وأعظمها في تحصيل المطالب.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ الطلاق: ٢ – ٣، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن التوكل على الله سبب كونه حسبا له مستدلا بهذه الآية، وذلك من وجهين:

١- إن الله رتب هذا الأجر على الوصف المناسب، وأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع في مثل هذا أن يكون وجود الشرط كعدمه، فلا يقال: هو حسب غير المتوكلين كما هو حسب المتوكلين، فعلم أن توكل العبد هو سبب كونه حسبا له.

٢- إن سياق الآية في الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره، لم يكن مرغبا في التوكل، كما جعل التقوى سببا للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب[4].

---

[1] تقد تخريجه (ص/٥٦٨).

[2] انظر: مدارج السالكين (١/٢٢٤).

[3] أي؛ في ثبوت تفاضل أعمال القلوب فيما بينها من جهة ما يترتب عليها من جزاء.

[4] رسالة في تحقيق التوكل (١/٨٨-٨٩)، ضمن جامع الرسائل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلا، علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار، إذا لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلا»[1].

المسألة الثانية: تفاضل أعمال القلوب في نفسها.

كما أن أعمال القلوب تتفاضل فيما بينها، فإنها كذلك تتفاضل في نفسها، فتجد للعمل القلبي درجات متفاوتة، مما يدل على ثبوت التفاضل في العمل القلبي الواحد، وسأذكر على ذلك ثلاث نماذج تكلم عنها شيخ الإسلام رحمه الله، وهي المحبة والصبر واليقين.

أولا: المحبة.

قرر شيخ الإسلام أن أصل المحبة هو معرفة الله سبحانه، ولكنها باعتبار هذا الباعث عليها تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: محبة تنشأ من ملاحظة الإحسان ومطالعة النعم والآلاء.

فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فكيف بالله ﷻ الذي هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة، إذ هو مُيسِّر الوسائط، ومسبب الأسباب، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه، فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه، وكذلك كل من أحب شيئا لأجل إحسانه إليه، فما أحب في الحقيقة إلا نفسه، وهذا ليس بمذموم بل محمود..

والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب به أنه يحبه، إلا إحسانه إليه، وهذا كما قالوا: إن الحمد لله على نوعين: حمد هو شكر، وذلك لا يكون إلا على نعمته، وحمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له، وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه.

---

[1] رسالة في تحقيق التوكل (١/٩٢).

والقسم الثاني: هو محبة الله لما هو أهل له، و هذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وهو محبة الله لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وما من وجه من الوجوه التي يُعرف اللهُ بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته، إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه، حتى جميع مفعولاته، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محمودا على كل حال ويستحق أن يحمد على السراء والضراء وهذا أعلى وأكمل وهذا حب الخاصة، وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك حتى، لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون...[1].

فالمراد بيانه هنا أن المحبة التي تنشأ عن معرفة الله ﷻ وكماله ومطالعة أسمائه وصفاته أعلى من المحبة التي تنشأ من رؤية نعم الله وآلائه، فإن الأولى محبة الخاصة، والثانية محبة العامة، بل إن لم يرتق العبد من الثانية إلى الأولى فإنه في الحقيقة ما أحب إلا نفسه، والله أعلم.

ثانيا: الصبر.

سبق أن قلنا أن الصبر ينقسم باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصبر على طاعة الله سبحانه تعالى.

القسم الثاني: الصبر عن محارم الله ﷻ.

القسم الثالث: الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى[2].

ومما يدل على تفاضل أعمال القلوب في نفسها هو أن الصبر مراتب، بعضها أفضل من بعض، فالصبر على طاعة الله أعلى مترلة من الصبر عن المعاصي، والصبر عن المعاصي أعلى مترلة من الصبر على الأقدار.

---

[1] التحفة العراقية (ص/٤٤٩-٤٥٢)، بتصرف يسير.

[2] قاعدة في الصبر (ص/٩٠-٩١)، والتحفة العراقية (ص/٣٥٣).

فالصبر على الواجبات أعلى أنوع الصبر، لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات، كذلك إن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، من أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأتي بالإيمان والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة[1].

كذلك الصبر على المحرمات أعلى مترلة من الصبر على المصائب، لأن هذا الصبر والذي قبله يكونان باختياره، بخلاف ما يصيب العبد من المصائب التي لا خيار له فيها، وليس له إلا كف النفس والصبر.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابا، وداعية الشباب إليها قوية، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟»[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (١١/٦٧١).

[2] مدارج السالكين (٢/١١٦-١١٧).

إذا، الصبر على المحرمات أفضل من الصبر على المصائب، كما أن الصبر على ترك المحرمات مع القدرة عليها، وطلب النفس لها، أفضل من تركها بدون ذلك، فإن النفس تميل إلى الرئاسة والمال وفعل الفاحشة، وإن كان قادرا على فعلها والحصول عليها، ومع ذلك تركها لله، هذا أفضل من الذي يصبر في شيء لا يشتهيه ولا تميل النفس إليه، أو تميل النفس إليه ولكنه غير قادر على حصوله.

كذلك إذا طلبت النفس شيئا من هذه الأمور وهو قائم بأمر ديني، كالخروج إلى الصلاة، أو طلب العلم ، أو الجهاد، فصبر على ما تميل إليه النفس في هذا الحالة، فهو أعظم أجرا من الذي ابتلي بما تميل إليه النفس بدون عمل صالح.

كذلك من ابتلي بمرض أو فاقة وهو في أمر ديني، كالجهاد مثلا وصبر، هو أفضل ممن ابتلي بشيء منها وهو مقيم في بلده[1].

ثالثا: اليقين.

كما أن العلم يتفاوت - واليقين هو من جملة مراتب العلم- فكذلك اليقين يتفاوت، فهو على ثلاث مراتب بعضها فوق بعض، فأدنى مراتب اليقين هي مرتبة (علم اليقين)، والمرتبة التي فوقها هي مرتبة (عين اليقين)، وأعلى المراتب هي مرتبة (حق اليقين)، والله ﷻ يقول: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ التكاثر: ٥ - ٧ [2].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن منازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله»[3].

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٧٦-٥٦٨).

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٥)، ومدارج السالكين (٢/٢٩٧-٣٠٠).

[3] مجموع الفتاوى (١١/٧٣).

فعلم اليقين: هو العلم المستفاد بالسماع والخبر والقياس والنظر.

وعين اليقين: هو ما شاهده الإنسان وعاينه بالبصر.

وحق اليقين: هو ما باشره و وجده وذاقه.

وقد مثّل شيخ الإسلام لهذه الدرجات الثلاث بالعسل، فقال رحمه الله: «فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلا، وصدق المخبر، أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده، والثاني مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ: "ليس المخبر كالمعاين"[١]، والثالث مثل من ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله»[٢].

خلاصة ما سبق:

إن ما يقوم بالقلب من حقيقة الإيمان ينقسم إلى قول القلب المعبر به عند العلماء بالتصديق والاعتقاد، وإلى عمل القلب من المحبة والخوف والرجاء والخشية والإنابة ونحوها، والتفاضل داخل فيهما.

إن من أوجه زيادة الإيمان ونقصانه هو تفاضله من جهة أعمال القلوب، وهو الأمر الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة كما دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، بل ذلك من الأمور المعلومة الظاهرة التي يجدها الإنسان من نفسه.

فتفاضل أعمال القلوب يكون فيما بينها من جهة متعلقاتها، ومن جهة جمعها لأعمال قلبية أخرى، ومن جهة ما يترتب عليها من جزاء، كما يكون تفاضلها في نفسها، فالمحبة التي تنشأ من مطالعة أسمائه وصفاته فوق درجة المحبة التي تنشأ من مطالعة النعم والآلاء، والصبر

---

[١] سبق تخريجه (ص/٤٦٩).

[٢] مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٥-٦٤٦).

على طاعة الله أعلى مترلة من الصبر عن المعاصي، والصبر عن المعاصي أعلى مترلة من الصبر على الأقدار.

وكذلك اليقين الذي يكون عن مباشرة الشيء ووجده وذوقه أعلى مرتبة من اليقين الحاصل عن طريق المشاهدة والمعاينة، واليقين الحاصل عن طريق المشاهدة أعلى مرتبة من اليقين المستفاد بالسماع والخبر والقياس والنظر.

والمقصود من هذا كله، بيان التفاضل بين أعمال القلوب عموما، وبيان تفاضلها في نفسها وفيما بينها خصوصا، والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني: أسباب تفاضل أعمال القلوب

المطلب الأول

الأسباب الجالبة لأعمال القلوب

جعل الله لكل مرغوب ومطلوب سببا وطريقا يوصل إليه، وإن من أعظم المطالب وأهمها إيمان القلب، فهو أصل الإيمان، وقد جعل الله له أسبابا تزيد إيمان المرء فيقوى رجاؤه ومحبته وخوفه ويقينه وتوكله وإخلاصه.

وقد اعتنى شيخ الإسلام رحمه الله بذلك، ولذا فإني سأعرض في هذا المبحث للأسباب التي تستجلب بها أعمال القلوب، ثم أبين الأسباب التي تضعفها وتوهيها.

ولعل أهم الأسباب الجالبة لأعمال القلوب ما يلي:

المسألة الأولى: تعلم العلم النافع.

إن أهم وأنفع أسباب زيادة الإيمان تعلم العلم النافع علم الشريعة المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال ابن رجب معرفا بهذ العلم: «فالعلم النافع هو ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه وسقيمه أولا، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُني واشتغل...»[١].

---

[١] فضل علم السلف على علم الخلف (ص/٩٦).

وإذا كان هذا هو المقصود بطلب العلم النافع، فإن أهل العلم هم أهل خشيته، بل خصهم الله بذلك بين الناس، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر: ٢٨، فالعلم النافع يثمر هذه الخشية لله ﷻ[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الحج: ٥٤.

أي: ليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرّقون به بين الحق والباطل، أنه الحق من ربك، فيؤمنوا به ويزداد إيمانهم، فتُخبت له قلوبهم، أي تخشع وتخضع، وتذل وتسكن[(٢)]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا حال القلوب المؤمنة المخبتة: «ولهذا وصف من عدا هؤلاء (أي؛ القلوب القاسية والقلوب المريضة) بالعلم والإيمان والإخبات، وفي قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دليل على أن العلم يدل على الإيمان»[(٣)].

إذًا العلم النافع هو ما أوصل إلى الإيمان بالله، وعبادته وحده سبحانه وتعالى، ويشمل ذلك مصدرين[(٤)]:

المصدر الأول: الوحي المسموع المنزّل من عند الله سبحانه وتعالى، قرآنا وسنة، والذي يعرف به العبد ربه بأسمائه وصفاته جل وعلا، ويدرك المسلك الصحيح الذي يعبده به جل شأنه، ويعلم الوعد المترتب على الطاعة والاهتداء، والوعيد المرتب على المعصية والضلال.

---

(١) انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٠)، ومجموع الفتاوى (١٤/٢٩٢-٢٩٣)،

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٠٧-٣٠٨)، وتفسير السعدي (ص/٥٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٢٧١).

(٤) نفس المصدر (٦/٧١).

المصدر الثاني: الآيات الكونية المشهودة التي يدل التأملُ والتفكر والنظر فيها على عظمة الله وقدرته، وعلى عزه وسلطانه، وعلى استحقاقه للعبودية وحده دون سواه.

فإن اتصاف العبد بوصف العلم من هذين الطريقين يضفي على قلبه حياة ونورًا وإشراقا، ويثمر فيه خشية وإنابة وحبّا[1].

ولما كانت جهات العلم النافع التي تستجلب بها أعمال القلوب كثيرة، سأقتصر في الكلام على أبرزها وأفضلها وأقواها، وهو: العلم بالله ﻷ وبأسمائه وصفاته وربوبيته، فالعلم بالله ﻷ من أشرف العلوم ومن أعظم الأسباب الجالبة لأعمال القلوب.

والعلم بالله ﻷ يتضمن جوانب عدة، سأذكر هنا بعضها مع بيان وجه كونها أسبابا تستجلب بها أعمال القلوب.

الأول:العلم بأسماء الله وصفاته.

هو العلم بالله نفسه، وبما اتصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلت عليه أسماؤه الحسنى، فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر: ٢٨.

يقول ابن كثير رحمه الله: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»[3].

فإن معرفة أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، والتي تدل على كمال الله المطلق من كافة الوجوه، من أعظم أبواب العلم التي يحصل بها زيادة الإيمان، يقول شيخ

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٣/٣٣٠-٣٣١).

[2] مجموع الفتاوى (٣/٣٣٤).

[3] تفسير ابن كثير (٣/٧٢٤-٧٢٥).

الإسلام رحمه الله: «إنه من المعلوم أن معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه، ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه، ومعرفة المخوف تقتضي خوفه، فنفس العلم والتصديق، وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له، وتعظيمه وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته»[1].

ويقول أيضا: «وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لا يعرف تلك الأسماء، بل آمن إيمانا مجملا، أو عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه أكمل»[2].

وإنما كانت معرفة الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى سببا من أسباب تفاضل أعمال القلوب لأنها مقتضية لآثارها من العبودية والخضوع، فلكل اسم أو صفة عبودية خاصة هي من مقتضياتها، ومن موجبات العلم بها، والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع العبادات القلبية بل وفي عبودية الجوارح.

فمن ذلك: أن العبد إذا علم بكمال الله وجماله وصفاته العلى، فإن ذلك يثمر له محبة خاصة وشوقا عظيما إلى لقاء الله.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء.

وعلمه بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه، وهكذا.

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها.

ثم ينبغي أن يُعلم أن هذا الكمال للإيمان إنما يحصل لأهل السنة والجماعة الذين عصمهم الله من داء التعطيل ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول،

---

[1] الإيمان الأوسط (ص/٧٣).

[2] الإيمان الكبير (ص/١٨٤).

فإن معرفة أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات - بل في كل أبواب الدين - متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فهذه هي المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله[١].

الثاني: العلم بربوبية الله ﷻ.

إن توحيد العبد ربه بأفعاله ﷻ من أعظم الأسباب الجالبة لأعمال القلوب، فإذا تحقق العبد أن أفعال الرب من الإحياء والإماتة، والعطاء والمنع، والإذلال والإعزاز، والهدى والضلال وغيرها، أنها بيد الله سبحانه وتعالى فإن هذا سبب واضح لخشوع القلب وخضوعه وتعلقه بربه خوفا ورجاء ومحبة، قال شيخ الإسلام: «إن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه، ومسألته، دون ما سواه، ويقتضي أيضا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه»[٢].

وكذلك التأمل في الآيات الكونية من أعظم الآيات الدالة على ربوبيته وألوهيته، فيعد سببا لاستجلاب أعمال القلوب.

فإن التأمل في الآيات الكونية، والنظر في مخلوقات الله المتنوعة العجيبة، من سماء وأرض، وشمس وقمر، وكواكب ونجوم، وليل و نهار، وجبال وأشجار، وبحار وأنهار، وغير ذلك من

---

[١] التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص/٧٢).

[٢] مجموع الفتاوى (١/٢٧-٢٨).

مخلوقات الله التي لا تعد ولا تحصى - والتي تدل على وحدانية الله بالربوبية والألوهية -، لمن أعظم دواعي الإيمان، وأنفع أسباب تقويته[1].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «اعلم أن هذه المسألة (إفراد الله بالعبادة) أعظم المسائل على الإطلاق وأكبرها وأفضلها وأوجبها وأنفعها وأوضحها، وعليها اتفقت جميع الكتب المنزلة وجميع الرسل، وهي أول وأهم ما دعت إليه الرسل أممهم، وأول ما يدعون قومهم يقولون: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ الأعراف: ٥٩، ويذكرون لهم من أسمائه وصفاته، و نعمه وآلائه وألطافه ما به يعرفون رهم، ويخضعون له ويعبدونه، والقرآن العظيم من أوله إلى آخره يبين هذه المسألة، ويذكر لها البراهين المتنوعة، ويصرف لها الآيات، والسنة كذلك»[2]، ثم ذكر جملة من تلك الآيات.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكان المقصود بالدعوة: وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة رهم وحده لا شريك له، والعبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح، فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده، وهو المضغة الذي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد. وإنما ذلك بعلمه وحاله كان هذا الأصل الذي هو عبادة الله بمعرفته ومحبته، هو أصل الدعوة في القرآن، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦.

وقال في صدر البقرة - بعد أن صنف الخلق ثلاثة أصناف: مؤمن وكافر ومنافق -، فقال بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٢١، وذكر آلاءه التي تتضمن نعمته وقدرته ثم أتبع ذلك بتقريره النبوة بقوله:

---

[1] زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٢٢٠).

[2] الرياض الناضرة (ص/٢٤٦)، وما بعدها.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ البقرة: ٢٣»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان: نظر إليها بالبصر الظاهر، فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها، وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات، وليس هو المقصود بالأمر الثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقه ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حوله...، والأمر يترل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فيترل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب ومغفرة ذنب، وكشف ضر ونصر مظلوم، وهداية حيران وتعليم جاهل، ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة الملهوف، وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف العدوان...، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا لهيبته، خاشعا لعظمته، عان لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم المزيد...»[٢].

فهذه النقول تدل دلالة واضحة على أن أعمال القلوب كالخشوع والخضوع والتذلل لله ﷿ تستجلب بأسباب منها: معرفة العبد ربوبية الله ﷿، الذي يقوى بالتأمل في الآيات الكونية.

---

[١] مجموع الفتاوى (٢/٦-٧).

[٢] مفتاح دار السعادة (١/٣٠٧-٣٠٨)

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكذلك ما يشاهده العباد من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، أي إن القرآن حق، ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت: ٥٣، فإن الله شهيد في القرآن بما أخبر به، فآمن به المؤمن، ثم أراهم في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدل على مثل ما أخبر به في القرآن، فبينت لهم هذه الآيات أن القرآن حق مع ما كان قد حصل لهم قبل ذلك، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ق: ٦ - ٨، فالآيات المخلوقة والمتلوة فيها تبصرة وفيها تذكرة: تبصرة من العمى وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي»[1].

والمقصود أن العلم بربوبية الله ﷻ يعد سببا جالبا لأعمال القلوب.

الثالث: العلم بالأحكام الشرعية.

ويدخل في العلم بالله العلم بالأحكام الشرعية، وهي المعرفة بما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه[2].

والفقه في الدين هو من أقوى أسباب استجلاب أعمال القلوب وزيادة الإيمان إذا كان مستلزما للعمل، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «والله، إني لأعلمكم بالله، وأخشاكم له»[1].

---

[1] الإيمان الكبير (ص/١٨٦).

[2] فضل علم السلف على علم الخلف (ص/٩٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/٣٣٤)، و(١٠/١٠٧).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا وجه زيادة الإيمان بالعلم من حيث الإجمال والتفصيل: «فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقا فلم يكذبه قط، لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره، وطلب العلم الواجب عليه، فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به، فهؤلاء وإن اشتركوا في الوجوب، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل به ممن عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به لكنه لم يعمل بذلك كله.

وهذا المقر بما جاء به الرسول ﷺ المعترف بذنبه الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل أكمل إيمانا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ مع أنه مقر بنبوته باطنا وظاهرا.

فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه، وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام»[٢].

ومن أمثلة ذلك ما سبق معنا في قواعد الورع: أن الورع لا يكون إلا بالعلم، وبصفة خاصة عند تزاحم المصالح والمفاسد.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الجهة الثالثة، جهة المعارض الراجح هذا أصعب من الذي قبله، فإن الشيء قد تكون جهة فساده تقتضي تركه فيلحظه المتورع، ولا لحظ ما يعارضه من الصلاح الراجح، وبالعكس فهذا هذا. وقد تبين أن من جعل الورع الترك فقط، وأدخل في هذا الورع أفعال قوم ذوي مقاصد صالحة بلا بصيرة من دينهم وأعرض عما فوتوه بورعهم من الحسنات الراجحة، فإن الذي فاته من دين الإسلام أعظم مما أدركه، فإنه قد

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٤)، في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ومسلم في صحيحه (ص/٩٥٨)، في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته.

[٢] الإيمان الكبير (ص/١٨٤).

يعيب أقواما هم إلى النجاة والسعادة أقرب. وهذه القاعدة منفعتها لهذا الضرب وأمثاله كثيرة، فإنه ينتفع بها أهل الورع الناقص أو الفاسد»[1].

ولهذا يحتاج المتدين المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة والفقه في الدين، وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه، كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم[2].

فبالعلم والفقه في الدين يسلم من هذا الفساد، ويفعل الصواب المأمور به وبذلك يزداد إيمانا.

ومن الأمثلة التي تدل على أن الفقه في الدين يستجلب أعمال القلوب ما ذكر شيخ الإسلام عند كلامه عن عناصر الندم، قال رحمه الله: «والندم يتضمن ثلاثة أشياء: اعتقاد قبح من ندم عليه، وبغضه وكراهيته، وألم يلحقه عليه»[3].

فمن أهم هذه العناصر اعتقاد قبح ما ندم عليه، وهذا الاعتقاد بقبح عمله الذي كان يعمله لا يمكن حصوله إلا بعد معرفته بأن فعله سيء ليتوب منه، أو بأنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو استحباب ليتوب فيفعله، ولهذا يقول: إن أول التوبة العلم بالذنب، فإن الذي لا يعلم أنه يذنب لا يمكن أن يتوب من شيء لا يعده ذنبا[4]، فمن عرف قبح ذنبه واعتقده، أورده ذلك كراهية لما كان يفعله، فحصل له بذلك ألم وأذى وغم، فيطلب التملص منه ومن تبعاته.

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٢)، و (١٠/٥٢١).

[2] نفس المصدر (٢٠/١٤١-١٤٢).

[3] رسالة في التوبة (١/٤٨٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/٣٢٥).

[4] انظر: التحفة العراقية (ص/٢٩٧).

وعلى كل حال، فإن العلم بالله جل شأنه يوجد في القلب حياة، ويوجب خشية، وثمرة ذلك حياة الجوارح وامتثالها، فعلا للحسنات وتركا للسيئات[1].

فالعلم قوت القلوب وغذاؤه، يحس به كما يحس الجسم بالطعام والشراب[2].

وبالمقابل، فإن من يفقد هذا العلم من أهل الجهل بالله ﷻ ودينه فهو محكوم عليه بموت القلب، وإن كان الجسد والبدن معدودا في دائرة الأحياء[3].

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله ﷺ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فاطر: ٢٢.

المسألة الثانية: العمل الصالح.

ومن أسباب تفاضل أعمال القلوب وتقويتها: الأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله تعالى، والإكثار منها، والمداومة عليها، فكل عمل يقوم به المسلم مما شرعه الله، يخلص نيته فيه لله، يزيد في إيمانه، لأن الإيمان يزيد بالطاعات وكثرة العبادات، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٧.

فالآية الكريمة تتضمن وعدًا لمن عمل الصالحات بأن يحييه الله حياة طيبة، وقد ذكر المفسرون في المقصود بالحياة الطيبة أقوالا عدة[4]، منها السعادة[5]، والانشراح بالعبادة، والتذلل بحلاوة الطاعة، والقناعة، والرضا بالقضاء، والرزق الحلال، والعافية، وغير ذلك.

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٤/٢٩٢-٢٩٤).

[2] مجموع الفتاوى (٤/٤١).

[3] مدارج السالكين (٣/١٩٥).

[4] انظر: تفسير الطبري (١٧/٢٨٩-٢٩١)، وتفسير القرطبي (١٢/٤٢٤)، وتفسير ابن كثير (٢/٧٦٢).

[5] مجموع الفتاوى (٢/٥).

والظاهر أن اللفظ في الآية عام يحتمل جميع تلك الأقوال، يقول ابن كثير رحمه الله: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت».

وبعد أن أورد عددا من الأقوال المروية عن بعض الصحابة والتابعين قال: «والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله»[١].

فلا شك أن المؤمن حين يستجيب لله تعالى ورسوله ﷺ، فيلتزم بالتكاليف الشرعية، فعلا لما يؤمر له من الطاعات، وتركا للمحرم من الشهوات، وتتقلب أعضاؤه وجوارحه في أنواع العبودية لربه سبحانه وتعالى، فإن ذلك العمل الصالح له أثره المحمود على القلب، نورا وضياءا، وإشراقا وصفاءا، وقوة وثباتا، وانشراحا وطمأنينة، يطيب حياته، ويلم شعثه، ويزيل كدره، ويطهره من الدنس، ويحميه من أن يكون مرتعا للشيطان وكيده[٢].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفا منه، وترك المعصية حبا له وخوفا منه قوي حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل؛ وهو ما يورث القلب إيمانا من العلم النافع والعمل الصالح فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعا وموقوفا: "إن كل آدِب يحب أن تؤتى مأدبته، وأن مأدبة الله هي القرآن"[٣]، والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧٦٢/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٩٦/٨)، و (٩٨/١٠-٩٩)

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢٥/٦)، والدارمي في السنن (٥٢١/٢)، والحاكم في المستدرك (١١٢/٢)، والبيهقي في الشعب (٣٣٣/٣)، والطبراني في الكبير (١٢٩/٩)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (٤٢٤٧).

(٤) بياض في الأصل (المحقق).

مثل آخر: الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات، ويضم إلى ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعا حسنا إلى أجل مسمى.

وليتخذ وردا من الأذكار في النهار، ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه، وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين، وليكن هجيراه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، و لم ينل أحد شيئا من ختم الخير نبي فمن دونه إلا بالصبر»[1].

والأعمال الصالحة التي تزيد الإيمان وتستجلب بها أعمال القلوب كثيرة، ومن أبرزها، والتي أشار إلى بعضها شيخ الإسلام في النقل السابق ما يلي:

الأول: قراءة القرآن وتدبره.

إن تلاوة القرآن والمداومة على ذلك من تعظيمه، لأنه كلام الله تبارك وتعالى، وتعظيم كلام الله تعالى من الإيمان به، لما يحصل للقارئ من الأجر على تلاوته وزيادة الإيمان بتدبر آياته وحضور القلب أثناء قراءته.

وقد مدح الله تعالى التالين لآياته فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ فاطر: ٢٩.

وكما أنه تعالى مدح من يتلوه، كذلك مدح من يعمل به، لأنه الغاية من إنزاله، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ البقرة: ١٢١.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/١٣٦-١٣٧).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله»[1].

ومن حقوق التلاوة تدبر آياته، كما قال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ص: ٢٩ .

وقد أخبر سبحانه أن قراءة المؤمنين للقرآن وتدبره تزيد إيمانهم وتوجل قلوبهم،

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢.

وعاتب سبحانه وتعالى المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع القرآن، فقال تعالى:

﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ الحديد: ١٦.

فقراءة القرآن وتدبره من أنفع ما يكون للقلب، فبقراءته تستجلب أعمال القلوب التي بها حياة القلب وكماله، وشفاؤه من جميع أسقامه، وتندفع أسباب هلاكه وفساده.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم، وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه.

---

(١) تفسير الطبري (٢/٥٦٧).

(٢) الإيمان الكبير (ص/٢٢٢).

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن...»[1].

لكن على العبد لكي تحصل له هذه المعاني التي ذكرها شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله، ينبغي له أن يتعلم كيفية الاستفادة منه حتى يتم له الانتفاع به، يقول ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطب به، من تكلم به سبحانه منه إليه»[2].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا حال صاحب القرآن الذي ينال رفيع الدرجات وعالي المنازل – وفي نفس الوقت هو تعليم لنا كيفية الاستفادة من القرآن–، قال رحمه الله: «فهو دائم التفكر في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله، وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه.

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك، فإن هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه...

وكذلك تتبع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم.

---

[1] مفتاح دار السعادة (٢٨٩/١).

[2] الفوائد (ص/٣).

وكذلك تأويل القرآن على قول من قلد دينه أو مذهبه، فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعا لمذهبه وتقوية لقول إمامه، وكل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره»[1].

فالخلاصة أن المؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب فيه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كثير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره، وكيف إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، أنه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف[2].

ثانيا: دوام ذكر الله تعالى[3].

الإكثار من ذكر الله ﷻ من الأعمال الصالحة التي تستجلب بها أعمال القلوب، فإنها تزيد الإيمان وتقويه، كالتسبيح، والاستغفار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعاء وغير ذلك.

وقد أمر الله به وبين فضله في كثير من نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥٢، يقول ابن القيم: «لو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها، لكفى بها فضلا و شرفا»[4]، فبالذكر تطمئن القلوب، قال تعالى:
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٦/٥٠-٥١).
[2] التوضيح و البيان (ص/٧٢)، بتصرف.
[3] مع أن قراءة القرآن من ذكره، إلا أنها أفردت لأهميتها.
[4] الوابل الصيب (ص/٩٦).

ويكفي في شرف الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ علينا، قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة"[(١)].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله مبينا أهمية الذكر: «فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكرا لله قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره؛ ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه»[(٢)].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته»[(٣)].

إن بالذكر تحصل طمأنينة القلب، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨، فالقلوب المؤمنة بالله المصدقة بوعده ووعيده لا تطمئن ولا تستريح ولا تسكن إلا بذكر ربها، فذكر الله هو غذائها وروحها، وهو الذي يزيل قلقها واضطرابها، يقول شيخ الإسلام رحمه الله في سياق تقريره أن الله يجب أن يفرد بالمحبة، وأن الله يجب أن يكون محبوبا مرادا لذاته، وأن هذه المحبة محبة مختصة به سبحانه وتعالى على سبيل الخضوع له والتعظيم، يوضح ذلك علاقته بالذكر فيقول: «ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾، فتقديم المفعول يدل على أنها لا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٨٣)، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٢) التوضيح البيان (ص/٧٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/٢٠).

تطمئن إلا بذكره، وهو تعالى إذا ذكر وجلت (أي قلوب العباد)، فحصل لها اضطراب ووجل لما تخافه من دونه، وتخشاه من فوات نصيبها منه، فالوجل إذا ذُكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة، لأنه هو المعبود لذاته، والخير كله منه»[١].

فالذكر حياة القلب، يقول ابن القيم رحمه الله سمعت شيخ الإسلام قدس الله روحه يقول: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف كان حال السمك إذا فارق الماء؟!»[٢].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله أيضا: «وهؤلاء[٣] هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون»[٤].

والخلاصة أن ذكر الله يحرك القلوب إلى خالقها جلا وعلا، ويوثق علاقتها وصلتها ببارئها سبحانه[٥]، فيزيد إيمانها، ويربو خشوعها، وتزول قسوتها، ويعظم إخباتها، وذلك علامة حياتها.

الثالث: إقامة الصلاة.

إن الصلاة أهم أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين، وجاءت تسمية الله جل وعلا لها بالإيمان كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ البقرة: ١٤٣، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، وقد وصفها رسول الله ﷺ بأنها عمود الإسلام، وأخبر أنها آخر ما يفقد من

---

[١] كتاب النبوات (١/٣٧٨)، وانظر: التحفة العراقية (ص/٤٢٣-٤٢٤).

[٢] الوابل الصيب (ص/٩٦).

[٣] يريد شيخ الإسلام بهؤلاء: الذين يحبون الله بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى.

[٤] التحفة العراقية (ص/٤٥٢).

[٥] انظر: مجموع الفتاوى (١/٩٥-٩٦).

الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد، وهي الفاصلة بين الكفر والإيمان قال النبي ﷺ : «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[1].

ومما يدل على أهمية شأن الصلاة أيضا أن الله فرض الصلوات الخمس على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء وهو في السماء، كما جاء في حديث الإسراء، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال الله ﷻ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ العنكبوت: ٤٥، وهي آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ، فعن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم»، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه[2]، وأيضا فإن الله لما ذكر صفات المؤمنين في سورتي المؤمنون والمعارج بدأها بالصلاة وختمها بالصلاة، فقال في سورة المومنين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ المؤمنون: ١ - ٢، وقال في آخرها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ المؤمنون: ٩، وقال في سورة المعارج: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ المعارج: ٢٢ - ٢٣، وقال في آخرها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ المعارج: ٣٤ .

وإقامة الصلاة تكون على حالتين: إحداهما واجبة، وهو؛ أداؤها على أقل ما يحصل به فعل الواجب وتبرأ به الذمة، ومستحبة، وهو؛ تكميلها وتتميمها بالإتيان بكل ما هو مستحب فيها[3].

فالصلاة شأنها عظيم ، وهي تجمع جل أسباب تفاضل أعمال القلوب:

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٦١)، في كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٠٩/١٩)، وابن ماجه في سننه (ص/٢٨٥) وصححه الألباني في الإرواء (٢٣٨/٧)

(3) شرح حديث جبريل في تعليم الدين، للعلامة الشيخ عبدالمحسن العباد (٢٣/٣-٢٤)، ضمن مجموعة (كتب ورسائل الشيخ)، بتصرف.

- ففيها قراءة القرآن،
- وفيها ذكر الله ﷻ،
- وفي إقامتها دليل على الإيثار لمحاب الله على محاب المقيمين لها، فإنهم لا يقيمونها في الحر والبرد، في الليل والنهار، في الصحة والمرض، في السفر والحضر إلا وقلوبهم مليئة بمحبة الله.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «اعلم أن الله تعالى خلق فعل العبد سببا مقتضيا لآثار محمودة أو مذمومة، والعمل الصالح مثل صلاة أقبل عليها بقلبه ووجهه وأخلص فيها وراقب، وفقه ما بنيت عليه من الكلمات الطيبات، والأعمال الصالحات، يعقبه في عاجل الأمر نور في قلبه، وانشراح في صدره، وطمأنينة في نفسه، ومزيد في علمه، وتثبيت في يقينه، وقوة في عقله، إلى غير ذلك من قوة بدنه، وبهاء وجهه، وانتهائه عن الفحشاء والمنكر، وإلقاء المحبة له في قلوب الخلق، ودفع البلاء عنه وغير ذلك مما يعلمه ولا نعلمه.

ثم هذه الآثار التي حصلت له من النور والعلم واليقين وغير ذلك أسباب مفضية إلى آثار أخر من جنسها ومن غير جنسها أرفع منها وهلم جرا، ولهذا قيل: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها...»[1].

هذه جملة من الأسباب التي تستجلب به أعمال القلوب، فجدير بكل ناصح لنفسه أن يأخذ بهذه الأسباب، ويحرص على تحقيقها علما وعملا، فإن من نعم الله على عباده تعريفهم بأسباب سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

---

[1] مجموع الفتاوى (٣٩٦/٨).

المطلب الثاني

الأسباب المضْعِفة لأعمال القلوب

وكما أن هناك أسبابا تستجلب بها أعمال القلوب، فهناك أسباب لإضعافها أو إنقاصها، وكما أن المسلم مطالب بمعرفة أسباب زيادة أعمال القلوب ليطبقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة أسباب إضعافها ليحذرها.

فأسباب إضعاف أعمال القلوب، وعوامل إنقاصها كثيرة ومتنوعة، إلا أنها في جملتها تنقسم إلى قسمين: أسباب داخلية، وأسباب خارجية، وتحت كل قسم منها عدة عوامل[١]:

القسم الأول: الأسباب الداخلية.

هي الأسباب الداخلية والعوامل الذاتية التي لها تأثير في أعمال القلوب بالنقص، وهي عدة عوامل:

الأول: الجهل، وهو ضد العلم.

فكما أن العلم من أعظم أسباب تفاضل أعمال القلوب، فالجهل ضده، فمحبة الظلم والعدوان سببه الأول هو الجهل وفساد العلم.

فالسيئات عموما: منشؤها الجهل، فإنه لا أحد يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة، أو لهواه وميل نفسه إليها، ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها، أو لبغض نفسه لها.

وفي الحقيقة: فالسيئات كلها ترجع للجهل، لأن الهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن هذا يضره ضررا راجحا لم يفعله، بل انصرفت نفسه عنه بالطبع، فإن الله سبحانه وتعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها، وبغضا لما يضرها، فلا

---

[١] انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٢٤٨)، وما بعدها.

تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررا راجحا، بل متى فعله كان لضعف العقل، ولهذا قيل: كل من عصى الله فهو جاهل[١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وسبب ذلك: أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار»[٢].

والحاصل، إذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات وترك السيئات، وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم، تبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم[٣].

الثاني: الغفلة والإعراض عن ذكر الله.

لا ريب أن ذكر الله جل شأنه وعدم الغفلة سبب مؤثر في حياة القلوب وهو من أوجه زيادة الإيمان ونقصانه كما ذكره شيخ الإسلام، قال رحمه الله: «الوجه السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به، واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلا عنه، أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق، والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، ولهذا قال عمير بن حبيب[٤] من الصحابة: "إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه، فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه"[٥]، وهو كذلك...، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/٢٨٧- ٢٩٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٥٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/٢٨٧- ٢٨٩).

(٤) عُمير بن حبيب بن خماشة بن جويير بن عبيد بن عنان بن عامر بن خطمة الأنصاري الخطمي، قال ابن حجر: «قال البخاري بايع تحت الشجرة، وقال ابن السكن مدني له صحبة، وهو جد أبي جعفر الخطمي»، انظر: الإصابة (٥/٣٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في السنة (٦٢٤، ٦٢٥)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص/٣٠).

عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ الكهف: ٢٨، وقال تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الذاريات: ٥٥، وقال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴾ الأعلى: ١٠-١١، ثم كلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك، وعمل به حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك، وعرف من معاني أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك كما في الأثر: "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم"[(١)]، وهذا أمر يجده في نفسه كل مؤمن.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت"[(٢)]، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ الأنفال: ٢، وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم عملا بذلك العلم، وتزيدهم تذكرا لما كانوا نسوه، وعملا بتلك التذكرة....، والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه، ثم كلما فعل شيئا مما أمر به استحضر أنه أمر به، فصدق الأمر فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلا عنه، وإن لم يكن مكذبا منكرا»[(٣)].

فالحاصل، كما أن ذكر الله سبب تستجلب به أعمال القلوب، فكذلك الغفلة والإعراض عن ذكر الله من أسباب مرض القلب أو موته وذلك باستيلاء الشهوات والشبهات عليه.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/١٥)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/٩٠) وابن عساكر في تأريخ دمشق (٣٢/٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١١٢)، في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٧)، في كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، وجوازها في المسجد، ولفظه: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت».

(٣) الإيمان الكبير (ص/١٨٦-١٨٧)، وانظر: الإيمان الأوسط (ص/١١٠).

الثالث: فعل المعاصي، وارتكاب الذنوب.

كما أن أعمال الجوارح من الطاعات تؤثر في القلب وأعمالها صلاحا وصحة وقوة ونماء، فكذلك أعمال الجوارح من المعاصي والسيئات تؤثر أيضا في القلوب وأعمالها فسادا وموتا ومرضا وضعفا.

وقد أخبرنا الله بأن الذنوب والمعاصي تذهب الإيمان شيئا فشيئا حتى يطبع على القلب ويختم عليه من كثرة الذنوب، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤، أي غطت وغلبت على قلوبهم المعاصي وأحاطت بها، قال الحسن البصري وغيره من السلف: «هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت»[1].

وبهذا جاء التفسير لهذه الآية عن رسول الله ﷺ، قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك قول الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»[2].

ويؤيد هذا المعنى للآية ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين، على أبيض مثل الصفاء فلا تضره فتنة ما دامت

---

[1] تفسير الطبري (٢٨٧/٢٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣٤٧/١٦).

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٣/١٣)، والترمذي في سننه (ص/٧٥٦) في كتاب التفسير، وقال: هذ حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه(ص/٧٠٣)، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، والحاكم في المستدرك (١٠٠/١)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في التعليق الرغيب (٢٣٢٢).

السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبادا[١] كالكوز مجخيا[٢]، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه»[٣].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا أثر المعاصي على القلوب: «ومعلوم أن من حافظ على الصلوات بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة، وكان يخشى الله الخشية التي أمره بها، فإنه يأتي بالواجبات، ولا يأتي كبيرة.

ومن أتى الكبائر: مثل الزنا، أو السرقة، أو شرب الخمر وغير ذلك، فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي يترع منه عند فعل الكبيرة»[٤].

وفي معرض بيان أثر أعمال الجوارح من الطاعات والمعاصي على القلوب وأعمالها، مثل شيخ الإسلام لأثر المعاصي في القلوب بالكذب، فقال رحمه الله: «وكذلك العمل السيء مثل الكذب - مثلا - يعاقب صاحبه في الحال بظلمة في القلب، وقسوة وضيق في صدره، ونفاق واضطراب، ونسيان ما تعلمه، وانسداد باب علم كان يطلبه، ونقص في يقينه وعقله، واسوداد وجهه وبغضه في قلوب الخلق، واجترائه على ذنب آخر من جنسه أو غير جنسه وهلم جرا، إلا أن يتداركه الله برحمته»[٥].

---

[١] مُربد: هو لون بين السواد والغبرة، وهو لون النعام، ومنه قيل للنعام: رُبْدٌ، انظر: غريب الحديث (١٣٩/٥)، لأبي عبيد القاسم بن سلام.

[٢] فإن المُجَخِّي المائل، قال أبو عبيد: «ولا أحسبه أراد مع ميله إلا أن يكون منخرق الأسفل، فشبه به القلب الذي لا يَعي خيرا كما لا يثبت الماء في الكوز المنخرق» (١٤٠/٥).

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٨٢)، في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا.

[٤] الإيمان الكبير (ص/٢٩).

[٥] مجموع الفتاوى (٣٩٦/٨).

وحين تكلم عن الأضرار التي تترتب على شرب الخمر، ذكر منها أن (الخمر تصد الإنسان عن علمه وتدبره ومصلحته في معاشه ومعاده...، وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هي منتهى الشيطان...، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب توقع العداوة والبغضاء، وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من معصية الله..)[1].

القسم الثاني: الأسباب الخارجية.

هي الأسباب الخارجية والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في أعمال القلوب بالنقص، وهي عدة عوامل:

الأول: الشيطان.

أكد الله جل وعلا في أكثر من موضع في كتابه العزيز على عظيم عداوة الشيطان للإنسان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ الإسراء: ٥٣.

قال ابن الجوزي: «فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه السلام، وقد بذل عمره في فساد أحوال ابن آدم، وقد أمر الله بالحذر منه» فذكر جملة من النصوص، ثم قال: «وفي القرآن من هذا كثير»[2].

ومن عداوة الشيطان الظاهرة دأبه على إضلال المؤمنين وإغوائهم، وتزيين الكفر والمعصية في قلوبهم، والوسوسة في صدورهم، ومحاولته المتجددة في الاستحواذ عليهم، وإيقاعهم في حبائله وأباطيله، فيصدهم عن عبودية الله جل شأنه، وينأى بهم عن الاستقامة على شرعه ودينه، لتصبح قلوبهم محلا للغفلة، ومقرا للشبهة، ومرتعا للشهوة، ناسية للحق، تاركة للهدى، غافلة عن الذكر.

قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ البقرة: ٢٦٨.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٥/٣٤٥-٣٤٦).

[2] تلبيس إبليس (ص/٢٣).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الحجر: ٣٩.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ الناس: ٥.

وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ المجادلة: ١٩.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الزخرف: ٣٦ – ٣٧.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ يس: ٦٢.[١]

فإذا كان الشيطان يدعو النفوس إلى المحرمات ويزين الطريق إليها حتى يوقعها في الشر، نهانا الله عن اتباع خطواته ومسالكه في الإغواء والإضلال، مبينا لنا أنه عدو مبين، وأنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٦٨ – ١٦٩.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ النور: ٢١.[٢]

فالشيطان من أخطر الأسباب الخارجية التي توقع العبد في المحرمات، وأما تأثيرها في إضعاف أعمال القلوب فواضح، فمثلا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥، فدلت الآية على أن المؤمنين لا يجوز أن يخافوا أولياء الشياطين، ولا أن يخافوا الناس، بل يجب عليهم أن يخافوا الله وحده، وذلك هو

---

[١] عبودية القلب لرب العالمين (١/٤٤٤-٤٤٥).

[٢] مجموع الفتاوى (١٥/٤٣٦-٤٣٧).

تحقيق الإيمان بالله[1]، فبقدر ما يستسلم العبد لتخويف الشيطان يفوّت من تحقيق إخلاص الخوف لرب العالمين، بل إذا انقاد العبد له واسترسل معه في مخاوفه قد يوصله ذلك إلى الشرك الأكبر.

فمن المهم لمراغمة الشيطان وحماية القلب من كيده، العلم على سد منافذه على القلب، وإغلاق الأبواب التي تفتح له طريقا إليه.

ومن أهم العوامل المؤثرة في إغلاق مداخل الشيطان تقوى الله ﷻ وذكره تبارك وتعالى، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والشيطان وسواس خناس، إذا ذكر العبد ربه خنس فإذا غفل عن ذكره وسوس، فلهذا كان ترك ذكر الله سببا ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب»[2].

الثاني: الدنيا وفتنتها.

فإن من أسباب نقص أعمال القلوب وضعفها الاشتغال بعرض الدنيا الزائل، وشغل الأوقات فيها والانهماك في طلبها، والجري خلف ملذاتها وفتنها ومغرياتها، متى عظمت رغبة العبد وتعلق قلبه بها ضعفت الطاعة عنده ونقص الإيمان بحسب ذلك.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبه، وما يخافه ويحذره كائنا من كان، ولهذا قال تعالى: ﴿ **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** ﴾ المؤمنون: ٦٣:، فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم، قال الله تعالى:

﴿ **فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾ المؤمنون: ٥٤، أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، وقال تعالى: ﴿ **قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ**

[1] مجموع الفتاوى (٢٠٦/١٤).

[2] مجموع الفتاوى (٣٤/٤).

سَاهُونَ ﴾ الذاريات: ١٠ - ١١، الآيات: أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له، وهذا يشبه قوله: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ الكهف: ٢٨، فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة، ولهذا قال من قال: السهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر؛ الغفلة والشهوة.

فالغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة، والشهوة تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه، غافلا عن الله، مريدا غير الله، ساهيا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط"[1].

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم، وعبد ما وصف في هذا الحديث، والقطيفة هي التي يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف: "البس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكون أنت تخدمه"، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، والخميصة هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال، وإنما نبه به النبي ﷺ على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك: فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون، ولهذا قال: "إن أعطي رضي وإن منع سخط"، فما كان يرضي الإنسان حصوله، ويسخطه فقده فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما ويسخط لفقدهما، والمعبود الحق الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه

---

[1] تقدم تخريجه (ص/٤٧٢).

حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة، وذكر وعبادة، فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب»[1].

وقد سبق معنا أن الزهد في الدنيا مترلة يتطلع إليها المؤمنون الصادقون، فإنه صفة من أجل الصفات، وفضيلة من أرقى الفضائل، يحرص عليها الصادقون بالتدبر والتأمل والمجاهدة، فإنه معرفة عميقة بحقيقة الدنيا، ويقين صادق قوي بالآخرة، وأنس واطمئنان بالله سبحانه ذكرا وتلاوة وقياما واستقامة ودعوة وجهادا في سبيل الله.

ولا يحصل الزهد في الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هي، ويعرف عيوبها وآفاقها، ويتحقق ما يستغني عنه منها، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها، ولا بد له في ذلك من العلم، وإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدينا والآخرة، ويؤثر منها ما هو أولى بالإيثار[2].

الثالث: قرناء السوء.

فهم أضر الناس على إيمان الشخص وسلوكه وأخلاقه، فمخالطتهم ومصاحبتهم سبب عظيم من أسباب نقص الإيمان وضعفه.

فالمصاحبة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله[3]، قال النبي ﷺ: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[4].

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٥٠٦-٥٩٨).

[2] انظر: مدارج السالكين (٢/٨).

[3] مجموع الفتاوى (١٥/٣٢٧).

[4] أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٣/٣٩٨) وأبو دواد في سننه (ص/٨٧٦)، في كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، الترمذي في سننه (ص/٥٣٥)، في كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد حسنه الألباني في الصحيحة (٩٢٧).

قال أبو سليمان الخطابي: «قوله: المرء على دين خليله، معناه؛ لا تخالل إلا من رضيت دينه وأمانته، فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه، ولا تغرر بدينك ولا تخاطر بنفسك فتخالل من ليس مرضيا في دينه ومذهبه»[1].

وإنما جاء النهي عن مخالطة قرناء السوء والتحذير من مجالستهم، لأن طباع الإنسان مجبولة على الاقتداء والتشبه بمن يقارن، فمجالسة طلاب العلم تحرك في النفس الحرص على طلب العلم، ومجالسة الزهاد تزهد في الدنيا، ومجالسة المبتدعة وأهل الأهواء تردي في مهاوي البدع، ومجالسة الحريص على الدنيا تحرك في النفس الحرص على الدنيا، وهكذا.[2]

لذا، فإن من الحزم والرشاد، ورجاحة العقل وحصافة الرأي، ألا يجالس المرء إلا من يرى في مجالسته ومؤاخاته النفع له في أمر دينه، و يجتنب مجالسة أهل الشر وقرناء السوء، فإنه من أعظم أسباب نقص الإيمان وضعفه، بل وربما اضمحلاله وتلاشيه، وذلك بحسب حال هؤلاء في السوء وبحسب خلطة الرجل لهم.

---

[1] العزلة (ص/١٤١).

[2] زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٢٧٢/٢٧٥).

المبحث الثاني: درجات الناس في أعمال القلوب.

تمهيد

إنما يتفاضل المؤمنون بتفاضلهم في الإيمان، والإيمان يتفاضل كما هو المقرر عند أهل السنة والجماعة، وتفاضل الإيمان زيادته ونقصانه، تكون زيادته بالطاعة ويكون نقصانه بالمعصية، ولقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة بأن الإيمان يزيد وينقص.

ووجه كون الأصل في تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان، أن الإيمان إنما كان متفاضلا يقبل الزيادة والنقصان لأنه شعب كما قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها لا إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1]، فمن استكمل الشعب استكمل الإيمان ومن نقص منها نقص من إيمانه، وبهذا يتصور تفاضل المؤمنين إذ لو كان الإيمان شيئا واحدا لا يقبل الزيادة والنقصان فلا يتفاضل أهله فيه لتساوي حظهم منه، لأنه يكون حينها شيئا واحدا فلا يقبل الزيادة فيزيد أحد المؤمنين على آخر فيه فيفضله، ولا يقبل النقص فينقص أحد المؤمنين عن آخر فيه فيكون مفضولا، وعليه فيكون إيمان الأنبياء وإيمان آحاد المؤمنين متساويا، وهذا باطل قطعا.

ونذكر أولا بعض الأدلة التي تدل على تفاضل المؤمنين في الإيمان:

قد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ

---

(1) تقدم تخريجه (ص/٥٦).

أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ النساء: ٦٩، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذه الأربعة هي مراتب العباد: أفضلهم الأنبياء، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ النساء: ٩٥، هذا نص في التفاضل بين المؤمنين، وبيان لوجه من وجوه ذلك التفاضل، فالآية ناطقة بأن من جاهد في سبيل الله أفضل ممن قعد عن الجهاد من غير عذر مانع من الجهاد، ومع أن الجميع مؤمن بالله وكلا وعد الله الحسنى، إلا أن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ فاطر: ٣، ﴿ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، ﴿ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

وأما الأحاديث النبوية الدالة على تفاضل أهل الإيمان فيه فهي كثيرة جدا، منها:

قال النبي ﷺ: «إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا»[(١)]، فهذا دليل على تفاضل المؤمنين، وأن من أوجه تفاضلهم حسن الخلق، قال النووي رحمه الله: «فيه الحث على حسن الخلق، وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء الله تعالى وأوليائه»[(٢)].

[(١)] مجموع الفتاوى (٢/٢٢٣).

وسئل النبي ﷺ: أي المسلمين أفضل؟، قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٣]، أي المسلم الذي سلم المسلمون من لسانه ويده أعلى درجة من المسلم الذي ليس كذلك، وإن كان فيه أصل الإيمان.

وقال النبي ﷺ: «بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص، منها ما يبلغ الثُدِيّ، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومر عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره. قالوا: ما أوّلت يا رسول الله ؟ قال الدين»[٤]، فهذا صريح في تفاضل المؤمنين في الإيمان، قال ابن حجر رحمه الله: «ومطابقته للترجمة[٥] ظاهرة من جهة تأويل القمص بالدين، وقد ذكر إنهم متفاضلون في لبسها فدل على أنهم متفاضلون في الإيمان»[٦].

فدلت هذه الأدلة من الكتاب والسنة أن أهل الإيمان يتفاضلون بما قام لديهم من إيمان ويقين، وبما يقومون به من البر والتقوى، وترك ما نهى عنه الله تعالى من المنهيات والمحرمات وما يتردد بينهما من المتشابهات، استبراء للدين والعرض ونيلا للدرجات العلى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٥٤)، في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، ومسلم صحيحه (ص/٩٤٩)، في كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ.

(٢) شرح النووي (١٥/٧٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥)، في كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ومسلم في صحيحه (ص/٤١)، في كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧)، في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، ومسلم في صحيحه (ص/٩٧٤)، في كتاب الفضائل، باب من فضائل عمر.

(٥) أي مطابقة الحديث لترجمة الباب عند البخاري في صحيحه، لأنه رحمه الله بوّب لهذا الحديث بابا بعنوان: «تفاضل أهل الإيمان في الأعمال».

(٦) فتح الباري (١/٧٤).

فمنهم من بلغ من الكمال درجة يستطيع معها تنفيذ الأوامر الشرعية، واجتناب جميع المنهيات التي نهى عنها الشارع الحكيم، ثم إنه لم يقف عند هذا الحد بل طفق ينشد درجة أكمل، بالمحافظة على الإتيان بطاعات حث الشارع على الإتيان بها استحبابا لا إيجابا.

وصنف آخر شارك هؤلاء في الإتيان بسائر الأوامر، واجتناب كافة المنهيات، إلا أنه اقتصر عليها و لم يتعدها إلى ما سواها من النوافل.

وثالث تقبل التشريع وصدّق به، إلا أنه قصر في الإتيان ببعض الواجبات تهاونا، وقادته شهوته الجامحة إلى ارتكاب بعض المحرمات[1].

ونجد شيخ الإسلام قسم الناس في أعمال القلوب على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان[2]: فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فاطر: ٣، قال شيخ الإسلام رحمه: «والناس فيها على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محظور. والمقتصد: المؤدي الواجبات والتارك المحرمات. والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه»[3].

ويقول أيضا: «العبادات المأمور بها، كالإيمان الجامع وكشعبه... لها ثلاثة أحوال، وربما لم يشرع لها إلا حالان، لأن العبد إما أن يقتصر على الواجب فقط، وإما أن يأتي بالمستحب

---

[1] الإيمان بين السلف والمتكلمين (ص/٤١-٤٣) لشيخنا: أحمد بن عطية الغامدي رحمه الله.

[2] انظر: مجموع الفتاوى (٥/١٦١-١٦٢)، و (١٣/٣٨٣).

[3] التحفة العراقية (ص/٢٩٠).

فيها، وإما أن ينقص عن الواجب فيها. فالأول حال المقتصدين فيها وإن كان سابقا في غيرها، والثاني حال السابق فيها، والثالث حال الظالم فيها»[1].

وهذا التقسيم بالنظر إلى درجات المسلمين فقط بدون اعتبار الكفار، أما لو أردنا إدخال الكفار في هذ التقسيم لكانت الدرجات أربع، هي:

١- المعرضون عن عبادة الله من الكفار والمنافقين.

٢- الظالم لنفسه.

٣- المقتصد.

٤- السابق بالخيرات.

وقد أشار شيخ الإسلام إلى القسم الأول - وهم المعرضون عن عبادة الله - حين تكلم على درجات الناس في التوكل، فقال رحمه الله: «ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الإيمان»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «قاعدة نافعة: العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل سفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر... ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

فقسم: قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار، وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب، ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته، وإقامة دعوة غيرها، فهؤلاء جعلت

---

[1] مجموع الفتاوى (١٩/٢٩٠).

[2] مجموع الفتاوى (ص/٣٤٧).

أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خلقوا لها واستعملوا بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم تسوقهم إلى منازلهم سوقا...

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام، وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله، وهؤلاء كلهم مستعدون للسير، موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه... »[1].

إذن، إذا أردنا بيان درجات الناس في أعمال القلوب عند الاطلاق، أدخلنا الكافرين والمنافقين، لكن بما أنهم لا حظّ لهم في أعمال القلوب التي أمر الله بها، فسنذكر ما يتعلق بالأقسام الثلاثة (الظالم لنفسه- والمقتصد- والسابق بالخيرات)، فمن هم؟ وما صفاتهم؟ وما حكمهم في الدار الآخرة، هذا ما سنبينه في المطالب القادمة بإذن الله.

المطلب الأول

الظلم لنفسه

إذا كان ما قام بالقلب، منها أعمال قلبية مأمور بها، ومنها أمراض قلبية منهي عنها، فمن ترك بعض الواجبات القلبية أو قصّر في الإتيان ببعضها فهو ظالم لنفسه، وكذلك من ارتكب بعض المحرمات القلبية فهو ظالم لنفسه.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الظالم لنفسه هو التارك لبعض الواجبات الفاعل لبعض المحرمات، فقال رحمه الله: «فالظالم لنفسه: العاصي بترك مأمور أو فعل محظور»[2].

---

[1] طريق الهجرتين (ص/٢٨٨-٢٨٩).

[2] التحفة العراقية (ص/٢٩٠).

وقال ابن القيم رحمه الله مشبهًا فعل الطاعات بزاد السفر، وأن الظالم لنفسه مفرّط في الأخذ بالزاد: «فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد، غير آخذ منه ما يبلغه المترل، لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه»[١].

وقال ابن كثير رحمه الله: «هو المفرط في فعل بعض الواجبات، والمرتكب لبعض المحرمات»[٢].

ومن صور الظالم لنفسه في أعمال القلوب ما ذكره شيخ الإسلام عند كلامه عن الخشوع، فخشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب، لكن الناس فيه على ثلاثة أقسام: مقتصدون، وهم الذين يأتون بالواجبات، وهم عموم المؤمنين المستحقين للجنة، وسابقون: وهم الذين يأتون بالمستحبات بعد أداء الواجبات، ومن لم يكن من هؤلاء ولا هؤلاء فهو ظالم لنفسه[٣].

ومن صوره أيضا، حين ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن التوبة واجبة، ومستحبة، فالواجبة هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور، والمستحبة هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات، فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين: إما الكافرين وإما الفاسقين[٤].

ويصف ابن القيم حال هذه المرتبة ويذكر جزاءهم فيقول رحمه الله: «فأما الظالم لنفسه، فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه،

---

(١) طريق الهجرتين (ص/٢٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٧٢٦).

(٣) انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٨).

(٤) رسالة في التوبة (١/٢٢٧).

فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاونا ووعدا بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب، فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو للأغلب منهما، فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله»[1].

ويقول في موضع آخر: «وأما السائرون إليه، فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته، وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله، فهذا حال المسلم، وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنا، وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلا، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحا أبدا، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان ونعوذ بالله من الخذلان»[2].

فالظالم لنفسه إذا: هو العاصي بترك مأمور أو فعل محظور، مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب.

فهو أهل الإيمان، فمعه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد قد يجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب والسيئات المقتضية للعقاب حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله

---

[1] طريق الهجرتين (ص/٢٩٠)

[2] نفس المصدر (ص/٣١٤)

وسلم وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما القائلون بالتخليد: كالخوارج والمعتزلة القائلين: بأنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وإنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره في أهل الكبائر لا قبل دخول النار ولا بعده، فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب، وحسنات وسيئات، بل من أثيب لا يعاقب ومن عوقب لم يثب.

ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة كثيرة، منها أنه ثبت في السنة النبوية أن المذنب بالشرب قد يكون محبا لله ورسوله، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان، حيث روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله و يلقب حمارا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتى به يوما فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله»[١] [٢].

فالظالم لنفسه من أهل القبلة لا ينفى عنه أصل الإيمان بفسوقه، ولا يوصف بالإيمان الكامل، ولكنه مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته، مع إجراء أحكام المؤمنين عليه في الدنيا[٣].

أما في الآخرة، فإن من مات مصرا على المعصية، فهو تحت مشيءة الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه على قدر ذنبه، ثم مصيره إلى الجنة، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٤٨.[١]

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٦٩)، في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة.

[٢] التحفة العراقية (٢٩٢-٢٩٥).

[٣] نظر: العقيدة الواسطية (ص/٢٦٨-٢٦٩)، والإيمان الكبير (ص/١٩٠)، والإيمان الأوسط (ص/١٦٣).

فما دون الشرك من الذنوب فهو تحت مشيءة الله، إن شاء غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته.

ويفصل القول العلامة السعدي في حال الظالم لنفسه في الآخرة، فيقول رحمه الله: «وهذا القسم ينقسم إلى قسمين:

القسم الاول: من يرد القيامة وقد كفر عنه السيئات كلها، إما بدعاء، أو شفاعة، أو آثار خيرة ينتفع بها في الدنيا، أو عذاب في البرزخ بقدر ذنوبه، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه[٢].

القسم الثاني: من ورد القيامة وعليه سيئات، فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من رجح حسناته على سيئاته فهذا لا يدخل النار، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته، وهي من رحمة الله.

النوع الثاني: من تساوت حسناته وسيئاته فهؤلاء هم أصحاب الأعراف، وهو موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه، وفيه ما شاء الله، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة كما وصف ذلك في القرآن.

النوع الثالث: من رجحت سيئاته على حسناته، فهذا قد استحق دخول النار، إلا أن يمنع من ذلك مانع، من شفاعة الرسول ﷺ له، أو شفاعة أحد أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم في القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه، أوتدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة، وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه، ثم مآله إلى الجنة، ولا يبقى في

---

[١] انظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/١١٠-١١٢).

[٢] انظر: الإيمان الأوسط (ص/٣٣-٥٠)، فقد ذكر شيخ الإسلام عشرة أسباب لرفع العقوبة في الآخرة.

النار أحد في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها»[1].

المطلب الثاني

المقتصد

المقتصد هو الذي يؤدي الواجبات، ويترك المحرمات، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمقتصد: المؤدي للواجبات، والتارك للمحرمات»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فأما مرتبة أصحاب اليمين، فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات، وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات»[3].

وقال ابن كثير رحمه الله: «هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات»[4].

ويصف شيخ الإسلام رحمه الله حال المقتصد، فيقول: «فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات... والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفا بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا»[5].

---

(1) فوائد قرآنية (ص/٦١)

(2) التحفة العراقية (ص/٢٩٠).

(3) مدارج السالكين (٨٢/١).

(4) تفسير ابن كثير (٧٢٦/٣).

(5) الفرقان (ص/٩٨-١٠٠).

ثم شبّه رحمه الله حال المقتصد بحال النبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما السلام، فقال: «فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه، ويتصرف في الولاية والمال بما يحب ويختار من غير إثم عليه»[1].

ويفصل حالهم ابن القيم فيقول رحمه الله: «وأما المقتصدون: فأدوا وظيفة تلك المرحلة و لم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم. فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلا بها قائما بأعيانها مؤديا واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول فهو كذلك سائر يومه، فإذا جاء الليل إلى حين النوم يأخذ الواجب ويقوم بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم»[2].

هذا حالهم في هذه الدينا، أما حالهم في الآخرة، فإن الله لما ذكر السابقين في سورة الواقعة وهم المقربون، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم أصحاب الأبرار، فذكر لهم ما أعد لهم من النعيم، فقال تعالى: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۞ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۞ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۞ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۞ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۞ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۞ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۞ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۞ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۞ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۞ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۞ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۞ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ الواقعة: ٢٧ ــ ٤٠.

---

[1] نفس المصدر (ص/١٠٠-١٠١)

[2] طريق الهجرتين (ص/ ٢٩٠)، وانظر (ص/٣١٤-٣١٩).

ثم ذكر حالهم عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۞ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ الواقعة: ٩٠ ـ ٩١.[(١)]

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وأما من كان من أصحاب اليمين، ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾، فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار، وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم، فأدخلهم بها الجنة، كل على حسب مرتبته»[(٢)].

المطلب الثالث

السابق بالخيرات

السابق بالخيرات هو الفاعل للواجبات والمستحبات، والتارك للمحرم والمكروه وبعض المباحات، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والسابق بالخيرات: المتقرب بما يقدر عليه من واجب ومستحب، والتارك للمحرم والمكروه»[(٣)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات»[(٤)].

---

(١) انظر: الفرقان (ص/٩٢-٩٣)، ومن أراد الاستزادة عن حالهم في الآخرة، فليراجع أيضا سورة المطففين، وسورة الإنسان.

(٢) فوائد قرآنية (ص/٦١).

(٣) التحفة العراقية (ص/٢٩٠).

(٤) مدارج السالكين (١/٨٢-٨٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: «هو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات»[1].

ويصف شيخ الإسلام رحمه الله حال السابق بالخيرات، فيقول: «وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته أحبهم الرب حبا تاما، كما قال تعالى: "ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه"[2]، يعني الحب المطلق...

فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله ﷻ، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفا كما عملوا له صرفا»[3].

ثم شبّه رحمه الله حال السابق بالخيرات بحال العبد الرسول مثل نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فقال: «وأما العبد الرسول فلا يعطي أحدا إلا بأمر ربه، لا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء، بل يعطي من أمره ربه بإعطائه، ويولي من أمره ربه بتوليته، فأعماله كلها عبادات لله تعالى»[4].

أما ابن القيم حين وصف حالهم استغفر الله من وصف حالهم خشية أن لا يتصف به مع وصفه لحالهم، فقال رحمه الله: «وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف مترلتهم والعلم بها وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة»[5]،

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٧٢٦).

(٢) تقدم تخريجه ().

(٣) الفرقان (ص/٩٩-١٠٠).

(٤) الفرقان (ص/١٠١).

(٥) طريق الهجرتين (ص/٣١٩).

ثم بين رحمه الله فوائد العلم بوصف حالهم، محذرا من التثبيط عن معرفته، بحجة عدم منفعته، ومؤكدا على التفريق بين العلم بحال هؤلاء المقربين وبين الاقتداء والتأسي بهم - وهو المطلوب -، فبعد أن ذكر جملة من فوائد العلم بحالهم قال: «وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبطك عنه، وتقول: إنه لا ينفع، بل احذره واستعن الله ولا تعجز ولكن لا تغتر، وفرق بين العلم والحال، وإياك أن تظن أن بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله، هيهات! ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير، وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم، وبين الصحيح بالفعل»[1].

ثم أخذ رحمه الله في بيان وصف حال السابقين المقربين في سلوكهم وعبادهم، ثم ذكر جماع الأمر- في وصف حالهم- بتكميل عبودية الله ﷻ في الظاهر والباطن، فيحقق الكمال من جهة العلم وجهة العمل.

أما من جهة العلم، فإن أبرز ما اتصف به هؤلاء المقربون هو المعرفة الصحيحة الموافقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في أسمائه وصفاته وأفعاله.

أما من جهة العمل، فإن أبرز ما يتصف به المقربون موافقة أمر الله فيما يحبه الله وبذل الجهد في تحصيل ذلك، وكراهيته لما يكره الله وبذل الجهد في اجتنابه.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبته ما أحبه وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه وبذل الجهد في تركه، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة، لا للأمارة ولا للوامة، فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل.

وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته له

[1] طريق الهجرتين (ص/٣٢٠).

في ذلك يقع الانحراف، ويكون مع ذلك قائما بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم»[1].

فإذا كانت هذه صفات المقربين، وقد حققوا أقصى الكمال في تكميل عبوديتي الظاهر والباطن، فكيف يكون جزاؤهم؟

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ الواقعة: ١٠ ــ ٢٦.

والمقربون هم خواص الخلق، ولذلك لما ذكر الله نعيم الأبرار في الجنة قال: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ المطففين: ٢٥ ــ ٢٨.

فالمقربون يشربون من هذه العين (التسنيم) التي هي أعلى شربة أهل الجنة على الإطلاق صرفا، بينما تمزج لأصحاب اليمين مزجا، فلذلك كانت خالصة للمقربين، لأنهم أعلى الخلق منزلة، ومخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة لأصحاب اليمين.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنه تعالى قال ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾، ولم يقل: يشرب منها، لأنه ضمن قوله يشرب معنى يروى، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل: يشربون منها لم يدل على الرّي، فإذا قيل: يشربون بها، كان المعنى: يروون بها، فالمقربون يرون بها فلا

[1] طريق الهجرتين (ص/٣٣٤).

يحتاجون معها إلى ما دونها، فلهذا يشربون منها صرفا بخلاف أصحاب اليمين، فإنها مزجت لهم مزجا»[1].

والجدير بالذكر أن المقتصدين أتوا بالإيمان الواجب، فأما المقربون فأتوا بالإيمان المستحب، وهذا الوجوب والاستحباب قد يكون فيما بين أعمال القلوب، وقد يكون في كل عمل قلبي.

من أمثلة الحالة الأولى: قال ابن القيم رحمه الله: «عبودية الرضا وهي للسابقين، والصبر لأصحاب اليمين»[2].

وقال: «مراتب الناس في المقدور ثلاثة: الرضا: وهو أعلاها، و السخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به، و هو أوسطها، فالأولى للمقربين السابقين، والثانية للمقتصدين، والثالثة للظالمين»[3].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة»[4].

وأعلى من الصبر والرضا حمد الله تبارك وتعالى وشكره، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه»[5].

---

[1] الفرقان (ص/٩٥-٩٦).

[2] مدارج السالكين (١/٣٧١).

[3] مدارج السالكين (١/٨٥).

[4] مجموع الفتاوى (١١/٢٦٠).

[5] التحفة العراقية (ص/٣٦١).

ومن أمثلة الحالة الثانية: يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينا درجات المحبة: «ومحبة الله ورسوله ﷺ على درجتين:

واجبة؛ وهي درجة المقتصدين.

ومستحبة؛ وهي درجة السابقين.

فالأولى تقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لا يحب شيئا يبغضه كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المجادلة: ٢٢. وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى وبغض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضي وجود ما أوجبه،كما تقتضي عدم الأشياء التي نهى الله عنها وذلك مستلزم لبغضها التام. فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه.

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم الله إليه»[1].

ومن أمثلتها أيضا، تقسيم شيخ الإسلام الزهد إلى الواجب والمستحب، قال رحمه الله: «فثبت أن الزهد الواجب هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة، فالزهد المستحب هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين»[2].

وقال أيضا: «ومن زهد فيما يشغله عن الواجبات أو يوقعه في المحرمات، فهو من المقتصدين أصحاب اليمين.

ومن زهد فيما يشغله عن المستحبات والدرجات، فهو من المقربين السابقين»[3].

---

[1] قاعدة في المحبة (ص/١٦٤-١٦٥)، باختصار.

[2] مجموع الفتاوى (١٤٧/٢٠).

[3] نفس المصدر (١٥١/٢٠).

ومن أمثلتها أيضا، ما ذكر شيخ الإسلام عن الرضا، فالقدر الواجب من الرضا هو الرضا بأمر الله الشرعي، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان كما قال النبي ﷺ: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا"، وهو من توابع المحبة»[1].

وأما الرضا بما يفعله الله بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلازل فمختلف فيه، حكى الخلاف شيخ الإسلام و رجح استحبابه، قال رحمه الله: «وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضا، هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين، فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين»، ثم رجح استحبابه فقال: «ولهذا لم يجئ في القرآن إلا مدح الراضين، لا إيجاب ذلك»[2].

وقد مر معنا تقسيم شيخ الإسلام التوبة إلى الواجبة والمستحبة، وأنه من اقتصر على الأولى فهو من المقتصدين، ومن جاء بهما فهو من السابقين، وكذلك الخشية.

والمقصود، أن كل عمل من أعمال القلوب فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار ومقربون، فالأبرار في أذياله، والمقربون في ذروة سنامه، بل هكذا مراتب الإيمان جميعا، وكل من النوعين لا يحصي تفاوتهم وتفاضل درجاتهم إلا الله[3].

قال شيخ الإسلام: «والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم، قال تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ

---

[1] التحفة العراقية (ص/٣٥٧).

[2] التحفة العراقية (ص/٣٥٦-٣٥٧).

[3] مدارج السالكين (١/١٠٤-١٠٥).

عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء: ١٨ - ٢١، فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين»[1]، ثم ذكر شواهد على ذلك.

وأختم هذا المبحث بلطيفة ذكرها العلامة السعدي رحمه الله حين تكلم عن حال الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، فذكر رحمه الله الأمور التي اشترك وافترق فيها هؤلاء الثلاثة.

يقول العلامة السعدي رحمه الله: «اشترك هؤلاء الثلاثة:

١- في أصل الإيمان.

٢- في اختيار الله لهم من بين الخليقة،

٣- في أنه منّ عليهم بالكتاب،

٤- وفي دخول الجنة.

وافترقوا:

١- في تكميل مراتب الإيمان،

٢- في مقدار الاصطفاء من الله،

٣- في ميراث الكتاب،

٤- وفي منازل الجنة، ودرجاتها بحسب أوصافها»[2].

فأسأل الله العظيم أن يجعلنا من المصطفين الأخيار، ويدخلنا الجنة مع الأبرار.

---

[1] الفرقان (ص/١١٧)، وما بعدها.

[2] فوائد قرآنية (ص/٦٠)، بتصرف يسير




الباب الثالث: المخالفون في أعمال القلوب، والرد عليهم من كلام شيخ الإسلام.

وفيه فصلان:

الفصل الأول: موقف الصوفية من أعمال القلوب، والردعليهم.

الفصل الثاني: موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم.




الفصل الأول: موقف الصوفية من أعمال القلوب، والرد عليهم من كلام شيخ الإسلام.

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: التعريف بالصوفية وبعض مصطلحاتهم.

المبحث الأول: مذاهبهم في أعمال القلوب.

المبحث الثاني: ذكر شبهاتهم.

المبحث الثالث: الرد عليهم.

المطلب الأول

التعريف بالصوفية

المسألة الأولى: التصوف لغة:

تباينت أقوال العلماء في الاشتقاق اللغوي[1] لكلمة التصوف وهل هي مأخوذة من الصفاء أو الصوف أو من الصفة أو الصف أو غير ذلك.

فالشيء الذي اشتقت منه هذه الكلمة لم يعرف له مصدر محدد من قبل أكثر المؤلفين سواء من الصوفية أو من غيرهم، ولكنهم ذكروا عدة احتمالات لتحديد الشيء الذي قد تكون مشتقة منه.

وقد بين شيخ الإسلام سبب إطلاق لفظ الصوفية على العباد والنساك، وعرض أقوال الناس في ذلك، فقال في جواب سؤال عن الصوفية وأصل تسميتهم، فقال رحمه الله: «الحمد لله، أما لفظ "الصوفية" فإنه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري. وتنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي فإنه من أسماء النسب: كالقرشي والمدني وأمثال ذلك، فقيل:

١- إنه نسبة إلى "أهل الصفة" وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل: صُفِّيّ [1].

---

[1] فبالنظر في المعاجم اللغوية، نجد أنهم يطلقون كلمة (صوف) على الصوف المعروف من شعر الحيوانات، ومنها صوفان وصوفانة وتطلق على بقلة زغباء قصيرة، وقد أطلقت كلمة (صوف) في بعض دلالتها بمعنى الميل، فيقال صاف السهم عن الهدف بمعنى مال عنه، وصاف عن الشر أي عدل عنه، انظر: مقاييس اللغة (ص/٥٥٨)، ولسان العرب (٨/٣٠٧-٣٠٨)، والمفردات (ص/٤٩٩)، والمصباح المنير (ص/٢٨٩).

٢- وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله وهو أيضا غلط، فإنه لو كان كذلك لقيل : صَفِّيّ.

٣- وقيل نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل: صَفَوِيّ،

٤- وقيل: نسبة إلى صُوفة بن مُر بن أدّ بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك[٢]، وهذا وإن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضا؛

- لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك.

- ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى.

- ولأن غالب من تكلم باسم "الصوفي" لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام.

٥- وقيل - وهو المعروف - إنه نسبة إلى لبس الصوف»[٣].

٦- و قيل نسبة إلى الصفاء، وهو غلط أيضا، لأنه ينبغي أن يقال صفائية، ولو كان مقصورا لقيل صفوية[٤].[١]

---

[١] كما أنها غير صحيحة من الناحية الشرعية، فإن أهل الصفة أغلبهم من الصحابة الذين لم يكن لهم سكن ومكان يأوون إليه، فحالهم كحال بقية الصحابة لم يكونوا قاعدين عن العمل، وإنما قعدوا في المسجد ضرورة، وأكلوا من الصدقة ضرورة، انظر: مجموع الفتاوى (١١/٣٨-٤٥).

[٢] قد مال إلى هذا القول ابن الجوزي رحمه الله، فإنه حكاه أولا، وحكى بعده أقوالا عديدة، ثم قال:«والصحيح الأول»، انظر: تلبيس إبليس (ص/١٤٦).

[٣] مجموع الفتاوى (١١/٥-٦)، و (١١/١٩٥).

[٤] نفس المصدر (١٠/٣٦٩).

وقد رجح شيخ الإسلام أن التصوف منسوب إلى لبس الصوف، واستدل على ذلك أن هذا موافق للغة.

وقد اعترض القشيري على هذه النسبة، وذلك أن الصوفية ليسوا وحدهم الذين يلبسون الصوف، بل يشاركهم غيرهم، فما الداعي لتخصيص الصوفية بهذه النسبة دون غيرهم[٢].

وقد تصدى للرد على هذا الاعتراض ابن خلدون[٣] من طريقين:

الأول: أنه لو استعرضنا طوائف الناس كالصناع والزراع والعمال لا نجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب على الطائفة الصوفية.

والثاني: أن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهدا وورعا عن لبس فاخر الثياب، أما سائر الناس من غيرهم فيلبسونه لا لهذا الغرض الذي ينشده الصوفية، وحينئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمرا واضحا[٤].

---

(١) وقيل: إن الصوفية منسوبون إلى «الصوفانة» وهي بقلة زغباء قصيرة، وذلك لاكتفائهم بالقليل من الطعام ولو من نبات الصحراء، وهذا غير سليم من ناحية اللغة، لأن النسبة إلى صوفانة هي صوفاني لا صوفي، انظر: تلبيس إبليس (ص/١٤٦).

وقيل: إنهم منسوبون إلى صوفة القفاء وهي الشعيرات النابتة في مؤخرة الرأس، وكأن الصوفي انحرف عن الخلق إلى الحق، انظر: تلبيس إبليس (ص/١٤٦).

وقيل: إنهم منسوبون إلى «السوفية»، وهم الحكماء القائلون بالوحدة، وأن الصوفية أول من أدخل ذلك في الإسلام، فسموا باسمهم، انظر: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة (ص/٢٤-٢٥).

(٢) الرسالة للقشيري (ص/٣٨٥).

(٣) فهو عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة، اشتهر بكتابه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تأريخ العرب والعجم والبربر، وأوله المقدمة التي تعد من أصول علم الاجتماع، وله أيضا: شرح البردة وغيرها، توفي سنة ٨٠٨ هـ، الأعلام (٣/٣٣٠).

(٤) مقدمة ابن خلدون (١/٦١١)، وانظر: موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية (ص/٦٩-٧٠)، تأليف: الدكتور؛ أحمد بن محمد بناني.

المسألة الثانية: التصوف اصطلاحا.

مما سبق تبين أن هناك شيء من الارتباط بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي للتصوف، فذكر الطوسي[1] أن لفظ تصوف وصوفية أطلق على أهله نسبة إلى ردائهم، ولأنهم جماع المعارف والعلوم، فلهم جميع الأحوال، وتتغير أحوالهم دائما، فلا يثبت عليهم اسم مطلقا، ولهذا استحسن إطلاق اسم ردائهم عليهم للتعرف بهم[2].

فالناظر في حقيقة الصوفية يجد صعوبة في تعريف التصوف بعبارة جامعة مانعة، ولقد كثرت التعاريف التي وردت على ألسنة كثير من العلماء[3] وبعض كبار المتصوفة[4] والتي لا

---

(١) هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، الزاهد، شيخ الصوفية ومن أكثر المؤلفين الصوفيين، وهو صاحب كتاب «اللمع»، توفي سنة ٣٧٨ هـ، انظر: شذرات الذهب (٤/٤١٣).

(٢) اللمع (ص/٤٥-٤٦).

(٣) يعرف ابن خلدون أصل التصوف بأنه: «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد للخلوة في العبادة»، انظر: مقدمة ابن خلدون (١/٦١١).

ويبين شيخ الإسلام أن من معاني التصوف عند الصوفية أنه (نوع من الصديقية، فهو أي الصوفي الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهد فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال صدّيقو العلماء وصدّيقو الأمراء، فهم أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم)، انظر: مجموع الفتاوى (١١/١٧).

(٤) وقد عرف التصوف معروف الكرخي، فقال: «التصوف: الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق»، انظر: الرسالة القشيرية (ص/٣٨٦).

وعرفه الجنيد: «التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة»، انظر: اللمع (ص/٤٩)، وقال أيضا: «تصفية القلب عن الموافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة»، انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص/٢٥).

وعرفه سمنون بقوله: «التصوف هو أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء»، انظر: اللمع (ص/٤٩) .

تخرج في عمومها عن وصف مرحلة من المراحل التي مرت بها التصوف، وهو وصف حال الإنسان المنقطع للعبادة الزاهد في الدنيا المعرض عن زخارف الحياة.

فالتصوف في أوله كان زهدا في الدنيا وانقطاعا لعبادة الله، ثم صار حركات ومظاهر خالية من العبادة، ثم إلحادا وخروجا عن دين الله سبحانه وتعالى كما سنبينه في الموجز عن نشأة الصوفية وتطورها.

وقد تناول كثير من العلماء المحدثين التصوف بتعريف[١] أيضا، فقال بعضهم: «إن التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية، يعتمد على جملة من العقائد الغيبية مما لم يقم على صحتها دليل في الشرع، ولا في العقل»[٢].

وقال آخر: «هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها، وأخذ النفس بأسلوب من التقشف، وأنواع من العبادة والأوراد، والجوع، والسهر في صلاة أو تلاوة ورد، حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي للنفس بهذا الطريق المتقدم سعيا إلى تحقيق الكمال الأخلاقي للنفس كما يقولون، وإلى معرفة الذات الإلهية وكمالاتها، وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة»[٣].

فالصوفية فرقة دينية أخلاقية فلسفية، تقوم على الزهد في الدنيا والانصراف إلى الروح، وتعتمد على التأمل والتعبد والتقشف وما إلى ذلك من المجاهدات والرياضات الروحية مما لم يستند إلى دليل شرعي صحيح، وذلك للوصول إلى الغاية البعيدة، ألا وهي الخلاص والتجرد عن الدنيا وما فيها والاتصال بالذات الإلهية والفناء فيها[٤].

---

(١) أورت هذين التعريفين لأنهما شاملين – في نظري– لحقيقة الصوفية.

(٢) التصوف بين الحق والخلق (ص/٧)، تأليف: محمد فهر شقفة.

(٣) التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة (ص/١)، تأليف: د. إبراهيم هلال.

(٤) البوذية، تأريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها (ص/٣٨٠-٣٨١)، تأليف: الدكتور. عبد الله مصطفى نومسوك.

المسألة الثالثة: موجز عن نشأة الصوفية وتطورها.

إن أول بوادر ظهور الصوفية كان في القرن الثاني للهجرة، وذلك حين فشا الإقبال على الدنيا، وجنح الناس إلى مخالطتها والانشغال فيها، اختفى المقبلون على الزهادة والعبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

فبداية نشأة الصوفية كانت في أوائل القرن الثاني، إلا أنه لم يشتهر التكلم به إلا بعد القرن الثالث، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية»[(١)].

ويقول أيضا:«أما لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك»[(٢)].

ويبين ابن الجوزي[(٣)] بداية الانحراف عند الصوفية، فيقول: «وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين.

ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٥-٦).

(٢) نفس المصدر (١١/٥).

(٣) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علامة عصره في التأريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته ببغداد، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: تلبيس إبليس، والمنتظم في تأريخ الملوك والأمم، وكتاب الموضوعات، وزاد المسير في علم التفسير، وغيرها، ولد سنة ٥٠٨ وتوفي سنة ٥٩٧ انظر: وفيات الأعيان (٣/١٤٠)، والسير (٢١/٣٦٥)، والأعلام (٣/٣١٦).

الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى.

وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم، فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم، إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع اليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري. »[1].

ثم تطور الأمر، حيث إن التصوف لم يقف عند حدود الزهد والرياضة والمجاهدة وإنما تجاوز هذا إلى ظهور الطرق، والمصطلحات الصوفية الغامضة، ونزعات الأهواء والبدع، وعلم الإشارات والمكاشفات والذوق وإلى غير ذلك.

وفي هذه المرحلة نشأ ما يسمى بعلم الظاهر والباطن، وإعلان سقوط التكاليف الشرعية عن الأولياء بزعمهم أنهم اطلعوا على علم الحقيقة عن طريق الكشف والإلهام[2].

ويصف ابن الجوزي هذه المرحلة، فيقول: «ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي، وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف، وأفردوه بصفات ميزوه بها، من الاختصاص بالمُرقَّعة والسماع والوجد والرقص

---

(1) تلبيس إبليس (ص/١٤٧).

(2) انظر: مجموع الفتاوى (١١/٤١٧) وما بعدها، و(١١/٤٣٩) وما بعدها.

والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة، ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعا، ويتكلمون بواقعاتهم، ويتفق بُعدُهم عن العلماء، لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة، فادعى عشق الحق والهيمان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به»[١].

ثم ازداد الأمر سوءا، فتسربت إلى التصوف الفلسفة اليونانية، والاتجهات الفارسية، وتأثر التصوف بالديانات اليهودية والنصرانية.

فبدأت المخالفة تزداد والانحراف يتضح، حتى ظهرالقول بالفناء والتناسخ[٢]، والقول بالحلول[٣] والاتحاد[٤] ووحدة الوجود[١].

---

(١) تلبيس إبليس (ص/١٤٧).

(٢) التناسخ هو من العقائد الفاسدة التي يقصد بها انتقال الروح من بدن قد مات صاحبه إلى بدن آخر لمخلوق حي، إنسانا كان أم حيوانا، وذلك لمنح الروح الفرصة بعد الفرصة لكي تتطهر من أدرانها على أساس أن الحياة قصيرة ولا بد من إعطاء الروح وقتا كافيا لكي تتحرر من أخطائها، ويعرف التناسخ بتجوال الروح، أو تكرار المولد (الموسوعة الميسرة: ١٠٢٢/٢).

(٣) الحلول هو عقيدة تقوم على فكرة تجسد الخالق في المخلوق بحلوله في كل أو بعض مخلوقاته، وامتزاجه امتزاجا كاملا، ينمحي معه التغاير بين ذاتين كانتا متميزتين (انظر: الموسوعة الميسرة: ١٠٥٩/٢-١٠٦٠)، وهو نوعان:

١- الحلول الخاص: وهو دعوى حلول الله عز وجل في بعض خلقه، كدعوى غلاة الرافضة حلوله في علي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته، ودعوى غالية الصوفية حلوله في بعض أوليائه.

٢- الحلول العام: وهو دعوى حلول الله عز وجل في جميع مخلوقاته، وهو قول طائفة من الجهمية المتقدمين الذين يقولون بأن الله بذاته في كل مكان (انظر: مجموع الفتاوى: ١٧١/٢-١٧٢).

(٤) الاتحاد هو امتزاج الشيء بالشيء واختلاطه به، حتى لا تكاد تفرق أحدهما عن الآخر (انظر: التعريفات للجرجاني: ص/١٣)، وهو نوعان:

ووقعوا في كثير من البدع الاعتقادية كالتشيع والتجهم والإرجاء والقدر، وما ذلك إلا لبعدهم عن منهج التلقي الصحيح وهو الكتاب والسنة[٢].

يقول ابن الجوزي عن هذه المرحلة: «ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمن هؤلاء من قال بالحلول، ومنهم من قال بالاتحاد، وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا...»[٣].

ومن خلال ما سبق يمكن إعطاء معالم عامة للأطوار التي مر بها التصوف، فهو في الطور الأول يدور حول إظهار الزهد والتقشف والمحبة، وفي الطور الثاني برزت ملامح المصطلحات الغامضة وتقسيم العلم إلى قسمين: علم الشريعة وعلم الحقيقة، وفي الطور الثالث وهو أسوأه برز القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

١- الاتحاد الخاص: وهو دعوى اتحاد الخالق بأشخاص معينين، كدعوى بعض المنتسبين للإسلام أن الله اتحد بأشخاص معينين (انظر: مجموع الفتاوى ٢م١٧٢).

٢- الاتحاد العام: هو عين عقيدة وحدة الوجود التي تقوم على دعوى الوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها في الظاهر، فالعالم بما فيه هو التجلي الإلهي الدائم، فوجود الله –تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا– هو عين وجود المخلوقات، والاختلاف الموجود إنما هو اختلاف في الصور والصفات فقط، والذات والحقيقة واحدة (انظر: بغية المرتاد: ص/٤٣٧).

والفرق بين الحلول والإخلاص:

أ- أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد.

ب- أن الحلول يقبل الانفصال، أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال.

[١] درء التعارض (٨٢/٥).

[٢] درء التعارض (٧/٥).

[٣] تلبيس إبليس (ص/١٤٧-١٤٨).

المطلب الثاني

التعريف ببعض مصطلحاتهم

سيرد علينا أثناء الكلام عن شبهات الصوفية في أعمال القلوب والرد عليهم بعض المصطلحات التي اصطلحتها الصوفية والتي تحمل غموضا ومعنى باطلا في كثير من الأحيان، لذا أحببت أن أعرف ببعض المصطلحات التي يأتي ذكرها في هذه المطالب ليكون القارئ مستوعبا لمراد المتكلم، سواء كان المتكلم من الصوفية أو من أهل السنة[١].

المسألة الأولى: معنى الحال في اللغة وعند الصوفية.

الحال في اللغة: جمعه أحوال، وهو الوقت الذي أنت فيه[٢].

وفي اصطلاح النحويين: ما يبين هيئة الفاعل أو المفعول به، لفظا، نحو: ضربت زيدا قائما. أو معنًى، نحو: زيد في الدار قائما[٣]. فلفظة "قائما" في الجملتين حال لما قبلها.

أما الحال عند الصوفية: فهو ما يرد على القلب من معان بدون اختيار المريد ولا اكتساب منه، أو: ما يحل بالقلب من فرح أو حزن، أو قبض أو بسط، وهي لا تدوم بل تتحول[٤].

يقول الجنيد: «الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم»[٥].

---

[١] لأن المتبع لكلام العلماء – وخاصة شيخ الإسلام وابن القيم- يجد أنهم يطلقون بعض هذه المصطلحات – أحيانا- من باب مخاطبة أهل الزمان باصطلاحاتهم، انظر: التحفة العراقية (ص/٢٨٩)، ومدارج السالكين (١٠٦/١).

[٢] انظر: القاموس المحيط (ص/١٢٧٩).

[٣] انظر: التعريفات للجرجاني (ص/٨٦).

[٤] انظر: الرسالة القشيرية (ص/١١٩).

[٥] اللمع (ص/٦٦).

المسألة الثانية: معنى المقام في اللغة وعند الصوفية.

أما المقام في اللغة: فهو الموضع الذي تقيم فيه[1].

وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمن: ٤٦، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ النازعات: ٤٠.

قال القرطبي: «فمقام: مصدر بمعنى القيام، والمعنى: خاف مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية»[2].

أما المقام في اصطلاحات الصوفية، فهو: ما يقوم به العبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات، متى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينتقل إلى غيره[3].

قال الطوسي: «فإن قيل: ما معنى المقامات؟ يقال: معناه مقام العبد بين يدي الله فيما يقوم من العبادات والمجاهدات والرياضات[4] والانقطاع إلى الله »[5].

والفرق بين المقامات والأحوال: أن الأحوال تزول والمقامات تدوم، «فالحال سمي حالا لتحوله، والمقام مقاما لثبوته واستقراره»[6].

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/٢٢٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/١٤٨)، و(٢٢/٦٤).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٤/١٧٩).

(٤) الرياضة: عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية بترك مألوفاها، لتزكوا بترك المألوفات ورفع العادات ومخالفة المرادات والأهواء المرديات، ورياضة النفس عن الالتفات إلى ما سوى الحق، انظر: معجم اصطلحات الصوفية (ص/٢٠١-٢٠٣) للكاشاني.

(٥) اللمع (ص/٦٦).

(٦) عوارف المعارف، المطبوع بذيل إحياء علوم الدين (٥/٢١٩).

وأيضا فالأحوال من قبيل المواهب، أما المقامات فهي من قبيل المكاسب، أو بعبارة أخرى: الأحوال من عين الجود، والمقامات ببذل المجهود[1].

المسألة الثالثة: السلوك في اللغة وعند الصوفية.

السلوك لغة: هو النَفَاذ في الطريق[2].

والسلوك عند الصوفية: هو تهذيب الأخلاق - على مفهوم الصوفية - ليستعد العبد للوصول بتطهير نفسه عن الأخلاق الذميمة، مثل؛ حب الدنيا والجاه، ومثل؛ الحقد والحسد والكبر والبخل والعجب والكذب والغيبة والحرص والظلم ونحوها من المعاصي، وبالنهج على الأخلاق الحميدة مثل العلم والحلم والحياء والرضا والعدالة ونحوها[3].

المسألة الرابعة: معنى السكر في اللغة وعند الصوفية.

السكر لغة: مصدر سَكِرَ يَسْكَرُ سكرا، وهو السكران ضد الصاحي[4].

والسكر غفلة تعرض بغلبة السرور على العقل بمباشرة ما يوجبها من الأكل والشرب[5].

أما السكر عند الصوفية، فقد تعددت عباراتهم في تعريفه:

فقيل: هو أن يغيب عن تمييز الأشياء، ولا يغيب عن الأشياء[6].

وقيل: هو غيبة بوارد قوي[1].

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية (ص/١١٩).

(٢) مقاييس اللغة (ص/٤٦٨).

(٣) انظر: معجم مصطلحات الصوفية (ص/١٣٣).

(٤) انظر: القاموس المحيط (ص/٥٢٤).

(٥) التعريفات للجرجاني (ص/١٢٢).

(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/١١٦).

وقيل: هو غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب[٢].

والسكر عند الصوفية كما يقول الجرجاني: «غيبة بوارد قوي وهو يعطي الطرب والالتذاذ، وهو أقوى من الغيبة وأتم منها.

المسألة الخامسة: معنى الجمع والفرق في اللغة وعند الصوفية.

الفرق في اللغة: هو الفصل والتمييز بين شيءين[٣].

أما الجمع في اللغة: هو تأليف المتفرق[٤].

والجمع والفرق عند الصوفية هو: الفرق؛ ما نسب إليك، والجمع؛ ما سلب عنك، ومعناه؛ أن ما يكون كسبا للعبد من إقامة وظائف العبودية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو الجمع[٥].

وحقيقة الجمع والفرق عند الصوفية هو: أن الجمع إشارة إلى حق بلا خلق، والفرق إشارة إلى خلق بلا حق، ويقصدون أن الفرق هو ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية لله، والجمع هو مشاهدة الربوبية، والجمع قريب من الفناء بالمعنى الثالث الذي هو وحدة الوجود[٦].

---

(١) الرسالة القسيرية (ص/١٣٤).

(٢) عوارف المعارف، المطبوع بذيل إحياء علوم الدين (٥/٢٤٣).

(٣) انظر: القاموس المحيط (ص/١١٨٣)، ومقاييسس اللغة (ص/٨١٤)

(٤) انظر: القاموس المحيط (ص/٩١٧).

(٥) انظر: الرسالة القشيرية (ص/١٢٦)، والتعريفات للجرجاني (ص/٨٢)

(٦) انظر: العبودية (ص/١١٤).

المسألة السادسة: معنى الفناء في اللغة وعند الصوفية.

الفناء لغة: مصدر فَنِيَ يَفْنَى فناءً، أي: عُدِمَ، فهو نقيض البقاء، وتفانى القوم: أفنى بعضهم بعضا بالقتل في الحرب، والفاني: الشيخ الكبير[١].

وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الرحمن: ٢٦، أي؛ هالك[٢].

أما الفناء عند الصوفية، فقد تعددت عباراتهم في تعريفه:

فقال بعضهم: إن الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة، وقيل: الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية، وقيل: الفناء عدم شعور الشخص بنفسه أو بلوازم نفسه[٣].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «والفناء الذي يشير إليه القوم، ويعملون عليه:

أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل.

ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضا، فلا يبقى له صورة ولا رسم.

ثم يغيب شهوده أيضا، فلا يبقى له شهود، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته أن يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل»[٤].

والمراد به كما يبينه شيخ الإسلام أن لا يفرق العارف بين الحسن والقبيح، ولا بين محبوب الرب تعالى ومبغوضه، ولا بين الخالق والمخلوق، بل الكل عنده سواء[١].

---

[١] انظر: القاموس المحيط (ص/١٧٠٤).

[٢] انظر: تفسير الطبري (٣٨/٢٣).

[٣] انظر: التعريفات للجرجاني (ص/١٧١)، ومعجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني (ص/365-366).

[٤] مدارج السالكين (١١٣/١)

المبحث الأول: مذهب الصوفية في أعمال القلوب.

مدخل

الصوفية من الفرق التي خالفت مذهب أهل السنة والجماعة في أعمال القلوب، فالصوفية في الحقيقة لم يهملوا أعمال القلب، بل هم مع اهتمامهم الشديد بها وتسميتها أحوال ومقامات وتفصيل دقائقها وتصنيف المصنفات فيها، إلا أنهم قد انحرفوا فيها انحرافاً عظيماً، ومن صور انحرافهم في أعمال القلوب:

١) دعواهم أنها من منازل العوام، وأنها معلولة[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «ليس المراد من العوام في كلامهم العامة الجهال، وإنما مرادهم بهذه اللفظة عموم السالكين، دون أهل الخصوص الواصلين منازل الفناء وعين الجمع»[٣].

٢) ومن صور انحرافهم فيها أيضا: حصر أعمال القلوب في عدد معين، وترتيبها لمن أراد سلوك الطريق الصوفي.

٣) ومن صور انحرافهم فيها أيضا: جعلهم معالم لسلوك الطريق الصوفي، وهذه المعالم في الحقيقة هي نتيجة لسوء فهمهم في الأحوال والمقامات.

لكن قبل الشروع في بيان مذهب الصوفية في أعمال القلوب والرد عليهم، أحببت أن أقدم بين يدي القارئ بيانا عن مصادر التلقي عند الصوفية.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٣١٠-٣١١)، والعبودية (ص/١١٢).

(٢) انظر: التحفة العراقية (ص/٣١٣).

(٣) طريق الهجرتين (ص/٣٤٠)

مصادر التلقي عند الصوفية

مصدر التلقي له أهمية كبرى في معتقد وسلوك من يصدر عنها، وكلما كانت المصادر مستمدة من الكتاب والسنة كان السير عليها أقوم، وكلما بعُدت عن الكتاب والسنة حصل الاضطراب والزيغ والضلال.

ومن أخطر البدع الموجودة في التصوف: مصادر الصوفية في تلقي العقيدة ومسائل الدين، وسلوكهم لذلك مسلكا فارقوا به أهل السنة والجماعة، مما جرّهم إلى كثير من الانحرافات في العقيدة والعبادة والسلوك.

ومن يقرأ في كتب المتصوفة يلاحظ بأن القوم لا يهتمون بعلم الكتاب والسنة اللذيْن لا يمكن الحصول على الهداية إلا عن طريقهما، وذلك لأن القوم يزعمون بأن لهم علوما خاصة يتلقونها عن طريق الكشوفات المزعومة، والأدهى من ذلك أن منهم من يزعم أنه غير محتاج للتلقي عن الرسل: لأنه يتلقى من المصدر الذي يتلقى منه الرسول، فهو يأخذ عن جبريل عليه السلام مباشرة، وقد يرتقي به الحال فيأخذ من الله سبحانه وتعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكان هذا لقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وظن أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله، وأن من قال: حدثني قلبي عن ربي فإن الله هو يناجيه، ومن قال: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، هو كذلك، وهذا أضل ممن ادعى الاستغناء عن الأنبياء وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم»[1].

ولعل أبرز المحاور التي تدور عليها مصادر الصوفية: الكشف، والذوق والوجد، وكل واحد من هذه يدخل تحته أقسام:

الأول: الكشف.

---

[1] مجموع الفتاوى (٢١٨/١٣)، وانظر: (٤١٢/١٠)، و(١٦٦/١٤).

وهو في اللغة: رفعك الشيء عما يواريه ويغطيه، وكشف الأمر يكشفه كشفا، أظهره[١].

وفي اصطلاح الصوفية هو: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجودا وشهودا[٢].

وقيل هو: بيان ما يستتر على الفهم، فيكشف عنه للعبد كأنه رأي عين[٣].

ومما يدخل تحته؛ الإلهام، والفراسة، والهواتف[٤]، ومن زعمائه أبو حامد الغزالي، وابن عربي[٥].

أ) الإلهام:

الإلهام في اللغة: ما يلقى في الروع، أو ما يلقيه الله في النفس من الأمور التي تبعث على الفعل[٦].

وفي الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، ويطمئن، ويسكن، من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة، يخص الله تعالى به بعض أصفيائه[٧].

وقد يسمى بالعلم اللدني، قال الإمام ابن القيم: «والعلم اللدني: هو العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهاما بلا سبب من العبد ولا استدلال، ولهذا سمي لَدُنِّيًّا»[٨].

---

[١] لسان العرب (٧٢/١٣).

[٢] معجم مصطلاحات الصوفية (ص/٢٢٥).

[٣] اللمع (ص/٣٦٩)، للطوسي.

[٤] انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضا ونقدا (ص/٢١٨)، لصادق سليم صادق.

[٥] انظر: بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد (ص/١٩٨)، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

[٦] لسان العرب (٢٤٥/١٣) مادة «لهم».

[٧] انظر: التعريفات للجرجاني (ص/٣٨)، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص/٣١٧).

[٨] مدارج السالكين (٣١٩/٣).

وذهب الغزالي إلى التسوية بين وحي الأنبياء وإلهام الأولياء من جميع الوجوه، و لم يثبت فرقا إلا في مشاهدة السبب، وهو الملك الذي استفاد منه العلم، فقال: «و لم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك، بل في مشاهدة المَلَك المُلْقِي للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة»[(١)].

وللإلهام طريقان عند الصوفية:

الطريق الأول: من طريق المَلَك ولكن من حيث لا يراه، كما قرره الغزالي.

الطريق الثاني: من الله على وجه خاص بين العبد وربه، وهو أعلى من سابقه[(٢)].

كما أن بعض الصوفية يرون في الإلهام وحيا أشرف من الوحي الذي نزل على الأنبياء عن طريق الملك، يقول إبراهيم الدسوقي[(٣)]: «الله تعالى يقذف في سر خواص عباده ما لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا بدل ولا صديق، ولا ولي»[(٤)].

وقد غالى ابن عربي في هذا الباب، فادعى أن كل ما سجل في كتبه إنما هو من وحي الإلهام، فيقول: «فوالله ما كتبت منه حرفا، إلا من إملاء إلهي، أو إلقاء ربّاني، أو نفث روحي في روع كياني، هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرِّعين، ولا أنبياء مكلَّفين»[(٥)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٦).

(٢) انظر: اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر (٢/٨٤) لعبد الله الشعراني، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص/٢٧٠-٢٧٥).

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقي، ولد سنة ٨٣٣ هـ، من كبار المتصوفين، كثير الأخبار، تفقه على مذهب الشافعي في أوليته ثم اقتفى آثار الصوفية وكثر مريدوه ونقلوا عنه كلاما على طريقة القوم، فيه الكثير مما لا معنى له، أورد الشعراني من كلامه مجموعة كبيرة اختارها من كتاب له اسمه (الجواهر) قال: وهو مجلد ضخم، انظر: الأعلام ١/٥٩).

(٤) الطبقات الكبرى للشعراني المسمى بـ «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار» (١/١٤٧).

(٥) الفتوحات المكية (٣/٤٥٦).

ب) الفراسة:

الفِراسة بكسر الفاء تطلق في اللغة على: النظر والتثبت والبصيرة النافذة في الشيء، وهي مشتقة من فريسة السبع، تشبيها لهجوم الخواطر على القلب بهجوم الأسد على الفريسة، وهي على وزن فِعالة كالإمارة والولاية[١].

وفي الاصطلاح هو: خاطر على القلب ينفي ما يضاده، وله على القلب حكم[٢].

وسئل بعض الصوفية عن الفراسة، فقال: «أرواح تتقلب في الملكوت، فتشرف على معاني الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق نطق شهادة، لا نطق ظن وحسبان»[٣].

ج) الهواتف:

وهي عبارة عن سماع صوت أو خطاب عن طريق الأذن، من حيث لا يرى صاحب الصوت[٤]، وقد عبر عنه الغزالي: «لفظ منظوم يقرع السمع لمن صفا قلبه في اليقظة»[٥].

وهذه الهواتف إما أن تكون من الله، أو ملك من الملائكة، أو الخضر، أو ولي من الأولياء، أو جني صالح، أو الشيطان[٦].

قال ابراهيم الخواص[١]: «دخلت خربة في بعض الأسفار في طريق مكة بالليل، فإذا فيها سبع عظيم فخفت، فهتف به هاتف؛ اثبت فإن حولك سبعين ألف ملك يحفظونك»[٢].

---

(١) انظر: لسان العرب (١٥٣/١١)، والتعريفات للجرجاني (ص/١٦٨)، ومدارج السالكين (٣٥٧/٢-٣٥٨).

(٢) الرسالة القشيرية (ص/٣٢٢).

(٣) نفس المصدر (ص/٣٢٤).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٦١١/١٠-٦١٢).

(٥) إحياء علوم الدين (٤٠٧/٢).

(٦) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص،٢٨٧).

وقال أبو سعيد الخزاز[٣]: «بينا أنا عشية عرفة، قطعني قرب الله عن سؤال الله، ثم نازعتني نفسي بأن أسأل الله تعالى، فسمعت هاتفا يقول؛ أبعد وجود الله تسأل الله غير الله؟!»[٤].

الثاني: الذوق.

الذوق في اللغة: هو اختبار طعم الشيء بإدارته في الفم باللسان لمعرفة حلاوته أو مرارته[٥].

قال الجرجاني: «هو قوة في العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بمخالفة اللعابية في الفم بالمطعوم ووصولها إلى العصب»[٦].

والذوق في عرف الصوفية: عرفه القشيري بقوله: «ومن جملة ما يجري في كلامهم؛ الذوق والشرب، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات»[٧].

---

[١] هو ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل، أبو اسحاق الخواص، صوفي كان أوحد المشايخ في وقته، من أقران الجنيد، ولد في سر من رأى ومات في جامع الري، وله بعض مصنفات انظر: الحلية (٣٢٥/١٠)، والأعلام (٢٨/١).

[٢] الرسالة القشيرية (ص/٥٥٦)

[٣] هو أحمد بن عيسى، أبو سعيد الخزاز، من أئمة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود، قال عنه الجنيد: لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد الخزاز لهلكنا، توفي سنة ٢٧٧ هـ وقيل ٢٨٦ هـ، انظر: حلية الأولياء (٢٤٦/١٠) وصفة الصفوة (٢٧٢/٢).

[٤] التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/١٥٠).

[٥] انظر: لسان العرب (٥٢/٦).

[٦] التعريفات (ص/١١٠).

[٧] الرسالة القشيرية (ص/١٤٦).

قال ابن عربي: «اعلم أن الذوق عند القوم أول مبادئ التجلي، وهو حال يفجأ العبد في قلبه، فإن أقام نفسين فصاعدا كان شربا، وهل بعد الشرب رِيٌّ أم لا، فذوقهم في ذلك مختلف»[١].

وقال الجرجاني: «الذوق في معرفة الله؛ عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقل ذلك من كتاب أو غيره»[٢].

فالذوق إذاً ثمرة من ثمرات التجلي ونتيجة من نتائج الكشوفات يقذفه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير استناد إلى الكتاب والسنة.

الثالث: الوَجْد.

والوجد في اللغة: يقال وجد المطلوب يجده، والوجد: الغنى، وأوجده: أغناه[٣].

واختلفت العبارات في تعريفه اصطلاحا على أقوال منها:

أن الوجد: لهيب ينشأ في الأسرار ويسنح عن الشوق، فتضطرب الجوارح طربا، أو حزنا عند ذلك الوارد[٤].

وقيل: هو ما صادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد وبين الله [٥].

وقيل: الوجد رفع الحجاب أو مشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر، و إيناس المفقود، هو فناؤك من حيث أنت[٦].

---

[١] الفتوحات المكية (٥٤٨/٢).

[٢] التعريفات (ص/١١٠).

[٣] انظر: لسان العرب (١٥٦/١٥).

[٤] التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/١١٣)

[٥] نفس المصدر (ص/١١٢).

[٦] اللمع (ص/٣٣٠)، للطوسي.

وقيل: الوجد ما صادف قلبك ويرد عليك بلا تعمد وتكلف[1].

والمقصود من هذا العرض السريع لمصادر التلقي عند الصوفية بيان أن منشأ ضلال من ضل من الصوفية في الإيمان والسلوك وفي جميع أبواب الدين هو جعلهم الذوق والوجد والكشف حاكما يتحاكمون إليه فيما يسوغ ويمتنع، وفيما هو صحيح وفاسد، وجعلوها فرقانا يفرقون بها بين الحق والباطل، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص.

المطلب الأول

تقسيم أعمال القلوب للخاصة وللعامة

الأول: الإرادة.

تقدم بأن الإرادة أصل العبادة، وأساس بنائها الذي لا تقوم إلا عليه، فلا عبودية لمن لا إرادة له، بل أكمل الخلق عبودية أتمهم إرادة لما يحبه الله تعالى، ومع هذا فالإرادة عند الصوفية من حلية العوام، أو من منازل العوام.

فيرى بعض السالكين أن الإخلاص لا يتحقق إلا إذا تجرد الإنسان عن إرادته، وتجرد عن رؤية أعماله، وعدّوا النظر إلى شيء من ذلك قادحا في الإخلاص، فالسهروردي[2] يصف هؤلاء بأنهم غابوا في إخلاصهم عن إخلاصهم، ويذكر عن بعضهم قوله: «متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص»[3].

---

(١) الرسالة القشيرية (ص/١٢٤)

(٢) هو شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله القرشي السهروردي، ولد سنة ٥٣٩ هـ، من كبار الصوفية، وكان شيخ شيوخ بغداد، وصحب قليلا الشيخ عبد القادر، وسمع من هبة الله الشبلي، انظر: سير الأعلام (٣٧٣/٢٢)، والأعلام (٦٢/٥).

(٣) عوارف المعارف (٦٩/٥).

وقد أخطأ بعض السالكين خطأ قريبا من هذا، فظن أن الطريقة الكاملة للعبد ألا تكون له إرادة أصلا، وأن مرادهم هو ما يقدره الرب، ويرون أن هذا القيام بالحقيقة الكبرى، وقالوا: إن هذا النهج يجمع على المرء قلبه، فلا تتفرق به السبل، لأنه لا يرى للمخلوقات أفعالا، يقول أبو العباس المعروف بابن العريف[1]: «الإرادة حلية العوام وهي تجريد القصد إلى الله تعالى وجزم النية والجد في الطلب له، وذلك في طريق الخواص نقص وتفرغ ورجوع إلى الأسباب والنفس، فإن إرادة العبد عين حظه وهو رأس الدعوى، وإنما الجمع والجود فيما يراد بالعبد من الله لا فيما يريد...

عن أبي يزيد[2] رضي الله عنه أنه قال: ركبت مركب الصدق حتى بلغت الهوى، ثم ركبت مركب الشوق حتى بلغت السماء، ثم ركبت مركب المحبة حتى بلغت سدرة المنتهى، فنوديت: يا أبا يزيد، ما تريد؟ قلت: أريد أن لا أريد، لأني أنا المراد وأنت المريد.

فصحة الإرادة بذلك الوسع، واستفراغ الوسع مع ترك الاختيار، والسكون إلى مجاري الأقدار، فيكون كالميت بين يدي المغسل يقلبه كيف يشاء»[3].

فالإرادة عند الصوفية تعني المحبة والرضا؛ فكل ما وقع في الكون فإن الله يحبه ويرضاه، يقول الكلاباذي: «المريد مراد في الحقيقة، والمراد مريد لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة

---

(1) هو أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي، أبو العباس المعروف بابن العريف، صاحب المقامات والإشارات، كان العباد والزهاد يقصدونه، ويحمدون صحبته، صاحب كتاب محاسن المجالس، توفي بمراكش سنة ٥٣٦ هـ، انظر: سير الأعلام (١١١/٢٠)، وشذرات الذهب (١٨٣/٦).

(2) هو طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، أبو يزيد، من مشاهير الصوفية، كان جده مجوسيا فأسلم، ولد سنة١٨٨هـ، تروى عنه شطحات كثيرة وأقوال منكرة، اعتذر عنه شيخ الإسلام بأنه يقولها في حال غيبة العقل (انظر: مجموع الفتاوى؛ ٤٦١/٢)، توفي سنة ٢٦١هـ، انظر: حلية الأولياء (٣٣/١٠)، والسير (٨٦/١٣).

(3) محاسن المجالس (ص٦/٧) مخطوط، وهذه المخطوطة موجودة بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية بجامعة طوكيو – اليابان.

من الله عز و جل تقدمت له، قال الله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ المائدة: ١١٩»[١]، فالصوفية لا يفرقون بين المشيئة الكونية والإرادية الشرعية، إذ كلا الأمرين عندهم سواء، ولعل يأتي مزيد بيان عن هذه القضية حين نذكر مذهب القوم في المحبة والرضا.

ومن أوجه الخطأ عند بعض السالكين في تجريد القصد إلى الله والتقرب إليه، هو عدّهم طلب الثواب الأخروي الذي وعد الله به عباده الصالحين قادحا في الإخلاص[٢]، وقد تناقل العلماء قول رويم[٣] في تعريف الإخلاص: «الإخلاص ألا يريد على عمله عوضا في الدارين، ولا حظا من الملكين»[٤].

ووصفت رابعة العدوية[٥] الذي يعبد رجاء الجنة وخوف النار بأنه أجير السوء حيث تقول: «ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا في جنته فأكون كأجير السوء، بل عبدته حبا له وشوقا إليه»[٦].

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص/١٣٩).

(٢) قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم إن مما أوقع هؤلاء في هذ الغلط أنهم وجدوا كثيرا من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار، من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيرا، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلا»، الاستقامة (١٣٣/٢-١٣٤).

(٣) هو رويم أبو الحسن بن أحمد بن يزيد البغدادي، الفقيه، المقرئ، العابد، شيخ الصوفية، ومن الفقهاء الظاهرية توفي سنة ٣٠٣هـ، انظر: السير (٢٣٥/١٤).

(٤) المجموع (٣٨/١) للنووي.

(٥) هي رابعة بنت إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب، وهي صوفية كبيرة وعابدة شهيرة، هي السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف، توفيت سنة ١٣٥ هـ، انظر: وفيات الأعيان (٢٨٥/٢)، والسير (٢٤١/٨).

(٦) إحياء علوم الدين (٢٦/٥).

الثاني: المحبة.

تقدم بأن محبة الله هي روح الإسلام والإيمان، وهي أحد أركان العبادة وأحد محركات القلوب، وهي شرط من شروط الشهادتين إلى غير ذلك من فضائلها، إلا أن الصوفية قد انحرفوا فيها انحرافا عظيما، وفيما يلي أجمل أبرز انحرافاتهم فيها.

سبق أن بينا أن للمحبة الحقة لوازم كثيرة تجمعها هذه العبارة (موافقة المحبوب في حب محبوباته وبغض مبغوضاته)، ومع ذلك فإن كثيرا من المدعين للمحبة غلطوا في ظنهم أن موافقة المحبوب تكون في مراده الكوني، قال بعض السالكين: «إن المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب»[1].

ومما انحرف فيه الصوفية — أيضا - في هذا الباب، تصور الصوفية أن المحبة دعوى مطلقة غير مقيدة باتباع، ومما جرأهم إلى ذلك حبهم لله لذاته - بزعمهم - لا خوفا من ناره ولا طمعا في جنته، أي تجريدهم المحبة عن الخوف والرجاء جعل المحبة مجرد دعوى لا حقيقة لها، ولذلك توسعوا في المعاصي والمحرمات حتى حُقّ لبعض أهل العلم تسمية بعضهم بالإباحية.

ومن صور انحراف الصوفية في المحبة، تقسيم المحبة إلى خاصة وعامة وتفضيلهم الدرجات هي دون الدرجات المفضولة بسبب قولهم بالفناء.

قال ابن العريف: «وأما محبة العوام فإنها تنبت من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة، وتنموا على الاجابة بالعناية، وهي محبة تقطع الوساوس وتلذ الخدمة، وتسلي عن المصائب، وهي في طريق العوام عمدة الإيمان.

(1) الرسالة القشيرية (ص/٤٢٧).

أما محبة الخواص فهي محبة خاطفة تقطع العبارة وتدقق الإشارة، ولا تنتهي بالنعوت ولا تعرف إلا بالحيرة والسكوت»[١].

فجعل المحبة مرتبتين: محبة العوام ومحبة الخواص، بينما نجد أن الهروي في كتابه منازل السائرين جعلها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: محبة تقطع الوساوس وتَلِذّ الخدمة، وتُسَلِّي عن المصائب.

الدرجة الثانية: محبة تبعث على إيثار الحق على غيره وتلهج اللسان بذكره وتعلق القلب بشهوده، وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر في الآيات والارتياض بالمقامات.

الدرجة الثالثة: محبة خاطفة، تقطع العبارة وتدفع الإشارة، ولا تنتهي بالنعوت، وهذه المحبة هي قطب هذا الشأن وما دونها محاب، نادت عليها الألسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول»[٢].

الثالث: الرضا.

الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان، ولهذا فالرضا آخذ بزمام أعمال القلوب، فهو روحها، فهو روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة ودليلها، وروح الشكر ودليله[٣]، مع ذلك فإن للصوفية فيه انحرافا كبيرا، أبرزها.

ظنّهم أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافا للقدرية، فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر كل

---

[١] محاسن المجالس (ص/٣٠).

[٢] منازل السائرين، المطبوع ضمن مدارج السالكين (٣/٢٨-٣٠).

[٣] انظر: مدارج السالكين (٢/١٥٩، ١٦٢).

شيء وشاءه، فظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: «المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب».

ومن صور انحراف الصوفية في الرضا أيضا، ظنهم أنه لا يتم مقام الرضا إلا بعد تجريد القصد إلى الله من طلب الثواب الأخروي الذي وعد الله به عباده الصالحين، لأنه قادح في الرضا، ولهم مقالة مشهورة: «الرضا ألا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار»[1].

ومن أخطر صور انحراف الصوفية في الرضا تقسيم الرضا إلى خاص وعام وتفضيلهم الدرجات هي دون الدرجات المفضولة بسبب قولهم بالفناء قال صاحب منازل: «**الدرجة الثالثة**: الرضا برضى الله، فلا يرى العبد لنفسه سخطا ولا رضى، فيبعثه على ترك التحكم، وحَسْم الاختيار، وإسقاط التمييز، ولو أدخل النار»[2].

والرضا بهذا المعنى هو رضا الخاصة الذين هم أهل الجمع والفناء، فيغيب أحدهم بشهود ربوبية الله وإرادته ومشيئته عن نفسه، ويغيب بشهود رضا الله بوقوع الأشياء على مقتضى إرادته عن مشهود رضاه هو.

الرابع: التوكل.

للتوكل منزلة عظيمة في الدين، فهو من لوازم الإيمان، ينفى الإيمان بانتفائه ويضعف بضعفه وهو دليل صحة الإيمان، وقد جمع الله بينه وبين عبادته، ومع ذلك فقد هضم الصوفية منزلته في الدين فجعلوه من منازل العوام، لشبهة فاسدة - يدور حولها انحرافهم في هذا الباب - وهو قولهم بالفناء الذي لزم عنه القول بإنكار الأسباب.

---

[1] الرسالة القشيرية (ص/٢٦٦).

[2] مدارج السالكين (١٧٨/٢).

قال أبو العباس ابن عريف: «وأما التوكل فإنه للعوام أيضا، لأنه كِلَتُك أمرك إلى مولاك، والتجاؤك إلى علمه ورأفته ليدبر أمرك ويكفيك همك، وهذا في طريق الخواص عمى عن الكفاية ورجوع إلى الأسباب، لأنك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل فصار عوضا عن تلك الأسباب، فكأنك معلق بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال عنه.

وحقيقة التوكل عند القوم هو: التوكل في تخليص القلب عن علة التوكل، وهو أن يعلم أن الله لم يترك أمرا مهملا؛ بل فرغ من الأشياء وقدرها، وإن اختلف منها شيء في المعقول أو شوش في المحسوس أو اضطرب في المعهود فهو المدبر، وشأنه سوق المقادير إلى المواقيت، فالمتوكل من أراح نفسه عن كد النظر ومطالعة السبب سكونا إلى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده، وهو يعلم أن الطلب لا يجمع وأن التوكل لا يمنع، ومتى طالع بتوكله عوضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا، فإذا خلص من رق هذه الأسباب ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله، كفاه الله كل مهم»[1].

فإذا كان التوكل بهذه الصورة، فإنه لا يعد من الأسباب التي يستجلب بها المنافع وتدفع بها المضار، لذلك بين شيخ الإسلام رحمه الله ذلك فقال: «قد ظن طائفة ممن تكلم في أعمال القلوب أن التوكل لا يحصل به جلب منفعة أو دفع مضرة، بل ما كان مقدرا بدون التوكل فهو مقدر مع التوكل، ولكن التوكل عبادة يثاب عليها من جنس الرضا بالقضاء»[2].

وقد بالغوا في إنكار الأسباب توكلا على الله - كما يظنون -، قال الغزالي: «والمتوكلون في ملابسة الأسباب على ثلاث مقامات:

---

[1] محاسن المجالس (ص/٩-١١).

[2] رسالة في تحقيق التوكل (٨٧/١)، ضمن جامع الرسائل.

الأول: مقام الخواص ونظرائه، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله عليه في تقويته على الصبر أسبوعا فما فوقه.

الثاني: من يقعد في بيته أو في المسجد ولكنه في القرى والأمصار، وهذا أضعف من الأول، لكنه أيضا متوكل؛ لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة، معول على فضل الله تعالى في تدبير أموره من جهة الأسباب الخفية.

الثالث: أن يخرج ويكتسب»[(١)].

والمقصود مما سبق: أن التوكل عند الصوفية لا يكون تحقيقه إلا بالإعراض التام عن الأسباب – والتوكل سبب من الأسباب –، لأن الالتفات إليها مناف لحقيقة التوكل.

الخامس: الزهد.

إن للزهد في الدنيا أهمية عظيمة، فهو أمر لازم لكل من أراد رضوان الله تعالى والفوز بجنته، ويكفي في فضيلته أنه اختيار نبينا محمد وأصحابه، قال ابن القيم رحمه الله: «لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، فإيثار الدنيا على الآخرة؛ إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، أو منهما معا»[(٢)].

لكن نشأ في صفوف السالكين اتجاه أن الرغبة في الآخرة لا تتحقق ولا تتم إلا إذا تجرد الإنسان عن الدنيا ومتاعها، بل غلا بعضهم في ذلك إلى أن قال بمحو الإنسان في نفسه النوازع التي خلقها الله فيه، بحيث يقضي عليها قضاء لا رجعة فيه، فلا تدعوه بعد ذلك إلى الدني ولا تطالبه النفس بمتاع، وقد عرف الجنيد الزهد قائلا: «الزهد هو خلو اليد من الملك، والقلب من التتبع»[(٣)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٣٤).

(٢) الفوائد (ص/١٣٧).

(٣) الرسالة للقشيري (ص/١٩١).

ويقول أبو حفص[١]: «الزهد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا فلا زهد»[٢]، وقال السري[٣]: «الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، ويجمع هذه الحظوظ المالية والجاهلية وحب المترلة عند الناس، وحب المحمدة والثناء»[٤].

فإذا نظرنا في هذا التعريفات التي مر ذكرها ترى بوضوح أن مفهوم الزهد عند المتصوفة هو ترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية، بحيث لا يهتم الإنسان بشوؤن الدنيا ولو بقدر ما يسد به رمقه، وأن الزهد الحقيقي عندهم هو ترك القيام بالأسباب نهائيا، وإخلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان حتى يصبح فقيرا.

ولعل سر المسألة أن أصحاب هذا الاتجاه ظنوا في بداية الأمر أن القصد الذي يتطلع صاحبه إلى ثمرات الأعمال ونتائجها وحظوظها منها - مزاحم للقصد المتجه إلى الله - فيكون تشريكا يجب أن نتره عنه نهائيا، ومن هنا اندفعوا جاهدين كي ينتزعوا من أعماق نفوسهم تلك الخواطر والمقاصد التي تطلع إلى محبوباتها من الأعمال المشروعة، فلما وجدوا صعوبة في الأمر تحول دون تحقيق المراد رموا الدنيا وراء ظهورهم، وقصروا تطلعاتهم على الأعمال التي أمروا بتحقيقها، وجاهدوا النفس كي لا يبقى لهم مراد غير ذلك المراد[٥].

هذه بعض انحرافات الصوفية في بعض الأعمال التي وجدت لشيخ الإسلام ردا فيها، وإلا فلا تكاد تجد عملا قلبيا إلا ولهم فيه ضلال وانحراف وابتداع.

---

[١] هو عمرو بن سلمة الحدادي النيسابوري، أبو حفص، من شيوخ الصوفية، توفي سنة ٢٧٠ هـ، وقيل ٢٦٠ هـ، انظر: حلية الأولياء (١٠/٢٢٩).

[٢] الرسالة للقشيري (ص/١٩١).

[٣] هو السري بن المغلِّس السَقَطي البغدادي، أبو الحسن، من كبار الصوفية، وهو خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفا الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد في الحقائق والأحوال، توفي سنة ٢٥٣ هـ على خلاف في ذلك، انظر: حلية الأولياء (١٠/١١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٢/١٨٥).

[٤] عوارف المعارف (٥/٢٢٧).

[٥] الإخلاص (ص/٥٦)، تأليف الدكتور: عمر سليمان الأشقر، وانظر: الاستقامة (٢/١٣٣-١٣٤).

المطلب الثاني

عدد الأحوال والمقامات وترتيبها عند الصوفية

المتأمل في كتب الصوفية يجد أنهم قد اختلفت أقوالهم في عدد المقامات والأحوال وترتيبها.

فقد جعل الطوسي في اللمع سبع مقامات، وهي: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا[1].

كما جعل الأحوال عشرة هي: المراقبة، والقرب، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، واليقين[2].

أما القشيري فقد جعلها أبوابا دون أن يسميها بالأحوال والمقامات، فقد جعل أكثر من أربعين بابا فيها، بدأ بالتوبة وانتهى بالشوق[3].

أما الهروي – وهو من المتأخرين – فقد جعلها مائة مقام وسماها بالمنازل، وجعلها في عشرة أبواب لكل باب عشرة منازل، ورتبها ترتيبا تصاعديا، بدءًا بالتوبة وانتهاء بالتوحيد.

فتبدأ هذه المقامات بالتوبة ثم تأتي مقامات أخرى حتى يصل المريد إلى مقام الجمع فجمع الجمع وهو أن يرى الأشياء قائمة بالله، ثم يرتقي إلى أن يرى الله وحده**!**

هذه نظرة موجزة في الأحوال والمقامات التي أعطاها الصوفية حجما كبيرا في كلامهم ومصنفاتهم، فغاية هذه المقامات عند الصوفية هي الوصول إلى الفناء ومشاهدة الحق والاتحاد به.

---

(1) اللمع (ص/٦٨-٨٠).

(2) نفس المصدر (ص/٨٠-٩٦).

(3) الرسالة القشيرية (ص/١٦٣-٤٣٧).

المطلب الثالث

جعل الصوفية معالم لسلوك الطريق الصوفي

تبين لنا في المسائل السابقة، مدى اختلاف منطلقات الصوفية عن أهل السنة في أعمال القلوب نوعا، والآن ننتقل إلى بيان ما يدل على اختلاف منطلقات الصوفية في أعمال القلوب كيفا[1]، ونبين أهم المعالم والوسائل التي ينبغي سلوكها لتزكية النفس عند الصوفية.

العنصر الأول: الخلوة والعزلة.

ومعنى الخلوة في اللغة: مصدر خلا يخلو، إذا اعتزل الناس وانفرد عنهم[2].

والخلوة في اصطلاح الصوفية تعني: التخلي واختيار الخلوة، والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، والخلوة: محادثة السر مع الحق، حيث لا أحد ولا ملك[3].

وفي الحقيقة، تعد الخلوة عند الصوفية من المستلزمات الروحية للسالك في الطريق الصوفي، كما يعتقدون أنها تدعيم لصدق التوبة وتثبيت الإخلاص، وهي عندهم أفضل اللحظات التي يقضيها الإنسان مع ربه، وتهدف الخلوة عندهم إلى معرفة مدى استعداد الشخص للانتقال إلى المقامات والأحوال الأخرى[4].

قال القشيري: «الخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من أمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه، ومن حق

---

[1] أي من جهة الوسائل لتحقيق أعمال القلوب وتزكية النفوس.

[2] انظر: لسان العرب (٥/١٤٨).

[3] التعريفات (ص/١٠٥)، للجرجاني.

[4] انظر: معجم ألفاظ الصوفية ()، تأليف: الدكتور حسن شرقاوي.

العبد إذا أثار العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق»[1].

ويقول الغزالي – بعد أن قرر مشروعية الخلوة – مبينا آدابها: «ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة القرآن ولا بالتأمل في تفسيره ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى»[2].

ويقول في موضع آخر: «وأما حياة الخلوة، ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب...، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم، فيلُفَّ رأسه في جيبه، أو يتدثَّر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال الحضرة الربوبية»[3].

العنصر الثاني: الزهد في الدنيا.

المتأمل في طريق المتصوفة للوصول إلى حقيقة العبادة والقرب من الله تعالى، يجد أن أكثر طرقهم تقوم على رياضات بدعية غير شرعية، أو أن تكون أصلها شرعية لكنهم يغلون فيها ويبالغون حتى يقعوا في الابتداع.

ومن ذلك تشديد كثير من المتصوفة على أنفسهم، وشدة تقشفهم في إعطاء النفس حظوظها، ويؤدب أحدهم نفسه الجوع الشديد ومداومة السهر وكثرة التعري والاحتفاء وغير ذلك، وعند النظر في مجموع هذه المجاهدات نجد أنهم يزعمون أنهم بها يزهدون في الدنيا ولا يريدون تدنيس أنفسهم بلذاتها.

---

(1) الرسالة القشيرية (ص/١٧٦).

(2) إحياء علوم الدين (٢٧/٣)

(3) نفس المصدر (١٠٠/٣).

العنصر الثالث: الأوراد[1]، والأذكار.

ذكر الله تعالى عبادة من أعظم العبادات، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذكره في جميع الأحوال، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ الأحزاب: ٤١ – ٤٢.

ولكن إذا نظرنا في واقع الصوفية، وجدنا فريقا غير قليل منهم يكثرون من ذكر الله تعالى ولكن بأذكار وطرق مبتدعة، حتى تفرقوا أحزابا وفرقا، وصار لكل شيخ طريقة أذكار يخترعها لأتباعه، يذكرون الله بها ويرتب الأجور عليها[2].

---

[1] هي جملة: من الأدعية أو كمية من الآيات يقرأها الشخص في وقت محدد من كل يوم.

[2] يقول صاحب الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية: «ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدبا، من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح، خمسة منها سابقة على الذكر، واثنا عشر حال الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر»،

فمن الآداب التي تسبق الذكر:

١)- الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر، وتعطير ثيابه وفمه بالبخور والماورد.

٢)- أن يستمد عند شروعه في الذكر بهمة شيخه بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته ليكون رفيقه في السر.

٣)- أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله .

ومن الآداب حال الذكر:

١)- تطييب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

٢)- اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب.

٣)- أن يخيل شخص شيخه بين عينيه، وهذا من آكد الآداب، لأن المريد يرتقي منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

ومن الآداب التي بعد الذكر:

١)- أن يسكت بعد سكون وتخشع، وتحضر مع قلبه مترقبا لوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد فيعمر في وجوده في تلك اللحظة.

وقد انتشرت هذه الأذكار المبتدعة حتى صدّهم عن ذكر الله المشروع وعن قراءة القرآن، وصار أحدهم يقيم على هذه الأذكار المبتدعة سنين عديدة من عمره وهو يظن أنه على خير، وما أشبه حاله بمن قال الله تعالى فيهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الكهف: ١٠٣ – ١٠٤ [1]

---

٢)- جمع الحواس بحيث لا تتحرك منه شعرة كحال الهرة عند اصطياد الفأرة.

٣)- نفي الخواطر كلها، وإجراء معنى الله على القلب.

٤)- أن يذم نفسه مرارا بقدر ثلاثة أنفاس إلى أربعة أنفاس حتى يدور الوارد في جميع عوامله.

٥)- منع شرب الماء البارد عقيب الذكر، فإن الذكر يورث حرقة وهيجانا وأشواقا إلى المذكور، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة، انظر: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية (١/٣٦-٤٠)، لعبد الوهاب الشعراني.

وهذا غيض من فيض من آداب القوم للذكر، وما ذكر هنا ليس من باب الحصر، وإنما للتدليل على شذوذ هؤلاء في مجمل مناحيهم، انظر: ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع (ص/٢٨٤-٢٨٦) تأليف: عبد الرحمن محمود خليفة.

[1] من هذه الأذكار المبتدعة ما يسمى بأحزاب الشاذلي، كحزب النصر وحزب البر وغيرهما، وحزب النصر هو أن يقول: «حم حم حم حم حم حم حم الأمر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون، حم عسق حمايتنا مما نخاف، اللهم قنا شر الأسوء، ولا تجعلنا محلا للبلوى، اللهم أعطنا أمل الرجاء، ونور الإيمان، يا هو يا هو يا هو»، انظر: مجموع الأوراد الكبير والأدعية والأحزاب والاستغاثات (١/٣٦-٤٠).

ومنها أيضا صلاة الفاتح التي تعد شعارا للتجانية، والتي تعدل المرة الواحدة منها أضعاف المرات من القرآن، ونصها: «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله وأصحابه حق قدره ومقداره العظيم»، انظر: التيجانية (ص/١١٣).

العنصر الرابع: السماع.

السماع في اللغة: مصدر سمع يسمع، وهو ما وقر في الأذن من صوت، سواء كان هذا الصوت كلاما أو غيره.

والسماع: مصطلح كان يطلقه مقدمو الصوفية على فهم يقع لأحدهم بغتة يكون عند غيبة، سواء كان ذلك حال سماع نظم أو نثر أو غيرهما، وأما عند المتأخرين منهم فهو عبارة عن مجموع أمور منكرة، يقيمونها وقد أحضروا المشتغلين بالغناء ومعهم آلات اللهو كالدفوف والمزامير وغيرها، ثم تضاف إلى ذلك بقية المفاسد من الاختلاط والرقص والسهو والاسراف وغير ذلك[1].

والسماع أصل من أصول الصوفية التي يعتمدونها في سلوكِهم طريقَهم إلى الله، بل زاد عن ذلك عند فريق منهم حتى صاروا يتعبدون الله تعالى ويتقربون إليه بها، وهو من معالم الطريق التي لا يصح للعارف السلوك فيه حتى يتعاطاه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معرض كلامه عن السماع عند المتصوفة: «مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقا إلى الله: يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب والتحزين على فوات المطلوب، فتستنزل به الرحمة، وتستجلب به النعمة، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، وتستجلى به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه[2]، حتى

---

[1] انظر: كشف القناع عن حكم الوجد والسماع (ص/٤٤)، لأحمد بن عمر إبراهيم القرطبي.

[2] ذكر أبو حامد الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» (٢/٤١٤-٤١٧): أن السماع يحرك القلوب إلى الله أكثر من القرآن، وذلك من سبعة أوجه:

الوجه الأول: أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع، فمن استولى عليه شوق من أين يناسب حاله قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَـٰدِكُمۡ ﴾ النساء: ١١.

الوجه الثاني: أن القرآن محفوظ للأكثرين، ومتكرر على الأسماع والقلوب...

يجعلونه قوتا للقلوب وغذاء للأرواح وحاديا للنفوس يحدوها إلى السير إلى الله ويحثها على الإقبال عليه.

ولهذا يوجد من اعتاده واغتذى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات وسكنت الحركات وأصغت القلوب وتعاطت المشروب»[1].

العنصر الخامس: الأحوال المبتدعة (السكر، والوله، والجنون، وغيرها).

الأحوال: جمع حال، ونعني به هنا: ما يعتري بعض المتصوفة أثناء الذكر أو السماع، أو عند ذكر الجنة والنار والثواب والعقاب من صعق[2] وسكر وغيبة عقل[1] ونحوها.

الوجه الثالث: أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيرا في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، فالوزن إذاً مؤثر، فلذلك طاب الشعر.

الوجه الرابع: أن الشعر يختلف تأثيره في النفس بالألحان، بمد المقصور وقصر الممدود، والوقف في أثناء الكلامات، ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة...

الوجه الخامس: أن الألحان الموزونة تُعضد وتُؤكد بايقاعات وأصوات كالضرب بالقضيب والدف وغيره، وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن...

الوجه السادس: أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه ويستدعي غيره...

الوجه السابع: أن القرآن كلام الله لا تطيقه البشرية، ولوكشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته...اهـ.

(١) مجموع الفتاوى (١١/٥٦٧-٥٦٨).

(٢) معنى الصعق في اللغة: مصدر صعِق الرجل صَعْقًا وصَعَقاً، فهو صَعِق: أي غشي عليه وذهب عقله من صوت سمعه كالهدة الشديدة، ويقال صعق فلان: أي مات، انظر لسان العرب (٨/٢٤٢).

ومعنى الصعق عند الصوفية هو: الفناء في الله عند التجلي الذاتي الوارد بسبحات يحترق ما سوى الله فيها، انظر: التعريفات للجرجاني (ص/١٣٦).

والصوفية يعدون هذه الأحوال من أكمل المقامات، ومن أصابته صار عندهم من الأولياء أصحاب الكرامات.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معرض كلامه عن مدح الصوفية للسكر وزوال العقل: «وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها ممن لم يعلم صدقه، وكلا الطرفين مذموم»[٢].

---

(١) معنى الغيبة في اللغة: بفتح الغين وسكون الياء، فقدان الشيء والبعد عنه وعدم المعرفة به، انظر: لسان العرب (١١/١٠٥).

ومعنى الغيبة عند الصوفية: الغيبة عن الأشياء بمشاهدة الحق، وهي بهذا التعريف قريبة المعنى مما يسمونه بالفناء، قال الجرجاني: «الغيبة: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق بل من أحوال نفسه بما يرد عليه من الحق إذا عظم الوارد واستولى عليه سلطان الحقيقة» التعريفات (ص/١٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٨).

المبحث الثاني: ذكر شبهات الصوفية في أعمال القلوب.

لعل بما سبق من بيان مذاهب الصوفية في أعمال القلوب، تبين لنا أن أصل انحرافهم وضلالهم في هذه المسائل مبني على عدم اعتمادهم على النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وما يستنبط منها من قواعد وأحكام، بل كان اعتمادهم على الحكايات والقصص - من الكشف، والإلهام، والهتف، والذوق، والوجد- والتي يحكونها عن شيوخهم بلا أسانيد، ولهذا لم يميزوا في أعمال القلوب بين الموافق للشرع والمخالف له.

والمتأمل في أقوالهم السابقة في أعمال القلوب واعتقادهم أنها معلولة، ومن منازل العوام، يجد أن الشبهة التي عرضت لهم هي اعتقادهم أنها من حظوظ النفس لا محض العبودية كما صرحوا بذلك، ولهذا يزعمون أنهم يعبدون الله لذاته لا رغبة في جنته ولا خوفا من ناره، ولهذا عللوا كون الإرادة من منازل العوام لأنها تفرق وهي رجوع إلى حظوظ النفس، وهكذا التوكل عندهم عمى عن الكفاية ورجوع إلى الأسباب.

ومنشأ الشبهة التى لأجلها جعلوا أعمال القلوب معلولة من منازل العوام هي قولهم بالفناء، فهي عندهم الغاية التي يسعون إليها، كما قال أبو العباس بن عريف: «فالإرادة والتوبة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشكر والمحبة والشوق والأنس منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال السائرين، ووصلوا إلى مقام الفناء عما سواه سبحانه، فإن ما قبل هذه المقامات مرادة إلى هذه الغاية»[1].

وقال أيضا:« فعند القوم كل ما هو من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته، وإنما عين الحقيقة عندهم أن يكون قائما بإقاماته له، محبا بمحبته له، ناظرا بنظره، لا من غير أن يبقى

---

(1) محاسن المجالس (ص/٣٩).

معه بقية تناط باسم، أو تقف على رسم، أو تتعلق بنظر، أو تنعت بنعت، أو توصف بوصف، أو تنسب إلى وقت»[1].

قال ابن القيم رحمه الله معلقا على هذا القول: «هذا هو مقام الفناء الذي يشير إليه كثير من المتأخرين، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات، وكل ما دونه فمرقاة إليه وعالة عليه.

ولهذا كانت المحبة عندهم آخر منازل الطريق وأول أودية الفناء، والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو، وهي آخر مترل يلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة، وما دونها أعراض الإعراض، فجعلوا المحبة مترلا من المنازل ليست غاية، وجعلوها أول الأدوية التي سلك فيها أصحاب الفناء، فهي أول أوديتهم والعقبة التي ينحدرون منها إلى منازل الفناء والمحو، فليست هي الغاية عندهم، وأصحابها عندهم مقدمة العامة، وساقة أصحاب الفناء عندهم مقدمون عليهم سابقون لهم فإنهم ساقة الخاصة وهؤلاء مقدمة العامة، فهذا كله بناء على أن الفناء هو الغاية التي لا غاية للعبد وراءها، ولا كمال له يطلبه فوقها»[2].

وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن الفناء نوعان، الفناء البدعي والفناء الشرعي.

والفناء البدعي[3] هو أن لا يفرق العارف بين الحسن والقبيح، ولا بين محبوب الرب تعالى ومبغوضه، بل الكل عنده سواء، ويمتدحون بذلك ويجعلونها من المقامات العالية، قال

---

[1] نفس المصدر ().

[2] طريق الهجرتين (ص/٤٨٠-٤٨١).

[3] ثم هذا الفناء البدعي منقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الفناء عن شهود السوى «وهو أن يفنى عن شهود ما سوى الله تعالى، فيفنى بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى الله تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق الله، ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين فهو ضال ضلالا مبينا، وكذلك من جعله من لوازم طريق

شيخ الإسلام رحمه الله: «المقصود هنا: أن الفرق بين الأفعال الحسنة التي يحصل لصاحبها بها لذة، وبين السيئة التي يحصل له بها ألم، أمر حسي يعرفه جميع الحيوان، فمن قال من المدعين للحقيقة القدرية والفناء في توحيد الربوبية والاصطلام[1]: أنه يبقى في عين الجمع بحيث لا يفرق بين ما يؤلم أو ما يلذ؛ كان هذا مما يعلم كذبه فيه إن كان يفهم ما يقول، وإلا كان ضالا يتكلم بما لا يعرف حقيقته، وهو الغالب على من يتكلم في هذا، فإن القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد – مشهد الفناء في توحيدالربوبية – فلا يشهد فرقا ما دام في هذا المشهد، وقد يغيب عنه الإحساس بما يوجب الفرق مدة من الزمان، فيظن هذا الفناء مقاما محمودا، ويجعله إما غاية وإما لازما للسالكين، وهذا غلط»[2].

فيقول مبينا الفناء الشرعي – وهو الذي للمؤمنين –: «وكلا الطائفتين: الذين يسلكون إلى الله محض الإرادة والمحبة والدنو والقرب منه، من غير اعتبار بالأمر والنهي المتزَّلين من عند الله، الذين ينتهون إلى الفناء في توحيد الربوبية، يقولون بالجمع والاصطلام في توحيد الربوبية،

الله فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك» مجموع الفتاوى (٣/١١٨-١١٩)، وانظر: (٢/٣٧٠)، و (١٠/٣٣٨).

القسم الثاني: الفناء عن وجود السوى؛ وهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب وبين العبد، بل ليس عندهم في الحقيقة رب وعبد، وهذا القول بالفناء للاتحادية الملاحدة القائلين بوحدة الوجود، الذين يجعلون الله عين الموجودات وحقيقة الكائنات، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، انظر: مجموع الفتاوى (٢/٣٧٠)، و (٣/١١٩)، و (١٠/٣٤٢).

[1] الاصطلام لغة: مصدر من اصطلم؛ أي: استأصل، واصطُلِم القوم: أُبيدوا، والاصطلام: إذا أبيد القوم من أصلهم قيل: اصطلموا، والاصطلام أيضا: هو الاضطراب والارتعاش، انظر: لسان العرب (٨/٢٧٤-٢٧٥). ومعنى الاصطلام في عرف الصوفية: وَلَه غالب على القلب، سلطانه قوي، فيسكن من قام به تحته، وهو قريب من الهيمان، وقيل: هو غلبات الحق الذي يجعل كلية العبد مغلوبة به بامتحان اللطف في نفي إرادته، انظر: معجم اصطلاحات الصوفية (ص/٥٥) للكاشاني، ومعجم مصطلحات الصوفية (ص/١٧)، للحفني

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٣١٠-٣١١).

ولا يصلون إلى الفرق الثاني[1]، ويقولون: إن صاحب الفناء لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، ويجعلون هذا غاية السلوك.

والذين يفرقون بين ما يستحسنونه ويستقبحونه ويحبونه ويكرهونه ويأمرون به وينهون عنه، لكن بإرادهم ومحبتهم وهواهم، لا بالكتاب المترل من عند الله.

كلا الطائفتين متبع لهواه بغير هدى من الله، وكلا الطائفتين لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله.

فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي: أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وأنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله، وهذا ملة إبراهيم وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين.

والفناء في هذا هو الفناء المأمور به، الذي جاءت به الرسل، وهو؛ أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه، فيكون مع الحق بلا خلق، كما قال الشيخ عبد القادر: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس»[2].

---

(1) **وهو الفرق بعد الجمع**، وهو الفرق الشرعي، (وهو أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله، ومدبرة بأمره، ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه رب المصنوعات، وإلهها وخالقها ومالكها، فيكون مع اجتماع قلبه على الله إخلاصا ومحبة وخوفا ورجاء واستعانة وتوكلا على الله وموالاة فيه ومعادة فيه، ناظرا إلى الفرق بين الخالق والمخلوق، مميزا بين هذا وهذا، ويشهد تفرق المخلوقات وكثرتها، مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه هو الله لا إله إلا هو)، العبودية (ص/١١٤)، مجموع الفتاوى (٤٩٧/١٠).

(2) مجموع الفتاوى (٣٣٧/٨-٣٣٨).

ثم بين الشيخ رحمه الله بعد هذا الكلام خطأ القائلين بالفناء المبتدع: «وأما الذي لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، فهذا لم تبق عنده الأمور نوعان: محبوب للحق ومكروه، بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق كما أنه مراد.

فإن هؤلاء أصل قولهم: هو قول جهم بن صفوان من القدرية، فهم من غلاة الجهمية الجبرية في القدر، وإن كانوا في الصفات يكفرون الجهمية نفاة الصفات...

وهؤلاء إذا شهدوا هذا لم يبق عندهم فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبح إلا من حيث موافقتها للإنسان ومخالفة بعضها له، فما وافق مراده ومحبوبه كان حسنا عنده، وما خالف ذلك كان قبيحا عنده، فلا يكون في نفس الأمر حسنة يحبها الله ولا سيئة يكرهها، إلا بمعنى أن الحسنة هي ما قرن بها لذة صاحبها، والسيئة ما قرن بها ألم صاحبها، من غير فرق يعود إليه ولا إلى الأفعال أصلا، ولهذا كان هؤلاء لا يثبتون حسنا ولا قبيحا، لا بمعنى الملائم للطبع والمنافي له.

والحسن والقبح الشرعي هو: ما دل صاحبه على أنه قد يحصل لمن فعله لذة، أو حصول ألم له، ولهذا يجوز عندهم أن يأمر الله بكل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان، وينهى عن كل شيء حتى عن الإيمان والتوحيد، ويجوز نسخ كل ما أمر به بكل ما نهى عنه، ولم يبق عندهم في الوجود خير ولا شر، ولا حسن ولا قبيح، إلا بهذا الاعتبار، فما في الوجود ضر ولا نفع، والنفع والضر أمران إضافيان؛ فربما نفع هذا ما ضر هذا، كما يقال:

مصائب قوم عند قوم فوائد.

فلما كان هذا حقيقة قولهم الذي يعتقدونه ويشهدونه صاروا حزبين.

حزبا من أهل الكلام والرأي، أقروا بالفرق الطبيعي[1]، وقالوا: ما ثم فرق إلا الفرق الطبيعي، ليس هنا فرق يرجع إلى الله بأنه يحب هذا ويبغض هذا...

والحزب الثاني من الصوفية: الذي كان هذا المشهد هو منتهى سلوكهم، عرفوا الفرق الطبيعي، وهم قد سلكوا على ترك هذا الفرق الطبيعي، وأنهم يزهدون في حظوظ النفس وأهوائها، لا يريدون شيئا لأنفسهم، وعندهم أن من طلب شيئا للأكل والشرب في الجنة، فإنما طلب هواه وحظه، وهذا كله نقص عندهم ينافي حقيقة الفناء في توحيد الربوبية، وهو بقاء مع النفس وحظوظها.

والمقامات كلها عندهم - التوكل والمحبة ؛ وغير ذلك - إنما هي منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شهدوا توحيد الربوبية كان ذلك عندهم عللا في الحقيقة، إما لنقص المعرفة والشهود، وإما لأنه ذب عن النفس وطلب حظوظها، فإنه من شهد أن كل ما في الوجود: فالرب يحبه ويرضاه ويريده، لا فرق عنده بين شيء وشيء، إلا أن من الأمور ما معه حظ لبعض الناس من لذة يصيبها، ومنها ما معه ألم لبعض الناس، فمن كان هذا مشهده؛ فإنه قطعا يرى أن كل من فرق بين شيء وشيء لم يفرق إلا لنقص معرفته ، وشهوده أن الله رب كل شيء، ومريد لكل شيء ومحب - على قولهم - لكل شيء، وإنما لفرق يرجع إلى حظه وهواه، فيكون طالبا لحظه، ذابا عن نفسه، وهذا علة وعيب عندهم.

فصار عندهم كل من فرّق: إما ناقص المعرفة والشهادة، وإما ناقص القصد والإرادة، وكلاهما علة، بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية: فإنه يشهد كل ما في الوجود بإرادته

---

[1] **وهو الفرق الأول**، وهو: الفرق (بإرادة هذا وكراهة هذا، ورؤية فعل هذا وترك هذا، فإن الإنسان قبل أن يرى التوحيد (الجمع) يرى للخلق فعلا يتفرق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات، ويكون متبعا لهواه فيما يريده، فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع، ثم شهد خالق كل شيء، فخرج بشهود هذا الجمع عن ذاك الفرق)، مجموع الفتاوى (١٠/٤٩٧).

ومحبته ورضاه عندهم، لا فرق بين شيء وشيء، فلا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة، كما قاله صاحب منازل السائرين...»[1].

ومن أسباب ضلالهم وانحرافهم هو؛ المبالغة في تجريد الإرادة إلى الله والتقرب إليه، حتى رأوا أن كل ما تطلبه النفس سواء أكان من متاع الدنيا أو من ثواب الآخرة - من طلب الجنة، والاستعاذة من النار - مزاحم للقصد المتجه إلى الله فيكون ذلك تشريكا يجب التتره عنه، قال شيخ الإسلام رحمه: « ثم إنه مما أوقع هؤلاء في هذا الغلط؛ أنهم وجدوا كثيرا من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار، حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيرا، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلا، بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائنا من كان، وهذا هو الذي أدخل كثيرا منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون اليه، وما لا تتم مصلحة دينهم الا به، فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور عبادة بحكم الطبع والهوى والعادة، ومعلوم أن الأفعال التي تقع على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة، فرأى أولئك أن الطريق إلى الله ترك هذه الأمور لأنها من الطبيعيات والعادات، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك، مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات»[2].

---

[1] مجموع الفتاوى (٨/٣٣٩-٣٤٦).

[2] الاستقامة (٢/١٣٣-١٣٤).

المبحث الثالث: الرد على الصوفية.

تمهيد

موقف أهل السنة من مصادر التلقي عند الصوفية

الكتاب والسنة هما مصدر التلقي عند أهل السنة والجماعة قاطبة - بما فيه هذا العَلَم شيخ الإسلام ومفتي الأنام العلامة ابن تيمية رحمه الله - فلا يُعرف الحق والهدى والصواب إلا عن طريق الكتاب والسنة وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، فما وافق ذلك هو الحق، وليس وراء ذلك إلا الهوى والضلال.

قال شيخ الإسلام في معرض تقريره اشتمال الكتاب والسنة على ما يحتاج العباد إلى معرفته، وأن الدين كامل لا يحتاج إلى من يزيد فيه، أو يُصلح أو يُبدل أو يُغيّر: «والحمد لله الذي بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا، الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف: ١١١.

وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه، ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك: ١٠، وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة»[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (٣/٢٩٥-٢٩٦)، وانظر: الفرقان بين الحق والباطل (ص/١٧-١٨).

والأدهى من ذلك - كما تقدم - أن فريقا منهم يزعم أنه غير محتاج للتلقي عن الرسل، لأنه يتلقي من المصدر الذي يتلقي منه الرسول، فهو يأخذ عن جبريل عليه السلام مباشرة، وقد يرتقي به الحال فيأخذ عن الله.

أما موقف شيخ الإسلام الخاص من مصادر التلقي عند الصوفية فأجمله فيما يلي:

- الكشف:

سبق أن قلنا أن الكشف عند الصوفية هو: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا وشهودا، وبينا أنه مصدر من مصادر التلقي عندهم.

وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن الكشف نوعان:

الكشف الشرعي؛ وهو ما ينجلي للقلب المؤمن المعمور بالتقوى من الأمور على ما هي عليه، فرأى الأمور عيانا مع غيبها عن غيرها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الله فطر عباده على الحق، فإذا لم تستحل الفطرة شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها وعرفت معروفها، قال عمر: الحق أبلج لا يخفى على فطن.

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة منورة بنور القرآن، تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات، فرأت الأمور عيانا مع غيبها عن غيرها.

وفي السنن والمسند وغيره عن النواس بن سمعان عن النبي قال: "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مُفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط، فالصراط المستقيم هو الإسلام، والستور المرخاة حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح بابا من تلك الأبواب ناداه المنادي: يا عبد الله لا تفتحه، فإنك إن فتحته تلِجْهُ، والداعي على رأس

الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن"[1]، فقد بين في هذا الحديث العظيم - الذي مَن عرفه انتفع به انتفاعا بالغا إن ساعده التوفيق، واستغنى به عن علوم كثيرة - أن في قلب كل مؤمن واعظا، والوعظ هو الأمر والنهي، والترغيب والترهيب.

وإذا كان القلب معمورا بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: "إن في قلب المؤمن سراجا يزهر"[2].

وفي الحديث الصحيح: "إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ"[3] فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره، ولا سيما في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله، فإن الدجال أكذب خلق الله، مع أن الله يجري على يديه أمورا هائلة، ومخاريق مزلزلة، حتى إن من رآه افتتن به، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له وعرف حقائقها من بواطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم، ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ النور: ٣٥، قال: هو المؤمن ينطق

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٩/١٨١-١٨٢)، الترمذي في سننه (ص/٦٣٩)في كتاب الأمثال عن رسول الله ، باب ما جاء في مثل الله لعباده، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/١٧٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولا أعلم له علة ولم يخرجاه، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ص/٣٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (ص/٣٢).

[2] أخرجه عبد الله بن مبارك في الزهد (ص/٥٠٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٤٨١) وأبو نعيم الحلية (١/٢٧٦)، كلهم عن حذيفة موقوفا، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧/٢٠٨) مرفوعا، وهو ضعيف لأن في سنده ليث بن أبي سليم وهو مخلّط، والأثر مع وقفه في سنده انقطاع، فأبو البختري: سعيد بن فيروز (الراوي عن حذيفة) لم يدرك حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٣٨)، في كتاب اللباس، باب الجعد، ومسلم في صحيحه (ص/٩٤)، في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات.

بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نورا على نور، فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن، فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم، والظن أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا، أو هذا أصوب.

وفي الصحيح عن النبي قال: "قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر"[1]، والمحدث: هو الملهم المخاطب في سره، وما قال عمر لشيء: إني لأظنه كذا وكذا إلا كان كما ظن، وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه.

وأيضا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقينا وظنا، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى، فإنه إلى كشفها أحوج.

فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب، فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق عرف كذبه من فحوى كلامه، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني فتمنعه البيان، ولكن هو في نفسه قد أخذ حِذْره منه، وربما لوّح أو صرّح به خوفا من الله، وشفقة على خلق الله ليحذروا من روايته أو العمل به.

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام، وأن هذا الرجل كافر أو فاسق أو ديوث أو لوطي أو خمار أو مغن أو كاذب من غير دليل ظاهر، بل بما يلقي الله في قلبه.

وكذلك بالعكس يلقي في قلبه محبة لشخص، وأنه من أولياء الله، وأن هذا الرجل صالح، وهذا الطعام حلال، وهذا القول صدق، فهذا وأمثاله لا يجوز أن يستبعد في حق أولياء الله المؤمنين المتقين»[2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦٢٠)، في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر ، ومسلم في صحيحه (ص/٩٧٦)، في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر.

[2] مجموع الفتاوى (٢٠/٤٢-٤٧).

ثم بين النوع الثاني من الكشف وهو الكشف البدعي الذي يكون سببه الجن والشياطين، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة لم يكن أفضل من عمر، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة، تبعا لما جاء به الرسول، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعا لما ورد عليه، وهؤلاء الذين أخطئوا وضلوا، وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم، وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المنقول، وصار أحدهم يقول: أخذوا علمهم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، فيقال له: أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق، ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين، وإما من اليهود والنصارى، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله ؟ ومن أين لك أنه ليس من وحي الشيطان ؟...

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج، وما لا يكون موجودا إلا في أنفسهم كحال النائم، وهذا يعرفه كل أحد، ولكن قد يرون في الخارج أشخاصا يرونها عيانا، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، ويخاطبهم أولئك الأشخاص، ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات فيقفون بها...، فهذا كله موجود كثيرا، لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان، وأنه من السحر، وأن ذلك حصل بما قاله وعمله من السحر، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن»[1].

ثم بين شيخ الإسلام أن الكشف مهما قوي وكان صاحبه صالحا، فإنه لا يعصمه من الخطأ، لذا لا بد من عرض كل كشف على الكتاب والسنة، قال رحمه الله: «فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات، فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٣/٧٤-٧٧).

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه مُحَدَّث في هذه الأمة، فأي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد فعمر أفضل منه، ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك، كما رجع يوم الحديبية...»[1].

فإذا كان هذا حال الكشف الشرعي لا يقبل إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة، فما بال الكشف البدعي، لا شك أن الأمر أبعد وأخطر.

وقلنا إن مما يدخل تحت الكشف الإلهام، والفراسة، والهواتف.

المسألة الأولى: الإلهام.

سبق أن بينا أن الإلهام: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر ويطمئن ويسكن، من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة، يخص الله تعالى به بعض أصفيائه، وهو مصدر من مصادر التلقي عند القوم.

قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن الإلهام: «وحقيقته أن الله وكل بالإنس ملائكة وشياطين، يلقون في قلوبهم الخير والشر، فالعلم الصادق من الخير، والعقائد الباطلة من الشر، كما قال ابن مسعود: "لمة الملك تصديق بالحق، ولمة الشيطان تكذيب بالحق"[2]...

---

[1] مجموع الفتاوى (١١/٢٠٥).

[2] روي عن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا، ولفظه: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان، ثم قرأ :﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ البقرة: ٢٦٨»، أخرجه الترمذي في سننه (ص/٦٦٩) في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، ﷺ، باب ومن سورة البقرة، وابن حبان في صحيحه (٢٧٨/٣)، والبيهقي في الشعب (٢٨٥/٦)، والطبراني في معجم الكبير (١٠١/٩) وصحح الحديث مرفوعا الشيخ الألباني في المشكاة (٧٤) التحقيق الثاني.

وكما أخبر الله أن الملائكة توحي إلى البشر ما توحيه، وإن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك، كما لا يشعر بالشيطان الموسوس، لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحيا، ويكلمه بملك يوحي بإذنه ما يشاء، والثالث التكليم من وراء حجاب»[1].

فبين شيخ الإسلام أن الإلهام – الذي من أهم أنواع الكشف – نوعان، الإلهام الشرعي الذي يحصل لمن كان قلبه معمورا بالإيمان والتقوى، فقال رحمه الله: « ففي الجملة القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي، فمتى ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هذا ترجيحا بدليل شرعي، والذين أنكروا كون الإلهام طريقا على الإطلاق أخطأوا، كما أخطأ الذين جعلوه طريقا شرعيا على الإطلاق.

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحا، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى، فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه»[2].

وقال في معرض كلامه عن أحوال بعض الصوفية ومصادرهم في التلقي: «.. فمنهم من يظن أنه يُلقّن القرآن بلا تلقين، ويحكون أن شخصا حصل له ذلك، وهذا كذب..، أو يحكى أن بعضهم قال: أخذوا علمهم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وهذا لايقع، لكن منهم من يظن أنما يُلقى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة،

---

[1] مجموع الفتاوى (١٧/٥٣١-٥٣٢).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٣).

وقد يكون من الشيطان، وليس عندهم فرقان يفرق بين الرحماني والشيطاني، فإن الفرق الذي لا يخطئ هو القرآن والسنة، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ.

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ الزخرف: ٣٦ – ٣٨، وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله...

ثم إن هؤلاء لما ظنوا أن هذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من أتباع الرسول، يقول أحدهم : فلان عطيته على يد محمد، وأنا عطيتي من الله بلا واسطة، ويقول أيضا: فلان يأخذ عن الكتاب، وهذا الشيخ يأخذ عن الله ومثل هذا»[١].

إذا، يكون الفرق بين الإلهام المحمود الشرعي وبين الوسوسة المذمومة هوالكتاب والسنة، فإن كان ما ألقي في النفس مما دل عليه الكتاب والسنة على أنه تقوى الله، فهو الإلهام المحمود، وإن كان مما دل على أنه فجور، فهو من الوسواس المذموم، وهذا الفرق مطرد لا ينتقض[٢].

ثم الإلهام وإن كان شرعيا ليس مصدرا مستقلا للتلقي، بل يوزن بالكتاب والسنة[٣].

المسالة الثانية: الفراسة.

وقد سبق معنى الفراسة عند الصوفية أنها: أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق نطق شهادة لا نطق ظن وحسبان، وهي مصدر من مصادر التلقي عند القوم.

وقد قسمه ابن القيم إلى ثلاثة أنواع:

---

[١] مجموع الفتاوى (١٠/٤١٣-٤١٤).

[٢] انظر: مجموع الفتاوى (١٧/٥٢٩).

[٣] مجموع الفتاوى (٢//٢٢٦-٢٢٧)، و (٣٥/١٢٢-١٢٤).

- الفراسة الإيمانية:

وسببها؛ نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل، والحالي والعاطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها؛ أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة..، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانا فهو أحدُّ فراسة.

- فراسة الرياضة والجوع، والسهر والتخلي:

فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان ولا على ولاية، وكثير من الجهال يغتر بها، وللرهبان فيها وقائع معلومة، وهي فراسة لا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم، بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة، وأصحاب عبارة الرؤيا، والأطباء ونحوهم.

- الفراسة الخَلْقية:

وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم، واستدلوا بالخَلْق على الخُلُق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكبره على كبره[1].

إذا، المعرفة بما في الضمائر والقلوب - سواء كان عن طريق الفراسة أو غيرها -، فليس بمجرده دليلا على الولاية الرحمانية، وقد ذكر شيخ الإسلام عن بعض أهل السماع الشيطاني، أنه ربما كاشف بعض الحاضرين لمجلس السماع بما في قلبه، وذلك بعد أن تقترن الشياطين بأهل هذا السماع البدعي، وتخبرهم بذلك.

---

[1] مدارج السالكين (٢/٣٥٧-٣٦٠).

فالعلم بما في القلوب له أسباب شيطانية، وهي شيء لا يخلص من الكهانة، بدليل قصة ابن صياد الكاهن، لما أضمر له النبي في نفسه سورة الدخان، فلما سأله رسول الله عما خبأ له؟ قال ابن صياد: الدخ، فقال به رسول الله : «اخسأ، فلن تعدو قدرك»[1].

فشيء للشيطان فيه نصيب، كيف تطمئن له النفوس وتسكن إليه وتتلقى عنه، وقد دلت الشريعة ألا عبرة بالفراسة، ولا سيّما إذا تضمنت نقض حكم شرعي، أو خَرْم قاعدة من قواعده، والدليل على ذلك: أن الرسول لم يحكم بالفراسة في شأن المتلاعنين، لما قال: إذا جاءت به على صفة كذا، فهو لفلان»، بل قال: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن[2]، مع أنها جاءت به على إحدى الصفتين، وهي المقتضية للمكروه، فدل على أن الأيمان هي المانعة، وامتناعه مما همَ به – وهو الرجم بغير بينة – يدل على أن ما تفرَس به لا حكم له، حين شرعية الأيمان[3].

المسألة الثالثة: الهواتف.

بين شيخ الإسلام أن من يخاطب من المنتسبين إلى الزهد والتصوف بأمور غير شرعية أنها من وساوس الشيطان والنفس، وليست مصدرا تبنى عليها أمور الدين، بل لا تحصل مثل هذه الهواتف والمخاطبات إلا لمن فيه شرك في عبادته أو عنده بدعة، ولا يقع لمخلص متمسك بالسنة البتة، يقول رحمه الله: «والمنتسبون إلى السلوك، يقول أحدهم: إنه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده في الضوء، ومنهم من يشاهده في حال السماع في غيره، ويظنون أنهم يخاطبون، ويجدون المريد في قلوبهم بذلك،

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٧٢)، في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٣٥)، في كتاب الشهادات، باب: إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة، وينطلق لطلب البينة، وفي كتاب التفسير (ص/٨٢٨)، وفي الطلاق (ص/٩٤٨) باب: يبدأ الرجل بالتلاعن.

[3] المصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص/٤٩٣-٤٩٤).

وذلك لأنهم يتمثلونه في أنفسهم، وربما كان الشيطان يتمثل في صورته فيجدون في نفوسهم خطابا من تلك الصورة، فيقولون: خوطبنا من جهته، وهذا وإن كان موجودا في المخاطَب فمن المخاطِب له؟ فالفرقان هنا، فإنما ذلك المخاطب من وسواس الشيطان والنفس.

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم، ولا يخاطبون بما يعرفون أنه باطل، لئلا ينفرون منه، بل الشيطان يخاطب أحدهم بما يرى أنه حق...

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم أنه مأمور بذلك، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك، والله منزه عن ذلك، وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطان وما في نفسه من الشرك، إذ لو كان مخلصا لله الدين لما عرض له شيء من ذلك، فإن هذا لا يكون إلا لمن فيه شرك في عبادته أو عنده بدعة، ولا يقع هذا لمخلص متمسك بالسنة ألبتة»[(١)].

- الذوق:

سبق أن قلنا أن الذوق عند الصوفية ثمرة من ثمرات التجلي ونتيجة من نتائج الكشوفات، يقذفه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير استناد إلى الكتاب والسنة، وهو مصدر من مصادر التلقي عند الصوفية، قال شيخ الإسلام في معرض كلامه عن مناهج الاستدلال عند مختلف الفرق، وذكر المصالح المرسلة، ثم قال: «ومنهم من يسميها الرأي، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته»[(٢)].

فبين شيخ الإسلام حقيقة الذوق البدعي الموجود عند الصوفية - والذي هو من مصادر التلقي عندهم -، فقال رحمه الله في معرض كلامه عن المتصوفة: «وهؤلاء قد يسمون ما

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦١١-٦١٢).

(٢) نفس المصدر (١١/٣٤٣).

أحدثوا من البدع حقيقة، كما يسمون ما يشهدون من القدر حقيقة، وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه ويذوقه ويجده في قلبه، مع ما فيه من غفلة عن الله ...

وأصل ضلال من ضل هو تقديم قياسه على النص المنزل من عند الله، واختياره الهوى على اتباع أمر الله، فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد، فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته»[1]، ثم ذكر محبة المؤمنين وأذوقاهم، ومحبة أهل الكفر والبدع والشهوات وأذواقهم.

وقد بين شيخ الإسلام الذوق الشرعي وحقيقته حتى يكون المرء على بينة من الأمر في الفرق بينهما، فقال رحمه الله: «فاستعمال لفظ الذوق في إدراك الملائم والمنافر كثير، وقال النبي: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان"[2] كما تقدم ذكر الحديث، فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه وذوق طعم الإيمان أمر يعرفه من حصل له هذا الوجد.

وهذا الذوق أصحابه فيه يتفاوتون: فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله، وإقبالهم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين، لا يحبون شيئا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى، قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه.

---

[1] العبودية (ص/٤٤-٤٥).

[2] تقدم تخريجه (ص/٦٥).

هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب، وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، والله سبحانه أعلم»[1].

وقد تبين بهذا أن الذوق الصحيح: هو الذوق الإيماني الشرعي الذي قام عليه الدليل من الكتاب والسنة فوافقهما، وأن ما خالفهما فهو ذوق ضالي بدعي باطل، لا يعدو أن يكون هوى النفس وحظها، والله أعلم.

- الوجد:

تقدم أيضا أن الوجد هو ما يجد المرء من نفسه من معان ترد على القلب من فرح أو غم أو حزن أو بكاء أو خشية أو نحو ذلك، لكن الحكم على هذا الوجد بكونه حقا أو باطلا إنما يتوقف على موافقته للكتاب والسنة أو مخالفتهما، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وكل حب وذوق ووجد لا تشهد له هذه الشريعة، فهو من أهواء الذين لا يعلمون، فإن العلم بما يحبه الله إنما هو ما أنزله الله إلى عباده من هداه»[2].

وقال في موضع آخر، في معرض بيان أن مشايخ الطريقة يوصون بأن تكون أحوالهم موافقة للكتاب والسنة، لما يعلمونه من حال كثير من السالكين: أنه يجري مع ذوقه ووجده وما يراه ويهواه، غير متبع لسبيل الله التي بعث بها رسله، قال رحمه الله: «وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد، والعمل في ذلك فيه من الحب والوجد ما لا ينضبط، فكثيرا ما يعمل السالك بمقتضى ما يجده في قلبه من المحبة، وما يدركه ويذوقه من طعم العبادة، وهذا

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٣٣٥-٣٣٦).

[2] الاستقامة (١/٢٥٣).

إذا لم يكن موافقا لأمر الله ورسوله، وإلا كان صاحبه في ضلال من جنس ضلال المشركين وأهل الكتاب الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله»[1].

فالوجد الشرعي الصحيح: هو ما يجده الإنسان في نفسه من المحبة والإنابة والخشية من الله والإيمان به، ونحو ذلك ما يوافق كتاب الله وسنة رسوله، وما خالفهما من وجد الصوفية المصحوب بالمكاء والتصدية والرقص المؤدي إلى زوال العقل فهو باطل وضلال[2].

والمقصود: أن الكشف والذوق والوجد لا يمكن أن يعتبر مصدرا للتلقي لأنه عرضة للخطأ، ويختلف باختلاف أحوال صاحبه، فأين هذا المصدر من الوحي المعصوم الذي تكفل بحفظه الحي القيوم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(١) نفس المصدر (٢٥١/١).

(٢) قد استفدت في هذا الرد من كتاب: «موقف ابن تيمية من الصوفية» (٣١٧/١-٣٧١)، تأليف: د. محمد بن عبد الرحمن العريفي.

مدخل

تقدم بيان انحراف الصوفية في أعمال القلوب والشبهات التي بنوا عليها ضلالهم في فهمها، كما بينا مخالفتهم لأهل السنة والجماعة في عدم جعلهم الكتاب والسنة مستندا يتلقى عنهما أمور الدين، بل اعتمدوا فيها على القصص والحكايات عن شيوخهم المبنية على الكشف والذوق والوجد.

وفيما يلي يكون الرد عليهم من خلال المطالب الثلاثة:

المطلب الأول

الرد على الصوفية في تقسيم أعمال القلوب للخاصة وللعامة

والمتأمل في أقوالهم السابقة في أعمال القلوب واعتقادهم أنها معلولة، ومن منازل العوام، يجد أن الشبهة التي عرضت لهم هي اعتقادهم بأنها من حظوظ النفس لا محض العبودية، بل أعمال القلوب عندهم من منازل أهل الشرع السائرين إلى عين الحقيقة، فإذا شاهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال الشاهدين حتى يفنى ما لم يكن، ويبقى ما لم يزل.

وقد أجاب شيخ الإسلام عن هذه الشبهة إجمالا فقال رحمه الله: «وأما المحبة لله، والتوكل عليه، والإخلاص له ونحو ذلك، فهذه كلها خير محض، وهي حسنة محبوبة في حق جميع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن قال؛ إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر و منافق»[1].

والآن أنتقل إلى الرد التفصيلي على ما أوردوا حول بعض الأعمال القلبية:

---

[1] التحفة العراقية (ص/٣١٣)، وانظر: التحفة العراقية (ص/٣١١).

الإرادة:

يرى بعض السالكين أن الإخلاص لا يتحقق إلا إذا تجرد الإنسان عن إرادته، وتجرد عن رؤية أعماله، وعدّوا النظر إلى شيء من ذلك قادحا في الإخلاص، وظن بعضهم أن الطريقة الكاملة للعبد ألا تكون له إرادة أصلا، وأن مرادهم هو ما يقدره الله تعالى، ويرون أن هذا هو القيام بالحقيقة الكبرى.

وقف شيخ الإسلام لهذا الأمر ثلاثة وقفات:

الوقفة الأولى: مع ظنهم أن كمال العبد ألا تبقى له إرادة أصلا، حتى تخيل بعض الناس إمكان وجود العمل بغير إرادة[1]، ولعل السبب في خطئهم أنهم لم يشعروا بإرادتهم لفرط تعبدهم، فالإرادة شيء والشعور به شيء آخر، فلما لم يشعروا بها ظنوا انتفاءها، وهذا غلط، فالعبد لا يتصور أن يتحرك إلا عن إرادة وهمّ كما قال النبي ﷺ: «إن أصدق الأسماء الحارث وهمام[2]»[3].

الوقفة الثانية: قد يريد بعض العباد والسالكين بالتجرد عن الإرادة قصد الله وحده دون سواه، والفناء في ذلك بحيث لا يشهدون سواه، ويسمون هذا (الفناء عن شهود السوى) وواقع الأمر أن شدة انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته سبب للقلوب ضعفا عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد، فلا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون بغيره، كما قيل في قوله: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ القصص: ١٠، قالوا: فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى، ومثل هذا يحدث لمن فجأه أمر

---

[1] مما يؤثر في هذا المجال: «ينبغي للمريد أن يكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل»، انظر: قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/٩)، ضمن جامع المسائل.

[2] تقدم تخريجه (ص/٣٢٣).

[3] التحفة العراقية (ص/٤٠٢-٤٠٣)، قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/٨).

شديد من حب أو خوف أو رجاء، فإن القلب يبقى منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه، بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

وعندما يقوى هذا الحال عند السالكين يغيب الواحد منهم بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى، والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها، وفي مثل هذه الحال يضعف المحب ويضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر: أن رجلا ألقى نفسه في اليم، فألقى محبه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي، قال: غبت بك عني فظننت أنك أني.

وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما، وهذا غلط؛ فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلا...

وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في مثل هذا، فضلا عمن هو فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة.

فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون، وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة، فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت.

وهذه الأحوال ليست كمالا بحال من الأحوال، فالكمال هو قصد الله وحده دون سواه، وأن تكون القلوب ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، مع بقاء العلم والتمييز، بحيث يعرف القاصد الأمور على ما هي عليه، والكمال لا يقتضي أن يغيب عن مشاهدة المخلوقات، بل يشهدونها قائمة بأمر الله مدبرة بمشيءته مستجيبة له قانتة له، فيكون للعباد فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدا وممدا لما في قلوبهم من إخلاص الدين

وتجريد التوحيد له والعبادة له وحده لا شريك له: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ آل عمران: ١٩٠ - ١٩١

وحسبنا أن نعلم أن نبينا إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السموات العلا وعاين ما هنالك من الآيات، وأوحي إليه ما أوحي من أنواع المناجاة، أصبح في غداة تلك الليلة في مكة وهو لم يتغير حاله ولا ظهر عليه ما يظهر على العباد حال الذكر والمناجات، ولا غابت عنه المخلوقات حال عروجه[1].

الوقفة الثالثة: مع ظنهم أن الطريقة الكاملة للعبد أن لا تكون له إرادة أصلا، وأن مرادهم هو ما يقدره الرب، ويرون أن هذا هو القيام بالحقيقة الكبرى، وقالوا: إن هذا النهج يجمع على المرء قلبه فلا تتفرق به السبل، لأنه لا يرى للمخلوقات أفعالا، ولا يرى الله إلا الله وحده، وهؤلاء يتناقضون، فقد يقع من العبد الفسق والفجور والقتل وغير ذلك مما أذن الله في كونه وقدره، ولكنه كرهه من العبد وأبغضه، فكان لا بد للعبد من أن ينظر إلى الأمور لا من حيث هي مقدرة كائنة، بل من حيث كونها مأمورا بها أو منهيا عنها، فيريد العبد ما أمره، ويقصر عما نهي عنه، فالمريد ما قدر عليه سيقع في المحرمات ويترك الواجبات، ثم يزعم أنه قائم بالحق، لأنه هذا فعل الله فيه لا فعله هو، وما دام الأمر كذلك فلا تثريب عليه، وهذا ضلال وبُعد عن الحق، فليس الحق في ألا يريد العبد شيئا، ولا أن يريد ما هو واقع وكائن، بل يريد مراد الله، ويحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه[2].

---

[1] العبودية (ص/١٠٨-١١١)، بتصرف.

[2] انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٤٨٥)، و(١٠/٤٩٦-٤٩٩)، والعبودية (ص/٢٩)، و(ص/٩٧)،

ونكتفي بهذا القدر، إذ يأتينا - في أثناء الرد عليهم في مفهومهم للمحبة والرضا والتوكل والزهد – أمور ترجع في الأصل إلى خطئهم في مفهوم الإرادة.

المحبة:

سبق أن بينا أن للمحبة الحقة لوازم كثيرة وتجمعها هذه العبارة (موافقة المحبوب في حب محبوباته وبغض مبغوضاته) **ومع ذلك فإن كثيرا من المدعين للمحبة غلطوا في ظنهم أو موافقة المحبوب تكون في مراده الكوني**، قال بعض السالكين: «إن المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب»[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده، فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء، حتى الكفر والفسوق والعصيان، ولا يمكن أحدا أن يحب كل موجود، بل يحب ما يلائمه وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم، ثم زادهم انغماسا في أهوائهم وشهواتهم، فهم يحبون ما يهوونه؛ كالصور والرئاسة وفضول المال والبدع المضلة زاعمين أن هذا من محبة الله»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: «ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للمحبة، وهي أن موافقة المحبوب في مراده ليس المعنى بها مراده الخلقي الكوني، فإن كل الكون مراده، وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيءته وإرادته الكونية، فلو كانت موافقته في هذا المراد هي محبته لم يكن له عدو أصلا، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عباد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه، **تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا**...

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: قال لي بعض شيوخ هؤلاء؛ "المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراده، فأي شيء أبغض منه"، قال فقلت له: فإذا

---

(١) الرسالة القشيرية (ص/٤٢٧).

(٢) العبودية (ص/٩٧).

كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون، فأبغض قوما ومقتهم ولعنهم وعاداهم فأحببتهم أنت وواليتهم، تكون مواليا للمحبوب موافقا له، أو مخالفا له معاديا له؟ قال: فكأنما ألقم حجرا، ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حد بحيث إذا فعل محظورا يزعم أنه مطيع لله سبحانه وتعالى، ويقول أنا مطيع لإرادته، وينشد في ذلك:

أصبحت منفعلا لما يختاره :: مني ففعلي كله طاعات

ويقول أحدهم: إبليس وإن عصى الأمر، لكنه أطاع الإرادة! يعني أن فعله طاعة لله من حيث موافقة إرادته، وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدين وخروج عن الشرائع كلها، فإن الطاعة إنما هي موافقة الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وأما دخوله تحت القدر الكوني الذي يبغضه ويسخطه ويكفر فاعله ويعاقبه، فهي المعصية والكفر ومعاداته ومعاداة دينه.

ولا ريب أن المسرفين على أنفسهم المنهمكين في الذنوب والمعاصي المعترفين بأنهم عصاة مذنبون أقرب إلى الله من هؤلاء العارفين المنسلخين عن دين الأنبياء كلهم، الذين لا عقل لهم ولا دين، فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه»[١].

وشبهتهم هذه كما بينه شيخ الإسلام هو ظنّهم أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافا للقدرية، فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر كل شيء وشاءه، فظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان[٢].

ومن انحرافاتهم أيضا، تصور الصوفية أن المحبة دعوى مطلقة غير مقيدة بسلوك ولا شرع، فشيخ الإسلام عالج هذه الدعوى من عدة جوانب:

---

[١] طريق الهجرتين (ص/٤٥٢-٤٥٣).

[٢] مجموع الفتاوى (١٠/٦٨٤).

الجانب الأول: بيان أن للمحبة الحقة الصادقة لوازم وشروطا، وأنها بدونها مجرد دعوى لا حقيقة لها.

سبق أن ذكرت أن المحبة ميدان يكثر فيها الادعاء، ويكثر فيها الخوض دون أي سهم فيها، فالمحبة ليست بالادعاء فقط، بل هناك لوازم له لا بد من الالتزام فيها حتى تصح الدعوة، وهذه اللوازم في نفس الوقت تكون علامات على صدق المحبة، ومن هذه اللوازم ما ذكر شيخ الإسلام في كتاب الاستقامة، حيث قال: «إن الله سبحانه وتعالى بين في كتابه محبته، وذكر موجباتها وعلاماتها، وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ آل عمران: ٣١.

وقال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ المائدة: ٥٤.

فهذه ثلاثة أصول لأهل محبة الله؛ إخلاص دينهم، ومتابعة رسوله، والجهاد في سبيله»[1].

قال شيخ الإسلام بعد إيراده آية الامتحان: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ٣١، «فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه، ولهذا يروى عن ذي النون المصري أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده فقال: اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها .

---

[1] الاستقامة (١/٢٦١-٢٦٢)، باختصار، وانظر العبودية (ص/٧٤).

وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ المائدة: ١٨، ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية.

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره، لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة»[1].

الجانب الثاني: مناقشة شبهتهم التي قادتهم إلى القول بذلك، وهي شبهة؛ نحب الله محبة لذاته لا طمعا في جنته ولا خوفا من ناره، لأن طلب الجنة والاستعاذة من النار من حظوظ النفس، ونسوا أن طلب رؤية الله لا يحصل إلا لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما تستلزم المحبة وترجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المطلوب

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الإسراء: ٥٧، ورحمته:اسم جامع لكل خير، وعذابه: اسم جامع لكل شر، ودار الرحمة الخالصة هي: الجنة، ودار العذاب الخالص هي: النار.

فالجنة: اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى الله ، ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: «ما عبدتك شوقا إلى جنتك، ولا خوفا من نارك، وإنما عبدتك شوقا إلى رؤيتك»، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب

---

[1] التحفة العراقية (ص/٤٤٤-٤٤٧)، باختصار، وانظر: والعبودية (ص/٩٥-٩٦).

واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك، يعني لا يدخل في مسمى الجنة إلا التمتع بالمخلوقات و أخرج رؤية الله من نعيم الجنة التي هي أعلى نعمها، ولا تحصل رؤية الله إلا لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

لذا، فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوق العبد إلى محبة الله التي هي الأصل، فالراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجليه له، فمعلوم أن هذا من توابع المحبة له، فالمحبة هي التي أوجبت رجاء التجلي والخوف من الاحتجاب، وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق أو التعذب به فهو إنما يطلب ذلك بعبادة الله المتضمنة لأصل المحبة، ثم إذا ذاق حلاوة محبة الله وجدها أحلى من كل شيء»[1].

ومما انحرف الصوفية – أيضا– في هذا الباب، تقسيمهم المحبة إلى خاصة وعامة، وتفضيلهم الدرجات هي دون الدرجات المفضول بسبب قولهم بالفناء.

فشيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله بينا أن انقسام المحبة إلى خاص وعام ليس انقساما حقيقيا متميزا بالنسبة بفصل يميز أحد النوعين عن الآخر، وإنما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها إلى قسمين: محبة تنشأ عن مطالعة المنن والإحسان، ومحبة تنشأ من معرفة ومطالعة الأسماء والصفات[2].

فشيخ الإسلام وابن القيم رحمهم الله لا يعارضان مسألة تفاوت درجات المحبة، فإنها درجات متفاوتة، وبعضها أكمل من بعض، فإن كل درجة خاصة بالنسبة إلى ما تحتها، عامة بالنسبة إلى ما فوقها، ولكن يعارضان تقسيمها انقساما حقيقيا مميزا – كما فعل الصوفية– يفضي إلى القول بالفناء.

---

[1] التحفة العراقية (ص/٣٩٩-٤٠٥)، باختصار، وسيأتي مزيد رد على هذه الشبهة عند كلامنا على مفهوم الرضا عند الصوفية.

[2] انظر: التحفة العراقية (ص/٤٤٩- ٤٥١)، وقاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/١٧-٢١)، وطريق الهجرتين (ص/٤٧٦).

وقد تقدم أن الهروي ومن تبعه في تفضيل الدرجة الثالثة من المحبة على الدرجة الثانية باعتبارها الأكمل، مبينا أن سبب ذلك هو القول بالفناء، قال ابن القيم معلقا على كلامه: «والمرتبة الثانية عند صاحب المنازل ومن تبعه دون هذه المرتبة - يعني الثالثة - وهي المحبة التي تنشأ من مطالعة الصفات...

وإنما جعل هؤلاء هذه المحبة أنقص من المحبة الثالثة بناء على أصولهم، فإن الفناء هو غاية السالك التي لا غاية له وراءها، فهذه المحبة لما أفنت المحب واستغرقت روحه، بحيث غيبته عن شهوده وفني فيها المحب، وانمحت رسومه بالكلية ولم يبق هناك إلا محبوبه وحده، فكأنه هو المحب لنفسه بنفسه إذ فني من لم يكن وبقي من لم يزل، ولما ضاق نطاق النطق بهم عن التعبير عنها عدلوا إلى التعبير عنها بكونها قاطعة للعبارة مدققة للإشارة، يعني تدق عنها الإشارة ولأن الإشارة تتناول محبا ومحبوبا، وفي هذه المحبة قد فني المحب فانقطع تعلق الإشارة به، إذ الإشارة لا تتعلق بمعدوم.

وسر هذا المقام عندهم هو الفناء في الحب بحيث لا يشاهد له رسما ولا محبة ولا سببا، ولهذا كانت الدرجتان اللتان قبله عنده معلولتين؛ لأنهما مصحوبتان بالبقاء وشهود الأسباب، بخلاف الثالثة، ولهذا قال: ولا تنتهي بالنعوت، يعني أن النعت لا يصل إليها ولا يدركها.

وهذا بناء على قاعدته في كل باب من أبواب كتابه، يجعل الدرجة العالية التي تتضمن الفناء أكمل مما قبلها، والصواب أن الدرجة الثانية أكمل من هذه وأتم، وهي درجة الكملة من المحبين»[1].

---

[1] طريق الهجرتين (ص/٤٧٧).

الرضا:

بين شيخ الإسلام رحمه الله أن فريقين من الناس ضلوا في مفهوم الرضا بالمنهيات:

الطائفة الأولى: قوم من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية، ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافا للقدرية. وقالوا: هو أيضا محب لها مريد لها، ثم أخذوا يحرفون الكلام عن مواضعه. فقالوا: لا يحب الفساد بمعنى لا يريد الفساد، أي لا يريده للمؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر، أي لا يريده لعباده المؤمنين. وهذا غلط عظيم، فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب الإيمان ولا يرضى لعباده الإيمان بمعنى لا يريده للكافرين ولا يرضاه للكافرين.

الطائفة الثانية: من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين: فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: (المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب).

وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى ألا يفرقوا بين المأمور والمحظور، وأولياء الله وأعدائه، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويعطلون الأمر والنهي، والوعد والوعيد والشرائع، وربما سموا هذا (حقيقة)، ولعمري إنه حقيقة كونية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام كما قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الزمر: ٣٨، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ المؤمنون: ٨٤ .

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان أقرب أن يكون كعباد الأصنام.

والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله، وبتصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، واتباع ما يرضاه الله ويحبه، دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعائب، فهو من الذنوب يستغفر، وعلى المصائب يصبر.

ثم أخذ شيخ الإسلام يرد على مقولة الصوفية المعروفة:(الرضا ألا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار)، وأنا أذكر هنا ملخص ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله.

قدم شيخ الإسلام الرد بمقدمة يتبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب، والمقدمة لها شقان:

الشق الأول: ظن هؤلاء وغيرهم أن الجنة هي التنعم بالمخلوقات من أكل وشرب ونكاح ولباس، وسماع أصوات طيبة، وشم روائح طيبة، ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيما غيرها، وجعلوا رؤية الله والتنعم بالنظر إليه خارجا من الجنة، ولم يعرفوا أن كل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة.

الشق الثاني: طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين، كما ثبت عن النبي أنه قال لرجل: «كيف تقول في الصلاة؟» قال أتشهّد، ثم أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال النبي : «حولها ندندن»[(١)]، فقد أخبر أنه هو ومعاذ – وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي – إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ومعاذ، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟!

فإذا عرفت هذه المقدمة، فيكون الرد عليهم من وجوه:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٣٤/٢٥)، وأبو داود في سننه (ص/١٣٠)، في كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، وابن ماجه في سننه (ص/١٦٨)، في كتاب الصلاة، باب ما يقال بعد التشهد والصلاة على النبي ﷺ، وصحح الحديث الألباني في صفة الصلاة (ص/١٨٦).

الوجه الأول: فقول القائل: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار، إن أراد بذلك ألا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية، فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وإنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك ولا من تعذيبك في النار.

١- فهذا الكلام مع كونه مخالفا لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين.

٢- فهو متناقض في نفسه فاسد في صريح العقول، وذلك أن الرضا الذي لا يسأل، إنما لا يسأله لرضاه عن الله، ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ومحبته له، فإذا قُدّر أنه حُجب فرضي بزوال كل نعيم، فرضي بزوال رضاه عن الله وبزوال محبته لله، وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال: يرضى ألا يرضى وهذا جمع بين النقيضين.

٣- ويوضح ذلك: أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يحتمل ألما ومرارة، فكيف يتصور أن يكون راضيا، وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره!

الوجه الثاني: وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك، فقد غلط من وجهين:

الأول: من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة.

الثاني: ومن جهة أنه أيضا أثبت أنه طالب[1] مع كونه راضيا، فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب، فلا ينافي طلبا آخر إذا كان محتاجا إلى مطلوبه، ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر. وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، فيكون طلبه للنظر طلبا للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول

[1] لأنهم يطلبون النظر إلى وجهه الكريم.

المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار، ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر فتبين تناقض قوله.

الوجه الثالث: وأيضا فإذا لم يسأل الله الجنة و لم يستعذ به من النار، فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة، وإما ألا يطلبه.

أ- فإن طلب ما هو دون ذلك، واستعاذ مما هو دون ذلك، فطلبه للجنة أولى واستعاذته من النار أولى.

ب- وإن كان الرضا أن لا يطلب شيئا قط، ولو كان مضطرا إليه ولا يستعيذ من شيء قط وإن كان مضرا، فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتا بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك وإما أن يكون معرضا عن ذلك.

١- فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، وهو بهما أكمل وأتم، فلا يعدل عنه.

٢- وإن كان معرضا عن جميع ذلك، فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضاره بذلك، والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده.

- فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركا مذموما، فضلا عن أن يكون محمودا.

- وإن قال لا أحبه وأطلبه وأريده لا من الله ولا من خلقه، قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه ألا يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك، فكيف يسلب عنه ذلك كله.

والوجه الرابع: أن يقال؛ الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضيا عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله ؟ وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه

وينهى عنه، ثم بين شيخ الإسلام أن الرضا المحمود هو الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه وزجر، والرضا بما يفعل الرب بعبده من المصائب، أما الرضا بالمنهيات فهذا لا يشرع الرضا به، هو الرضا المذموم وقد يصل إلى الكفر والشرك.

الوجه الخامس: فإذا كان الأمر كذلك، فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار، يقال له: سؤال الله الجنة واستعاذته من النار؛ إما أن تكون واجبة، وإما أن تكون مستحبة، وإما أن تكون مباحة، وإما أن تكون مكروهة، ولا يقول مسلم: إنها محرمة ولا مكروهة، وليست أيضا مباحة مستوية الطرفين. ولو قيل: إنها كذلك ففعل المباح المستوي الطرفين لا ينافي الرضا، إذ ليس من شرط الراضي ألا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور، فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي رضاه، أينافي رضاه دعاء وسؤال هو مباح.

وإذا كان السؤال والدعاء كذلك واجبا أو مستحبا، فمعلوم أن الله يرضى بفعل الواجبات والمستحبات، فكيف يكون الراضي الذي من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه ويحبه، بل يفعل ما يسخطه ويكرهه، وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله.

والمقصود أن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب، ولا ترك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا، كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع، ولا فعل المحرمات من المشروع. فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور، ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجابا واستحبابا، والدعاء غير المشروع.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله والاستعاذة به من النار، هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن

ذلك لا يخرج عن كونه واجبا أو مستحبا، وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات، إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين[1].

التوكل:

من خلال استعراضنا لبعض الأدلة من الكتاب والسنة[2] تبين لنا أن التوكل من الأعمال القلبية التي يجب إخلاصها لله تبارك وتعالى، وأنه أصل من أصول العبادة التي لا يتم توحيد العبد إلا به، وأنه من صفات أولياء الله المتقين وعباده الصالحين، كما بينا بعض النتائج المرتبة عليه، وبعد كل هذا فلا يغترن أحد بقول من يقول أن التوكل من مقامات العامة ، وأنه مناف لمقام الخواص من عباد الله، بل هو من المقامات المأمور بها العامة والخاصة على السواء، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذه الأعمال الباطنة، كمحبة الله والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه، ونحو ذلك كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محمودا في حال أحد، وإن ارتقى مقامه»[3].

وحقيقة التوكل عند من يرى أنه من مقامات العامة دون الخاصة، (أن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه، وقال: المتوكل يطلب بتوكله أمرا من الأمور، والعارف يشهد الأمور مفروغا منها، فلا يطلب شيئا)[4].

وقد رد شيخ الإسلام على هاتين الشبهتين برد قوي رصين، وملخصه:

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٩٤-٧١٥).

(2) في مبحث التوكل من هذه الرسالة.

(3) التحفة العراقية (ص/٣١١).

(4) نفس المصدر (ص/٣١٤)،

– **الشبهة الأولى**: أن التوكل يكون لطلب الحصول على الأمور الدنيوية فقط، أوكما عبروا (التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه)، رد عليهم من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن التوكل يكون في حصول المطالب الدنيوية والدينية والأخروية، بل هو في الأمور الدينية أعظم، فإن المتوكل يتوكل على الله سبحانه في صلاح قلبه ودينه وحفظ إيمانه وزيادته، وهذه أهم الأمور إليه، فإن التوكل هو وسيلة والطريق الذي ينال به مقصود العبد ومطلوبه من العبادة، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥، فجمع بين العبادة والتوكل، لأنهما يجمعان الدين كله[١].

الوجه الثاني: إن الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات أو المستحبات إلا بها هي من الدين، والتوكل من هذه الأمور كما أسلفنا أنه وسيلة وطريق إلى تحقيق العبادة، والزاهد فيه زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه، وهذا ليس زهدا مشروعا[٢].

الوجه الثالث: إن التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائما، وما كان محبوبا لله مرضيا له، مأمورا به دائما، لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين[٣].

– **الشبهة الثانية**: التوكل لا تأثير له في الحصول على المطلوب، إذ كل شيء مقدر مفروغ منه، أو كما عبروا (المتوكل يطلب بتوكله أمرا من الأمور، والعارف يشهد الأمور مفروغا منها، فلا يطلب شيئا)، والجواب عليها من وجهين:

الوجه الأول: أن الله أثبت في القرآن الكريم أن التوكل يجلب المنفعة ويدفع المضرة، وذكر شيخ الإسلام عدة آيات في ذلك مع بيان وجه الاستدلال منها، ومن هذه الآيات إخبار

---

[١] انظر هذا الوجه في التحفة العراقية (ص/٣١٤-٣٢٠).

[٢] انظر: التحفة العراقية (ص/٣٢٠-٣٢١).

[٣] التحفة العراقية (ص/٣٢١).

الله بأن توكل المؤمن على الله هو سبب كونه حسبا له، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا . وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ الطلاق: ٢ – ٣، وجه الاستدلال من الآية على أن التوكل سبب لحصول المنفعة وهو الحسب هنا، من وجهين:

١- أن الله رتب هذا الأجر على الوصف المناسب، وأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع في مثل هذا أن يكون وجود الشرط كعدمه، فلا يقال: هو حسب غير المتوكلين كما هو حسب المتوكلين، فعلم أن توكل العبد هو سبب كونه حسبا له.

٢- أن سياق الآية في الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره، لم يكن مرغبا في التوكل، كما جعل التقوى سببا للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب[(١)].

ومن الآيات ما ذكر الله أن التوكل سبب نعمة الله و فضله قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۞ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ آل عمران: ١٧٣ – ١٧٤، فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء على ذلك العمل[(٢)].

ومن الآيات، قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۞ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ المزمل: ٨ – ٩، و قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/٨٨-٨٩)، ضمن جامع الرسائل.

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (١/٩٠).

إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾ الإسراء: ٢، ووجه الاستدلال من الآية أن الله أمر أن يُتخذ وكيلا، ونهى أن يتخذ من دونه وكيلا، ، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، أو يحصل بلا توكل، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلا أنفع من اتخاذ الخالق وكيلا، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد[١].

الوجه الثاني: أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرة أيضا تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم، ولهذا كان طرد قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية[٢].

وهذه الشبهة سئل عنها النبي لما قال: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار، قالوا؛ أولا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فسييسر إلى عمل أهل الشقاء»[٣].

وهذا المعنى قد ثبت عن النبي في الصحيح في مواضع، تبين أن ما سبق به الكتاب سُبق بالأسباب التي تفضي إليه، فالسعادة سُبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به سعيدا، والشقاوة سُبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به شقيا، فالقدر يتضمن الغاية وسببها، لم يتضمن غاية بلا سبب كما يتضمن أن هذا يولد له بأن يتزوج ويطأ المرأة، وهذا ينبت أرضه بأن يزرع ويسقي الزرع، وأمثال ذلك.

---

[١] رسالة في تحقيق التوكل (٨٩/١).

[٢] التحفة العراقية (ص/٣٢٢).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٤١)، في كتاب القدر، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٦١)، في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه.

وكذلك في السنن أنه قيل له: «يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقيها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: هي من قدر الله»[(١)]، بين أن الأسباب التي تُدفع بها المكاره هي من قدر الله، ليس القدر مجرد دفع المكروه بلا سبب[(٢)].

ويتبين من ذلك أن كون الأمور مقدرة لا ينافي ارتباطها بالأسباب المتعلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم،(فكما أن المسببات من قدره الذي فرغ منه، فأسبابها أيضا من قدره الذي فرغ منه، فتقدير المقادير بأسبابها لا ينافي القيام بتلك الأسباب، بل يتوقف حصولها عليها)[(٣)].

وبعدما انتهى شيخ الإسلام من الرد على من يقول أن التوكل للعامة دون الخاصة، ختم كلامه في ذلك ببيان درجات الناس في التوكل، وذكر أنهم أربع درجات:

١- توكل العامة: وهو (من كان توكله على الله، ودعاؤه له) في حصول المباحات.

٢- توكل الخاصة: وهو (ما كان في حصول مستحبات وواجبات).

٣- وأما (من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه).

٤- ومن (أعرض عن التوكل عليه، فهو عاص لله ورسوله، بل خارج عن حقيقة الإيمان)[(٤)].

ومن هذا يتبين لنا غلط من ظن التوكل من مقامات العامة، بل هو من أعلى المقامات وأشرفها وأنه من أحوال المقربين، ونكتفي بهذا، إذ سبق معنا مطلب مستقل في بيان العلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٤٦٧)، في كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في سننه (ص/٥٧٥)، في كتاب الطب، باب «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء».

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (١/٩٣-٩٤) ضمن جامع الرسائل، وانظر: التحفة العراقية من (ص/٣٢٢-٣٤٧).

(٣) طريق الهجرتين (ص/٣٩٦).

(٤) التحفة العراقية (ص/٣٤٧).

الزهد:

سبق أن قلنا إن الزهد خلاف الرغبة، يقال: فلان زاهد في كذا، وفلان راغب فيه، والرغبة: هي من جنس الإرادات. فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة، إما مع وجود كراهته، وإما مع عدم الإرادة والكراهة، بحيث لا يكون مريدا له ولا كارها، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه[1].

فالزهد الذي هو ضد الرغبة، وهو عدم الإرادة أو عدم الإرادة مع الكراهية، فحقيقة المشروع منه أن يكون إرادة العبد وكراهته وبغضه تابعا لحب الله وبغضه ورضاه وسخطه، فيحب ما أحب الله، ويبغض ما أبغضه الله، ويرضى ما يرضاه، ويسخط ما يسخطه الله، بحيث لا يكون تابعا لهواه بل لأمر مولاه[2].

فالذي أريد أن أنبه إليه في هذه المقدمة أن الزهد عبادة كسائر العبادات، يشترط فيها ما يشترط في غيرها، والعبادة لا بد فيها من توفر الشرطين الأساسيين للقبول عند الله، ألا وهما: الإخلاص والمتابعة.

فإذا كان الأمر كذلك، فبالنظر والتتبع نجد كثيرا من الناس يخل بهذين الشرطين أو بأحدهما في كثير من عباداتهم - والزهد من جملة تلك العبادات -، فمن الناس من يزهد لطلب الراحة من تعب الدنيا، ومنهم من يزهد لمسألة أهلها والسلامة من أذاهم، إلى غير ذلك من أمثال الزهد الذي لا يكون المراد فيه وجه الله تبارك وتعالى، وكذلك نجد من يكون مخلصا فيه، لكنه يزهد بغير الزهد المشروع، مثل الذي يصمت دائما، أو يقوم في الشمس، أو على السطح دائما في شدة البرد، أو يتعرى من الثياب دائما، ويلازم لبس الصوف، أو يمتنع من أكل الخبز، أو اللحم، أو يمتنع من الزواج إلى غير ذلك من الأمثلة، مما يبين لنا حصول الخطأ

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٦١٥).

[2] نفس المصدر (٧/٦٥١).

في الزهد وفي فهمه، ولما كان الخطأ في الزهد يرجع غالبا إلى عدم متابعة الرسول وهديه، سأقف قليلا في مناقشة هذا الفهم والرد على أصحابه.

فمن خلال التعريفات التي مرّ ذكرها نستطيع أن نتصور الزهد في مفهوم الصوفية، ونرى بوضوح أن مفهوم الزهد عند المتصوفة هو ترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية، بحيث لا يهتم الإنسان بشوؤن الدنيا ولو بقدر ما يسد به رمقه، وأن الزهد الحقيقي عندهم هو ترك القيام بالأسباب نهائيا، وإخلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان حتى يصبح فقيرا.

بل قد يتعدون هذا، فيدعون أن الزهد الحقيقي هو من زهد حتى في الآخرة، قال ابن أبي جمرة الصوفي[1] معلقا على قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ التوبة: ٢٤، (فالزهد في هذه الأشياء هو المطلوب، خلو القلب والنفس منها، **وحقيقة الزهد هو أعلى من هذا وهو لأهل الخصوص**، ويشهد لذلك ما حكي عن بعض الفضلاء أنه قال: زهدت في ثلاثة أيام؛ الأول: في الدنيا وما فيها، والثاني: في الآخرة وما فيها، والثالث: فيما سوى الله، وهذه هي الهجرة العظمى)[2].

ولا شك في أن من له أدنى معرفة بالإسلام يدرك أن هذا المفهوم للزهد بعيد عن التصور الصحيح الإسلامي السني، وأنه فهم خاطئ له، وأن فيه إعراضا عما أنعم الله به على عباده وامتن به عليهم، وأنه فيه سوء أدب مع الله ظاهرا وتطاول على الله، حيث يصل الأمر ببعض الذين يرون هذا الرأي إلى أن يجعلوا من يطمع في الجنة ونعيمها من غير الزاهدين، وأن

---

(١) هو عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، أبو محمد، مؤلف مختصر صحيح البخاري المسمى جمع النهاية في بدء الخير والغاية، وشرحه: بهجة النفوس وتحليها بما لها وما عليها، توفي سنة ٦٩٩ هـ، انظر: الأعلام (٨٩/٤).

(٢) بهجة النفوس شرح مختصر صحيح البخاري لابن أبي جمرة (١٠٣/3).

الزهد الحقيقي يستوي عنده عذاب الله ونعيمه، فلا يلتفت إلى واحد منهما، وإنما التفاته إلى الله وحده.

فإذا علمنا أن هذا المفهوم ليس إسلاميا بل هو مفهوم مستورد من الرهبانية النصرانية المقيتة، ومن بقايا موروثات الفلسفات اليونانية والحكم الفارسية والهندية والبوذية[1]، سهل علينا فهم الصحيح من السقيم، وأن الإسلام دين الحق، وأن تلك الأديان والخرافات اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

و (الزهد المشروع فهو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله.

وجماع ذلك خلق رسول الله، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[2]. وكان عادته في المطعم أنه لا يرد موجودا، ولا يتكلف مفقودا، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك، وكان القطن أحب إليه، وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد في الزهد، أو العبادة على المشروع، ويقول: أينا مثل رسول الله ؟! يغضب لذلك، ويقول: «والله، إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدود الله تعالى»، وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا فأصوم فلا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم فلا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقال ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

---

[1] انظر: هذه هي الصوفية (ص/١٣٨)، لعبد الرحمن الوكيل، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية، عرضا ونقدا (ص/٦٢) وما بعدها.

[2] تقدم تخريجه (ص/٢).

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩٠٦)، في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ومسلم في صحيحه (ص/٥٤٩)، في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح.

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ولا هو من دين الأنبياء، بل قد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ الرعد: ٣٨، والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجبا تارة ومستحبا أخرى، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين)[١].

(فالزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، وأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك، فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر، أو زهد فيما لا ينفع، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجزن[٢]»)[٣].

وقد وضح شيخ الإسلام أن المطلوب بالزهد فعل المأمور به (وليس الزهد الإعراض عن الدنيا بالكلية)، وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لولا كون الدنيا تشغل عن عبادة الله والدار الآخرة لم يشرع الزهد فيها، بل كان يكون فعله وتركه سواء، أو يرجح هذا أو يرجح هذا ترجيحا دنيويا[٤].

الثاني: أنه إذا قدر أن شخصين أحدهما يريد الآخرة ويريد الدنيا، والآخر زاهد في الدنيا وفي الآخرة، لكان الأول منهما مؤمنا محمودا، والثاني كافرا ملعونا، مع أن الثاني زاهد في الدنيا والأول طالب لها، لكن امتاز الأول بفعل مأمور مع ارتكاب محظور، والثاني لم يكن معه ذلك المأمور به، فثبت أن فعل المأمور به من إرادة الآخرة ينفع، والزهد بدون فعل هذا المأمور لا ينفع.

---

[١] مجموع الفتاوى (١٠/٦٤١-٦٤٣).

[٢] تقدم تخريجه (ص/٤٢٢).

[٣] مجموع الفتاوى (١٠/٥١١)، وانظر أيضا (١٤/٤٥٨٠٤٥٧).

[٤] فلما كانت الدنيا تشغل عن عبادة الله والدار الآخرة شرع فيها الزهد، أي شرع من أجل امتثال الأمر، فإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف يدعى أن الزهد هو ترك ما يستعان به في عبادة الله.

الثالث: المحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة واشتغل بإرادة الدنيا عنها، فأما مجرد مدح ترك الدنيا فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله[1].

ثم بين رحمه الله بعض المحاذير التي وقع فيها الصوفية:

أحدها: أن قوما زهدوا فيما ينفعهم بلا مضرة، فوقعوا به في ترك واجبات أو مستحبات، كمن ترك النساء واللحم، ونحو ذلك، وقد قال : «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

والثاني: أن زهد هذا أوقعه في فعل محظورات، كمن ترك تناول ما أبيح له من المال والمنفعة، واحتاج إلى ذلك فأخذه من حرام، أو سأل الناس المسألة المحرمة، أو استشرف إليهم، والاستشراف مكروه.

والثالث: من زهد زهد الكسل والبطالة والراحة، لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع، فإن العبد إذا كان زاهدا بطالا فسد أعظم فساد، فهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إني لأكره أن أرى الرجل بطالا، ليس في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة».

فمن ترك بزهده حسنات مأمورا بها كان ما تركه خيرا من زهده، أو فعل سيئات منهيا عنها، أو دخل في الكسل والبطالات، فهو من الأخسرين أعمالا: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ الكهف: ١٠٤[1].

---

[1] تقدم تخريجه (ص/٨٦٢).

[2] مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٧-١٤٨).

[1] نفس المصدر (٢٠/١٥٠-١٥١).

فلو سار المسلمون في هذا التوجه في تفسير الزهد فإن العاقبة ستكون دمار الكيان الإسلامي، وهدم المجتمع الإسلامي، وعجزه عن القيام بواجب الدعوة إلى الله والدفاع عن دينه، فكيف تنهض الأمة الإسلامية بواجب الدعوة إذا كان الزهد عندها يعني التبتل وعدم الزواج، وكان يعني الانقطاع عن طلب أي شيء يشغل عن الأذكار في الزوايا، حتى و لو كان ذلك طلب العلم أو طلب قوت اليوم، كما يرى بعض أساطين التصوف.

بدون أدنى شك لو عمل المسلمون في أي عصر بمثل هذه النصائح الصوفية، فإن المجتمع الإسلامي سيكون وجوده مسألة وقت، لأن الأمم لا تستقيم لها الأمور إلا بالقيام بما أمر الله به من عمارة الأرض، والحكم فيها بالقسط، والمجتمع المسلم لا يقوم أمره إلا بالجهاد في سبيل الله والدعوة إليه، والحفاظ على مقومات وجوده في الأرض، وإذا استسلم لمثل هذه الوصايا الصوفية فسيترك الاهتمام بذلك كله، وينزوي على نفسه في الزوايا والمقابر، معتمدا في حياته على ما يأتيه من فتات موائد الآخرين[1].

المطلب الثاني

الرد على الصوفية في عدد الأحوال والمقامات وترتيبها

مع أن الصوفية اهتموا بأعمال القلوب اهتماما شديدا، وصنفوا فيها تصانيف كثيرة، إلا أنهم في حقيقة الأمر هضموا كثيرا من حقائقها - كما سبق -، وقسموا أنواع المجاهدات والرياضات التي يمارسها المريد لتزكية نفسه إلى مراحل، وأطلقوا على كل مرحلة منها اسم مقام، مثل التوبة والورع والزهد والصبر والتوكل وغيرها، وخصوا كل مقام بنوع من المجاهدة والسلوك، بل لا يمكن أن يرتقي المريد من مقام إلى الذي فوقه إلا بعد أن يستوي حق وأحكام

---

[1] انظر: هذه هي الصوفية (ص/١٦٩)، لعبد الرحمن الوكيل.

المقام تامة، فالمقامات تأخذ صورة السلم – عندهم – الذي يتسلسل عليه المريد من درجة وسلم إلى الذي يليه حتى يصل المريد إلى النهاية المقصودة المراد لهم وهي الفناء.

يقول القشيري عن شروط المقام: « وشرطه: أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر، ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا تصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد...

ولا يصحُّ لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام، ليصحَّ بناء أمره على قاعدة صحيحة»[١].

فابن القيم رحمه الله انتقد حصر المقامات في عدد معين، وأشار إلى أنه قد اشتهر عن متأخريهم على خلاف أئمتهم المتقدمين كسهل التستري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد وغيرهم، الذين تكلموا كلاما جامعا مفصلا غير محصور بعدد المقامات[٢].

وكما انتقد ابن القيم رحمه الله مسألة حصر المقامات في عدد معين، انتقد ترتيب المقامات عندهم أيضا، فإنه رحمه الله نبه إلى أن الترتيب الذي يشير إليه كل مُرتِّب للمقامات والمنازل لا يخلو من تحكم، ودعوى غير مطابقة، فليس هناك ترتيب كلي لازم للسلوك.

قال رحمه الله: «فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام، ودخل فيه كله، فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة، ومقاماته وأحواله، وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات، لايكون موفيًا لذلك العقد والواجب إلا بها، وكلما وفّى واجبا أشرف على واجب آخر بعده، وكلما قطع منزلة استقبل أخرى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سيره، فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك في نهايته، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى

---

[١] الرسالة القشيرية (ص/١١٨-١١٩).

[٢] مدارج السالكين (١/١٠٥).

أمور من البصيرة والتوبة والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية إليها، فليس في ذلك ترتيب كلي لازم للسلوك»[1].

فترتيب المقامات والمنازل ليس ترتيبا حسيا كمنازل السير الحسي، بمعنى أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني، فإن هذا محال، فاليقظة معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك البصيرة والإرادة والعزم.

وكذلك التوبة، فإنها كما هي من أول المقامات فهي آخرها أيضا، بل هي مستصحبة في كل مقام، وهذا الترتيب من قبيل ترتيب المشروط على الشرط المصاحب له.

ومثال ذلك: أن الرضا مرتب على الصبر لتوقف الرضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه، فإذا قيل: إن مقام الرضا أو حاله - على اختلاف بينهم- بعد مقام الصبر، لا يعني به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله الصبر.

وإذا كان كذلك علمت أن القصد والعزم متقدم على سائر المنازل فلا وجه لتأخيره، وعلمت بذلك أن المحاسبة متقدمة على التوبة بالرتبة أيضا، فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج ما عليه، وهي حقيقة التوبة.

وعلمت أن منزلة التوكل قبل منزلة الإنابة لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة، والإنابة غاية.

وعلمت أن مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به[1]، فتوحيد الله هو الأساس الذي يقوم عليه بنيان الإيمان، ومنه يبتدئ السالكون سيرهم إلى الله، ولهذا كان مفتاح دعوة الرسل عليهم السلام[2].

---

[1] مدارج السالكين (١/١٠٥).

[1] لأن الهروي - صاحب منازل السائرين - جعل التوحيد آخر المنازل، بدلا من تقديمه على سائر المنازل.

[2] مدارج السالكين (١/١٠١-١٠٢)، انظر: أعمال القلوب عند ابن القيم، جمع ودراسة (ص/٣٩٢-٣٩٤).

ومما يذكر كذلك في موقف شيخ الإسلام وابن القيم من المقامات والأحوال، نقدهما لبعض المقامات التي ليست من منازل السلوك، مثل الفقر والحزن وغير ذلك.

الفقر.

من أهم الموضوعات التي أوضح فيها شيخ الإسلام ابن تيمية رأيه، ووضع الأمور في نصابها الصحيح مسألة الفقر والغنى، وهل الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر؟ وما مدى علاقة الفقر بالزهد؟ وهل الزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره؟

يبين شيخ الإسلام رحمه الله أن الأغنياء والفقراء كانوا يستوون في مقاعدهم عند النبي وفي الاصطفاف خلفه في الصلاة، وفي غير ذلك من الأمور، وأن من أغنياء الصحابة كعثمان وطلحة والزبير وسعد بن معاذ ونحوهم من له مترلة ليست لغيرهم من الفقراء[1].

وهذا هوالعدل والقسط الذي جاء به الكتاب والسنة كما يراه شيخ الإسلام رحمه الله ويحكيه عن الخليفة عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم في معاملتهم للأغنياء والفقراء[2].

وليس هذا هو رأي الكثير من الصوفية، فإن أكثر الصوفية يقررون أن الفقر مقام شريف، وأن الفقراء أفضل من الأغنياء على كل حال ونحو ذلك[3].

ولقد نبه شيخ الإسلام إلى موقع الالتباس في هذه المسألة فبين أن الزهد يكثر عند الفقراء فعلا، وهذا ما دفع الناس إلى اعتقاد أن الفقر مقام شريف كما يدعون، والحقيقة أن الزهد يكثر في الفقراء لأن من العصمة أن لا يجد المرء ما يدفعه إلى حب الدنيا، ولكن الحقيقة

---

(1) مجموع الفتاوى (١١/١٢٥-١٢٦).

(2) نفس المصدر (١١/١٢٦).

(3) انظر: اللمع (ص/٧٣-٧٤).

عند شيخ الإسلام أن الزهد عند الأغنياء كما هو هو عند الفقراء، بل قد يكون هو عند الأغنياء أكمل منه عند الفقراء، وإن كان عند الفقراء أكثر منه عند الأغنياء[1].

فليس للفقر أي ميزة على الغنى، ولا للفقير على الغني، فأفضلهما أتقاهما لله، فإن كان الغني أتقى لله كان أفضل من الفقير، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله، وأترك لما لا يحبه، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل من الغني، فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة[2].

وهذا هو الحق الواضح، وأنه لا فضيلة للفقر على الغنى، وليس الفقر مقاما من المقامات كما زعمه كثير من الصوفية. فقد زعم كثير من الصوفية أن الفقر أمر محمود لذاته، وأنه مقام شريف من مقامات الوصول إلى الولاية[3]، حتى قال الغزالي في كتاب الإحياء: «باب فضيلة الفقر مطلقا»[4].

ولفظ الفقر في الشرع يطلق ويراد به قلة المال وعدمه، ويطلق ويراد افتقار المخلوق لخالقه[5].

فإن أراد الصوفية تمجيد الفقر بالمعنى الأول وهو قلة ذات اليد فهذا خطأ على اطلاقه، لأن الفقر نازلة تنزل بالعبد كغيرها من النوازل، فمن صبر عليها وشكر نال الأجر والثواب، وكان فقره سببا في ارتقائه أعلى الدجات، ولكن لا يقال هنا المحمود هو الفقر بذاته، بل هو حسن الصبر عليه وعدم إظهار الضجر منه واحتساب ذلك كله عند الله، وقد مدح الله هذا الصنف من الفقراء فقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا

---

(1) مجمع الفتاوى (١١/٢٧).

(2) نفس المصدر (١١/٢٢).

(3) الرسالة القشيرية (ص/٣٧٦).

(4) إحياء علوم الدين (٤/٢٤٣).

(5) مجموع الفتاوى (١١/١٩٦-١٩٧).

يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٧، فالممدوح في هؤلاء هو كونهم متعففين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، وليس المحمود هو اتصافهم بالفقر مطلقا كما قال بعض الصوفية.

وإن أرادوا تمجيد الفقر بالمعنى الثاني وهو افتقار المخلوق إلى خالقه فهذا أيضا لا يؤخذ على إطلاقه، لأن جنس الافتقار موجود عند جميع المخلوقات سواء اعترفوا أو لم يعترفوا، حتى الجماد والحيوان مفتقر في خلقه واستمرار وجوده إلى خالقه، فهذا الافتقار من حيث هو ليس بموضع مدح ولا ذم.

ولكن المحمود هو استشعار وتذكر نعمة الله دائما، والشكر عليها[(١)].

الحزن.

قد انتقد شيخ الإسلام الصوفية في اعتبار الحزن مقاما من المقامات[(٢)]، فالحزن أحد المصائب التي تنزل بالإنسان، وهو عارض من عوارض الطريق، وليس من مقامات الإيمان، ولا من منازل السائرين.

فالحزن كما بين شيخ الإسلام لم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٩، وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ النحل: ١٢٧، وكقوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية (ص/١١٣-١١٥).

(٢) كما يعد عند الصوفية، انظر: الرسالة القشيرية (ص/٢١١)، منازل السائرين (٣٧٧/١) مطبوع ضمن مدارج السالكين.

مَعَنَا ﴾ التوبة: ٤٠، وقوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ الحديد: ٢٣، وأمثال ذلك كثير.

وذلك أن الحزن لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم، كما يحزن على المصائب كما قال النبي : «إن الله لا يؤاخذ بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يؤاخذ على هذا – وأشار بيده إلى لسانه – ويرحم »[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ يوسف: ٨٤.

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك.

ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد، وجلب منفعة ودفع مضرة نهي عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به، كان مذموما عليه من تلك الجهة وإن كان محمودا من جهة أخرى[2].

المطلب الثالث

الرد على الصوفية في جعلهم معالم لسلوك الطريق الصوفي

لقد أشرنا – في بيان مذاهب الصوفية في أعمال القلوب –، أن للصوفية معالم ووسائل ينبغي سلوكها لتزكية النفس، وقلنا أن من أهمها: الخلوة، والزهد، والذكر، والسماع،

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٩)، في كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض.

[2] التحفة العراقية (ص/٣١١-٣١١).

والأحوال المبتدعة (كالسكر والوله والجنون)، وقبل أن أتطرق للرد على هذه العناصر أحب أن أبين طريق القرآن والسنة في التزكية والذي ينبغي سلوكه من قبل السالكين[1]، فأقول:

التزكية، معناها تطهير النفس وتنقيتها من الرذائل، وهي تجمع بين إزالة الشر وتطبيبها بالخير، قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ التوبة: ١٠٣، فهي تجمع بين التطهير والتزكية لأنهما متلازمان.

والتزكية وإن كان أصلها النماء والزيادة؛ فهي لا تحصل إلا بإزالة الشر الموجود في النفس كي ترتاح وتطمئن، وهذا لا يحصل إلا بالتوحيد وإخلاص العبودية لله وحده، والبراءة من الشرك، يقول شيخ الإسلام في توضيح ذلك: «فإن التزكي هو التطهر بترك السيئات الموجب لزكاة النفس كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ الشمس: ٩، ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء وبالزيادة، وتارة بالنظافة والإماطة، والحقيقة أن الزكاة تجمع بين الأمرين؛ إزالة الشر وزيادة الخير، وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان»[2].

والتزكي بترك السيئات أصله بترك الشرك قليله وكثيره لأنه يدنس القلب، وليس هناك حق أعظم من حق الله وصرف العبادة لله، فإنكاره – أي حق الله – والشرك بالله من أعظم ما يدنس القلب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ التوبة: ٢٨، والمراد بالنجاسة النجاسة المعنوية لا البدنية، فقد وصف الله المشركين بنجاسة قلوبهم ونفوسهم بما يتلبسونه من الشرك والتعبد لغير الله.

١- ضرورة التمسك بالسنة في أمور التعبد والتزكية، وذلك لأن اتباع السنة في مسائل العبادات والقرب هو المصدر الصافي لطريقة الهداية وتزكية النفس، وهو الذي يحمي

---

[1] هذا المنهج الرباني للتزكي والتزكية مقتبس من كتاب «منهج شيخ الإسلام في العبادة والتزكية» تأليف: عبد الله بن محمد الحيالي.

[2] مجموع الفتاوى (١٦/١٩٨).

المسلم من الوقوع في الابتداع والتقول على الله بلا علم ويجنبه ضياع الأجر والثواب، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «لزوم السنة هو يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة، فإن أصحابها لا بد أن يقعوا في الإصر والانحلال وإن كانوا متأولين، فلا بد لهم من اتباع الهوى ولهذا سمي أصحاب البدع أصحاب الأهواء، فإن طريق السنة علم وقول وهدى، وفي البدعة جهل وظلم، وفيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس»[1].

ويجب الحذر من النظر إلى حال أكثر الخلق وما هم عليه من بدع في العبادة؛ لأن الحق هو ما كان عليه الجماعة الأولى من عهد النبي وأصحابه، ولا ينظر إلى كثرة أهل البدع من بعدهم، يقول ابن القيم مبيناً أن من علامات سعة القلب وعبوديته لله هو التمسك بالحق الذي كان عليه أصحاب الرسول: «والبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فتفرد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب»[2].

٢- الرسول أتم منهج التزكية علما وعملا، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣، فقد أتم الله علينا النعمة وأكمل لنا الدين ببعثة الرسول، ومما يوضح هذا المعنى أن الله نعت رسوله بأنه على دين عظيم فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤.

وقد تمثل هذا الخلق بالعمل بكتاب الله الذي تضمن كل أنواع التزكية والتطهير، فمن المحال أن يكون الرسول مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت، ترك تعليم الناس ما يزكي قلوبهم ويهذب نفوسهم ويقربهم إلى الجنة، يقول شيخ الإسلام في معرض الرد على أهل البدع ممن يزعم أن الرسول الكريم وأصحابه رضي الله عنهم لم يحكموا هذا الباب - باب

---

[1] مجموع الفتاوى (١٠/٥٦٨).

[2] إغاثة اللهفان (١/١٤٠-١٤١).

التزكية والتعبد – قولاً وعملاً، يقول رحمه الله: «ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت، أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم وقلوبهم في ربهم ومعبودهم، ورب العالمين الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الإلهية»[1].

٣- طريقة القرآن في عرض منهج التزكي، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ الجمعة: ٢، فقد امتن الله على هذه الأمة ببعثة الرسول الكريم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقدم في الآية العلم على التزكية من باب تقديم العلم على العمل، لأن التزكية ثمرة من ثمار سماع كلام الأنبياء وإرشاداتهم، وهذا يحصل بالعلم الإجمالي والذكر العام الذي ينتفع به أقوامهم فيهتدون إلى الحق وتقوم به الحجة على آخرين فيستحقون العذاب في الآخرة، يقول شيخ الإسلام في التذكير العام وافتراق الناس فيه: «والتذكير المطلق العام ينفع، فإن من الناس من يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون عبرة لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضاً، ولأن بتذكيره تقوم عليه الحجة، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره فتحصل بالذكرى منفعة»[2].

وقال أيضاً: «كذلك التذكير عام وخاص، فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد، وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة»[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (٥/٧).

[2] مجموع الفتاوى (١٦/١٦٢).

[1] نفس المصدر (١٦/١٥٧).

والمقصود أن التزكي لا بد أن يسبقه علم عام وتذكرة عامة كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ الأعلى: ٩، فهذا لابد منه لحصول التزكي، فإذا حصل التزكي حصل التذكر التام النافع المؤثر.

ولهذا قال تعالى في حق الأعمى الذي جاء إلى الرسول يطلب منه التعليم والإرشاد والنفع: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ عبس: ١ - ٣، فأمر رسوله أن يقبل على من جاء يطلب التزكي والتذكر.

وذكر هنا التذكر بعد التزكي، وهذا – والله – أعلم غير التذكر الذي تقوم به الحجة، فقد ذكر هنا الذكر التام الذي يذكره المذكر به وينتفع به كقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ الأعلى: ٩ - ١١.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في بيان ذلك: «فذكر التذكر والتزكي، كما ذكرهما هناك، وأمر أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض منه، فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك، فيكون مأموراً أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيراً يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة»[1]. وهذا هو التذكير التام النافع الذي خص الله به المؤمنين قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات: ٥٥، فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل عليهم، وكلما نزل عليهم شيء من معاني القرآن ذكرهم به فيزدادوا إيماناً.

والتذكير التام يقود إلى الخشية والخوف من الله كما قال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ الأعلى: ١٠، والعلم التفصيلي والتذكرة التامة توجب الخشية والتفكير في عواقب الأمور– فليس من يعلم كمن لا يعلم – والخشية قد تحصل عقب التذكر وقد تحصل قبله، لأنه إذا خشي أوجب له ذلك علوماً وتذكرة وإرادة صالحة.

---

[1] مجموع الفتاوى (١٦/١٦٤).

٤- التزكية امتثال حقيقي للعبادة لا امتثال صوري، ذكرنا أن التزكية لابد أن يقرنها العلم التام المؤثر لا الإجمالي الذي تقوم به الحجة، فلا تكفي العمومات في تزكية النفس وثباتها على الحق، بل لا بد من تعلم ودراسة العلم الشرعي بالقدر المستطاع، ثم العمل به وانصياع القلب بموجبه من معاني العلم النافع والعقيدة السليمة، وكذلك الحذر من وسائل الشرك التي تدنس القلب وتضعف إرادة الخير فيه.

وعدم معرفة الحق والعمل به يؤدي إلى وقوع المسلم في بعض وسائل الشرك وهو لا يشعر، وربما يعرضه للردة - والعياذ بالله - أو السير على غير هدى وبصيرة فيكون حاله كحال الذي قال الله فيه:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ الحج: ١١، وما أكثر فتن الدنيا في هذا الزمان، فيحتاج المؤمن إلى حصانة علمية وزاد إيماني يحميه من الوقوع في المخالفات الشرعية.

ولهذا كانت تربية الرسول لأصحابه الكرام في مكة تتركز على تزكية نفوسهم على معاني العقيدة الصحيحة والعلم النافع حتى صفت نفوسهم وأرواحهم وأصبحوا القدوة العليا والمثل الحية في طهارة النفس والتعبد لله ظاهراً وباطناً، ومكن الله لهم في الأرض، وأسعدهم في الآخرة.

٣- وسائل تحقيق عبودية المسلم لربه.

لو اطلعنا على رسالة العبودية لشيخ الإسلام رحمه الله لوجدنا أنه رسم لنا طريق عبودية المسلم لربه، والتي قلنا إنها أصل تزكية النفوس وركنها، ومن هذه الوسائل التي ذكر شيخ الإسلام رحمه الله

- إخلاص الدين لله والبراءة من الشرك: يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك»[1].

وإذا خلص دينه لله انصرف عن قلبه السوء والفحشاء، وانقهر هواه وشيطانه دون تكلف، لقوة تعلقه بالله ومراقبته له قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ يوسف: ٢٤، (وهكذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية له والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها، وإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج)[2].

- قوة الحب لله والمتابعة للرسول، يقول الشيخ رحمه الله: « فكلما ازداد القلب حبا له - لله - ازداد له عبودية، وكلما ازداد عبودية ازداد حباً، وفضله عما سواه»[3].

ومحبة الله لا تنال بالأماني الفارغة والدعاوى العريضة بل تنال بأمرين عظيمين لا ينالهما إلا من أراد الله به خيراً يقول الشيخ رحمه الله: «وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله»[4]، وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، فإذا ترك المسلم الجهاد بأنواعه و لم يتحمل التعب والملام في سبيل الله دل على ضعف المحبة لله في قلبه.

---

(١) العبودية (ص/٨٢).

(٢) العبودية (ص/٧٠).

(٣) نفس المصدر (ص/٧٦-٧٧).

(٤) العبودية (ص/٧٤).

– قوة الطمع في فضل الله ودعاؤه والتضرع إليه في كل حال، يقول رحمه الله: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوقين يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه»[1].

– الاستغناء عن المخلوقين وعدم سؤالهم والتذلل لهم لكن دون جفوة وإساءة إليهم بل بالإحسان إليهم وإرادة الخير والنصح لهم، يقول رحمه الله في ذلك: «ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقين إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ...»[2]، ولأجل هذا جاء النهي عن سؤال المخلوقين لأنه في الأصل محرم ولكن أبيح بقدر الحاجة.

– ذكر الله أفضل الأعمال بعد أداء الفرائض والاعتناء بها، (وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين الأذكار المؤقته من أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة؛ مثل ما يقال عند الأكل والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المترل والمسجد، والدخول والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك)[3].

وأفضل الذكر على الإطلاق تلاوة القرآن فقد جعل الله في تلاوته الشفاء والضياء، وأفضل ما يتقرب العبد به إلى ربه هو كلامه الذي خرج منه.

فإذا حصلت العبودية لله حصل المسلم على السعادة والاطمئنان وانشراح الصدر وقرة العين قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٩٧، وانصرف عن قلبه من السوء

---

(١) العبودية (ص/٦٦).

(٢) العبودية (ص/٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٠-٦٦١).

والفحشاء والتفكر فيهما ما لا يمكن دفعه بنفسه، وكل ذلك يحصل بإعانة الله، (فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، إذ ليس في القلب السليم أحلى ولا أطيب ولا ألذ ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً)[١].

وبذلك يستريح من التفكير بالوساوس الشيطانية ويستريح أيضاً من كلفة الطلب والنظر.

٦- محبة الله عنصر أساسي في العبودية والتزكية، بين الشيخ في مواضع عديدة من كتبه أن المحبة أصل كل حركة في العالم العلوي والسفلي، وأن وجود الفعل لا يكون إلا عن محبة وإرادة، وهذا يحصل بتدبير الملائكة الكرام الذين وكلهم الله تعالى بتصريف الأمور بإذن الله وحتى دفع الإنسان للأمور التي يكرهها، أصله أيضاً المحبة، فهو يحب العاقبة المستلزمة لشرب الدواء المكروه، وقطع اليد الشلاء، ولكنه لا يترك ما يحبه ويهواه، وهذا يدل على أن المحبة أصل كل فعل ومبدؤه، وهذا من الأدلة على أن الحب من أعظم الدوافع إلى السلوك والعمل، يقول الشيخ رحمه الله: «ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب فكلما قويت المحبة في القلب طلب فعل المحبوبات»، وهذا بخلاف الخوف فإنه يحصل لسبب ويزول لزواله.

وإذا كان كذلك فليس في الوجود من يحب لذاته إلا الله لما أنعم علينا من النعم العظيمة والآلآء الجسيمة وأتمها بنزول القرآن العظيم وببعثة الرسل الكرام والصالحين فنحن نحبهم لأن الله أمرنا بهذا الحب، والمحبة من أعظم العبادات القلبية التي يجب صرفها لله، أعني المحبة التي تستلزم الخضوع والذل وإيثار المحبوب - بخلاف المحبة المشتركة التي لا يقرنها الخضوع مثل محبة الوالد لولده والصديق لقرينه فلا يكون وجودها شركاً-، ولكن من تمام المحبة وكمالها أن

---

[١] العبودية (ص/١٠٣).

تحب ما أحبه الله من الأشياء، وفرق بين الحب مع الله - وهو الشرك الذي لا يغفر- والحب لله.

والشيخ رحمه الله يربط بين المحبة والعبودية فبين أنه لا بد من اجتماع الحب والخضوع لله وحده فيقول: «بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون أعظم عنده من كل شيء»[1].

وكما تقدم أن محبة الله لا تنال بالأماني الفارغة والدعاوى العريضة، بل تنال بأمرين عظيمين لا ينالهما إلا من أراد الله به خيراً يقول الشيخ رحمه الله: «وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله»، وذلك لأن الجهاد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان، فإذا ترك المسلم الجهاد بأنواعه و لم يتحمل التعب والملام في سبيل الله دل على ضعف المحبة لله في قلبه.

وبعد هذا العرض السريع لمنهج القرآن في السلوك والتزكية والذي أوضحه لنا شيخ الإسلام بعبارات سهلة وترتيب رائع، يحسن بنا أن ننتقل إلى نقد فكرة السلوك عند الصوفية، والذي قلنا إنه يتمثل في خمسة عناصر:

العنصر الأول: الخلوة والعزلة.

بين شيخ الإسلام رحمه الله أن الصوفية يخلطون بين الاعتكاف الشرعي في المساجد كما كان رسول الله يفعله هو أصحابه، وبين الخلوات المبتدعة التي ظنوا أنها شبيهة بالاعتكاف

---

[1] العبودية (ص/٢٣).

وليس كذلك، فهي ليست مثل الاعتكاف لأن الاعتكاف يكون في المساجد أما الخلوات فيختارون لها أماكن بعيدة عن الناس.

وناقش شيخ الإسلام رحمه الله فكرة الخلوة المذكورة في طريقهم، فقال؛ إن منهم من احتج للخلوة بدليلين:

الأول: تحنث النبي في الغار قبل الوحي[(١)].

والثاني: ما جاء في الأثر عنه أنه سئل أي الناس أفضل، فقال: «من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»[(٢)].[(٣)]

ويرد شيخ الإسلام على هذين الاستدلالين بما يلي:

أولا: إن تحنثه في غار حراء كان قبل الوحي، وأن ما فعله قبل النبوة لا نكون مأمورين باتباعه إلا إذا شرع بعد النبوة.

وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون، وبهذا يسقط الاستدلال بالدليل الأول[(١)].

[(١)] العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية (٨٤/٥) ضمن مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام.

[(٢)] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٨٦)، في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط.

[(٣)] مجموع الفتاوى (١٠/٤٠٥-٤٠٦).

[(١)] العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية (٨٥/٥) ضمن مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام.

ثانيا: إن الحديث المذكور جاء فيه قوله : «يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويدع الناس إلا من خير[1]»، وفي هذه الجملة دليل واضح على أن هذا الرجل له مال يزكيه، وأنه ساكن مع الناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم، وأنه لا يدع الناس مطلقا بل لا يدعهم من الخير الذي يقدر عليه، وهذا يتعارض مع نظام الخلوة عندهم[2].

وبهذا يبطل استدلالهم على الخلوة بالنظام الذي وضعوه من الجهة الشرعية، أما ما يعدده شيخ الإسلام من أنواع المضار في الدين والعقل والبدن التي تصيب أصحاب هذه الخلوات فهو كثير جدا، يمكن لمن أراد أن يراجعه في موضعه[3].

العنصر الثاني: الزهد في الدنيا.

أما الزهد في الدنيا عند الصوفية ففيه من المبالغة إلى حد ترك فعل الخيرات وعمارة المساجد ونحو ذلك، ولا يقتصر حد الزهد عندهم على ترك المعاصي أو المباحات التي تشغل عن الله والدار الآخرة.

أما شيخ الإسلام رحمه الله فبين أن الزهد منه ما هو مشروع ومنه غير مشروع، فالزهد المشروع (ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة).

وأما ترك كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس ذلك من الزهد المشروع.

---

(1) هذه الزيادة أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٠٣/٤).

(2) مجموع الفتاوى (٤٠٥/١٠).

(3) نفس المصدر (٤٠٦/١٠-٤٠٧).

فشيخ الإسلام رحمه الله وضح حقيقة الزهد، وربطه بغاية شرعية حيث يقول عنه أنه ترك ما لا ينفع في الآخرة، أي فيه ربط للزهد بغاية شرعية وهي الإفادة في الآخرة مع وضوح العبارة وعدم المبالغة اللذين لا تجدهما في عبارات المتصوفة.

ويشهد لما قاله شيخ الإسلام قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ القصص: ٧٧.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ الأعراف: ٣٢.

فالزهد الصحيح ليس هو تحريم ما أحل الله لعباده، ولكنه امتناع شخصي وعزوف من النفس عما لا يفيد في الآخرة، فإذا ما اضطر العبد إلى شيء مما امتنع عنه من المباحات لعدم توفر غيرها أقدم عليها وأخذ منها ما يفي بحاجته منها.

العنصر الثالث: الأوراد والأذكار.

قد تكلم شيخ الإسلام عن الذكر، أي ذكر الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، وبين فضله وما ورد فيه من ترغيب وحث.

ونقل الشيخ في كتبه كثيرا من الأذكار المأثورة والتي كان يداوم هو على قراءتها عند النوم وغير ذلك، وأقر شيخ الإسلام الورد، ولم يمنع الاجتماع للذكر في مكان ووقت ما، ولكنه فضل أن لا يكون هذا الاجتماع سنة راتبة معينة في يوم مخصوص من السنة أو من الشهر ونحو ذلك، لكي لا يشتبه الأمر فيظن أن ذلك مما شرع من العبادات المفروضة[1].

---

[1] مجموع الفتاوى (٢٢/٥٢٠-٥٢١)، ويقول رحمه الله أيضا: «وليس لأحد أن يسن للناس نوعا من الأذكار والأدعية غير المسنون، ويجعلها عبادة راتبة يواظب الناس عليها كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دين لم يأذن الله به، بخلاف ما يدعو به المرء أحيانا من غير أن يجعله للناس سنة، فهذا إذا لم يعلم أنه يتضمن معنى محرما لم يجز الجزم بتحريمه»، مجموع الفتاوى (٢٢/٥١١).

ومما انتقد على هذا العنصر أيضا ما تتضمنه هذه الطريقة من الاقتصار على ذكر الله بالاسم المفرد.

والذكر بالاسم المفرد وحده غير مقبول عند شيخ الإسلام رحمه الله لسببين:

السبب الأول: أن اللفظ المفرد لا يفيد علما، لأنه لا يفيد إثبات حكم ولا يفيد تتريها ولا تقديسا ولا تمجيدا.

السبب الثاني: أن أفضل الذكر مطلقا هو (لا إله إلا الله) كما ثبت من أحاديث كثيرة بين فيها رسول الله أن أفضل ما قاله وقالته النبيون من قبله (لا إله إلا الله)، وهكذا جاءت جميع الأذكار المأثورة بكلام تام مفيد.

ويرد شيخ الإسلام حجتهم التي اعتمدوا عليها في القول بالاسم المفرد، وهو ما أخذوا من قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الأنعام: ٩١.

ثم بين أن من أبين الغلط اجتراؤهم على هذه الآية الكريمة بتقسيمها وعدم ذكر الجزء الموضح للمعنى فيها، والسابق لهذا الجزء من الآية هو الاستفهام الذي اقتضى أن يجاب عنه بالجملة المذكورة في الآية وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الأنعام: ٩١، فمن قرأ الآية كاملة عرف أن ليس فيها ما يدل على صحة ذكر الله بالاسم المفرد.

ومن أدلتهم أيضا، قول بعضهم: «أخاف أن أموت بين النفي والإثبات»، أي أموت بين لا إله وبين إلا الله، فلذلك فهو يقول: (يا هو)، فبين شيخ الإسلام أن هذا القول باطل

عقلاً وشرعاً، لأن العبد لو مات في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه، فالحق أن ما عليه سلف الأمة وخيارها من الذكر بالجملة التامة هو الصواب النافع[(١)].

العنصر الرابع: السماع.

وقد تكلم شيخ الإسلام في مسألة السماع ففرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين وبين ما يرخص فيه فقط رفعا للحرج، كما فرق بين سماع المتقربين وسماع المتلعبين، ومما قال في هذا المجال: «فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاة نفوسهم فهو سماع آيات الله تعالى، وهو سماع النبيين والمؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة»[(٢)].

واستشهد شيخ الإسلام لذلك بآيات وأحاديث كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢، ومنها حديث في الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي قال له: «اقرأ علي»، قال: أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ النساء: ٤١فإذا عيناه تذرفان[(٣)].

---

(١) انظر: العبودية (ص/١١٦-١٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٥٥٧-٥٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٨٣)، في كتاب التفسير، ومسلم في صحيحه (ص/٣١٣)، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل استماع القرآن.

وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ودموع العين واقشعرار الجلد، هذا مذكور في القرآن، وهذه الصفات موجودة في الصحابة.

أما سماع الصوفية - الذي ابتدعوه - المصحوب بالتصفيق والصفير وتحرك الأجساد بالرقص ونحو ذلك، فبين شيخ الإسلام أنه هذا كله كان يفعله المشركون عند البيت الحرام وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾الأنفال: ٣٥[1].

ثم أخذ شيخ الإسلام رحمه الله في تفنيد شبهات الصوفية التي تعلقوا بها في جواز هذا السماع المبتدع، ومن هذا الشبهات.

- قوله تعالى:﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ الزمر: ١٧ - ١٨، قالو: قد مدح الله تعالى القول السموع - مطلقا - ما دام كان حسنا!

وهو غلط باتفاق الأئمة لوجوه:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر باستماع كل قول بإجماع المسلمين، حتى يقال: اللام للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يكره، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الأنعام: ٦٨.

الثاني: أن المراد بالقول في هذا الموضع القرآن، كما جاء ذلك في قوله:﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ القصص: ٥١، فإن القول الذي أمروا بتدبره هو الذي أمروا باستماعه، والتدبر؛ بالنظر والاستدلال والاعتبار والاستماع، فمن أمرنا باستماع كل قول، أو

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٥٦٢/١١) وما بعدها.

باستماع القول الذي لم يشرع استماعه، فهو بمترلة من أمر بتدبر كل قول والنظر فيه، أو بالتدبر للكلام الذي لم يشرع تدبره والنظر فيه، فالمنحرفون في النظر والاستدلال بمثل هذه الأقوال من أهل الكلام المبتدع.

الثالث: أن الله في كتابه إنما حمد استماع القرآن، وذم المعرضين عن استماعه، وجعلهم أهل الكفر والجهل الصم البكم، فأما مدحه لاستماع كل قول فهذا شيء لم يذكره الله قط، ثم عدّ آيات في مدح استماع القرآن.

الرابع: أنهم لا يستحسنون استماع كل قول منظوم ومنثور، بل هم من أعظم الناس كراهة ونفرة لما لا يحبونه من الأقوال؛ منظومها ومنثورها، ونفورهم عن كثير من الأقوال أعظم من نفور المنازع لهم في سماع المكاء والتصدية عن هذا السماع، وإذا لم يكن العموم مرادا بالاتفاق كان حمل الآية عليه باطلا.

الخامس: أنه قال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾، فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومعلوم أن كثيرا من القول ليس فيه حسن، فضلا أن يكون فيه أحسن، ثم ذكر بعض الشواهد من القرآن.

السادس: اتباع الأحسن من القول في هذه الآية هو نفس الأحسن المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ الزمر: ٥٥، فاتباع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو اتباع أحسن القول[١].

– ومن أدلتهم أيضا، قول النبي : «ما أذن الله لشيء كأَذَنِه لنبي يتغنى بالقرآن»[٢].

---

[١] الاستقامة (٢١٦/١-٢٣٠).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩٠٠)، في كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، ومسلم في صحيحه (ص/٣١٠)، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت.

قال شيخ الإسلام رحمه الله : « فالاستدلال بذلك على تحسين الغناء أفسد من قياس الربا على البيع، إذ هو من باب تنظير الشعر بالقرآن،وقال تعالى:﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾...

وهذا القياس مثل قياس سماع المكاء والتصدية – الذي ذمه الله في كتابه، وأخبر أنه صلاة المشركين – على سماع القرآن الذي أمر الله به في كتابه وأخبر أنه سماع النبيين والمؤمنين، وقياسٍ لأئمة الصلاة كالخلفاء الراشدين وسائر أئمة المؤمنين، بالمخنثين المغنين الذين قد يسمون الجد أو القوالين، وقياسٍ للمؤذن الداعي إلى الصلاة وسماع القرآن، بالمزمار الداعى إلى حركة المستمعين للمكاء والتصدية»[1].

– ومن أدلتهم أيضا، أن الصوت الحسن نعمة من نعم الله فجائز استعماله في القصائد والسماع لأنه من باب التحدث بالنعمة قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالاستدلال بهذا مترلة من استدل بإنعام الله بالسلطان والمال – على ما جرت عادة النفوس باستعمال ذلك فيه من الظلم والفواحش ونحو ذلك –، فاستعمال الصوت الحسن في الأغاني وآلات الملاهي مثل استعمال الصور الحسنة في الفواحش، واستعمال السلطان بالكبرياء والظلم والعدوان، واستعمال المال في نحو ذلك.

ثم يقال له هذه النعمة يستعملها الكفار والفساق في أنواع من الكفر والفسوق أكثر مما يستعلها المؤمنون في الإيمان، فإن استمتاع الكفار والفساق بالأصوات المطربة أكثر من استمتاع المسلمين، فأي حمد لها بذلك إن لم تستعمل في طاعة الله ورسوله»[2].

---

[1] الاستقامة (١/٣٧٥-٣٧٦).

[2] نفس المصدر (١/٣٣٣).

العنصرالخامس: الأحوال المبتدعة (السكر، والوله، والجنون، وغيرها).

وقد بين شيخ الإسلام رحمه أن المرء إذا كان لم يصدر منه تفريط وعدوان، لم يكن عليه ذنب فيما أصابه من الإغماء أو الموت أو نحو ذلك، كمن سمع القرآن السماع الشرعي، و لم يفرط بترك ما يوجب له ذلك.

أما ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك، بسبب سماع الأصوات المطربة فهو مذموم، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله، إذ إزالة العقل محرم، ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي كان محرما، وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية - ولو بأمور فيها نوع من الإيمان - فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل، و لم يأذن لنا الله أن نمتع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا[1].

وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن السكر يجمع معنيين: وجود اللذة وعدم التمييز، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما، وقد يقصد كلاهما، فإن النفس لها أهواء وشهوات تلتذ بنيلها وإدراكها، والعقل والعلم بما في تلك الأفعال من المضرة في الدنيا والآخرة يمنعها من ذلك، فإذا زال العقل الحافظ انبسطت النفس في أهوائها.

فعدم العقل والتمييز لا يحمد بحال من جهة نفسه، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله مدح وحمد لعدم العقل والتمييز والعلم، بل قد مدح الله العلم والعقل والفقه، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الزمر: ٩.

ولهذا تجد المشايخ الأصحاء من الصوفية يوصون بالعلم ويأمرون باتباعه، كما الأصحاء من أهل العلم يوصون بالعمل ويأمرون به، لما يخاف في كل طريق من ترك ما يجب من الأخرى.

---

[1] مجموع الفتاوى (١١/١٠-١١).

ولم يكن في الصحابة من حاله السكر لا عند سماع القرآن ولا عند غيره، ولا تكلم الأولون بالسكر، وإنما تكلم به طائفة من متأخري الصوفية، لما يحصل لهم نوع سكر لما في قلوبهم من الذوق والوجد مع سقوط التمييز والعقل، ويفرقون بين الصحو والسكر[1].[2]

ونخلص مما سبق أن هذه العناصر المبتدعة التي وضعها الصوفية، قد فتحت بابا من الزندقة والشر العظيم، والقول بالحلول والاتحاد، وقد اتخذ هؤلاء الصوفية هذه المظاهر طريقا إلى تحقيق شهواتهم وتحصيل ما يريدون من العوام بناءً على أنهم أولياء وأحوالهم تسلم لهم.

وخير الهدي هدي محمد، ولم يؤثر عنه ولا عن أحد من أصحابه الكرام أنهم صدر منهم هذه الأمور والأحوال، فضلا أن يأمروا أحدا بسلوك هذه الطريقة، وقد تبين لنا من كلام شيخ الإسلام ورده عليهم ما يتضح به الحق لطالبه.

وفي الختام أريد أن أنبه بإجمال إلى ما ترتب على مذاهب الصوفية في أعمال القلوب، وأذكر – مرة أخرى – أنه لما كان منشأ ضلال الصوفية في أعمال القلوب هو قولهم بالفناء، وأنها الغاية التي تسعى إليها، والعارف المحقق هو من يصل إلى مقام الفناء، فإذا شهد عين الحقيقة اضمحلت فيها أحواله حتى يفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل، فيظن أن كل ما يفعله طاعة ومحبوب ومراد لله تعالى، فلا يفرق بين الحسنة والسيئة، ولا بين الحقيقة الكونية القدرية وبين الحقيقة الدينية الإيمانية التي دعت إليها الرسل ونزلت بها الكتاب.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «لأن العارف المحقق – عنده[3] – هو من يصل إلى مقام الفناء، فيفنى عن جميع مراداته بمراد الحق، وجميع الكائنات مرادة له، وهذا هو الحكم عنده.

---

[1] الاستقامة (١-١٤٤/١٦٣).

[2] للتوسع في عناصر السلوك والتزكية عند الصوفية، وردّ شيخ الإسلام رحمه الله عليهم، راجع: «موقف ابن تيمية من الصوفية» (٢/١١٣-٣٠٤) تأليف: محمد بن عبد الرحمن العريفي.

[3] يعني أبا إسماعيل الهروي.

والحسنة والسيئة يفترقان في حظ العبد، لكونه ينعم بهذه ويعذب بهذه، والالتفات إلى هذا هو من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق»[1].

وقال أيضا: «وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها، يشهد هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها، وفي شهودها ومعرفتها؛ المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار...

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر به من الحقيقة الدينية؛ التي هي عبادته المتعلقة بإلهيته، وطاعة أمره وأمر رسله، كان من جنس إبليس وأهل النار، وإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله تعالى، وأهل المعرفة والتحقيق - الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان - كان شرا من أهل الكفر والإلحاد»[2].

فلما جعلوا مقام الفناء هو الغاية عندهم، ترتبت عليه سقوط التكاليف وتعطيل الأمر والنهي وترك القيام بالأعمال الصالحة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله في معرض رده على ملاحدة الفلاسفة والباطنية الذين يقولون بإباحة المحظورات وسقوط الواجبات: «وقد أشبه هؤلاء في بعض الأمور ملاحدة المتصوفة: الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحظور واجبا على السالك حتى يصير عارفا محققا في زعمهم، وحينئذ يسقط عنه التكليف، ويتأولون على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ الحجر: ٩٩، زاعمين أن اليقين: هو ما يدعونه من المعرفة، واليقين هنا الموت وما بعده.

كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۞ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۞ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ المدثر: ٤٥ - ٤٨، قال الحسن البصري: إن الله لم

[1] مجموع الفتاوى (١٤/٣٥٤).

[2] العبودية (ص/٢٧).

يجعل لعباده المؤمنين أجلا دون الموت، وتلا هذه الآية[١]، ومنه قوله ﷺ لما توفي عثمان بن مظعون: "أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه"[٢].

وهؤلاء قد يشهدون القدر أولا وهي الحقيقة الكونية، ويظنون أن غاية العارف أن يشهد القدر ويفنى عن هذا الشهود، وذلك المشهد لا تمييز فيه بين المأمور والمحظور، ومحبوبات الله ومكروهاته، وأوليائه وأعدائه، وقد يقول أحدهم: العارف شهد أولا الطاعة والمعصية، ثم شهد طاعة بلا معصية - يريد بذلك طاعة القدر - كقول بعض شيوخهم: أنا كافر برب يعصى، وقيل له عن بعض الظالمين: هذا ماله حرام، فقال: إن كان عصى الأمر فقد أطاع الإرادة.

ثم ينتقلون إلى المشهد الثالث لا طاعة ولا معصية، وهو مشهد أهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود، وهذا غاية إلحاد المبتدعة جهمية الصوفية، كما أن القرمطة آخر إلحاد الشيعة، وكلا الإلحادين يتقاربان، وفيهما من الكفر ما ليس في دين اليهود والنصارى ومشركي العرب، والله أعلم»[٣].

وقال أيضا: «فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض وليس عندهم غيره، إلا ما هو قدر أيضا - من نعيم أهل الطاعة، وعقوبة أهل المعصية -، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل الله، بل ولا يدعون الله بنصر المؤمنين على الكفار، بل إذا رأى أحدهم من يدعو قال: الفقير - أو المحقق أو العارف - ما له؟ يفعل الله ما يشاء، وينصر من يريد؛ فإن عنده أن الجميع واحد بالنسبة إلى الله، وبالنسبة إليه أيضا؛ فإنه ليس له غرض في نصر إحدى الطائفتين لا من جهة ربه، فإنه لا فرق - على رأيه - عند الله تعالى

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص/٢٧٢)، وابن مبارك في الزهد (ص/٧).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٩٩)، في كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت.

[٣] مجموع الفتاوى (٧/٥٠٣-٥٠٤).

بينهما، ولا من جهة نفسه؛ فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار؛ بل كثير منهم تكون حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظم، فيكون هواه أعظم»[١].

[١] مجموع الفتاوى (٨/٣٥٠).

الفصل الثاني: موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم من كلام شيخ الإسلام،

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: التعريف بالمرجئة وأقسامهم.

المبحث الأول: مذاهبهم في أعمال القلوب.

المبحث الثاني: ذكر شبهاتهم.

المبحث الثالث: الرد عليهم.

التمهيد: التعريف بالمرجئة وأقسامهم

تقرر مما سبق أن الإيمان كما بينه شيخ الإسلام رحمه الله قول وعمل، والقول (قول القلب وقول اللسان)، والعمل (عمل القلب وعمل الجوارح)، كما تبين لنا ثبوت زيادة الإيمان ونقصانه من خلال ثبوت التفاضل بين أعمال القلوب، وإن موقف شيخ الإسلام رحمه الله من هاتين المسألتين (تعريف الإيمان والقول بزيادة الإيمان ونقصانه) تعد من أبرز أوجه مخالفة شيخ الإسلام رحمه الله للمرجئة في هذا الباب، لذا سأعرض لبيان الإيمان عند المرجئة أولا، ثم موقفهم من التفاضل بين أعمال القلوب بالزيادة والنقص، مع الرد عليهم.

المطلب الأول
التعريف بالمرجئة

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

يرى شيخ الإسلام رحمه الله أن الصحيح هو أن اسم المرجئة مأخوذ من الإرجاء، لكنه يشارك الرجاء في الاشتقاق الأكبر(1).

وهذا الترجيح من شيخ الإسلام لأحد قولين في اشتقاق اسم المرجئة(1):

---

(1) انظر: جامع الرسائل (١/١١٢).

ويريد شيخ الإسلام بالاشتقاق الأكبر: اتفاق الألفاظ في بعض الحروف دون بعض، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «أكثر المحققين من علماء العربية والبيان يثبتون المناسبة بين الألفاظ والمعاني، ويقسمون الاشتقاق إلى ثلاثة أنواع :

الاشتقاق الأصغر، وهو: اتفاق اللفظين في الحروف والترتيب: مثل علم وعالم وعليم.

والثاني: الاشتقاق الأوسط، وهو: اتفاقهما في الحروف دون الترتيب، مثل سمي و وسم...

وأما الاشتقاق الثالث: فاتفاقهما في بعض الحروف دون بعض»، مجموع الفتاوى (٢٠/٤١٩)، وانظر أيضا: الفتاوى (١٠/٣٦٩)، ومنهاج السنة (٥/١٩٢).

أحدهما: أنه من الرجاء، بمعنى التأخير[٢].

يقال منه أرجأته، وأرجيته: إذا أخرته، أرجئه إرجاء، وهو مرجأ، بالهمز وترك الهمز، وهما لغتان معناهما واحد.

ويقال رجل مُرجِئٌ، والنسبة إليه مُرجِئيٌ، هذا إذا همزت.

وإذا لم همز قلت: رجل مُرجٍ، والنسبة إليه مرجيٌ، ومرجِيّة بالتشديد[٣].

وقد جاءت هذه المادة في جملة من النصوص الشرعية بمعنى التأخير، منها قوله تعالى: ﴿ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ ﴾ الأحزاب: ٥١، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾ الأعراف: ١١١، وقوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ١٠٦، فمعنى الإرجاء في الآيات هو: التأخير.

وفي حديث كعب بن مالك[٤] رضي الله عنه: وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، أي أخر، وزنا ومعنى[٥].

والقول الثاني في اشتقاق اسم المرجئة: أنه من الرجاء، بمعنى الأمل[٦]، يقال رجوته، أرجوه، رُجُوًا – على فعول- أمّلته، أو أردته، قال تعالى: ﴿ لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا ﴾ النور: ٦٠، أي لا يريدونه.

---

[١] انظر: الملل والنحل (١/١٠١).

[٢] انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/٤٢٤)، ولسان العرب (٦/١١٨)، والمصباح المنير (ص/١٨٥).

[٣] انظر: تهذيب اللغة (١١/١٨٣)، والقاموس المحيط (ص/١٦٦٠).

[٤] هو كعب بن مالك بن أبي بن كعب بن القين بن كعب، أبو عبد الله الأنصاري السلمي صحابي مشهور رضي الله عنه، شهد العقبة وبايع بها، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم، وشهد أحدا وما بعدها، مات في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة ٥٠ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٤/٣٩٣)، وأسد الغابة (٤/١٨٧)، والإصابة (٥/٣٠٨)، والسير (٢/٥٢٣).

[٥] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٤٩)، في كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك.

[٦] انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/٤٢٤)، والقاموس المحيط (ص/١٦٦٠)، ولسان العرب (٦/١١٨).

والاسم: الرجاء بالمد، ورجيته أرجيه، من باب رمى لغة[١]، والمرجئة على هذا المعنى يجعلون الناس راجين، فهم مرجئة، لا مخيفة[٢] [٣].

المسألة الثاني: التعريف الاصطلاحي.

إن الفرق والطوائف تتميز باسم رجالها، أو بنعت أحوالها، فالمرجئة من الفرق التي تميزت بنعت أحوالها، ومثلها في ذلك الشيعة، والقدرية، والخوارج[٤].

والناظر فيما جاء عن السلف رحمهم الله في تعريف المرجئة يجد أن النعت الجامع لأحوال هذه الفرقة هو إخراج العمل من الإيمان، فكل من قال بذلك فهومرجئ.

يقول الإمام وكيع بن الجراح رحمه الله: «أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون: إن الإيمان قول بلا عمل، والجهمية يقولون: إن الإيمان المعرفة»[٥].

ويقول الفضيل بن عياض رحمه الله: «أهل الإرجاء يقولون: الإيمان قول بلا عمل، وتقول الجهمية: الإيمان بلا قول ولا عمل، ويقول أهل السنة: الإيمان المعرفة والقول والعمل»[٦].

فالمرجئة أخرجوا العمل من الإيمان، فانبنى على ذلك نفيهم لزيادة الإيمان ونقصانه، ومنعهم الاستثناء فيه، فخالفوا السنة في أمور ثلاثة، إخراجهم العمل من الإيمان، ونفيهم لزيادة الإيمان ونقصانه، ومنعهم الاستثناء فيه.

---

[١] المصباح المنير (ص/١٨٥).

[٢] انظر: جامع الرسائل. (١/١١٢).

[٣] آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، عرض ونقد (ص/٨٣-٨٥)، تأليف: د. عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السنَد.

[٤] انظر: منهاج السنة (٢/٥١٨-٥١٩)، ومجموع الفتاوى (١٢/١٧٦-١٧٧).

[٥] انظر: الشريعة (ص/١٤٩)، والإبانة الكبرى (٢/٨٠٤)، وشرح أصول الاعتقاد (٥/١٠٧٢).

[٦] السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١/٣٠٥-٣٠٦).

يقول سفيان الثوري رحمه الله: «خالفنا المرجئة في ثلاث: نحن نقول: الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: قول بلا عمل، ونحن نقول: يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ونحن نقول: نحن مؤمنون بالإقرار، وهم يقولون: نحن مؤمنون عند الله»[(١)].

ويقول الإمام أحمد مجيبا لمن سأله: من المرجئة؟

قال: الذين يقولون: الإيمان قول لا عمل[(٢)].

وقال فيمن لا يرى الإيمان قول و عمل، إنهم مرجئة[(٣)].

وقد برأ رحمه الله مسعر بن كدام[(٤)] من الإرجاء لقوله إن الإيمان قول وعمل[(٥)]، مع أنه لا يستثني في الإيمان، ويقول: أما أنا فلا أشك في إيماني[(٦)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «قال أحمد: ولم يكن من المرجئة، فإن المرجئة الذين يقولون: الأعمال ليست من الإيمان، وهو كان يقول هي من الإيمان، لكن أنا لا أشك في إيماني»[(٧)].

ولعل فيما تم نقله عن بعض الأئمة في التعريف بالمرجئة كفاية في إعطاء صورة واضحة عن مرادهم بالإرجاء، وأن أهله يجتمعون في إخراج العمل من الإيمان، وأما ما عدا ذلك من المخالفات في مسائل الإيمان، فإما أن تكون تابعة لهذا الأصل – وهو إخراج العمل–،كمنع

---

(١) شرح السنة (٤١/١)، للبغوي.

(٢) السنة للخلال (٥٦٥/٣-٥٦٦).

(٣) السنة للخلال (٥٦٦/٣).

(٤) هو أبو سلمة مِسْعَر بن كِدَام بن ظهير بن عبيدة بن الحارث الهلالي، أحد الأعلام، من المحدثين الثقات، كان يقال له المصحف لقوة حفظه، توفي سنة بمكة ١٥٢ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٤٨٤/٨)، وحلية الأولياء (٢٠٩/٧)، وسير أعلام النبلاء (١٦٣/٧).

(٥) انظر: حلية الأولياء (٢١٨/٧).

(٦) انظر: الإيمان لأبي عبيد (ص/٤١).

(٧) مجموع الفتاوى (٤٧/١٣).

زيادة الإيمان ونقصانه، ومنع تبعضه وأن يجتمع في العبد إيمان وكفر، وتصور وجود إيمان في القلب دون ظهوره على الجوارح، أو أن تكون المخالفة قد يقول بها من يقول إن الإيمان قول وعمل فلا يعد مرجئا، كمنع نقصان الإيمان[1]، وترك الاستثناء فيه[2].

وأما ما جاء عن بعض السلف أن الإرجاء يقال على قوم أرجؤوا أمر عثمان وعلي رضي الله عنهما[3]، فإن هذا مع كونه لم يعرف له طائفة، وإنما هو مقالة عارضة انتهت، فمع ذلك لا يراد به الإرجاء في الإيمان المتعلق بفرقة المرجئة[4].

المطلب الثاني

أقسام المرجئة

أما أقسام المرجئة، انقسمت المرجئة في اعتقاداتها إلى أقسام كثيرة وفرق متعددة يطول ذكرها[5]، وشيخ الإسلام رحمه الله كان له اهتمام كبير بذلك، حتى إنه نقل جُلّ ما حكاه

---

(١) قال شيخ الإسلام: «وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه، لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك» مجموع الفتاوى (٥٠٦/٧).

(٢) آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، عرض ونقد (ص/٨٠-٩١).

(٣) انظر: الملل والنحل (١٠١/١).

(٤) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، وبيان موقف الإسلام منها (١٠٧٣/٣-١٠٧٥)، وانظر: آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية، عرض ونقد (ص/١٠١-١٠٨).

(٥) **فالشهرستاني** يقسم المرجئة إلى أربعة أقسام: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة، ثم ذكر أن المرجئة الخالصة ستة أصناف:

الأولى: اليونسية، أصحاب يونس بن عون النميري، وقد زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله، والخضوع له، وترك الاستكبار عليه، والمحبة بالقلب. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن، وما سوى ذلك من الطاعة فليس من الإيمان، ولا يضر تركها حقيقة الإيمان.

الأشعري عن فرق المرجئة في الإيمان، وقد بلغت عنده اثنتي عشرة فرقة[1]، لكن الملاحظ أن المنهج الذي سلكه شيخ الإسلام في دراسة آراء المرجئة لم يكن بتتبع أقوال هذه الفرق جميعها

الثانية: العبيدية، أصحاب عبيد المكتئب، حكي عنه أنه قال: ما دون الشرك مغفور لا محالة، وأن العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام، واجترح من السيئات.

الثالثة: الغسانية، أصحاب غسان الكوفي، زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى، وبرسوله، والإقرار بما أنزل الله، وبما جاء به الرسول في الجملة دون التفصيل، وقال: الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

الرابعة: الثوبانية، أصحاب أبي ثوبان المرجئ، الذين زعموا أن الإيمان هو المعرفة، والإقرار بالله تعالى، وبرسله عليهم الصلاة والسلام، وأخروا العمل كله عن الإيمان.

الخامسة: التومنية، أصحاب أبي معاذ التومني، زعم أن الإيمان هو ما عصم من الكفر، وهو اسم لخصال، إذا تركها العبد، أو ترك خصلة منها، وهي: المعرفة، والتصديق، والمحبة، والإخلاص، والإقرار بما جاء به الرسول ﷺ. قال: كل معصية لم يجمع عليها المسلمون بأنها كفر، لا يقال لصاحبها فاسق، ولكن يقال فَسق وعَصى.

السادسة: الصالحية، أصحاب صالح بن عمر، قال: إن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى على الإطلاق وهو أن للعالم صانعا فقط، والكفر هو الجهل به على الإطلاق، ومعرفة الله هي المحبة والخضوع له، و لا عبادة لله إلا الإيمان به، وهو معرفته. انظر: الملل والنحل (ص/١٠١-١٠٥).

- **أما أبو الحسن الأشعري** في كتابه مقالات الإسلاميين (١/١١٤-١٢١)، فقد قسم المرجئة إلى اثنتي عشرة فرقة، معظمهم يقولون: الإيمان هو المعرفة بالله، إلا أن أكثرهم يدخلون أعمال القلوب في الإيمان، ما عدا جهم والصالحي ومن وافقهما.

ومنهم من يضيف إلى المعرفة بالله الإقرار كأبي حنيفة وأصحابه، إذ جعلهم الفرقة التاسعة من فرق المرجئة.

كما جعل المرجئة الكرامية أصحاب محمد بن كرام، الفرقة الثانية عشرة من المرجئة، وهم الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار فقط، دون التصديق بالقلب ودون سائر الأعمال، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو أي شيء غير التصديق باللسان إيمانا.

- **أما البغدادي** في الفرق بين الفرق (ص/٢٠٢)، فقد قسم المرجئة إلى ثلاثة أصناف، صنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالقدر على مذاهب القدرية المعتزلة، وصنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وبالجبر في الأعمال على مذهب جهم بن صفوان، والصنف الثالث منهم خارجون عن الجبرية والقدرية، وهم فيما بينهم خمس فرق: اليونسية، الغسانية، والثوبانية، والتومنية، والمريسية.

[1] انظر: الإيمان الأوسط (ص/٨٩-٩٣).

وكشف مذاهبها، بل اكتفى رحمه الله بحصرهم فيما يجمع مقالتهم، من خلال ضابط يندرج تحته فرق المرجئة كلها، وهو ما يقع عليه اسم الإيمان، فيمكن بواسطته ضم كل فرقة إلى مثيلتها، وإن اختلفوا في التفاصيل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمرجئة ثلاثة أصناف:

الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب.

ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه، وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم، لكن ذكرنا مجمل أقوالهم.

ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه .

والقول الثاني: من يقول هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية.

والثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم»[1].

ومن خلال هذا التصنيف انحصر بحث شيخ الإسلام مع فرق قليلة تعود إليها عامة أقوال المرجئة[2].

وبعد هذه النبذة المختصرة في ذكر أقسام المرجئة، يحسن بنا أن نشير باختصار إلى مراحل نشأة الإرجاء.

يعد النزاع في حقيقة الإيمان والإسلام أول اختلاف وقع في الأمة، وافترقت لأجله، وصاروا مختلفين في الكتاب و السنة، وكفّر بعضهم بعضا، وقاتل بعضهم بعضا.

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٥٥-١٥٦)، ومما تجدر به الإشارة إليه هنا؛ أن تقسيم شيخ الإسلام هذا قد سبقه إليه ابن حزم في الفصل (٢٠٩/٢).

(٢) آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/١١٩-١٢٠).

وذلك أنهم اختلفوا فيمن له طاعات ومعاص، وحسنات وسيئات، ومعه من الإيمان ما لا يخلد معه في النار، وله كبائر تستوجب دخول النار، وهو من يسمى الفاسق المليّ، فالخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسائل أصول الدين، ومسألة الفاسق المليّ أول مسألة فرّقت الأمة[١].

وأول من أظهر التراع فيها هم الخوارج، حيث كفّروا أهل القبلة بالذنوب، بل لما يرونه من الذنوب، وقالوا ما الناس إلا مؤمن وكافر[٢].

ثم جاءت بعدهم المعتزلة، فقالوا: إن أهل الكبائر مخلدون في النار كما قالت الخوارج ولا نسميهم مؤمنين ولا كفارا، بل فساق نترلهم بين مترلتين، ولم يوافقوا الخوارج في تسميتهم كفارا[٣].

وأمام هذا الغلو المفرط ظهرت مقالة مرجئة الفقهاء[٤]، فقابلوا الخوارج والمعتزلة وصاروا طرفا آخر[٥]، فحكموا على الفاسق المليّ بالإيمان الكامل، وقد ظهرت مقالة هؤلاء الفقهاء في أواخر المائة الأولى للهجرة.

وبسبب خلاف مرجئة الفقهاء انفتح الباب للجهمية[٦]، وكان ظهور جهم ومقالته في تعطيل الصفات، وفي الجبر، والإرجاء، في أواخر دولة بني أمية، أي في النصف الأول من المائة الثانية للهجرة.

ثم حدث بعد هؤلاء قول الكرامية[١]، وانتشرت مقالتهم في المائة الثالثة للهجرة.

---

(١) انظر: الإيمان الكبير (ص/٧)، والإيمان الأوسط (ص/٢٣)، والاستقامة (٤٣١/١).

(٢) انظر: الإيمان الأوسط (ص/٢٤)، وما بعدها.

(٣) انظر: نفس المصدر (ص/٢٩).

(٤) انظر: نفس المصدر (ص/٥٥).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (٣٨/١٣).

(٦) انظر: الإيمان الأوسط (ص/٥٦).

ثم قال الصالحي مقالته في الإيمان[٢]، فجاء الأشعري وأشهر أصحابه فتلقفوها عنه[٣] في النصف الأول من المائة الرابعة للهجرة، وهي امتداد لمقالة الجهمية[٤].

ولعل هذا الاستعراض السريع قد وضح لنا أقسام المرجئة من حيث الجملة، وعرفنا ظهور ونشأة هذه الأقسام من خلال هذا العرض التسلسلي التأريخي، مما يبرز لنا حقيقةً؛ أن البدعة كل ما كانت أقرب من عهد النبوة كانت أخف، وكلما بعدت فهي أشد، فالله أسأل أن يجنبنا البدع كلها كبيرها وصغيرها، جليها وخفيها، اللهم آمين.

---

(١) انظر: نفس المصدر (ص/٥٧).

(٢) انظر: الإيمان الأوسط (ص/٥٧).

(٣) انظر: نفس المصدر (ص/٥٧).

(٤) آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/٩٣-٩٥).

المبحث الأول: مذاهب المرجئة في أعمال القلوب.

المطلب الأول

مذهب الجهمية[1] في أعمال القلوب

ذهب جهم ومن وافقه إلى أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل به، وأن قول اللسان وعمل القلب والجوارح ليس من الإيمان، وأن الإيمان شيء واحد لا يتفاضل ولا يستثنى منه.

قال الأشعري في المقالات: «اختلف المرجئة في الإيمان ما هو؟ وهم اثنتا عشرة فرقة. **الفرقة الأولى منهم**: يزعمون أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسوله وبجميع ما جاء من عند الله فقط، وأن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان، والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله، والتعظيم لهما، والخوف، والعمل بالجوارح فليس بإيمان، وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به، وهذا قول يحكى عن الجهم بن صفوان»[2].

---

(1) الجهمية هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان أبي محرز وهو من أهل خرسان، وقد تتلمذ على الجعد بن درهم، كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المشبهة، وكان الجهم كاتبا للحارث بن سريج من زعماء خراسان وخرج معه على الأمويين فقتلا بمرو سنة ١٢٨هـ، والجهمية تطلق أحيانا بمعنى عام ويقصد بها نفاة الصفات عامة، وتطلق أحيانا بمعنى خاص ويقصد بها متابعو الجهم بن صفوان في آرائه وأهمها: نفي الصفات، والقول بالجبر، وأن الإيمان هو المعرفة، والقول بفناء الجنة والنار، انظر: مقالات الإسلاميين (١/٢١٩)، والفرق بين الفرق (ص/٢١١)، والملل والنحل (١/٦١).

(2) مقالات الإسلاميين (١/١١٤).

وقال الشهرستاني[1] في بيان أقوال جهم: «ومنها قوله: من أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن. قال: والإيمان لا يتبعض، أي لا ينقسم إلى عقد وقول وعمل. قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد؛ إذ المعارف لا تتفاضل. وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه، ونسبته إلى التعطيل المحض»[2].

وقال ابن القيم في نونيته[3] حاكيا بعض عقائد هؤلاء:

قالوا وإقرار العباد بأنه :: خلَّاقُهم هو منتهى الإيمان

والناس في الإيمان شيء واحد :: كالمشط عند تماثل الأسنان

وقال شيخ الإسلام بعد نقل كلام الأشعري عن فرق المرجئة: «فهذه الأقوال التي ذكرها الأشعري عن المرجئة يتضمن أكثرها أنه لا بد في الإيمان من بعض أعمال القلوب عندهم، وإنما نازع في ذلك فرقة يسيرة كجهم والصالحي»[4].

وسبق معنا كلام شيخ الإسلام حين ذكر أصناف المرجئة، قال رحمه الله: «والمرجئة ثلاثة أصناف:

الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب.

ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة»، ثم قال:

---

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستاني، كان عالما في علم الكلام والفلسفة وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، يلقب بالأفضل، ولد في شهرستان (بين نيسابور وخوارزم) سنة ٤٧٩هـ وتوفي سنة ٥٤٨هـ، من كتبه: الملل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، والإرشاد إلى عقائد العباد، انظر: السير (٢٠/٢٨٦)، والأعلام (٦/٢١٥).

(٢) الملل والنحل (١/٦٢).

(٣) الكافية الشافية (ص/٢٢).

(٤) الإيمان الأوسط (ص/٩٣).

«ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه»[1].

فالجهمية تظن (أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط، دون أعمال القلوب)[2].فعند الجهمية أن (الإيمان مجرد معرفة القلب، وإن لم يقر بلسانه)[3].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما جهم فكان يقول: إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها، بل أحمد و وكيع و غيرهما كفّروا من قال بهذا القول...»[4].

فعند الجهمية أعمال الجوارح ليست من الإيمان أيضا، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما الجهمية، فهم يجعلونه (الإيمان) تصديق القلب، فلا تكون الشهادتان ولا الصلاة ولا الزكاة ولا غيرهن من الإيمان»[5].

وقال: «وزعم جهم ومن وافقه أنه يكون مؤمنا في الباطن، وأن مجرد معرفة القلب وتصديقه يكون إيمانا يوجب الثواب يوم القيامة، بلا قول، ولا عمل ظاهر»[6].

فالإيمان عند الجهمية شيء واحد، يتساوى فيه العباد، لا يتبعض، ولا يتفاضل، بل هو مجرد تصديق القلب وعلمه،كما أن الكفر لا يكون إلا بزوال التصديق من القلب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وعند الجهمية إذا كان العلم في قلبه، فهو مؤمن كامل الإيمان، كإيمان

---

(1) الإيمان الكبير (ص/١٥٥-١٥٦).

(2) الإيمان الكبير (ص/١٦٢).

(3) الإيمان الأوسط (ص/٥٦).

(4) مجموع الفتاوى (١٣/٤٧).

(5) الإيمان الكبير (ص/١٢٦).

(6) مجموع الفتاوى (١٤/١٢١).

النبيين، ولو قال وعمل ما عسى أن يقول ويعمل؟ ولا يتصور عندهم أن ينتفى عنه الإيمان إلا إذا زال ذلك العلم من قلبه»[1].

وخلاصة قول الجهمية في الإيمان أنهم يحصرونه في مجرد المعرفة، ويخرجون منه عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، كما أنهم ينفون زيادة الإيمان ونقصانه، فمن صدق بقلبه فهو كامل الإيمان.

ومن لم يأت بالشهادتين، أو أتى بكل مكفر، من غير إكراه، فهو كافر في الظاهر، مع احتمال كونه مؤمنا في الباطن، إذ لا يتصور ذهاب الإيمان عندهم إلا بذهاب المعرفة من القلب.

والصنف الأول الذي ذكره شيخ الإسلام ممن لا يدخل عمل القلب في الإيمان أشهر من يمثله: الجهمية – وقد مر ذكرهم–، ومن وافقهم من الأشاعرة والماتريدية.

أما الأشاعرة فلم تكن على مقالة واحدة في مسمى الإيمان، وحتى شيخهم الأشعري مذهبه مختلف في ذلك، وحاصل أقولهم في هذه المسألة ثلاثة، هي:

القول الأول: وافقوا فيه السلف في أن الإيمان قول وعمل، وهذا آخر قولي الأشعري[2]، واختاره طائفة من أصحابه[3].

القول الثاني: وافقوا فيه فقهاء المرجئة، وابن كلاب، في أن الإيمان تصديق القلب، وقول اللسان[4].

---

[1] الإيمان الكبير (ص/١١٧).

[2] انظر: الإبانة عن أصول الديانة (ص/٥٤)، ومقالات الإسلاميين (١/٢٢٩).

[3] الإيمان الأوسط (ص/٥٧).

[4] التسعينية (٦/٥١١)، ضمن الفتاوى الكبرى.

القول الثالث: وافقوا فيه الجهمية في أن الإيمان مجرد تصديق القلب، وهذا أشهر أقوال شيخهم أبي الحسن الأشعري، وعليه أكثر أصحابه، كالقاضي أبي بكر الباقلاني[(١)]، وأبي المعالي الجويني وغيرهما[(٢)].[(٣)]

يقول الباقلاني: «فإن قال قائل ما الإيمان عندكم؟ قلنا: الإيمان هو التصديق بالله تعالى، وهو العلم، و التصديق يوجد بالقلب»[(٤)]، ويوضحه قوله في حد الكفر: «وإن قال قائل: ما الكفر عندكم؟ قيل له: هو ضد الإيمان، وهوالجهل بالله ﷻ، والتكذيب به الساتر لقلب الإنسان عن العلم به، فهو كالمغطى عن معرفة الحق»[(٥)].

ويقول الجويني: «والمرضي عندنا أن حقيقة الإيمان التصديق بالله تعالى، فالمؤمن بالله من صدقه، ثم التصديق على التحقيق كلام النفس، ولكن لا يثبت إلا مع العلم»[(٦)].

ويقول أبو القاسم الأنصاري[(١)] - شيخ الشهرستاني -، في شرح الإرشاد: «وأما مذاهب أصحابنا - يعني الأشاعرة -، فصار أهل التحقيق من أصحاب الحديث والنظار منهم إلى أن الإيمان هو التصديق، وبه قال شيخنا أبو الحسن رحمة الله عليه»[(٢)].

---

(١) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، كان من أهل البصرة، وسكن بغداد، ولد سنة ٣٣٨ هـ وتوفي سنة ٤٠٣ هـ، انظر: السير (١٩٠/١٧)، والأعلام (١٧٦/٦).

(٢) هو إمام الحرمين، أبو المعالي، عبد الملك ابن أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين، شيخ الشافعية، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤١٩هـ وتوفي سنة ٤٧٨هـ، انظر: السير (٤٦٨/١٨)، وطبقات الشافعية (١٦٥/٥).

(٣) انظر: الإيمان الكبير (ص/١٥٥-١٥٦)، والإيمان الأوسط (ص/١٢٧)، والنبوات (٥٨٠/١)،

(٤) التمهيد (ص/٣٨٨-٣٩٩).

(٥) نفس المصدر (ص/٣٩٢-٣٩٤).

(٦) الإرشاد (ص/٣٣٣-٣٣٤).

فالحاصل أن الذي استقر عليه مذهب الأشاعرة هو الموافقة لقول جهم في إنكار دخول أعمال القلوب في حقيقة الإيمان، وأن الإيمان عندهم إنما هو مجرد المعرفة أو التصديق.

وأما الماتريدية[٣]، فإنهم يوافقون الجهمية والأشاعرة في أحد قوليهم، وهو أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، وأما قول اللسان أو الإقرار فليس داخلا في الإيمان، وإنما هو دليل وشرط لإجراء أحكام الدنيا، وكذلك العمل غير داخل في الإيمان[٤].

قال الماتريدي[٥]: «ثم قد ثبت بأدلة القرآن وما عليه أهل الإيمان، والذي جرى به من اللسان أن الإيمان هو التصديق»[٦].

وقال أبو المعين النسفي[١]: «الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، فكل من صدق غيره فيما يخبر يسمى في اللغة مؤمنا به، ومؤمنا له...، ثم إن هذا اللغوي وهو التصديق بالقلب، هو

---

[١] هو أبو القاسم سليمان بن ناصر بن عمران النيسابوري الأنصاري، الصوفي، الأشعري، الشافعي، تلميذ إمام الحرمين صاحب أبي القاسم القشيري الصوفي، أخذ عنه، وُصف بالذكاء والبراعة، والزهد والتصوف، توفي ٥١١هـ، انظر: السير (٤١٢/١٩)، وطبقات الشافعية (٩٦/٧)، والوافي بالوفيات (١٠٧/١٣).

[٢] شرح الإرشاد (٢٧٨/ب-٢٧٠أ)، مخطوط، نقلا عن آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/٢٣٩).

[٣] هي فرقة كلامية تنتسب إلى أبي منصور الماتريدي، ومصدرهم في تلقي الإلهيات والنبوات العقل، ولم يثبتوا إلا ثمان صفات، ويرون أن الإيمان هو التصديق، وبعضهم يضم إليه الإقرار باللسان، ونفوا زيادة الإيمان ونقصانه، وحرموا الاستثناء فيه، فهي مقاربة لفرقة الأشاعرة في باب الأسماء والصفات، وفي المعتقد عموما، إلا أن بينهم فروقا في مسائل متعددة، انظر: الموسوعة الميسرة (٩٥/١)، والماتريدية - دراسة وتقويما للدكتور أحمد الحربي.

[٤] انظر: الإيمان الأوسط (ص/٥٨).

[٥] هو أبو منصور، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، وماتريد محلة بسمرقند فيما وراء النهر (انظر: معجم البلدان ٣٢/٥ وسماها ماتيرب)، من كتبه التوحيد وأوهام المعتزلة، والرد على القرامطة، وتأويلات أهل السنة، وشرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة، وغيرها. توفي سنة ٣٣٣هـ. انظر: الأعلام (١٩/٧).

[٦] التوحيد للماتريدي (ص/٤٢٦).

حقيقة الإيمان الواجب على العبد حقا لله تعالى، وهو أن يصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله تعالى، فمن أتى بهذا التصديق فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى. والإقرار يحتاج إليه ليقف عليه الخلق فيجروا عليه أحكام الإسلام، هذا هو المروي عن أبي حنيفة رحمه الله، وإليه ذهب الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله، وهو أصح الروايتين عن أبي الحسن الأشعري»[(٢)].

وقال ملا علي القاري[(٣)]: «وذهب جمهور المحققين إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وإنما الإقرار شرط لإجراء الأحكام في الدنيا...، وهذا اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي»[(٤)].

فحاصل هذه الأقوال أن الجهمية والأشاعرة والماتريدية يذهبون إلى أن الإيمان مجرد المعرفة أو التصديق الذي في القلب، وإن لم يقترن به قول اللسان، ولم يقتض عملا في القلب والجوارح.

أما ما يتعلق بزيادة الإيمان ونقصانه، فالجهمية والماتريدية يرون عدم زيادته ونقصانه، أما الأشاعرة فلهم في المسألة قولان: فجمهورهم على أنه لا يقبل الزيادة والنقصان، وذهب بعضهم إلى أنه يقبلهما (أي التصديق الذي هو الإيمان عندهم يقبلهما).

---

(١) هو ميمون بن محمد بن محمد بن معبد بن مكحول، أبو المعين النسفي الحنفي، عالم بالأصول والكلام، من كتبه: بحر الكلام، وتبصرة الأدلة، والتمهيد لقواعد التوحيد وغيرها، ولد سنة ٤١٨هـ وتوفي سنة ٥٠٨هـ، انظر: الأعلام (٧/٣٤١).

(٢) التمهيد لقواعد التوحيد (ص/٣٧٧-٣٧٨).

(٣) هو علي بن (سلطان) محمد، نور الدين الملا الهروي القاري: فقيه حنفي، من صدور العلم في عصره، ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها، له كتب منها: شرح مشكاة المصابيح، وضوء المعالي، ومنح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، وغيرها، توفي سنة ١٠١٤هـ، انظر: الأعلام (٥/١٢)

(٤) شرح الفقه الأكبر (ص/٢٥٣).

المطلب الثاني

مذهب الكرامية[1] في أعمال القلوب

أما الصنف الثاني الذين ذكرهم شيخ الإسلام رحمه الله في معرض تصنيفه لأقوال المرجئة هم الكرامية، قال رحمه الله:

«**والقول الثاني:** من يقول هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية»[2].

فالأشعري جعل المرجئة الكرامية أصحاب محمد بن كرام[3] الفرقة الثانية عشرة من المرجئة، وهم الذين زعموا أن الإيمان هو الإقرار فقط، دون التصديق بالقلب ودون سائر الأعمال، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو أي شيء غير التصديق باللسان إيمانا[4].

فالكرامية لهم في الإيمان قول ما سبقهم إليه أحد، وهو قولهم إن الإيمان قول باللسان، وإن لم يعتقد بقلبه.

---

(1) الكرامية هم أتباع محمد بن كرام السجستاني ت٢٥٥هـ، وهم يوافقون السلف في إثبات الصفات، ولكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم، وكذلك يوافقون السلف في إثبات القدر والقول بالحكمة ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعقل وفي الحسن والقبح العقلين، وهم يعدون من المرجئة لقولهم بأن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط. انظر: مقالات الإسلاميين (١/٢٢٣)، والملل والنحل (١/٧٨)، والفرق بين الفرق (ص/٢١٥).

(2) الإيمان الكبير (ص/١٥٥-١٥٦).

(3) هو محمد بن كرام السجستاني أبو عبد الله، إمام الكرامية، كان زاهدا عابدا، ولكنه يروي الواهيات، قال عنه ابن حبان: خُذل حتى التقط من المذاهب أردأها، ومن الأحاديث أوهاها، توفي سنة ٢٥٥ هـ بأرض بيت المقدس، انظر: السير (١١/٥٢٣).

(4) مقالات الإسلامين (١/١٢٠).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقالت الكرامية هو القول فقط، فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان، لكن إن كان مقرا بقلبه كان من أهل الجنة، وإن كان مكذبا بقلبه كان منافقا مؤمنا من أهل النار، وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته، و لم يسبقها أحد إلى هذا القول، وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان»[1].

ويقول أيضا: «والكرامية قولهم في الإيمان قول منكر لم يسبقهم إليه أحد، حيث جعلوا الإيمان قول اللسان وإن كان مع عدم تصديق القلب، فيجعلون المنافق مؤمنا لكنه يخلد في النار، فخالفوا الجماعة في الاسم دون الحكم»[2].

وقد نبّه شيخ الإسلام رحمه الله على أمرين مهمين في فهم قول الكرامية:

الأول: أنهم وإن أخرجوا التصديق من مسمى الإيمان، إلا أنهم يوجبونه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «مع أن الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق، ولكن تقول: لا يدخل في اسم الإيمان؛ حذرا من تبعضه وتعدده، لأنهم رأوا أنه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه، بل ذلك يقتضي أن يجتمع في القلب إيمان وكفر، واعتقدوا الإجماع على نفي ذلك»[3].

والثاني: أنهم مع قولهم بأن المنافق مؤمن فهذا حكمه في الدنيا فحسب، وأما في الآخرة فهو مخلد في النار، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمنا، ويقولون: الإيمان هو الكلمة، يقولون: إنه لا ينفع في الآخرة إلا الإيمان الباطن. وقد حكى بعضهم عنهم أنهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، إنما نازعوا في الاسم لا في الحكم بسبب شبهة المرجئة في أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل»[4].

---

[1] مجموع الفتاوى (١٣/٥٦).

[2] نفس المصدر (٣/١٠٣).

[3] الإيمان الكبير (ص/٣٠٨).

[4] نفس المصدر (ص/١٧١).

ويقول أيضا: «والكرامية توافق المرجئة والجهمية في أن إيمان الناس كلهم سواء، ولا يستثنون في الإيمان، بل يقولون: هو مؤمن حقا لمن أظهر الإيمان وإذا كان منافقا فهو مخلد في النار عندهم، فإنه إنما يدخل الجنة من آمن باطنا وظاهرا.

ومن حكى عنهم أنهم يقولون: المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم، بل يقولون: المنافق مؤمن، لأن الإيمان هو القول الظاهر، كما يسميه غيرهم مسلما، إذ الإسلام: هو الاستسلام الظاهر»[1].

وحاصل كلام الكرامية في الإيمان هو؛ أن الإيمان مجرد قول اللسان، فمن أتى به فهو مؤمن كامل الإيمان، فهم يخرجون عمل القلب و الجوارح من الإيمان، بل يخرجون التصديق أيضا مع قولهم بوجوبه.

ثم إن المنافق عندهم مؤمن في الدنيا لأنه أتى بالقول، لكنه مخلد في النار لأنه مكذب بقلبه.

ويقولون إن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل والناس فيه سواء، ولا يجتمع في العبد إيمان وكفر، وكذلك ينفون الاستثناء في الإيمان[2].

المطلب الثالث:

مذهب مرجئة الفقهاء في أعمال القلوب

أما الصنف الثالث الذين ذكرهم شيخ الإسلام رحمه الله في معرض تصنيفه لأقوال المرجئة فهم مرجئة الفقهاء، قال رحمه الله:

«**والثالث**: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم»[1].

---

[1] نفس المصدر (ص/١١٦).

[2] انظر: آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام (ص/٢٢١-٢٢٦).

والمقصود بمرجئة الفقهاء؛ من نسب إليه الإرجاء من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة ومن تبعهما[٢].

وقد ذهبوا إلى أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان، وأخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، وزعموا أنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى فيه، مع قولهم إن مرتكب الكبيرة معرض للوعيد، وهو تحت المشيءة كما هو قول أهل السنة والجماعة.

قال الأشعري في المقالات في عد فرق المرجئة: «والفرقة التاسعة من المرجئة: أبو حنيفة وأصحابه، يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله والإقرار بالله، والمعرفة بالرسول، والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير»[٣].

وقال ابن حزم: «وذهب قوم أن الإيمان هو؛ المعرفة بالقلب والإقرار باللسان معا، فإذا عرف المرء بقلبه وأقر به لسانه فهو مسلم كامل الإيمان والإسلام، وأن الأعمال لا تسمى إيمانا ولكنها شرائع الإيمان، وهذا قول أبي حنيفة النعمان بن الثابت الفقيه وجماعة من الفقهاء»[٤].

ومع أن بدعة هؤلاء تعد أخف بدع المرجئة، إلا أن أئمة السلف آنذاك كان لهم معها وقفة عظيمة تمثلت في الإنكار على أهلها، وتغليظ القول فيهم، وتبديع مقالتهم، وردها، وبيان ما تحمله من خطر عظيم على الدين[٥].

---

[١] الإيمان الكبير (ص/١٥٦).

[٢] تنبيه: إن المقصود بمرجئة الفقهاء هنا هم المتقدمون منهم، وأما المتأخرون منهم فإنهم أقرب إلى مذهب الأشاعرة والماتريدية، انظر الإيمان الأوسط (ص/٥٦-٥٨)، وانظر أيضا: الإيمان بين السلف والمتكلمين (ص/٩٨-٩٩)، تأليف شيخنا أحمد بن عطية بن علي الغامدي.

[٣] مقالات الإسلاميين (١/١١٩).

[٤] الفصل (٢/٢٠٩).

[٥] مجموع الفتاوى (٣/٣٥٧).

قال إبراهيم النخعي[1] رحمه الله: «لَفِتْنَتُهم -يعني المرجئة- أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة»[2].

وقال الإمام الزهري[3] رحمه الله: «ما ابتدعت في الإسلام بدعة هي أضر على أهله من هذه - يعني: الإرجاء»[4].

وقال شريك القاضي[5] رحمه الله وذكر المرجئة فقال: «هم أخبث قوم، حسبك بالرفض خبثا، ولكن المرجئة يكذبون على الله»[6].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «تركت المرجئة الإسلام أرق من ثوب سابري»[7].

أما المسائل التي خالف فيها مرجئة الفقهاء ما عليه سلف الأمة في باب الإيمان خاصة، فقد حررها شيخ الإسلام رحمه الله تحريرا بالغا، إذ يقول: «ثم بعد ذلك تنازع الناس في اسم المؤمن والإيمان نزاعا كثيرا، منه لفظي وكثير منه معنوي، فإن أئمة الفقهاء لم ينازعوا في شيء

---

(1) هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي، اليماني، ثم الكوفي، مفتي الكوفة في زمانه، كان واسع الرواية، فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن، توفي سنة ٩٦ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٣٨٨/٨)، ووفيات الأعيان (٢٥/١)، والسير (٥٢٠/٤).

(2) السنة للخلال (٥٦٢/٣-٥٦٣).

(3) هو محمدبن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، أبو بكر، إمام حافظ حجة ثقة ثبت، ولد سنة ٥٨ هـ، توفي سنة ١٢٤ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٤٢٩/٧)، ووفيات الأعيان (٤٥١/١)، والسير (٣٢٦/٥)، والأعلام (٩٧/٧).

(4) الإيمان لأبي عبيد (ص/٦٥)

(5) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي، أبو عبد الله، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته، استقضاه أبو جعفر المنصور على الكوفة، توفي سنة ١٧٧ هـ، انظر: وفيات الأعيان (٤٦٤/٢)، والسير (١٥٩/٦)، والأعلام (١٦٣/٣).

(6) الشريعة للآجري (ص/١٤٨).

(7) شرح أصول الاعتقاد (١٠٦١/٥)، والثوب السابري؛ هو الرقيق الذي يستشف ما وراءه، انظر: لسان العرب (١٠٩/٧)، مادة «سبر».

مما ذكرناه من الأحكام، وإن كان بعضهم أعلم بالدين وأقوم به من بعض، ولكن تنازعوا في الأسماء، كتنازعهم في:

الإيمان هل يزيد وينقص؟

وهل يستثنى فيه أم لا؟

وهل الأعمال من الإيمان أم لا؟

وهل الفاسق الملي مؤمن كامل الإيمان أم لا؟

والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف وهو مذهب أهل الحديث وهو المنسوب إلى أهل السنة أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه يجوز الاستثناء فيه»[1].

- وقد سبق أن الإيمان عندهم تصديق القلب وقول اللسان، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهؤلاء المعروفون مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما من فقهاء الكوفة، كانوا يجعلون قول اللسان، واعتقاد القلب من الإيمان.

وهو قول أبي محمد بن كلاب وأمثاله، لم يختلف قولهم في ذلك ولا نقل عنهم أنهم قالوا الإيمان مجرد تصديق القلب»[2].

- فعندهم يمكن أن يحصل الإيمان التام في القلب بدون العمل الظاهر، لأنهم أخرجوا العمل الظاهر من الإيمان، فقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن من الأغلاط التي يقول بها المرجئة جميعا: «ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون العمل الظاهر»[3].

ويقول أيضا: «والمرجئة المتكلمون منهم، والفقهاء يقولون: إن الأعمال قد تسمى إيمانا مجازا: لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه، ولأنها دليل عليه»[1].

---

(1) الإيمان الأوسط (ص/٥٤).

(2) نفس المصدر (ص/٥٦).

(3) الإيمان الكبير (ص/٢٨٦).

وهذا لا يعني أنهم لا يقيمون للأعمال وزنا، بل عندهم أن الأعمال المفروضة واجبة، ويرون أن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات، يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب[٢]، لكنهم مع ذلك يعدون فعل الواجبات وترك المحرمات ليس من الإيمان.

- فعندهم الإيمان شيء واحد، لا يزيد ولاينقص، ولا يتفاضل، ولا يستثنى فيه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأنكر حماد بن أبي سليمان ومن اتبعه تفاضل الإيمان ودخول الأعمال فيه، والاستثناء فيه، وهؤلاء مرجئة الفقهاء»[٣].

وقال أيضا: «والحزب الثاني وافقوا أهل السنة على أنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، ثم ظنوا أن هذا لا يكون إلا مع وجود كمال الإيمان؛ لاعتقادهم أن الإيمان لا يتبعض، فقالوا: كل فاسق فهو كامل الإيمان، وإيمان الخلق متماثل لا متفاضل، وإنما التفاضل في غير الإيمان من الأعمال، وقالوا: الأعمال ليست من الإيمان لأن الله فرق بين الإيمان والأعمال في كتابه، ثم قال الفقهاء المعتبرون من أهل هذا القول: إن الإيمان هو تصديق القلب وقول اللسان، وهذا المنقول عن حماد بن أبي سليمان ومن وافقه كأبي حنيفة وغيره»[٤].

فإذا كان مرجئة الفقهاء يجعلون الإيمان تصديق بالقلب وقول اللسان، وأخرجوا العمل من مسماه، وزعموا أنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى فيه، مع قولهم إن مرتكب الكبيرة معرض للوعيد، وهو تحت المشيءة،

فما هو موقفهم من أعمال القلوب؟

---

[١] الإيمان الكبير (ص/١٥٥).

[٢] نفس المصدر (ص/٢٣٣).

[٣] الإيمان الأوسط (ص/٥٥).

[٤] مجموع الفتاوى (١٨/٢٧١).

إن المتتبع لأقوال المرجئة وأقوال المحققين من أهل العلم يجد أن هناك اضطرابا في موقفهم من أعمال القلوب هل هي من الإيمان أو لا[1]:

فيقول أبو جعفر الطحاوي[2] رحمه الله: «ونحب أصحاب رسول ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[3].

قال ابن أبي العز رحمه الله معلقا على ذلك: «وتسمية حب الصحابة إيمانا مشكل على الشيخ رحمه الله – يعني الطحاوي–، لأن الحب عمل القلب وليس التصديق، فيكون العمل داخلا في مسمى الإيمان، وقد تقدم في كلامه أن: الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، ولم يجعل العمل داخلا في مسمى الإيمان، وهذا هو المعروف من مذهب أبي حنيفة، إلا أن تكون هذه التسمية مجازا»[4].

فأبو جعفر الطحاوي يسمي الحب الذي هو عمل القلب إيمانا، وأما ابن أبي العز فيصرح أن الحب ليس من الإيمان وإن سمي مجازا.

ويقول أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى»[5].

---

(1) انظر: أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة ومخالفيهم (٨٢٤/٢).

(2) أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي، أبو جعفر الطحاوي: فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفيا، كان إماما فقيها محدثا ثقة ثبتا، من مصنفاته: شرح معاني الآثار، والعقيدة الطحاوية وغيرها، وتوفي سنة ٣٢١ بالقاهرة، انظر: وفيات الأعيان (٧١/١)، والسير (٢٧/١٥)، الأعلام (٢٠٦/١).

(3) شرح العقيدة الطحاوية (٧٠٤/٢).

(4) نفس المصدر (٧١٢/٢).

(5) نفس المصدر (٥٠٥/٢).

فكلام أبي جعفر الطحاوي هنا يدل على أن أعمال القلوب ليست من الإيمان ولهذا دخل فيها التفاضل كما مثل بالخشية والتقوى، مع أنه متناقض في جعله للإيمان أصلا الذي يفهم أن له فرعا، مع أنه يقرر أن الإيمان واحد.

فلما أراد أن يجمع بين قول أصحابه أن الإيمان واحد، وبين مذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص قال: «وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقوى»، و لهذا قال ابن أبي العز رحمه الله معلقا على ذلك: «و لهذا – والله أعلم– قال الشيخ رحمه الله "وأهله في أصله" سواء يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه»[1].

وقال زين الدين ابن همام الحنفي – صاحب المسايرة: «ثم جعل بعض أهل العلم الاستسلام والانقياد – الذي هو معنى الإسلام– داخلا في معنى التصديق»[2].

فزين الدين يشير إلى أن هذا قول بعض أهل العلم، فهو مشعر بأن من الأحناف من يقول بغير هذا القول.

وقال صاحب الحاشية على المسايرة: «قال العلامة سعد الدين: ليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى المخبر والخبر من غير إذعان وقبول، قلت: تقدم أنه لا يكون العلم بدون إذعان تصديقا»[3].

فالحاصل أن مرجئة الفقهاء مضطربون في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان، ولهذا نجد شيخ الإسلام أحيانا يجزم أنهم يخرجون أعمال القلوب، فيقول رحمه الله: «ومن هنا غلطت الجهمية والمرجئة، فإنهم جعلوا الإيمان من باب القول، إما قول القلب الذي هو علمه،

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٥٠٩)

(2) المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة (ص/٢٩١-٢٩٢).

(3) الحاشية على المسايرة (٢٩٥).

أو معنى غير العلم عند من يقول بذلك، وهذا قول الجهمية ومن تبعهم، كأكثر الأشعرية وبعض متأخري الحنفية.

وإما قول القلب واللسان، كالقول المشهور عن المرجئة، ولم يجعلوا عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، ومثل خوف الله من الإيمان، فغلطوا في هذا الأصل»[(١)].

وأحيانا تراه لا يجزم أنهم يخرجون أعمال القلوب من الإيمان، يقول رحمه الله: «فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا، وهذا باطل قطعا»[(٢)]، ويقول أيضا: «لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضا، فإنها لازمة لها»[(٣)].

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لأقوال المخالفين في الإيمان تبين لنا أمور:

- إن الإيمان عند الجهمية ومن وافقهم من الأشاعرة والماتريدية هو المعرفة أو التصديق فقط، وأن أعمال القلوب عندهم ليست من الإيمان.

- إن الإيمان عند الكرامية هو مجرد قول اللسان، فليست أعمال القلوب من الإيمان، بل حتى التصديق عندهم ليس من الإيمان ولو أنهم يوجبونه.

- إن الإيمان عند مرجئة الفقهاء هو تصديق القلب وقول اللسان، فهل أعمال القلوب عندهم من الإيمان أولا، هذا أمر مضطرب عندهم، بل حتى من كلام شيخ الإسلام لم يتبين موقفهم من أعمال القلوب[(٤)].

---

(١) جامع المسائل (٢٤٦/٥) لشيخ الإسلام، وانظر: الإيمان الكبير (ص/١٥٥-١٥٦)، ومنهاج السنة (٢٠٢/٥).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/١٠٠).

(٣) الإيمان الكبير (ص/١٥٥).

(٤) رجح صاحب الكتاب: آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام عرض ونقد، الدكتور عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السند، أن مرجئة الفقهاء يخرجون أعمال القلوب من الإيمان كما يخرجون أعمال الظاهر، انظر: (ص/١٨٥-١٩٠).

- هؤلاء كلهم ينفون زيادة الإيمان ونقصانه، إلا ما ورد عن الأشاعرة أن لهم في المسألة قولين، مع أن من يقول منهم بالزيادة أو النقص فمرادهم بالزيادة والنقص زيادة التصديق أو نقصانه، والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني: ذكر شبهات المرجئة في إخراج أعمال القلوب من حقيقة الإيمان.

لعل مما سبق من استعراض مذاهب المرجئة في الإيمان تبين لنا أن انحرافاتهم في أعمال القلوب تتمثل في أمرين:

الأول: إهمال أعمال القلوب بالكلية، بحيث لم يدخلوها في حقيقة الإيمان أصلا، و لم يعتبروها جزءا منه.

والثاني: إهمال أحكامها، وهي مخالفات تنبني على عدم إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان، كالتفاضل فيها بالزيادة والنقصان، وتفاضل أهلها فيها، والارتباط بينها وبين أعمال الجوارح، وعلاقة التأثير المتبادل بينهما.

وفي هذا المبحث نحاول أن نسلط الضوء على أبرز شبهات المرجئة التي جعلتهم يخالفون أهل السنة في هاتين المسألتين، ويتضح هذا من خلال المطلبين التاليين

المطلب الأول

شبهات المرجئة في إخراج أعمال القلوب من حقيقة الإيمان

- وعمدة جميع الفرق لإخراج العمل - ومن ذلك العمل القلبي- من الإيمان هي الشبهة اللغوية، وهو قولهم إن الإيمان في اللغة هو التصديق، بل ادعوا الإجماع على ذلك.

قال ابن حزم رحمه الله: «فحجة الجهمية، والكرامية، والأشعرية، ومن ذهب مذهب أبي حنيفة حجة واحدة، وهي أنهم قال: إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين، وبلغة العرب خاطبنا الله تعالى ورسوله ﷺ، والإيمان في اللغة هو التصديق فقط»[1].

ولما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله قول المرجئة في الإيمان أعقبه بقوله: «ونحن نذكر عمدتهم، لكونه مشهورا عند كثير من المتأخرين المنتسبين إلى السنة.

قال القاضي أبو بكر في التمهيد: فإن قالوا: فخبرونا ما الإيمان عندكم؟ قيل: الإيمان هو التصديق بالله وهو العلم، والتصديق يوجد بالقلب.

فإن قال: فما الدليل على ما قلتم؟ قيل: إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق، لا يعرفون في اللغة إيمانا غير ذلك.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ يوسف: ١٧، أي بمصدق لنا.

ومنه قولهم: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان لا يؤمن بعذاب القبر أي: لا يصدق بذلك.

فوجب أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان المعروف في اللغة، لأن الله ما غير اللسان العربي ولا قلبه، ولو فعل ذلك لتواترت الأخبار بفعله وتوفرت دواعي الأمة على نقله، ولغلب إظهاره على كتمانه، وفي علمنا بأنه لم يفعل ذلك، بل إقرار أسماء الأشياء والتخاطب بأسره على ما كان؛ دليل على أن الإيمان في الشريعة هو الإيمان اللغوي.

ومما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ إبراهيم: ٤، وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ الزخرف: ٣، فأخبر أنه أنزل القرآن بلغة العرب وسمى الأسماء بمسمياتهم، ولا وجه للعدول بهذه الآيات عن ظواهرها بغير حجة، لا سيما مع القول بالعموم،

---

[1] الفصل (٢/٢٠٩).

وحصول التوقيف على أن القرآن نزل بلغتهم، فدل على ما قلناه من أن الإيمان ما وصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات، هذا لفظه[1].

وهذا عمدة من نصر قول الجهمية في مسألة الإيمان»[2].

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله أيضا أنهم يقولون: «الإيمان في اللغة هو التصديق، والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها، فيكون مراده بالإيمان التصديق.

ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان.

ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ يوسف: ١٧، أي بمصدق لنا»[3].

فهذه الشبهة تقوم على مقدمتين:

الأولى: أن الإيمان في اللغة هو التصديق، والرسول ﷺ إنما خاطب الناس بلغة العرب، فيكون مراده بالإيمان التصديق فحسب.

والثانية: أن التصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فقط، فالأعمال بكل حال ليست من الإيمان.

- وتقوية لأصلهم الباطل المبني على هذه الشبهة اللغوية من أن الإيمان هو التصديق، قالوا: إن كل من نفى الشارع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلا.

قال أبو بكر الباقلاني: «وإن قال قائل: ما الكفر عندكم؟ قيل له: هو ضد الإيمان، وهوالجهل بالله ﷻ، والتكذيب به الساتر لقلب الإنسان عن العلم به، فهو كالمغطى عن معرفة الحق»[4].

---

[1] التمهيد (ص/٣٨٨-٣٩٠).

[2] الإيمان الكبير (ص/١٠٠-١٠١).

[3] نفس المصدر (ص/٢٢٦).

[4] التمهيد (ص/٣٩٢-٣٩٤).

وقد بين شيخ الإسلام أن المرجئة في مسألة الإيمان غلطوا في أصلين:

أحدهما: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة، ومحبة وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا.

والثاني: ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق. وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة(١).

المطلب الثاني

شبهات المرجئة في نفي التفاضل في أعمال القلوب بالزيادة والنقصان

- الخلاف في هذا المسألة - كما تقدم - هو بحسب الخلاف في تعريف الإيمان، فمن جعل الإيمان هو التصديق فقط(٢) ولم يدخل الأعمال فيه، لم يجوّز الزيادة والنقصان.

قال أبو المعين النسفي: «وإذا ثبت أن الإيمان هو التصديق وهو لا يتزايد في نفسه، دل على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فلا زيادة له بانضمام الطاعات إليه، ولا نقصان له بارتكاب المعاصي، إذ التصديق في الحالتين على ما كان قبلهما»(٣).

- أما عمدة المرجئة في نفي التفاضل في أعمال القلوب بالزيادة والنقص، هو أن الإيمان عندهم شيء واحد، لا يتبعض ولا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وبالتالي فهو لا يزيد ولا ينقص.

قال ابن حزم: «قالوا: ولو كانت الأعمال توحيدا وإيمانا، لكان من ضيع شيئا منها قد ضيع الإيمان»(١).

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٥٢).

(٢) إذا، ترجع شبهة نفي الزيادة والنقصان إلى أصل شبهتهم اللغوية أن الإيمان في اللغة هو التصديق فقط.

(٣) التمهيد (ص/٣٨٤).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «وإنما أوقع هؤلاء كلهم (أي المرجئة) ما أوقع الخوارج والمعتزلة في ظنهم أن الإيمان لا يتبعض، بل إذا ذهب بعضه ذهب كله، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه يتبعض وأنه ينقص ولا يزول جميعه»[٢].

وقال: «وجماع شبهتهم في ذلك: أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها، كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين[٣] إذا زال أحد جزأيه خرج عن كونه سكنجبينا.

قالوا: فإذا كان الإيمان مركبا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة

قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمنا بما فيه من الإيمان، كافرا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، وادعوا أن هذا خلاف الإجماع»[٤].

- كما احتج بعضهم على عدم تفاضل الإيمان بالزيادة والنقصان ببعض الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ.

هذا ملخص شبههم في هاتين المسألتين، وفيما يلي نذكر الرد عليهم.

---

(١) الفصل (٢/٢١٠).

(٢) شرح العقيدة الأصبهانية (ص/١٨٢).

(٣) اسم فارسي معرب لشراب مركب من حامض وحلو، انظر: المعجم الوسيط (ص/٤٤٠).

(٤) الإيمان الأوسط (ص/٥٩).

المبحث الثالث: الرد على المرجئة.

قبل أن أشرع في الرد على الشبهات التي أوردها المرجئة لإخراج أعمال القلوب من الإيمان، وتقريرهم أن الإيمان هو التصديق فقط، وأنه لا يتبعض ولا يتجزأ، وبالتالي لا يتفاضل، فلا يزيد ولا ينقص، أريد أن أشير إلى ما سبق أن أوردته في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وأنه مركب من قول وعمل واعتقاد، وأنه يزيد وينقص، - وقد قررت ذلك مدعّما قول أهل السنة بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف - من أقوى الرد على شبهاتهم الباطلة التي لا يساندها الشرع ولا العقل ولا الفطرة، لكن زيادة لتقرير الحق في هذه المسائل سأقف على الشبهات التي سبق ذكرها في المبحث السابق، لنبين أن قولهم في الإيمان ومسائله ليس له خطام ولا زمام.

فأقول، وبالله التوفيق:

المطلب الأول

الرد على شبهات المرجئة في إخراج أعمال القلوب من حقيقة الإيمان

وقد تقدم أن المرجئة بنوا مذهبهم في الإيمان - ومن ذلك مذهبهم في أعمال القلوب - على عدة شبهات، من أشهرها:

- قولهم إن الإيمان في اللغة هو التصديق فقط - وادعوا الإجماع على ذلك-، والنبي ﷺ إنما خاطبنا بلغة العرب، فيكون مراده بالإيمان التصديق فحسب.

- ثم إن التصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب، فالأعمال بكل حال ليست من الإيمان.

وقد تصدى لهذه الشبهة شيخ الإسلام، وناقشها وبين بطلانها من عدة أوجه، نجملها فيما يلي[1]:

المقام الأول: كلام عام مطلق.

وهو في نقد المنهجية التي سلكها المرجئة في هذه المسألة، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«فيقال لهم: اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ، وهو أصل الدين، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويفرق بين السعداء والأشقياء، ومن يوالى ومن يعادى، والدين كله تابع لهذا، وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك.

أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله، ووكله إلى هاتين المقدمتين ؟!

ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن، ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة، فإن الإيمان يحتاج إلى معرفة جميع الأمة فينقلونه، بخلاف كلمة من سورة، فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة[2]، فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات، ولهذا كثر التراع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم، وسلكوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات»[3].

---

(1) استفدت في الرد على هذه الشبهة من كتاب: «آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام، عرض ونقد» (ص/٣٣٠-٣٥١).

(2) المرجئة بنوا معنى الإيمان على قولهم إنه التصديق، ثم استدلوا بالآية التي في سورة يوسف، فشيخ الإسلام يرد عليهم أن معنى الإيمان معلوم بالتواتر في الشريعة حتى لمن لم يعرف هذه الآية، ومن ثم لا يجوز تعليق الدين على ما ادعاه المرجئة، والله أعلم.

(3) الإيمان الكبير (ص/٢٢٦-٢٢٧).

وقد بين شيخ الإسلام أن منهج المرجئة في تقرير هذه الحجة مخالف لم يجب سلوكه في فهم المصطلحات الشرعية، يقول رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع، نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض» ثم بين أن ﷺ قد أوضح معنى الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ثم قال رحمه الله:

«واسم الإيمان، والإسلام، والنفاق، والكفر هي أعظم من هذا كله، فالنبي ﷺ قد بين المراد بهذه الألفاظ بيانا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق، وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله، فإنه شاف كاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة»[1].

المقام الثاني: كلام مفصل.

فنقض الشبهة - أن الإيمان هوالتصديق فقط، ليس معه شيء من العمل - التي بنى المرجئة عليها احتجاجهم باللغة يكون على شقين:

الشق الأول: مبني على منع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق.

وذلك من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: المطالبة بإثبات الترادف.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في أثناء الرد على الباقلاني: «فمن الذي قال: إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق؟

---

[1] الإيمان الكبير (ص/٢٢٤/٢٢٥).

وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع، فلم قلت: إنه يوجب الترادف؟ ولو قلت: ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى، لكن لم قلت: إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن؟ وإذا قال الله: ﴿ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الأنعام: ٧٢، ولو قال القائل: أتموا الصلاة، ولازموا الصلاة، التزموا الصلاة، افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحا، لكن لا يدل هذا على معنى: ﴿ أَقِيمُواْ ﴾، فكون اللفظ يرادف اللفظ، يراد دلالته على ذلك[1]»[2].

الوجه الثاني: إثبات الفروق اللغوية بين الإيمان والتصديق.

وقد سبق معنا إيراد هذه الفروق في تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة، ولا ضير لإعادتها هنا، لأن المقام يدعو لذلك:

١- أن لفظة «آمن» تختلف عن لفظة «صدق» من جهة التعدي، حيث إن «آمن» لا تتعدى إلا بحرف إما اللام أو الباء، فيقال «آمن له» أو «آمن به»، ولا يقال آمنه، بخلاف لفظة «صدق» فإنه يصح تعديتها بنفسها فيقال «صدقه».

٢- أن الإيمان والتصديق لا يترادفان في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال كذبت، وأما لفظ الإيمان لا يستخدم إلا في الأخبار التي يؤتمن فيها المخبر مثل الأمور الغيبية، لأنه مشتق من الأمن.

٣- أن لفظ التصديق في اللغة يقابل بالتكذيب، ويقال صدقت أو كذبت، بخلاف لفظ الإيمان الذي لا يقابل بالتكذيب، بل يقابل بالكفر، يقال آمنا أو كفرنا، هو مؤمن أو كافر، ومن هنا يعلم أن الكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك،

---

[1] ولا يلزم تساوي لفظين من كل وجه، بل لا بد في كل لفظ من زيادة في المعنى - أو نقص- عن مرادفه، ولو بوجه من الوجوه.

[2] الإيمان الكبير (ص/٢٢٧).

بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

٤- أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف، فآمن أي صار داخلا في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الإئتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يوسف: ١٧، أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا من الصادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يؤمن لهم، أما التصديق فلا يتضمن شيئا من ذلك[١].

٥- أن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، وأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام وهو عمل القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر[٢].

الوجه الثالث: الرد على ما استدل به المرجئة على دعوى الترادف.

فملخص الأدلة التي ذكرها المرجئة على دعوى الترادف ثلاثة:

الأول: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يوسف: ١٧، لا يتم لهم، لأنه (ليس في الآية على أن المصدق مرادف للمؤمن، فإن صحة المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر)[٣].

وأما الآية فمعنى قولهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾،(أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يؤمن لهم)[١].

---

[١] انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٢٧-٢٣٠).

[٢] الصارم المسلول (٣/٩٦٧)، والإيمان الأوسط (ص/٧٨، ص/١٨٢)

[٣] الإيمان الكبير (ص/١٠٤).

الثاني: احتجاج الباقلاني بأن الناس يقولون: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان لا يؤمن بعذاب القبر، والمعنى: أي لا يصدق بذلك.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مجيبا على ذلك: «أنه لم يذكر شاهدا من كلام العرب على ما ادعاه عليهم، وإنما استدل من غير القرآن بقول الناس: فلان يؤمن بالشفاعة، وفلان يؤمن بالجنة والنار، وفلان يؤمن بعذاب القبر، وفلان لا يؤمن بذلك، ومعلوم أن هذا ليس من ألفاظ العرب قبل نزول القرآن، بل هو مما تكلم الناس به بعد عصر الصحابة، لما صار من الناس أهل البدع يكذبون بالشفاعة وعذاب القبر، ومرادهم بذلك هو مرادهم بقوله: فلان يؤمن بالجنة والنار وفلان لا يؤمن بذلك.

والقائل لذلك وإن كان تصديق القلب داخلا في مراده، فليس مراده ذلك وحده، بل مراده التصديق بالقلب واللسان، فإن مجرد تصديق القلب بدون اللسان لا يعلم حتى يخبر به عنه»[2].

ثم قال شيخ الإسلام: «من قال ذلك، فليس مراده التصديق بما يرجى ويخاف بدون خوف ولا رجاء، بل يصدق بعذاب القبر ويخافه، ويصدق بالشفاعة ويرجوها، وإلا فلو صدق بأنه يعذب في قبره ولم يكن في قلبه خوف من ذلك أصلا لم يسموه مؤمنا به، كما أنهم لا يسمون مؤمنا بالجنة والنار إلا من رجا الجنة وخاف النار»، ثم قال:

«فلا يوجد قط في كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى، ويجب حبه وتعظيمه، وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ولا يخافه ولا يرجوه، بل يجحد به ويكذب به بلسانه، أنهم يقولون: هو مؤمن، بل ولو عرفه بقلبه، وكذب به بلسانه لم يقولوا: هو مصدق به، ولو صدق به مع العمل بخلاف مقتضاه لم يقولوا هو مؤمن به».

---

(1) نفس المصدر (ص/٢٢٩).

(2) الإيمان الكبير (ص/١٠٣).

والخلاصةأنه (لا يوجد في كلام العرب شاهد واحد يدل على ما ادعوه)[1].

الثالث: حكاية الباقلاني الإجماع على دعوى الترادف.

وقد رد شيخ الإسلام رحمه الله ذلك من عدة أوجه:

١- من نقل هذا الإجماع؟ ومن أين يعلم هذا الإجماع؟ وفي أي كتاب ذكر هذا الإجماع؟

٢- أن يقال: أتعني بأهل اللغة نقلتها؛ كأبي عمرو، والأصمعي، والخليل ونحوهم، أو المتكلمين بها؟

فإن عنيت الأول: فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الإسلام بإسناد، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم، وما سمعوه في دواوين الشعر، وكلام العرب، وغير ذلك بالإسناد، ولا نعلم فيما نقلوه لفظ الإيمان، فضلا عن أن يكونوا أجمعوا عليه.

وإن عنيت المتكلمين بهذا اللفظ قبل الإسلام، فهؤلاء لم نشهدهم، ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك.

٣- أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا: الإيمان في اللغة هو التصديق، بل ولا عن بعضهم، وإن قدر أنه قاله واحد أو اثنان، فليس هذا إجماعا.

٤- أن يقال: هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا: معنى هذا اللفظ كذا وكذا، وإنما ينقلون الكلام المسموع من العرب، وأنه يفهم منه كذا وكذا، وحينئذ فلو قدر أنهم نقلوا كلاما عن العرب يفهم منه أن الإيمان هو التصديق، لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين كافة للقرآن عن النبي ﷺ، وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه أريد به معنى ولم يرده، فظن هؤلاء ذلك فيما ينقلونه عن العرب أولى.

---

[1] نفس المصدر (ص/١٠٤).

٥- أنه لو قدر أنهم قالوا هذا، فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر...، وأين التواتر الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن إنهم كانوا لا يعرفون للإيمان معنى غير التصديق[1].

الشق الثاني: نقض احتجاج المرجئة باللغة، مبني على فرض التسليم بالترادف بين الإيمان والتصديق.

وثمة أجوبة عدة ذكرها شيخ الإسلام تحت هذا الجواب:

الأول: أنه وإن قيل بأن الإيمان معناه التصديق، فإن قولهم إن التصديق لا يكون إلا بالقلب أو اللسان ممنوع، (بل الأفعال تسمى تصديقا كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ذلك ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

وكذلك قال أهل اللغة، وطوائف من السلف والخلف.

قال الجوهري: «والصديق مثال الفسيق: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل»[2].

وقال الحسن البصري: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال»)[3].

الثاني: «أنه إذا كان أصله التصديق، فهو تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص»[4].

فالإيمان تصديق مخصوص، يتناول التصديق بالقلب والقول والعمل عند أهل الحديث[5].

---

[1] الإيمان الكبير (ص/١٠٢-١٠٣).

[2] الصحاح ().

[3] الإيمان الكبير (ص/٢٣٠).

[4] نفس المصدر (ص/٢٣٢).

[5] انظر: مجموع الفتاوى (٧/٦٣٧).

فليس (هو التصديق بكل شيء، بل بشيء مخصوص، وهو ما أخبر به الرسول ﷺ، وحينئذ فيكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة، ومعلوم أن الخاص ينضم إليه قيود لا توجد في جميع العام)[١].

الثالث: «وإن كان هو التصديق، فالتصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ونقول: إن هذه اللوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه أخرى»[٢].

الرابع: أن يقال: إن اللفظ باق على معناه في اللغة، ومتروك على ما كان، ولكن الشريعة زادت فيه أحكاما، وضمت إليه شروطا و قيودا[٣].

الخامس: أن يقال: «إن الشارع استعمله في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي»[٤].

السادس: أن يقال: إنه منقول من معناه اللغوي إلى المعنى الشرعي، كالأسماء الشرعية من الصلاة والزكاة ونحوها[٥].

فكل هذه الأجوبة يكفي الواحد منها لإبطال حجة المرجئة لو سلم لهم دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق.

- وتقوية لأصلهم الباطل المبني على هذه الشبهة اللغوية من أن الإيمان هو التصديق، قالوا: إن كل من نفى الشارع إيمانه دل على أنه ليس في قلبه شيء من التصديق أصلا، وهذه هي شبهتهم الثانية.

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٠٥)، وانظر: الفصل (٢/٢١٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص/١٠١).

(٣) نفس المصدر (ص/١٠٢).

(٤) نفس المصدر (ص/١٠٢).

(٥) نفس المصدر (ص/١٠٢).

وقد بين شيخ الإسلام أن المرجئة في مسألة الإيمان غلطوا في أصلين:

«**أحدهما**: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة، ومحبة وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا...

والثاني: ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق. وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم، وإما لإرادتهم العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم فيكونون من أكفر الناس كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق»[(١)].

وقد ذكر شيخ الإسلام ثلاثة أجوبة على هذه الشبهة:

«**الأول**: أن الإيمان وإن كان أصله تصديق، فذلك التصديق لا بد أن يوجب حالا في القلب وعملا له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم..، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئا، وإنما يمنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول، أو التكبر عليه، أو الإهمال له، وإعراض القلب عنه... ومتى حصل المعارض كان وجود ذلك التصديق كعدمه، كما يكون وجود ذلك كعدمه، بل يكون ذلك المعارض موجبا لعدم المعلول الذي هو حال

(١) الإيمان الكبير (ص/١٥٢).

في القلب، وبتوسط عدمه يزول التصديق الذي هو العلة فينقلع الإيمان من القلب وهذا هو الموجب لكفر من حسد الأنبياء، أو تكبر عليه، أو كره فراق الإلف والعادة.

والثاني: أن الإيمان، وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار...

وإذا كان كذلك فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف به.

فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام، فلا يكون فيه إيمان، وهذا هو بعينه كفر إبليس، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولا ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافرا، وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف[1].

والثالث: أن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرمه عليه، واعتقاد انقياد لله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر، فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند، ولهذا قالوا: من عصى الله مستكبرا كإبليس كفر بالاتفاق، ومن عصى مشتهيا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة، وإنما

---

[1] أمثال الجهمية ومن حذا حذوهم (المحقق).

يكفره الخوارج، فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقا بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق»[1].

وهذه بعض الأوجه العقلية يرد من خلالها على هذه الشبهة للمرجئة، وهناك أدلة نقلية عقلية ذكرها شيخ الإسلام في سياق الرد على شبهتهم هذه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار، ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره، لأن الإكراه على ذلك ممتنع، فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في حال الإكراه، وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ النحل: ١٠٦، أي: لاستحبابه الدنيا على الآخرة، ومنه قول النبي ﷺ: (يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا)[2]...، فمن تكلم بدون الإكراه، لم يتكلم إلا وصدره منشرح به»[3].

وقال أيضا: «فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾، قيل: وهذا موافق لأولها، فإنه من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدرا، وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه، لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعا فقد شرح بها صدرا وهي كفر، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

---

[1] الصارم المسلول (٣/٩٦٦-٩٧٠).

[2] جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٢)، في كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

[3] الإيمان الأوسط (ص/١٠٤).

تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ التوبة: ٦٤ - ٦٦، فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام»[1].

المطلب الثاني

الرد على شبهات المرجئة في نفي التفاضل في أعمال القلوب بالزيادة والنقصان

وأما من أنكر التفاضل في أعمال القلوب، فلهم شبهات عدة كما سبق، منها:

- أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأن المعرفة القلبية أو التصديق القلبي الذي بلغ حد الجزم، لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، فإن من حصل له حقيقة المعرفة أو التصديق فسواء أتى بالطاعات وارتكب المعاصي أم لا، فمعرفته وتصديقه باق على حاله لا يتغير فيه أصلا.

وقد سبق ذكر شبهتهم في جعل الإيمان معرفة أو تصديقا، وذكرت أوجها عديدة من كلام شيخ الإسلام تكشف زيف هذه الشبهة وتبين بطلانها، ثم أيضا بينا فيما سبق أن الزيادة والنقصان في التصديق متصورة عقلا، ثابتة شرعا، واقعة عرفا، فكل مصدق بشيء يجد في نفسه تفاوتا في التصديق من وقت لآخر بحسب تعدد الأدلة وقوتها، ولعل فيما سبق كفاية إن شاء الله.

- أما عمدتهم في نفي التفاضل في الإيمان عموما وفي أعمال القلوب خصوصا فهو قولهم؛ أن الإيمان عندهم شيء واحد، لا يتبعض ولا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وبالتالي فهو لا يزيد ولا ينقص.

---

[1] الإيمان الكبير (ص/١٧٤-١٧٥).

فالجواب عليهم سيكون من ثلاثة أوجه[(١)]:

الوجه الأول: إبطال كون الإيمان شيئا واحدا، بل هو شعب وأجزاء.

فإن أهل السنة مجمعون على ما دلت عليه النصوص من أن الإيمان شعب وأجزاء، وأنه يتكون من أقوال وأعمال، باطنة وظاهرة، وهذا الذي أجمعوا عليه هو الذي يقتضي الصلة بين أجزاء الإيمان الباطنة والظاهرة.

فهذان أمران في تقرير هذا الجواب:

الأمر الأول: في تحرير مذهب أهل السنة في الإيمان.

فمما أجمع عليه السلف أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر، وأن له باطنا وظاهرا، وأنه شعب وأجزاء، وقد تقدم بسط هذه المسألة في أول هذه الرسالة[(٢)].

الأمر الثاني: في بيان الصلة بين أجزاء الإيمان الباطنة والظاهرة.

وقد بينا أن قول القلب إما أن يكون ضعيفا بحيث لا يستلزم عمل القلب، وحينئذ لا يكون هذا التصديق إيمانا، وإما يكون جازما، وحينئذ يستلزم عمل القلب لا محالة.

والإنسان مفطور على قول القلب المقتضي لعمله، ما دامت الفطرة صحيحة، والقلب سليما من المعارض المانع من عمله واستسلامه وانقياده من الشبهات والشهوات.

فإذا وجد قول القلب وعمله لزم ضرورة أن يكون له أثر في الظاهر من القول والعمل، لأن الظاهر تابع للباطن، لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، لأن إيمان

---

(١) استفدت في الرد على هذه الشبهة من كتاب: «آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام، عرض ونقد» (ص/٢٧٨-٣٢٩).

(٢) انظر التمهيد من الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة.

القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان بدون عمل ظاهر، وقد تقدم بسط هذه المسألة أيضا[1].

الجواب الثاني: إبطال دعواهم؛ إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله.

فإنهم قالوا: «إن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها، كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة، وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين إذا زال أحد جزأيه خرج عن كونه سكنجبينا.

قالوا: فإذا كان الإيمان مركبا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة»[2].

والرد عليهم من وجهين:

الوجه الأول: الأدلة الشرعية التي تدل على ذهاب بعض الإيمان وبقاء بعضه.

وقد جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ نصوص تدل على ذهاب بعض الإيمان وبقاء بعضه، من هذه النصوص:

- أن الله أخبرنا بأن الذنوب والمعاصي تذهب الإيمان شيئا فشيئا حتى يطبع على القلب ويختم عليه من كثرة الذنوب، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤.

وبهذا جاء التفسير لهذه الآية عن رسول الله ﷺ، قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك قول الله:

---

[1] انظر المبحث الأول والثاني من الفصل الثاني من الباب الأول من هذه الرسالة.

[2] الإيمان الأوسط (ص/٥٩).

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾»[1]، فلو ذهب الإيمان بالكلية لما كان للزيادة معنى، إذ قال ﷺ: «فإن زاد زادت».

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم وهو مؤمن»[2].

فالمراد بهذا الحديث نفي كمال الإيمان الواجب عمن اقترف هذه المعاصي[3]، فالحديث مع قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء: ٤٨، ومع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لم يرد نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بل كماله الواجب[4].

- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»[5].

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٣/١٣)، والترمذي في سننه (ص/٧٥٦) في كتاب التفسير، وقال: هذ حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٧٠٣)، في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، والحاكم في المستدرك (١٠٠/١)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، و وافقه الذهبي، وحسنه الألباني في التعليق الرغيب (٢٣٢٢).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٧٣)، ومسلم في صحيحه (ص/٥٤)، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان.

[3] انظر: مجموع الفتاوى (٦٥٣/١١-٦٥٤).

[4] انظر: التمهيد (٢٤٣/٩)، لابن عبد البر.

[5] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠)، في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٨)، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

فهذا الحديث يدل على أن القائلين «لا إله إلا الله» متفاوتون في إيمانهم، وأن منهم من يدخل النار بتفريطه وتقصيره في الطاعة إلا أنه لا يخلد فيها لوجود أصل الإيمان معه[1].

ففي هذه النصوص وغيرها من الآيات والأحاديث دلالة واضحة لقول أهل السنة والجماعة، أن الإيمان يتبعض ويتجزأ، وذلك أن كون ذهاب بعض الإيمان لا يعني ذهاب كله، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي ﷺ تدل أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلا، وأن الإيمان مما يتبعض ويتجزأ، ومعلوم قطعا أن كثيرا من هؤلاء المخطئين معهم مقدار ما من الإيمان بالله ورسوله إذ الكلام فيمن يكون كذلك»[2].

الوجه الثاني: الأدلة العقلية التي تدل على أنه لا يلزم من ذهاب بعض أجزاء الشيء انتفاء حقيقته.

ويكون الكلام معهم في نقطتين:

– أن الحقيقة الجامعة لأمور – سواء كان في الأعيان أو الأعراض- إذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، سواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها.

وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابق لذلك، فإن الواحد من العشرة إذا زال لم يلزم زوال التسعة، بل قد تبقى التسعة، فإذا زال أحد جزأي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر، لكن أكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة وزالت الهيئة الاجتماعية وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب، كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

---

(1) انظر: الإيمان الأوسط (ص/٦٤).

(2) مجموع الفتاوى (٤٩٢/١٢).

– أما كون ذلك المجتمع المركب ما بقي على تركيبه بعد زوال بعض أجزائه منه، فهذا لا ينازع فيه عاقل، ولا يدعي عاقل أن الإيمان أو الصلاة أو الحج أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولا يقول أحد: إن الشجرة أو الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت، ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعا، ولكن لا يلزم زوال بقية الأجزاء[1].

والإيمان المؤلف من الأقوال الواجبة والأعمال الواجبة، الباطنة والظاهرة، هو المجموع الواجب الكامل، وهذه الهيئة الاجتماعية تزول بزوال بعض الأجزاء، وهذه هي المنفية في الكتاب والسنة في مثل قوله ﷺ: «لا يزني الزاني» إلخ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ الحجرات: ١٥.

ولكن لا يلزم أن تزول سائر الأجزاء، ولا أن سائر الأجزاء الباقية لا تكون من الإيمان بعد زوال بعضه[2].

الجواب الثالث: إبطال دعواهم؛ أنه لا يجتمع في الإنسان إيمان وكفر، ولا يكون فيه بعض الإيمان وبعض الكفر.

قالوا: فإنه «يلزم (من تبعض الإيمان) أن يكون الرجل مؤمنا بما فيه من الإيمان، كافرا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، وادعوا أن هذا خلاف الإجماع"[3].

وفي نقض دعوى المرجئة عدم اجتماع الإيمان والكفر في الشخص يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة: أن

---

[1] الإيمان الأوسط (ص/٦٠-٦١).

[2] مجموع الفتاوى (١٨/٢٧٦-٢٧٧)، وانظر: الإيمان الأوسط (ص/٦٢-٦٤).

[3] الإيمان الأوسط (ص/٥٩).

الإيمان يتفاضل ويتبعض كما قال النبي ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»[١].

ويقول: «وأما أئمة السنة والجماعة فعلى إثبات التبعيض في الاسم والحكم، فيكون مع الرجل بعض الإيمان لا كله، ويثبت له من حكم أهل الإيمان وثوابهم بحسب ما معه، كما يثبت له من العقاب بحسب ما عليه»[٢].

ويقول أيضا: «يجتمع في الإنسان إيمان ونفاق، وبعض شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر»، ثم ذكر جملة من النصوص تبين ذلك[٣].

ومن هذه النصوص، قول النبي ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»[٤].

ومنها، قول النبي ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[٥].

ومنها، قول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[٦].

ومنها، قول النبي ﷺ: «من مات و لم يغز، و لم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق»[١].

---

[١] مجموع الفتاوى (٣/٣٥٥).

[٢] شرح الأصبهانية (ص/١٨٣).

[٣] الإيمان الأوسط (ص/٦٦-٧٠).

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/٥٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق.

[٥] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٦٢)، في كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة.

[٦] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٨)، في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ومسلم في صحيحه (ص/٦٨٤)، في كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل.

ومنها، قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»[٢]، وغيرها من النصوص.

ولعل مما سبق يعلم فساد شبهتهم في زعمهم أن الإيمان واحد لا يتبعض ولا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وبالتالي أنكروا تفاضله وتفاضل الناس فيه، وهذا من الباطل عقلا وشرعا، لمخالفته لنصوص الكتاب والسنة الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل الناس فيه.

- ومن أدلتهم لنفي تفاضل الإيمان بالزيادة والنقصان احتجاجهم ببعض الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ.

ومن هذه الأحاديث المنسوبة إلى النبي ﷺ حديث أبي مطيع البلخي، قال حدثنا حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة: «أن وفد ثقيف جاؤوا إلى النبي ﷺ فسألوه عن الإيمان هل يزيد وينقص؟ فقال: لا، زيادته كفر ونقصانه شرك».

هذا الحديث موضوع، فيه أبو مطيع البلخي وأبو المهزم، وكلاهما متروك، وقد حكم بوضعه الذهبي[٣] وابن الجوزي[٤] وابن حبان[٥] وابن كثير[٦] والجوزقاني[٧].

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٩٢)، في كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو.

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢١٩)، في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»، ومسلم في صحيحه (ص/٥٨)، في كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض».

[٣] ميزان الاعتدال (٥/٥٥).

[٤] الموضوعات (١/١٣١).

[٥] المجروحين (٢/١٠٣)

[٦] نقله شارح الطحاوية (٢/٥٢٣).

[٧] الأباطيل والمناكير (١/٢٢-٢٣).

وهكذا بقية الأحاديث المروية في أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص كلها باطلة مكذوبة على الرسول ﷺ ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: «وكل حديث فيه أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فكذب مختلق»[1].

والحاصل مما سبق أنه تبين لنا خطورة مذهب الإرجاء في الإيمان، وهو بدعة أدت إلى إنكار كثير من حقائق الإيمان - ومنها أعمال القلوب -، وهذا الأمر ترتب عليه مفاسد كثيرة، منها:

- أن الإيمان إذا كان هو المعرفة أو التصديق فقط، فإن الإنسان يكون مؤمنا كامل الإيمان، ولو قال ما قال وعمل ما عمل، فماذا عسى أن يقول ويعمل ولا يتصور عندهم أن يزول عن العبد الإيمان إلا إذا زال العلم أو التصديق من قلبه، ولازم هذا المذهب أن إبليس وفرعون ومن شابههم ممن عرف الله وعاند، فسب الله ورسوله مؤمن كامل الإيمان.

- ثم جعل الإيمان معرفة أو تصديقا مجردة عن أعمال القلوب أدى إلى إهمال كثير من مسائل تتعلق بهذا الأصل، وعلى رأسها؛ ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب، ولا يجعلونها لازمة له، والتحقيق إن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة.

- من المفاسد المرتبة على إهمالهم أعمال القلوب قولهم؛ أن العبد يكون كامل الإيمان، إيمانه مثل إيمان الأنبياء والصديقين، ولو لم يعمل خيرا قط، لا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا صلة، ولم يدع كبيرة إلا فعلها، وهو مع ذلك مؤمن تام الإيمان، مثل إيمان جبريل وميكائيل.

---

[1] المنار المنيف (ص/١١٣)، وانظر كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: «زيادة الإيمان ونقصانه» (ص/٣٨٤-٣٩٥)، حيث قام حفظه الله بدراسة هذه الأحاديث الموضوعة ونقدها وبين كذبها على النبي ﷺ واختلاقها عليه.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

الحمد لله أولا وآخرا على توفيقه وعونه، وعلى ما يسر من إتمام هذا البحث في «أعمال القلوب عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، جمع ودراسة»، وإني لأرجو الله أن يجعل هذا الجهد مباركا مقبولا عنده، ونكون قد وفينا هذا العالِم شيئا من حقه علينا؛ لما تعلمنا منه بالعمل بمقتضاه أولا، ونشره والدعوة إليه ثانيا، كما أسأله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه مثقلا لموازين حسناتي يوم القيامة.

وفي الختام أود أن أسجل بين يدي القارئ الكريم أهم ما توصلت إليه من النتائج، وذلك في ما يلي:

- إن من الأصول المتفق عليها عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان حقيقة مركبة من القول والعمل لا يجزئ واحد من الاثنين إلا بالآخر، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح، قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».
- وإن كان من المتقرر أن العمل من الإيمان، فإن الأعمال القلبية أهم أنواع الأعمال، لأن عليها مدار سائر الأعمال، فبدونها لا تنفع تلك الأعمال، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح.
- فلأعمال القلوب أثر على الجوارح، ولأعمال الجوارح تأثير على أعمال القلوب كذلك، وهذا هو مفهوم التلازم بينهما، وهو ارتباط الظاهر بالباطن وتأثير كل منهما في

الآخر، بحيث يستحيل وجود إيمان صحيح في الباطن من غير أن يظهر موجبه ومقتضاه على أعمال الجوارح قولا وفعلا، بل حيث وجد الإيمان في الباطن لزم أن ينفعل البدن بالممكن من أعمال الجوارح وهو الذي عبر عنه شيخ الإسلام بما مفاده أن وجود الإرادة الجازمة مع القدرة التامة يستلزم العمل، ويمنع معه ترك جميع الأعمال، وإلا لم يصح الإيمان أصلا.

- ومما يبين أهمية أعمال القلوب ومترلتها من الدين والإيمان؛ أن العبادة التي من أجلها خلق الله الخلق وأرسل الرسل تقوم على ثلاثة أعمال قلبية، هي أركانها: المحبة والخوف والرجاء، وهي محركات القلوب، فمن حقق هذه الأعمال المحبة والخوف والرجاء فقد حقق باقي الأعمال، فمن خاف الله واتقاه اتبع رضاه، ومن رجاه لم ييأس من رحمة الله فأقبل على طاعة الله، ومن أحبه لم يلتفت إلى ما سواه، لاكتفائه بمحبوبه عن غيره، ولذا قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

- وإذا كان من المتقرر أن كل إنسان حارث وهمام، فالإنسان متحرك بالإرادة، والإرادة محلها القلب، فالقلب كالملك والأعضاء جنوده، فإذا استقام القلب استقامت الجوارح والعكس بالعكس، إذا كان من المتقرر هذا فإن على المسلم أن يكون شديد العناية والرقابة لقلبه: تزكية ومجاهدة وإخلاصا وإصلاحا، لأن بصلاحها يصلح سائر الأعمال كما قال الرسول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

- إن المخالفين لأهل السنة في باب الإيمان، سواء أكانوا من المعتزلة والخوارج، أم كانوا من المرجئة لم يختلفوا على أن أعمال القلوب من الإيمان إلا ما ورد عن بعض غلاة المرجئة كجهم والصالحي ومن سار على نهجهما الذين جعلوا الإيمان مجرد التصديق والمعرفة الخالي عن الأعمال، وهذا الأمر لا يعني أن من وافق أهل السنة في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان وخالفهم في إخراج أعمال الجوارح أنهم متفقون معهم في كل شيء، لأنه

كما يقول شيخ الإسلام: «إخراج أعمال الجوارح من الإيمان يشعر على إخراج أعمال القلوب أيضا، وهذا باطل قطعا».

- إن السلوك الصحيح هو ما كان مبنيا على الفهم الصحيح لمبادئ الإسلام التي تضمنها كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وما كان مبنيا كذلك على التطبيق الصحيح لتلك المبادئ، والقدوة في ذلك كله هو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام الذين تربوا على يديه، والتابعون الذين تربوا على أيدي الصحابة، ثم كبار أئمة الدين على مرّ العصور.

وأما السلوك المبني على الأذواق والمواجيد والكشوفات فليس من الإسلام في شيء، ولا يؤدي إلى أي نتيجة في مجال إصلاح القلوب وإعمارها بالإيمان.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، والتي لها تعلق مباشر بأصل الموضوع – أعمال القلوب –، وكذلك أرى أنه لا بد أن أشير إلى بعض نقاط مهمة — والتي استفدتها من كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع خاصة والمواضيع الأخرى عامة، وهي ربما ليس لها تعلق مباشر بأصل الموضوع، ولكني رأيت أن أنبه إليها وهي:

- ثقة شيخ الإسلام رحمه الله بما عنده من الحق المبني على الكتاب والسنة وأقوال السلف بارزة في جميع ما كتب، وصدق الذهبي رحمه الله إذ قال: «ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشأم قياما لا مزيد عليه: وبدعوه، وناظروه، وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده، وحدّة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما

اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكرة وسرعة الإدراك، والخوف من الله والتعظيم لحرمات الله»[1].

- وحدة منهج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإن الناظر في مؤلفات شيخ الإسلام رحمه الله لا يجد – بحمد الله – شيئا من التناقض أو اختلاف الأقوال، ولو أن الباحث كان طالبا الحق، متجردا في بحثه، وقام بضم كلام شيخ الإسلام لبعض، لظهر له الحق في أنصع مظاهره.
- إنصاف شيخ الإسلام خصومه، وذلك باعترافه بما معهم من حق – وإن كان قليلا – وعدم تعميم الحكم بالبدعة، بل تفصيل حالهم، وهذا ظاهر لكل من قرأ كلامه كما هو شأنه مع الصوفية.

وفي الختام أحمد الله عز وجل على توفيقه لإتمام هذا البحث، وأسأل الله سبحانه وتعالى الإخلاص والقبول، وأن يجعله في موازين حسناتي، يوم لا ينفع مال ولا بنون، وأن يتجاوز عني ما وقع فيه من خطأ وزلل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

[1] العقود الدرية (ص/١٣٣).

الفهارس

- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الأعلام.
- فهرس الفرق والطوائف
- فهرس الكلمات الغريبة.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

سورة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾		
﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ ﴾	٢٤	٢٧٨، ٣٠١، 302، ٣١٩، ٨٦١
﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾	٤٠	٢١٠
﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾	٤٥	٤٩٧
﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾	٥٤	٤٨٠
﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ ﴾	٥٩	٤٧٩
﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ۝ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾	٦٤-٦٦	٩٣٩، ٢٢٩
﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾	١٠٠	٤٧٢
﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾	١٠٣	٨٧٢
﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾	١٠٤	٥٥٦، ٥٥٧
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾	١١٩	٣٨٨، ٥٨٢
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ	١٢٠	٤٥٥

الآية	رقمها	الصفحة
مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾		
﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾	١٢٤-١٢٥	٧١٥

سورة يونس

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۞ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾	٧-٨	٣٣٥، ٤٤٥
﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾	٦٢-٦٣	٢١٨، ٥٩٥
﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾	٧١	٤٢٩
﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾	٩١	٥٥٤

سورة هود

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾	١٥-١٦	٢٨٥
﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾	٣	٥٤٨
﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾	٥٢	٥٥٨
﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾	٦١	٥٥٨
﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾	٩٠	٥٥٩
﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾	١٢٣	٢٤٠، ٥١٥

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ١٠٤ ٨٦٤

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ١١٠ ٢٧٩،٢٧٨

سورة مريم

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ٤٩ ٦٣٢

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ ٦٣ ٥٩١

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ٧١-٧٢ ٥٩٠

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ٨١-٨٢ ٣٧٩

سورة طه

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ١٤ ٦٤٤

سورة الأنبياء

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ ١٩-٢٠ ٣٨٧

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ٢٥ ٢٨٠

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ٩٠ ٣٣٩

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة يس

سورة ص

سورة الزمر

سورة غافر

سورة ق

سورة الذاريات

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة الحاقة

سورة نوح

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة الإنسان

سورة النازعات

سورة الانفطار

سورة المطففين

هُمْ يُرَآءُونَ ﴾

سورة الفلق

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾	١-٥	٥٢٤

سورة الناس

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۞ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۞ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۞ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۞ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾	١-٦	٥٢٤

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس الفرق والطوائف

فهرس الكلمات الغريبة

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

١. **الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير**، للحافظ أبي عبد الله حسن بن إبراهيم الجوزقاني، تحقيق: عبد الرحمن الفريوائي، الناشر: إدارة البحوث الإسلامية والدعوة والإفتاء بالجامعة السلفية بنارس، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـــ.

٢. **الإبانة عن أصول الديانة**، تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق: محمود ابن جميل، الناشر: مكتبة الأنصار للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـــ، ٢٠٠٦ مـــ.

٣. **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، تأليف: أبي عبدالله عبيدالله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق : د. رضا بن نعسان معطي، الناشر: دار الراية – الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٥ هـــ، ١٩٩٤ مـــ (كتاب الأول- الإيمان).

٤. **أبو الفتح اليعمري، حياته وآثاره و تحقيق أجوبته (على سؤلات ابن ايبك الديماطي)**، دراسة وتحقيق: محمد الرواندي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٤١٠ هـــ، ١٩٩٠ مـــ.

٥. **إحياء علوم الدين**، تأليف: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (وبهامشه تخريج الحافظ العراقي لأحاديث الإحياء)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان، ٢٠٠٩ مـــ، وطبعة أخرى للإحياء (بذيله عوارف المعارف للسهروردي)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـــ، ١٩٩٨ مـــ.

٦. **أخبار القضاة**، تأليف: أبو بكر محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي البغدادي، الملقب بـــ وكيع، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٣٦٦هـــ، ١٩٤٧مـــ.

٧. **الإخلاص**، تأليف: الدكتور عمر سليمان الأشقر، الناشر: دار النفائس، الطبعة الخامسة ١٣١٩ هـــ، ١٩٩٩ مـــ.

٨. **الآداب الشرعية**، تأليف: أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة ١٤٢٥ هـــ،٢٠٠٥ مـــ.

٩. **أدب الدنيا والدين**، تأليف: : أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، الناشر: دار أقرأ ، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـــ، ١٩٨٥ مـــ.

١٠. **آراء المرجئة في مصنفات شيخ الإسلام، عرض و نقد**، تأليف: عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السند، الناشر: دار التوحيد للنشر، الرياض–المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـــ، ٢٠٠٧ مـــ.

١١. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي سعود)**، تأليف: أبي السعود محمد بن محمد العمادي، الناشر: دار إحياء التراث العربي.

١٢. **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، تأليف: أبي معالي الجويني، تحقيق: أسعد تميم، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.

١٣. **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٤. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تأليف: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي النمري، تصحيح وتخريج عادل مرشد، الناشر: دار الإعلام، عمان — الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

١٥. **الاستغاثة في الرد على البكري**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دراسة وتحقيق : عبد الله بن دجين السهلي، الناشر: مكتبة دار المنهاج، الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ.

١٦. **الاستقامة**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق : محمد رشاد سالم، الناشر: إدارة الثقافة النشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ، ١٩٩١م.

١٧. **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تأليف: عز الدين ابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، قدم له وقرظه: محمد عبد المنعم البري، عبد الفتاح أبو سنة، جمعة طاهر النجار، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٨. **الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعي**، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق:فريق مركزالدراسات والبحوث بمكتبة نزار الباز، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

١٩. **الإصابة في تمييز الصحابة**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.

٢٠. **إعانة الطالبين**، تأليف: أبي بكر عثمان بن محمد شطا الدمياطي البكري، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

٢١. **إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد**، لسماحة الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

٢٢. **الأعلام**، تأليف: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

٢٣. **الاعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف: أبي حفص عمر بن علي البزار، تحقيق: صلاح الدين بن علي النجار، الناشر: دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ، ١٩٧٦ م.

٢٤. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق وتخريج: أبي عبد الله مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن الجوزي، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ.

٢٥. **أعمال القلوب عند الإمام ابن القيم**، جمع ودراسة، إعداد الطالبة: وفاء بنت زيد العزيري، رسالة ماجستير غير منشورة في قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود.

٢٦. **أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم**، إعداد: سهل بن رفاع بن سهيل الروقي العتيبي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٢٧. **أعمال القلوب عند شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ.

٢٨. **أعمال القلوب وأثرها في الإيمان**، تاليف: محمد دوكوري بن محمد، رسالة دكتوراة غير منشورة في قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية.

٢٩. **إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان**، تأليف: الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي، تخريج: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة ...

٣٠. **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، (**شرح صحيح مسلم**)، تأليف: القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق: يحيى إسماعيل، الناشر: دار الوفاء، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.

٣١. **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية**، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، تحقيق: طه عبد الباقي سرور و السيد محمد عيد الشافعي، الناشر: مكتبة المعارف، ١٤٠٨ هـ، ١٩٩٨ م.

٣٢. **أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف: محمد إبراهيم الشيباني، الناشر: مكتبة ابن تيمية- الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، ١٠٨٩ م.

٣٣. **الإيمان** (الأوسط)، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: أبو يحيى محمود أبوسن، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

٣٤. **الإيمان** (الكبير)، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م.

٣٥. **الإيمان بين السلف والمتكلمين**، تأليف: الدكتور أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.

٣٦. **الإيمان، أركانه – حقيقته – نواقضه**، تأليف: الدكتور محمد نعيم ياسين، الناشر: دار الاعتماد الثقافي، بيروت – لبنان.

٣٧. **الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل، وكشف شبهات المعاصرين**، تأليف: محمد بن محمود آل خضير، الناشر: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ مـ.

(ب)

٣٨. **بدائع الفوائد**، تأليف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ.

٣٩. **البداية والنهاية**، تأليف: الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الناشر: دار هجر للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧مـ.

٤٠. **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، وضع حواشيه: خليل المنصور، الناشر: دار الكتاب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ مـ.

٤١. **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تأليف: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت – لبنان.

٤٢. **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق : موسى سليمان الدويش، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ مـ.

٤٣. **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها**، تأليف: أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة، الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة.

٤٤. **البوذية، تأريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها**، تأليف: الدكتور. عبد الله مصطفى نومسوك، الناشر:أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ مـ.

(ت)

٤٥. **تأريخ دمشق، لابن عساكر**، تحقيق:

٤٦. **التبيان في أيمان القرآن**، تأليف: شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.

٤٧. **تجريد التوحيد المفيد، وملحق به فصل بعنوان: عبادة واستعانة**، تأليف: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: أحمد بن محمد طاحون، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

٤٨. **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد – (التحرير والتنوير)**، تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور الناشر: الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤ هـ.

٤٩. **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، تأليف: أبي ريحان محمد بن أحمد البيروني، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدآباد الهند، ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٨ م.

٥٠. **التخويف من النار، والتعريف بحال دار البوار**، للحافظ أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي الدمشقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة المؤيد، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٨ م.

٥١. **تذكرة الحفاظ**، تأليف: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى، صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٥٢. **ترتيب المدارك في تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تأليف: القاضي عياض أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، الناشر: وزارة الأوقاف والشوؤن الإسلامية بالمملكة المغربية، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.

٥٣. **ترجمان شعب الإيمان**، تأليف: سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان البلقيني، دراسة وتحقيق: الدكتور سعود بن عبد العزيز الدعجان، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

٥٤. **الترغيب والترهيب**، تأليف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، حكم على آحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ.

٥٥. **التصوف الإسلامي بين الدين والفلسفة**، تأليف: د. إبراهيم هلال، الناشر: دار النهضة العربية – القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥ م.

٥٦. **التصوف بين الحق والخلق**، تاليف: محمد فهر شقفة، الناشر: الدار السلفية، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣ م.

٥٧. **التعرف لمذهب أهل التصوف**، لأبي بكر الكلاباذي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ.

٥٨. **التعريفات**، تأليف: أبي الحسين علي بن محمد بن علي الجرجاني ، ضبط: محمد باسل عيون السود، الناشر : دار الكبت العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة االثانية ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م.

٥٩. **التعريفات الاعتقادية**، تأليف: سعد بن محمد بن علي آل عبد اللطيف، الناشر: دار الوطن، الرياض-المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢ م.

٦٠. **تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن محمد الخليفة، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م.

٦١. **تفسير القرآن العظيم**، تأليف: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، بدون تحقيق، الناشر: مؤسسة الريان.

٦٢. **تقريب التهذيب**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: دار الرشيد، سورية - حلب، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.

٦٣. **التقوى، دراسة تفسيرية لغوية إحصائية**، تأليف: أحمد عبده عوض، الناشر: دار الصحابة للتراث، ١٤٠٠ هـ، ١٩٩٠ م.

٦٤. **التقوى، الغاية المنشودة والدرة المفقودة**، تأليف: أحمد فريد، الناشر: دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

٦٥. **التقوى في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين**، تأليف: محمد أديب الصالح، الناشر: دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م.

٦٦. **التكفير وضوابطه**، تأليف: أ.د. إبراهيم بن عامر الرحيلي، الناشر: دار الإمام البخاري، الدوحة- دولة قطر، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٦ م.

٦٧. **تلبيس إبليس**، تأليف: أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.

٦٨. **التمهيد لشرح كتاب التوحيد**، دروس ألقاها: معالي الوزير صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، الناشر: دار التوحيد، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

٦٩. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تألبيف: أبي عمر بن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوى ومحمد عبد الكبير البكرى، الناشر: مؤسسة القرطبة ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧ م.

٧٠. **التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: دار بن الأثير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ مـ.

٧١. **التواضع والخمول**، لابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ مـ.

٧٢. **التوبة، وظيفة العمر**، تأليف: محمد بن إبراهيم الحمد، الناشر: دار ابن خزيمة، الرياض-المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ مـ.

٧٣. **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان**، تأليف: العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق وتعليق: محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري، الناشر: دار النبلاء.

٧٤. **تهذيب اللغة**، تأليف: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٧٥. **التيجانية، دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة**، تأليف: علي بن محمد آل دخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ مـ.

٧٦. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، تأليف: سليمان بن عبد الله، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى من التحقيق الجديد ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ مـ.

٧٧. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل والشيخ: محمد الصالح العثيمين، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: دار المغني، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١مـ.

(ج)

٧٨. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن – تفسير الطبري**، تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ مـ.

٧٩. **جامع الرسائل**، لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى الخاصة بدار العطاء ١٣٢٢ هـ، ٢٠٠١ مـ.

٨٠. **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسننه وأيامه** (صحيح البخاري)، تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة االثانية ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩ مـ.

٨١. **جامع العلوم والحكم**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط و إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة السابعة ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ مـ.

٨٢. **الجامع لأحكام القرآن**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ مـ.

٨٣. **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**: تأليف: الحافظ الخطيب البغدادي، تحقيق: د.محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣مـ.

٨٤. **الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون**، جمعه ووضع فهارسه: علي بن محمد العمران ومحمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد: الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ.

٨٥. **الجامع لشعب الإيمان**، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بين الحسين البيهقي، حققه وراجه نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ مـ.

٨٦. **جامع المسائل**، تأليف: شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد عزيز شمس، الناشر: دار عالم الفوائد- مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ.

٨٧. **الجرح والتعديل**، تأليف: الحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الرازي، الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن الهند، سنة ١٣٧٢ هـ، ١٩٥٢ مـ. (ت: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان).

٨٨. **جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة**، تاليف: الدكتور أحمد بن عبد الله الغنيمان، رسالة دكتوراة في قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية، (وقد نشرها عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية مؤخرا).

٨٩. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق وتعليق: علي بن حسن بن ناصر، عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩ مـ.

(ح)

٩٠. **حقيقة الولاء والبراء في الكتاب والسنة**، تأليف: د. عصام بن عبد الله السناني، الناشر: مكتبة الإمام الذهبي، الطبعة الأولى١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ مـ.

٩١. **حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب السنة**، تأليف: الدكتور محمد بن خليفة التميمي، الناشر:أضواء السلف – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

٩٢. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، تأليف: أحمد بن عبد الله الأصبهاني، أبو نعيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٨ م.

٩٣. **الحياء في حياة المسلم**، تأليف: عبد الرحمن بن فؤاد الجار الله، الناشر.

(خ)

٩٤. **خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ.

٩٥. **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، تأليف: محمد أمين بن فضل الله المحبي، الناشر: مكتبة خياط، بيروت – لبنان.

٩٦. **الخوف والرجاء في القرآن الكريم، دراسة تحليلية**، إعداد: عبد الله أسود خلف الجوالي، النأشر: دار الزمان، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م.

(د)

٩٧. **الداء والدواء**، تأليف: شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي وزائد بن أحمد النشيري، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.

٩٨. **الدر النضيد على أبواب التوحيد**، تأليف: سليمان بن عبد الرحمن الحمدان، اعتنى به: عبد الإله بن عثمان الشايع، الناشر: دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م.

٩٩. **الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي**، تأليف: جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي الدمشقي الصالحي المعروف بـابن المبرد، إعداد: رضوان مختار بن غربية، الناشر: دار المجتمع – جدة، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.

١٠٠. **درء تعارض العقل والنقل**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق : محمد رشاد سالم، الناشر: إدارة الثقافة النشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ، ١٩٩١م.

١٠١. **درء الفتنة عن أهل السنة**، تأليف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.

١٠٢. **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، مجموعة رسائل ومسائل علماء نجد الأعلام، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، الطبعة السابعة ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٠٣. **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني، تصحيح: سالم الكرنكوي الالماني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

١٠٤. **دعوة التوحيد، أهميتها، والأدوار التي مر بها، ومشاهير دعاتها**، تأليف: الدكتور محمد بن خليل هراس، الناشر: دار الشريعة القاهرية – جمهروية مصر العربية، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٠٥. **دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف: عثمان بن محمد الأخضر شوسان، الناشر: مؤسسة الوقف الإسلامي ١٤٢٤.

١٠٦. **دليل الطالب لنيل المطالب**، تأليف: مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤هـ، ٢٠٠٤م.

(ذ)

١٠٧. **الذكر الجماعي بين الاتباع والابتداع**، تأليف: محمد بن عبد الرحمن الخميس، الناشر: دار الهدي النبوي ودار الفضيلة، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٠٨. **ذكر الله تعالى بين الاتباع والابتداع**، تأليف عبد الرحمن محمود خليفة، الناشر: دار الطيبة الخضراء، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

١٠٩. **ذيل طبقات الحنابلة**، تأليف الحافظ عبد الرحمن بن احمد بن رجب، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٥م.

(ر)

١١٠. **الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنف في آداب الطريق**، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.

١١١. **الرد الوافر على من زعم بأن من سمى شيخ الإسلام ابن تيمية شيخ الإسلام كافر**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ، ١٩٩٢ م.

١١٢. **الرسالة القشيرية**، تأليف: أبي القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق: هاني الحاج، الناشر: المكتبة التوقيفية، بدون.

١١٣. **الرعاية لحقوق الله**، تأليف: أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطلعة الرابعة.

١١٤. **الروح – في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء،** تأليف: أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق: صالح أحمد الشامي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـــ، ٢٠٠٣ مـــ.

١١٥. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،** تأليف: أبي الفضل محمود الآلوسي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت — لبنان.

١١٦. **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء،** تأليف: الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي، الناشر: دار القاسم، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـــ، ٢٠٠٤ مـــ.

١١٧. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين،** تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، الناشر: دار النبلاء، بيروت – لبنان.

١١٨. **روضة الناظر وجنة المناظر،** تأليف: موفق الدين أي محمد عبد الله بن قدامة، تحقيق: الدكتور محمود حامد عثمان، الناشر: دار الزاحم.

١١٩. **رياض الجنة بتخريج أصول السنة،** تأليف: أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن أبي زمنين)، تحقيق وتخريج: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـــ.

١٢٠. **رياض الصالحين،** تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـــ، ١٩٧٩ مـــ.

١٢١. **الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، ت**أليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: الرئاسة العامة لإدارت البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض- المملكة العربية السعودية.

(ز)

١٢٢. **زاد المهاجر، الرسالة التبوكية،** تأليف: أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم صادق، الناشر: دار الحديث – القاهرة.

١٢٣. **الزهد،** تأليف: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـــ، ١٩٨٣ مـــ.

١٢٤. **زيادة الإيمان ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه،** تأليف: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: كنوز إشبيليا، الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـــ، ٢٠٠٦ مـــ.

(س)

١٢٥. **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.

١٢٦. **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ.

١٢٧. **سلسلة شرح الرسائل**، لمعالي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، اعتنى بإخراجه وأشرف على طبعه: عبد السلام بن عبد الله السليمان، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م.

١٢٨. **السنة**، تأليف أبي بكر أحمد بن محمد ابن هارون بن يزيد الخلال، تحقيق: الدكتور: عطية بن عتيق الزهراني، الناشر: دار الراية، الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ، ١٩٩٤ م.

١٢٩. **السنة**، تأليف: الإمام أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن محمد البصيري، الناشر: دار العاصمة – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

١٣٠. **سنن ابن ماجه**، تأليف: أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني– ابن ماجه، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

١٣١. **سنن أبي داود**، تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٧م.

١٣٢. **سنن الترمذي – الجامع المختصر من السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، المعروف بجامع الترمذي**، تأليف: الإمام محمد بن عيسى الترمذي، اعتنى به مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

١٣٣. **سنن النسائي**، تأليف: أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، حكم على أحاديثه وعلق عليه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى.

١٣٤. **سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي**، تحقيق: فريق مكتب تحقيق التراث الإسلامي، الناشر: دار المعرفة، بيروت – لبنان،

١٣٥. **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، تأليف: تقي الدين، أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي بدار الآفاق الجديدة، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ مـ.

١٣٦. **سير أعلام النبلاء**، تأليف شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط وجمع من المحققين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة الحادية عشرة ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ مـ.

(ش)

١٣٧. **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**، تأليف: عز الدين بن عبد السلام، تحقيق: حسين بن عكاشة، الناشر: دار ماجد عسيري، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ مـ.

١٣٨. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تأليف: ابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، الناشر دار بن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ مـ.

١٣٩. **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم**، تأليف: أبي القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد الغامدي، الناشر: دار طيبة، الطبعة الثامنة ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٣ مـ.

١٤٠. **شرح ثلاثة أصول**، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن العثيمين، إعداد فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر، الطبعة الثانية ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ مـ.

١٤١. **شرح رياض الصالحين**، لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الناشر: مدار الوطن للنشر، الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ.

١٤٢. **شرح السنة**، تأليف: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣مـ.

١٤٣. **شرح الطحاوية في العقيدة السلفية**، تأليف: صدر الدين علي بن علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق: الدكتور عبد المحسن التركي و شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٥ مـ.

١٤٤. **شرح العقيدة الأصفهانية**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: إبراهيم سعيداي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ مـ.

١٤٥. **شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية**، تأليف: محمد خليل هراس، ضبط نصه وخرج أحاديثه: علوي بن عبد القادر السقاف، الناشر : دار الهجرة للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ مـ.

١٤٦. **شرح العقيدة الواسطية**، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، إعداد: فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هــ، ١٩٩٨ مــ.

١٤٧. **شرح العمدة**، تأليف: شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: سعود صالح العطيشان، الناشر: مكتبة العبيكان.

١٤٨. **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الناشر: مكتبة الرشد.

١٤٩. **شرح نواقض الإسلام**، لمعالي الشيخ: صالح بن فوزان الفوزان، إشراف: محمد بن فهد الحصين، الطبعة الخامسة ١٤٢٨ هــ، ٢٠٠٧ مــ.

١٥٠. **الشرح والإبانة** (الإبانة الصغري)، لأبي عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري، تحقيق ودراسة: د. رضا بن نعسان معطي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هــ، ٢٠٠٢ مــ.

١٥١. **الشعر والشعراء**، تأليف: أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: دار المعرف – القاهرة، ١٩٦٦مــ.

١٥٢. **الشكر لله عز وحل، تأليف: عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي، المعروف بــ ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤١٣ هــ، ١٩٩٣ مــ.**

١٥٣. **الشهادتان، معناهما وما يستلزم كل منهما**، تأليف: عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين، الناشر: دار طيبة – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠ هــ، ١٩٩٠ مــ.

(ص)

١٥٤. **الصارم المسلول على شاتم الرسول**ﷺ، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق: محمد بن عبد الله بن عمر الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري، الناشر: دار المعالي، الطبعة الثانية ١٤٢٨ هــ، ٢٠٠٧ مــ.

١٥٥. **الصبر في ضوء الكتاب والسنة**، تأليف: أسماء عمر حسن فدعق، هذه دراسة نالت بها الكاتبة درجة الماجستير من جامعة أم القرى مكة المكرمة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، سنة ١٣٨٩ هــ، ١٩٧٨ مــ.

١٥٦. **الصبر في القرآن، مفتاح الفرج وعدة الفلاح**، تأليف أ.د سيد محمد ساداتي الشنقيطي، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هــ، ٢٠٠٨ مــ.

١٥٧. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تأليف: إساعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هــ، ١٩٩٩ مــ.

١٥٨. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تأليف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ – ١٩٩٣

١٥٩. **صحيح مسلم**، تأليف: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، الناشر: بيت الأفكار الدولية، الرياض – المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هــ، ١٩٩٨ مــ.

١٦٠. **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة لثالثة ١٤٠٨ هــ، ١٩٨٨ مــ.

١٦١. **الصدق في القرآن الكريم، دراسة موضوعية**، تأليف: مذكر محمد عارف، الناشر: مكتبة الرشد –الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هــ، ١٩٩٨ مــ.

١٦٢. **صفة الصفوة**، تأليف: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الخزي، تحقيق: مود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هــ، ١٩٧٩مــ.

١٦٣. **صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم من التكبير إلى التسليم كأنك تراها**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرياض.

١٦٤. **الصفدية**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق : د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار الهدي النبوي – مصر، دار الفضيلة – السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢١ هــ، ٢٠٠٠ مــ.

١٦٥. **الصلاة، وحكم تاركها**، تأليف: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي الحنبلي، بعناية بسام عبد الوهاب الجامي، الناشر: مكتبة الجفان والجابي، الطبعة الثانية ١٤١٩ هــ، ١٩٩٧ مــ.

(ط)

١٦٦. **طب القلوب لشيخ الإسلام الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية**، إعداد: الدكتور عجيل جاسم النشمي، الناشر: دار الدعوة للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٢ هــ، ١٩٩٢ مــ.

١٦٧. **طبقات الحفاظ**، تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هــ، ١٩٨٣ مــ.

١٦٨. **طبقات الحنابلة**، تأليف: القاضي أبي الحسين ابن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة – المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هــ ١٩٩٩ مــ.

١٦٩. **طبقات الشافعية الكبرى** ، تأليف: تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق : محمود محمد الطناحي و عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ.

١٧٠. **طبقات علماء الحديث،** تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصاحي، تحقيق: أكرم البوشي وإبراهيم الزيبق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ، ١٩٩٦ م.

١٧١. **الطبقات الكبرى (طبقات ابن سعد)،** تأليف: أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.

١٧٢. **الطبقات الكبرى للشعراني المسمى بـ «لواقح الأنوار في طبقات الأخيار»،** تأليف: عبد الوهاب الشعراني، طبع بالمطبعة العامرة الشرقية، سنة ١٤٢٥ هـ.

١٧٣. **طبقات المفسرين،** تأليف: أحمد بن محمد الأدنروي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م.

١٧٤. **طريق الهجرتين وباب السعادتين،** تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤م.

(ع)

١٧٥. **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي،** تأليف: تأليف: أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، إعداد: هشام سمير البخاري، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.

١٧٦. **العبر في خبر من غبر، تأليف:** تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م.

١٧٧. **العبودية،** تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، الناشر: دار المغني، الطبعة الرابعة ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٧٨. **عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم،** تأليف: الدكتور عبد الرحمن بن محمد البرادعي، الناشر: دار طيبة الخضراء، مكة الكرمة، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

١٧٩. **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين،** تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.

١٨٠. **العزلة**، تأليف: أبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، تحقيق: ياسين محمد السواس، الناشر: دار ابن كثير، بيروت – لبنان، الطبعة الثالنية ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م.

١٨١. **العقيدة الاصبهانية**، تأليف:أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: إبراهيم سعيداي، الناشر: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

١٨٢. **عقيدة السلف أصحاب الحديث**، تأليف: أبي إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني، دراسة وتحقيق: د. ناصر بن عبد الرحمن بم محمد الجديع، الناشر: الدار العاصمة، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.

١٨٣. **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، تأليف: الإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكاتب العربي.

١٨٤. **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، تأليف: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني الحنفي، ضبط وتصحيح: عبد الله محمود محمد عمر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.

(غ)

١٨٥. **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠ م.

١٨٦. **غريب الحديث**، تأليف: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق: د.عبدالمعطي أمين قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥ م.

١٨٧. **غريب الحديث**، تأليف: أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: حسين محمد شرف وعبد السلام محمد هارون/ الناشر: الهيئة العامة لشوؤن المطابع الأميرية – القاهرة، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤.

(ف)

١٨٨. **الفتاوى الكبرى**، تأليف: تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا – مصطفى عبدالقادر عطا ؛ دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.

١٨٩. **فتاوى السبكي في فروع الفقه الشافعي**، تأليف: تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، اعتنى به: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٩٠. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تعليق الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: دار المعرفة، بيروت — لبنان، ١٣٧٩ هـ.

١٩١. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تأليف: زين الدين أبي الفرج ابن رجب الحنبلي، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية – الدمام، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

١٩٢. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: سعيد محمد اللحام، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م.

١٩٣. **الفتوحات الربانية على الأذكار النووية**، تأليف: محمد بن علي بن محمد بن علان البكري الصديقي الشافعي، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٤ م.

١٩٤. **الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية**، تأليف: محي الدين بن علي بن محمد الطائي الحاتمي ابن عرب، الناشر: دار صادر، بيروت – لبنان.

١٩٥. **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم**، تأليف: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠م.

١٩٦. **فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، وبيان موقف الإسلام منها**، تأليف: غالب بن علي عواجي، الناشر: المكتبة العصرية الذهبي، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

١٩٧. **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق وتخريج: الدكتور عبد الرحمن بن عبد الكريم اليحيى، الناشر: دار الفضيلة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.

١٩٨. **الفرقان بين الحق والباطل**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق وتخريج: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م.

١٩٩. **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، تأليف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م.

٢٠٠. **فضل علم السلف على علم الخلف**، تأليف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، تحقيق وتعليق: أبو القاسم عبد العظيم، الناشر: دار القبس، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ، ٢٠٠٩م.

٢٠١. **فقه الأدعية والأذكار**، تأليف: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢٠٢. **الفوائد**، تأليف: شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد الرياض– المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ.

٢٠٣. **فوائد قرآنية**، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩، والطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤ مـ.

٢٠٤. **الفيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير**، تأليف: محمد بن عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: أحمد عبد السلام، الناشر: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ مـ.

(ق)

٢٠٥. **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: الشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر : مكتبة الفرقان، عجمان، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ مـ.

٢٠٦. **قاعدة في الصبر**، تأليف: شيخ الإسلام ومفتي الأنام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن خليفة التميمي، مطبوعة في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١١٦).

٢٠٧. **قاعدة في المحبة**، تأليف: شيخ الإسلام ومفتي الأنام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ مـ.

٢٠٨. **القاموس المحيط**، تأليف: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧مـ.

٢٠٩. **القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه**، تأليف: عبد الرحمن بن صالح المحمود، الناشر: دار الوطن، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ مـ.

٢١٠. **القلوب وآفاقها**، تأليف: صلاح الدين علي عبد الموجود، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ.

٢١١. **قواطع الأدلة في أصول الفقه**، تأليف: أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني الشافعي، تحقيق: عبد الله بن حافظ بن أحمد الحكمي، الناشر: مكتبة التوبة - رياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ مـ.

٢١٢. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، تأليف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، تحقيق: محمود بن التلاميد الشنقيطي، الناشر: دار المعارف بيروت - لبنان

٢١٣. **قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة**، تأليف: عادل بن محمد بن علي الشيخاني، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ مـ.

٢١٤. **قواعد ومسائل في توحيد الإلهية**، إعداد: عبد العزيز بن ريس الريس، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ مـ.

٢١٥. **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد،** تأليف: أبي طالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي، راجعه: سعيد نسيب مكارم، الناشر: دار صادر، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧ مـــ.

٢١٦. **القول السديد شرح كتاب التوحيد،** تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، الناشر: دار القبس، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـــ، ٢٠٠٥ مـــ.

٢١٧. **القول المفيد على كتاب التوحيد،** لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـــ، ١٩٩٨ مـــ.

(ك)

٢١٨. **الكافية الشافية في انتصار الفرقة الناجية،** تأليف: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية المتن مجردا من التعليقات، إشراف: بكر بن عبد الله أبي زيد، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـــ.

٢١٩. **الكبائر،** تأليف: الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تعليق وتخريج: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: مكتبة الفرقان، الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـــ، ٢٠٠٣ مـــ.

٢٢٠. **كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة وأصول الاعتقاد،** تأليف: إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني، تحقيق: أسعد تميم، الناشر: مرسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـــ، ١٩٨٥ مـــ.

٢٢١. **كتاب الإيمان،** تأليف: الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق و تخريج محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـــ، ٢٠٠٠ هـــ.

٢٢٢. **كتاب الإيمان،** تأليف: الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق و تخريج محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـــ، ٢٠٠١ هـــ.

٢٢٣. **كتاب الإيمان،** للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أ.د. علي بن محمد بن ناصر الفقهي، الناشر: دار الفضيلة – الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٢١ هـــ.

٢٢٤. **كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل،** تأليف: القاضي أبي بكر محمد بن الطيب البافلاني، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـــ، ١٩٨٧ مـــ.

٢٢٥. **كتاب التمهيد لقواعد التوحيد،** تأليف: أبي المعين النسفي، تحقيق: حبيب الله حسن أحمد، الناشر: دار الطباعة المحمدية – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـــ، ١٩٨٦ مـــ.

٢٢٦. **كتاب التوحيد**، تأليف: أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، تحقيق بكر طوبال اوغلي – محمد آروشي، الناشر: دار صادر – بيروت، مكتبة الإرشاد – استانبول.

٢٢٧. **كتاب السنة**، تأليف: عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: محمد بن سعيد القحطاني، الناشر: دار ابن القيم، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.

٢٢٨. **كتاب السنة**، لأبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة بقلم محمد بن ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨م.

٢٢٩. **كتاب الشريعة**، للإمام أبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، تحقيق: مكتب التحقيق في مؤسسة الريان، الناشر: جمعية إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.

٢٣٠. **كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم**، تأليف: القاضي عياض أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، قدم له وخرج أحاديثه: كمال بسيوني زغلول المصري، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م.

٢٣١. **كتاب النبوات**، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: الدكتور عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م.

٢٣٢. **كتاب المنهاج في شعب الإيمان**، تأليف: أبو عبد الله الحسين بن حسن الحليمي، تحقيق: حلمي محمد فوده، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.

٢٣٣. **كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، تأليف: عبد الوهاب الشعراني، طبع بمطبعة عباس بن عبد السلام بن شقرون، الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ.

٢٣٤. **كتب ورسائل (الشيخ) عبد المحسن بن حمد العباد البدر**، الناشر: دار التوحيد للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ.

٢٣٥. **كشف القناع عن حكم الوجد والسماع**، تأليف: أحمد بن عمر إبراهيم القرطبي، تحقيق: عبد الله بن محمد بن أحمد الطريقي، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.

٢٣٦. **كشف القناع عن متن الإقناع**، تأليف: منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م.

٢٣٧. **كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس**، تأليف: العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، الناشر: دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ.

٢٣٨. **الكلام على مسألة السماع**، تأليف: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: راشد بن عبد العزيز الحمد، الناشر: دار العاصمة - رياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.

٢٣٩. **الكلم الطيب**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: لمكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م.

٢٤٠. **الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة**، تأليف: عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، حققه وعلق عليه: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة – مصر، الطبعة الثانية ١٤٢٥ هـ.

٢٤١. **الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثاني ١٤١٩ هـ،١٩٩٨ م.

(ل)

٢٤٢. **لسان العرب**، تأليف: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الناشر: دار صادر بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م.

٢٤٣. **لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد**، تأليف: موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، شرح الشيخ: محمد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الطبعة لثالثة ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.

٢٤٤. **اللمع في التصوف**: تأليف: أبو نضر السراج محمد بن يحيى الطوسي، الناشر: شركة القدس للنشر والنوزيع – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م.

٢٤٥. **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، تأليف: محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م.

٢٤٦. **لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات**، تأليف: فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، تحقيق: طه عبد الروؤف سعد، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

(م)

٢٤٧. **الماتريدية – دراسة وتقويما**، تأليف: أحمد بن عوض الله الحربي، الناشر: دار الصميعي، الطبعة الثانية ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ م.

٢٤٨. **مباحث المفاضلة في العقيدة**، تأليف: الدكتور محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي، الناشر: دار ابن القيم ودار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٣ م.

٢٤٩. **المجروحين من المحديثين والضعفاء والمتروكين**، تأليف: محمد بن حبان البستي، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار المعرفة، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـــ، ١٩٩٢ مـــ.

٢٥٠. **المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**، تأليف: كاملة الكواري، الناشر: دار ابن حزم – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـــ، ٢٠٠٢ مـــ.

٢٥١. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تأيف: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، الناشر : دار الفكر – بيروت، ١٤١٤ هـــ، ١٩٩٤ مـــ.

٢٥٢. **مجموعة الرسائل والمسائل**، تأليف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا، الناشر: لجنة التراث العربي.

٢٥٣. **مجموع الفتاوى**، تأليف: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة المنورة، تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية عام ١٤٢٥ هـــ، ٢٠٠٤ مـــ.

٢٥٤. **المجموع شرح المهذب للشيرازي**، تأليف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، الناشر: مكتبة الإرشاد، جدة – المملكة العربية السعودية.

٢٥٥. **محاسن المجالس**، تأليف: أبي العباس أحمد بن محمد بن العريف، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية بجامعة طوكيو — اليابان.

٢٥٦. **محبة الله ورسوله ﷺ شرط في الإيمان**، تأليف: صالح أحمد الشامي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـــ، ٢٠٠٣ مـــ.

٢٥٧. **المحلى شرح المجلى**، تأليف:أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الظاهري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـــ، ١٩٩٩ مـــ.

٢٥٨. **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** لابن قيم الجوزية، اختصار: محمد بن الموصلي، تحقيق: الحسن بن عبد الرحن العلوي، الناشر: أضواء السلف، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـــ، ٢٠٠٤ مـــ.

٢٥٩. **مختصر طبقات الحنابلة**، لمحمد جميل بن عمر المعروف بالشطي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـــ.

٢٦٠. **مختصر الفتاوى المصرية لشيخ الإسلام ابن تيمية**، اختصره: بدر الدين محمد بن علي الحنبلي، تحقيق عبد المجيد سليم، الناشر: دار الجيل، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـــ، ١٩٨٧ مـــ.

٢٦١. **مختصر منهاج القاصدين**، تأليف: أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، تحقيق: محسن عبد الغني البلتاجي، الناشر: مؤسسة أم القرى، ١٤٢٥ هـــ، ٢٠٠٤ مـــ.

٢٦٢. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تأليف: شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

٢٦٣. **مسألة الإيمان، دراسة تأصيلية**، تأليف: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، الناشر: دار المسلم، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ مـ.

٢٦٤. **المسامرة شرح المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة**، تأليف: كمال الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف، ومعه (**الحاشية على المسايرة – تأليف: زين الدين القاسم بن قطلوبغا المصري الحنفي**)، وضع حاوشيه وخرج آياتها وأحاديثها: محمد عمر الدمياطي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ مـ.

٢٦٥. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تأليف: شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، تحقيق: حمزة أحمد عباس: إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٤ مـ.

٢٦٦. **المستدرك على الصحيحين**، تأليف: محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، و بهامشه: كتاب تلخيص المستدرك، والمستدرك على التلخيص، تحقيق و تخريج: الدكتور محمود مطرجي الناشر: دار الفكر، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠٢ مـ.

٢٦٧. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تأليف: أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ مـ.

٢٦٨. **مسند الدارمي** (المعروف بسنن الدارمي) تأليف: أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم الداراني، الناشر: دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠ مـ.

٢٦٩. **مشاهير علماء نجد وغيرهم**، تأليف: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، بإشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ.

٢٧٠. **مشكاة المصابيح**، تأليف: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ مـ.

٢٧١. **المصادر العامة للتلقي عن الصوفية، عرضا ونقدا**، تأليف: صادق سليم صادق، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ مـ.

٢٧٢. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، تأليف: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، اعتنى به: عادل مرشد.

٢٧٣. **مصنف ابن أبي شيبة**، تأليف: أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: شركة دار القبلة – مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ مـ.

٢٧٤. **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، تأليف:حافظ بن أحمد الحكمي، ضبط نصه وعلق عليه عمر محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الدمام- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ،١٩٩٥م.

٢٧٥. **معالم التنزيل** (تفسير البغوي) تاليف: محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة ، الرياض، الطبعة الاولى ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩ م.

٢٧٦. **معالم السنن**، تأليف: الإمام سليمان بن حمد بن محمد الخطابي البستي، طبعه وصححه: محمد راغب الطباخ في مطبعته العلمية بحلب، الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ، ١٩٣٢ م.

٢٧٧. **معاني القرآن**، تأليف: أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، قدم له وعلق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٢م.

٢٧٨. **معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات**، تأليف: محمد بن خليفة التميمي، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩ م.

٢٧٩. **معجم اصطلاحات الصوفية**، تأليف: عبد الرزاق القاشاني (الكاشاني)، تحيق: عبد العال شاهين، الناشر: دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ مت.

٢٨٠. **المعجم الأوسط**، تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة ، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.

٢٨١. **معجم البلدان**، تأليف: أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر: دار صادر — بيروت، ١٣٩٧ هـ، ١٩٧٧ م.

٢٨٢. **المعجم الكبير**، تأليف: أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية ، القاهرة، الطبعة الثانية.

٢٨٣. **المعجم الوسيط**، تأليف: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

٢٨٤. **معجم مقاييس اللغة**، تأليف: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، اعتنى به: الدكتور محمد عوض مرعب و الآنسة فاطمة محمد أصلان، الناشر: دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

٢٨٥. **معجم المؤلفين**، تأليف: عمر رضا كحالة، الناشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان – بيروت.

٢٨٦. **معرفة القراء الكبار**، تأليف: شمس الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثماني الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرناؤوط وصالح مهدي عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـــ.

٢٨٧. **مفاتيح الغيب**، (التفسير الكبير) تأليف: فخر الدين محمد بن عمر الرازي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـــ، ٢٠٠٠مـــ.

٢٨٨. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، تأليف: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عصام الدين سيد الصباطي، بدون.

٢٨٩. **مفردات غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي: دار المعرفة، دمشق- سورية، الطبعة الرابعة ١٤٣٠ هـــ، ٢٠٠٩ مـــ.

٢٩٠. **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، تأليف: أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: محيي الدين متو، يوسف بديوي، أحمد السيد، محمود بزال، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـــ، ١٩٩٦ مـــ.

٢٩١. **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تأليف: أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، قدم له وكتب حواشيه: الأستاذ نعيم زرزُور، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـــ، ٢٠٠٥ مـــ.

٢٩٢. **مقدمة ابن خلدون** (وهي الجزء الأول من تأريخ ابن خلدون)، تأليف: ولي الدين عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: خليل شهادة، الناشر: دار الفكر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـــ، ٢٠٠١ مـــ.

٢٩٣. **الملل والنحل**، تأليف: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، اعتنى به وعلق عليه: ألو عبد الله السعيد المندوه، الناشر: دار الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـــ، ١٩٩٤ مـــ.

٢٩٤. **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تأليف: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: يحيى عبد الله الثمالي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العالم الفوائد، الطبعة الأولة ١٤٢٨ هـــ.

٢٩٥. **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**، لابي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعلي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي مصر، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـــ، ١٩٧٩ مـــ.

٢٩٦. **منتهى الآمال في شرح حديث إنما الأعمال**، تأليف: جلال الدين السيوطي، تحقيق وتعليق: أبو عبد الرحمن محمد عطية، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـــ، ١٩٩٨ مـــ.

٢٩٧. **مِنح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر**، تأليف: علي بن سلطان محمد القارئ، ومعه التعليق الميسر على شرح الفقه الأكبر لوهبي سليمان غاوجي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبينان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.

٢٩٨. **منزلة العمل من الإيمان عند أهل السنة**، تأليف: صالح بن محمد العقيل، مطبوع ضمن مجلة البحوث الإسلامية، (العدد/٧٨)، تصدر عن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

٢٩٩. **منهاج السنة النبوية**، تأليف: الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق : محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة القرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م.

٣٠٠. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، تأليف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الناشر:دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ.

٣٠١. **منهاج القاصدين ومفيد الصادقين**، تأليف: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: كامل محمد الخراط، الناشر: دار التوفيق، دمشق - سورية، الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ، ٢٠١٠ م.

٣٠٢. **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، تأليف: يوسف ابن تغري بردي الاتابكى، تحقيق: محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ م.

٣٠٣. **الموسوعة الفقهية**، إصدار: وزارة الأوقاف والشيءون الإسلامية بالكويت، طباعة ذات السلاسل - الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٣ م.

٣٠٤. **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، تأليف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية، الطبعة الرابعة ١٤٢٠ هـ.

٣٠٥. **الموضوعات**، لابي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، الناشر: المكتبة السلفية، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ، ١٩٦٦م.

٣٠٦. **الموطأ**، لإمام دار الهجرة مالك بن أنس، رواية أبي مصعب الزهري المدني، تحقيق وتعليق: الدكتور بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٣١٨ هـ، ١٩٩٨ م.

٣٠٧. **موقف ابن تيمية من الصوفية**، تأليف: د. محمد بن عبد الرحمن العريفي، الناشر: مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ.

٣٠٨. **موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية**، تأليف: الدكتور؛ أحمد بن محمد بناني، الناشر: دار الطيبة الخضراء، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥ م.

٣٠٩. **ميزان الاعتدال في نقد الرجال،** تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد معوض، عادل عبد الموجود، عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ مـ.

(ن)

٣١٠. **النكت والعيون** (تفسير الماوردى) ، تأليف: : أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان.

٣١١. **نواقض الإيمان الاعتقادية، وضوابط التكفير عند السلف،** إعداد: د.محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ مـ.

٣١٢. **نواقض الإيمان القولية والعملية،** تأليف: د. عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، الناشر: مدار الوطن للنشر، الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ.

٣١٣. **النهاية في غريب الحديث والأثر،** تأليف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزازي ومحمود محمد الطناحي، نشر إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

٣١٤. **النيات في العبادات،** تأليف: الدكتور عمر سليمان الأشقر، الناشر: دار النفائس، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ مـ.

(هـ)

٣١٥. **هذه هي الصوفية،** تأليف: عبد الرحمن الوكيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ مـ.

(و)

٣١٦. **الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، ت**أليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن حسن قائد، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية ١٤٢٧ هـ.

٣١٧. **الواضح في أصول الفقه،** تأليف: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ مـ.

٣١٨. **الوافي بالوفيات،** تأليف: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٣١٩. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،** تأليف: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت — لبنان.

فهرس الموضوعات